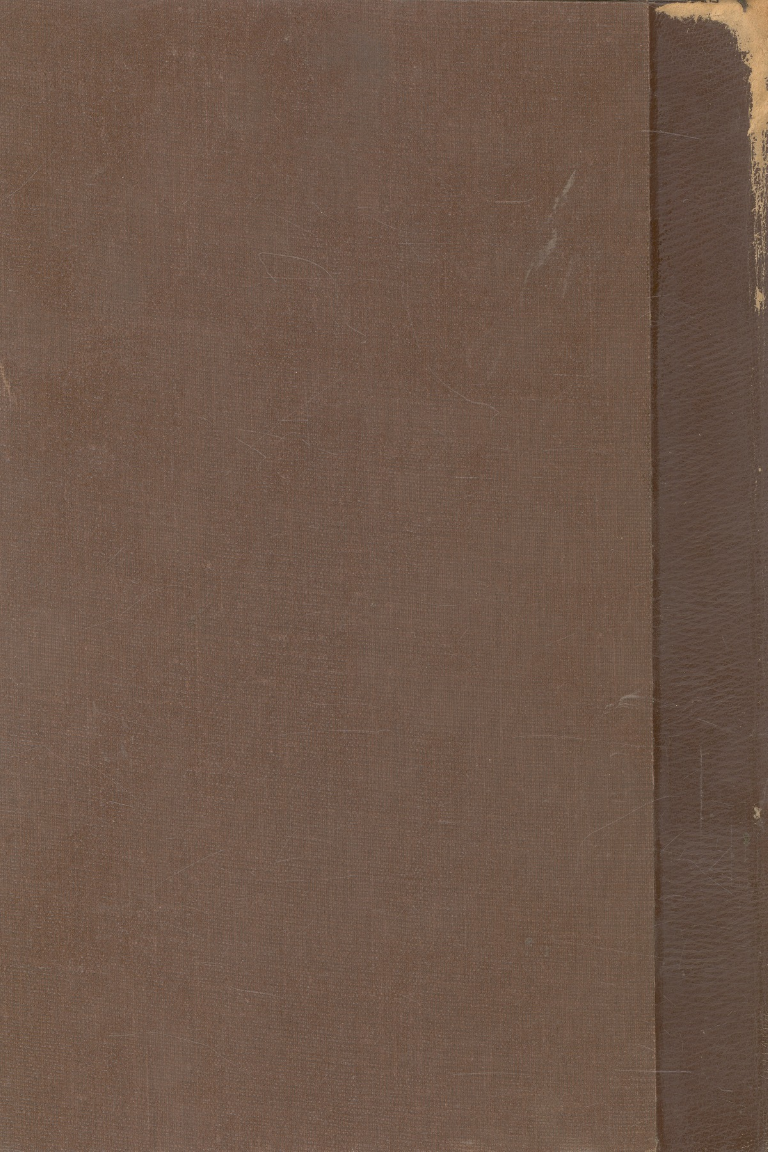


تراثنا



في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى

٦٧٧ - ٧٣٣ هـ

السفر الثالث

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب
مع استدراكات وفهارس جامعة

وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف المربوطى بالظاهر – ٩٠١١٨

القاهرة



السّفر الثالث

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

للنـــويرى

القسم الثانى من الفن الثانى

في الأمثال المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب وأخبار الكهنة، والزجر، والفأل، والطيرة، والفراسة والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجى، والألغاز وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الباب الثاني :

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر – ٩٠١١٨

القاهرة

الباب الثالث :

الباب الرابع :

الباب الخامس :

القسم الثالث من الفن الثانى

في المدح، والهجو، والمجون، والفكاهات، والملح، والخمر، والمعاقرة والندمان، والقيان، ووصف آلات الطرب

وفيه خمسة أبواب

الباب الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثانى من الفن الثانى

فى الأمثال المشهورة

(١)

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم، والمشهور من أمثال العرب، وأوابد العرب، وأخبار الكهنة، والزجر، والفأل، والطيرة، والفراسة، والذكاء، والكنايات، والتعريض، والأحاجى، والألغاز؛ وفيه خمسة أبواب.

٥

الباب الأول

من هذا القسم

(فى الأمثال)

١٠ ضرب الله عز وجل الأمثال فى كتابه العزيز فى آى كثيرة. فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ وتكرر ذكر الأمثال.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ضرب الله مثلاً صراطا مستقيما، وعلى جَنْبَي الصراط أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول ادخلوا الصراط ولا تعرّجوا" فالصراط: الإسلام، والستور: حدود الله تعالى، والأبواب: محارم الله، والداعى: القرآن.

١٥

قال المبرّد : المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر ، شبّه به حال الثانى بالأوّل والأصـل فيه التشبيه . قال : وقولهم مَثَـل بين يديه ، إذا آنتصب ؛ معناه أشبه الصورة المنتصبة . وفلان أمثل من فلان، أى أشبه .

والمثال : القصاص، لتشبيه حال المقتصّ منه بحال الأوّل .

وقال آبن السِّكِّيت : المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه . ٥

وقال إبراهيم النظّام : يجتمع فى المثل أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة .

وقال آبن المقفّع : إذا جُعل الكلام مثلا كان أوضحَ للنطق، وآنقَ للسمع ، وأوسعَ لشعوب الحديث .

وأوّل ما نبـدأ به من ذلك ما تُمُثِّل به من أقوال سـيدنا رسول الله صـلى الله عليه وسلم . ١٠

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم وهو ممـا لم يسبق إليه :

"إيّاكم وخضراءَ الدِّمَن" فقيل له : وما ذاك يارسول الله؟ فقال : "المرأةُ الحَسْنَاءُ فى مَنْبِتِ السُّوء ! "

"كلّ الصيدِ فى جَوْف الفَرَا " قاله لأبى سفيان يتألّفه على الإسلام . ١٥

" مات فلان حَتْفَ أنفه " .

" لا ينتطح فيه عَنْزَان " .

" إن المُنْبَتَّ لا أرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرا أبْقَى " المنبتُّ : المنقطع عن أصحابه فى السفر؛ والظهر : الدابّة، قاله فى الغلو فى العبادة .

" الْآنَ حَمِيَ الْوَطِيس " : ضربه فى الحرب .

" يَاخَيْلَ اللهِ ٱرْكَبِي " .

" اشْتَدِّى أَزْمَةُ تَنْفَرِجِى " .

وقوله صلى الله عليه وسلم: " الناس كأسنان المُشْطِ وإنما يتفاضلون بالعافية ".

٥ " الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " .

" النَّاسُ كَإِبِلٍ، مِائَةٌ لا تَجِدُ فيها راحِلَةً " .

" المؤمن هيّن ليّن، كالجمل الأَنِفِ إن ٱنقيد ٱنقاد، وإن أُنِيخ على صخرة ٱستناخ " .

" المؤمن للؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضه بعضا " .

١٠ " أصحابى كالنجوم، بأيّهم ٱقتديتم ٱهتديتم " .

" مثل أصحابى كالملح لا يصلح الطعام إلا به " .

" أُمّتى كالمطر، لا يُدْرَى أوله خير أم آخره " .

" مثل أبى بكر كالقَطْر أين وقع نفع " .

" عُمَّالكم كأعمالكم وكما تكونوا يولّى عليكم " .

١٥ وقال لما كتب كتاب المهادنة بينه وبين سهيل بن عمرو: "والعقد بيننا كشَرْج العَيْبَة" يعنى إذا ٱنحلّ بعضه ٱنحلّ جميعه .

" المرأة كالضِّلَع العوجاء إن قومتها كسرتها، وإن داريتها ٱستمتعت بها " .

" المتشبِّع بما لم يُعْطَهُ كلابس ثَوْبَىْ زُور " .

" الدالُّ على الخير كفاعله " .

٢٠ " لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا " .

(٢)

" وعد المؤمن كالأخذ باليد " .

" مَثَل المؤمن كالنحلة، لا تأكل إلا طيِّبا ولا تُطعِم إلا طيِّبا " .

"مَثَل المؤمن كالسُّنْبُلَةِ تميل أحيانا، وتعتدِل أحيانا" .

"مَثَل الجليس الصالح كالعطّار، إن لم تصب من عطره أصبت من ريحه، ومثل الجليس السوء كالكِير إن لم يحرق ثوبك آذاك بدُخَانه" .

"علم لا ينفع كنز لا ينفق منه" .

وقال : "المؤمن مِرْآة أخيه" .

"قد جَدَعَ الحَلَالُ أنفَ الغَيْرَة" .

"الأعمـال بالنيّات ولكل آمرئ ما نوى" .

"نيّة المرء خير من عمله" .

"إن من الشِّعْر لحكمةً و إن من البيان لَسِحْرًا" .

"من كثَّر سواد قوم فهو منهم" .

"الأعمـال بخواتمها" .

"ساقى القوم آخرهم شربا" .

"المرء على دِين خليله فلينظر آمرؤ مَنْ يُخَالّ" .

"المستشير معان والمستشار مؤتمن" .

ومن كلام أبي بكر الصدّيق رضى الله عنه

إن الله قرن وعده بوعيده .

ليست مع العَزَاء مصيبة .

الموت أهون ممـا بعده وأشدّ ممـا قبله .

ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغى، والنَّكْثُ، والمَكْر .

ذلّ قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة .

احرص على الموت توهبْ لك الحياة؛ قاله لخالد بن الوليد حين بعثه إلى أهل الرِّدّة .

كثير القول ينسى بعضه بعضا، وإنما لك ما وعى عنك .

٥ لا تكتم المستشار خبرا فتُؤْتَى من قِبَل نفسك .

خير الخَصْلتين لك أبغضهما إليك .

صنائع المعروف تقِي مَصارِعَ السوء .

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مَنْ كتم سِرَّه كان الخِيار فى يده .

١٠ أشقى الوُلَاة من شَقِيتْ به رَعِيَّتُه .

اتقوا مَنْ تبغَضُه قلوبُكم .

أعقلُ الناس أعذَرُهم للناس .

اجعلوا الرأسَ رأسين .

أخيفوا الهوامّ قبل أن تخيفكم .

١٥ لو أنّ الشكرَ والصبرَ بعيران لما باليت أيهما ركبتُ .

مَنْ لم يعرِف الشرّ كان أجدَر أن يقع فيه .

ما الخمر صِرْفا بأذهب للعقول من الطمع .

إلى الله أشكو ضعف الأمين وخيانة القوىّ .

اقتصاد فى سُنَّة خير من اجتهاد فى بِدْعة .

٢٠ لا يكن حبك كَلَفًا، ولا بُغْضُك تَلَفًا .

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

ما يَزَعُ اللهُ بالسلطان أكثرُ مما يَزَعُ بالقرآن .

الهدية من العامل اذا عُزِل، مثلها منه اذا عمل .

أنتم إلى إمام فعَّال، أحوجُ منكم إلى إمام قوّال؛ قاله يوم صعد المنبر فأُرْتِجَ عليه .

وقال يوم قُتل : لأن أُقْتَل قبل الدماء، أحبُّ الىّ من أن أُقْتَل بعد الدماء . ٥

ومن كلام علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه

من رضى عن نفسه كثر الساخط عليـه؛ ومن ضيّعه الأقربُ أُتيح له الأبعـد؛ ومن بالغ فى الخصومة أَثِمَ، ومن قصر فيها ظَلَم .

رأى الشيخ خير من مشهد الغلام .

الناس من خوف الذلّ فى الذلّ . ١٠

إن من السكوت ما هو ابلغ من الجواب .

ومن كلام عبد الله بن عباس رضى الله عنهما

لكل داخل دهشة فابدءوه بالتحية؛ ولكل طاعم حشمة فابدءوه باليمين .

ومن أمثـال العرب ما نقلته من كتاب "الأمثال" للميدانىّ . [والميدانىّ[1] : هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميدانىّ النيسابورىّ — والميدانىّ : بفتح الميم ١٥ وسكون اليـاء المثناة من تحتها وفتح الدال المهملة نسبة إلى ميدان زياد، وهى محلة بنيسابور؛ توفى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة] ووضعته على حروف المعجم .

فمن ذلك ما جاء منها على حرف الهمزة :

(١) هذه زيادة فى إحدى النسخ .

حرف الهمزة

تقول العرب : "إنَّ المُوَصَّيْنَ بَنُو سَهْوَان" قال الميدانى : يُضرَب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به ، وبنو سهوان : بنو آدم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسى .

٥ وقولهم : " إنَّ الرَّثِيئَةَ تَفْثَأُ الغضب " قال : الرثيئة : اللبن الحامض يخلط بالحلو ، والفَثْءُ : التسكين ، وزعموا أن رجلا نزل بقوم وكان ساخطا عليهم ، وكان جائعا فسقوه الرثيئة فسكن غضبه ، فقال هذا المثل : يضرب فى الهدية تورث الوفاق .

وقولهم : "إن الحديد بالحديد يُفْلَح" أى يستعان فى الأمر الشديد بما ١٠ يشاكله ويقاويه .

وقولهم : "إن السلامة منها تَرْكُ مافيها" فى اللُّقَطَة وذمّ الدنيا[1] .

والنفس تَكْلَفُ بالدنيا وقد علمتْ ٭ أن السلامةَ منها تركُ مافيها

وقولهم : "إن العَصَا من العُصَيَّة" يقال : إن أول من قال ذلك الأفعَى الجرهمى ، ذلك أن نزارا لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر ، وإيادا ، وربيعة ، وأنمارا ، ١٥ فقال : يابنىّ ! هذه القبة الحمراء — وكانت من أدم — لمضر ، وهذه الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ، وهذه الخادم — وكانت شمطاء — لإياد ، وهذه البدرة والمجلس لأنمار ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأفعى الجرهمى ومنزله بنجران ، فتشاجروا .

(١) فى الميدانى : وهذا فى بيت أوّله . والنفس الخ .

فى ميراثه، فتوجهوا إليه، فبيناهم فى سيرهم إذ رأى مضر أثر كلإ قد رعى، فقال : إن البعير الذى رعى هــذا أعور، وقال ربيعة : إنه لأزور، وقال إياد : إنه لأبتر، وقال أنمــار : إنه لشرود، فساروا قليلا، فإذاهم برجل يوضع حمله[1] فسألهم عن البعير، فقال مضر : أهو أعور؟ قال : نعم، وقال ربيعة : أهو أزور؟ قال : نعم، وقال إياد : أهو أبتر؟ قال : نعم، وقال أنمــار : أهو شرود؟ قال : نعم، هذه والله صفة بعيرى، فدلونى عليــه، فقالوا : والله ما رأيناه، فقال : هــذا والله الكذب كيف أصدّقكم وأنتم تصفونه بصفته؟ فساروا حتى قدموا نجران، فلمــا نزلوا، نادى صاحب البعير، هؤلاء أصحاب جملى وصفوا لى صفته ثم قالوا : لم نره، فاختصموا إلى الأفعى، فقال لهم : كيف وصفتموه وأنتم لم تروْه؟ فقال مضر : رأيته قد رعى جانبا وترك جانبا، فعلمت أنه أعور، وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة والثانية فاســدة، فعلمت أنه أزور لأنه أفسدها بشدّة وطئه، وقال إياد : عَرَفت أنه أبتر باجتماع بعره ولو كان ذيّالا لمصع به، وقال أنمــار : عرفت أنه شرود، لأنه يرعى فى المكان الملتفّ نبته ثم يجوزه إلى مكان أرقّ منــه، فقال الأفعى : ليسوا بأصحاب جملك فاطلبه، ثم سألهم : من أنتم؟ فأخبروه بخبرهم، وبما جاءوا له، فأكرمهم، وقال: أتحتاجون إلىّ وأنتم كما أرى؟ ثم أنزلهم وذبح لهم شاة، وأتاهم بخمر، وجلس لهم الأفعى بحيث لا يرى، فقال ربيعة : لم أر كاليوم أطيب لحما لولا أن شاته غذيت بلبن كلبة، وقال مضر : لم أر كاليوم أطيب خمرا لولا أن حُبْلته نبتت على قبر، فقال إياد : لم أر كاليوم رجلا أسرَى لولا أنه ليس لأبيه الذى يدعى له، فقال أنمــار : لم أر كاليوم كلاما أنفع فى حاجتنا من كلامنا، وكلامهم بأذنه، فدعا قهرمانة، فقال : ماهذه الخمر،

(١) فى الميدانى : ينشد جمله .

وما أمرها؟ قال: هى من حُبْلة غرستها على قبر أبيك؛ وقال للراعى: ماهذه الشاة؟ فقال: هى عناق أرضعتها بلبن كلبة وكانت أمها ماتت؛ ثم أتى أمه، فقال: أصدقينى، مَنْ أبى؟ فأخبرته أنها كانت تحت ملك كثير المال وكان لايولد له، فخفتُ أن يموت وليس له ولد؛ فأمكنت من نفسى ابن عم له كان نازلا عليه فولدتك. فرجع إليهم

٥ وقال: ما أشبه القبة الحمراء من مال نزار فهو لمضر، فذهب بالإبل الحمر والدنانير، فسمّيت: مضر الحمراء. وأما صاحب الفرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شىء أسود، فصار لربيعة الخيل الدُّهْم وما شاكلها، فقيل: ربيعة الفرس. وأما الخادم الشمطاء فلصاحبها الخيل البُلْق والماشية، فسميت: إياد الشمطاء، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض فصدروا من عنده على ذلك، فقال الأفعى: إن العصا من العصيّة،

١٠ وإنّ خُشَيناً من أخشن؛ فأرسلهما مثلا.

وقولهم: "إن العَوانَ لا تُعَلَّم الخِمْرة": يضرب للرجل المجرّب.

وقولهم: "إنى لآكل الرأس وأنا أعلم بما فيه": يضرب للأمر تأتيه وأنت تعلم ما فيه مما تكره.

وقولهم: "أنفٌ فى السماء، واستٌ فى الماء": يضرب للتكبر الصغير الشأن.

١٥ وقولهم: "إن الذليل الذى ليست له عَضُد" أى أنصار وأعوان: يضرب لمن يخذُلُه ناصره.

وقولهم: "إنْ يَدْمَ أَظَلُّكَ فقد نَقِبَ خُفِّى" الأظل: ما تحت منسم البعير، والخف: قائمته: يضرب للمشتكى إليه تشاكيا أى أنا منه فى مثل ما تشكوه.

وقولهم : "إن تسلم الجِلَّةُ فالنِّيبُ هَدَر" الجِلَّة : جمع جليل يعنى العظام من الإبل، والنيب : جمع ناب وهى الناقة المسنّة، معناه إذا سلم ماينتفع به هان ما لا ينتفع به .

وقولهم : "إنْ يبْغِ عليك قومُك لايبغ عليك القمر" يقال : إن بنى ثعلبة ابن سعد فى الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة، فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يُرى ،وقالت طائفة : بل يغيب قبل طلوعها، فتراضوا برجل جعلوه بينهم، فقال رجل منهم : إن قومى يبغون علىّ ،فقال العدل : إن يبغ عليك قومك لايبغ عليك القمر، فذهبت مثلا : يضرب للأمر المشهور .

وقولهم : "إنْ كنتَ رِيحًا فقد لاقيْتَ إعْصارا" الإعصار : ريح شديدة تهبّ فيما بين السماء والأرض: يضرب للدلّ بنفسه إذا صُلِيَ بمن هو أدهى منه وأشد.

وقولهم : "إنَّكَ خيرٌ من تَفَارِيقِ العَصَا" قالوا : قالته غُنَيّة الأعرابية لابنها، وكان عارما مع ضعفه، فواثب يوما فتى فقطع أذنه فأخذت ديتها، فزادت حُسنَ حالٍ ثم واثب آخر فقطع شفته فأخذت الدية فذكرته فى أرجوزتها فقالت

أَحْلِفُ بالمَرْوَةِ حقًّا والصَّفَا * إنك أجدى[1] من تَفَاريق العَصَا

فقيل لأعرابى : ماتفاريق العصا؟ فقال : العصا تقطع ساجورا والسواجير للكلاب والأسرى من الناس ثم تقطع عصا الساجور فتصير أوتادا و يقطع الوتد فيصير كل قطعة شِظَاظا وإن جعل لرأس الشظاظ كالفَلْكة صار للبُخْتِيّ مِهَارا وهو

(١) فى الميدانى : خير .

العود الذى يدخل فى أنفه، واذا فرق المهار جاءت منه تَوَادٍ وهى الخشبة التى تشدّ على خِلْف الناقة .

وقولهم : " إِنَّهُ لَيَعلَمَ من أينَ تُؤْكَلُ الكَتِف " : يضرب للرجل الداهى ؛ قال بعضهم : لِمَ تُؤكلُ الكتف من أسفلها ؟ قال : لأنها تتقشر عن عظمها وتبقى المرقة مكانها ثابتة .

وقولهم : " إِنَّكَ لا تَجْنِي مِن الشَّوْكِ العِنَب " أى لا تجد عند ذى المَنبِت السوء جميلا ؛ والمثل من قول أكثم قال : إذا ظلمت فاحذر الانتصار، فان الظلم لا يكسبك إلا مثل فعلك .

وقولهم : " أَخُو الظَّلْمَاء أعْشَى بالليل " : يضرب لمن يخطئ حجته ولا يبصر المخرج مما وقع فيه .

وقولهم : " إِنَّكَ لَتُكْثِرُ الحَزَّ وتُخْطِئ المَفْصِل " : يضرب لمن يجتهد فى السعى ثم لا يظفر بالمراد .

وقولهم : " أوّل الشجرة النّواة " : يضرب للأمر الصغير يتولد منه الكبير .

وقولهم : " إذا صاحت الدّجاجة صِياحَ الدّيك فلْتُذْبَح " قاله الفرزدق فى امرأة قالت الشعر .

وقولهم : " إذا رآنى رأى السّكين فى الماء " : يضرب لمن يخافك جدّا .

وقولهم : " إنك ريّان فلا تعجلْ بشربك " : يضرب لمن أشرف على إدراك بغيته فيؤمر بالرفق .

وقولهم : " أبطَشُ مِنْ دَوْسَرَ " هى إحدى كتائب النعمان أشدّها بطشا ونكاية ؛ قال بعض الشعراء

ضَرَبَتْ دَوْسَرُ فيهم ضَرْبة(١) * أثبتَتْ أوتادَ ملْكٍ فاستَقَرْ ٥

وقولهم : " أبَرَماً قَرُوناً " البَرَمُ : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله ، والقَرُون : الذى يقرن بين الشيئين ؛ وأصله أن رجلا كان لا يدخل فى الميسر ولا يرى اللحم فجاء إلى امرأته وبين يديها لحم تأكله فأقبل يأكل معها بضعتين يقرن بينهما فقالت له : أبَرَماً قَرُوناً : يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين .

وقولهم : " الثَّيِّبُ عُجَالة الراكب " : يضرب فى الحث على الرضا بيسير الحاجة عند إعواز جليلها ؛ ١٠

وقولهم :

" الْبَسْ لِكُلِّ حَالةٍ لَبُوسَهَا * إمّا نَعِيمَهَا وإمّا بُوسَهَا "

أوّل من قال ذلك بَيْهس : وهو رجل من بنى غراب بن فَزارة ، وكان سابع سبعة إخوة ، فأغار عليهم أناس من بنى أشجع ، وهم فى إبلهم فقتلوا منهم ستة وتركوا بيهسا لحمقه فقال : دعونى أتوصل معكم إلى أهلى فأقبل معهم ، فلما كان من الغد نحروا جزورا فى يوم شديد الحَرّ فقال بعضهم : أظلّوا لحمكم لاتنسدّه الضِّحّ ، فقال ١٥

(١) فى اللسان : وصوابه « فيه » لأنه عائد على يوم الحنو .

بيهس : لكن بالأثلاث[1] لحم لا يظلّل ، فأرسلها مثلا ؛ ثم فارقهم وأتى أمه فأخبرها الخبر فقالت : ما جاء بك من بين إخوتك وأنت أخبثهم ، فقال : ما خيّرك القومُ فتختارى ، فأرسلها مثلا ؛ ثم أعطته ثياب إخوته ومتاعهم، فقال : ياحبذا التراث لولا الذّلة ، فأرسلها مثلا ؛ وأخذ يوما يَزْمِ سكينا ، فقيل له : ما تصنع بها ؟ فقال : أقتل بها قتلة إخوتى ، فقيل له : إنك لأحمق ، فقال : مايؤمنك من أحمق فى يده سكين . فأرسلها مثلا ؛ ثم إنه مرّ بنسوة من قومه يصلحن آمرأة يردن أن يهدينها لبعض قتلة إخوته فكشف ثوبه عن آسته وغطى به رأسه ، فقيل له : ما تصنع ؟ فقال :

البَسْ لكل حالة لبوسَها ، إما نعيمَها وإما بُوسَها

وقولهم : "الصيفَ ضيّعتِ اللبن" قال الأصمعىّ : معناه تركت الشيء فى وقته ؛ وقال غيره : تركت الشيء وهو ممكن ، وقال أبو عبيدة : أوّل من قاله عمرو بن عُدَس ، وكان قد تزوج دَخْتَنُوس بعد ما كبر، فكان ذات يوم نائما فى حجرها فخَخَف وسال لعابه فتأففته فانتبه وهى تتأفف منه ، فقال : أتحبين أن أطلّقك؟ قالت : نعم ، فطلقها ، وتزوجها فتى ضرير حسن الوجه ، فتجاءتهم ذات يوم غارةٌ والفتى نائم فجاءت دَختنوس فأنبهته وقالت له : الخيل ، فجعل يقول : الخيل الخيل ، من الخوف حتى مات فَرَقا وسُبيتْ دختنوس فبلغ عمرو الخبر فركب ولحقهم وقاتل حتى آستنقذ

(١) قال ياقوت فى معجمه : أثلاث «بالثاء» هو الموضع المذكور فى المثل فى بعض الروايات : لكن بالأثلاث الخ . ثم قال . وأكثر الرواة يقولون : الأثلاث «بالثاء» جمع أثله وهو صنف من الطرفاء كثير يظلل بفيئه مائة نفس .

جميـع ما أخذوا وآستنقذها فوضـعها قدّامه على السرج وردّها إلى أهلهـا ، ثم اصابتهم ســنة فبعثت إليه تقول : نحتاج اللبن فبعث إليها بلقحة وقال : الصيف ضيّعت اللبن .

وقولهم : "آضْطَرَّهُ السَّيْلُ إلى مَعْطَشِه" وهو أنـ رجلا عطش وكان قد أتى واديا له غور وماء شديد الجرية ، فبقى فى أصل شجرة لا يقدر أن ينزل فيأخذ به المـاء ، ولم يجد ماء فمات عطشا : يضرب لمن ألقاه الخير الذى كان فيه إلى شرّ .

وقولهم :

"إنَّ الحَمَـاةَ أُولِعَتْ بالكَنَّهْ * وأُولِعَتْ كَنَّتُهـا بالظِّنَّهْ"

الحماة : أمّ الزوج ، والكَنّة : آمرأة الآبن والأخ ، والظِّنّة : التهمة ، وبين الحماة والكنة عداوةٌ مُستحكِمَةٌ : يُضرَب بها المثل فى الشر يقع بين قوم هم أهل لذلك .

وقولهم : " إن لله جنودا منها العَسَل " قاله معاوية : لمـا بلغه أن الأشتر سُقِى عسلا فيه سمّ فمـات : يضرب عند الشماتة بمصاب العدو .

وقولهم : " إن الهوى لَيَميل بآسْتِ الراكِب " أى من هوى شيئا مال نحوه قبيحا أو جميلا ، كما قيل

وما زُرْتكم عَمْدًا ولكنّ ذا الهوى * إلى حيث يَهْوى القلب تهوِى به الرِّجْل

وقولهم : " إن الجَوَادَ قَدْ يَعْثُر " : يضرب لمن يكون الغالب عليه فعل الجميل ثم تكون منه الزلّة .

وقولهم : " إن الشفيق بسوء ظنّ مُولَع " : يضرب للعنيّ بشأن صاحبه لأنه لا يكاد يظن به غير وقوع الحوادث كظنون الوالدات بالأولاد .

وقولهم : " إن خَصْلتين خيرُهما الكذب لَخَصْلَتَا سُوء " : يضرب للرجل يعتذر من شيء فعله بالكذب .

وقولهم : " أحاديثُ طَسْمٍ وأحلاَمُها " : يضرب لمن يخبرك بما لا أصل له .

وقولهم : " أحَشَفًا وسُوءَ كِيلَةٍ " : يضرب لمن يجمع بين خَصْلتين مكروهتين .

وقولهم : " الحق أبْلَج، والباطلُ لَجْلَج " : معناه أن الحق واضح بيّن والباطل يتلجلج فيه أى يتردّد فلا يجد صاحبه مخرجا .

وقولهم : " الحزمُ سُوءُ الظَّنّ بالناس " : هذا المثل قاله أكثم بن صيفيّ .

وقولهم : " اختلط الخاثرُ بالزُّبّادِ " . الخاثر: ما خثر من اللبن، والزُّبّاد : الزبد : يضرب للقوم يقعون فى التخليط من أمرهم .

وقولهم : " أخطأتِ ٱسْتُه الحُفْرة " : يضرب لمن رام شيئا فلم ينله .

وقولهم : " ادع الى طِعَانِكَ، مَن تدعوه الى جِفَانِك " أى ٱستعمل فى حوائجك من تخصّه بمعروفك .

وقولهم : " أرَوَغانًا يا ثُعال، وقد عَلِقتَ بالحبال " ثعالة : الثعلب : يضرب لمن يراوغ وقد وجب عليه الحق .

وقولهم : " إِرْمِ فَقَدْ أَفْقَتَهُ مَرِيشًـا " يقال : أفقت السهم إذا وضعت فُوقَه في الوتر : يضرب لمن تمكّن من طَلِبَته .

وقولهم : " أَضَرِطًا وأنت الأعلى ؟ " قاله سُلَيك بن سُلَكة السعدى ، وذلك انه بينا هو نائم إذ جثم عليه رجل من الليل وقال : استأسِر فقال له سليك : الليل طويل وأنت مقمر ، فأرسلها مثلا : ثم ضمه سليك بيديه ضمّة أضرطته ، فقال له : ٥ أَضَرِطًا وأنت الأعلى فأرسلها مثلا : يضرب لمن يشكو في غير موضع الشكوى .

وقولهم : "أضْلَلْتَ من عَشْرٍ ثَمَانِياً" : يضرب لمن يفسد أكثر ما يليه من الأمر .

وقولهم : "أَعْطِ أخاك تمرة ، فإن أَبَى فجمرة" : يضرب لمن يختار الهوان على الكرامة .

وقولهم : "أَكْذِبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتَهَا" معناه لاتحدّث نفسك بأنك لاتظفر ، ١٠ فإن ذلك يثبّطك . قال لبيد

أَكْذِبِ النفس إذا حـــدَّثتها ... إنّ صدق النفس يُزْرى بالأَمَلْ

وقولهم : " أَكِبْرًا وإِمْعَارًا " أى أتجمع بين الكبر والفقر .

وقولهم : " أَمَكْرًا وأنت فى الحَدِيد؟ " هذا المثل قاله عبد الملك بن مروان لعمرو ابن سعيد لمـا قبض عليه وكبّله ، فقال : ياأمير المؤمنين : إن رأيت أن لاتفضحنى بأن ١٥ تخرجنى للناس فتقتلنى بحضرتهـم فافعل ، وإنمـا أراد عمرو بهـذه المقالة أن يخالفه عبد الملك فيخرجه فيمنعه منه أصحابه . فقال : أبا أمية ! أمكرا وأنت فى الحديد : يضرب لمن أراد أن يمكر وهو مقهور .

وقولهم : "أَهْوَنُ هَالِكٍ عَجُوزٌ فى هام سَنَةٍ" : يضرب للشىء يُستخفّ به وبهلاكه .

قال الشاعر

وأهون مفقود إذا الموتُ نابه * على المرء من أصحابه مَن تَقَنّعا

٥ وقولهم : "أوسعتُهم سَبًّا وأودَوْا بالإبل" أصله أن رجلا من العرب أُغير على إبله فأخذت، فلما توارَوا صعد أَكَمَةً وجعل يسُبّهم ثم رجع إلى قومه فسألوه عن إبله، فقال هذا المثل .

ويقال : إن أول من قاله كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى، وذلك أن الحارث بن ورقاء الصيداوىّ أغار على بنى عبد الله بن غطفان واستاق إبل زهير وراعيَه، فقال ١٠ زهير فى ذلك قصيدته التى أوّلها

بان الخليطُ ولم يأووا لمن تركوا * وزوّدوك اشتياقا أيّةً سلكوا

وبعث بها إلى الحارث فلم يردّ الإبل، فهجاه، فقال كعب ابنه : أوسعتهم سبّا وأودوا بالإبل، فذهبت مثلا : يضرب لمن لم يكن عنده إلا الكلام .

وقولهم : "أَوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِل" : هو سعد بن زيد مناة أخو مالك ١٥ الذى يقال فيه : إنّك آبَلُ من مالك، وذلك أن مالكا تزوج بامرأة وبنى بها فأورد الإبل أخوه سعد ولم يحسن القيام عليها والرفق بها، فقال مالك

أوردها سَعْدٌ وسَعْدٌ مشتمِل * ماهكذا تورَد ياسَعْدُ الإبل

فضرب مثلا لمن قصّر فى طلب الأمر .

وقولهم : " إن الشَّقِيّ وَافِدُ البَرَاجِم " قاله عمرو بن هنـد الملك . وذلك أن سُوَيْد بن ربيعة التميمىّ قتل أخاه سعد بن هند وهرب فنذر عمرو ليقتلن بأخيه مائة من بنى تميم ، فسار إليهم بجمعه فلقيهم الخبر فتفرّقوا فى نواحى بلادهم فلم يجد إلا عجوزا كبيرة وهى حمراء بنت ضَمْرة ، فلما نظر اليها قال : إنى لأحسبك أعجمية ، قالت : لا والذى أسأله أن يخفض جَناحك ، ويهدّ عمادك ، ويضع وسادك ، ويسلبك بلادك ، ما أنا بأعجمية ، قال : فمن أنتِ ؟ قالت : أنا بنت ضمرة بن جابر ، ساد مَعدّا كابرا عن كابر ، وأنا أخت ضمرة بن ضمرة ، قال : فمن زوجك؟ قالت : هَوْذَة ابن جَرْوَل ، قال : وأين هو الآن ؟ أما تعرفين مكانه؟ قالت : لو كنت أعلم مكانه حال بينى و بينك ، فقال عمرو : أما والله لولا أنى أخاف أن تلدى مثل أبيك وأخيك وزوجك لأستبقيتك ، فقالت : والله ما أدركتَ ثارا ، ولا محوتَ عارا ، مع كلام كثير كلّمته به فأمر بإحراقها ، فلما نظرت إلى النار ، قالت : ألا فَتًى مَكَانَ عَجوز ! فذهبت مثلا ، ثم مكثت ساعة فلم يفدها أحد ، فقالت : هيهـات صارتِ الفتيان حُمَمًا ، فذهبت مثلا ثم أُلقيت فى النار ولبث عمرو عامّة يومه لا يقدر على أحد ، حتّى إذا كان آخر النهار أقبل راكب يسمى عَمّارا تُوضع به راحلته حتى أناخ اليه ، فقال له عمرو : من أنت ؟ قال : أنا رجل من البراجم ، قال : فما جاء بك إلينا؟ قال : سطع الدُّخان وكنت طَوِيت منذ أيام وظننته طعاما ، فقال عمرو : إن الشقىّ وافدُ البراجم ، فذهبت مثلا وأمر به فَأُلقى فى النار ، قيل : إنه أحرق مائة من بنى تميم : تسعة وتسعين من بنى دارم ، وواحدا من البراجم .

وقال بعضهم : مابلغنا أنه أصاب من بنى تميم غير وافد البراجم وإنما أحرق النساء والصبيان؛ قال جرير

وأخزاكُمُ عمرو كما قد خُزِيتُمُ * وأدركَ عمّارا شقِىّ البَرَاجِمِ

ولذلك عُيِّرت بنو تميم بحب الطعام؛ قال الشاعر

٥ إذا ما مات مَيْتٌ من تميم * وسرّك أن يعيش، فجئْ بزادِ

بخُــبْزٍ أو بلحم أو بتمــر * أو الشّىء الملفّف فى البِجادِ

تراه يُنَقِّب الآفاق حـولا * ليأكل رأسَ لقمانَ بن عادِ

وهذا المثل يضرب لمن يوقع نفسه فى هَلَكة طمعا .

حرف البـاء

١٠ تقول العرب : " بلغ السيلُ الزُّبَى " هى جمع زُبيــة وهى حفرة تُحفر للأسد إذا أرادوا صيده لا يعلوها المـاء فإذا بلغها السيل كان مجحفا : يضرب لمن جاوز الحــدّ .

وقولهم : " بينَ العَصَا ولِحَائِها " اللحاء : القشر : يضرب للمتخالّين المتفقين ؛ ويروى : لا مدخل بين العصا ولحائها .

١٥ وقولهم : " بينهم داء الضرائر " هى جمع ضَرّة يضرب للعـداوة إذا رسخت بين قوم .

وقولهم : " بينهم عِطْر مَنْشِم " قال الأصمعىّ : مَنْشِم كانت عطـارة بمكة وكانت خُزاعة وجُرْهُم إذا أرادوا القتال تطيّبوا من طيبها فاذا فعلوا ذلك كثرت

بينهم القتلى فكان يقال : أشأم من عطر منشم : يضرب فى الشرّ العظيم ، وفيه يقول زهـــير

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وذُبْيَانَ بعد ما * تَفَانَوْا ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشِمِ

وقولهم : " به داءُ ظَبْيٍ " : أى أنه لا داء به كما أن الظبي لا داء به ، وقيل : ربما يكون بالظبي داء لا يعرف مكانه معناه أنّ به داءً لا يُعرف . ٥

وقولهم : " بلغتِ الدِّمَاءُ الثُّنَنَ " الثُّنَةُ ، الشعرَات التى فى مؤخّر رُسغ الدابّة : يضرب عند بلوغ الشرّ النهاية .

وقولهم : " بَرِحَ الخَفَاءُ " أى زال من قولهم ما برح . والمعنى زال الشرّ فوضح الأمر ، ويقال : الخفاء المتطاطئ من الأرض ، والبراح المرتفع أى صار الخفاء بَرَاحا .

وقولهم : " بَنَانَ كفٍّ لَيْسَ فيها ساعِد " : يضرب لمن له همة ولا مقدرة له على ما فى نفسه . ١٠

وقولهم : " باتَ فلانٌ يَشْوِى القَرَاحَ " : يعنى الماء الخالص لا يخالطه شىء : يضرب لمن ساءت حاله ، وفقد ماله بحيث يشوى الماء شهوةً للطبيخ .

وقولهم : " بَخٍ بَخٍ ساقٌ بخَلْخَالٍ " هى كلمة يقولها المتعجب من حسن الشىء وكماله . وأوّل من قال ذلك الوَرْثَةُ بنت ثعلبة ، وذلك أنّ ذُهل بن شيبان كان زوج الوِرثة وكانت لا تترك له آمرأة إلا ضربتها فتزوج رَقَاش بنت عمرو بن عثمان من بنى ثعلبة ، فخرجت رقاش يوما وعليها خَلْخَالان ، فقالت الورْثَةُ ذلك ، فذهبت مثلا . ١٥

حرف التـاء

قولهم : "تَرَكَ الظَّبْيُ ظِلَّه" أى كناسه الذى يستظلّ به : يضرب لمن نفر من شىء فتركه تركا لا يعود له .

وقولهم : "تركتُه على مثلِ ليلة الصَّدَرِ" وهى ليـلة ينفر الناس من منًى فلا يبقى منهم احد .

وقولهم : "تركتُه أنقى من الرَّاحَة" أى على حال لا خير فيه كما لا شعر على الراحة : يضرب فى اصطلام الدهر .

وقولهم : "تجوعُ الحُرّةُ ولا تأكُلُ بثَدْيَيْهَا" : أى لا تكون ظِـئرا و إن آذاها الجـوع .

اوّل من قاله الحارث بن سليل الأسدىّ وكان حليفا لعلقمة بن حصفة الطائىّ فزاره فنظر إلى ابنته الزبّاء وكانت من أجمل أهل دهرها، فقال : أتيتك خاطبا وقد يُنْكَح الخاطب، ويُدْرَك الطالب، ويُمْنَح الراغب، فقال له علقمة : أنت كفء كريم يُقْبَل منك الصفو، و يؤخَذ منك العفو، فأقم ننظر فى أمرك، ثم انكفأ إلى أمها، فقال : إن الحارث سيّد قومه حسبا ومنصبا و بيتا، وقد خطب الينا الزبّاء فلا ينصرفنّ إلا بحاجته، فقالت المرأة لابنتها : أى الرجال أحب إليك الكَهْل الجحجاح، الواصل المنـاح، أم الفتى الوضاح ؟ قالت : بل الفتى الوضّاح، فقالت : إن الفتى يُغيرك، و إن الشيخ يُميرك، وليس الكهل الفاضل، الكثير النائل، كالحديث السنّ، الكثير المَنّ، قالت يا أماه : إن الفتاة تحب الفتى، كحُبّ الرِّعَاء أنيق الكلا، قالت : أى

بنية! إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، قالت: إن الشيخ يُبْلى شبَابى، ويدنّس ثيابى، ويُشْمِت بى أترابى. فلم تزل أمها بها حتى غلبتها على رأيها، فتزوجها الحارث على مائة وخمسين من الإبل وخادم وألف درهم، فآبتنى بها، ثم رحل بها إلى قومه فبينا هو ذات يوم جالس بفناء قومه وهى إلى جانبه، إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون فتنفست الصُّعَدَاءَ، ثم أرخت عينيها بالبكاء، فقال: مايبكيك؟ قالت: مالى وللشيوخ، النـاهضين كالفروخ، فقال لهـا: ثَكِلَتْكِ أمك! تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها، ثم قال لها: وأبيك، لرب غارة شهدتُها، وسبِيَّة أردفتُها، وخمرة شربتُها، فالحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك، وهذا المثل يضرب فى صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب.

وقولهم: "تَجَشَّأ لُقْمَانُ من غير شِبَع": يضرب لمن يدّعى ما ليس يملك.

وقولهم: "تُخْبِر عن مجهوله مَرْآتُه": أى منظره يخبر عن مَخبره.

وقولهم: "تشكو إلى غير مُصَمِّت": أى إلى من لم يهتم بشأنك. قال الشاعر

إنك لا تشـكو إلى مُصَمِّتِ ... فاصْبِر على الحِمْل الثقيل أو مُت

وقولهم: "تجاوز الرَّوضَ إلى القاع القَرِق": يضرب لمن يعدل بحاجته من الكريم إلى اللئيم، والقَرِق: المستوى.

وقولهم: "تسمع بالمُعَيْدِىّ خيرٌ من أن تراه"، ويروى: لا أن تراه: يضرب لمن خبره خيرٌ من مرآه، أول من قاله: المنذر بن ماء السماء.

وقولهم : "تُقَطِّعُ أعناقَ الرجال المطامعُ" : يضرب فى ذمّ الطمع .

وقولهم : "تَقَلّدها طَوْقَ الحمامة" كناية عن الخصلة القبيحة التى لا تزايله ولا تفارقه .

حرف الثاء

٥ قولهم : "ثارَ حابِلُهم على نابلهم" الحابل : صاحب الحبالة ، والنابل : صاحب النبل أى اختلط أمرهم : يُضرَب فى فساد ذات البَيْن وتأريث الشرّ فى القوم .

وقولهم : "ثَوْر كِلَابٍ فى الرِّهان أَقْعَدُ" : هو كِلاب بن ربيعة بن عامر ابن صَعْصَعَة القيسىّ كان يحمق ، وذلك أنه ارتبط عجل ثور ليسابق عليه ، والأقعد من القَعِيد وهو المتخلف المتباطئ : يُضرَب لمن يروم مالا يكون .

١٠ حرف الجيم

قولهم : "جَرْى المُذَكِّيَات غِلَاب" المُذَكِّيَة من الخيل التى أتى عليها بعد قُروحها سَنَةٌ أو سنتان والغلَاب المغالبة : يضرب لمن يُوصف بالتبريز على أقرانه فى حلبة الفضل ، وأوّل من قاله نذكره إن شاء الله تعالى فى حرب داحس والغبراء .

وقولهم : "جَزَاء سِنِمّار" وهو الذى بنى الخَوَرْنق وتقدّم خبره فى مبانى العرب .

١٥ وقولهم : "جَرَحَه حيث لا يَضَعُ الراقى أَنْفَه" قالته جندلة بنت الحارث ، وكانت تحت حنظلة بن مالك وهى عذراء ، وكان حنظلة شيخا كبيرا فخرجت فى ليلة

مطيرة فبصر بها رجل فوثب عليها وٱفتضّها، فصاحت وقالت : لُسِعت . قيل أين؟ قالت: حيث لايضع الراقى أنفه: يضرب لمن يقع فى أمر لاحيلة له فى الخروج منه.

وقولهم : " جَعْجَعَةً ولا أَرَى طِحْناً " : يضرب لمن يعد ولا يفى .

وقولهم : " جَرَى منه مَجْرَى اللَّدُود " وهو ما يُصبّ فى أحد شِقّ الفم من الدواء، يضرب لمن يُبْغَض ويُكْره . ٥

وقولهم : " جَمَاعةٌ على أَقْذَاء " . معناه ٱجتماعٌ بالأبدان ، وٱفتراق بالقلوب ، وهو بمعنى قوله صلى الله عليه وسلم " هُدْنَةٌ على دَخَن " : يضرب لمن يُضْمِر أذى ويُظْهِر صفاء .

وقولهم : " جَارٌ كجَارِ أبِى دُؤَاد " يعنون كعب بن مامة فإنه كان إذا جاوره رجل فإن مات وداه ، و إن هلك له بعير أو شاة أخلف عليه ، فضربت به العرب المثل فى حسن الجوار، قال طرفة ١٠

إنّى كفانى من أمر هممتُ به ＊ جَارٌ كجَارِ الحُذَاقِىّ الذى ٱتّصَفَا

والحذاقىّ هو أبو دؤاد .

وقولهم : " جَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الْغَيْرَة " قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة زُفت فاطمة إلى علىّ رضى الله عنهما . ١٥

وقولهم : " جوِّع كلبَك يتبعْك " . أوّل من قال ذلك ملك من ملوك حِمْير كان جائرا على أهل مملكته يسلبهم مافى أيديهم و إن ٱمرأته سمعت صوت السؤّال ⟨٨⟩

فقالت : إنى لأرحم هؤلاء و إنى لأخاف أن يكونوا عليك سباعا ، بعدما كانوا لك أتباعا ، فقال : جوّع كلبك يتبعك ، ثم إنه غزا بهم ولم يقسم عليهم شيئا فقالوا لأخ له : قد ترى ما نحن فيه من الجهد ونحن نكره خروج الملك عنكم إلى غيركم فساعدنا على قتل أخيك وآجلس مكانه ، فوافقهم على ذلك ، ثم وثبوا على الملك فقتلوه ، فمرّ به عامر بن جَذِيمة وهو مقتول ، فقال : ربما أكل الكلب مؤدّبه اذا لم ينل شبعه ، فأرسلها مثلا ، والمثل يضرب فى اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به .

وقولهم : "جاءتْهم عَوانًا غيرَ بِكْر" أى مستحكمة غير ضعيفة يريدون حَرْبا أو داهية عظيمة .

وقولهم : "جاء بصحيفة المتلمّس" إذا جاء بالداهية ؛ وكان من خبر صحيفة المتلمس أن المتلمس وطرفة قدما على عمرو بن المنذر بن آمرئ القيس فجعلهما فى صحابة قابوس بن المنذر أخيه وأمرهما بلزومه ، وكان قابوس شابا يعجبه اللهو ، فطال بقاؤهما عنده ، فهجا طرفة عمرا بأبيات فبلغته فاستدعاهما فحباهما بحباء وكتب معهما إلى أبى كَرِب عامله على هَجَر أن يقتلهما ، وقال : قد كتبت لكما بحباء ومعروف ، فلما صدرا من عنده ، قال المتلمس لطرفة : هل لك فى كتابينا ، فإن كان فيهما خير مضينا له ، و إن كان شرّا آتقيناه ، فأبى طرفة وقرأ المتلمس كتابه فإذا فيه السوءة فألقاه فى الماء وقال لطرفة : ألق كتابك فأبى ومضى بكتابه ، قال : ومضى المتلمس حتى لحق بملوك بنى جَفْنة بالشام وسار طرفة بكتابه ، فلما آنتهى إلى العامل قتله .

وقولهم : "جَنْدَلَتَانِ آصْطَكَّتَا" : يضرب لِقِرْنَيْن يتصاولان .

وقولهم : " جَزَيتُه حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ " : للمكافأة .

وقولهم : " جاءوا على بَكْرَةِ أبيهم " أى جاءوا جميعا لم يتخلّف منهم أحد . وقيل : بل البَكْرة تأنيث البَكْر، يصفهم بالقلة أى بحيث تحملهم بكرة أبيهم . وقيل بل البكرة التى يستقى عليها ، معناه جاءوا بعضهم يتلو بعضا كدوران البكرة على نسق واحد ؛ وقيل : المراد بالبكرة الطريقة كأنهم جاءوا على طريقة أبيهم ، وقال ٱبن الأعرابىّ : البكرة : جماعة من الناس أى بأجمعهم . ٥

وقولهم : " جَاوَزَ الحِزَامُ الطُّبْيَيْنِ " : يضرب فى تجاوز الحدّ .

حرف الحاء

قولهم : " حَرِّكْ لَهَا حُوَارَهَا تَحِنّ " الحوار : ولد الناقة ، والجمع القليل أحْورة والكثير حُوران وحيران ، معناه ذكّره بعض أشجانه يهجْ له ، قاله عمـرو بن العاص ١٠ لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام ، أى أرِهم دم عثمان على قميصه .

وقولهم : " حلبتُها بالساعد الأشدّ " أى أخذتها بالقوة إذ لم يتأتّ بالرفق .

وقولهم : " حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ " أى مِثْلا بمِثْلٍ ، يضرب فى التسوية بين الشيئين ؛ ومثله : حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ ، وقد تقدّم .

وقولهم : " حَلَبَ الدهرَ أَشْطُرَه " معناه أنه ٱختبر الدّهرَ شَـطْرَى خيرِه وشرِّه فعرف ما فيه . ١٥

وقولهم : "حَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِىٌّ" ، قال آمرؤ القيس

إذا ما لم تكن إبلٌ فمِعْزَى * كأنّ قُرونَ جِلّتها العِصِيُّ
فتملأ بيتنا أَقِطًا وسَمْنًا * وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

قال أبو عبيدة : يحتمل معنيين أحدهما أعط كل ما كان لك وراء شِبَعك وريّك ، والآخر القناعة باليسير .

وقولهم : "حَسْبُكَ من القِلَادة ما أحاط بالعُنُق" أى آكتف بالقليل عن الكثير .

وقولهم : "حسبك من شَرٍّ سَمَاعُه" أى آكتف بسماعه ولا تعاينه ، قال : ويجوز أن يريد يكفيك سماع الشرّ وإن لم تقدم عليه ولم تُنسب إليه ، والمثل قالته فاطمة بنت الخُرْشُب من بنى أنمار بن بغيض أمّ الربيع بن زياد ، وذلك أن آبنها الربيع كان أخذ من قيس بن زهير بن جذيمة درعا ، فتعرّض قيس لأمّ الربيع وهى على راحلتها فأراد أن يذهب بها ليرتهنها بالدرع ، فقالت له : أين عزُب عنك عقلك ياقيس؟ أترى بنى زياد مصالحيك! وقد ذهبتَ بأمّهم يمينا وشمالا وقال الناس ما قالوا وشاءوا ، وإن حسبك من شرٍّ سماعه ، فذهبت كلمتها مثلا تقول : كفى بالمقالة عارا وإن كان باطلا .

وقولهم : "حلّقتْ به عَنْقَاءُ مُغْرِب" : يضرب لما يُئس منه ، قال الشاعر

إذا ما آبنُ عبد الله خلّى مكانه * فقد حلّقتْ بالجود عنقاءُ مُغربُ

قال الميدانىّ : والعنقاء طائر عظيم معروف الآسم مجهول الجسم يقال : كان بأرض الرّسّ جبل يقال له : دَمْخٌ مصعّد فى السماء ، وكان يأتيه طائر عظيم لها عنق

(٩) طويلة، وهى من أحسن الطير، فيها من كل لون، وكانت تقع منتصبة وتنقضّ على الطير فتأكلها، فجاعت يوما وأعوزها الطير فانقضّت على صبىّ فذهبت به فسميت عنقاء مغرب: لأنها تغرب بكل ما تأخذه، ثم انقضّت على جارية حين ترعرعت فأخذتها فضمتها إلى جناحين لها صغيرين سوى جناحيها الكبيرين ثم طارت، فشكوا ذلك إلى نبيّهم: خالد بن صفوان، فقال: اللهم خذها واقطع نسلها وسلّط عليها آفة! فأصابتها صاعقة فاحترقت فضربتها العرب مثلا.

قال عنترة بن الأخرس الطائىّ فى مرثية خالد بن زيد

لقد حلّقت بالجود عنقاء كاسرٌ ... كفتخاء دمخ حلّقت بالحَزَوَّر
فما إن لها بيضٌ فيُعرفُ بيضُها ... ولا شِبهُ طير منجدٍ أو مغوَّرِ

وقولهم: "حتّام تَكْرَع ولا تُنْقَع" كرع إذا تناول الماء بفيه من موضعه: يضرب للحريص فى جمع الشىء.

وقولهم: "حَسْبُكَ من إِنْضَاجِه أن تقتلَه": يضرب لطالب الثأر فيقول: لأقتلنّ فلانا وقومه أجمعين فيقال: لا تعدّ، حسبك أن تدرك ثأرك وطلبتك: ويضرب لمتجاوز الحدّ.

حرف الخاء

قولهم: "خَيْرَ حالِبَيْكِ تَنْطَحِين": يضرب لمن يكافئ المحسن بالإساءة، ومثله: خيرَ إناءيك تكفئين.

وقولهم: "خامرى أمّ عامر" معناه آستترى. وأمّ عامر: الضبع، يشبه بها الأحمق، ومثله: خامرى حَضاجِر، أتاك ما تحاذر: وهو آسم للذكر والأنثى من الضباع.

وقولهم: "خلا لكِ الجوّ فبيضى وآصْفِرى" قاله طرفة بن العبد، وكان فى سفر مع عمّه فنصب فخّاً للقنابر ونثر حَبّاً فلم يصد شيئا، فلما تحملوا رأى القنابر يلقطن الحبّ الذى نثره لهنّ. فقال فى ذلك

يا لك من قنبرةٍ بِمعمرِ! ... خلا لك الجو فبيضى وآصفِرى

ونقّرى ما شئتِ أن تنقّرى ... قد رحل الصيّاد عنك فابشِرى

و رفع الفخّ فما ذا تحذرى؟ ... لابدّ من صيدك يوما فاصبِرى!

يضرب فى الحاجة يتمكّن منها صاحبها.

وقولهم: "خَلْعُ الدِّرْع بِيد الزَّوْجِ" المثل لرَقَاش بنت عمرو بن تغلب بن وائل، وكان زوجها كعب بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة، فقال لها: آخلعى، فقالت: خَلْعُ الدِّرع بيد الزَّوج. فقال: آخلعيه لأنظر إليك، فقالت: التجرُّدُ لغير النكاح مُثلةٌ، فذهبت كلمتاها مثلين يُضربان فى وضع الشيء فى غير موضعه.

وقولهم

"خَلِّ سبيلَ مَنْ وَهَى سِقاؤُهُ ... ومَنْ هُرِيق بالفَلاة ماؤُهُ"

يُضرَب لمن كره صحبتك و زهد فيك.

وقولهم: "خَمْرُ أبى الرَّوْقاء لَيْسَتْ تُسكِر": يُضرَب للغنىّ الذى لا فضل له على أحد.

حرف الدال

قولهم : " دَمِّثْ لجَنْبك قبل النَّوم مُضْطَجَعا " أى آستعدّ للنوائب قبل حلولها، والتدميث : التليين .

وقولهم : " دَعِ آمرءًا وما آخْتَار " : يُضرَب لمن لا يقبل النصح ؛ قال الشاعر

٥

إذا المــرءُ لم يدرِ ما أَمكنَهْ * ولم يأتِ من أمره أزينــهْ!
وأَعجبَــهُ العُجبُ فاقتــادَهُ * وتاهَ به التِّيــهُ فآستحسنهْ،
فدعْهُ فقــد ســاءَ تدبيرهُ * سيضحَكُ يومًا ويبكى سنَهْ!

حرف الذال

قولهم : " ذَكَّرَنِى فُوكِ حِمَارَىْ أَهلِى " أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين ضلّا له ، فرأى آمرأةً فأعجبته فنسى الحمارين، فلما أسفرت عن وجهها رآها فَوْهاء فقال : ذكّرنى فُوكِ حمارَىْ أهلى ، وقال

١٠

ليت النِّقابَ على النساء مُحَرَّمٌ * كى لا تَغُــرَّ قبيحةٌ إنســانا

وقولهم : " ذهبوا أَيدِى سَبَأ " ويقال : تفرقوا ، أى تفرّقوا تفريقا لا آجتماع معــه .

١٥

وقصة سبإ لمّــا تفرقوا بسبب سيْل العرِم مشهورة، وسنذكرها إن شاء الله تعالى فى التاريخ .

وقولهم: "ذهبوا شَغَرَ بَغَرَ، وشَذَرَ مَذَرَ، وخِذَعَ مِذَعَ" أى فى كل وجه.

وقولهم: "ذَلَّ بعد شِمَاسه الْيَعْفُورُ": يضرب لمن انقاد بعد جماحه، واليعفور: فرس.

وقولهم: "ذَهَبتَ طُولا، وعَدِمتَ معقولا": يضرب للطويل بلا طائل.

٥

حرف الراء

قولهم: "رمتنى بدائها وانْسَلَّت" أصل هذا المثل: أن سعد بن زيد مناة تزوج رُهْمَ ابنة الخزرج، وكانت من أجمل النساء، وكان ضرائرها إذا سابَبْنَها يقلْن لها: ياعفلاء، فقالت لها أمها: إذا سابَبْنَكِ فابدئيهن بذلك، ففعلت رُهْم ذلك مع ضرّتها، فقالت: رمتنى بدائها وانسلّت، فذهبت مثلا: يضرب لمن يُعيِّر الآخر

١٠ بما هو يُعيَّر به.

وقولهم: "رماه بثالثة الأَثَافِى" وهى قطعة من الجبل يوضع إلى جنبها حَجَران ويُنصب عليها القدر: يضرب لمن رُمى بداهية عظيمة.

وقولهم: "رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدة" الصَّلَف: قلّة الخير، والراعدة: السحابة ذات الرعد: يضرب للبخيل مع السّعة.

١٥ وقولهم: "رَجَع بِخُفَّىْ حُنَيْن" أصله أن حُنَيْنا كان إسكافا بالحيرة وساومه أعرابىّ بخفّين فاختلفا حتى أغضبه، فلما ارتحل الأعرابىّ أخذ حنين الخفين فألقى أحدهما على طريق الأعرابىّ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه، فلما مرّ الأعرابىّ بالخف الأوّل قال: ما أشبه هذا بخف حنين ولو كانا خفين لأخذتُهما،

ثم مرّ بالآخر فندم على ترك الأوّل فأناخ راحلتــه وٱنصرف إلى الأوّل وقد كَمَنَ له حنين ، فأخذ الراحلة وذهب بهــا وأقبل الأعرابىّ إلى أهــله ليس معه غير خفّى حنين، فذهبت مثلا : يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة .

وقولهم : " رُبَّ ساعٍ لقاعد ، وآكِلٍ غيرِ حامِد " أوّل من قاله النابغة الذُّبيانى، وكان سبب ذلك أن وفدًا وفدَ إلى النعمان وفيهم رجل من بنى عَبْس يقال ٥
له : شَقِيق، فمات عنده، فلما حبا النعمان الوفود بعث بحبائه إلى أهله ، فقال النابغة فى ذلك

أتى أَهلَه منــه حِباءٌ ونعمةٌ * ورُبَّ ٱمرِئٍ يسعى لآخَرَ قاعِدِ

وقولهم : " رُبَّ مَلوم لَا ذَنْبَ لَه " قاله أكثم بن صيفىّ ، معناه قــد ظهر للناس منه أمر أنكروه عليه وهم لا يعرفون عذره، وقيل : إن رجلا قال للأحنف ١٠
ٱبن قيس : أنا أبغض التمر والزبد ، فقال : ربَّ ملوم لا ذنب له .

وقولهم : " رُبَّ كَلِمةٍ تقول لصاحبِها دَعْنِي ": يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار ، ذكروا أن ملكا من ملوك حِمْير خرج إلى الصيد ومعه نديم له فوقفا على صخرة ملساء، فقال النديم : لو أن إنسانا ذُبح على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه ، فأمر بذبحه ، وقال : ربَّ كلمة تقول لصاحبها دعنى . ١٥

ومثله قولهم : " رُبَّ رَأسٍ حَصِيد لِسَان ": يضرب للأمر بالسكوت .

وقولهم : " رُدَّ الحَجَــرَ من حيث جاءك ": أى لا تقبل الضَّيمَ وٱرم مَن رماك .

حرف الزاى

قولهم : " زُيِّنَ فى عَيْنِ والدٍ وَلَدُه " : يضرب فى عجب الرجل برهطه .

وقولهم : " زَاحِم بعَوْد أَوْ دع " اى لا تستعن إلا بأهل السنّ والتجربة .

وقولهم : " زَوْجٌ مِنْ عُود ، خير من قُعُود " . قالته بعض نساء العرب ، قالوا :

٥ كان ذو الإصبع العَدْوانِىّ غيورا ، وله بنات أربع ، وكان لا يزوجهن غيرة عليهنّ ، فاستمع عليهنّ يوما وقد خلَوْن يتحدثن . فقالت إحداهنّ : لتقل كلّ واحدة منا ما فى نفسها ، ولنصدقنّ جميعا ، فاشتهت كلّ واحدة من الثلاثة زوجا وصفتْ من جماله وكماله وسعة حاله ، ثم أبت الصغرى أن تتكلم ، فقالوا : لابدّ أن تقولى ، وألحّوا عليها . فقالت : (١١) زَوجٌ من عُود ، خيرٌ من قُعود ، فزوجهنّ .

١٠ وقولهم : " زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا " قاله مَعاذ بن صَرم الخزاعى ، وكانت أمّه من عَكّ ، وكان يكثر من زيارة أخواله ، فأقام فيهم زمانا ، ثم خرج يتصيد مع بنى أخواله ، فحمل على عير ، فلحقه ابن خال له يقال له : الغضبان فتخاصما . فقال له الغضبان : والله ! لو كان فيك خير لما تركت قومك . فقال : زُرْ غِبًّا . تزددْ حبًّا ، فأرسلها مثلا ، وفى ذلك يقول الشاعر

١٥ إذا شئتَ أن تُقلَى فَزُرْ متواليًا * وإن شئتَ أن تَزدادَ حُبّا فزرغِبّا

وقال آخر

عليك بإغباب الزيارة إنها * إذا كثُرتْ كانت إلى الهجر مَسْلَكا

ألم تر أنّ القطرَ يُسأم دائما * ويُسْأل بالأيدى إذا هو أمسكا

حرف السين

قولهم : "سَبَقَ السيفُ العذَل" قاله ضبّةُ بن أدّ لمّا لامه الناس على قتل قاتل ابنه فى الحرم، ويقال : إنه لخُزَيْم بن نوفل الهمدانىّ .

وقولهم : "سَقَطَ العَشَاء به على سِرْحان" أصله أن رجلا خرج يلتمس العَشاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال ابن الأعرابىّ : أصله أن رجلا من بنى غَنِىّ يقال له : سِرْحانُ ابن هزلة كان بطلا فاتكا فقال رجل! والله لأرعينّ إبلى هذا الوادى، فورد بإبله، فوجد سرحانَ فقتله، وأخذ إبله وقال

أبلغْ نصيحةَ: أنّ راعىَ أهْلِها * سَقط العَشَاء به على سِرْحانِ
سَقَط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ * طَلْقِ اليدين مُعاوِدٍ لِطعانِ

يضرب فى طلب الحاجة يؤدّى صاحبها إلى التلف .

ومثله قولهم : "سقط العَشَاءُ به على مُتَقَمِّرٍ" وهو الأسد .

وقولهم : "سَكَتَ أَلْفًا، ونَطَق خَلْفًا" الخَلْف : الردىء من القول وغيره .

وقولهم : "سَاءَ سَمْعًا فأساء جَابَة" أول من قاله سُهَيل بن عمرو أخو بنى عامر، وكان قد خرج بابنه أَنَس، فوقف بحزْورة مكة، فأقبل الأخنس بن شَرِيق الثقفىّ فقال له : من هـذا؟ فقال : ابنى ! فقال : حياك الله يافتى [أين أُمُّك ؟] فقــال : لا والله ما أُمِّى فى البيت ، ولكنها انطلقت إلى أمّ حنظلة تطحن دقيقا، فقال أبوه : ساء سمعا فأساء جابةً، فأرسلها مثلا .

وقولهم : " سحابُ نَوْءٍ ماؤُه حَمِيم " : يضرب لمن له لسان لطيف وليس وراءه خير .

وقولهم : " سُوء الاستمساك خير من حُسْن الصِّرْعة " : معناه حصول البعض مع الاحتياط خيرٌ من الكلّ مع التهوّر .

حرف الشين

٥

قولهم : " شُخْبٌ فى الإناء وشُخْبٌ فى الأرض " : يضرب لمن يتكلّم فيصيب مرة ويخطئ أخرى .

وقولهم : " شَرِقَ بالرِّيق " أى ضرّه أقرب الأشياء إلى نفعه .

وقولهم : " شِنْشِنَةٌ أعرفها من أَخْزَم " قاله أبو أخزم الطائىّ : وكان له

١٠ ابن يقال له : أخزم، فمات وترك بنين، فوثبوا على جدّهم يوما فأدموه، وكان أبوهم عاقًّا له فقال

إنّ بَنِىّ ضرَّجُونى بالدَّمِ * شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم

والشنشنة : الطبيعة والعادة : يضرب فى قرب الشبه .

وقولهم : " شَمِّرْ ذَيْلا، وادَّرِعْ ليْلا " : يضرب على الحثّ فى الجدّ والطلب .

١٥ وقولهم : " شَنُوءة بين يتامى رُضَّع " الشنوءة : ما يستقذر من القول والفعل : يضرب لقوم اجتمعوا على فجور وفاحشة ليس فيهم مرشد ولا ناهٍ .

وقولهم : " شَيْخٌ بحَوْران له ألقاب " وبعده * النّسْب والعقعق والغراب * حَوْران بأرض الشام : يضرب لمن يظهر للناس العفاف، ومن حقّه أن يُحترز منه .

وقولهم : " شَغَلَ الحَلْيُ أهلَه أن يُعارا " : يضرب للمسئول شيئا هو إليه أحوج من السائل .

وقولهم : " شَبَّ عَمْرٌو عن الطَّوْق " قاله جَذِيمة الأبرش، وعمرو هــذا هو ٱبن أخته وهو عمرو بن عدىّ بن نَصْر .

حرف الصــاد ٥

قولهم : " صَبرًا على مَجامِر الكِرام " قال ذلك يَسَارُ الكواعب ، وكان عبــدا أسودَ يَرْعَى لأهله إبلا ضخمة ، وكان معه عبد يراعيه ، فمرّ أهله يوما سائرين بحذاء الإبل التى يرعاها ، فعَمَد إلى لَقُوح فحلبها فى علبة ، حتّى ملأها ثم مشى بها ، وكان أفحج الرِّجلين ، حتى أتى بها ٱبنة مولاه يسقيها ، وهى راكبة على جملها ، فنظرت إلى رِجْليه فتبسمت ، ثم شربت اللبن وجزّته خيرا ، فانطلق فرِحا حتّى أتى صاحبه ، فقصّ عليه ١٠ القصة ، فقال : ٱسخر بنفسك ولا تسخر ببنات الأحرار ؛ فقال : والله لقد دَحكت إلىّ دِحْكةً لا أُخَيِّبُها ، يريد : ضحكت ، وكان أعجمىّ اللسان ، ثم باتا فقام فحلب فى علبة فملأها ، ثم أتى ٱبنة مولاه ، فنبّهها من نومها فاستيقظت وشربت ، ثم ٱضطجعت وجلس يسار حِيالَها ، فقالت : ما حاجتك ؟ فقال : ما أعلَمَكِ بحاجتى ! فقالت : لا والله ! فمــا هى؟ قال : ذاك الرجل الذى دحكتِ إلىّ . فقالت : حيّاك الله ، ١٥ وقامت إلى سَفَط لهــا فأخرجت منه بَخورا ودُهنا طيبا ، وعمدت إلى موسى كانت تحفّ به الشــعر ، وأخذت مِجْمرةً فيها نار ، فوضعت عليها البخور ووضعتها تحته ، وطأطأت كأنها تصلح البخور ، فعمدت إلى مذاكيره فسحتها بالموسى ، فلما أحس بحرارة الحديد . قال : صبرًا على مجامر الكِرام ، ثم أومأت إلى أنهــا تدهنه وقالت :

إن هذا دهن طيب، إلا أن فيه حرارةً فتصبّر عليه، فإن ريحك ريح الإبل وأنا أعافك، ثم أشمّته الدهن على الموسى، ورفعته فوضعته بين عينيه فاستلبت بها أنفه . وقالت : قم إلى إبلك يابن الخبيثة، فأتى صاحبه، فلما رآه . قال : أمقبل أنت أم مدبر؟ قال : أخزاك الله، أو قد عمى بصرُك ؟

٥ إذ لا ترى أنفا ولا أذنين * أما ترى وباصة العينين

هذا أحد الأقوال فى هذا المثل : يضرب لمن يؤمر بالصبر على ما يكره . ويقال: إن أعرابيا قدم الحضر بإبل ، فباعها بمال كثير وأقام لحوائج له ، فقطن قوم من جيرته لما معه من المال، فعرضوا عليه تزويج جارية وصفوها بالجمال والحسب طمعا فى ماله ، فرغب فيها فزوّجوه إياها ، ثم آتخذوا طعاما وجمعوا الحىّ ، وجلس ١٠ الأعرابىّ فى صدر المجلس، فأكلوا الطعام وأداروا الكؤوس وشرب الأعرابىّ ، ثم أتوه بكسوة فاخرة، فلبسها وقدّموا له مجمرة فيها بخور لاعهد له به، وكان لايلبس السراويل، فلما جلس على المجمرة، سقطت مذاكيره فى النار، فظن أن ذلك سُنّةٌ لابدّ منها، وآستحيا أن يكشف ثوبه . فقال: صبرا على مجامر الكرام، فذهبت مثلا وآحترقت مذاكيره، وتفرّق القوم، وآرتحل إلى البادية وترك المرأة والمال، فلما وصل ١٥ إلى قومه وقصّ عليهم القصة . قالوا : آستٌ لم تُعوَّد المِجْمَر، فذهبت مثلا : يضرب لمن لا قديم له .

وقولهم : "صار الزّجُّ قُدّامَ السِّنَانِ" : يضرب فى سبق المتأخّرِ المتقدّمَ من غير استحقاق لذلك .

وقولهم : "صَرّحَ المَحْضُ عن الزُّبْد" : يضرب للأمر إذا آنكشف وتبيّن .

وقولهم : "صَفْقَةٌ لم يَشْهَدْها حاطِب" هو حاطب بن أبى بلتعة كان حازما، فباع بعض أهله بيعة غُبِن فيها حين لم يشهدها حاطب، فسارت مثلا لكلّ أمر ينبرم دون صاحبه .

حرف الضـــاد

قولهم : "ضَرَبَهُ ضَرْبَ غرائب الإبل" وذلك أن الغريبة تزدحم على الحياض عنـد الورود، وصاحب الحوض يطردها ويضربها بسبب إبله : يضرب فى دفع الظالم عن ظلمه بأشدّ ما يمكن .

وقولهم : "ضَلَّ الدُّرَيْصُ نَفَقَه" الدُّرَيص : ولد الفارة واليربوع والهرّة وأشباه ذلك، ونفقه: جحره: يضرب لمن يُعْنى بأمره ويُعِدّ حُجَّةً لخَصْمه، فَيَنْسَى عند الحـاجة .

وقولهم : "ضَـلَّ حِلْمُ آمرأةٍ فأين عيناها ؟" أى هَبْ أنّ عقلهـا ذهب فأين ذهب بصرها ؟ : يضرب فى آستبعاد عقل الحليم .

وقولهم : "ضَائفُ اللَّيْث قتيلُ المَحْل" : يضرب لمن آضطرّ لشىء فغرّر بنفسه فى طلبه .

حرف الطـاء

قولهم : "طويتُه على بِلَاله وعلى بُلُلَته" قال الشاعر

وصاحبٍ مُرَامِقٍ داجيتُهُ * على بِلَال نفسـه طويتُه

ويقال : طويت السقاء على بُلُلَته إذا طويته وهو نَدٍ لأنه إن طُوِى يابسا تكسّر، وإن طوى نديًا عَفِن: يضرب للرجل يحمل على ما فيه من العيب؛ قال الشاعر

ولقد طويتُكمُ على بُلُلاتِكم ✻ وعلمتُ ما فيكم من الأذرابِ
فإذا القرابة لا تُقرِّبُ قاطعا ✻ وإذا المودّة أقربُ الأنسابِ

والأذراب : جمع ذَرَبٍ وهو الفساد .

وقولهم : " طويتُه على غَرِّه " : غَرُّ الثوب : أثر كسره الأوّل : يضرب لمن ٥ يُوكَل إلى رأيه وما ٱنطوى عليه .

حرف الظاء

(١٣)

قولهم : " ظالِعٌ يَعودُ كَسيرا " : يضرب للضعيف يَنصُر من هو أضعف منه .

وقولهم : " ظِئْرٌ رَءوم، خيرٌ من أُمٍّ سؤوم " : الظئر ، الحاضنة ، والرءوم : العطوف ، والسؤوم : الملول : يضرب فى عدم الشفقة وقلة الآهتمام .

١٠ وقولهم : " ظاهرُ العِتاب خيرٌ من باطن الحِقْد " معناه ظاهر .

وقولهم : " ظِلَالُ صيفٍ ما لها قِطار " : يضرب لمن له ثروة ولا يُجدى على أحد .

حرف العين

قولهم : " عند الصباح يَحمَدُ القومُ السُّرَى " أوّل من قاله خالد بن الوليد ١٥ لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان باليمامة أن يسير إلى العراق ، ونالته مشقة بسبب العطش ، فأسرى حتى أدرك الماء فقال : عند الصباح يحمد القوم السرى : يضرب لمن يحمل المشقة رجاء الراحة .

وقولهم : " عند جُهَينَةَ الخَبَرُ اليقين " : يضرب فى معرفة الشىء حقيقة .

وقولهم : " عيرٌ عارَه وَتِدُه " أى أهلكه ، وأصـله أنّ رجلا أشفق على حماره فربطه إلى وتد، فهجم عليه السبع فلم يمكنه الفرار فأهلكه .

وقولهم : " عند النِّطاح يُغلَبُ الكَبْشُ الأَجَمّ " وهو الذى لا قرن له : يضرب لمن غلبه صاحبه بمـا أعدّ له .

وقولهم : " على أهلها تَجْنِى بَرَاقِش " قالوا : كانت براقشُ كلبـةً لقوم من العرب ، فأغير عليهم فهربوا وهى معهم، فنبحت فاتبع القوم آثارهم بنُباحها ، فأدركوهم فقتلوهم ، ففيها يقول حمزة بن بِيْض

بل جناها أخٌ علىّ كريمٌ * وعلى أهلها بَرَاقِشُ تَجْنِى

وقيل فى هذا المثل غير ذلك .

وقولهم : " عسى الغُوَيْرُ أبْؤُسا " الغُوَيْر : تصغير غارٍ ، والابؤس : جمع بؤس وهو الشدّة ، قالته الزَّبّاء عند رجوع قَصِـير من العراق ، ومعه الرجال ، وكان الغوير على طريقه ، ومعناه لعل الشرّ يأتيكم من قبل الغار : يضرب للرجل يقال له : لعل الشرّ جاء من قبلك .

وقولهم : " عُشْبٌ ولا بَعِير " : يضرب للرجل له مال كثير ولا ينفقه على نفسه ولا على غيره .

وقولهم : " عَادَ غَيثٌ على مَا أَفْسَد " : يضرب للرجل فيه فساد ، وصلاحه أكثر .

وقولهم : " عاد السهمُ الى النَّزَعة " أى رجع الحق إلى أهله .

وقولهم : "عصا الجبانِ أطول" لانه يفعل ذلك من فشله ، يرى أن طولها أشدُّ ترهيبا لعدوه من قِصَرها .

وقولهم : "على الخبير سَقَطْت" المثل لمالك بن جُبَير العامرىّ، وتمثّل به الفرزدق حين لقى الحسينَ بن علىّ رضى الله عنهما، عند مقدمه من العراق وخروج الحسين إليه وقد قال له : ما وراءك ؟ فقال : على الخبير سقطْتَ، قلوبُ الناس معك، وسيوفهم مع بنى أميّة، والنصر من السماء .

وقولهم : "عادة السُّوءِ شَرٌّ من المَغْرَم" معناه أن المَغْرَم إذا أدّيتَه فارقك ، وعادة السوء لا تفارق صاحبها .

وقولهم : "عَجْعَجَ لمّا عَضّهُ الظِّعَان" أى صاح ، والظعان : نِسْعٌ يُشَدّ به الهَوْدَجُ : يُضرَب لمن يَضِجّ إذا لَزِمَهُ الحقّ .

وقولهم : "عندَ الرِّهانِ تُعرَف السّوابق" : يُضرَب لمن يدّعى ماليس فيه .

وقولهم : "عادَ الأمرُ إلى نِصابه" : يُضرَب فى الأمر يتولّاه أربابه .

وقولهم : "عَيْنُكَ عَبْرَى والفُؤادُ فى دَدٍ" الدّدُ والدَّدنُ والدَّدا : اللعبُ واللهوُ : يُضرَب لمن يُظهِر حُزنا لحزنك وفى قلبه خلاف ذلك .

وقولهم : "عُرْفُطَةٌ تُسْقَى مِنَ الغَوَادق" ويروى : الغوابق، العُرفُطة : شجرةٌ خَشِنَةُ المسّ، والغَوادقُ : السحابُ الكثير الماء : يُضرَب للشّرّير يُكَرّم ويُبجّل .

حرف الغين

قولهم: "غُدَّةٌ كغُدَّة البَعير ومَوْتٌ فى بَيْت سَلُولِيَّة" قاله عامر بن الطُّفَيل ؛ وذلك أنه لما قَدم على النبىّ صلى الله عليه وسلم ! وقدم معه أَرْبَد بن قَيْس اخو لَبِيد ابن رَبيعة العامرىّ الشاعر لأمّه ، فقال رجل : يا رسول الله ، هذا عامر بن الطُّفَيل قد أقبل ، قال : "دعهُ ، فإن يُرد اللهُ به خيرًا يهده" فأقبل حتى قام عليه ، فقال : يا محمد ، مالى إن أسلمتُ؟ قال : " لك ما للسلمين وعليك ما عليهم " قال : تجعل لى الأمر بعدك ، قال : "ليس ذاك إلىّ ، إنما ذاك إلى الله تعالى يجعله حيث يشاء" قال : فتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر ، قال : " لا " قال : فما ذا تجعل لى ؟ قال : "أجعل لك أعنّة الخيل تغزو عليها"، قال : أو ليس ذلك إلىّ اليوم ؟ وكان قد أوصى إلى أَرْبَد بن قَيْس : " إذا رأيتنى أُكلّمه فدُر من خلفه فاضربه بالسيف" فاخترط أَرْبَد سيفه شبرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدر على سَلّه ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أَرْبَد ومايصنع بسيفه ، فقال : "اللهمّ اكفِنيهما بما شئت" فأرسل الله تعالى على أَرْبَد صاعقةً فى يومٍ صائفٍ صاحٍ فأحرقته ، وولّى عامر بن الطُّفَيل هاربًا وقال : يا محمد ، دعوتَ ربَّك فقُتِل أَرْبَد ، والله لأَملأَنَّها عليك خيلا جُرْدا وفِتيانا مُرْدا ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " يمنعك الله من ذلك " فسار عامر حتى نَزَل ببيت امرأة سَلُولِيَّة ، فخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمة ، فقال : غدّة كغُدّة البعير ومَوْتٌ فى بَيْت سَلُولِيّة ، ثم مات على ظهر فرسه ؛ وسَلُول أقلّ العرب وأذلّهم ، فسار كلامه مثلا : يُضرَب فى خَصْلتين إحداهما شرٌّ من الأخرى .

وقولهم : " غَرَّنى بُردَاكَ من خَدَافِلى " ويروى : من غدافلى ؛ أصل المثل

أن رجلا استعار بُردَي امرأة فلبسهما، ورمى بخُلْقانٍ كانت عليه، فاسترجعت المرأة بُردَيها فقاله : يُضرَب لمن ضيّع ماله طمعًا فى مال غيره .

حرف الفـاء

قولهم : " فى وَجْه المـالِ تعرِفُ أُمْرَتَه " أى نماءه وخيره، ويقال: أمِرَتْ أموالُ بنى فلان إذا نَمَتْ وكثُرت : يُضرَب لمن يُستدلّ بحسن ظاهره على حسن باطنـه .

وقولهم : " فى بيْتِـه يُؤتَى الحَكَم " زعمت العرب أن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها ، فانطلقا يختصمان إلى الضبّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحِسْـل ، قال : سميعًا دعوتِ ، قالت : أتينـاكَ لنختصم إليـك ، قال : عادلا حكّما ، قالت : فاخرج إلينا ، قال : فى بيتـه يُؤتى الحَكَم ، قالت : إنى وجدتُ تمرةً، قال : حُلوةٌ فكليها ، قالت : فاختلسها الثعلب، قال : لنفسه بغَى الخير ، قالت : لطمتُه ، قال : بحقّك أخذتِ ، قالت : لطمَنِى ، قال : حُرٌّ انتصر ، قالت : فاقض بيننا ، قال : حَدِّث حديثين امرأةً، فإن أبَتْ فأربعـةً ؛ فذهبتْ أقواله كلُّها أمثالا .

وقولهم : " فتًى ولا كمالك " قاله مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك لمـا قُتل .

وقولهم : " فى دُون هذا ما تُنكِرُ المرأةُ صاحبَها " أول من قاله جارية من مُزَيْنة ، قال الحَكَم بن صخر الثقفى : خرجتُ منفردًا فرأيتُ بإمَّرَة (وإمّرة موضع)، جاريتين أُختين لم أرَ بجمالها، فكسوتُهما وأحسنتُ إليهما، قال : ثم حججتُ من قابلٍ ومعى أهلى، وقد اعتللتُ ونصَل خضابى، فلما صرتُ بإمَّرة، إذا إحداهما قد جاءت، فسألت

سؤال مُنكِرة، قال فقلت : فلانة ؟ قالت : فِدًى لك أبى وأمى، أَنَّى تعرِفُنى وأُنكرك ؟ قال فقلتُ : أنا الحَكَم بن صخْر، قالت : رأيتُك عامَ أوّل شاباً سُوقةً، وأراك العام شيخًا ملِكًا، وفى دُون هذا ما تُنكرُ المرأةُ صاحبَها، فذهبت مثلا، قال قلت : مافعلتْ أختك ؟ قال : فتنفّست الصُّعَداءَ، وقالت : تزوّجها ٱبن عمّ لها وذهب بها، فذاك حيث تقول

إذا ما قَفَلنـا نحوَ نجْـد وأهلها * فحسبى من الدنيا قُفولٌ إلى نجد

قال قلت : أمَا إنى لو أدركتُها لتزوجتُها، قالت : وما يمنعك من شريكتها فى حسنها و جمالها وشقيقتها ؟ قال قلت : يمنعنى من ذلك قول كُثَيِّر حيث يقول

إذا وصلتنا خُلة كى تزيلَنـا * أبَينا وقلنـا الحاجبيّة أوّل

فقالت : كثيّر بينى و بينك، أليس الذى يقول

هل وصل عَزّةَ إلا وصل غانية ؟ * فى وصل غانيـة من وصلها خَلَفُ

قال : فتركت جوابها عيًا .

وقولهم : " فاتكةٌ واثقةٌ بِرِىّ " زعموا أن آمرأة كثُر لبنها وطفقت تُهريقه، فقال لها زوجها : لِمَ تهريقينه ؟ فقالت : فاتكة واثقة برىّ : يضرب للفسد الذى وراء ظهره مَيسرة .

حرف القـاف

قولهم : " قطعتْ جَهِيزَةُ قولَ كلّ خَطيب " أصله أن قوما آجتمعوا يخطبون فى صلح بين حيّين، قَتل أحدُهما من الآخر قتيلا ليرضَوا بالدية، فبيناهم فى ذلك، إذ جاءت أمة يقال لها : جَهيزة، فقالت : إن القاتل قد ظَفر به بعضُ

أولياء المقتول فقتله ، فقالوا : قطعت جهيزة قول كلّ خطيب : يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بجهله .

(١٥) وقولهم : " قَبْلَ البكاء كان وجهك عابسا " : يضرب للبخيل يعتلّ بالإعدام.
ومثله : " قَبْلَ النِّفَاسِ كُنتِ مُصْفَرَّةً " .

٥ وقولهم : " قَلَبَ الأمرَ ظَهراً لبطن " : يضرب فى حسن التدبير .

وقولهم : " قد شَمَّرتْ عن ساقها فشَمِّرى " : يضرب فى الحثّ على الجدّ فى الأمر .

وقولهم : " قد يَضرِط العَيْرُ والمِكواةُ فى النار" قاله عُرفُطة بن عَرجَفة سيّد بنى هِزّان، وكان بينه و بين الحُصَين بن نَبِيت العُكْلِىّ حروب و وقائع، فقتلت عُكْل ١٠ رجلا من بنى هِزّان، وأسر عُرفُطة بن عُكْل رجلين، فقال لهما: أيكم أفضل لأقتله بصاحبنا؟ فجعل كلّ واحد منهما يخبر أنّ صاحبه أكرم منه، فأمر بقتلهما جميعا، فقُدِّم أحدهما للقتل، فجعل الآخر يَضرِط، فقال عُرفُطة: قد يضرط العير والمكواة فى النار، فأرسلها مثلا : يضرب للرجل يخوَّف بالأمر فيجزع قبل وقوعه . وهذا أحد الأقوال فيه، وقيل غير ذلك .

١٥ وقولهم : " قد بَيَّنَ الصبحُ لذى عَينين " : يضرب فى ظهور الأمر كلّ الظهور .

وقولهم : " قد أَنصَفَ القارَةَ من راماها " القارةُ : قبيلةٌ قد تقدّم ذكرها فى الأنساب .

وقولهم : " قبلَ الرِّماء تُملأ الكنائن " أى تؤخذ أهبة الأمر قبل وقوعه .

ومثله . "قبل الرَّمي يُراش السهم" : يضرب فى تهيئة الآلة قبل الحاجة اليها .

وقولهم : "قَلَب له ظَهر المِجَنّ" : يضرب لمن كان لصاحبه على مودّة، ثم حال عن عهده .

وقولهم : "قد ألقَى عصاه" إذا آستقرّ من سفر أو غيره؛ يقال : إنه لما بويع لأبى العباس السفّاح، قام خطيبا فسقط القضيب من يده، فقام رجل من القوم وأنشد ٥

فألقتْ عصاها وآستقرّ بها النوى * كما قــرّ عينًا بالإياب المسافرُ

وقولهم : "قد ونَى طَرَفاه" : يضرب لمن ذلّ وضعُف عن أن يتمّ له أمر؛ قال النجاشىّ

وإنّ فلانا والإمارة كالذى * وَنَى طَرَفاه بعد ما كان أجدعا

وقولهم : "قُدّتْ سيورُهم من أدِيمك" : يضرب للشيئين يستويان فى الشبه ١٠ . قال الشاعر

* وقُدّت من أديمهم سيورى *

وقولهم : "قد بلَغ الشِّظاظ الورِكَين" الشظاظ : عُوَيد يُجعل فى عروة الجوالق : يضرب فيما جاوز الحدّ، وهو كقولهم : جاوز الحزامُ الطُّبْيَين .

حرف الكاف ١٥

قولهم : "كان كُراعا، فصار ذراعا" : يضرب للذليل الضعيف صار عزيزا قويّا .

وقولهم : "كلامٌ كالعسَل، وفعلٌ كالأسَل" : يضرب فى آختلاف القول والفعل .

وقولهم : "كنتَ تبكى من الأثر العافى فقد لاقيتَ أُخدودا": يضرب لمن يشكو القليل من الشرّ ثم يقع فى الكثير .

وقولهم : "كلّ ذات بعلٍ ستَئيم" هـذا من أمثال أكثم بن صيفىّ ؛ قال الشاعر

٥ أفاطم إنى هالك فتثبّـتى ❊ ولا تجزعى، كلّ النساء تئيم

أى ستفارق زوجها .

وقولهم : "كلّ أزَبَّ نَفور" قاله زُهَير بن جَذِيمة لأخيه أُسيد، ونذكر الخبر فى وقائع العرب .

وقولهم : "كلّ فتاة بأبيها مُعجَبة": يضرب فى عجب الرجل بعشيرته ورهطه .

١٠ وقولهم : "كلّ الصيْد فى جوف الفَرا" الفرا : الحمار الوحشىّ ؛ أصل المثل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيّدين، فاصطاد أحدهم أرنبا، والآخر ظبيا، والثالث حمارا، فتطاولا عليه بصيدهما، فقال : كلّ الصيد فى جوف الفرا : يضرب لمن يفضّل على أقرانه، وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقولهم : "كَدَمْتَ غير مَكْدَم": يضرب لمن يطلب شيئا فى غير مطلبه .

١٥ وقولهم : "كالثور يُضرب لمّا عافت البقر" : يضرب فى عقوبة البرىء بذنب المجرم، ويأتى ذكر ذلك فى أوابد العرب .

وقولهم : "كالكبش يحمل شَفْرةً وزنادا" : يضرب لمن يتعرّض للهلاك .

وقولهم : "كالمستغيث من الرمضاء بالنار" : يضرب فى الخلّتين يجتمعان على الرجل .

وقولهم : " كالقابس العَجلان " : يضرب لمن عجّل فى طلب حاجته .

وقولهم : " كلاهما وتمرا " أوّل من قاله عمـرو بن حُمران الجعدىّ ، وذلك أنه مرّ برجل وبين يديه زُبد وسَـنام وتمر، فقال : أنلنى ممّـا بين يديك ، فقال : أيّمـا أحبّ إليك أزُبدٌ أم سَنام ؟ فقال : كلاهما وتمرا ، فسارت مثلا .

وقولهم : " كالباحث عن المُدْيَة " يقال : إن رجلا وجد صيدا، ولم يكن معه ما يذبحه به ، فبحث الصيد بأظلافه فى الأرض ، فسقط على شفرة فذبحه بها : يضرب فى طلب الشيء يؤدّى صاحبه إلى تلف النفس .

وقولهم : " كذى العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتع " : يُضرب فى أخذ البرىء بذنب الجانى ، ويأتى ذكره فى أوابد العرب .

وقولهم : " كالمحتاض على عَرْض السراب " : يُضرب لمن يطمع فى محال .

وقولهم : " كلّ لياليه لنا حَنادس " : يُضرب لمن لا يصل إليك منه إلا ما تكره .

حرف اللام

قولهم : " لو ذاتُ سِـوار لطمَتنى " معناه لو ظلمنى من كان كفؤا لى لهان علىّ ، ولكن ظلمنى من هو دونى ، وهو كقول بعضهم

فلو أنى بُليتُ بهـاشمىّ * خؤولته بنو عبـد المَدان

لهـان علىّ ما ألقى ولكن * تعالَىْ فانظرى بمن آبتلانى

وقولهم : " لو غير ذاتِ سِوارٍ لطمَتنِى " روى الأصمعىّ : أن حاتما الطائىّ مرّ ببلاد عَنَزة فى بعض الأشهر الحُرُم فناداه أسير لهم : يا أبا سَفانة : أكلنى الإسار

والقمل، فقال: ويحك، أسأتَ إذ نوهت باسمى فى غير بلاد قومى، فساوم القومَ به ثم قال : أطلقوه وآجعلوا يدىَّ فى القِدّ مكانه ، ففعلوا ذلك ؛ ثم جاءته آمرأة ببعير ليفصده فنحره فلطمته فقال : لو غير ذات سوار لطمتنى، يعنى أنى لا أقتصّ من النساء، ثم عُرِف، ففدى نفسه فداءً عظيما .

٥ وقولهم : "لو تُرِكَ القَطا ليلا لَنَـام" قالته آمرأة عمرو بن مامة، وقد نزل عليه قوم من مُرادٍ، فطرقوه ليلا، فأثاروا القطا، فرأته آمرأته فنبّهته فقال : إنمـا هذا القطا ، فقالت : لو تُرِكَ القطا ليلا لنام ؛ فسار مثلا : يُضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته؛ وقيل : إن التى قالته له حَذام بنت الريّان .

وقولهم : "لبِسَ له جِلْدَ النِمِر" : يضرب فى إظهار العداوة وكشفها .

١٠ وقولهم : "لقد ذَلّ من بالت عليـه الثعالب" أصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما، فجاء ثعلب فبال عليه، فقال فى ذلك :

أربٌّ يبول الثُّعلُبانُ برأسه؟ * لقد ذلّ من بالت عليه الثعالبُ

وقولهم : "ليس هذا بعُشّكِ فآدرُجى" : يُضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .

وقولهم : "لم أجِدْ لشَفْرَتى مَحَزّا" : يُضرب عذرا فى تعذّر الحاجة .

١٥ وقولهم : "لو سـئلت العاريةُ أين تذهبين لقالت أُكسبُ أهلى ذمّا" هذا من كلام أكثم بن صيفىّ: يُضرب فى سوء الجزاء للنعم .

وقولهم : "ليس من العَذْل ، سرعة العـذْل" أى لا ينبغى أنــ تعجِّلَ بالعذل قبل أن تعرفَ العذرَ .

وقولهم : " ليس القُدامَى كالخَوافِى " : يُضرب عند التفضيل .

وقولهم : " لو كُوِيتُ على داءٍ لم أَكْرَه " أى لو عوتبتُ على ذنب ما ٱمتعضتُ .

وقولهم : " ليس على الشَّرْق طَخَاءٌ يَحْجُب " أى ليس على الشمس سحاب : يضرب فى الأمر المشهور الذى لا يخفى على أحد .

وقولهم : " لأكوينّه كيّة المتلوِّم " أى كيّا بليغا ، والمتلوِّم : الذى يتتبّع الداء ٥ حتى يعلم مكانه : يُضرب فى التهديد الشديد .

وقولهم : " لأمرٍ مّا جدَع قَصِيرٌ أنفه " قالتــه الزَّبّاء لمـا رأت قَصيرا مجدوعا ، وخبره يأتى فى باب المكايد .

حرف المـــيم

قولهم : " ما تَنفع الشَّفْعةُ فى الوادى الرُّغُب " الشَّفْعة : المطرة الهيّنة ، والرُّغُب : ١٠ الواسع : يضرب للذى يعطيك قليلا لا يقع منك موقعا .

وقولهم : " ما وراءكِ ياعِصام ؟ " يقال : أوّل من قال ذلك الحارث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه بلغه جمال ٱبنة عَوف بن مُحَلِّم فأرسل إليها ٱمرأة ذات عقل ولسان ، يقال لها : عِصام ، وقال : ٱذهبى لتعلمينى بحالها ، فلما ٱنتهت إليها ونظرتها خرجت وهى تقول : " تَرَكَ الخِداعَ ، مَن كَشَف القِناعَ " فذهبت مثلا ، ثم عادت ١٥ اليه ، فقال لها : ماوراءكِ ياعصام ؟ فقالت : " صرَّح المَحْضُ عن الزُّبد " فأرسلتها مثلا ، وساق الميدانىّ على هــذا المثل كلاما طويلا قالته عِصام فى وصف أعضاء المخطوبة .

وقولهم : "ما يومُ حَليمةَ بسرّ" هى حليمة بنت الحارث بن أبى شَمِر، كان أبوها وجّه جيشا إلى المنذر بن ماء السماء فأخرجتْ لهم طيبا فى مِرْكَنٍ فطيّبتهم؛ فلما انتهت إلى لَبِيد بن عمرو وذهبت لتُخلّقه، قبّلها، فلطمته وأتت أباها، فقال لها : ويلكِ آسكتى عنه، فهو أرجاهم عندى ذكاءَ فؤادٍ . وإنى مرسله، فإن قُتل فقد كفى الله شرّه؛ فسار إلى المنذر بالجيش، فقتلوا المنذر وكان يوما مشهورا، فقيل فيه : ما يوم حليمةَ بسرّ .

وقولهم : "ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة" أى ما أشبهَ بعض القوم ببعض .

وقولهم : "مرْعًى ولا كالسَّعدان" قالوا : السَّعدان أختر العُشب لبنا، ومنابته السهول : يُضرب مثلا للشىء يفضَّل على أقرانه وأشكاله؛ وأوّل من قال المثل : خنساء بنت عمرو بن الشريد، وقيل : بل قالته آمرأة من طيئ تزوجها آمرؤ القيس بن حُجْر الكندىّ فقال لها : أين أنا من زوجك الأوّل ؟ فقالت : مرعًى ولا كالسّعدان، أى إنك إن كنت رضًا فلست كفُلانٍ .

وقولهم : "ماءٌ ولا كصَدَّاء" صَدَّاءُ : ركيّة عذبة؛ قال ضِرار السعدىّ

وإنى وتَهيامى بزينبَ كالذى ⁂ تطلَّبَ من أحواض صَدَّاءَ مَشرَبا

معناه أنه لا يصل إليها إلا بالمزاحمة لفرط حسنها، كالذى يرِدُ الماءَ فإنه يزاحم عليه لفرط عذوبته .

وقولهم : "محا السيفُ ما قال آبنُ دارةَ أجمعا" هو سالم بن دارة الغطفانىّ، ودارةُ : أمّه، وكان قد هجا بعض بنى فزارة فآغتاله زَميل فقتله، ففيه يقول الكميت

فلا تُكثروا فيه الضِّجاجَ فإنه ⁂ محا السيفُ ما قال آبنُ دارة أجمعا

وقولهم : "مَلَكتَ فأَسجِحْ" الإسجاح : حسن العفو، أى ملكت الأمر فأحسنِ العفو؛ وقد تمثّل به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته؛ ونذكر الخبر فى ذلك فى المغازى .

وقولهم : "من ينكح الحسناءَ يُعطِ مَهرَها" أى من طلب حاجة بذل ماله فيها .

وقولهم : "من سرّه بنوه ساءته نفسه" قاله ضِرار بن عمرو الضبّىّ : وكان ولده ثلاثة عشر رجلا، كلّهم قد غزا ورأس، فرآهم يوما وأولادَهم، فعلم أنهم لم يبلغوا هذه الأسنان إلا مع كبر سنّه، فقال : من سرّه بنوه ساءته نفسه، فأرسلها مثلا .

وقولهم : "من أشبه أباه فما ظلم" معناه ظاهر .

وقولهم : "من يرِ يوما يُرَ به" قاله كَلْحَب بن شُؤبوب الأسدىّ، وكان يُغير على طيئ وحده، فدعا حارثةُ بن لأْم رجلا من قومه يقال له : عترم، فقال له : أما تستطيع أن تكفيَنى مؤونة هذا الخبيث؟ فقال : بلى، فأرسل عشرة عيون عليه، فعلموا مكانه فانطلق إليه عترم فوجده نائما فى ظلّ أراكةٍ فنزل ومعه آخر فأخذ كلّ واحد منهما بإحدى يديه فانتبه فنزع يده اليمنى من مُمْسكها وقبض على حَلْق الآخر فقتله وبادر الباقون فأخذوه وشدّوه وثاقا وأتوا به حارثة، فقال له : يا كلحب، إن كنتَ أسيرا فطالما أسرتَ، فقال : من يرِ يوما يُرَ به، فأرسلها مثلا، وقال حَوذة وهو ابن المقتول لحارثة : أعطنيه أقتله بأبى، فقال : دونكه ! وجعلوا يتكلّمون وهو يعالج كتافَه حتى انحلّ، ثم وثب على رجليه فاتّبعوه بالخيل فأعجزهم .

وقولهم : "مَنْ سلك الجَدَدَ أمن العثار" الجَدَدُ : الأرض المستوية : يُضرب فى طلب العافية .

وقولهم : " مَن يشترى سيفى وهـذا أثره؟ " قاله الحارث بن ظالم، وذلك انه لمـا قتل خالد بن جعفر بن كلاب بزهير بن جذيمة العبسىّ على ما نذكره إن شاء الله فى وقائع العرب وهرب، فوجّه النعمان فوارس فى طلبه فأدركوه سحرا فعطف عليهم وقتل منهم جماعة وكرّوا عليه فجعل لايقصد لجماعة إلا فرّقها وهو يقول : من يشترى سيفى وهذا أثره، فارتدعوا عنه وآنصرفوا إلى النعمان . ٥

وقولهم : " مِنْ مالِ جَعْدٍ وجعدٌ غير محمود " قاله جعد بن الحُصين أبوصخر آبن جعد الشاعر، وكان قـد كبر فتفرّق عنه بنوه وأهله، وبقيت له جارية سوداء تخدمه، فعلقت بفتى من الحىّ يقال له : عَرابة، فجعلت تنقل إليه ما فى بيت جعد، ففطن جعد لذلك، فقال فى ذلك

١٠ أبلغ لديك بنى عمـــرو مُغلغلةً * عمرا وعَوفا وما قولى بمـردود
بأنّ بيتى أمسى فوق داهيةٍ * سوداءَ قد وعدتْنى شرّ موعودِ
تُعطى عَرابةَ بالكفّين مجتنحاً * من الخَلوق وتُعطينى على العودِ
أمسى عَرابةُ ذا مالٍ يُسرّ به * من مالِ جعدٍ، وجعدٌ غير محمودِ

يُضرب للرجل يصاب من ماله ويذمّ .

١٥ وقولهم : " من مأمنه يؤتَى الحذِر " قاله أكثم بن صيفىّ .

وقولهم : " من يمش يرضَ بمـا ركب ": يضرب للذى يضطرّ إلى ما كان يرغب عنه .

وقولهم : " من يلقَ أبطالَ الرجالِ يُكلَم " قاله عُقيـل بن علقمة المُرّى ، وقد رماه عَملّس آبنه بسهم فخلّ فخذيه، فقال أبياتا منها

إنّ بنيّ زمّلونى بالدمِ * شِنشِنةٌ أعرفُها من أَخزمِ
* من يَلْقَ أبطالَ الرجال يُكلَمِ *

وقولهم : " من لا يَذُدْ عن حوضه يُهَدَّم " أى من لم يدفع عن نفسه يُظلم، قاله زُهَير بن أبى سُلمى .

(١٨) وقولهم : " مكْرَه أخوك لا بطل " قاله أبو حَنَش خال بَيْهس : يُضرب لمن يُحمل على ما ليس من شأنه . ٥

وقولهم : " من نام لا يَشعُر بشجو الأرِق " : يُضرب لمن غفل عما يعانيه صاحبه من المشقّة .

حرف النون

قولهم : " نفْس عِصامٍ سوّدتْ عِصاما " هو عصام بن شَهْبَر حاجب النعمان ابن المنذر : يُضرب فى نباهة الرجل من غير قديم ؛ وقيل فى هذا ١٠

نفْسُ عصامٍ سوّدت عصاما * وعلّمتْـه الكرَّ والإقـداما
* وصيّرتْه ملِكا هُمـاما *

وقولهم: " نظرةٌ مِن ذى عَلَق " أى من ذى هوًى : يُضرب لمن ينظر بودّ .

وقولهم : " نَزَتْ به البِطنة " : يُضرب لمن لا يحتمل النِّعمة؛ ١٥
قال الشاعر

فلا تكوننّ كالنـازى ببِطنته * بين القرينيْن حتى ظلّ مقرونا

وقولهم : " نجوتُ وأرهنتُهم مالكا " قال عبد الله بن همّام السَّلولىّ

فلمّا خَشِيتُ أظافيرَهم * نجوتُ وأرهنتُهم مالكا

يُضرب لمن ينجو من هَلَكة نَشَبَ فيها شركاؤه وأصحابه .

وقولهم: " نام عِصام ساعةَ الرحيل " : يُضرب لمن طلب الأمر بعد ما ولّى.

٥ حرف الهاء

قولهم : " هُدْنةٌ على دَخَن " .

وقولهم : " هذا أوانُ شدّكم فشُدّوا " .

ومثله قولهم : " هذا أوانُ الشدّ فاشتدّى زِيَم " قال الأصمعىّ : زيم : اسم فرس : يُضرب للرجل يؤمر بالجِدّ .

١٠ وقولهم : " هو على حَبْلِ ذراعك " أى الأمر فيه إليك : يُضرب فى قرب المتناوَل؛ وحبْل الذراع : عِرقٌ فى اليد .

وقولهم : " هان على الأملسِ ما لاقَى الدَّبِر " : يُضرب فى سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه .

وقولهم : " هو بين حاذِف وقاذِف " الحاذف بالعصا، والقاذف بالحصى : ١٥ يُضرب لمن هو بين الشرّين .

وقولهم : " هو على طَرَف الثُّمام " الثمامُ: نبت ضعيف سهل المتناوَل تسدّ به خصاصُ البيوت، وربما حُشِيتْ به المَخادّ؛ قالوا : إنه ينبت على قدر قامة الإنسان: يُضرب فى تسهيل الحاجة وقرب النجاح .

وقولهم : " هى الخمر تُكنَى الطِّلاء ": يضرب للأمر ظاهره حسن وباطنه على خلاف ذلك .

حرف الواو

قولهم: "وافق شَنٌّ طَبَقَة" قال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له : شَنٌّ ، فآلى أنه يطوف البلاد حتى يجد آمرأة مثله فيتزوجها ، فبينا هو فى بعض مسيره إذ وافقه رجل فى الطريق فسارا جميعا ، فقال له شَنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال : أنا راكب وأنت راكب ، فكيف تحملنى أو أحملك ؟ ! ثم سارا فانتهيا إلى زرع قد آستحصد ، فقال شَنٌّ : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فقال : لم أر أجهل منك ، نبتا مستحصدا فتقول : أُكل أم لا ! فسكت ، ثم سارا حتى دخلا القرية فلقيا جنازة ، فقال شَنٌّ : أترى صاحب هذا النعش حيا أم ميّتا ؟ فقال له الرجل : ترى جنازة تسأل عنها أميّت صاحبها أم حىّ ! فسكت عنه شَنٌّ وأراد مفارقته فأبى أن يتركه وسار به إلى منزله ، وكان للرجل بنت يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ، فقال : ما رأيت أجهل منه ، وحدّثها بحديثه ، فقالت : يا أبتِ ما هذا بجاهل ! قوله : أتحملنى أو أحملك ؟ أراد أتحدّثنى أم أحدّثك ، وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكل أم لا ؟ فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟ وأما الجنازة فأراد هل ترك عقبا يحيا بهم ذكره أم لا ؟ فخرج الرجل فقعد مع شَنٌّ فحادثه ، وقال له : أتحب أن أفسر لك ما سألتنى ؟ قال نعم ، ففسره ، فقال شَنٌّ : ما هذا من كلامك ، فأخبرنى مَنْ صاحبُه ؟ فقال : آبنة لى ، فخطبها إليه فزوّجه إياها وحملها إلى أهله ، فلما رأوها قالوا : وافق شَنٌّ طبقة ، فذهبت مثلا : يُضرب للتوافقين ؛

وقال الاصمعىّ : هم قوم كان لهم وعاء من أَدَمٍ فتشنّن فجعلوا له طَبَقا فوافقه فقيل : وافق شَنٌّ طَبَقه، ورواه أبو عبيدة فى كتابه، وقال آبن الكلبىّ : طبقة : قبيلةٌ من إياد كانت لا تطاق فأوقعت بهـا شنّ بن أفصى بن دُعْمِىّ فانتصفَتْ منها وأصابت فيها فضُربتا مثلا وأنشد

٥ لَقِيَتْ شَنٌّ إيادا بالقنا * طبَقًا، وافق شَنٌّ طَبَقَه

وقولهم : "وجدتُ الناس آخبرْ تَقْلُه" أصـله آخبُرِ الناس تَقْلُهم : يُضرب فى ذمّ الناس وسوء معاشرتهم .

وقولهم : "وَلُودُ الوعد عاقرُ الإنجاز": يُضرب لمن يكثُر وعده ويقلُّ نقدُه .

وقولهم : "وَدِّعْ مالًا مُودِعُه" لأنه إذا آستودعه غيره فقـد ودّعه وغرّر به ١٠ ولعله لا يرجع اليه .

وقولهم : "ومَوْرِد الجهل وَبِيءُ المَنهل": يُضرب فى النَّهيِ عن آسـتعمال الجهـل .

ما جاء فى ما أوّله (لا)

قولهم : "لا مَخْبأَ لِعطْرٍ بعد عَروس" ويقال : "لا عِطْرَ بعـد عَروس" ١٥ أوّل من قاله آمرأة من عُذْرة، يقال لها : أسماء بنت عبد الله، وكان لهـا زوج من بنى عمّها يقال له : عَروسٌ، فمات عنها، فتزوجها رجل من قومها يقال له نَوْفَل، وكان أعسرَ أبخَرَ بخيلا دميما، فلما دخل بهـا قال : ضُمّى إليك عِطرَك، فقالت : لا عِطرَ بعد عَروس، فذهبت مثلا، ويقال : إن رجلا تزوّج آمرأة، فلمـا أهديت إليه (١٩)

وجدها تَفِلَةً فقال لها : أين الطِّيبُ ؟ فقالت : خَبَّأْتُه، فقال لها : لا مَخْبَأً لعطرٍ بعد عَروس : يُضرب مثلا لمن لا يُدَّخر عنه نفيسٌ .

وقولهم : " لا يُلدَغ[1] المؤمن من جُحرٍ مرّتين ": يُضرب لمن أُصيب ونُكب مرّة بعد أخرى ، يقال هذا من امثال النبيّ صلى الله عليه وسلم قاله لأبي عَزّة الشاعر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسره يوم بدرٍ فمنّ عليه وأطلقه ثم أتاه يوم أُحدٍ فأسره ، فقال : مُنَّ عليّ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرّتين " أى لو كنتَ مؤمنا لم تعدْ لقتالنا .

وقولهم : " لا أطلبُ أثَرًا بعدَ عين " أوّل من قاله مالك بن عمرو العامرىّ[2] ، وكان من حديثه أن بعض ملوك غسّان كان يطلب فى بنى عامر ذَحْلًا فأخذ منهم مالكا وسِماكا آبنى عمرو العامرىّ فاحتبسهما زمانا ثم دعا بهما ، فقال لهما : إنى قاتل أحدكما ، فأيكما أقتل ؟ فجعل كلّ واحد منهما يقول : آقتلنى مكان أخى ، فقتل سِمَاكا وخلّى سبيلَ مالك ، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول

فأقسمُ لو قَتلوا مالكا ... لكنتُ لهم حيّةً راصدهْ

برأس سبيلٍ على مَرقبٍ ... و يوما على طُرُقٍ واردهْ

فأُمَّ سِماكٍ فلا تجزعى ... فللموت ما تلد الوالدهْ

وآنصرف مالك إلى قومه فأقام فيهم زمانا ثم إنّ ركبا مرّوا وواحد منهم يتغنّى بقول سِماكٍ * فأُقسم لو قَتلوا مالكا * فسمعتْه أمّ سِماك، فقالت : يامالك ، قبح الله الحياة بعد سِماك ، آخرج فى الطلب فخرج فلقى قاتل أخيه يسير فى ناسٍ من قومه فقال :

(١) كذا فى الأصل وفى مجمع الأمثال وفرائد اللآل : "لا يلسع" .

(٢) هكذا فى الأصل وفى مجمع الامثال : "العاملىّ" باللام وفى فرائد اللآل : "الباهلىّ" .

من أحسَّ لى الجملَ الأحمرَ، فقالوا له وقد عرفوه : يا مالك آكفف ولك مائة من الإبل، فقال : لا أطلب أثرا بعد عين، فذهبت مثلا .

وقولهم : "لا يُرسِل الساقَ إلا مُمسِكا ساقا" أصله فى الحِرباء : يُضرب لمن لا يدع حاجةً إلا سأل أخرى .

٥ وقولهم : "لا ماءَكِ أبقَيْتِ، ولا حِرَكِ أنقَيْتِ" ويُروى : ولا دَرَنَكِ ؛ اصله أنّ رجلا كان فى سفر ومعه آمرأته، وكانت عاركا فطهُرتْ وكان معها ماء يسير فاغتسلت به فنفد ولم يكفها لغسلها فعطشا فقال هذا القول فسار مثلا، وقيل : إنّ الذى قاله الضبّ بن أروَى الكلاعىّ قاله لأمرأته عَمْرة بنت سُبيع ؛ قال الفرزدق

وكنتُ كذات الحيض لم تُبقِ ماءَها * ولا هى من ماء العَذابة طاهرُ

١٠ وقولهم : "لا ناقتى فى هذا ولا جَملى" المثل للحارث بن عَبّاد حين قتل جَسّاسُ بن مُرّة كُليبا وهاجت الحرب بين الفريقين وآعتزلها الحارث ؛ قال الراعى

وما هجرتُكِ حتى قلتِ مُعلِنةً * لا ناقةٌ لىَ فى هذا ولا جَملُ

يُضرب عند التبرّؤ من الظلم والإساءة .

وقولهم : "لا يَنتطِح فيها عَنْزان" قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٥ وقولهم : "لا يُنبتُ البَقْلة، إلا الحَقْلة" الحَقْلَةُ : القَراحُ، أى لا يلد الوالد إلا مثلَه : ويُضرب مثلا للكلمة الخسيسة تخرج من الرجل الخسيس .

وقولهم : "لا تَدخُلْ بين العصا ولِحائها" : يضرب فى المتخالّين المتصافيَيْن .

وقولهم : "لا يحزُنْكَ دمٌ هَرَاقه أهلُه" قال هذا المثل جَذيمةُ : يُضرب لمن يُوقِع نفسَه فيما لا مَخلَص له منه .

حرف اليـاء

قولهم : "يَداكَ أوْكَتا وفُوكَ نَفَخ" أصـله أن رجلا كان فى جزيرة من جزائر البحر فأراد أن يعبُر على زِقّ قد نَفَخ فيـه فلم يُحسن إحكامَه ، فلمّـا توسّط البحر خرجت منه الريح فغرق فاستغاث برجل، فقال له : يداكَ أوْكَتا وفوك نفخ ، فذهبت مثلا : يُضرب لمن يجنى على نفسه الحَيْن .

وقولهم : "يَشُجُّ و يأسو" : يُضرب لمن يُصيب فى التدبير مرّة و يخطئ أخرى؛ قال الشاعر

إنى لأُكثِر ممّـا سُمتنى عَجَبـا * يدٌ تَشُجُّ وأخرى منك تأسونى

وقولهم : "يُسِرُّ حَسْواً فى ٱرتغاء" أصـله أن الرجل يؤتَى باللبن فيُظهِر أنه يريد الرَّغوة خاصّةً فيشربها، وهو فى ذلك ينـال من اللبن : يُضرب لمن يُريك أنه يُعينك و إنمـا يجرّ النفع إلى نفسه؛ قال الكميت

فإنى قد رأيتُ لكم صدودا * وتَحساءً بعـلّة مُرتغينا

وقولهم : "يمشِى رُوَيْداً و يكون أوّلا" : يُضرب للرجل يُدرك حاجته فى تُؤَدةٍ ودَعَةٍ، ويُنشَد فيه

تسألنى أمُّ الوليد جمـلا * يمشى رُوَيْدا و يكون أوّلَا

وقولهم : "يُصبح ظمآنَ وفى البحر فَمُه" : يُضرب لمن يعاشر بخيلا مُثرِيا .

وقولهم : "يمْلأُ الدَّلو الى عَقْد الكَرَب" مأخوذ من قول عُتْبـة بن أبى لَهَب

من يُساجِلْنى يُساجِلْ ماجدًا * يملأ الدَّلو إلى عَقْد الكَرَبْ .

وهو الحبل الذى يُشدّ فى وسط العَرَاقى : يُضرب لمن يبالغ فيما يلى من الأمر .

وقولهم : "يُكْوَى البعيرُ من يَسيرِ الداء" : يُضرب فى حَسْم الأمر الضائر قبل أن يعظُم ويتفاقم .

وقولهم : "يعود على المرء ما يأتمر" ويُروَى : يَعْدو؛ معناه يعود على الرجل ما تأمره به نفسه فيأتمر، أى يمتثله ظنّاً منه أنه رشد، وربما كان هلاكه فيه،

٥ ومنه قول آمرئ القيس

أحارِ بنَ عمرو كأنى خَمِرْ * ويعدو على المرء ما يأتمِرْ

وممـا يتمثل به من أشعار الجاهلية

(٣٠)

آمرؤ القيس بن حُجْر : قد تقدّم من شعره فى الآستشهاد على أمثال العرب ما يُستغنى عن إعادته فى هذا المكان .

١٠ ومن شعره

* والبِرُّ خير حقيبة الرَّجل * * رضيتُ من الغنيمة بالإياب *

* إن الشقاءَ على الأشقَيْنَ مصبوبُ *

وقال أيضا

وقاهم جدّهم ببنى أبيهـم * وبالأشقَيْنَ ما كان العقابُ

١٥ وقال

فإنك لم يفخَر عليك كفاخرٍ * ضعيف ولم يغلبْك مثل مُغلَّب

زُهير بن أبى سُلمَى يقول

ومن يغترب يَحسبْ عدوّا صديقَه * ومن لا يُكرِّمْ نفسه لا يُكرَّمِ

ومهما يكن عند آمرئ من خَليقة * ولو خالها تخفَى على الناس تُعلَمِ

ومن لا يصانعْ فى أمور كثيرةٍ * يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمَنسِم
ومن يجعلِ المعروفَ من دون عِرضه * يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله * على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ
ومن لا يذُدْ عن حوضه بسلاحه * يُهدَّمْ ومن لا يَظلِم الناس يُظلَمِ
ومن يَعصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنه * مُطيعُ العوالى رُكِّبَتْ كلَّ لهذَمِ ٥

وقال أيضا

وهل يُنبِتُ الخَطِّىَّ إلّا وشيجُه * وتُغرَس إلا فى مَنابتها النخلُ

وقال أيضا

والسترُ دون الفاحشاتِ وما * يلقاكَ دون الخير من سِترِ

وقال أيضا ١٠

فإنّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ * يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ

يقول: إنما الحقوق تصحّ بواحدة من هذه الثلاث: يمينٌ أو محاكمةٌ أو حُجّةٌ واضحةٌ؛ وكان عمر بن الخطّاب رضى الله عنه يتعجّب من معرفته بمَقاطع الحقوق .

النابغة الذُّبيانى : آسمه زياد بن عمرو، ويُكنَى أبا أُمامة ؛ غلب عليه "النابغة" لأنه عبرَ بُرهةً لا يقول الشعرَ ثم نبغ فقاله ؛ وكذلك الجعدىّ ؛ وقيل : إنما لُقِّب بالنابغة ١٥ لقــوله

* فقد نَبَغَتْ لهم منّا شؤونُ *

وقيل فى نسبه : زياد بن معاوية بن ضِباب بن جابر بن يَربوع بن غَيْظ بن مُرّة آبن عوف بن سعد بن ذُبيان .

فمما يُتمثل به من شعره قوله

* فإنك كالليل الذى هو مُدركى * * فإن مطيّة الجهل الشبابُ *

وقال

ولستَ بمُستبقٍ أخًا لا تَلُمُّــه * على شَعَثٍ، أىُّ الرجال المهذَّبُ؟

٥ وقال أيضا

اِستبق ودَّك للصديق ولا تكن * قَتَبًا يعَضُّ بغاربٍ مِلحاحَا

طرفة بن العبد يقول

* حَنانَيك بعضُ الشرِّ أهون من بعضِ * * ما أشبهَ الليلةَ بالبارحه *

وقال أيضا

١٠ ستُبدى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلا * ويأتيك بالأخبارِ من لم تُزوِّدِ

وقال أيضا

وأَعلمُ علما ليس بالشكّ أنه * إذا ذلّ مولَى المرء فهو ذليلُ

أَوس بن حَجَرٍ يقول

فإنكما يا ٱبنَىْ جُبابٍ وُجدتُما * كمن دبَّ يستخفِى وفى الكفِّ جُلْجُلُ

١٥ وقال أيضا

وما ينهض البازى بغير جَناحه * ولا يَحمِل الماشينَ إلا الحواملُ

اذا أنت لم تعرِضْ عن الجهل والخنا * أَصبتَ حليما أو أصابك جاهلُ

وقال أيضا

ولستُ بخابِئٍ أبدا طعاما * حذارَ غدٍ، لكلِّ غدٍ طعامُ

بشر بن أبي خازم يقول

وأيدى الندى فى الصالحين قروضُ * * كفى بالموت نأيًا واغترابا *

المتلمس وهو جرير بن عبد المسيح يقول

قليـلُ المـال تُصلحه فيبـقَى * ولا يبـقَى الكثيرُ مع الفسـادِ

وقال أيضا

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقرَعُ العصا * وما عُـلِّم الإنسانُ إلا ليَعلَما

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى * جَعلتُ لهم فوق العرانين مِيسَما

وما كنتُ إلا مثـلَ قاطع كفّه * بكفٍّ له أخرى فأصبح أجذما

وقال أيضا

ولا يُقيـم على ذلّ يراقبه * إلا الأذلّان عَيرُ السوء والوتدُ

هذا على الخسف مربوط برُمّته * وذا يُشَـجُّ فلا يَرثى له أَحدُ

الأفوه الأودىّ يقول

إنمـا نعـمةُ دنيا مُتعـةٌ * وحياة المـرء ثوبٌ مستعارُ

وصروف الدهر فى أطباقه * حَلْقة فيها ارتفاعٌ وانحـدارُ

بينا النـاس على عَليائهـا * إذ هوَوا فى هوّة منها فغاروا

وقال أيضا

والبيت لا يُبتَنَى إلا له عَمَـدٌ * ولا عمـادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ

فإن تجمّع أوتادٌ وأعمـدةٌ * وساكنٌ، بلغوا الأمر الذى كادوا

تُهدَى الأمورُ بأهل الرأى ما صلَحتْ * وإن تولّت فبالأشرار تنقـادُ

لا يَصلح الناسُ فَوضَى لا سَراةَ لهم * ولا سَراةَ إذا جُهّالهـم سـادوا

تميم بن أبي مقبل يقول

خليلىّ لا تستعجلا وانظرا غدًا * عسى أن يكون الرفقُ فى الأمر أرشَدا

وقال أيضا

ما أنعم العيشَ! لو أن الفتى حَجَرٌ * تنبو الحوادثُ عنه وهو ملمومْ

٥ حُمَيد بن ثَوْر يقول

أرى بَصَرى قد رابنى بعد صحّة * وحسبك داءً أن تَصِحّ وتسلما

ولن يلبثَ العصران يوما وليلةً * — إذا طَلَبا — أن يُدرِكا ما تيمّما

عدى بن زيد يقول

كفى واعظا للمرء أيامُ دهره * تروح له بالواعظات وتغتدى

١٠ عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه * فكلّ قرينٍ بالمقارِنِ يقتدى

وظلم ذوى القُربى أشدُّ مَضاضةً * على المرء من وقع الحسام المهنّد

إذا ما رأيت الشرّ يبعث أهلَه * وقام جُناة الشرّ للشرّ فاقعد

قال أيضا

يا راقد الليل مسرورا بأوّله * إن الحوادثَ قد يطرُقن أسحارا

١٥ وقال

قد يُدرك المبطئُ من حظّه * والخير قد يسبق جَهد الحريص

وقال

لو بغير الماء حلقى شرقٌ * كنت كالغَصّان بالماء اعتصارى

وقال

٢٠ فهل من خالدٍ إما هلكنا * وهل بالموت يا للناس عارُ ؟

الأسود بن يعفُر يقول

ماذا أؤمل بَعـدَ آل محـرّق * تركوا منـازلهم وبَعـــدَ إيادِ

أرض تخــيّرهـا لطيب مَقيلها * كعبُ بنُ مامـــةَ وآبنُ أمّ دؤاد

أهلُ الخوَرنَق والسَّـديرِ وبارقٍ * والقصرِ ذى الشُّرُفاتِ من سِندادِ

جرت الرياح على محـلّ ديارهم * فكأنهـم كانوا على ميعـاد ٥

ولقـد غَنَوا فيهـا بأنعَمِ عيشـــةٍ * فى ظـــلّ مُلكٍ ثابتِ الأوتاد

فإذا النعـيم وكلّ ما يُلهـى به * يوما يصـير الى بِلًى ونَفَـاد

علقمة بن عَبَدَة يقول

فإن تسألونى بالنسـاء فإننى * علـيم بأدواء النسـاء طبيبُ

إذا شاب رأسُ المرء أو قلّ مالُه * فليس له فى ودّهن نصيبُ ١٠

يُرِدْنَ ثَراءَ المـال حيث علِمنـه * وشرخُ الشباب عندهنّ عجيبُ

وقال أيضا

وكلّ حِصنٍ وإن طالت إقامتُه * على دعائمـه لا بدّ مهـــدومُ

ومن تعرّض للغِربان يزجرُها * على سـلامته لا بدّ مشـئومُ

عمرو بن كُلثوم يقول ١٥

وما شرُّ الثـلاثة أمَّ عمـــرو * بصاحبك الذى لا تَصحبينا

وإنّ غدًا وإنّ اليـومَ رهنٌ * وبَعــدَ غد بمـا لا تعلَمينا

الحارث بن حِلِّزة يقول

لا تكسَع الشَّولَ بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النـاتجُ؟

وآصبُبْ لأضيافك ألبانَها * فإن شرّ اللبن الوالجُ ٢٠

حاتم الطائىّ يقول

أماوىَّ ما يُغنى الثراءُ عن الفتى * إذا حَشرَجتْ يوما وضاق بها الصدر

وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أن حاتما * أراد ثَراء المال، كان له وَفْر

وقال أيضا

٥ وأنت إذا أعطيتَ بطنك سؤلَه * وفرجَك، نالا منتهى الذمّ أجمعا

المرقِّش الأصغر يقول

ومَن يَلقَ خيرا يَحمَدِ الناسُ أمرَه * ومن يَغوَ لا يعدم على الغىّ لائما

النَّمِر بن تَولَب يقول

يودّ الفتى طولَ السلامة جاهدا * فكيف تُرى طولُ السلامة يفعلُ؟

١٠ وقال أيضا

ومتى تُصبْكَ خَصاصةٌ فارجُ الغنَى * وإلى الذى يَهَب الرغائبَ فارغب

لا تغضبنّ على امرئٍ فى ماله * وعلى كرائم صُلب مالك فاغضب

وقال

فلا وأبى، الناسُ لا يعلمو * ن، للخير خيرٌ وللشرّ شرّ

١٥ فيوما علينا ويوما لنا * ويوما نُساء ويوما نُسرّ

مهلهل بن ربيعة ، واسمه عدىّ يقول

أَعزِزْ على تغلبٍ بما لقيتْ * أختُ بنى الأكرمين من جُشَمِ

أنكحها فقدُها الأراقمَ فى * جَنْبٍ وكان الحِباء من أَدَمِ

لو بأبانَين جاء يخطبها * ضُرِّج ما أنفُ خاطبٍ بدمِ

٢٠ ليسوا بأكفائنا الكرامِ ولا * يغنُون من ذلّة ولا عَدَمِ

طُفَيل الغنوىّ يقول

إنّ النساء كأشجارٍ نَبَـتن معـا * منهن مُرٌّ، وبعض المرّ مأكولُ

إنّ النساء متى يُنهـيْنَ عن خُلُقٍ * فإنه واجب لا بدّ مفعـــولُ

عُروة بن الورد يقول

وما شاب رأسى من سنينَ تتابعتْ * علىّ ولكن شيّبتنى الوقائعُ ٥

وقال أيضا

ومن يك مثلى ذا عِيالٍ ومُقـترا * من المال يَطرحْ نفسَه كلَّ مَطرَحِ

لِيَبلغَ عُـذرا أو ينـالَ رغيبـةً * ومُبلِـغُ نفسٍ عُذرَها مثلُ مُنجِحِ

الأعشى : وهو ميمون بن قيس من بنى قيس بن ثعلبة يقول

كناطحٍ صخـرةً يوما ليفلقهـا * فلم يَضرْها وأوهَى قرنَه الوعلُ ١٠

وقال أيضا

تعالَوا فإنّ الحكم عند ذوى النهى * من الناس كالبَلقاء بادٍ حُجولهُـا

وقال أيضا

ومن يغتربْ عن قومه لم يزل يرى * مَصارعَ مظلومٍ مَجَـرًّا ومَسْحَبَا

وتُدفَن منه الصالحاتُ وإن يُسئْ * يكن ما أثار النار فى رأس كَبكَبَا ١٥

وقال أيضا

عوّدتَ كِندةَ عادةً فاصبر لها * اِغفرْ لجاهلها وروِّ سجالهَـا

لَقيط بن مَعْبَد يقول

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم * ثم آفزعوا، قد ينال الأمرَ مَنْ فَزِعا

هيهات، ما زالت الأموال مذ أبدٍ * لأهلها — إن أُصيبوا مرّةً — تَبَعا

تأبط شرّا : وهو ثابت بن جابر يقول

لتقرعنّ عليّ السنّ من ندمٍ • إذا تذكّرت يوما بعض أخلاقي

المثقّب العبديّ يقول

فإما أن تكون أخي بحق • فأعرف منك غثّي من سميني

وإلا فاطّرحني واتّخذني • عدوّا أتّقيك وتتّقيني

٥

فإني لو تعاندني شمالي • عنادك ما وصلتُ بها يميني

المُمزّق العبديّ يقول

فإن كنتُ مأكولًا فكن أنت آكلي • وإلّا فأدركني ولمّا أمزّق

أُفنون التّغلبيّ يقول

لعمرك ما يدري الفتى كيف يتّقي • إذا هو لم يجعل له الله واقيا

١٠

الأضبط بن قُرَيع السّعديّ يقول

قد يجمع المالَ غيرُ آكله • ويأكل المالَ غيرُ من جمعه

لا تحقرنّ الفقير علّك أن • تركع يوما والدهرُ قد رفعه

(٣٢)

واقبل من الدهر ما أتاك به • من قرّ عينا بعيشه نفعه

سُوَيد بن أبي كاهل يقول

١٥

رُبّ من أنضجتُ غيظا قلبَه • قد تمنّى لي موتا لم يُطَع

ويراني كالشّجَى في حلقه • عسِرًا مخرجُه ما يُنتزَع

ويُحيّيني إذا لاقيته • وإذا يخلو له لحمي رتَع

انتهى ما يتمثل به من أشعار الجاهلية .

ومما يتمثل به من أشعار المُخَضْرَمين

المخضرمون : هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام .

منهم لَبيد بن ربيعة، وفاته سنة إحدى وأربعين ، وعمره مائة سنة وسبع وخمسون سنة يقول

وإذا رُمتَ رحيلا فارتحلْ * وٱعص ما يأمر تَوصيمُ الكسَلْ ٥

وٱكذب النفسَ إذا حدثتَها * إن صدق النفس يُزرى بالأملْ

وقال أيضا

وما المالُ والأهلون إلا وَديعةٌ * ولا بدّ يوما أن تردَّ الودائعُ

وما المرءُ إلا كالشهاب وضوئه * يحور رَمادًا بعدَ إذ هو ساطعُ

وقال أيضا ١٠

كانت قَناتى لا تلين لغامزٍ * فألانها الإصباحُ والإمساء

ودعوتُ ربّى فى السلامة جاهدا * ليُصحَّنى فإذا السلامةُ داء

وقال أيضا

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم * وبَقيتُ فى خَلْف كجلد الأجرب

وقال أيضا ٥

إلى الحَوْل ثم ٱسمُ السلامِ عليكما * ومن يبك حولا كاملا فقد ٱعتذرْ

كَعْب بن زُهَير يقول

ومن دعا الناسَ إلى ذمّه * ذمّوه بالحقّ و بالباطلِ

مقالةُ السوء إلى أهلها * أسرع من منحدرٍ سائل

النابغة الجعدىّ : وهو قيس بن عبد الله، وقيل حسّان بن قيس بن عبد الله
و يكنى النابغة : أبا ليلى ، وهو أسنّ من الذبيانىّ ، وطال عمره حتى أدرك أيّام بنى أميّة ،
وهو الذى قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم "لا يفضُض الله فاك" فما سقطت له
سنّ ، وفى رواية : فكان أحسن الناس ثغرا إذا سقطت له سنّ تنبت له أخرى ، وعاش
٥ عشرين ومائة سنة ، وقيل أكثر .

ومما يُتمثل به من شعره قوله

ولا خيرَ فى حلم إذا لم يكن له ... بوادرُ تحمى صفوَه أن يُكدَّرا
ولا خيرَ فى جهلٍ إذا لم يكن له ... حليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرَ أصدرا

وقال أيضا

١٠ كُليبُ لعمرى كان أكثر ناصرا * وأيسر جرما منك ضُرِّجَ بالدم

أميّة بن أبى الصَّلت الثقفىّ يقول

تلك المكارمُ لا قَعبانِ من لبن * شيبًا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالَا

حسّان بن ثابت يقول

و إن آمرا يُمسى ويُصبح سالما * من الناس — إلا ما جنى — لَسعيدُ

١٥ وقال أيضا

رُبَّ حِلمٍ أضاعه عَدَم الما * لِ وجهلٍ غطَّى عليه النعيمُ
ما أبالى أنبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ * أم لحانى بظهرِ غَيبٍ لئيمُ؟

الحُطَيئة : وآسمه جرول بن أوس بن مخزوم . وقيل : جرول بن أوس بن مالك
ابن غطفان بن سعد و يُكنَى : أبا مُلَيكة ، والحطيئة لقبٌ غَلب عليه ؛ قيل لقب به

لقصره وقربه من الأرض، وقيـل : حبق فى مجلس قومه فقال : إنمـا هى حَطْأة فسمّى الحطيئة .

فما يتمثّل به من شعره قوله

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدَمْ جوازِيَه * لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

دع المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتهـا * واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى ٥

وقال أيضا

أقِلّوا عليهم لا أبًا لأبيكُمُ * من اللوم أو سُدّوا المكانَ الذى سَدّوا

أولئك قومٌ إن بَنَوا أحسـنوا البِنَا * وإن وعدوا أوفوا وإن عقدوا شدّوا

متمم بن نويرة يقول

وكنّا كندمانَىْ جَذِيمـةَ حِقبةً * من الدهر حتى قيل لن يتصدّعَا ١٠

فلمـا تفرّقنا كأنى ومالـكا * لطول اجتماعٍ لم نبتْ ليلةً معَا

أبو ذؤيب الهذلىّ يقول

وتجلّدى للشامتيـن أريهمُ * أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ

وإذا المنيّة أنشبت أظفارَها * ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

والنفسُ راغبة إذا رغّبتَهـا * وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ ١٥

الخنساء : وهى تماضرُ بنت عمرو بن الشريد تقول

ومَنْ ظنّ ممن يُلاقى الحروبَ * بأن لا يصاب فقـد ظنّ عَجْزا

وقالت أيضا

نُهينُ النفوسَ وبذلُ النفو * سِ عند الكريهة أبقى لهـا

عمرو بن معديكرِب يقول

إذا لم تستطع أمرا فدعه * وجاوزه إلى ما تستطيعُ

وقال أيضا

ليس الجَمالُ بمئزَرٍ * فاعلم وإن رُدِّيتَ بُردَا

إن الجمال مآثرٌ * ومكارمٌ أورثن مجدَا

معن بن أوس يقول

وفى الناس إن رثّت حبالُك واصلٌ * وفى الأرض عن دار القِلَى متحوَّلُ

إذا انصرفتْ نفسى عن الشىء لم تكدْ * إليه بوجهٍ آخرَ الدهرِ تُقبلُ

وقال أيضا

أُعلِّمه الرماية كلّ يوم * فلما اشتدّ ساعدُه رمانى

زياد بن زيد يقول

ولا أتمنى الشرّ والشرُّ تاركى * ولكن متى أُحْمَلْ على الشرّ أركبِ

وقال أيضا

هل الدهر والأيام إلا كما ترى؟ * رزيّةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ

أيمَن بن خُرَيم بن فاتك الأسدىّ يقول

إن للفتنة مَيْطًا بيّنا * فرويدَ المَيْط منها تعتدلْ

فإذا كان عَطاءٌ فأْتِهم * وإذا كان قتالٌ فاعتزلْ

انتهى ما يُتمثل به من أشعار المخضرمين .

ومما يتمثل به من أشعار المتقدّمين فى صدر الإسلام

القُطامىّ : وآسمه عُمير بن شُيَيم يقول

ومَعصيةُ الشفيقِ عليك ممّا * يَزيدك مرّةً منــه آستماعَا

وخيرُ الأمرِ ما آستقبلتَ منه * وليس بأنــ تتبّعه آتّبـاعَا

أراهم يغمزون من آسـترَكوا * ويجتنبون مَن صَدق المِصاعَا

كذاك وما رأيت الناس إلا * إلى ما جرّ جانيهـــم سِراعَا

وقال أيضا

قد يُدرك المتأنّى بعضَ حاجته * وقد يكون مع المستعجل الزلَلُ

وربما فات بعضَ القوم أمرُهمُ * مع التأنّى وكان الرأىُ لو عجِلوا

والناس من يلقَ خيرا قائلون له * ما يشتهى ولأمّ المخطئ الهَبَلُ

الطِّرِمّاح بن حكيم بن الحكم يقول

لقــد زادنى حبّــا لنفسىَ أننى * بغيضٌ إلى كلّ آمرئ غيرِ طائلِ

وأنى شقىّ باللئام ولنــ ترى * شــقيًّا بهم إلا كريمَ الشمائل

الكميت بن زيد الأسدىّ يقول

إذا لم يكن إلا الأسنةَ مركبٌ * فلا رأى للمضــطَرّ إلا ركوبُها

وقال أيضا

فيا موقدا نارا لغيرك ضوءُها * ويا حاطبا فى حبلِ غيرك تحطِبُ

المساور بن هند يقول

شَقيتْ بنو أسدٍ بشعر مُساورٍ * إن الشــقىّ بكل حبــلٍ يُخنَقُ

عدىّ بن الرِقاع يقول

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ۔ ضنًّا به نظرى إلى الأمراءِ

بل ما رأيتُ جبالَ أرضٍ تستوى ۔ فيما غشيتُ ولا نجومَ سماءِ

كالبرق منه وابلٌ متتابع ۔ جَوْدٌ وآخرُ ما يبِضُّ بماءِ

٥ والمرء يورِثُ مجدَه أبناءَه ۔ ويموت آخرُ وهو فى الأحياءِ

الفرزدق، وآسمه همام بن غالب يقول

فواعجبا حتى كُليبٌ تسبّنى ۔ كأنّ أباها نهشلٌ أو مُجاشعُ

وقال أيضا

تُرَجّى ربيعٌ ان يجىءَ صِغارُها ۔ بخيرٍ وقد أعيا عليك كِبارُها

١٠ وقال أيضا

فإن تنجُ منها، تنجُ من ذى عظيمةٍ ۔ وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

وقال أيضا

يمضى أخوك فلا تلقَى له خَلَفًا ۔ والمالُ بعد ذهاب المال مُكتسَبُ

وقال ايضا

١٥ ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا ۔ مثل الشفيع الذى يأتيك عُريانا

وقال أيضا

قُلْ لنصْرٍ، والمرء فى دولة السلـطان أعمى ما دام يُدعَى أميرا

فإذا زالت الولاية عنه ۔ وآستوى بالرجال، عاد بصيرا

وقال أيضا

٢٠ ولا نلبث السلطان يكايدُنا ۔ حتى يلين لضرس الماضغ الحجرُ

وقال أيضا

هلِ ٱبنك إلا ٱبنٌ من الناس فاصبرن * فلن يَرجعَ الموتى حنينُ المـآتمِ

جرير : هو ٱبن الخَطَفَى تُوفِّيَ سنة عشر ومائة يقول

إن الكريمةَ يَنصرُ الكرمَ ٱبنُها * وٱبنُ اللئيمة للّئـام نصـورُ

وقال أيضـا

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مَربعا * أبشرْ بطول سلامةٍ يا مَربعُ

وقال أيضا

وٱبن اللَّبون إذا ما لُزَّ فى قَرَنٍ * لم يستطع صَولةَ البُزْل القَناعيس

وقال أيضا

رأيتك مثلَ البرق يُحسَبُ ضوءُه * قريبا وأدنى ضوئه منك نازحُ

وقال أيضا

أمّا الرجالُ فجِعْلانٌ ونِسوتُهـم * مثلُ القنافذِ لا حُسنٌ ولا طِيب

الأخطل : وٱسمه مالك بن غياث بن غوث، وقال أبو الفرج الأصبهانى : ٱسمه غياث ٱبن غوث بن الصلْت بن طارقة بن سيحان بن عمرو، ورُفِعَ نسبُه إلى جُشَم بن بكر ويُكنَى : أبا مالك، قال : وقال المدائنى هو غياث بن غوث بن سلمة بن طارقة .

فما يتمثّل به من شعره قوله

والنـاس همُّهمُ الحياةُ ولا أرى * طولَ الحيـاة يزيد غيرَ خَبـالِ

وإذا ٱفتقرتَ إلى الذخائر لم تجدْ * ذُخرًا يكون كصالح الأعمـالِ

قال أيضا

إن الصنيعةَ تلقاها و إن قدُمت ... كالعَـرّ يكْمن حينا ثم ينتشرُ

وأقسمَ المجــدُ حَقًّا لا يُحالفهم ... حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعَرُ

وقال أيضا

٥ وإذا دعَـونكَ يا أُخيَّ فإنه ... أحنى إليك مَودةً ووصــالَا

وإذا دعَونكَ عَمَّهُنَّ فإنه ... نسبٌ يزيدك عندهنَّ خَبالَا

وقال أيضا

ضَفادعُ فى ظَلماءِ ليلٍ تجاوبتْ ... فدلَّ عليها صوتُها حيَّــةَ البحرِ

وقال أيضا

١٠ يا مرسلَ الريحِ جَنوباً وصَـبَا ... إذْ غضبتْ قيسٌ فزدها غضَبَا

الصَّلَتانُ العَبْدىّ يقول

وإنْ يكُ بحرُ الحنظَليِّين واحدا ... فما يستوى حيتانُه والضفادعُ

وما يستوى صــدرُ القناة وزُجُّها ... وما يستوى فى الراحتين الأصابعُ

كُثيِّر عزة: وهو كثيِّر بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعىّ، توفى سنة خمس ومائة

١٥ يقــول

وإنى وَتهيامى بعــزّةَ بعــد ما ... تخليتُ ممّـا بيننا وتخلتِ

لكالمرتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيــل اضمحلتِ

فقلتُ لها ياعزَّ كلُّ مصيبــةٍ ... إذا وُطِّنتْ يوما لها النفسُ ذلَّتِ

هنيئا مريئا غيرَ داءٍ مخامرٍ ... لعزَّةَ من أعراضنا ما استحلَّتِ

وقال أيضا

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوفَّى غريمَه وعزَّةُ ممطولٌ مُعنًّى غريمُها

وقال أيضا

ومن لا يُغمِّضْ عينَه عن صديقه وعن بعض ما فيه يمتْ وهو عاتبُ

ومن يتتبَّعْ جاهدًا كلَّ عثرةٍ يجدْها ولا يسلَمْ له الدهرَ صاحبُ ٥

جميل يقول

فإن تك حربٌ بين قومى وبينها * فإنى لها فى كلّ نائبةٍ سَلْمُ

وقال أيضا

ولربَّ عارضةٍ علينا وصلَها * بالجِـدِّ تخلطه بقول الهازل

فأجبتُها فى القول بعد تستُّرٍ : حبِّى بُثينةَ عن وصالكِ شاغلى

لو كان فى قلبى كقَدْرِ قُلامةٍ * وصلًا وصلتُك أو أتتك رسائلى

عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة يقول

ليت هندًا أنجزتنا ما تعدْ وشفت أنفسنا مما تجدْ

واستبدّتْ مرّةً واحدةً إنما العاجزُ من لا يستبِدّْ

وقال أيضا ١٥

لا تلُمني وأنتَ زيَّنتها لى * أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسانِ

ومما يتمثّل به من أشعار المُحدَثين

منهم إبراهيم بن هَرْمة يقول

عجبت أُثَيْلةُ أنْ رأتنى مُخلِقا * ثكلتكِ أمُّكِ، أىُّ ذاك يروعُ؟

قد يُدرِكُ الشرفَ الفتى ورداؤه * خَلَقٌ وجَيبُ قميصه مرقوعُ ٢٠

وقال أيضا

كتاركة بيضها بالعراء * وملبسة بيض أخرى جناحا

بشّار بن بُرد يقول

اذا كنت فى كلّ الأمور معاتبا * صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أو صِلْ أخاك فإنه * مقارف ذنب مرة ومجانبه ٥

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى * ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربُهْ

وقال أيضا

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة * فإن الخوافى عُدّة للقوادم

وما خيرُ كفٍّ أمسك الغلُّ أختَها * وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائم

وقال أيضا ١٠

كبكرٍ تَشهّى لذيذ النّكاح * وتَفرَق من صولة الناكح

وقال أيضا

أنتَ من قلبها محلّ شرابٍ * يُشتَهى شربُه ويُخشَى صُداعُهْ

وقال أيضا

الحرُّ يُلحَى والعصا للعبد * وليس للمُلحِف مثلُ الردِّ ١٥

وصاحبٍ كالدُّمّل الممِدّ * حملتُه فى رُقعةٍ من جلدى

وقال أيضا

و إذا جفوتَ قطعتُ عنك منافعى * والدَّرُّ يقطعه جفاءُ الحالب

وقال أيضا

ولولا الذى خبّروا لم أكنْ * لِأمدحَ ريحانةً قبلَ شَمّْ ٢٠

وقال أيضا

تأبى المقيمَ — وما سعى — حاجاته . عددَ الحصى، ويَخيبُ سعيُ الناصبِ

وقال أيضا

أنا والله أشتهى سحر عينيـــك وأخشى مَصارعَ العشّاقِ

وقال أيضا

٥

نرجو غـدا، وغدًا كحاملةٍ * فى الحى لا يدرون ماتلدُ

وقال أيضا

تسقط الطيرُ حيث ينتثر الحَبُّ * وتُغشى منـازلُ الكرماءِ

ليس يُعطيك للرجاءِ ولا الخو * فِ ولكنْ يلَذُّ طعمَ العطاءِ

وقال أيضا

* والصعبُ يُمكِنُ بعـد ما جمحا * ولن تَبلغَ العليا بغـيرِ الدراهم *

وقال أيضا

ولا بدّ من شكوى إلى ذى مروءة * يواسيك أو يُسْـليك أو يتوجّعُ

أبو العتاهية يقول

١٥

* أذلّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ * وكلُّ غنًّى فى العيونِ جليلُ *

* روائحُ الجنّـةِ فى الشبـابِ * وأىُّ الناسِ ليس له عُيوبُ *

وقال أيضا

إنّ الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ * مَفْسَدَةٌ للدِّين، أىّ مَفْسَدَهْ!

وقال أيضا

أنتَ ما آستغنيتَ عن صا * حبِك الدهرَ أخـوهُ
فإذا آحتجتَ إليـه * ساعةً مَجَّـك فـوهُ

وقال أيضا

٥ مايَحُرُزُ المرءُ من أطرافه طَرَفا * إلا تَخوَّنه النقصانُ من طَرَفِ

وقال أيضا

يُصادُ فؤادى حين أَرمِى ورَمْيتى * تعودُ إلى نَحرِى ويسلمُ مَن أَرمِى

وقال أيضا

ولربَّ شـهوةِ ساعةٍ * قد أورثتْ حزنا طويلا

١٠ سَلْمُ بن عمرو الخاسر : وهو مولى أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه، وهو بصرىّ لُقِّبَ الخاسر لأنه ورث من أبيه مصحفا فباعه وآشترى بثمنه طُنبورا ، وقيل : بل خلَّف أبوه مالا فأنفقه فى الأدب والشعر، فقال له بعض أهله : إنك لخاسر الصفقة، فلُقِّب بذلك .

فما يتمثّل به من شعره قوله

١٥ مَن راقبَ الناسَ مات غمًّا * وفاز باللـذة الجسـورُ
لولا مُنى العاشـقين ماتوا * غمًّا، وبعض المنى غرورُ

وقال أيضا

ولو ملكتَ عِنانَ الريح تَصرفُه * فى كلّ ناحيَة ما فاتك الطلبُ

وقال ايضا

٢٠ لا تسألِ المـرءَ عن خلائقه * فى وجهه شاهدٌ من الخبرِ

صالح بن عبد القُدّوس يقول

مايَبلغ الأعداءُ من جاهـلٍ * مايبلُغُ الجاهـلُ من نفسهِ
والجاهـل الآملُ ما فى غدٍ * كحفظه فى اليوم أو أمسه
والشـيخ لا يَترُك أخلاقَه * حتى يُوارَى فى ثرى رمسه
والحُمـقُ داءٌ ماله حيـلةٌ * تُرجَى كبُعد النجم من لمسهِ ٥

(٢٥) وقال أيضا

وإنَّ عنـاءً أن تُفهِّمَ جاهـلا * فيَحْسَبَ جهلًا انه منك أفهمُ
متى يبلغ البنيانُ يوما تمـامَهُ * اذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدمُ

وقال أيضا

إذا وَترتَ آمرءًا فاحذرْ عداوتَه * من يزرع الشوكَ لايحصدْ به عِنبَا ١٠

وقال أيضا

شرّ المواهب ماتجود به * من غير مَحْمَدَة ولا أَجرِ

وقال أيضا

لا تجدْ بالعطـاء فى غير حقٍّ * ليس فى منع غير ذى الحقّ بخلُ
إنمـا الجود أن تجودَ على من * هو للجودِ منك والبذلِ أهـلُ ١٥

وقال أيضا

يَشقَى رجالٌ ويَشقَى آخرون بهم * ويُسـعدُ اللهُ اقـواما بأقوامِ
وليس رزق الفتى من لُطف حيلته * لكنْ جدودٌ بأرزاقٍ وأقسامِ
كالصَّيد يحرِمُه الرامى المُجيدُ وقد * يُرمَى فيرزُقُه من ليس بالرامى

وقال أيضا

إنْ يكنْ مابه أصبتَ جليلا * فذهابُ العــزاءِ منــه أجلُّ
كلّ آتٍ لاشك آت وذو الجهــــل مُعَنًّى والغمُّ والحزنُ فضلْ

ابن مَيَّـادة : هو الرمّاح بن أبى أبرد كنيته شُرَحْبِيل يقول

٥ واعجبا من خالدٍ كيف لا * يُخطئ فينا مرّةً بالصواب

وقال أيضا

وأرانا كالزرع يحصده الدهــــرُ فمن بين قائم وحصيد
وكأنّا للموت رَكْبٌ مُخِبُّو * نَ سراعٌ لمنهلٍ موردِ

أبو نُواس الحسن بن هانئ يقول

١٠ * دع عنك لَومى فإن اللومَ إغراءُ * * ألا ربَّ إحسان عليك ثقيلُ *

وقال

* وللرجاء حرمةٌ لاتُجهـلُ * * وأىُّ جِـدٍّ بلَغ المـازحُ *

وقال أيضا

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ * له عن عدوٍّ فى ثيـاب صديقِ

١٥ وقال أيضا

لا أَذودُ الطيرَ عن شجرٍ * قد بلَوتُ المرّ من ثمـرهْ

وقال أيضا

وليس لله بمســتنكرٍ * أن يجمعَ العالَمَ فى واحدِ!

وقال أيضا

٢٠ صار جدًّا مامزحتُ به * ربَّ جدٍّ ساقــه اللعبُ

وقال أيضا

كفى حزنًا أن الجواد مُقتّر * عليه ولا معروف عند بخيل

وقال أيضا

وأوبةُ مشتاقٍ بغير دراهم * إلى أهله من أعظم الحدثان

أبو عُيينة المهلّبيّ يقول

* وكيف بجحود القلب والعينُ تشهد * * ولا خيرَ فيمن لا يدوم له عهد *

* وشتانَ ما بين الولاية والعزْلِ *

وقال أيضا

وإذا تطاولت الرءوس فغطّ رأسك ثم طاطه

عبد الله بن أبي عتبة المُهلّبي يقول

كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهونُ غيرَ شماتة الأعداءِ

وقال أيضا

ما كنتَ إلا كلحم ميْتٍ * دعا إلى أكله اضطرارُ

العبّاس بن الأحنف يقول

لو كنتِ عاتبةً لسكّن روْعتي * أملي رضاكِ وزرتُ غيرَ مراقبِ

لكن مللتِ فما لصدّكِ حيلةٌ * صدُّ الملول خلافُ صدِّ العاتبِ

وقال أيضا

صرتُ كأني ذبالةٌ نُصبتْ * تُضيءُ للناس وهي تحترقُ

وقال أيضا

أرى الطريقَ قريباً حين أسلكُهُ * إلى الحبيبِ، بعيدًا حين أنصرفُ

وقال أيضا

كفى حَزَنًا أنّ التباعدَ بيننا * وقد جمعتْنا والأحبّــةَ دارُ

وقال أيضا

اقمنا مكرَهين بهــا فلمّا * ألِفناها خرجنا مُكرَهينا

٥ وقال أيضا

* ولا خيرَ فى ودٍّ يكون بشافعٍ * * من عاجَ الشوقَ لم يستبعد الدارا *

مُسلم بن الوليد : هو مولى الأنصار، ثم مولى آل أبى أُمامة : أسعد بن زُرارَة الخَزْرَجى ولُقِّب صريع الغوانى، وممّا يُتَمَثَّل به من شعره قوله

دلّتْ على عيبها الدنيــا وصــدَّقها * ماآسترجعَ الدهرُ ممّا كان أعطانى

١٠ وكان يقول أخذتُ معنى هذا البيت من التوراة .

وقال أيضا

يَعُدّ الفتى من الليالى سليمةً * وهنّ به عمّــا قليــل عواثر

وقال أيضا

أما الهجاء فدَقّ عِرضُــك دونَه * والمدحُ عنـك كما علمتَ جليـلُ

١٥ فاذهب فأنتَ طليقُ عِرضِك إنه * عرضٌ عززتَ به وأنت ذليـل

منصور النَّمَرى : هو منصور بن الزِبْرقان بن سَلَمَة. وقيل منصور بن سَلَمَة بن الزِبْرِقان بن شريك، مُطْعِمُ الكبشِ الرَّخَم؛ سُمّى بذلك لأنه أطعم ناسا نزلوا به ونحر لهم. ثم رفع رأسه فإذا هو برَخَمٍ يحُمن حول أضيافه، فأمر أن يُذْبَحَ لهنّ كبشٌ ويُرمى لهنّ ففُعِل ذلك ونزلن عليه فمزّقنه؛ وهو آبن مالك بن سعد بن عامر الضحْيان، سُمّى

بذلك لأنه كان سيد قومه وحاكمهم وكان يجلس لهم إذا أضحى النهار، وهو ابن سعد ابن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة ابن أسد بن ربيعة بن نزار .

فما يتمثل به من شعره قوله

لعـــل لهـــا عذرًا وأنت تلوم * ورب امرئ قد لام وهو مليم ٥

وقال أيضا

ما كنت أوفى شبابى كنه عزته * حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

وقال أيضا

أقلل عتاب من استربت بوده * ليست تنـــال مـــودة بعتاب

العتابى : هو كلثوم بن عمرو بن أيوب بن عبيد بن حبيش بن أوس بن مسعود ١٠ ابن عمرو بن كلثوم الشاعر ابن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

فما يتمثل به من شعره قوله

وإن عظيمات الأمور مشوبة * بمستودعات فى بطون الأساود

وقال أيضا ١٥

ولله فى عرض السموات جنة * ولكنهـــا محفوفة بالمـــكاره

وقال أيضا

قلت للفرقدين، والليل ملق * ســـود أكنافه على الآفاق

إبقيا مابقيتما ســـوف يرمى * بين شخصيكما بسهـــم الفراق

أشْجَع السُّلَمىّ : هو أشجع بن عمرو أبو الوليد، وقيل : أبو عمرو من أهل الرَّقّة .

فمما يتمثل به من شعره قوله

نسيبُك من أمسى يناجيك طرفه * وليس لمن تحت التراب نسيبُ

وقال ايضا

٥ سبق القضاءُ بكلِّ ما هو كائن * فليَجهــد المتقلِّب المحتــالُ

وقال أيضا

داءٌ قديم فى بنى آدمٍ * فتنــةُ إنسان بإنسان

وقال أيضا

وعلى عــدوك يا ابن عم محمدٍ * رَصَدان، ضوءُ الصبح والإظلامُ

١٠ فاذا تنبــه رعتَه وإذا غفــا * سلّتْ عليه سـيوفَك الأحلامُ

الجُرْهُمىّ

وأعددتُه ذخرا لكل مُلمةٍ * وسهمُ الرزايا بالذخائر مولعُ

وقال أيضا

إذا مامات بعضُك فابك بعضًا * فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ

١٥ وقال أيضا

أرى الحلمَ فى بعضِ المواطنِ ذلةً * وفى بعضها عزًّا يُسَــوِّدُ فاعله

وقال أيضا

ودون الندى فى كل قلبٍ ثَنيةٌ * لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنحدَرٌ سهلُ

وقال أيضا

٢٠ العيشُ لا عيشَ إلا ما قَنِعت به * قد يكثر المــالُ والإنسان مُفتَقِر

وقال أيضا

وما حازم إلا كآخر عاجز ... اذا حل بالإنسان ما يُتوقَّع

محمود الورّاق : هو محمود بن الحسن البغدادى مولى بنى زُهرة ، ويُكنى أبا الحسن .

فما يُتمثّل به من شعره قوله ٥

وإذا غلا شىءٌ علىّ تركتُه * فيكون أرخصَ ما يكون إذا غلا

وقال أيضا

ما ذُدتُ أبحث عن أخى ثقةٍ * إلا ذممتُ عواقبَ الفحصِ

وقال أيضا

الدهرُ لا يبقى على حالة * لابدّ أن يُقبِلَ أو يُدبِرا ١٠

فإن تلقّاك بمكروهه * فاصبر فإن الدهر لن يَصبِرا

وقال أيضا

إذا كان وجهُ العُذرِ ليس ببيّنٍ * فإنّ اطّراحَ العذرِ خيرٌ من العذرِ

محمود بن حازم الباهلىّ

ألا إنما الدّنيا على المرءِ فتنةٌ * على كلّ حالٍ أقبلتْ أم تولّتِ ١٥

وقال أيضا

وقائلٍ كيف تفرّقتما * فقلتُ قولا فيه إنصافُ

لم يكُ لى شكلا ففارقتُه * والناسُ أشكالٌ وألّافُ

السَّمَوءَلُ بن عَادِياء

إذا المرءُ لم يَدْنَس من اللؤمِ عِرضُه * فكلُّ رداء يرتديه جميلُ

وقال أيضا

إذا كنت مَلْحيًّا مُسيئا ومُحسِنا * فغِشْيان ماتهوى من الأمر أكيسُ

٥ محمد بن أبي زُرْعَةَ الدَّمَشْقى

لا يُؤنِسَنَّك أن ترانى ضاحكا * كم ضَحْكَة فيها عُبوس كامِن

وقال أيضا

قد يَمهنُ الهِندىُّ وهو حُسام * ويُحتّ الجوادُ وهو جوادُ

أبو الشِّيص : وآسمه محمد بن رزين بن تَميم بن نَهْشَل، وأبو الشِّيص لَقَبٌ غَلَب
١٠ عليه، وكُنْيَته أبو جعفر وهو عمّ دِعْبِل بن علىّ .

مما يُتمثل به من شعره قوله

اذا لم تَكُنْ طُرقُ الهوى لى ذليلةً * تنكبتُها وآنحزتُ من جانبِ السَّهل

علىّ بن جَبَلَةَ بن عبد الرحمن الأنبارىّ ، وهو المُلَقَّب العَكَوَّك قال

وأرى الليالى ماطوتْ من شِرَّتى * ردَّتْه فى عِظَتى وفى إفهامى

١٥ وعلمتُ انّ المرء من سَنَن الردى * حيثُ الرمِيَّة من سِهام الرامى

قال أيضا

يخافت على التطواف قومى وإنما * تُصاب غِرار الوحش وهى رُتوعُ

الحَلاّجُ الحارثىّ

وما كنتُ زوّارا ولكنّ ذا الهوى * إلى حيث يَهوَى القلبُ تَهْوِى به الرِجْلُ

وقال أيضا

اذا ما أهانَ آمرؤٌ نفْسَــه * فلا أكرم اللهُ من يُكرمه

عبد الصمد بن المعذَّل

ليس لى عُذْرٌ وعندى بُلْغةٌ * إنمـا العذر لمن لا يستطيع

وقال أيضا ٥

وأعلم أن بنات الرجاء * تُحِلّ العزيزَ مَحَـلَّ الذليل

وأن ليس مُستغنيا بالكثـير * من ليس مُستغنيا بالقليل

وقال ايضا

أرى النــاسَ أُحدوثةً * فكونوا حديثاً حَسَنْ

كأن لم يكن ما أتى * وما قد مضى لم يكن ١٠

إذا وطنٌ رابنى، * فكل بلادٍ وطن

إذا عزّ يوماً أخـــو * كَ فى بعض أمرٍ فهُنْ

الحَمْدونىّ

إن المُقَدَّمَ فى حِذْقٍ بصنعته * أنى توجه فيها فهو محـروم

العتبى ١٥

قالت عهِدتُك مجنوناً، فقلتُ لها : * إن الشـبابَ جنون برؤُه الكِبَرَ

وقال أيضا

وحسبُك من حادث بامرئٍ * يرى حاسـديه له راحمينا

أبو سعيد المخزومى: وآسمه عيسى بن خالد بن الوليد، والصحيح أنه أبو سعد لا سعيد .

فمما يُتمثل به من شعره قوله

وكم رأينا للدهر من أسَدٍ * بالت على راسه ثعالبهُ

٥ وقال أيضا

إذا ضنّ الجَوادُ بما لديه * فما فضلُ الجواد على البخيل؟

وقال أيضا

ليس لبسُ الطيالسْ * من لباسِ الفوارسْ
لا ولا حَوْمة الوغى * كصدور المجالس
وظُهورُ الجيادِ غيرُ * ظهور الطنافس
١٠ ليس من مارس الخطو * ب كمن لم يمارس

دِعْبِل بن علىّ الخزاعىّ : هو أبو جعفر وآسمه محمد ودعبل لقبٌ غَلَب عليه، (٤٧) والدِعْبِلُ : البعيرُ المسنُّ، وقيل : الناقةُ التى معها أولادها .

فمما يُتمثل به من شعره قوله

١٥ لا تعجبي ياسَلْمُ من رجل * ضَحِك المشيبُ برأسه فبكى

وقال ايضا

هى النفس ماحسّنته فمُحسّن * إليها وما قبّحته فمُقبّح

وقال أيضا

جئنا به يشفع فى حاجةٍ * فاحتاج فى الإذن إلى شافع

وقال أيضا

تلك المساعى اذا ماأخرتْ رجلا * أحب للناس عيبًا كالذى عابهْ
كذاك من كان هَدْمُ المجد عادَتَه * فإنه لِبنـاء المجـد عَيَّابهْ

إسحاق بن إبراهيم المَوصِلىّ

وكلُّ مسافرٍ يزداد شـوقًا * إذا دنتِ الديارُ من الديارِ ٥

المؤمل بن أميل

إذا مَرِضنا أتيناكم نَعودكُمُ * وتذنبون فنأتيكم ونعتـــذرُ
لاتحسَبونى غنيًا عن مودّتكم * إنى إليكم وإن أيسرت مفتقرُ

إبراهيمُ بن العباس بن محمد بن صُول مولى يزيد بن المُهلّب يُكنى أبا إسحاق ، وأصله من خُراسان . ١٠

فمما يُتمثل به من شعره قوله

ورب أخٍ ناديتُــه لُملمة * فألفيتُه منها أجلَّ وأعظما

وقال أيضا

وكنت أذُمّ إليك الزمانَ * فأصبحتُ فيك أذمّ الزمانا
وكنت أُعدّك للنائبـات * فها أنا أطلبُ منك الأمانا ١٥

وقال أيضا

دنت بأناس عن تناءٍ زيارةٌ * وشَطّ بليلى عن دُنوٍّ مَزارُها
وإن مقيماتٍ بمُنقَطِع اللوى * لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

أبو عليّ البصير : وهو الفضل بن جعفر الكوفىّ يقول

فلا تعتذرْ بالشُّغل عنّا فإنّما * تناطُ بك الآمال ما اتّصل الشُّغلُ

وقال أيضا

لعمر أبيك ما نُسب المعلّى * الى كرم وفى الدنيا كريمُ

٥ ولكنّ البلاد إذا اقشعرّت * وصوّح نبتُها رُعى الهشيمُ

سعيد بن حميد يقول

* إنّ جَهد المقلّ غير قليل * * وعلى المريب شواهدٌ لا تدفعُ *

وقال أيضا

وإنك كالدنيا تُذَمُّ صروفها * ونوسعها سبّا ونحن عبيدها

١٠ علىّ بن الجهم يقول

ولكلّ حال مُعْقِبٌ ولربما * أجلَى لك المكروهُ عمّا تحمَدُ

وقال أيضا

وعاقبةُ الصبر الجميل جميلة * وأفضل أخلاق الرجالِ التفضُّلُ

ولا عار إن زالت عن المرء نعمةٌ * ولكنّ عارا أن يزولَ التجمُّلُ

١٥ وقال أيضا

اِرضَ للسائل الخُضوعَ وللقا * رفِ ذنبًا مَذلّةَ الأعذارِ

ابن أبى فنن : هو أحمد بن صالح بن أبى معشر مولى المنصور يقول

أرى الدهرَ يُخلِقُنى كلّما * لبستُ من الدهر ثوبًا جديدا

وقال أيضا

سُرَّ من عاش مالُه فإذا حا * سَـبهُ اللهُ سَرَّهُ الإعدامُ

وقال أيضا

ربَّ أمرٍ سرَّ آخِرُهُ * بعد ما ساءَتْ أوائلُهُ

يزيد بن محمد المهلبيّ يقول ٥

* لا عار إن ضامك دهرٌ أو مَلِكْ *

وقال

وإن الناسَ جمعهُم كثيرٌ * ولـكنْ من تُسَرُّ به قليـلُ

وقال أيضا

ومن ذا الذى تُرضى سجاياه كلُّها * كفى المرء نُبلًا ان تعدَّ معايبُــهْ ١٠

عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقول

فإن تلحظى حالى وحالَك مرَّةً * بنظرة عين عن هوى النفس تُحجَبُ

ترَىْ كلَّ يوم مرَّ من بؤس عيشتى * عليـك بيومٍ من نعيمك يُحسبُ

أحمد بن أبي طاهر يقول

ودين الفتى بين التماسك والنهى * ودنيا الفتى بين الهوى والتغرّرِ ١٥

وقال أيضا

حسن الفتى أن يكون ذا حسبٍ * من نفسه، ليس حسنَه حسبُهْ

أبو تمام حبيب بن أوس الطائى يقول

* ما الحبّ إلا للحبيب الأوّل * * لسان المرء من جذم الفؤاد *

* وذى النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع * ٢٠

وقال

ما أبَّ مَنْ أبَّ لم يظفر بحاجته * ولم يُعَبْ طالبٌ للنُّجح لم يُجبِ

وقال أيضا

ومن لم يُسلِّم للنوائب أصبحتْ * خلائقه طرًّا عليــه نوائبَـا

٥ وقال أيضا

لأمرٍ عليهم أن يتمَّ صدورُه * وليس عليهم أن تتم عواقِبُهْ

وقال أيضا

لا تنكرى عَطَلَ الكريم من الغِنى * فالسيلُ حَربٌ للمكانِ العـالى

وقال أيضا

١٠ واذا تأمّلتَ البـلادَ رأيتهـا * تُثرِى كما تُثرِى الرجالُ وتُعدمُ

وقال أيضا

واذا أمرؤ أهدى اليك صنيعةً * من جاهه فكأنهـا من ماله

وقال أيضا

خلقنا رجالا للتجـلد والأسى * وتلك الغوانى للبـكا والمآتم

١٥ وقال أيضا

ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ * ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالمُ

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجى * هلكـن إذًا من جهلهنّ البهائمُ

وقال أيضا

أآلفـة النحيب كم آفتراق * أظلَّ فكان داعيةَ آجتماعِ

٢٠ فليست فرحةُ الأوبات إلا * لموقوفٍ على ترَحِ الوداعِ

وقال أيضا

وإذا أراد الله نشرَ فضـــيلة * يوما، أتاح لهـا لسان حَسودِ

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يُعرف طِيبُ عَرْفِ العودِ

وقال أيضا

خشعوا لصولتك التي هي عندهم * كالموت يأتي ليس فيـــه عار

وقال أيضا

ذاك الذي قَرِحتْ بطونُ جفونه * مَرَهًا وتربة أرضه من إثمِـد

(٢٨) وقال أيضا

وتَرْكي سرعة الصَّدَر اعتباطًا * يدلّ على موافقـــة الورود

وقال أيضا

ولم أر كالمعروف تُدعى حقوقُه * مغارمَ في الأقوام وهي مَغانمُ

وقال أيضا

وإن امرءًا ضنَّت يداه على امرئٍ * بنيـلِ يدٍ من غيره لبخيـلُ

أبو عُبَادة البُحتريّ، وهو الوليد بن عُبَيد بن يحيى بن عُبَيد بن شَمْلان بن جابر ابن مُسلمة بن مُسهِر بن الحارث بن خَيْثَم بن أبي حارثة بن جدي بن تَدُول بن بُحتُر الطـائيّ .

فما يتمثل به من شعره قوله

* وأبرحُ ممّـا حلّ ما يُتَوقَّعُ *

وقال أيضا

* وليس تقترن النعماءُ والحسدُ *

وقال أيضا

* إن المعنَّى طالبٌ لا يظفرُ *

وقال أيضا

* أرى الكفرَ للنعماء ضربا من الكفرِ *

٥ وقال أيضا

* يزين اللآلى فى النظام آزدواجها *

وقال

وكان رجائى أن أؤوب مملَّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلَّما

وقال أيضا

١٠ متى أَحرجتَ ذا كرم تخطَّى * اليك ببعض أخلاق اللئيمِ!

وقال أيضا

والشىء تُمنَعُـه يكون بفَـوْتِه * أجدى من الشىء الذى تُعطاهُ

وقال أيضا

تناسَ ذنوبَ قومك إنّ حفظَ الـ * ـذنوبِ اذا قدمنَ من الذنوبِ

١٥ وقال أيضا

واذا ما خَفيتُ كنتُ حَرِيًّا * أن أُرى غيرمُصبح حيث أُمسِى

وقال أيضا

متى أرت الدنيا نباهةَ خاملٍ * فلا تنتظرْ إلا خُمولَ نبيـهِ

وقال أيضا

٢٠ وأرى النجابةَ لا يكون تمـامُها * لنجيب قوم ليس بابن نجيب

وقال أيضا

واذا ما الشريفُ لم يتواضعْ * للأخلاّءِ فهو عينُ الوضيعِ

وقال أيضا

ولم أر أمثالَ الرجال تفاوتتْ * الى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

وقال أيضا ٥

ليس الذى يُعطيك تالدَ ماله * مثلَ الذى يُعطيك مالَ الناسِ

وتَفاضُل الأخلاقِ إِن حصَّلتَها * فى الناس حيثُ تفاضلُ الأجناسِ

وقال أيضا

لاييأس المرء أن ينجّيَه * ما يحسَبُ الناسُ أنه عطبُهْ

يسرّك الشيءُ قد يسوءُ وكم * نوّه يوما بخامل لقبُــهْ ١٠

وقال أيضا

اذا محاسِــنِيَ اللاتى أدلُّ بهـا * كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتذرُ

وقال أيضا

وعطـاءُ غيرك إن بذلــ*ـتَ عنـايةً فيه عطاؤكْ

ديك الجن، واسمه عبد السلام بن رَغْبان بن عبدالسلام بن حبيب بن عبد الله ١٥ ابن رغبان بن زيد بن تميم بن مجد من أهل حمص يقول

وشاق النصح يُعدَّل بالأشافِى * وليس القِـــدر إلا بالأثافى

وقال

اذا شجر المــودة لم تجــدهُ * بغيث البِرِّ أسرع فى الجفافِ

وقال أيضا

يرقدُ الناسُ آمنين وريب الـدهر يرعاهمُ بمقـلة لصّ

ابن الرومىّ يقول

وكم داخلٍ بين الحميمين مصلح * كما انغلّ بين العينِ والجفنِ مِروَدُ

٥ وقال أيضا

هـو بازٍ صائد أرسلتُـهُ * فارجعوه سالما إن لم يَصِدْ

وقال أيضا

وما الحمد إلا توأم الشكر فى الفتى * وبعض السجايا ينتسبن الى بعضِ

اذا الأرض ردّت ريع ما أنت زارعٌ * من البذر فهى الأرض ناهيك من أرضِ

١٠ وقال أيضا

واذا أتاك من الأمور مقدَّرٌ * ففررتَ منه فنحوهُ تتوجّهُ

وقال أيضا

كيف تَرضَى الفقر عِرسا لامرئٍ * وهو لا يَرضَى لك الدنيـا أمَـةْ!

وقال أيضا

١٠ عدوُّك من صديقك مستفادٌ * فلا تستكثرنّ من الصحابِ

فإن الداءَ أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشرابِ

عبد الله بن المعتزّ يقول

* فإن العيون وجوهُ القلوبِ *

وقال أيضا

* أمّ الكرام قليـلةُ الأولاد *

وقال أيضا

* أَبطأُ فيض الدلاء أملؤها *

وقال أيضا

اِصبر على كيد الحسو * د فإن صبرك قاتلَهْ

فالنـار تأكل بعضها * إذ لم تجـد ما تاكله ٥

وقال أيضا

ولا همَّ إلا سوف يُفْتَحُ قُفلُه * ولا حالَ إلا للفتى بعدها حالُ

وقال أيضا

لا تأمنوا من بعـد خيرٍ شرًّا * كم غُصُنٍ أخضرَ عاد جمـرَا

وقال أيضا ١٠

وإنى على إشفاق عينى من البكا * لتجمح منى نظـرة ثم أُطرقُ

كما حُلِّئت عن ماء برد طريدةٌ * تمدّ اليـه جيدَها وهى تَفـرقُ

وقال أيضا وإشارته الى الديك

صفَّقَ إما ٱرتياحةً لسَـنا الـ * ـفجر وإما على الدجى أسفا

عبيد بن عبد الله بن طاهر ١٥

ألم ترأن المرءَ تدوَى يمينُه * فيقطعها عمـدا ليسـلمَ سائرُهْ؟

فكيف تراه بعـد يمناه صانعا * لمن ليس منه حين تدوَى سرائرُهْ؟

وقال أيضا

ألا قبّـح الله الضرورةَ إنهـا * تكلّف أعلى الخَلْقِ أدنى الخلائقِ!

وقال أيضا

وكم قائل قد قال مالك راجلا؟ * فقلت له من أجل أنك فارس!

وقال أيضا

ومن سرّه أن لا يرى ما يسوءه * فلا يتّخذ شيئا يخاف له فقدا

٥ ابن طباطبا العلوىّ : هو أبو الحسن محمد بن أحمد العلوى الأصبهانى يقول

إنّ فى نيل المُنَى وشكَ الردى * وقياس القصد عند السرف

كسراج دهنه قوتٌ له * فاذا غرّقته فيه طُفى

وقال أيضا

لقد قال أبو بكر * صوابا بعد ما أنصتْ

١٠ خرجنا لم نصد شيئا * وما كان لنا أفلتْ

وقال أيضا

يا عيشنا المفقودَ خذ من عمرنا * عامًا وردَّ من الصِّبا أياما!

منصور الفقيه المقرئ يقول

يا من يخاف أن يكو * ن ما أخافَ سرمدَا

١٥ أما سمعتَ قولَهم * إنّ مع اليوم غدَا!

وقال أيضا

الملح يُصلح كلّ ما * يُخشى عليه من الفسادِ

فاذا الفساد جرى عليـ * ـه فحكمه حُكْمُ الرّماد

وقال أيضا

كلُّ مذكورٍ من الناس اذا ما * فقدوه صار فى حكم الرّماد

وقال أيضا

كلّ مذكور من النـــاس اذا ما فقدوه

صار فى حكم حديث * حفظوه ونســوه

وقال أيضا

كلّ من أصبح فى دهـــرك ممن قد تراهْ

هو من خلفك مِقرا * ض وفى الوجه مِراهْ

ابن بسّام : هو على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسّام كنيته أبا الحسن يقول

* وكم أُمنيّة جلبتْ منيّةْ *

وقال

ولولا الضرورةُ ما جئتكم * وعند الضرورة يؤتى الكنيف !

وقال أيضا

قل لأبى القاسم المرجّى * قابلك الدهر بالعجائبْ

مات لك ابنٌ وكان زينا * وعاش ذو الشين والمعائبْ

حياة هذا كموت هــذا * فلست تخلو من المصائبْ

وقال أيضا

ربَّ يوم بكيت منه فلما * جزت فى غيره بكيت عليه

وقال أيضا

قــد يحمل الشيخُ الكبيـــرُ جنازةَ الطفلِ الصغيرِ

جَحْظَــة : هو أبو الحسن أحمــد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك النديم يقول

* وللمساكين ايضا بالندى وَلَعٌ *

وقال أيضا

* وآفة التبر ضُعف منتقدهْ *

وقال أيضا

* متى يلتقى الميْتُ والغاسلُ؟ *

٥ وقال أيضا

لا تعدّنّ للزمان صديقا . وأعدّ الزمان للأصدقاءِ

وقال أيضا

وما كذب الذى قد قال قبلى : . اذا ما مرَّ يوم مرَّ بعضى

وقال أيضا

١٠ اذا الشهر حلَّ ولا رزقَ لى . فعَدِّى لأيامه باطلُ

وقال أيضا

واذا جفانى جاهلٌ . لم أستخر ما عشتُ قطعهْ

وجعلته مثل القبو . ر أزوره فى كلّ جمعهْ

الصنوبرىّ يقول

١٥ مِحَن الفتى يُخبرنَ عن فضل الفتى . كالنار مخبرةٌ بفضل العنبرِ

وقال أيضا

ربَّ حال كأنها مُذْهَبُ الديشباج صارت من رقة كاللاذ (١)

وزمانٍ مثلِ ابنة الكَرْم حُسنا . عاد عند العيون مثلَ الداذى (٢)

أو ما من فساد رأى الليالى . أنّ شعرى هذا وحالىَ هذى!

---

(١) اللاذة : ثوب حرير أحمر صينىّ والجمع : لاذ .

(٢) الداذىّ : شراب الفسّاق .

أبو الفتح كُشاجم : هو محمود بن الحسين بن السندىّ بن شاهك، وشاهك أمّه يقول

يُعاد حديثه فيزيد حُسـنا * وقد يُستقبَحُ الشيءُ المُعـادُ

وقال أيضا

شخَصَ الأنامُ الى جمالكَ فاستعِذْ * من شرّ أعينهم بعيبٍ واحد! ٥

*
* *

ومما يتمثّل به من أشعار المولَّدين : منهم

أبو فراس الحمدانىّ

غنَى النفس لمن يعقـ * ـل خير من غِنَى المـالِ

وفضل الناس فى الأنفـ * ـس ليس الفضل فى الحال ١٠

وقال أيضا

ونحن أناسٌ لا توسّط عندنا * لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

تهون علينا فى المعالى نفوسُنا * ومَن خطَبَ الحسناءَ لم يغلِه المَهرُ

وقال أيضا

وندعو كريما مَن يجود بماله * ومَن يبذل النفس النفيسة أكرمُ ١٥

وقال أيضا

وجميل العـدوّ غير جميلٍ * وقبيحُ الصديق غير قبيح!

أبو الطيب المتنبّى يقول

* مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائد *

وقال أيضا

* إن المعارفَ فى أهل النُّهى ذِممُ *

وقال أيضًا

* وخير جليسٍ فى الزمان كتابُ *

وقال أيضا

٥

* وتأبَى الطبــاعُ على الناقـــلِ *

وقال أيضا

* ومنفعة الغوث قبــل العطب *

وقال أيضا

١٠

* ومن فرح النفس ما يقتــل *

وقال أيضا

* اذا عظم المطلوب قلّ المساعدُ *

وقال أيضا

* أنا الغريق فما خوفى من البلل *

١٥

وقال أيضا

* فإن الرفق بالجانى عتابٌ *

وقال أيضا

* بغيضٌ الىّ الجاهــلُ المتعاقلُ *

وقال أيضا

٢٠

وكلّ آمرئ يولى الجميلَ محبّبٌ * وكلّ مكان يُنبت العــزّ طيّبُ

وقال أيضا

اذا أنتَ أكرمتَ الكريم ملكتَه * وإن أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمــردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعُلى * مضرٌّ كوضع السيف فى موضع الندى

وقال أيضا

والأمر لله، ربَّ مجتهدٍ * ما خاب إلا لأنه جاهــدُ

٥

وقال أيضا

وليس يصحّ فى الأفهام شىء * اذا ٱحتاج النهار الى دليـــلِ

وقال أيضا

ومن نكدِ الدنيا على الحرّ أن يرى * عــدوّا له ما من صداقته بدٌّ

وقال

١٠

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا * تعبتْ فى مرادها الأجسامُ

وقال أيضا

وإن يكن الفعلُ الذى ساء واحدا * فأفعــاله اللاتى سَرَرنَ ألوفُ

وقال أيضا

وإذا أتتك مذمّتى من ناقص * فهى الشهادة لى بأنى فاضــلُ

١٥

وقال أيضا

وما الحُسنُ فى وجه الفتى شرفا له * اذا لم يكن فى فعــلِه والخلائقِ!

وقال أيضا

وما يوجع الحرمانُ من كفّ حارمٍ * كما يوجع الحرمانُ من كفّ رازقِ!

وقال أيضا

إنّا لفى زمن ترك القبيح به * من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ

ذكرُ الفتى عمرُه الثانى وحاجته * ما فاته وفضول العيش أشغالُ

وقال أيضا

٥ وقيّدتُ نفسى فى ذراك محبّةً * ومَنْ وجَد الإحسان قيدًا تقيّدا

وقال أيضا

ما كلّ ما يتمنّى المرءُ يُدركه * تجرى الرياحُ بما لا تشتهى السفُنُ!

السرىّ بن أحمد بن السرىّ الموصلىّ يقول

اذا العبءُ الثقيل توزّعتْه * أكفّ القوم هان على الرقاب

١٠ وقال أيضا

فإنك كلّما آستُودعتَ سرًّا * أنمُّ من النسيم على الرياض

وقال أيضا

إلى كم أحبّر فيك المديحَ * ويَلْقى سواى لديك الحُبورا؟

أبو بكر محمّد بن هاشم الخالدىّ يقول

١٥ إن خانك الدهرُ فكن عائذا * بالبيد والظَّلْماء والعيس

ولا تكن عبدَ المنى فالمُنى * رءوس أموال المفاليس

وقال أيضا

وأخٍ رَخُصتُ عليه حتى ملّنى * والشيء مملول اذا ما يَرخُصُ

ما فى زمانك ما يَعِزّ وجودُه * إن رمتَه إلا صديق مخلصُ

أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدىّ [أخوه] يقول

يا هــذه إن رحتُ فى * خَلَقٍ فما فى ذاك عارُ
هذى المُدام هى الحيا * ة قميصها خَرَقٌ و قَارُ

وقال أيضا

صغيرٌ صرفتُ اليه الهوى * وما خاتمٌ فى سوى خِنْصَر ٥

الخَبّاز البلدىّ : هو أبو بكر محمد بن أحمد بن حمدان، نسبة الى " بلد " وهى من بلاد الجزيرة التى منها المَوصل يقول

اذا آستثقلتَ أو أبغضتَ خَلْقا * وسَرّك بعــدُه حتى التّنادِ
فشرّده بقرض دُريهمات * فإن القَرض داعيةُ الفسادِ

أبو إسحاق الصابئ يقول ١٠

نِعمُ الله كالوحوش وما تأ * لف إلّا الأخايرَ النُّسا كا
نفّرتها آثامُ قوم وصارتْ * لأولى البرّ والتُّقى أشرا كا

وقال أيضا

ومن الظلم أن يكون الرضى ســـرًّا ويبدو الإنكار وسْطَ النادى

وقال أيضا ١٥

الضبّ والنون قد يُرجى آلتقاؤهمـا * وليس يرجى التقاء اللبِّ والذّهب

عبد العزيز عمر بن نُباته يقول

فلا تَحقِرنّ عدوّا رمالك * وإن كان فى ساعديه قِصَرْ
فإن السيوف تحزّ الرقابَ * وتعجز عمـا تنال الإبر

وقال أيضا

مَثَلٌ خلعتُ على الزمان رداءه * عَوَزُ الدراهم آفةُ الأجواد

وقال أيضا

يهوى الثناءَ مُبرِّز ومُقصِّر * حُبُّ الثناء طبيعة الإنسان

٥ وقال أيضا

ونَبَتْ بنا أرضُ العِرا * ق فما مُجنّاها بمُجنه

غير الرحيل، كفى البلا * د برحلةِ العجفاء هُجنه

ابن لنكك البصرىّ : هو أبو الحسين محمد بن محمد يقول

وماذا أُرجّى من حياةٍ تكدّرت ؟ * ولو قد صفت كانت كأضغاث أحلام

١٠ وقال أيضا

عـدّنا فى زمانـنا * عن حديث المكارمِ

من كفى الناس شرَّه * فهو فى جود حاتمِ

وقال أيضا

جار الزمانُ علينـــا فى تصرّفه * وأىّ دهرٍ على الأحرار لم يَجُـرِ

١٥ عندى من الدهر مالو أنّ أيسره * يُلقَى على الفَلَك الدوّار لم يَدُرِ

أبو الحسن عبدالله بن محمد بن محمد السلامىّ يقول

تبسّـــطنا على الأيام لمـا * رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال أيضا

والمرء ما شغلته فرصة لذة * ناسى الحوادث آمن الحدثانِ

وقال

وكان رقادى بين كأسٍ وروضــة * فصار سُهادى بين طِرْفٍ وصارمِ

وقال أيضا

ركوبُ الهولِ أركبك المَذاكى * ولُبسْ الدرع ألبسك الغلائلْ

٥ أبو الفرج البَبَّغا يقول

ما الذلِ إلا تحمُّــل المِنَنِ * فكن عزيزًا إن شئتَ أو فَهُنِ

وقال أيضا

ومن طلب الأعداءَ بالمــال والظُبى * وبالســعد لم يبعُد عليــه مرامَ

وقال أيضا

١٠ ولم أر مُذ عرفتُ محلَّ نفسى * بلوغَ مُنى تساوى حمــلَ مَنِّ

وقال أيضا

أكلُّ وميض بارقة كذوبُ * أما فى الدهر شئٌ لا يريب؟

ابن سُكَّرة الهاشمىّ : هو محمد بن عبد الله يقول

* وعلة الحال تُنسى علّة الجسد *

١٥ وقال أيضا

* وقد ينبت الشوك بين الأقاحى *

وقال أيضا،

الموت أنصف حين عدّل قِسْمَة * بين الخليفــة والفــقير البائس

ابن الحَجّاج : هو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج يقول

* وربَّ كلام تُستثار به الحربُ *

وقال أيضا

* خَود تُزَفّ الى ضريرٍ مُقْعد *

وقال أيضا

واللوزة المرّة يا سادتى * يفسد فى الطّعم بها السكّرُ

وقال أيضا

ما زلتُ أسمع كم من واقفٍ خِجِلٍ * حتى ٱبتليتُ فكنتُ الواقفَ الخَجِلَا

وقال أيضا

وبى مرضان مختلفان حال الشّعليلة منهما يمنى بحالى

اذا عالجتُ هذا جفّ كِبْدى * وإن عالجتُ ذاك رَبَى طِحالى

أبو الحسن المُوسوىّ النقيب : هو محمد بن الحسين بن موسى يقول

أمسيتُ أرحمُ من قد كنتُ أغبطه * لقد تقارب بين العزّ والهُون

ومنظرٍ كان بالسرّاء يضحكنى * يا قرب ما عاد بالضّراء يُبكينى

وقال أيضا

والحرّ من حذر الهوا * ن يزاول الامر الجسيما

وهو العظيم وغير بدْ * عٍ منه إن ركب العظيما

وقال أيضا

ماالسُؤددُ المطلوب إلّا دون ما * يُومِى اليه السؤدد المولودَ

فاذا هما ٱتّفقا تكسرت القنا * إن غالبَا وتضعضع الجُلْمودُ

وقال أيضا

اشترِ العزّ بما بيع * فما العزّ بغالى

بالقِصار البيض إن شئـــتَ أو السُمرِ الطِوالِ
ليس بالمغبون عقلا * مشـتـر عزّا بمـال
إنمـا يُذخر المـال * لحـاجات الرجالِ
والفتى من جعل الأقـــوال أثمـان المعالى

أبو طالب المأمونىّ يقول ٥

لى فى ضمير الدهر سرٌّ كامِنٌ * لابدّ أن تستلّه الأقـدارُ

وقال أيضا

وما شرفُ الإنسان إلا بنفسه * أكان ذووه سادة أم مواليا

وقال

(٣١) اذا الغيث وفّى الروضَ واجبَ حقّه * وزاد فإن الغيث للروض ظالمُ ١٠

ابن العميد : هو أبو الفضـل محمد بن أبى عبد الله الحسين بن محمد ، عُرف بابن العميد، كان أبوه أبو عبـد الله وزير مرداويج توفى ابن العميد بالرّىّ فى محرم سنة ستين وثلثمائة يقول

لن يصرف الدهر من سجيّته * أرب أريب وحول ذى حيلِ
أىّ مَعين صـفا على كدر الدّهر وأىّ النعـيم لم يزلِ ١٥

وقال أيضا

من يُشفَب من ذا بآخر مثـلهِ * أثرتْ جوانحــه من الأدواءِ
داوى جوىً بجوى وليس بحازم * من يَستكفّ النـارَ بالحَلْفاءِ

الصاحب بن عَبّاد : هو أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد . توفى فى صفر سنة خمس وثمانين وثلثمائة وعمره خمس وستون سنة وسمىّ بالصاحب لصحبة ابن العميد يقول

* بقدر الهموم تكون الهمم * * كم صارمٍ جُرِّبَ فى خنزيرِ *

وقال أيضا

٥ لقد صدقوا والراقصات الى مِنى * بأن مودّات العـدا ليس تنفعُ

ولو أننى داريت دهرىَ حيّـة * اذا آستمكنت يومامن اللسع تَلسعُ

الحسن بن علىّ بن عبد العزيز القاضى يقول

* القلبُ يُدرِك مالايُدرِك البصر * * يُملك الأحـرارُ بالإينـاسِ *

وقال أيضا

١٠ وما أعجبتنى قطّ دعوى عريضةٌ * ولو قام فى تصديقها ألفُ شاهدِ !

وقال أيضا

يقولون لى فيـك آنقباض و إنّمـا * رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

اذا قيل هـذا موردٌ قلت قد أرى * ولكنّ نفس الحُـرّ تحتمل الظما

وقال أيضا

١٥ وقالوا آضطرب فى الأرض فالرزقُ واسع * فقلتُ ولكن مطلب الرزق ضـيّقُ

اذا لم يكن فى الأرض حرّ يُعيننى * ولم يك لى كسبٌ فمن أين أُرزقُ؟

أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمىّ يقول

* ومن عجب الأيام تَرْكُ التعجّبِ *

وقال أيضا

٢٠ * لكلّ صناعة يوما مديلٌ *

وقال أيضا

واذا مدة الشـوق تناهت * جاءه من شـقائه متقاضى

وقال أيضا

عليك بإظهار التجلد للعـدا * ولا تظهرنْ منها الدنوّ فتُحقرا

بديع الزمان أبو الفضل الهَمَذانيّ ، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد تُوفّى ٥
سنة ثمان وتسعين وثلثمائة مسموما وأوفى على الأربعين سنة يقول

ياحريصا على الغـنى * قاعدًا بالمراصـدِ !

لست فى سعيك الذى * خضت فيه بقاصـدِ

إن دنيـاك هــذه * لست فيها بخـالدِ

بعض هــذا فإنما * أنتَ سـاعٍ لقاعـدِ ١٠

إسماعيل الناشئ يقول

* وللشباب نراعى حرمة الكتم *

وقال أيضا

وكنت أرى أنّ التجارب عـدّة * فخانت ثقات الناس حتى التجارب

وقال أيضا

فركضـا فى ميادين التصابى * أحقُّ الخيـل بالركض المُعارُ ١٥

وقال أيضا

ولا تجـزعنّ على أيكةٍ * أبتْ أن تُظلّك أغصانُها

أبو الفتح علىّ بن محمد البستىّ يقول

اذا مرّ بى يوما ولم أتخــذ يدًا * ولم أستفد علما فما ذاك من عمرى!

وقال أيضا

أنا كالوَردِ فيــه راحةُ قومٍ * ثمَّ فيــه لآخرين زكامُ!

٥ وقال أيضا

لا ترجُ شيئًا خالصا نفعُـه * فالغيث لا يخلو من العيثِ

وقال أيضا

ولم أرَ مثــلَ الشكر جَنّــة غارسٍ * ولا مثلَ حسنِ الصبرِ جُنّةَ لابسِ

وقال أيضا

١٠ ولن يشرب السمّ الزُّعافَ أخو الحجى * مُـدِلًّا بدرياقٍ لديه مجــرَّبِ

وقال أيضا

ما آســتقامتْ قناةُ رأيىَ إلا * بعدَ أن عوّج المشيبُ قنـاتى

وقال أيضا

وطول جِمامِ المـاءِ فى مُستقرّه * يغــيّره لونا وريحـا ومَطعما

١٥ وقال أيضا

اذا حيوانٌ كان طعَمةَ ضدّه * توقّاه كالفار الذى يتّقى الهــرّا

ولا شك أن المرءَ طعمةُ دهره * فما باله ياويحه يأمن الدهرا!

وقال أيضا

لا تحقر المــرءَ إن رأيت به * دمامــةً أو رثاثة الحُلَـــلِ

٢٠ فالنحل لا شــك فى ضؤولته * يَشتارُ منه الفتى خَيْرَ العســلِ

البـاب الثـانى

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى أوابد العرب

ومعنى الأوابد هاهنا : الدواهى ؛ وهى مما حمى الله تعالى هذه الملّة الإسـلاميّة منها ، وحذر المؤمنين عنها . فقال تعالى (يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ) وقال تعالى (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ) وقال تعالى (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا) وكانت للعرب أوابدُ جعلوها بينهم أحكاما ونسكا وضلالة وعادة ومداواة ودليلا وتفاؤُلا وطِيَرةً . فمنها :

البَحِيرةُ :

قالوا : كان أهل الوبر يُعطون لآلهتهم من اللحم ، وأهلُ المدر يُعطون لها من الحرث ، فكانت الناقة اذا أنتجت خمســة أبطن عمدوا الى الخامس ما لم يكن ذكرا فشــقّوا أذنها ، فتلك : البحيرة ؛ فربما آجتمع منها هَجْمةٌ من البحر فلا يُجزُّ لها وبر ولا يذكر عليها إن ركبت آسم الله ، ولا إن حمل عليها شيء ، فكانت ألبانها للرجال دون النساء .

الوصيلة :

كانت الشاة اذا وضعت ســبعة أبطن عمدوا الى السابع ، فإن كان ذكرا ذُبح ، و إن كانت أنثى تُركت فى الشاء ، فان كان ذكرا وأنثى قيل : وَصلتْ أخاها ، فحَرُما جميعا ، وكانت منافعها ، ولبن الأنثى منها للرجال دون النساء .

السائبة :

كان الرجل يسيّب الشيء من ماله ، إما بهيمةً أو إنسانا ، فتكون حراما أبدا ، منافعها للرجال دون النساء ،

الحامى :

كان الفحل اذا أدركتْ أولادُه فصار ولده جَدًّا قالوا : حمى ظهره ، آتركوه فلا يحمل عليه ، ولا يركب ، ولا يمنع ماء ، ولا مرعى ، فاذا ماتت هذه التى جعلوها لآلهتهم ، آشترك فى أكلها الرجال والنساء ، وذلك قوله تعالى (وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ) قالوا : وكان أهل المدر والحرث اذا حرثوا حرثا ، أو غرسوا غرسا ، خطّوا فى وسطه خطًّا ، فقسموه بين آثنين فقالوا : مادون هذا الخط : لآلهتهم ، وما وراءه : لله ، فإن سقط ممّا جعلوه لآلهتهم شيء فيما جعلوه لله ردّوه ، وإن سقط ممّا جعلوه لله فيما جعلوه لآلهتهم أقرّوه ، واذا أرسلوا الماء فى الذى لآلهتهم ، فانفتح فى الذى سموه لله سدّوه ، وإن آنفتح من ذاك فى هذا قالوا : آتركوه فإنه فقير إليه ، فأنزل الله عزّ وجلّ (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) .

الأزلام :

قالوا : كانوا اذا كانت مداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ، ولا يدرون ما الامر فيه ولم يصحّ لهم أخذوا قداحا لهم فيها : أفعل ولا أفعل لا يفعل ، نعم لا خير ، شرٌّ بطىءٌ سريع ، فأما المداراة فإن قداحا لهم فيها بيضا ليس فيها شيء فكانوا يجيلونها فمن خرج

سهمه فالحقّ له، وللحضر والسفر سهمان ، فيأتون السادن من سدنة الأوثان فيقول السادن : اللّهم أيّهما كان خيرا فأخرجه لفلان ، فيرضى بمـا يخرج له ، فاذا شكّوا فى نسب الرجل أجالوا له القداح وفيها : صريحٌ، وملصَقٌ ، فإن خرج الصريح ألحقوه بهم، و إن خرج الملصق نفوه، و إن كان صريحا فهذه قِداح الاستقسام .

الميسر : ٥

قالوا فى الميسر : إن القوم كانوا يجتمعون فيشترون الجَزورَ بينهم، فيفصّلونها على عشرة أجزاء ، ثم يؤتى بالحُرُضَة وهو رجل يتألّهُ عندهم لم يأكل لحما قط بثمن ، و يؤتى بالقِداح وهو أحد عشر قِدْحا ، سبعة منها لها حظّ إن فازت ، وعلى أهلها غرم إن خابت، بقدر مالها من الحظّ إن فازت، وأربعة يُثقل بها القداح، لا حظّ لها إن فازت، ولا غرم عليها إن خابت . ١٠

فأما التى لها الحظّ : فأولها الفَذُّ فى صدره حزٌّ واحد، فإن خرج أخذ نصيبا، و إن خاب غرم صاحبه ثمن نصيب، ثم التوأم، له نصيبان إن فاز، وعليه ثمن نصيبين إن خاب، ثم الضَّرِيب، وله ثلاثة أنصباء، ثم الحِلْسُ وله أربعة ، ثم النافِس، وله خمسة، ثم المُسْبِل، وله ستة، ثم المُعَلَّى وله سبعة . قالوا : والمسبِل يسمّى : المُصْفَحُ، والضريب يقال له : الرقيب . ١٥

وقد جمع الصاحب بن عبّاد هذه الأسماء ونظمها فى أبيات فقال

إنّ القِـداحَ أمرُها عجيبُ * الفـذُّ، والتوأمُ، والرقيبُ،
والحلْسُ، ثم النّافِسُ المصيبُ * ،والمُصْفَحُ المشتهرالنجيبُ،
ثم المعـلّى حظّه الترغيبُ * هاك فقد جاء بها الترتيبُ،

وأما الأربعة التى يُنقل بها القداحُ فهى : السَّفيح ، و المَنيح ، و المُضْعَف ، و الوغد .

قال ابن قتيبة : والمنيح له موضعان : أحدهما لاحظّ له ، والثانى له حظّ . فكأنه الذى يُمنح حظّه . وعلى ذلك دلّ قول عمرو بن قبيصة

٥ بأيديهـم مقرومةٌ ومَغالقٌ * يعودُ بأرزاق العيال مَنيحها

قالوا : فيؤتى بالقِداح كلها وقد عرف كلّ ما اختار من السبعة ولا يكون الأيسار إلا سبعة ، لا يكونون أكثر من ذلك . فإن نقصوا رجلا أو رجلين ، فأحب الباقون أن يأخذوا ما فضل من القداح ، فيأخذ الرجل القِدح والقِدحين فيأخذ فوزهما إن فازا ، ويغرم عنهما إن خابا ويدعى ذلك : التَّميمُ قال النابغة

١٠ إنى أتمّم أيسارى وأمنحهم * من الأيادى وأكسوا الجفنة الأدَما

فيعمدوا الى القداح ، فتُشدّ مجموعة فى قطعة جلد ثم يعمد الى الحُرْضة فيلف على يده اليمنى ثوبا لئلا يجد مَسّ قدحٍ له فى صاحبه هوى ، فيحابيه فى إخراجه ، ثم يؤتى بثوب أبيض يُدعى . المِجْوَلُ ، فيبسط بين يدى الحُرْضة ، ثم يقوم على رأسه رجل يدعى : الرقيب ، ويدفع رِبابةَ القِداح الى الحُرضَة وهو محوّل الوجه عنها ،

١٥ والرِّبابة : ما يجمع فيها القداح ، فيأخذها ويدخل شماله من تحت الثوب ، فينكر القِداحَ بشماله ، فاذا نهد منها قدح تناوله فدفعه إلى الرقيب . فإن كان مما لا حظّ له رُدَّ الى الرِّبابة ، فإن خرج بعده المُسْبِلُ ، أخذ الثلاثة الباقية ، وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور أخرى ، وعلى هذه الحال يفعل بمن فاز ومن خاب ، فربما نحروا عدة جزور ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا ، وإنما الغرم على الذين خابوا ولا يحلّ

للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا . فإن فاز قدحُ الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطار فعلوا ذلك به .

ومنها : نكاحُ المقت : كان الرجل اذا مات قام أكبر ولده فألقى ثوبه على امرأة أبيـه فورث نكاحها ، فإن لم يكن له فيها حاجة تزوجها بعض إخوته بمهر جديد ، فكانوا يرثون نكاح النساء كما يرثون المـال ، فأنزل الله تعـالى (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) .

ومنها : رمى البعرة : كانت المرأة فى الجاهليّـة اذا توفى عنها زوجها ، دخلَتْ حَفْشًا ، والحَفْشُ : الخُصّ ، ولبست شرّ ثيابها ولم تمسّ طيبا ولا شيئا ، حتى تمرَّ لها سـنةٌ ثم تؤتى بدابةٍ : حمـارٍ أو شاةٍ أو طيرٍ فتفتضّ به أى تمسح به ، فقلّما تفتضّ بشىء إلا مات ، ثم تخرج على رأس الحول ، فتعطى بعرة فترمى بهـا ، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره ومعنى رميها بالبعرة : أنها ترى أن هذا الفعل هيّن عليها مثل البعرة المرميّة ، فنسخ الإسلام ذلك بقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا) .

ومنها : ذبح العتائر : قالوا : كان الرجل منهم يأخذ الشاة ، وتسمّى العَتِيرُ والمعتورةُ فيذبحها ويصبّ دمها على رأس الصنم ، وذلك يفعلونه فى رجب ، والعَتْرُ قيل : هو مثل الذبح ، وقيل : هو الصنم الذى يُعتَر له . قال الطرماح

فخرّ صريعًا مثلَ عاترة النسك

أراد بالعاترة : الشاة المعتورة .

عقد السَّلَع والعُشَر : وقد تقدم ذكره عند ذكر أسماء نيران العرب .

ذبح الظبي : كان الرجل ينذر أنه إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغا فأذبح عنها كذا ، فاذا بلغت ضنّ بها ، وعمد الى الظّباء فيصطادها ويذبحها وفاء بالنذر؛ قال الشاعر

عَنَتًا باطلًا وزُورًا كما يُعْــتَرُ عن حَجْرة الرَّبيض الظباءُ

ومنها : حبس البلايا : كانوا اذا مات الرجل يشدّون ناقته الى قبره ، و يعكسون رأسها الى ذَنَبها ، و يغطّون رأسها بوَلِيَّة وهى البردعة ، فإن أفلتت لم تُرَدّ عن ماء ولا مرعًى ، و يزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ، ليركبها صاحبها فى المَعاد ، ليُحشر عليها ، فلا يحتاج أن يمشى ؛ قال أبو زبيد

كالبـلايا رءوسها فى الولايا مانحاتِ السَّمومِ حُرَّ الخدودِ

ومنها : خروج الهامة : زعموا أن الإنسان اذا قُتل ، ولم يطالبْ بثأره ، خرج من رأسه طائرٌ يسمّى : الهامة ، وصاح على قبره : آسقونى ! آسقونى ! الى أن يطلب بثأره ؛ قال ذو الإصبع

يا عمرو إن لا تدعْ شتمى ومَنقصَتى * أضربْكَ حتى تقول الهامةُ : آسقونى

ومنها : إغلاق الظهر : كان الرجل منهم اذا بلغت إبله مائة ، عمد الى البعير الذى أمات به ، فأغلق ظهره لئلا يُركب ، و يعلم أن صاحبه حمى ظهره ، و إغلاق ظهره أن ينزع سناسِنَ فقرته و يَعقرَ سنامَه .

ومنها : التعمية والتفقئة : وكان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل يقول : إن ذلك يدفع عنها العين والغارة ؛ قال الشاعر

وهبتَها وأنت ذو آمتنانِ * تفقأ فيها أَعين البُعـرانِ

فإن زادت عن ألف فقأ العين الأخرى ، فهو التعميةُ .

ومنها : بكاء المقتول : كان النساء لا يبكين المقتول إلا أن يُدركَ بثاره، واذا أُدرك بثاره بكينه؛ قال شاعر

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسوتَنا بوجهِ نهارِ
يجد النساء حواسرا يندبنــه * يلطمن حُرَّ الوجهِ بالأسحارِ

ومنها : رمى السنّ فى الشمس : يقولون : إن الغلام اذا ثغر، فرمى سِنّه ٥
فى عين الشمس بسبّابته وإبهامه وقال : أبدلينى أحسن منها، أمن على أسنانه العوَج، والفَلَج ، والثَعَل؛ قال طرفة

بدّلتــه الشمسُ من مَنبِتِه * بَرَدا أبيضَ مصقولَ الأشُرْ

ومنها : خضاب النحر : كانوا اذا أرسلوا الخيل على الصّيد فسبق واحدٌ منها،
خضبوا صدرَه بدم الصّيد علامة له ؛ قال الشاعر ١٠

كأن دماء العاديات بنحــره * عصارة حنّاء بشيبٍ مرجّلِ

ومنها : التصفيق : كانوا اذا ضلّ الرجل منهم فى الفلاة، قلَبَ ثيابه، وحبس ناقته، وصاح فى أذنها كأنه يومئ الى إنسان، وصـفّق بيديه : الوحا الوحا، النجا النجا، هيكل، الساعة الساعة ، اليّ اليّ ، عجّل ؛ ثم يحرّك الناقة فيهتـدى ؛ قال الشاعر ١٥

وأذّن بالتصفيق من ساء ظنُّه * فلم يدرِ من أىّ اليدين جوابها

يعنى : يسوء ظنّه بنفسه اذا ضل .

ومنها : جز النواصى . كانوا اذا أسروا رجلا، ومنّوا عليه فأطلقوه، جزّوا ناصيته ووضعوها فى الكنانة ؛ قال الحطيئة

قدنا سَلولَ فسلُّوا من كانتهم * مجدا تليدا ونَبْلا غيرَ أنكاسِ

يعنى بالنُّبل : الرجالَ؛ وقالت الخنساء

جززنا نواصىَ فرسانهم * وكانوا يظنون أن لا تُجزَّا

ومنها : كىّ السليم عن الجَرِب : زعموا أن الإبل اذا أصابها العُرّ فأخذوا

٥ الصحيح وكووه زال العُرّ عن السقيم؛ قال النابغة (٣٤)

وكلَّفتنى ذنبَ امرئ وتركته * كذى العُرّ يُكوَى غيرُه وهو راتعُ

ويقال : إنهم كانوا يفعلون ذلك، ويقولون : تؤمن معه العدوى .

ومنها : ضرب الثور : وزعموا أن الجنّ تركب الثيرانَ فتصدّ البقر عن الشرب؛ قال الأعشى

١٠ وإنى وما كلفتمانى وربّكم * لَيَعلَمُ من أمسى أعقّ وأحوبا

لكالثور والجنىّ يركب ظهره * وماذنبه إن عافت الماء مشربا

وماذنبه إن عافت المـاء باقر * وما إن تعاف الماء إلا ليُضرَبا

وقال آخر

كذاك الثور يُضرب بالهَراوَى * اذا ما عافت البـقرُ الظِّماءُ

١٥ ومنها : كعب الأرنب : كانوا يعلّقونه على أنفسهم ويقولون : إن من فعل ذلك لم تصبه عين ولا سِحر ، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب ، لأنها ليست من مطايا الجنّ لأنها تحيض؛ قال الشاعر

ولا ينفع التعشـير إن حُمّ واقع * ولا زعرعٌ يغنى ولا كعب أرنب

وقيــل لزيد بن كُثْوَةَ : أحقٌّ ما يقولون : إن من علّق على نفســه كعبَ أرنب لم يقربْه جنّانُ الحيّ وعُمّار الدار ؟ فقال : إى والله ! ولاشيطان الحمَاطة، الحماطة: شجرة التين ؛ وجان العُشرة، وغول القَفر، وكلّ الخوافى ، إى والله يطفئُ نيرانَ السّعالى .

ومنها : حيض السَّمُرة : يزعمون أن الصبى اذا خيف عليه نظرة أو خطفة ، فعلّق عليه سنّ ثعلب، أو سنّ هرة، أو حيض سَمُرة، أمن، فإن الجنيّة اذا أرادته لم تقدر عليه، فاذا قال لها صواحباتها فى ذلك، قالت

كانت عليــه نُفَرَهْ * ثعـالبٌ وهِـــرَرَهْ

* والحيض حيض السَّمُرَهْ *

ومنها : الطارف والمطروف : يزعمون أن الرجل اذا طرف عين صاحبــه ، فهاجت فمسح الطارفُ عين المطروف سبع مراتٍ وقال فى كلّ مرة: بإحدى جاءت من المدينة، بأثنتى جاءتا من المدينة ، بثلاث جئن من المدينة، الى سبع ، سكن هيجانها .

ومنها : وطء المقاليت : يزعمون أن المرأة المقلات اذا وطئت قتيــلا شريفا بقى أولادها، وفى ذلك يقول بشر بن أبى خازم

تظلّ مقاليتُ النســاء يطأنه * يقلن ألا يُلقَى على المرء مِئْزرُ

ومنها : تعليق الحلى على السليم : كانوا يعلّقون الحلىَ على الملسوع ويقولون إنه اذا علّق عليــه أفاق ، فيلقون عليه الأسورة والرِّعاث، ويتركونها عليه سبعةَ أيام ويمنع من النوم؛ قال النابغة

يُسهَّدُ فى وقت العشاءِ سليمُها * لحلْى النســاءِ فى يديْه قَعاقعُ

ومنها : ذهاب الخَدَر : يزعمون أن الرجل اذا خدرت رجلهُ فذكر أحبّ الناس اليه ذهب عنه ؛ قال كثيّر

اذا خدرتْ رِجلى دعوتك أَشتفى * بذكراك من مَذْل بهـا فيهونُ

وقالت آمرأة من كلاب

اذا خدرتْ رجلى ذكرتُ آبن مُصعب * فإن قلتُ : عبد الله، أجلَى فتورُها

وقيل ذلك لآبن عمر وقد خدرت رجله فقال : يا محمّداه .

ومنها : الحَلَأْ : زعموا أنه اذا ظهرت بشفة الغـلام بثور ، يأخذ مُنخُلا على رأسه و يمرّ بين بيوت الحىّ ، وينادى : الحَلَأْ الحلأ ، فيلقى فى منخله من ها هنا ثمرة ، ومن ها هنا كسرة ، ومن ثمّ بضعة لحم ، فاذا آمتلأ ، نثره بين الكلاب ، فيذهب عنه البثرْ ، وذلك البثر يسمّى : الحَلَأْ .

ومنها : التعشير : يزعمون أن الرجل اذا أراد دخول قرية ، نخاف و باءها ، فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشّر كما ينهق الحمار ، ثم دخلها لم يصبه وباؤها ؛ قال عروة آبن الورد

لعمرى لئن عشّرت من خشية الردى * نهـاق الحمـير إننى لجـزوعُ!

ومنها : عقد الرَّتَم : كان الرجل منهم اذا أراد سـفرا ، عمد الى رتَم فعقده ، والرتم : نبت ، فإن رجع ورآه معقودا ؛ زعم أن آمرأته لم تخنه ، وإن رآه محلولا زعم أنها قد خانته ؛ قال الشاعر

هل ينفعنْك اليوم إن همّت بهم * كثرة ما توصى وتعقـادُ الرَّتَمْ؟

وقال آخر

خانته لمـا رأت شيبا بمَفرِقه * وغرّه حَلْفُها والعَقْـدُ للرَّتَمِ

ومنها : دائرة المهقوع : وهو الفرس الذى به الدائرة التى تسـمّى : الهَقْعَة ، يزعمون أنه اذا عرق تحت صاحبه ، اغتلمتْ حليلتُه وطلبتْ الرجال ؛ قال الشاعر

اذا عَرِق المهقوعُ بالمرء أنعظتْ * حليلتُـــه وآزدادَ حَرًّا عِجـانُها

ومنها : شَقّ الرداء والبرقع : زعموا أن المرأة اذا أحبّت رجلا أو أحبّها ثم لم تشقّ عليه رداءه ، ويشقّ عليها برقعَها ، فسد حبّهما ، فاذا فعل ذلك دام حبّهما ؛ قال الشاعر

اذا شُقّ بُردٌ شُقّ بالبُرد بُرقُـعٌ * دَواليْك حتى كلّنا غـير لابسِ

فكم قد شققنا من رداءٍ محبَّرٍ * ومن برقع عن طفلةٍ غيرِ عانسِ

ومنها : نوء السماك : كانوا يكرهونه ويقولون فيه داء الإبل ؛ قال الشاعر

ليت السماك ونوءَه لم يُخلقـا * ومشى الأُفَيرقُ فى البلاد سـليما

ومنها : النسيء : وقد تقدّم خبره فى الفن الأوّل من الكتاب .

ومنها : وأد البنات : وقد نهاهم الله عزّ وجلّ عنه فى قوله : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)، وكانوا يقتلونهنّ خشية الإملاق أو من الإملاق ؛ وقد قيل: إنهم كانوا يقتلونهنّ خوف العار أو أن يُسبينَ ، فمن قتلهـم خشية الإملاق ما روى عن صعصعة بن ناجية المجاشعىّ جد الفرزدق : أنه لمـا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهليّة ، أفينفعنى ذلك اليوم؟ قال : وما عملك؟ قال : أضللت ناقتين عشراوين، فركبت جملا ومضيت فى بغائهما فرُفع لى بيت جريد ، فقصدته فاذا رجل جالس بفنائه ، فسألته عن الناقتين ، فقال : ما نارهما؟ قلت : مِيْسَم بنى دارم ، قال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى

بهما قوما من أهلك من مضر، واذا عجوز قد خرجت من كسر البيت، فقال لهـا : ما وَضَعَتْ؟ فان كان سَقْبا شاركنا فى أموالنا، و إن كانت حائلا وأَدْنَاهَا، (معنى قوله سقبا أى ذكرا، وحائلا أى أنثى) فقالت العجوز : وضَعتْ أنثى، فقلت : أتبيعها؟ قال : وهل تبيع العرَب أولادها؟ قال قلت : آحتكم، قال بالناقتين والجمل، قلت : لك ذلك، على أن تبلغنى الحمل و إياها ففعـل ، فآمنت بك يا رسـول الله ، وقد صارت لى سُـنَّةٌ على أن أشترى كلّ موءودة بناقتين عشراوين و جمل ، فعندى الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة قد أنقذتها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبتغ به وجه الله تعالى ، و إن تعملْ فى إسـلامك عملا صالحا تُثب عليه؛ ففى ذلك يقول الفرزدق مفتخرا

وجدى الذى منع الوائدين * وأحيى الوئيد فـلم توءَدِ!

وممن قتلهم خشية العار : قيس بن عاصم المنقرىّ وكان من وجوه قومه ومن ذوى الأموال فيهم وكان يئد بناته وسبب ذلك : أن النعمان بن المنذر لمـا منعته بنو تميم الإتاوة التى كانت تؤدّيها له جهّز اليهـم أخاه الريّان بن المنذر، ومعـه بكر بن وائل فغزاهم ، فاسـتاق النعم وسبى الذرارى ، فوفدت اليه بنو تميم فلما رآها أحب البقاء عليها، فقال النعمان

ما كان ضرّ تميما لو تعمّدها * من فضلنا ماعليـه قيس غيلان

فأناب القوم وسألوه النساء ، فقال النعمان : كلّ آمرأة آختارت أباها ردّت اليه و إن آختارت صاحبها تُركتْ عليـه ، فكلّهن آخترن أباهن إلا آبنة لقيس بن عاصم آختارت صاحبها عمرو بن المُشَمرَج ، فنذر قيس لا يولد له آبنـة إلا قتلها ، فآعتلّ بهذا من وأد وزعم أنه حميّة .

البـاب الثـالث

من القسم الثـانى من الفن الثـانى

فى أخبار الكهنة

ويتصل به الزجر والفأل والطِّيرةُ والفِراسة والذكاء ، وكانت كهنة العرب لهم أتباع من الشياطين يسترقون السمع ويأتونهـم بالأخبار ، فيلقونها لمن يتبعهم ، ويسألهم عن خفيّات الأمور حتى جاء الإسـلام ، فمُنعت الشياطين من آسـتراق السمع ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى كتابه العزيز (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) فعند ذلك آنقطعت الكهانة فلم يسمع فى الإسلام بكاهن ، وهـذا من معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم لزوال الإشكال فى الوحى . فمن أخبار الكهنة ، خبر سطيح الكاهن حين ورد عليه آبن أخته عبدالمسيح وهو يعالج الموت ، فأخبره خبر ما جاء لأجله ، وذلك أنه لمـا كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم آرتجس إيوان كسرى ، وسقط منه أربع عشرة شُرفةً ، وخمدتْ نارُ فارس ، ولم تكن خمدتْ قبل ذلك بألف عام ، وغارت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وآنتشرت فى بلاد فارس ، فلما أصبح كسرى تصبّر تشجُّعا ثم رأى أن لا يكتم ذلك عن وزرائه ومَرْزَبته ، فلبس تاجه ، وقعد على سريره ، وجمعهم وأخبرهم الخبر فبيناهم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النار فآزداد غمًّا وسأل المُوبذَان وكان أعلمهم فقـال : حادثٌ يكون من قِبَل العرب ، فكتب كسرى الى النُّعمان آبن المُنْذِر : أن وجّه الىَّ رجلًا عالمـا بما أريد أن

أسأله عنه فوجّه اليه عبد المسيح بن حسّان بن نُفَيلة الغسّانى فقال له كسرى : أعندك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرنى الملكُ فإن كان عندى منه علم ، وإلّا أخبرتُه بمن يعلمه ، فأخبره بما رآه فقال : علمُ ذلك عند خالٍ لى يسكن مشارق الشام يقال له : سَطِيح ، فأرسله كسرى اليه فورد على سطيح وقد أشفى على الموت

٥ فسلّم عليه وحيّاه فلم يُحِر سطيحٌ جوابا فأنشد يقول

أصَمّ أم يسمع غِطريفُ اليمنْ * أم فاز فازلَمّ به شأوُ العَنَنْ؟

يا فاصل الخُطّة أعيت مَن ومَنْ * وكاشفَ الكُربة عن وجه الغَضَنْ

أتاك شيخ الحىّ من آل سَنَنْ * وأمّه من آل ذئب بن حَجَنْ

أزرقُ مُمْهَى الناب صَرّار الأُذُنْ * أبيضُ فَضْفَاض الرِّداء والبدنْ

١٠ رسول قَيْل العُجم يسرى بالوسنْ * لا يرهب الرعد ولا ريب الزمنْ

يجوب فى الأرض علنداة شجنْ * ترفعنى وَجْنًا وتهوى بى وُجُنْ

حتى أتى عارى الجآجى والقَطَنْ * تَلُفّه فى الريح بَوغاءُ الدِّمَنْ

* كأنما حُثحِثَ من حِضْنَىْ ثَكَنْ *

ففتح سطيح عينيه ثم قال: عبد المسيح ، على جَمَلٍ مُشيح ، أتى الى سطيح ، وقد أوفى

١٥ على الضريح ، بعثك مَلِكُ بنى سَاسَان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المُوبَذان ، رأى إبلا صِعَابا ، تقود خيلا عِرابا ، قد قطعتْ دِجلة وانتشرت فى بلاد فارس ، يا عبد المسيح اذا كثرت التلاوه ، وبعث صاحب الهِرَاوه ، وفاض وادى السماوه ، وغاصت بحيرة سَاوه ، وخمُدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاما ، ولا بابل للفرس مُقاما ، يملك فيهم ملوك وملِكات ، بعدد الشُّرُفات ، وكلّ ما هو

٢٠ آت آت ، ثم قضى سطيح لوقته ، فثار عبدُ المسيح الى رحله وهو يقول

شمِّرْ فإنك ماضى العــزم شمِّيرُ * لا يفزعنَّك تفريقٌ وتغيــيرُ
إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم * فإن ذا الدهر أطوارٌ دهاريرُ
فربّمــا ربّمــا أضحوا بمــنزلة * تهاب صولَهم الأسدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصّرح بَهرام وإخوته * والهُرمُزان وسابورٌ وشــابورُ
والناس أولاد عِلّاتٍ فمن علموا * أن قد أقلّ فمحقورٌ ومهجورُ
وهم بنو الأمّ أمّا إن رأوا نشبا * فذاك بالغيب محفوظ ومنصورُ
والخير والشرّ مقرونان فى قَرَنٍ * فالخــير مُتّبع والشرّ محــذورُ

فلما قصّ الخبرَ على كسرى قال: الى أن يملك منّا أربعة عشر تكون أمورٌ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين، وملك الباقون الى زمن عثمان رضى الله عنه .

ومن أخبــارهم: أن سُعدى بنت كُرَيز بن ربيعة كانت قد تطرّقت وتكهّنت وهى خالة عثمان بن عفّان رضى الله عنهُ، روى عنه أنه قال: لمــا زَوّجَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم آبنته رُقيّة من عُتبة بن أبى لهب وكانت ذات جمال رائع، دخلتنى الحسرة أو كالحسرة أن لا أكون سـبقت اليها ثم لم ألبث أن آنصرفت الى منزلى فألفيت خالتى فلما رأتنى قالت

أَبشِرْ وحيِّيتَ ثلاثا تترى * ثمّ ثلاثا وثــلاثا أُخرَى
ثمّ بأُخرى كى تتمّ عشــرا * أتاك خير ووُقيت شرّا
نكحت والله حَصانا زَهرا * وأنت بِكرٌ ولقيت بِكرا
وافيتَها بنت نفيس قدرا * بنت نبىّ قد أشاد ذكرا

قال عثمان : فعجبتُ من قولها، وقلتُ : مادا تقولين " فقالت

عثمان يا آبن أختَ يا عثمانْ * لك الجمــال ولك البيــانْ

هـــذا نبىّ معه البَرهانُ * أرسـله بحقّه الدّيّانُ

وجاءه التنزيل والفُـرقانُ * فاتّبعْه لا تحتالك الأوثانُ

فقلت : يا خالة ! إنك لتذكرين ما قد وقع ذكره فى بلدتنا فأثبتيه لى، فقالت : إن محمد بن عبد الله رسولٌ من عند الله ، جاء بتنزيل الله، يدعو الى الله، مصباحه مصباح، وقولُه صلاح، ودينه فلاح، وأمْرُه نجاح، وقَرْنه نطّاح، ذلّت له البطاح، ٥
ما ينفع الصياح، لو وقع الذباح، وسُلّت الصِفاح، ومـدّت الرماح، قال : ثم قامت فانصرفتُ ووقع كلامها فى قلبى، وجعلت أفكّر فيه، وذكر بعد ذلك إسلامه وتزويجه رقية؛ فكان يقال : أنهما أحسن زوجين اتفاقا و جمالا .

ومنها أن هندا بنت عُتبة بن ربيعة كانت عند الفاكه بن المُغيرة، وكان من فتيان قريش، وكان له بيت الضيافة، خارجا من البيوت، تغشاه الناس من غير إذن؛ فخلا ١٠
البيتُ ذات يوم واضطجع هو وهند فيه، ثم نهض لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولَجَه . فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل اليها فضربها برجله وقال لها : من هذا الذى خرج من عندك ؟ قالت : ما رأيتُ أحدا ، ولا انتبهتُ حتى أنبهتنى ! فقال لها : ارجعى الى أبيك، وتكلّم الناس فيها، فقال لها أبوها : يا بنيّة ! إن النـاس قد أكثروا فيك، فأنبئينى نبأك ، فإن يكن الرجل ١٥
عليك صادقا دسستُ عليه من يقتله، فتنقطع عنك المقالةُ، وإن يك كاذبا حاكمتُه الى بعض الكهّان، فقالت : لا والله! ما هو علىّ بصادق، فقال له : يا فاكه ! إنك قد رميتَ ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى الى بعض كُهّان اليمن؛ فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عُتبة فى جماعة من بنى عبد مناف، ومعهم هند ونِسوةٌ، فلما شارفوا البلاد، وقالوا : غدا نَرد على الرجل، تنكّرتْ حالُ هند، فقال لها عتبةُ : إنى أرى ٢٠

ما بك من تنكّر الحال، وما ذاك إلّا لمكروه عندك، فهلّا كان هذا قبل أن يشتهر عند الناس مسيرنا؟ فقالت: لا والله! ولكنّي أعرف أنكم تأتون بشرًا يخطئ ويصيب ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون عليّ سُبّة. فقال: إنى سوف أختبره لك، فصفّر لفرسه حتى أدلَى ثمّ أدخل فى إحليله حبّة حنطة وأوكأ عليها بسير، فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدّوا قال له عتبة: قد جئناك فى أمر وقد خبأنا لك خبيئا أختبرك به، فانظر ما هو؟ فقال ثمرة، فى كَمَرة. قال إنّى أريد أبين من هذا، قال: حبّة بُرّ، فى إحليل مُهر. قال: أنظر فى أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهنّ فيضرب بيده على كتفها ويقول لها، انهضى، حتى دنا من هند فقال لها: انهضى غير رسحاء ولا زانية، ولتلدنّ ملكا اسمه معاوية، فنهض اليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده وقالت: اليك عنّى فوالله لأحرصنّ أن يكون من غيرك؛ فتزوّجها أبو سفيان.

ومنها، أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف الى المنافرة، فقال هاشم: إنّى أنافرك على خمسين ناقة سود الحَدَق، ننحرها بمكّة أو الجلاء عن مكّة عشر سنين، فرضى أميّـة وجعلا بينهما الخزاعىّ الكاهن وخرجا اليه ومعهما جماعة من قومهما فقالوا: نخبأ له خبيئًا فان أصابه تحاكمنا اليه، وإن لم يصبه تحاكمنا الى غيره، فوجدا أبا هَمْهَمَة وكان معهم أطباق جُمجمة، فأمسكها معه ثم أتوا الكاهن فأناخوا ببابه وكان منزله بعُسْفان: فقالوا: إنا قد خبأنا لك خبيئا فأنبئنا عنه. قال: أحلفُ بالضّوء والظلمة، وما بتهامة من تهمه، وما بنجد من أكمه، لقد خبأتم لى أطباق جمجمه، مع الفلنذح أبى همهمه، فقالوا: صدقت احكم بين هاشم بن عبد مَناف وبين أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف أيّهما أشرف بيتًا ونفسًا، قال: والقمر الباهر،

والكوكب الزاهر . والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر: لقد سبق هاشم أمية الى المآثر، أوّلا منه وآخر؛ فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر وخرج أمية الى الشام فأقام بها عشر سنين؛ فيقال: إنها أوّل عداوة وقعت بين بنى هاشم وبين بنى أمية .

٥ ومنها : أن بنى كلاب وبنى رُبَاب من بنى نَضْر خاصموا عبدَ المُطَّلِب فى مال قريب من الطائف فقال عبدُ المطّلب: المال مالى فسلونى أعطكم، قالوا: لا، قال: فاختاروا حاكمًا قالوا : ربيعة بن حُذار الأسدى فتراضوا به وعقلوا مائة ناقة فى الوادى وقالوا : الإبل والمال لمن حُكِم له، وخرجوا وخرج مع عبد المطّلب حَرْب بن أميّة فلما نزلوا بربيعة بعث اليهم بجزائر فنحرها عبدُ المطّلب، وأمر فصنع جزرا وأطعم

١٠ من أتاه، ونحر الكلابيّون والنضريّون ووشّقوا فقيل لربيعة فقال : إنّ عبد المطلب آمرؤ من ولد خزيمة فتى يملق يصله بنو عمّه وأرسل اليهم أن آخبأوا لى خبيئًا فقال عبد المطّلب : قد خَبَأتُ كلبا آسمه سوّار فى عنقه قلادة، فى خرزة مزادة، وضمّمتها عين جَرادة، فقال الآخرون: قد رضينا ما خَبَأتَ وأرسلوا الى ربيعة فقال: خبأ ثمّ خبيئا حيًّا قالوا: زد، قال: ذو بُرثن أغبر، وبَطْن أحمر، وظَهْر أنمر؛ قالوا: قربت، قال: سما

١٥ فسَطع، ثمّ هبط فلطع، فترك الأرض بَلْقَع، قالوا : قَرُبت فَطَبِّق قال : عين جَرادة، فى خرزة مَزادة، فى عنق سوّار ذى القلادة، قالوا: زه زه أصبتَ فآحكم لأشدّنا طعانا، وأوسعنا مكانا، قال عبدُ المطلب : آحكم لأولانا بالخيرات، وأبعدنا عن السوآت وأكرمنا أمهات . فقال ربيعةُ : والغَسَق والشَّفَق، والخلق المتّفق، ما لبنى كلاب وبنى رُبَاب من حقّ، فانصرف يا عبدالمطّلب على الصواب، ولك فصل الخطاب؛

٢٠ فوهب عبد المطّلب المال لحرب بن أميّة .

وأخبار الكهنة كثيرةٌ نذكر منها إن شاء الله تعالى فى السيرة النبويّة جملة تقف عليها فى المبشرات برسول الله صلى الله عليه وسلّم وذلك فى السِفْر الرابع عشر من كتاب الأصل .

الزَّجْــــر

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى زجر الطير : إنّ العلماء بهذا الفنّ قالوا : اذا خرجتَ من منزلك تطلب حاجةً ، أو تخطب آمرأةً ، فنعَب غرابٌ عن يمينك ٥ وعن يسارك أو سَنَح أو برح فامض فإنّك مُدرِك حاجتك إن شاء الله تعالى فإن نعب أمامَك أو فوقك فارجع ففيها تأخير .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب فوق رأسك فآمض فإنك مُدرِكٌ حاجتك إن شاء الله تعالى .

فإن خرجتَ تطلب دابّةً فنعب عن يمينك أو يسارك على حائط مرتفع ، فامض ١٠ لحاجتك ، فإن نَعَب أمامك فارجع .

(٣٨) وإن خرجتَ تطلب مالًا ضلّ عنك أو سُرِق ، فنعَب غرابٌ على شجرة يابسة فلا تطلبه فقد آستهلك وقد يأتيك بعضُه ، فإن نعب على جِدار جديد أو شجرة خضراء فإنك تصيب مالك إن شاء الله تعالى .

فإن خرجتَ تريد الضّالّ فنعَب من ورائك ، فارجع فليس لك فى ذلك خيرة ، ١٥ وإن نعب عن يسارك فإنى خائف على نفسك إلا أن يشاء الله .

فإن خرجت تريد الصيد فنعب من فوقك فارجع فإن نعب أمامك فامض فإنّك تدرك خيرا .

وإن خرجت تطلب سلطاناً فى طلب مال أو حاجة فنعب عن يمينـك ثمّ طار ثمّ نعب أدركتَ منه طلبتك إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ تريد شراء شىء فنعب عن يمينك فإنه صالح، وإن نعب عن يسارك فلا خير فيه .

٥ وإن خرجتَ من منزلك فرأيت غراباً يمسح منقاره على الأرض فإنك تصيب أو تأتيك هديّة من مكان بعيد .

وإن خرجتَ تطلب حاجةً فنعب عن يمينـك ثم قطع الطريق الى يسارك فنعب فإنك تدرك حاجتـك عجلا إن شاء الله تعـالى! فإن نعب فوق رأسك فارجع فإنى أخاف عليك بعض أعدائك .

١٠ وإن خرجت تريد سلطانا فنعب غراب وهو مستقبل الشرق فامكث يومك ذلك فإنى أخاف عليك .

فإن خرجتَ فرأيت غرابا ينفض ريشه، فإنه يأتيك خير عاجل .

وإن خرجتَ تريد أرضًا بعيدة فرأيتَ غرابا ينتفض فامض لحاجتك، فإنك تدرك أملك إن شاء الله تعالى .

١٥ وإن خرجتَ تريد السلطانَ فوقع غرابٌ على شىء فنعب ثلاث مرّات فامض لحاجتك، فهو خيرٌ عاجل وتيسيرٌ للحوائج إن شاء الله تعالى .

وإن خرجتَ فرأيتَ غراباً ناشرًا جناحيه يريد الطيران فامض، فإن نعب فارجع يومَك .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعَب من فوقِك فامض ، وإن نعب فأجابه الآخر

٢٠ فهو جيّد صالح .

وإن خرجتَ تريد خصومةً فنعب من فوقك أو شَحَّ فامض، فإنك تلقى فى يومك ذلك ما تريد إن شاء الله تعالى .

وإن خرج جماعةٌ وفيهم رجل شريف فشحّ غرابٌ على رأس الشريف، ثم أتوا ملكًا فإنهم يصيبون خيرا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج يطلب حاجةً الى سلطان فواجهه غراب فليمكث يومه ذلك ولا يمض فى تلك الحاجة، وإن نعب عن يمينه فقطع الطريق ثمّ وقع فهو يُدرِكُ حاجَته .

وإن خرج يريد السلطان أو بعث اليه وهو لايدرى فرأى غراباً يطير قليلا، ثم يقع فيلقط من الأرض شيئا فليمض فإنّه يصيب سلطاناً ويلى قوما، وإن رأى غراباً يبحث فى الأرض فإنّ بعض أهله يموت سريعا، وإن رآه ينقر فى الأرض فذلك ملك .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير ثم وقع ثلاث مرات وهو ساكت لا ينعب، فذلك غمّ يصيبه إلا أن يدفع الله عزّ وجلّ عنه .

وإن خرج فرآه ينتفض ثم ينعب ثمّ يطير فذلك سلطان يناله ويتزوج، والعلم عند الله .

وإن خرج فرأى غرابا يطير ثمّ يقع فذاك خير وسرور يأتيه .

وإن خرج فرأى غرابًا يطير نحو عين الشمس فذاك همّ يصيبه شديد .

وإن خرج فلقى بقـرا فليرجع فإن لقى من البغال شيئًا لم يركب فليرجع والمركوبة صالحة لابأس بها .

وإن خرج يعود مريضا فنهق حمار عن يمينه أو عن يساره فالمريض صالح، وإن نهق خلفه فقد اشتدّ بالمريض مرضه وأنا خائف عليه .

وإن خرج يريد حاجةً فاستقبله غلامٌ يبكى وهو متلطخ بعَذِرَة وهو ذاهب والغلام راجع فليمض فإنّ حاجته تقضى ، وإن آستقبله غلام يعدو ويتلهّف فإن حاجتــه تعسر وتطول .

وإن خرج فى حاجته فرأى وَرَشانًا يطير، يرتفع ويَهبِط فليمض فإن ذلك أنجح لحاجته ،وإن رآه يطير مستعليا فليرجع ،وإن رأى حمامة مسرولة تطير من فوق رأسه وتدور فإنّ حاجته مقضيّة بعد بطء ومَطْل ، وإن رأى حمامة هابطةً واقعةً تقع وتطير فإنّ ذلك خير صالح وسرور إن شاء الله تعالى .

وإن خرج من منزله فآستقبلته جنازةٌ وجماعةٌ فليرجع يومَه ذلك ولا يعود لحاجته فإنّها غير مقضية ، فإن كانت الجنازة قد جاوزته مُدْبِرة فليذهب لحاجته ؛ فإن ذلك صالح . وإن رأى نسوةً الى المقابر وهنّ مقبلات نحوه فليقعـد حتى يمضين عنـه فإنّه أنجح لحاجته وإن رآهن مُدبِرات فليمض فى حاجته فإنها مقضيّة .

وإن خرج من داره فرأى فى أرضها نملًا كثيرا وفى حائطها فليمض لحاجته فذلك خير وسرور يناله . فإن رأى ذُبابا كثيرا مجتمعا على حائط وهو يسمع لهنّ دبيبا فذالك مرض يصيبه فى بدنه أو يصيب بعضَ أهله . ومن رأى ذَرًّا كثيرا وقِردانًا فذلك فرح ورزق عاجل يناله إن شاء الله تعالى . ومن رأى دَجاجتين تقتتلان بنقر بعضهما فذاك يدل على أنّه يقع بينه وبين آمرأته كلامٌ وغضب .

وإن خرج من منزله فرأى وَرَشانين يقتتلان فى جوّ السماء رافعين وهابطين فيأتيه ما يُسرّ به . وإن رأى كلبــة والكلاب تطوف حولها ويتبع بعضها بعضا فإن كان عليه دين قضاه الله عنه وإن كانت له حاجة مهمة قضيت فى وجهه ذلك وإن أراد شيئًا يسّره الله له وإن أراد سفرا تهيّأ له ورجع سالمـا .

وإن خرج فرأى على رجل قِربة ثمّ آنشــقت فليرجع الى منزله ويتعوّذ بالله من شرّ ذلك اليوم فإنّه مكروه جدًا .

وإن خرج فرأى رجلًا وهو يريد أن يملأ قِربةً فليمض فى حاجته فإنه فرح وسرور وخير يناله عاجلا إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى حمارا أو بغلا عليــه راوية مملوءة فشأنه غير صالح وهو مكروه ، وإن كان صاحب الراوية يريد أن يملأها فليمض لحاجته مقضية إن شاء الله تعالى . ٥

وإن خرج من منزله فرأى جملا عليــه حطب أو بعض منافع النــاس فهو من علامات النجاح فى الخصومة والظفر العاجل إن شاء الله تعالى ، فإن رآه غير محمول عليه وعليــه صاحبه فإنّ ذلك خير يأتيه وينعى اليه بعض أهله من مكان بعيــد . قال : وأرجو أن يدفع الله ، فإن رآه مناخا يرغو فإن ذلك خير يأتيه ويُخبر عن شيء ١٠ ممّا يحبّ من تزويج أو غنيمة وهو صالح .

وإن خرج فرأى بعيرا قد شَردَ ورأى من يطلبه فإن ذلك نجاة من عدوّه وفرح قريب إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فرأى بعيرا قد شرد فاجتمع عليه الناس فإن ذلك يدلّ على ظَفَره بعدوّه وآنتقامه منه فليحمد الله على ما رأى ويشكره . ١٥

ومن خرج من منزله فرأى قِردًا يتقلّب والناس حوله فليمض لحاجتــه فإنّهــا مقضية .

وإن خرج فرأى القِرد يلعب والناس مجتمعون عليه وقد صار لعبه الى أن يتقلّب ظهرا لبطن فى الأرض فليرجع من وجهه ذلك فليس بموفّق وهو مكروه .

وإنْ خرج من منزله فرأى غلماناً يلعبون بالأُكرة ويتسابقون فليمض فى وجهه ذلك فإنّه يصيب رفعةً وشرفًا وتمكنا من السلطان ويصيب مالًا عظيما .

وإن خرج فرآهم يلعبون بالصوالجة فهو رفعة ويدلّ على مال ردىء حرام يصيبه من سلطان ويركب أمرًا عظيما من عمله فليتق الله .

٥ وإن رأى جوارىَ يلعبن بالطرق كأنهنّ يزففن عروسا فهو خير وسرور ودخول فى أمرٍ شريف وإنّه يربح ربحا عظيما وهو خير الزجر .

وإن خرج فرأى عصفورين يلقطان الحبّ فهو صالح، وإن رآهما يتسافدان فهو خير يناله فى يومه، وإن رآهما مدبرين فليمض لحاجته فإنها مقضية إن شاء الله تعالى .

وإن خرج فتعلق بثوبه شىء فليرجع؛ فإنى أكره له أن يذهب فى حاجته تلك .

١٠ وإن خرج فرأى حِدَأةً تسفِد حِدَأةً وهى تصيح فهو نجاح فليمض لحاجته .

وإن خرج فعثر فلا يذهبن فى تلك الحاجة وليؤخّرها .

ومن الزجر ما مخرجه مخرج الكهانة .

فمن ذلك ما حكى أنّ أُميّــة بن أبى الصَلْت الثقفىّ بينا هو يشرب مع إخوان له فى قصر غَيْلان بالطائف إذ سقط غرابٌ على شُرْفة القصر فنعَب نعبة فقال أُميّة : ١٥ بفيك الكَثْكَث أى التراب فقال له أصحابه : ما يقول؟ قال يقول : إنّك اذا شربتَ الكأس التى بيدك متَّ ، ثم نعب نعبــة أخرى ، فقال أميّــة كقالته الأولى فقال أصحابه : ما يقول؟ قال : يزعم أنّه يقع على هذه المزبلة فى أسفل القصر فيستثير عظما فيبتلعه فيشــجى به فيموت، فوقع الغرابُ على المزبلة فأثار العظم وابتلعــه فشجى فمات، فأنكر أميّة ووضع الكأس من يده وتغيّر لونُه فقال أصحابه : ما أكثر ما سمعنا

مثل هذا وكان باطلا وألحّوا عليه حتى شرب الكأس قال فأغمى عليه ثم أفاق فقال: لا برىءٌ فأعتذر، ولا قوىٌّ فأنتصر، ثم خرجت نفسه .

وزعموا أن رجلا من كعب خرج فى جماعة ومعــه سِقَاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشرب فاذا غراب ينعَب فأثار راحلتَــه ، ثم سار فلمــا أظهر أناخ ليشرب، فنعب الغراب وتمرّغ فى التراب فضرب الرجل السِقاء بسيفه فاذا فيه أسود ٥ ضخمٌ فقتله ، ثم سار فاذا غراب واقع على سِدْرة فصاح به فوقع على سَلَمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى اليها فأثار كَنْزا، فلما رجع الى أبيه قال له : إيه ما صنعت ؟ قال : سِرتُ صدر يومى، ثم أنختُ لأشرب فنعب الغراب. قال أثرها و إلا فلست بابنى! قال: أثرتُها، ثم أنخت لأشرب فنعب الغرابُ وتمرّغ فى التراب قال : آضرب السِقاء وإلا لست بابنى! قال : فعلتُ ،فاذا أسود ضخم قال : ثم مه! قال : ثم رأيتُ ١٠ غرابا على سِدْرة قال : أطِرْه و إلا فلست بابنى! قال : فعلتُ فوقع على سَلَمة قال. أطرْه و إلا فلستَ بآبنى! قال : فعلتُ فوقع على صخرة قال : أحِد يابنىّ ! فأحداه.

ومن الزجر : ما يُروى أن كسرى أبْرَويز بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلّم حين بُعث زاجرا ومصوّرا وقال للزاجر : آنظر ما ترى فى طريقك وعنده. وقال للمصوّر : إئتنى بصورته . فلمــا عاد اليه أعطاه المصوّر صورته صــلى الله عليه وسلم فوضعها ١٥ كسرى على وسادته ، وقال للزاجر : ما رأيت ؟ فقــال : لم أر ما أزجره حتى الآن وأرى أمرَه يعلو عليك لأنك وضعتَ صورتَه على وسادتك .

وقيل : إن كُثَيِّرا تعشّق آمرأةً من خُزاعة يقال لها : أمّ الحُوَيرث، فشبّب بها فكرهتْ أن يفضحها كما فضح عَزّة فقالت له : إنّك رجل فقير لا مال لك فابتغ مالًا،

ثم تعال فاخطبني كما يخطبُ الكرامُ قال : فاحلفي لى ووثّقى أنّك لا تتزوّجين حتى أقدم عليك فحلفتْ ووثّقتْ له فمدح عبدَ الرحمن بن الأزدىّ وخرج اليه؛ فلقى ظباءً سوانح، ولقى غراباً يفحص التراب بوجهه فتطيّر من ذلك حتى قدم على حىّ من لهْب فقال : أيّكم يزجُر؟ قالوا : كلّنا ! فمن تريد ؟ قال : أعلمكم بذلك ! قالوا : ذلك الشيخ المنحنى الصُلْب، فأتاه فقصّ عليه القصّة فكرِه ذلك له وقال : قد ماتت أو تزوّجت رجلا من بنى عمّها فقال كثيّر

تيممتُ لهْبا أبتغى العِــلمَ عندهم * وقد رُدّ علمُ العائفين الى لهْب!
فيممتُ شيخا منهــمُ ذا نحالة * بصــيراً بزجر الطير مُنحنىَ الصُلْب!
فقلتُ له : ماذا ترى فى ســوانح * وصوتِ غراب يفحص الأرض بالتربِ؟
فقــال : جرى الطير السنيح بينها * ونادى غــرابٌ بالفراق وبالسلب
فإن لا تكن ماتت فقد حال دونهــا * سؤال خليــل باطنٍ من بنى كعب

قال : ثم مدح الرجل الأزدىّ فأصاب منه خيراً، ثم قدِم عليها فوجدها قد تزوّجتْ رجلًا من بنى عمّها فأخذه الهُلاس فكُشِح جنباه بالنار؛ فلمّا اندمل من علّته ووضع يده على ظهره فاذا هو برقمتين فقال : ما هذا ؟ قالوا : أخذك الهُلاس وزعم الأطباء أنّه لا علاج لك إلا بالكَشْح بالنار فكُشِحتَ بها فانشأ يقول

عفى الله عن أمّ الحويرث ذَنبها * علام تعنّيني وتكمى دوائيــا؟
ولو آذنوني قبل أن يرقموا بهــا * لقلتُ لهم : أمّ الحويرث دائيا

وحُكى أن صاحب الروم بعث الى النبىّ صلى الله عليه وسلم رسولا وقال له : انظر أين تراه جالسا، ومَن الى جانبه، وانظر ما بين كتفيه حتى الخاتمَ والشامةَ، فقدم

ورسول الله صلى الله عليه وسلم على نَشْزٍ واضعا قدميه فى المـاء، وعن يمينه علىّ عليه السـلام ؛ فلما رآه صلى الله عليه وسـلم قال : « تحوّل فأنظر ما أُمرتَ به » فنظر ثم رجع الى صاحبه فأخبره الخبر فقال : ليعلونّ أمْره وليملكنّ ماتحت قدمى وقال : بالنَّشْز العُلو و بالمـاء الحياة .

ومن الزجر : ماروى عن أبى ذُؤَيب الهُذَلىّ قال: إنّه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل فأوجس أهل الحىّ خِيفةً عليه فبتُّ بليلة ثابتة النجوم طويلة الأناة لا ينجاب ديجورها ولا يَطْلُع نورها حتى اذا قَرُب السَّـحَر غفوتُ فهتف لى هاتف يقول

خَطْبٌ أجلّ أناخ بالإسـلام ... بين النخيـل ومَعْقِـد الآطام

قُبِض النـبىّ محمد فعيوننـا ... تذرى الدموعَ عليـه بالتَّسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبتُ من نومى فزعاً فنظرتُ الى السماء فلم أر إلّا سعد الذابح فتفاءلْتُ به ذبحا يقع فى العرب، وعلمت أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد مات أوهو ميّتٌ من علّتـه، فركبتُ ناقتى وسرتُ حتى أصبحتُ فطلبتُ شيئا أزجره ، فعنّ لى شَيْهَمٌ قد أرَمّ على صِلّ وهو يتلوّى عليه والشيهم يقضَـمُه حتى أكله فزجرتُ ذلك شيئا مهمّا فقلت: تَلوّى الصِّلّ : آنفتال الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أوّلت أكل الشيهم إياه : غَلَبَة القائم على الأمر فحثثتُ ناقتى حتى اذاكنت بالعليـة زجرتُ الطير فأخبرنى بوفاته . ونعب غـراب سانحا بمثـل ذلك فتعوّذتُ من شرّ ماعنّ لى فى طريق ، ثم قدمتُ المدينةَ ولأهلها ضجيج كضجيج الحجيج أهلّوا جميعا بالإحرام فقلتُ : مه ! قالوا قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فجئتُ المسجدَ فأصبته خالياً فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم فأصبتُ بابه مُرْتجا وقد

خلا به أهلُه فقلت : أين الناس ؟ فقيل : فى سَقيفة بنى سَاعدة صاروا الى الأنصار
بجئتُ السقيفةَ فوجدتُ أبا بكر، وعمر رضى الله عنهما ، وأبا عُبَيْدة ، وسَالمًا ،
وجماعةً من قريش ورأيت الأنصارَ فيهم سَعْد بن عُبَادة ومعهم شُعراؤهم وأمامهم
حسّان بن ثابت، وكَعْب فى مَلإٍ منهم فأويتُ الى الأنصار فتكلموا فأكثروا وتكلّم
٥ أبو بكر فلله من رجل لا يُطيل الكلام ويعلم مواضِعَ الفصل، والله لتكلّم بكلام (٤١)
لم يسمعه سامعٌ إلّا آنقاد له ومال اليه، وتكلم بعده عمرُ رضى الله عنه بكلام دون
كلامه ، ومدّ يده فبايعه، ورجع أبو بكر رضى الله عنه ورجعتُ معه، فشَهدتُ
الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وشهدت دفنَه قال : ولقد بايع الناس
من أبى بكر رجلا حلّ قُداماها ولم يركب ذُنابابها وآنصرف أبو ذؤيب الى باديته
١٠ وثَبتَ على إسلامه .

ومنه : ما روى عن مُصْعَب بن عبد الله الزُّبيرىّ أنه حَدّث عن رجل قال :
شَرَدتْ لنا إبلٌ فأتيتُ حُليسا الأسدىّ فسألتُه عنها فقال لبنت له : خُطّى، فخطّت ونظرتْ
ثم آنقبضت وقامت مُنصَرِفَةً فنظر حليس فى خطّها فضحك وقال: أتدرى لم قامت؟
قلت : لا، قال : رأت أنك تجد إبلك وأنّك تتزوجها فآستحيت فقامت، فخرجتُ
١٥ فأصبتُ إبلى ثمّ تزوجتُها بعد .

الفأل والطِّيَرَة

حُكى أنه لما وُلِد لسعيد بن العاص عَنْبَسة قال سعيد لآبنه يحيى : أىّ شىء تجلّه ؟
قال: دجاجة بفراريجها، وإنما أراد آحتقاره بذلك لأن أمّه كانت أمَةً فقال سعيد:
إن صدق الطيرُ ليكوننّ أكثركم ولدًا فكان كذلك .

لما طلب عامر بن إسماعيل مَرْوان بن محمد آعترضه بالفيّوم قومٌ من العرب فسأل رجلًا : ما آسمك ؟ فقال منصور بن سعد : وأنا من سعد العشيرة ، فتبسم تفاؤلًا به وتيمّنا وآستصحبه فظفر بمروان تلك الليلة .

ومن الطِّيَرة : ما حكى عن بعضهم قال : حضرتُ الموقفَ مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصاح به رجلٌ من خلفه : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! فقال رجل من خلفه : دعاه بآسم ميت ! مات والله أمير المؤمنين ، ولا يَقف هذا الموقف أبدا ! فآلتفتَ اليه فاذا هو اللِّهْبِيُّ ، فقُتِل عمر قبل الحول .

وحكى أنّ عمر رضى اللهُ عنه خرج الى حَرّة واقِم فلقى رجلا من جُهينة فقال له : ما آسمك؟ قال : شِهاب . قال : آبن من؟ قال : آبن جَمْرة ! قال : وممن أنتَ ؟ قال : من الحُرَقة ! قال : ثم ممن ؟ قال : من بنى ضِرام ! قال : وأين منزلك ؟ قال : بحَرّة ليلى ! قال : وأين تريد ؟ قال : لظى وهو موضع ! فقال عمر : أدرِك أهلك ، فما أراك تُدركهم إلا وقد آحترقوا ، قال ؛ فأدركهم ، وقد أحاطت بهم النار .

وقال المدائنىّ : وقع الطاعونُ بمصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان فخرج هاربا منه فنزل قريةً من الصعيد يقال لها : شكر ، فقدِم عليه حين نزلها رسولٌ لعبد الملك فقال له عبد العزيز : ما آسمك ؟ قال طالب بن مُدْرِك ! فقال : أوه ! ما أرانى راجعا الى الفسطاط أبدا ، ومات فى تلك القرية .

وقيل : بينا مروان بن محمد فى إيوان له يُنَفِّذ الأمورَ فانصدعتْ زُجاجةُ الأموال ، فوقعت الشمسُ منها على مَنكب مروان وكان هناك عَيّاف فقال : صَدْعُ الزُّجاج

أمر منكر على أمير المؤمنين، ثم قام فاتّبعه ثَوبان مولى مروان . فقال له : ويحك! ما قلت ؟ قال . قلتُ : صَــدْعُ الزجاج صَدْعُ السلطان، ستذهب الشمسُ بمُلك مروان، بقوم من الترك أو خُراسان، ذلك عندى واضح البرهان ! قال : فما ورد لذلك شهران حتّى ورد خبرُ أبى مُسلم .

٥ وقال إبراهيم بن المَهْدىّ : أرسل الىّ محمد الأمينُ فى ليلة مُقْمرة من ليالى الصيف فقال : يا عمّى ! إن الحرب بينى وبين طاهر قد سكنت فصر الىّ فإنى اليك مشتاق فجئتُه وقد بُسِط له على سطح، وعنده سليمان بن جعفر ، وعليــه كساءٌ رُوذَبارِىّ ، وقَلَنْسوة طويلة ، وجواريه بين يديه وضعف جاريته عنده . فقال لها : غنّينى فقد سُررتُ بعمومتى فاندفعت تغنّيه

١٠ هُمُ قتلوه كى يكونوا مكانَه * كما فعلتْ يوما بكسرى مَرَازِبُهْ!

بنى هاشم كيف التّواصُل بيننا * وعنــد أخيه سـيفُه ونجائبــهْ؟

هكذا غنّته، وإنما هو

* وعند علىّ سيفه ونجائبه *

فغضب وتطيّر، وقال : ما قِصّتُكِ؟ ويحك ! غنينى ما يسرّنى، فغنّتْ

١٥ هـــذا مقام مطـرّدٍ * هُدِمتْ منازله ودورُهْ!

فازداد تطيّرا، ثم قال : ويحك ! انتهى وغنّى غير هذا فغنّت

كُلَيب لعمرى كان أكثرَ ناصراً * وأيسر جُرماً منــك ضُرّج بالدّم

فقال لهــا : قومى الى لعنة الله ، فوثبت ؛ وكان بين يديه قَدَح بِلّور وكان لحبه إيّاه يسمّيه محمدا باسمه ، فأصابه طَرفُ ذيلها فســقط على بعض الصوانى فانكسر،

فأقبل علىّ وقال : أرى والله ياعمّ أن هذا آخر أمرنا ، فقلت : كلّا ! بل يبقيك الله يا أمير المؤمنين ويسرّك ، قال : ودِجلةُ والله هادئة ما فيها صوت مجداف ، ولا أحد يتحرك ؛ فسمعتُ هاتفاً يهتف : (قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) قال فقال لى : سمعتَ ياعمّ؟ فقلتُ : وما هو؟ وقد والله سمعتُه ، فاذا الصوت قد عاد فقال : آنصرف بيتك اللهُ بخير فمحال أن لاتكون الآن قد سمعتَ ما سمعتُ ، فانصرفت وكان آخر العهد به .

وشبيه بهذا ما حكى عن عَلُّويَة المغنّى قال : كنتُ مع المأمون لما خرج الى الشام ، فدخلنا دِمَشق فطفنا فيها ، وجعل يطوف على قصور بنى أميّة ، ويتتبّع آثارهم ، فدخلنا صحناً من صحونهم ، مفروشًا بالرخام الأخضر ، وفيه بِركة ماء فيها سمك ، وأمامها بستان ، فاستحسن ذلك وعزم على الصَّبوح ودعا بالطعام والشراب ، وأقبل علىَّ فقال : غنّنى ونشّطنى ، فكأنّ الله تعالى أنسانى الغناء كله إلا هذا الصوت من شعر عبد الله بن قيس الرُّقيّات

لوكان حولى بنو أميــة لم * تنطِق رجالٌ أراهمُ نطقــوا
من كلّ قَرْمٍ محضٍ ضرائبه * عن منكِبيه القميص يتخرّقُ

قال : فنظر الىّ مُغْضَباً ، وقال : عليك وعلى بنى أميّة لعنةَ الله ، ويلك ! أقلتُ لك سُرّنى أو سؤنى ؟ ألم يكن لك وقت تذكر فيــه بنى أميّــة إلا هذا الوقت تُعرّض بى؟ فتجلّدتُ عليه وعلمتُ أنّى قد أخطأتُ ، فقلت : أتلومنى على أن أذكر بنى أميّة ؟ هــذا مولاكم زرياب عنــدهم يركب فى مائتى غلام مملوك له ، ويملك ثلثمائة ألف دينار [وهبوها له سوى الخيل والضياع والرّقيق] (١) : وأنا عندكم أموت

(١) الزيادة عن الأغانى .

جوعا، فقال: أو لم يكن لك شيء تذكّرنى به نفسك غير هذا؟ فقلت: هكذا حضرنى حين ذكرتهم، فقال: أعرض وتنبه على إرادتى وغنّ فأنسانى الله كلّ شيء أحسنه إلا هذا الصوت

الحَيْنُ ساق الى دِمَشْق وما * كانت دمشقُ لأهلنا بلدا

٥ قادتك نفسك فاستقدت لها * وأرتك أمرَ غَوَايةٍ رَشَدا

فرمانى بالقدح فأخطأنى وآنكسر القدح، وقال: قم الى لعنة الله وحرّ سَقَر! فركب، وكانت تلك الحال آخر عهدى به حتى مرض ومات بعد ذلك بقليل.

ومثل ذلك ما حكى فى قِتْلة المتوكل. وذلك أنه جلس يوم الأربعاء لأيام خلون من شوّال سنة تسع وأربعين ومائتين وقال للفتح بن خاقان: أحبّ أن

١٠ نصطبح؛ فأحضر المغنّين وفيهم أحمد بن أبى العلاء فقال له: غنّ فغنّى

ياعاذلىّ من الملام دعانى * إنّ البليّة فوق ماتصفان

زعمتْ بُثينة أنّ فرقتنا غدا * لا مرحبا بغدٍ فقد أبكانى

فتطيّر المتوكّل منه، وقال: أحمد! كيف وقع لك أن تغنّى بهذا الشعر، قال: فشُغل قلبُ آبن أبى العلاء لما أنكر عليه، ثم ذهب ليغنّىَ غيره، فغنّاه ثانية، فقال

١٥ المتوكّل: نسأل الله خير هذا اليوم، وصرف المغنّين وقام لصلاة الظهر، فلمّا فرغ قال له الفتح: يا سيّدى أتمِمْ يومك، فدعا بالشراب وقال: أين آبن أبى العلاء؟ فأُحضر فقال له: غنّ، فأغمى عليه فأعاد البيتين فاغتمّ المتوكّل غاية الغمّ وقُتل فى الليلة الآتية من ذلك اليوم.

قال القاضى أبو على الجُوينى: حضرتُ بين يدى سيف الدولة أبى الحسن صَدَقة

٢٠ آبن منصور بن دُبَيْس، وآبنه أبو المكارم محمد إذ ذاك مريض مرضه الذى مات فيه

وقد أتى بديوان أبى نصر بن نُباته فتصفّحه فوقع بيــده وقال : يعزّى سيف الدولة أبا الحسن ويرثى ٱبنه أبا المكارم محمد، فأخذتُ المجلّد وأطبقتُه فعاد فتصفّحه فخرج ذلك، ومن القصيدة التى عناها قوله

فإنّ بمَا فَارِقين حُفَـيْرةً * تركنا عليها ناظر الجود داميا
تضمّنها أيدى فتى ثكلتْ به * غداةَ ثوى أمالنـا والأمانيا
ولمّـا عدمنا الصـبرَ بعد محمد * أتينا أباه نسـتفيد التعازيا

وحكى: أنّ أبا الشَمَقْمَق شَخَص مع خالد بن يزيد بن مَزيد وقد تقلّد المَوْصل، فلما أراد الدخول اليها ٱندقّ لواؤه فى أوّل درب منها، فتطيّر من ذلك وعظُم عليه، فقال أبو الشمقمق

ما كان مندقّ اللواء لريبةٍ * تُخشَى ولا أمرٍ يكون مبـذّلا
لكنّ هـذا الرمح ضَعّف متنَه * صِغَر الولاية فاستقلّ المَوْصلا

فسرّى عن خالد، وكتب صاحبُ البريد بذلك الى المأمون، فزاده ديار ربيعـة وكتب اليه: هذا التضعيف المُوصِل متن رمحك، فأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم .

وقيل: لمّـا توجّه المسترشدُ للقاء السلطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقىّ، وقع على الشمسية التى تُرفع على رأسه طائرٌ من الجوارح وألحّ، كلما نُفّر عاد، فتفاءل الناس له بذلك وسُرّوا به، فقال إنسان يُعرَف بمَلِكْدار: هذا جارح ومنقبض الكفّ وليس فيــه بُشرى بل ضدّها، وأقبل السلطانُ فى جيشــه فكانت الكسرة وقُبِض على المسترشد وقُتِل من بعد .

خرج بعضُ ملوك الفُرس إلى الصيد، فكان أوّل من آستقبله أعورُ فأمر بضربه وحبسه، ثم خرج وتصيّد صيدًا كبيرا، فلّما عاد آستدعى الأعورَ وأمر له بصِلَة، فقال الأعور: لا حاجة لى فى صلتك، ولكن آئذن لى فى الكلام، فقال: تكلّمْ! قال: لقيتنى فضربتنى وحبستنى، ولقِيتك فصِدتَ وسَلِمتَ فأيّنا أشأم؟ فضحك وخلاه .

الفراسة والذكاء

يقولون : عظم الجبين يدلّ على البَلَه، وعَرْضُه يدلّ على قلة العقل، وصِغَره على لُطف الحركة، والحاجبان اذا آتصلا على آستقامة دلّا على تخنيث وآسترخاء، واذا تزجّجا نحو الصُّدغين دلّا على طَنْزٍ وآستهزاء، والعين اذا كانت صغيرة الموق دلّت على سوء دخلَة، وخُبث شمائل، واذا وقع الحاجب على العين دلّ على الحسد، والعين المتوسطة فى حجمها دليل فطنة وحسن خُلق ومروءة، والناتئة على آختلاط عقل، والطائرة على حِدّة، والتى يطول تحديقها على خفّة وحُمْق، والتى تكسر طَرْفها على خفّة وطيش، والشّعر على الأذن يدلّ على جودة السمع، والأُذن الكبيرة المنتصبة تدلّ على حمق وهَذَيان .

وحكى: أن أبا موسى الأشعرىّ وجّه السائب بن الأقرع فى خلافة عمر بن الخطّاب رضى الله عنه الى مهرجا بعد أن فتحها ودخل دار الهُرمُزان بعد أن جمع السبىَ والغنائم، ورأى فى بعض مجالس الدار تصاوير فيها مثال ظبيٍ وهو مشير بإحدى يديه الى الأرض، فقال السائب : لأمرٍ مّا صُوّر هذا الظبيُ هكذا، إن له لشأنا، فأمر بحفر الموضع الذى الإشارة اليه فأفضى الى موضع فيه حوض من رخام، فيه سَفَطُ جوهر فأخذه السائبُ وخرج به الى عمر رضى الله عنه .

وقيل: كان المعتضد يوما جالسا فى بيت يُبنى له وهو يشاهد الصُّنّاع فرأى فى جملتهم عبدا أسْود منكر الخَلْق، شديد المرح، يصعد على السلالم مرقاتين مرقاتين ويحمل ضِعْف ما يحمل غيره، فأنكر أمرَه، وأحضره وسأله عن سبب ذلك، فلجلج فقال لوزيره: قد تَجَنَّتُ فى هــذا تجنيًّا ما أحسبه باطلا، إمّا أن يكون معــه دنانير قد ظفر بها من غير وجهها، أو لِصًّا يتســتّر بالعمل، ثم قال: علىّ بالأسود فأحضره وضربه، وحلف إن لم يصدقه ليضربنّ عنقه، فقال الأسود: ولى الأمان يا أمير المؤمنين، قال: نعم! إلّا ما كان من حدّ، فظن أنه قد أمّنــه، فقال: كنت أعمل فى أتّون الآجُرّ، منذ سنين، فأنا منذ شهور جالس إذ مرّ بى رجل فى وسطه كيس فتبعتُه وهو لا يعرف مكانى فحلّ الهَمَيان وأخرج منــه دينارا فتأمّلتُه فاذا كله دنانير فكتّفتهُ وسددتُ فاه وأخذت الهميان وحملتُه على كتفى وطرحته فى التّنور وطيّنتُ عليــه، فلما كان بعد أيام أخرجتُ عظامه وطرحتها فى دجلة والدنانير معى تقوّى قلبى قال: فأرســل المعتضد من أحضر الدنانير، واذا على الكيس: لفلان بن فلان، فنادى فى المدينــة، فحضرت امرأته وقالت: هذا زوجى وقد ترك طفلا صغيرا خرج فى وقت كذا ومعه كيس فيــه ألف دينار، فغاب الى الآن، فسلّم الدنانير اليها وأمرها أن تعتدّ، وضرب عنق الأســود وأمر أن يوضع فى الأتّون.

وقيل: جلس المنصور فى إحدى قباب المدينة فرأى رجلا ملهوفا مهموما يجول فى الطُّرُقات، فأرسل من أتاه به فسأله عن حاله فأخبره أنّه خرج فى تجارة فأفاد مالا ورجع الى منزله به، فدفعه الى امرأته، فذكرت المرأةُ أنّ المال سُرِق ولم ير نَقْبًا ولا تسلّقا، فقال له المنصور: منذ كم تزوّجتها؟ قال: منذ سنة، قال: فبكرًا أو ثيّبا؟

قال ثيّبا، قال : فلها ولد من سواك ؟ قال : لا، قال : شابّة أم مسـنّة ؟ قال : شـابّة، فدعا المنصور بقارورة طيب، وقال : تطيّب بهـذا، فهو يذهبُ همّك، فأخذها وآنقلب الى أهله، ثم قال المنصور لأربعـة من ثقاته : آقعدوا على أبواب المدينة، فمن مرّ بكم وعليه شيء من هذا الطِّيب فأتونى به، وأشمّهم من ذلك الطِّيب، ومضى الرجلُ بالطِّيب، فدفعه الى آمرأته وقال : وهبه لى أمير المؤمنين، فلمّا شمّته بعثتْ به الى رجل كانت تحبّه وقد كانت دفعتْ اليه المـال فتطيّب به، ومرّ مجتازا ببعض الأبواب، فأُخـذ وأُتى به الى المنصور، فقال له : من أين آستفدتَ هذا الطيب ؟ فاجلج لسانه، فسلّمه الى صاحب شرطته وقال : أن آحضر الدنانير وإلّا فاضربه ألف سوط، فـما هو إلّا أن جُرّد وهُدّد، فأحضر الدنانير على حالتها فأُعلم المنصورُ بذلك، فدعا صاحبَ الدنانير وقال : أرأيتك إن رددتُ عليك متاعَك بعينه أتحكّمنى فى آمرأتك؟ قال : نعم ! قال : خـذ دنانيرك وقد طلّقتُ آمرأتك وخبّره الخـبر .

ودخل شَريك بن عبد الله القاضى على المهدىّ فأراد أن يبخّره فقال للخادم : آئتِ القاضى بعُود، فذهب فجاء بالعود الذى يُلْهَى به، فوضعه فى حجر شريك، فقال شريك : ما هـذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : عود أخذه صاحبُ العَسَس البارحة فأحببنا أن يكون كسره على يد القاضى، فقال شريك : جزاك اللهُ خيرا يا أمير المؤمنين، ثم ضرب به الأرضَ فكسره ثم أفاضوا فى حديث آخر حتى نُسى الأمر ثم قال المهدىّ لشريك : ما تقول فيمن أمر وكيلًا له أن يأتى بشىء فجاء بغيره فتَلِف ذلك الشىءُ ؟ فقال : يَضْمَن يا أمير المؤمنين، فقال للخادم : آضمن ما تلف .

البـاب الرابع

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الـكنايات والتعريض

والكنايات لها مواضع؛ فأحسنها العُدول عن الكلام القبيح الى ما يدُلّ على معناه فى لفظ أبهى منه . ومن ذلك أن يُعظَّم الرجل فلا يدعى باسمه ويُكنى بكُنيته، ٥
أو يكنى بآسم آبنه صيانة لآسمه ، وقد ورد فى ذلك كثير من آى القرآن فمنها قوله تعـالى (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا) أى كَنِّيَاهُ . وقد كَنَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بن أبى طالب رضى الله عنه : بأبى تراب؛ وقال البحترى

يتشاغفن بالصـغير المسـمَّى * موضـعاتٍ وبالكبير المكَنَّى

وهذا يدل على أن المراد بالكنية التبجيل؛ وقول آبن الرومى ١٠

بكت شجوها الدنيا فلما تبيَّنتْ * مكانك منها آستبشرت وتثنَّتِ
وكان ضئيلا شخصها فتطاولتْ * وكانت تسمَّى ذِلةً فتكنَّتِ

وقال أبو صخر الهذلى

أبى القلب إلا حُبَّـهُ عامرِيَّةً * لها كنيةٌ: عمرٌو، وليس لها عمرُو

ومن عادة العرب وشأنهم؛ آستعمال الكنايات فى الأشـياء التى يستحيى من ١٥
ذكرها، قصدا للتعفف باللسان، كما يُتعفّف بسائر الجـوارح، قال الله عز وجلّ تأديبا لعباده (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) فقرن عفّة البصر

بعفّة الفرْج؛ وفى القرآن كنايات عُدِلَ بها عن التصريح تنزيها عن اللفظ المستهجَن ، كقوله تعالى : (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) وقال أبو عبيد : هو كناية ، شبّه النساءَ بالحَرْث ، وقوله تعالى : (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) ، قيل : هو كنايةٌ عن الفروج ، وفى موضع آخر : (يَوْمَ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، وقوله تعالى : (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)، وقوله تعالى : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) قال المفسرون : هـذا تنبيه بأكل الطعام على عاقبة ما يصير اليه ،وهو الحَدَث ، لأن من أكل الطعام فلا بدّ أن يحدث . ثم قال : (انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ) وهذا من ألطف الكناية ، ومنه قوله تعالى :(أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ) فالغائط : المطمئنّ من الأرض ،وكانوا يأتونه لحاجتهم ويستترون به عن الأماكن المرتفعة . ومن لم يرَ الوضوء من لمس النساء جعل الملامسةَ هاهنا كناية عن الفعل .

ومن الكنايات فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو وإن كان قد ورد فى الأمثال أشبه بالكناية — منها قوله صلى الله عليه وسلم "إياكم وخضراءَ الدِّمن" يريد بها المرأة الحسناء فى المنبت السوء ، وتفسير ذلك : أن الريح تجمع الدِّمنَ ، وهو البعر فى البقعة من الأرض فأذا أصابه المطر نبت نبتا غضًّا يهتزّ وتحته الدِّمَنُ الخبيث ، يقول : فلا تنكحوا هـذه المرأة الحسناء لجمالها ، ومنبِتُها خبيثٌ كالدِّمن ؛ فإن أعراق السوء تزرع أولادها ؛ وقال زُفَر بن الحارث

وقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى * وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا !

وقوله صلى الله عليه وسلم : "حَمِيَ الوطيسُ" قاله لما جال المسلمون يوم حُنين، والوطيس: حفيرة تحتفر فى الأرض شبيهةٌ بالتنّور ؛ وقال الحسن : لبث أيوب عليه السلام على المزبلة سبعَ سنين، وما على الأرض يومئذ خَلْقٌ أكرمُ على الله منه، فما سأل اللهَ العافيــةَ إلا تعريضا فى قوله : (إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) والعرب تكنى عن الفضلة المستقذرة بألفاظ كلّها كنايات، منها : الرَّجيعُ والنَّجْوُ والبرازُ والغائطُ والعَذِرَةُ والحُشّ، فبعض هــذه الألفاظ يراد بها نفسُ الحدَث، وبعضها يراد بهــا المواضع التى يأتى اليها المحدِثُ، وكذلك آستعملوا فى إتيان النساء: المجامعة، والمرافعة، والمباضعة، والمباشرة، والملامسة، والمماسّة، والخلوة، والإفضاء، والغشيان، والتغشّى، وكل هذه الألفاظ مذكورة فى القرآن .

وحكى : أن رجلا من بنى العنبر كان أسيرا فى بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم رسولا الى قومه، فقالوا : لا ترسل إلا بحضرتنا لئلا تنذرهم، وجىء بعبد أسود، فقال له : أتعقل ؟ قال : نعم إنى لعاقل ! قال : ما أراك عاقلا ! ثم أشار بيده الى الليل، فقال : ما هذا ؟ قال : الليل ! قال : أراك عاقلا . ثم ملأ كفّيه من الرمل فقال : كم هذا ؟ قال : لا أدرى وإنه لكثير، قال : أيّما أكثر؟ النجوم أم النيران؟ قال : كلٌّ كثير، فقال : أبلغ قومى التحيّة، وقل لهم ليُكرموا فلانا، يعنى أسيرا كان فى أيديهم من بكر، فإن قومه لى مكرمون وقل لهم : إن العَرْفَجَ قد أَدْبَى، وشكّتِ النساء، وأمرهم أن يعْرُوا ناقتى الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملى الأصهب بآية ما أكلتُ معهم حَيْسًا، وآسألوا عن خبرى أخى الحارث؛

فلما أدّى العبد الرسالة اليهم قالوا : قد جُنَّ الأعورُ، والله ما نعرف له ناقة حمراء ، ولا جملا أصهبَ ، ثم سرّحوا العبدَ ودعوا الحارث فقصّوا عليه القصّة ، فقال : قد أنذركم ؛ أمّا قوله : قد أدبى العرفج ؛ يريد : أن الرجال قد آستلاموا ولبسوا السلاح، وقوله : وشكّت النساء؛ أى آتخذن الشّكَاءَ للسفر، وقوله : الناقة الحمراء؛ (٤٥) أى آرتحلوا عن الدهناء وآركبوا الصَّمَّانَ وهو الجمل الأصهب، وقوله : بآية ما أكلت معكم حيسًا أى أخلاط من الناس وقد غزوكم ؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقِطَ ، فآمتثلوا ما قال، وعرفوا لحنَ كلامه. وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده الى مجالد آبن سعيد عبد الملك بن عمر قال : قدم علينا عمر بن هبيرة الكوفة ، فأرسل الى عشرةٍ أنا أحدهم من وجوه أهل الكوفة، فسمرنا عنده . ثم قال : ليحدثنى كلّ رجل منكم أحدوثة . وآبدأ أنت يا أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير، أحديث الحق أم حديث الباطل ؟ قال : بل حديث الحقّ ، قلت : إن آمرأ القيس آلى أليـة أن لا يتزوّج آمرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة وآثنين، فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا، قلن أربعة عشر، فبينا هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل آبنة له صغيرة، كأنها البدر لتمّه، فأعجبته فسألها : ياجارية! ما ثمانية وأربعة وآثنان؟ فقالت : أما ثمانيـة فأطْبَاءُ الكلبة ، وأما أربعـة فأخلافُ الناقة ، وأما آثنان فثديا المرأة ، فخطبها الى أبيها ، فزوّجه إياها وشرطت عليـه أن تسأله ليلة بنائها عن ثلاث خصال ، فجعـل لهـا ذلك ، وعلى أن يسوق اليها مائةً من الإبل ، وعشرة أعبد، وعشر وصائف، وثلاثة أفراس؛ ففعل ذلك ، ثم إنه بعث عبدا له الى المرأة، وأهدى لها نِحْيًا من سمن، ونِحْيًا من عسل، وحلّة من قصب، فنزل العبد

على بعض المياه، فنشر الحلة فلبسها فتعلقت بسَمُرة فانشقت، وفتح النِّحيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا، ثم قدم على حيّ المرأة وهم خلوف فسألها عن أبيها وأمها وأخيها، ودفع اليها هديتها فقالت له : أعلِمْ مولاك أنّ أبي ذهب يقرِّب بعيدا، ويبعِّد قريبا، وأنّ أمّي ذهبت تشقّ النفس نفسين، وأنّ أخي ذهب يراعي الشمس، وأنّ سماءكم انشقّت، وأنّ وِعاءَيكم نضَبا، فقدم الغلام على مولاه فأخبره، فقال : أما قولها : أنّ ابي ذهب يقرّب بعيدا ويبعّد قريبا : فإن أباها ذهب يحالف قوما على قومه، وأما قولها : ذهبت أمّي تشق النفس نفسين : فإن أمها ذهبت تَقْبُلُ امرأة نفساء، وأما قولها : ذهب أخي يراعي الشمس : فإن أخاها في سَرْح له يرعاه، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروح به، وقولها : أن سماءكم انشقّت : فإن البُرْدَ الذي بعثتَ به انشقّ، وأما قولها : أن وعاءيكم نضبا : فإن النِّحيين نقصا؛ فاصدقني؛ فقال : يامولاي ! إني نزلت بماء من مياه العرب، فسألوني عن نسبي، فأخبرتهم أني ابن عمك، ونشرتُ الحلّة فلبستها وتجمّلتُ بها، فتعلّقتْ بسَمُرةٍ فانشقّت، وفتحتُ النِّحيين فأطعمتُ منهما أهل المــاء . فقال : أَوْلَى لك؛ ثم ساق مائةً من الإبل، وخرج ومعه الغلام ليسوقَ الإبلَ، فعجز؛ فأعانه امرؤ القيس فرمى به الغلام في البئر، وخرج حتى أتى المرأة بالإبل فأخبرهم أنه زوجها، فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدري أزوجي هو أم لا ؟ ولكن انحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنَبها، ففعلوا؛ فأكل ما أطعموه، قالت : اسـقوه لبنا حازرا (وهو الحامض) فسقوه؛ فشرب، فقالت : افرشوا له عند الفَرْث والدم، ففرشوا له؛ فنام . فلما أصبحت أرسلت اليه : أريد أن أسألك عن ثلاث، قال : سلي عما بدا لك، فقالت : لم تختلج شفتاك؟

قال : من تقبيلى إياك ! قالت : لم تختلج فخذاك ؟ قال : لتورُّكى إياك ! قالت : فلم يختلج كَشْحاك ؟ قال : لالتزامى إياك ! قالت : عليكم العبد ! فشدّوا أيديكم به ؛ ففعلوا؛ قال : ومرّ قوم فاستخرجوا آمرأ القيس من البئر، فرجع الى حيّه وآستاق مائةً من الإبل وأقبــل الى آمرأته . فقيل لها : قد جاء زوجك ! فقالت : والله ما أدرى أزوجى هو أم لا؟ ولكن آنحروا له جزورا وأطعموه من كرشها وذنبها ، ففعلوا؛ فلما أتوه بذلك ، قال : وأين الكبد والسّنام والمَلْحاء ؟ فأبى أن يأكل ، فقالت : آسقوه لبنا حازرا ، فأُتىَ به ، فأبى أن يشربه وقال : أين الصَّريف والرَّثيئة؟ فقالت : آفرشوا له عند الفَرْث والدم ، ففرشوا له ؛ فأبى أن ينام وقال : آفرشوا لى فوق التلعة الحمراء وآضربوا عليها خباء ، ثم أرسلت اليه : هلمّ شريطتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل اليها : سلينى عما شئت ، فقالت : لم تختلج شفتاك؟ قال : لشرب المشعشعات ؛ قالت : فلم يختلج كشحاك ؟ قال : للبس الحبرات ؛ قالت : فلم يختلج فخذاك ؟ قال : لركض المطهّمات ؛ قالت : هــذا زوجى لعمرى ! فعليكم به ، وآقتلوا العبد فقتلوه ، ودخل آمرؤ القيس بالجارية ؛ قال آبن هُبَيْرة : حسـبكم ! فلا خير فى الحديث فى سائر الليلة بعد حديثك يا أبا عمرو ولن يأتينا أحدٌ بأعجب منه ، فقمنا فانصرفنا وأمر لى بجائزة .

وقيل : بعث ثُمَامة بن الأعور العنبرى الى أهله بثلاثين شاةً ونِحْيٍ صغير فيه سمن ، فسرق الرسول شاة ، وأخذ من رأس النحى شيئا ، فقال لهم الرسول : ألكم حاجةٌ أُخبِرُه بها ؟ فقالت آمرأته : أخبِرْه أنّ الشهر محاق ، وأن جدينا الذى كان يطالعنا وجدناه مرثوما ، فآرتجع منه الشاة والسمن .

وقيـل : أسرت طيٌّ غلاما، فقدم أبوه ليفديَهُ، فاشتطّوا عليـه ، فقال أبوه : لا والذى جعل الفرقدين يُمسيانِ ويصبحانِ على جبلَىْ طيِّءٍ ! ما عندى غير ما بذلتهُ، ثم آنصرف وقال : لقد أعطيته كلاما إن كان فيه خيرٌ فهمه . كأنه قال : اِلزم الفرقدَيْن على جبلَىْ طيِّء، ففهم الآبن تعريضه وطرد إبلًا لهم من ليلته ونجا .

ومن التخليص المتوسَّط اليه بالكناية، ماروى عن عدىّ بن حاتم بن عبد الله الطائىّ، ٥ أنه قال يوما فى حق الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط : ألا تعجبون لهذا؟ أشعرَ بَرْكًا يُوَلَّى مثل هـذا المصر، والله ما يحسن أن يقضىَ فى تمرتين . فبلغ ذلك الوليـدَ فقال على المنبر : أنشُد الله رَجُلًا سمّانى أشعرَ بَرْكًا إلا قام ، فقام عدىّ بن حاتم فقال : أيها الأمير ، إن الذى يقوم فيقول : أنا سمّيتك أشعرَ بَرْكًا لجرىءٌ، فقال له : آجلس يا أبا طريف ! فقد برّأك الله منها، فجلس وهو يقول : ما برّأنى الله منها . ١٠

وقيل : كان شُريح عند زياد بن أبيه وهو مريض، فلما خرج من عنده أرسل اليه مسروق رسولا وقال : كيف تركت الأمير؟ فقال : تركته يأمر وينهى، قال مسروق : إنه صاحب مرض، فارجع اليه وآسـأله ما يأمر وينهى، قال : يأمر بالوصـيّة وينهى عن النّوح .

خطب رجل الى قوم فجاءوا الى الشعبىّ يسألونه عنه، وكان به عارفا، فقال : هو ١٥ والله ما علمت نافذ الطعنة، ركين الجلسة، فزوّجوه ، فاذا هو خيّاط فأتوه فقالوا : غررتنا فقال : ما فعلتُ وإنه لكما وصفت .

وخطب باقلانيّ الى قوم وذكر أن الشعبيّ يعرفه فسألوه فقال : إنه لعظيم الرماد، كثير الغاشية .

قيل : أخذ العسس رجلين فقال لهما : من أنتما ؟ فقال أحدهما

أنا ابن الذى لا يُنزل الدهر قِدْرَهُ * وإن نزلتْ يوما فسوف تعودُ

٥ ترى الناسَ أفواجا الى ضوء ناره * فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ !

وقال الآخر

أنا ابن من تخضع الرقاب له * ما بين مخزومها وهاشمها

تأتيه بالذلّ وهى صاغرة * يأخذ من مالها ومن دمها !

فظنوهما من أولاد الأكابر، فلما أصبح سأل عنهما ؛ فإذا الأول ابن طبّاخ والثانى ١٠ ابن حجّام .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للأحنف : أىّ الطعام أحبّ اليك ؟ قال : الزُّبدُ والكَمْأَةُ . فقال : ما هما بأحبّ الطعام اليه ، ولكنه يحبّ الخصب للسلمين .

وقال لقمان لابنه : كُلْ أطيب الطعام، ونَمْ على أوطأ الفرش ؛ كنّى عن إكثار ١٥ الصيام، وإطالة القيام .

ومن جيّد التورية وغريبها مع توخّى الصدق فى موطن الخوف : قولُ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وقد أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رَدِيفُه عامَ الهجرة، فقيل له : من هذا يا أبا بكر؟ فقال : رجل يهدينى السبيل .

ورُفِعَ الى عبيد الله بن الحسن قاضى البصرة وصيـةٌ لرجل بمال أمر أن تُتَّخَذَ به حصون . فقال : آشتروا به خيلا للسبيل، أما سمعتم قول النخعى

ولقـــد علمت على تجنبى الردى * أن الحصون الخيلُ لامدَرُ القُرَى

قيـل كان البَرَاءُ بن قَبيصة صاحبَ شرابٍ؛ فدخل على الوليد بن عبد الملك، وبوجهه أثر، فقال : ماهـذا ؟ قال فرس لى أشقر، ركبته فكبا بى ، فقال : لو ركبتَ الأشهبَ لَمَا كبا بك؛ يريد المـاء .

قال عبد الملك بن مروان لثابت بن الزبير : ماثابت من الأسماء! ليس بآسم رجل ولا آمرأة ، قال : يا أمير المؤمنين لا ذنب لى لو كان آسمى الىّ، لسمّيتُ نفسى زينبَ، يُعرِّضُ به ؛ فإنه كان يعشق زينبَ بنت عبد الرحمن بن هشام فخطبها؛ فقالت : لا أوسّخ نفسى بأَتْىِ الذبّان .

قال نُمَيْرِىٌ لفقعسىٍّ : إنى أريد إتيانك فأجد على بابك جروا، فقال له الفقعسىٌّ: اطرح عليه ترابا وآدخل؛ أراد النميرىّ قول الشاعر

ينــامُ الفقعسىٌّ وما يُصـــلِّ * ويخرى فوق قارعةِ الطريق

وأراد الفقعسىّ قول الآخر

ولو وُطئتْ نساءُ بنى نمير * على تِرْبٍ لخبّثْنَ الترابَا

قال عبد الله بن الزبير لآمرأة عبد الله بن حازم السلمىّ : أَخرجى المالَ الذى وضعته تحت آستِك ، فقالت : ما ظننت أن أحدا يلى شيئا من أمور المسلمين يتكلّم بهذا ، فقال بعض من حضر : أما ترون الخلْع الخفىّ الذى أشارت اليه ؟ فلما أخذ الحجاج أمّ عبد الرحمن بن الأشعث تجنّب ماعيبَ على آبن الزبير، فكنَّى عن المعنى فقال لها : عمدتِ الى مال الله فوضعته تحتَ ذيلك .

ماتت للهذلىّ أمُّ ولدٍ، فأمر المنصورُ الربيعَ بأن يعزّيَه ويقولَ له : إن أمير المؤمنين يوجّه اليك بجارية نفيسة لها أدبٌ وظَرْفٌ تُسليك عنها، وأمر لك بفرسٍ وكُسوةٍ وصِلةٍ؛ فلم يزل الهذلىّ يتوقّعها، ونسيها المنصور، ثم حجّ ومعه الهذلىّ فقال له وهو بالمدينة : أحبّ أن أطوفَ الليلة فى المدينة، وأطلبَ من يطوف بى فقال : أنا لها يا أمير

٥ المؤمنين؛ فطاف به حتى وصل الى بيت عاتكةَ فقال : يا أمير المؤمنين! وهذا بيت عاتكةَ الذى يقول فيه الأحوص

* يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزّلُ *

فأنكر المنصور ذكرَ بيتِ عاتكةَ من غير أن يسأله عنه؛ فلما رجع أمرّ القصيدة على خاطره فاذا فيها

١٠ وأراك تفعلُ ما تقولُ وبعضهم * مذقُ الحـديثِ يقول ما لا يفعلُ

فتذكّر الموعدَ وأنجزه واعتذر اليه .

اجتمع الشعراء بباب أمير من أمراء العرب ، فمرّ رجل ببازٍ فقال رجل من بنى تميم لآخر من بنى نمير : هـذا البازى ! فقال النميرىّ : إنه يصـيد القَطا؛ عرّض الأوّل بقول جرير

١٥ أنا البازى المطلّ على نُمـيرٍ * أتيح من السماء لهـا انصبابا

وأراد الآخر قول الطرمّاح

تميم بطرق اللؤم أهدَى من القَطا * ولو سلكتْ طُرُقَ المكارمِ ضلّتِ

قال عمر بن هُبَيْرة الفزارىّ لأيوب بن ظَبيان النميرىّ وهو يسايره : غُضّ من بغلتِك! فقال : إنها مكتوبة، أراد بن هبيرة قول جرير

٢٠ فغُضّ الطرفَ إنك من نمير * فلا كعبا بلغتَ ولا كلابا

وأراد النميرىّ قول ابن دارة

لا تأمننّ فزاريًّا خلوتَ به * على قلوصك وٱكتبْها بأسيارِ

وقيل : كان العزيز بن المعزّ العُبيدىّ أحد الخلفاء بمصر يلعب بالحَمام فتسابق هو وخادم له فسبق طائرُ الخادم طائرَ الخليفة ، فبعث الى وزيره ٱبن كلس اليهودىّ يستعلمه عن ذلك فٱستحيى أن يقول : إن طائر الخليفة سُبِقَ ، فكتب إليه

يا بن الذى طاعتُــه عِصمةٌ * وحُبُّــه مفترَضٌ واجبُ

طائرك السـابقُ لكنّه * جاء وفى خدمته حاجبُ

جاءت ٱمرأة إلى عمر رضى الله عنه فقالت : أشكو اليــك زوجى ، خيرُ أهــل الأرض إلا رجلٌ سبقه لعمل ، أو عمل مثل عمله ، يقوم الليل حتى يُصبح ، ويصوم النهار حتى يُمسى ، ثم أخذها الحياء فقالت : أقِلْنى يا أمير المؤمنين ! فقال : جزاك الله خيرا ! فقد أحسنتِ الثناء ، فلما ولّتْ قال كعبُ بن سَوْر : يا أمير المؤمنين لقد أبلَغَتْ اليك فى الشكوى ، فإنها كنَّتْ بذلك عن عدم المباضعة .

البـــاب الخامس

من القسم الثانى من الفن الثانى

فى الألغـاز والأحاجىّ

قالوا : وٱشتقاق اللُّغز من ألغزَ اليرَبوعُ ولَغَزَ : إذا حفر لنفسه مستقيما ، ثم أخذ يَمْنَةً ويسرة ليوارى بذلك ويعمّى على طالبــه . وللُّغز أسماءٌ فمنها : المُعاياة ، والعويصُ ، والرمز ، والمحاجاة ، وأبيات المعانى ، والمَلَاحن ، والمرموس ، والتأويلُ ، والكناية ،

والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعمّى، والمُمَثَّل، ومعنى الجميع واحد، وآختلافها بحسب آختلاف وجوه آعتباراته، فانك إذا آعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعايبك، أى يُظهر إعياءك وهو التعبُ، سمّيتَه : معاياة، و إذا آعتبرته من حيث صعوبة فهمه وآعتياص آستخراجه، سمّيته : عَويصا، و إذا آعتبرته من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب، سمّيته : لُغْزاً، وفعلك له : إلغازا، واذا آعتبرته من حيث إن واضعه لم يفصح عنه قلت : رَمَزَ، وقريب منه الإشارة، و إذا آعتبرته من حيث إن غيرك حاجاك أى آستخرج مقـدار عقلك، سمّيته : محاجاة، و إذا آعتبرته من حيث إنه آستخرج كثرة معانيه، سمّيته : أبيات المعانى، وإذا آعتبرته من حيث إنّ قائله قد يوهمك شيئا و يريد غيره، سميته : لحنا وسميتَ فعلك : المَلاحن، و إذا آعتبرته من حيث إنه سُتر عنك ورُمس فهو : المرموس، والرمس: القبر، و إذا آعتبرته من أن معناه يؤوَّل اليك، سميته : مؤوَّلا، وسميت فعلك : تأويلا، و إذا آعتبرته من حيث إن صاحبه لم يصرّح بغرضه، سميته : تعريضا وكناية، و إذا آعتبرته من حيث إنه ذو وجوه، سميته : الموجَّهُ، وسميت فعلك : التوجيه، و إذا آعتبرته من حيث إنه مغطًّى عليك، سمّيته : مُعمًّى .

قال الحكيم أمير الدولة المعروف بابن التلميذ فى الميزان

ما واحد مختلِف الأسمـاءِ؟ * يعدل فى الأرض وفى السماءِ
يحـكم بالقسـط بلا رياءِ * أعمى يُرى الرشادَ كلَّ رائى
أخرس لا من عـلّة وداءِ * يُغنى عن التصريح بالإيمـاءِ
يجيب إن ناداه ذو آمتراءِ * بالرفع والخفض عن النـداء
يُفصح إن عُلِّقَ فى الهواءِ .

قوله : مختلف الأسمـاء يعنى ميزان الشمس ، والأصطرلاب ، وسائر آلات الرصد، وهو معنى قوله : يحكم فى السماء . وميزان الكلام : النحو، وميزان الشعر : العروض، وميزان المعانى : المنطق، وهذه الميزان والذراع والمكيال .

وقال آخر فيه

ما تقولون ؟ : فيما نزل من السماء، وعُلِّق فى الهواء، له عينٌ عمياء، وكفٌّ شلاء، ٥ ليس له إن عدل ثواب، ولا عليه إن جار عقاب، خُلِقَ من ثلاثة أجناس، تضعضعه الأنفاس، جسمه عارٍ من غير لباس، أخرسُ اللسان، فى أذنه خُرصان، مكرر الذكر فى القرآن، ينطوى اذا نام كالصِّلّ، وفعله المستقبل معتلّ، وله فى الآخرة أكبر محلّ .

وقال أبو نصر الكاتب فى الخاتم

ومنكوحٍ إذاملكته كفٌّ * وليس يكون فى هذا مِراءُ

له عينٌ تخلَّلها ضياءٌ * فإن كُحلتْ فللميـلِ العَماءُ

يظلّ طليعةً للوصل هونا * وللحـاشى بزورته احتماءُ

وقد أوضحتُه وأبنتُ عنه * ففسِّرْه فقد برح الخفـاءُ

أراد بقوله : تخلّلها ضياءٌ أى أنها مفتوحة وكحلها بالإصبع ؛ وقد يبعث المحبوب بخاتمه علامةً للزيارة أو رهنا عليها وهو أمانٌ للجانى .

وقال ابن الرومىّ فى فتيلة السراج

ما حَيَّـــةٌ فى رأسها دُرّة * تسـبح فى بحرٍ قليل المَدَى؟

إن غُيِّبتْ كان العمى حاضرا * وإن بدت لاح طريقُ الهدى !

وقال السرىّ الرفّاء فى شبكة الصيّاد

وكثيرة الأحداق إلا أنها * عمياءُ ما لم تنغمس فى ماءِ
وإذا هى انغمست أفادت ربّها * ما لا يُنال بأعين البصراءِ

وقال آخر فى النوم

٥ وحاملٍ يحملنى * وماله شخصٌ يُرَى!
إذا حصلتُ فوقه * وهو لذيذُ المتطَى!
سريتُ لا أدرى أفى * أرضٍ سريتُ أم سما!

وقال أبو العلاء المعرىّ فى ركابَىِ السرج

خليلانِ نيطا فى جوانب مجلسٍ * جداراه قدّام له ووراءُ!
١٠ متى يضع الرِّجلينِ ماشٍ عليهما * يَزُلْ عنه فى وَشْكٍ حَفًا وحَفاءُ!

قوله : خليلان لتشابههما ، والمجلس : السرج ، وجداراه : قربوسه ورادفته ، والحفا مقصور : وجعُ الرِّجل ، وممدود : من مشى الرجل حافيا بغير نعل .

وقال ابن القاسم عبد الصمد بن نائل فى القُفْل

مُجامعٌ يَعقِد عَقْد الكلبهْ * إن رامه غيرك جرّ نكبَهْ
١٥ ينام كالأمرد لا كالقحبهْ * حتى اذا شكَّ القُمُدُّ جنبَهْ
وعالج الجذبةَ بعد الجذبهْ * وانحلّ بالحقنة لا بالشربهْ
ألقى جنينا تحته العزبهْ * ثم إذا عاد إليه أشبهْ
بعضَ حروفِ المُعجَم المُنكبّهْ * يُبغض وهو صادق المحبّهْ
يعتقد السِّلم وينوى حربهْ * وهو على ذاك طويل الصحبهْ

شبّهه بالجامع : لدخول الفَراش فى بطنه ، وقوله : يعقد عقد الكلبة : فى عُسر المفارقة ، وإن فتحه غيرك جرّ نكبة عليك لسرقة مافيه ، ينام كالأمرد : لأنكبابه ، والقُمُدُّ : الذكر وهو المفتاح ، والجنين : الفَراش ، وإذا عاد إليه أشبه حرف الكاف .

وقال فى آسم سعيد

يبسم عن أوّل آسمـــه حِبّي * ثم بثانى حروفه يسبي
ثم بحرفين لو بدا بهما * أسدى يدا ، صورةُ آسمها تُنبي
أربعـــة نصفهـا بجملتها * فى العدّ لم تنتقص ولم تُربي
هذا وفيه آسمُ يومٍ آتّفقت * بمفاخرُ العُجْم فيه والعُرْبِ
فأعمـل الفكـر فى تأمله * وآركب به كلّ مَرْكَب صعبِ

شبّه السين بالثغر ، وثانيه العين وهى تسبي القلوب ، والحرفان يد وهى أربعة فى العدد وستّة فى الصورة ، وإذا أخذتَ السين والعين فهى أربعة وهى جملة العدد ، وفيـه عيد وهو يوم التفاخر بالزينة واللبوس .

وقال آبن أبى البَغْل الكاتب فى القلم

اصمّ عن المنادى لا يجيبُ * به تخبو وتشـتعل الخطوبُ
ضئيل الجسم "أعلَمُ" ليس تخفَى * عليه غيوبُ ما تُخفى القلوبُ
تراه راجلًا لا روح فيـــه * ويُحييه ويُنطقه الرّكوبُ
يبين لسانُه ما كنّ سودًا * معارفه ويُخرســه المشيبُ
يقَسِّم فى الورى بؤسى ونُعمى * ويحكم والقضـاءُ له مجيبُ
عجبت لسطوة فيــه وضعْف * وكلّ أموره عجبٌ عجيبُ

أراد بقوله : أعلم : مَشقوق الشَّفَة .

وقال أبو العلاء المعرّى فى المِلْح

وبيضاء من سرّ المِلاح ملكتُها * فلما قضتْ إرْبى حبوتُ بها صحبى

فباتوا بها مستمتعين ولم تزل * تحثّهم بعد الطعام على الشُّربِ

قوله : سرّ أى خالصة، والمِلَاح جمع مِلْح، والإرب : الحاجة .

٥ وقال آخر فى عودى الغناء والبخور

وما شيئان إسمهما سَواءٌ * وأصلهما معا عند آنتسابِ

إذا حضراك بتَّ قرير عين * بلا طعم يلذّ ولا شَرابِ

وما أن يوجدان النفع إلّا * بضرب أو بضرب من عذابِ

معنى آسمهما سواء ظاهرٌ، وأصلهما خشب، والضَّرب الأول : ضَرب العود ،

١٠ والثانى : من العذاب وهو الإحراق .

وقال آخر فى الحرب

ما ذات شَوْكٍ لها جناح * يختطف الناسَ عن قريبِ

وهى عقيم ترى بنيها * من بين مُرْدٍ وبين شِيبِ

يأكل بعض البنين بعضا * طلوعَ شمس الى غروبِ

١٥ تصحيفها الداء غير شك * قد يُحسم الداءُ بالطبيبِ

والداء معكوسه مكان * يصلح للطائر النجيبِ

يعرفها من يكون طَبّا * بالشّعر والنحو والغريبِ

هذا لغز معمى فى الحرب، وشوكها : السلاح، وجناحاها : جانباها ، وعقيم :

لأنها لا تلد ، وبنوها : رجالها، وأكلُهم : قتلهم، وتصحيفها : الجرب، وعكسه :

٢٠ برج .

(٤٩)

وقال آخر فى الثدى •

وما أخوان مشتبهان جِدًّا * كما اشتبه الغَرابة والغرابُ

يَضمّهما على مرّ الليالى * وما اجتمعا ولا افترقا إهابُ

لذاك وذا دموع هاملات * ولكن كلّ دمعهما شَرابُ

يصونهما عن الأبصار دِين * ويُضرَب دون نَيْلهما حِجابُ ٥

هما : ثديا المرأة، ويضمّهما إهاب : وهو الجلد .

وقال آخر فى الفخّ

وما ميّت كفّنته ودفنته * فقام الى حىّ صحيح فأوثقَهْ

وقال آخر وهو لغز

حلف الحبيبُ علىّ لا سمّيتُه * فكنيته ولطفت خوف تغاضبِهْ ١٠

ظبى! اذا ما زارنى حلّ اسمه * قلبى وذلك من عجيب عجائبِهْ

ويكون إن رخّمته وخرمته * وقلبته ما تشتهى من صاحبِهْ

ويكون إن صحّفتَ مبدأه الذى * أصبحتَ تهواه لعين مراقبِهْ

وتراه بعد الجزم إن ميّزت فى * التصحيف مقلوبا أشدّ معائبِهْ

وحروفها فالنصف منها جذرها * وحساب ذلك غير متعبٍ حاسبِهْ

فاطلبه سادس سادس ثانيه ثا * نيه وثالثه كذاك لطالبِهْ

وتمامه من بعد مثل حروفه * فى البيت صحّ اسم الحبيب لقالبِهْ

هو لغز فى فرحة ، والترخيم : حذف الآخر ، والخرم : حذف الأول؛ فاذا رخم وخرم وقلب بقى : حر ، واذا قلبت الفاء قافا بقى : قُرحة لعين المراقب ، واذا صحفته مقلوبا ، وجزمت آخره صار : هجر ، والنصف من حروفه اثنان ، وهما جذر جميع حروفه ، وقوله : فاطلبه سادس سادس : يعنى البيت السادس .

٥ وقال آخر فى سَلْمى

سل ماهرًا بالقريض والأدب * ما اسم فتاةٍ قعيـدة النّسبِ

قـد صرّح الشعر باسمها فتى * فكّرتَ فيها ظفرتَ بالعجبِ

الاسم : سلمى ، وهو ظاهر فى أول البيت .

وقال آخر فى الكُرة

١٠ ومضروبةٍ تحيـا إذا ما ضربتهـا * وإن تُركت من شدّة الضرب ماتت

وقال أبو عبد الله بن المغلّس فى السِّراج

وداع الى نفسه فى الظلامِ * وما سمعتْ أذنه صـوتَهُ

اذا هو بيّض وجه الطريـقِ سـوّد فى وجهه بيتَهُ

وقال آخر فى الصَّدَى

١٥ وساكنٍ يسكن فى الفلاةِ * ليس من الوحش ولا النباتِ

ولا من الجنّ ولا الحيّاتِ * ولا الخيام الشَّعر والأبياتِ

ولا بذى جسـم ولا حيـاةِ * كلا ! ولا يدرك بالصفاتِ

بلى ! له صوت من الأصوات * يُسمع فى الأحيان والأوقاتِ

وقال ابن المغلّس فى النخلة

وقائمـــة أبدا لا تنـام * وما قعدت قطّ مذ قامت

تعيش إذا غسلوا رِجلها * وإن حلقوا رأسها ماتت

وقال آخر

ما يقول سيدنا الشيخ : فى شىء نزل من السماء، وركض فى الهواء، وخيّم فى البيداء، نطق على نفسه فأفصح، وتكلّم فبيّن وأوضح، أفقر وأغنى، وأمات وأحيا، له شوارق من غير غضب، ورقصات على غير طرب، يسبق الفرس السريع، ويسبقه الطفل الرضيع، مختلف الألوان، يوجد فى كلّ زمان، ما أكثر لغاته ! وأعمّ فى البشر ذكر صفاته ! وهو خفيف ثقيل، كثير قليل، كبير صغير، طويل قصير، غال رخيص، قوىّ ضعيف، سريع بطىء، بارد حارّ، نافع ضارّ، أبيض أسود أزرق، قريب بعيد، قديم جديد، متحرّك ساكن، ظاهر باطن، يتجسّر ويتكسّر، ويتعوّج ويتدوّر، سلطانه فى الشمال وبه يذلّ، وضعفه فى الجنوب وبه يعزّ، نحيل يخفى جثّة الفيل فى طيّه وعطفه، ويتخلّل جفن العين الرمدة برفقه ولطفه، يمشى على الحدق فلا يؤلمها، ويطأ القلوب فلا يُكْلِمها، على أنّه يقطع الطريق، ويخيف الفريق، كم أهلك من قوم وما راق ولا سفك ! يحمل ألف قنطار، ويعجز عن حمل دينار، وهو ليلىٌّ نهارىٌّ، عربىٌّ عجمىٌّ، برىٌّ بحرىٌّ، سهلىٌّ جبلىٌّ، رومىٌّ نوبىٌّ، هندىٌّ حبشىٌّ، صينىٌّ جاهلىٌّ إسلامىٌّ، كان مع آدم فى الجنّة، وصحب نوحا فى السفينة، وتوسّط النار مع إبراهيم، كم له مع موسى من خبر ! ولموسى فيه من آية وأثر ! حمل المسيح على غير ظهر، وما سار فى برّ ولا بحر، أخرجه النبىّ صلى الله عليه وسلّم من جسده، وفرّقه على صحابته، إذا نطقت به كان بعض أحد خلفاء بنى العباس السبعة

وهو ١٤٣١ .

وقال آخر

ما شيءٌ وجهه قمر، وقلبه حجر إن علّقته ضاع، وإن أدخلتهُ السّوقَ أبى أن يباع، وإن فككته دعا لك، وإن ركبت نِصْفَه هالك، وربّما كثّر أموالك، وإن حذفتَ آخره، وشدّدت ثانيَه، أورثك الألم عند الفَجْر، والضجر عند العصر: هو الدُّملج الفضة.



ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص

فمن ذلك: آمرأتان آلتقتا برجلين قالتا لهما: مرحبا بابنينا وزوجينا وآبنى زوجينا، وذلك أن كلّ واحد منهما تزوج بأم الآخر فهما آبناهما وزوجاهما وآبنا زوجيهما.

رجلان كلّ واحد منهما عمّ الآخر وآبن أخيه، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوج بأم الآخر، فرُزِق كل واحد منهما ولدا فكل من الولدين عمّ الآخر وآبن أخيه.

رجلان كل واحد منهما خال الآخر وآبن أُخته، وذلك: أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوج بابنة الآخر، فرزق كلّ واحد منهما ولدا فكلّ من ولديهما خال الآخر وآبن أخته.

رجل وآمرأتان هو خال أحديهما، وهى خالته وعمّ الأخرى، وهى عمّته، وذلك: أنّ جدّته أمّ أبيه تزوجت بأخيه لأمه وأخته لأبيه تزوّجت بأب أمّه، فولدتا بنتين فبنت أخته خالته وهو خالها، وبنت جدّته عمّته وهو عمّها، وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك

ولى خالة وأنا خالها * ولى عمّة وأنا عمّها

رجلان كلّ واحد منهـما ٱبن خال الآخر وٱبن عمّته، وذلك : أنّ كل واحد من أبويهما تزوّج بأخت الآخر، فرزق كلّ منهما ولدا، فكل من ولديهما ٱبن خال الآخر وٱبن عمّته .

رجلان كلّ واحد منهما عمّ والد الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بأم أب الآخر، فكلّ من أولادهما عمّ أب الآخر . ٥

رجلان كلّ واحد منهما عمّ أمّ الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة ٱبن الآخر، فكلّ من أولادها عمّ أمّ الاخر .

رجلان كل واحد منهـما خال أمّ الآخر، وذلك : أنّ كلّ واحد من أبويهما تزوّج بابنة بنت الآخر، فكلّ من أولادهما خال أمّ الآخر .

رجلان احدهما عمّ الآخر والآخر خاله، وذلك : أن رجلين تزوّج أحدهما ٱمرأةً ١٠ وتزوّج الآخر ٱبنة ٱبنها، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عمّ ٱبن الأبن، وٱبن الأبن من أمّ ٱمرأة الأب؛ هو أخوها وخال ٱبنها .

رجلان أحدهما عمّ الآخر وخاله، والآخر ٱبن أخيـه وٱبن أختـه، وذلك : أن رجلًا له أخ لأب وأخت لأمّ فزوّج أخاه لأبيه بأخته لأمّه فأولدها ولدا فهما كذلك .

القسمُ الثالث من الفنّ الثانى

فى المدح، والهجو، والمجون، والفُكاهات، والمُلَح، والخمر، والمُعاقرة، والنّدْمَان، والقِيان، ووصف آلات الطّرب

وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل

من هذا القسم

فى المدح، وفيه ثلاثة عشر فصلا

حقيقة المدح وماقيل فيه، ماقيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام، ماقيل فى الإعطاء قبل السؤال، ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام، ما قيل فى وفور العقل، ما قيل فى الصِّدق، ماقيل فى الوفاء والمحافظة، ما قيل فى التواضع، ماقيل فى القناعة والنّزاهة ما قيل فى الشكر والثناء، ما قيل فى الوعد والإنجاز، ما قيل فى الشفاعة، ما قيل فى الاعتذار والاستعطاف .

فأمّا حقيقة المدح، فقد عبّر عنها الحمدونىّ فى "غاية الاختصار والإيجاز" بقوله: حقيقة المدح: وصف الموصوف بأخلاق يُحمد صاحبُها عليها، ويكون نعتًا حميدًا. قال الله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) وقال عزّ وجلّ: (ٱلتَّائِبُونَ ٱلْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ ٱلسَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْآمِرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ) وروى عن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم أنه قال : " أصحابى كالنجوم بأيّهم ٱقتديتم ٱهتديتم " وقد أوّلوا الخبر المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " اذا رأيتم المَدّاحين فٱحثوا فى وجوههم التراب " قال العُتْبىّ هو المدح الباطل والكذب .

وأمّا مدح الرجل بما هو فيه فلا بأس به ، وممّا يعضد هذا أنّ العبّاس بن عبدالمطّلب وكعب بن زهير ، وحسّان بن ثابت ، وغيرهم ، مدحوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم يَرِد أنه حثا فى وجه أحد منهم ترابا . ٥

وقيل فى حثو التراب مَعْنَيان : أحدهما التغليظ فى الردّ عليه ، والثانى يقال له : بفمك التراب .

وللشعراء عادة فى تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقّه حتى إنّ ذلك أفضى بكثير منهم الى الكفر والخروج عن الحدّ أعاذنا الله من ذلك . وقال أنو شروان : من أثنى عليك بما لم تولِه فغير بعيد أن يذمّك بما لم تجنّه . وقال وهب بن منبّه : من مدحك بما ليس فيك ، فلا تأمَن أن يذمّك بما ليس فيك . ١٠

وأنشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قول زهير بن أبى سُلْمى فى هَرِم بن سِنَان

دع ذا ! وعُدَّ القولَ فى هَرِم * خير الكهول وسيّد الحَضَرِ ١٥

لو كنتَ من شىء سوى بشر * كنتَ المنور ليلةَ القَدْرِ

ولأنتَ أوصل من سمعتُ به * لشوائل الأرحام والصِّهْرِ

ولنعم حشو الدّرع أنت اذا * دُعيتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ

فقال عمر رضى الله عنه : ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

ولما حضر أبا بكر الصدّيق رضى الله عنه الوفاةُ ، قالت عائشة رضى الله عنها وهو يغمّض

وأبيض يُستسقَى الغَمام بوجهه * ثِمالُ اليتامى عصمة للأرامل

فنظر اليها وقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

٥ وقال آخر

ولو كنتِ أرضًا كنتِ مَيْثاءَ سهلةً * ولو كنتِ ليلًا كنتِ صاحبة البدرِ

ولو كنتِ ماءً كنتِ ماءَ غَمامة * ولو كنتِ يوما كنتِ تعريسة الفجرِ

وقال محمّد بن هانئ

أغيرُ الذى قد خطّ فى اللوح أبتغى * مديحا له إنّى إذا لعنودُ

١٠ وما يستوى وحىٌ من الله منزل * وقافيةٌ فى الغابرين شرودُ

وقال عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لمُتَمّم بن نُوَيرة صِف لى أخاك فإنى أراك تمدحه ، فقال : كان أخى يحبس المزاد بين الصُّوحَيْن فى الليلة القَرّة معتقلا للرمح الخَطِل ، عليه الشَّمْلَة القَلوب ، يقود الفرس الحَرون فيصبح ضاحكًا مستبشرًا : الخَطِل : الطويل المضطرب ، والقلوب : التى لا تنضمّ على الرَّحل لقصرها .

١٥ وسأل عبد الله بن عباس صَعْصَعةَ بن صُوحان العَبْدىّ عن إخوته فقال : أما زيد فكما قال أخو عبس

فتى لا يبالى أن يكون بوجهه * إذا نال خلّان الكرام شحوبُ

ثم قال : كان والله ياآبن عباس ، عظيم المروءة ، شريف الأبوّة ، جليل القدر ، بعيد الشرّ ، كميش العُروة ، زين النَّدْوة ، سليم جوانح الصدر ، قليل وساوس الفكر ،

ذاكراً لله تعالى فى طَرَفى النّهار وزلفًا من الليل، الجوع والشِّبَع عنده سِيّان، لا منافس فى الدنيـا، ولا غافل عن الآخرة، يطيل السكوت، ويديم الفكر، ويكثر الاعتبار، ويقول الحق، ويلهج الصدق، ليس فى قلبه غير ربه، ولا يهمه غير نفسه، فقال ابن عبّاس : ما ظنّك برجل سبقه عضو منه الى الجنّة ؟ رحم الله زيدا ! فأين كان عبد الله منه؟ فقال : كان عبد الله سيّدا شجاعًا، شيخًا مُطاعًا، خيره وِسَاع، وشره دِفَاع . ليّن التحيزة، أحوذىّ الغريزة، لاينهنهه مُنهنه عمّا أراد، ولا يركب إلّا ما اعتاد، سِمَام العدى، فيّاض النّدى، صعب المَقادة، جزل الرِّفادة. أخو إخوان، وفتى فتيان، ثم أنشد شعر حسّان بن ثابت

اذا قال لم يترك مقالًا لقـائل * بمُلتقطاتٍ لا يرى بينها فصـلا
قضى فشفى ما فى النفوسِ فلم يدع * لذى إربة فى القوم جدّا ولا هزلا

ودخل ضِرَار بن ضَمْرة الكنانىّ على معاوية بن أبى سُفيان فقال له : صفْ لى عليّا فقال له : أو تعفينى؟ فقال : لا أعفيك؟ قال : أما إذ لا بدّ، فإنّه كان بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجّر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة نواحيـه، يستوحش من الدنيا وزَهْرتها، ويأنس بالليل وظُلمته، كان والله غزير العَبْرة، طويل الفِكْرة، يقلّب كفّيه، ويخاطب نفسَه، يعجبه من اللّباس ما قَصُر، ومن الطعام ماخَشُن، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقُربه منا لا نكلّمه هيبةً له، فان تبسّم فعن مثل لؤلؤ منظوم، يُعظّم أهـلَ الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوىُّ فى باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وذكر عمرو بن مَعديكَرِب بنى سُلَيْم فقال : بارك الله على حىّ بنى سليم ما أصدق فى الهيجاء لقاءَها! وأثبت فى النوازل بلاءَها! وأجزل فى النائبات عطاءَها! والله لقد قابلتهم فما أجبتهم، وهاجيتهم فما أفحمتهم، وسألتهم فما أبخلتهم .

وقال بعضُ العرب : فلان حتف الأقران غداة النزال، وربيع الضِّيفَان عَشيّة النزول .

وقال آخر: فلان لَيْثٌ اذا غدا، وبدر اذا بدا، ونجم اذا هدى . وسُمّ إذا أردى.

ودخل على النُّعمان بن المُنذر بن آمرئ القيس آبْن عمرو بن عدىّ اللخمىّ فحيّاه بتحيّة الملوك ثم قال : أيفاخرك ذو فائش وأنت سائس العَرب ، وغُرْوة الحسب والأدب ، لأَمْسُك أيمن من يومه ! ولعبْدك أكرم من قومه ، ولقفاك أحسن من وجهه، وليسارك أجود من يمينه ، ولظنّك أصدق من يقينه ولوعدك أنلج من رفده ، ولخالك أشرف من جدّه ، ولنفسك أمنع من جُنده ، وليومك أزهر من دهره، ولفترك أبسط من شبره، ثم قال

أخلاقُ مجدك جُلّتْ مالها خطر * فى البأس والجود بين الحلم والخَفَرِ
مُتوّج بالمعالى فوق مَفْرِقة * وفى الوغى ضيغم فى صورة القمرِ
اذا دجا الخطب جلاه بصارمه * كما يُجلِّى زمانُ المحل بالمطرِ

فتهلّل وجهُ النعمان سروراً، ثم أمر أن يُحشى فوه درّا وكُسِىَ أثواب الرضى وكانت حباب أطواقها الذهب بقصب الزُمُرد . ثم قال النّعمانُ : هكذا فليمدح الملوك . وذو فائش : هو سَلامة بن يزيد بن سَلامة من ولد يَحْصُب بن مالك وكان النابغة

متّصلا به قبـل آتصاله بالنّعمان ، وله فيه مدائح كثيرة فاقتص الله تعـالى من النّعمان آبن المنذر بعـد ذلك لمـا حُكِيَ أنه دخل حسان بن ثابت على الجفنيّ فقال : آنعم صباحا أيها الملك ! السماء غِطاؤك ، والأرض وِطاؤك ، ووالدى ووالدتى فِداؤك ، أنّى ينافسك آبن المنذر؟ فوالله لَقذالك أحسن من وجهه ، ولأمّك خير من أبيه ، ولظلك خير من شخصه ، ولصَمْتك أبلغ من كلامه ، ولشمالك خير من يمينه ، ثم قال ٥

قذالك أحسن من وجهه * وأمّك خيرٌ من المنذر

ويُسرَى يديك اذا أعسرتْ * كيُمنى يديه فلا تمـترى

أخذ المعنى الحسنُ بن هانئ فقال

بأبى أنت من غزالٍ غرير * بذّ حسنَ الوجوه حسنُ قفاكا

ونظر بعض الشـعراء الى هذا المعنى فقال يمدح زُبيدة آبنة جعفر بن أبى جعفر ١٠ المنصور أم الأمين

أزبيـدة آبنـة جعفر * طـوبَى لزائرك المُثـابِ

تعطين من رجليـك ما * تعطى الأكفُّ من الرِّغابِ

فلما أنشد ذلك تبادر العبيدُ ليوقعوا به فقالت زبيدةُ : كفّوا عنه فلم يرد إلّا خيرًا ، ومن أراد خيرًا فأخطأ خير ممّن أراد شرًّا فأصاب ، إنّه سمع الناس يقولون : قفاك ١٥ أحسن من وجه غيرك ، وشمالك أندى من يمين سواك ، فقدّر أن هذا مثل ذاك ، أعطوه ما أمل ، وعرّفوه ماجهل . ومثله : مدح شاعرٌ أميرا فقـال

أنت الهمام آبن الهما * م الواسع آبن الواسعهْ

فقال له : من أين عرفتها؟ قال : قد جرّبتها فقال : أسوأ من شعرك ، ما أتيت به من عذرك ! ٢٠

قال دخل خالدُ بن عبد الله العنبرىّ على عمر بن عبد العزيز لمّا ولى الخلافة فقال : يا أمير المؤمنين من تكن الخلافة قد زانته فأنت قد زيّنتها ، ومن يكن شرّفته فقد شرّفتَها ، وأنت كما قال الشاعر

وإذا الدرّ زان حسنَ وجوه * كان للدرّ حسنُ وجهك زَيْنا

٥ فقال عمر بن عبد العزيز : أُعْطِىَ صاحبكم مَقُولا ، ولم يُعْط معقولا . ولمّا دخل عبد الله المأمون بغدادَ تلقّاه وجوه أهلها فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين ! بارك الله لنا فى مَقدمك ، وزادك فى نعمتك ، وشكرك على رعيّتك ، تقدّمتَ من قبلك ، وأتعبت من بعدك ، وأيأستَ أن نُعاين مثلك ، أمّا فيمن مضى فلا نعرفه ، وأمّا فيمن بقى فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعولك ، ونُثنى عليك . خَصِبَ لنا جنابك ، وعَذُب ١٠ شرابك ، وحَسُنتْ نُصرتك ، وكَرُمتْ مقدرتك . جبرتَ الفقيرَ ، وفككتَ الأسير ، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

مازلت فى البذل للنوال وإطـ * ـلاق لعانٍ بجرمه عَلِقِ

حتى تمنّى البُراء أنّهم * عندك أسرى فى القِدّ والحَلَقِ

وقال رجل للحسن بن سَهْل : لقد صرت لا أستكثر كثيرَك ، وإن قليلك أكثر ١٥ من كثير غيرك . وقال الرشيد لبعض الشعراء : هل أحدثتَ فينا شيئًا ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! المديح كلّه دون قدرك ، والشّعر فيك فوق قدرى . ولكنى أستحسن قول العتّابى

ماذا عسى مادح يُثنى عليك وقد * ناداك فى الوحى تَقديسٌ وتطهيرُ

فتَّ المادح إلا أنّ ألسننا * مستنطقات بما تخفى الضمائرُ !

وقال رجل فى خالد بن صفوان : قريع المنطق، جزل الألفاظ، عربىّ اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثير الطلاوة، صموتا قؤولا، يَهنأ الجرب، ويداوى الدبر، ويفلّ المحزّ، ويطبق المفْصَل، لم يكن بالزَّمِر فى مروءته، ولا بالهذِر فى منطقه، متبوعا غير تابع، كأنّه عَلَم فى رأسه نار .

وقيل لبعض الخلفاء: إن شَبيب بن شَيبة يستعمل الكلام ليستعدّ به ؛ فلو أمرتَ ٥ به ان يصعد المنبر فُجَاءَة لافتضح ، قال : فأمر من أخذ بيده فصعد المنبرَ فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبىّ صلى الله عليه وسلّم ثم قال : إن لأمير المؤمنين أشباها أربعة؛ فمنها : الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبهُ منه صولته ومضاؤه . وأما البحر الزاخر، فأشبه منه جُوده وعطاؤه . وأمّا القمر الباهر، فأشبه منه نوره وضياؤه . وأما الربيع الناضر، فأشبه ١٠ منه حسنه وبهاؤه، ثم نزل .

وقيل دخل رجل على المنصور فقال له تكلّم بحاجتك؛ فقال : يبقيك الله تعالى يا أمير المؤمنين! قال : تكلّم بحاجتك ؛ فإنّك لا تقدر على مثل هذا المُقام فى كلّ حين . قال : والله يا أمير المؤمنين! ما أستقصر أجلَك، ولا أخاف بخلَك، ولا أغتنم مالك، وإن عطاءك لشرف، وإنّ سؤالك لزين، وما بامرئ بَذَلَ اليك وجهَه نقص ١٥ ولا شَين، فأحسن جائزته وأكرمه .

وقال محمد بن مالك القُرطبىّ من رسالة : ما رأيتُ وجها أسمح، ولا حلما أرجح، ولا سجيّة أسمح، ولا بِشرا أبدى، ولا كفًّا أندى، ولا غُرّة أجمل، ولا فضيلة أكمل،

ولا خُلُقًا أصفى، ولا وعدا أوفى، ولا ثوبًا أطهر، ولا سَمْتًا أوفر، ولا أصلا أطيب، ولا رأيا أصوب، ولا لفظًا أعذب، ولا عِرْضا أنقَى، ولا بناء أبقَى، ممّا خصّ الله به ثالث القمرين، وسِراج الخافقين، وعِماد الثّقلين المُعْتَصِم بالله .

وقال بعض الكتّاب : إنّ من النعمة على المُثنِي عليك أن لا يخاف الإفراط ، ٥ ولا يأمن التقصير ، ولا يحذر أن يلحقه نقيصة الكذب ، ولا ينتهى به المدحُ الى غاية ، إلا وجد فى فضلك عونا على تجاوزها . ومن سعادة جَدِّك أنّ الداعىَ لك لا يعدم كثرةَ المشايعين له ، والمؤمِّنين معه .

وقال آخر : إنى فيما أتعاطَى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر ، والقمر الزاهر الذى لا يخفى على كلّ ناظر ، وأيقنت أنى حيث آنتهى بى القول الى العجز ١٠ مقصرٌ عن الغاية فانصرفت عن الثناء عليك الى الدعاء لك ، ووكلت الإخبار عنك الى علم الناس بك .

وقال أبو عبد الله محمد بن الخياط من رقعة طويلة فى المظفّر فى أوّلها : حجب الله عن الحاجب المظفّر أعينَ النائبات ، وقبض دونه أيدى الحادثات ؛ فإنه مذ كان أنورَ من الشمس ضياءً ، وأكمل من البدر بهاءً ، وأندى من الغيث كفًّا ، وأحمى من ١٥ الليث أنفا ، وأسخى من البحر بنانا ، وأمضى من النصل لسانا ، وأنجبه المنصور بجرى على سَنَنِه ، وأدّب فأخذ بسُننه ، وكانت الرياسة عليه موقوفة ، والسياسة اليه مصروفة ، قصرت الأوهام عن كنه فضله ، وعجزت الأقلام عن وصف مثله ، غير أن الفضائل لابدّ من نشرها ، والمكارم لا عذر فى ترك شكرها .

فهذه نبذة كافية ممّا ورد فى المنثور فلنذكر ما ورد من المنظوم فى ذلك .

قال أبو هلال العسكرىّ : سمعتُ أبا أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد يقول : امدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبيانىّ يمدح النّعمان بن المنذر

ألم تر أن الله أعطاك سُورة؟ * ترى كلّ ملْك دونها يتذبذُب

بأنك شمس والملوك كواكب * اذا طلعت لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وهو مأخوذ من قول بعض شعراء كِندةَ مدح عمرو بن هند ٥

تكاد تميد الأرض بالناس أن رأوا * لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ

هو الشمس وافت يوم سعدٍ فأفضلتْ * على كلّ ضوء والملوكُ كواكبُ

وقال نُصَيب

هو البدر والناس الكواكبُ حوله * وهل يشبه البدرَ المضىءَ كواكبُ

وقالوا : أبدع بيت قيل فى المديح قول النابغة ١٠

فإنك كالليـل الذى هو مدركى * وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقوله : "أخلاقُ مجدك" — الأبيات وقد تقدمت — وقد تداول الناس قول النابغة

* فإنك كالليل الذى هو مُدركى *

فقال الفرزدق

فـلو حملتْـنى الريحُ ثم طلبتنى * لكنتُ كشىءٍ أدركته مقادرُهْ ١٥

وقول النابغة أبلغ ، لأن الليـل أعمّ منْ الريح ، والريح يُمتنع منها بأشياء ، والليل لا يمتنع منه بشىء . وأخذ سلم الخاسر قول الفرزدق فقال

فأنت كالدهر مبثوثا حبـائله * والدهر لا ملجأ منه ولا هربَ

ولو ملكتُ عِنانَ الريح أصرفه * فى كلّ ناحيـةٍ ما فاتك الطلبُ

وقالوا : أجود شيء قيل فى الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدّمين والمحدّثين قول أبى العتاهية يمدح الرشيد بن المهدىّ وولده

بنو المصطفى ! هارون حول سريره * فخير قيام حوله وقعود
تُقلِّب ألحاظَ المهابة بينهم * عيونُ ظباءٍ فى قلوب أسود

٥ وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول أبى الطَّمَحان القَينىّ

أضاءت لهم أحسابهم ووجوهُم * دجى الليل حتى نظَّم الجَزْعَ ثاقبُهْ
نجوم سماء كلّما انقضّ كوكبٌ * بدا كوكب يأوى اليه كواكبُهْ
وما زال منهم حيث كان مسوّدٌ * تسير المنايا حيث سارت كتائبُهْ

وهذه الأبيات من قصيدة مدح بها بُجَيرَ بنَ أَوسِ بنِ حارثةٍ ، ابنَ لأْمٍ الطائى ،

١٠ وكان أسيرا فى يده ، فلما مدحه بها أطلقه بعد أن جزّ ناصيته ، وأوّل القصيدة

اذا قيل : أىّ الناس خيرٌ قبيلةً ؟ * وأصبر يوما لا توارى كواكبُهْ ،
فإنّ بنى لأم بن عمرو أرومة ، * علتْ فوق صعبٍ لا تُنال مراتبُهْ !

أضاءت لهم أحسابهم الأبيات .

ومثله قول ابن أبى السِّمْط

١٥ فتى لا يبالى المدلجون بنوره * الى بابه أن لا تضىءَ الكواكبُ
له حاجبٌ من كلّ أمرٍ يَشينه * وليس له عن طالب العُرف حاجبُ

ومثله قول الحُطيئة

نمشى على ضوء أحساب أضأن لنا * كما أضاءت نجومُ الليل للسارى

ومثله قول الآخر

٢٠ وجوهٌ ، لو انّ المدلجين اعتشوا بها * صدعن الدجى حتى يُرى الليلُ ينجلى

(٥٤)

وقال عيسى بن أوس يمدح الجُنَيد بن عبد الرحمن

الى مستنير الوجه طال بسـؤددٍ * تقاصَرَ عنـه الشاهقُ المتطاوِلُ

مدحتك بالحق الذى أنت أهله * ومن مِدَح الأقوام حَقٌّ و باطلُ

يعيش الندى مادمت حيًّا فإن تمت * فليس لحىّ بعـد موتك طائلُ

وما لآمرئٍ عنـدى تَخِيلةُ نعمةٍ * سواك وقـد جادت علىّ مَخَائلُ ٥

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشى

فتًى ،لو يُنادى الشمسَ ألقت قناعَها * أو القـمرَ السارى لألقَى المَقالِدَا

وهذا من الغلو وهو مذموم عند بعضهم .

ومثله فى الغلو قول طُرَيْح بن إسماعيل

لو قلتَ للسيل : دع طريقك والـمـوج عليـه كالهَضْب يعتلـجُ ١٠

لآرتدّ أو ساخ أو لكان لـه * فى جانب الأرض عنك منعرَجُ

ومن الغلو قول أبى تمّـام فى المعتصم بالله

بِيُمنِ أبى إسحـاقَ طالت يدُ العلى * وقامت قناة الدين واشتدّ كاهلُهْ

هو البحـر من أىّ النواحى أتيتَه * فلُجّتُـه المعروفُ والجود ساحلُهْ

تعوَّد بسطَ الكفِّ حتى لو آنه * أراد آنقباضا لم تُطعْـه أنامـلُهْ ١٥

ولو لم يكن فى كفّـه غيرُ نفسـه * لجـاد بهـا فليتّقِ اللهَ سائـلُهْ

وقال العسكرىّ

وكيف يَبيت الجارُ منك على صدًى؟ * وكفُّك بحرٌ لُجّة الجـود ساحلُهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ يرفعه الى الأصمعىّ قال : سمعت أعرابيّا يقول : إنكم معاشر أهل الحضر، لتخطئون المعنى، إنّ أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد، و يصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟ ثم قال : والله لأُنشدنّك شعرا يكون لك إماما . ثم أنشدنى

٥ اذا سألتَ الورى عن كلّ مكرُمةٍ * لم تُلفِ نِسبتها إلا الى الهَوْلِ
فتى حواذا أعار النّيلَ نائلَهُ * فالنّيلُ يشكر منه كثرةَ النّيلِ
والموت يَرهَبُ أن يلقَى منيّتهُ * فى شدّة عند لقّ الخيْل بالخيلِ
لو عارض الشمس ألقَى الشمسَ مظلمةً * أو زاحم الصُّمَّ ألجاها الى المَيْلِ
أو بارز الليلَ غطّته قوادمُه * دون الخوافى كمثل الليل فى الليلِ
١٠ أمضى من النجم إن نابته نائبةٌ * وعند أعدائه أجرى من السيلِ

ومثله قول الآخر

علّم الغيثَ الندى حتى اذا * ماحكاه علّم البأسَ الأسَدْ
فله الغيث مقرٌّ بالندى * وله الليث مقرٌّ بالجلَدْ

وقال امية بن أبى الصلت فى عبد الله بن جُدْعان

١٥ أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حياؤك؟ إن شيمتك الحياءُ
كريم لا يغيّره صباحٌ * عن الخُلُق الكريم ولا مَساءُ
فأرضك أرضُ مكرمة بنتها * بنو تيْمٍ وأنتَ لها سماءُ

ونحوه قوله

لكل قبيلة شرفٌ وعزٌّ * وأنتَ الرأسُ تقدمُ كلَّ هادِ

وقال ابن الرومى

قوم يحلّون من مجدٍ ومن شرفٍ * ومن غَناء محلَّ البَيْض واليلَبِ
حلّوا محلّهما من كلّ جُمجمة * نفعا ودفعا وإطلالا على الرتبِ
قومٌ هم الرأسُ إذ حسّادهم ذَنَبٌ * ومن يمثّل بين الرأس والذنبِ

وقال أبو هلال العسكرى

فابشر فإنك رأس والعلى جَسَدٌ * والمجد وجهٌ وأنت السمع والبصرُ
لولاك لم تك للأيّام مَنقَبَةٌ * تسمو اليها ولا للدهر مفتخَرُ

وقال علىّ بن جَبَلَة

لولا أبو دُلَف لم تَحْمَ عارفَةٌ * ولم يَنُؤْ نَوْءُ مأمولٍ بآمالِ
يابنَ الأكارمِ من عدنان، قدعلموا * وتالد المجد بين العمّ والخالِ
وناقلَ الناس من عُدْمٍ الى جِدَةٍ * وصارفَ الدهر من حالٍ الى حالِ
أنت الذى تُنزِل الأيّام منزِلَها * وتُمسِك الأرضَ عن خسفٍ و زلزالِ
وما مددتَ مدَى طرفٍ الى أحدٍ * إلا قضَيتَ بآمالٍ وآجالِ
تَزْوَرُّ سخطا فتمسى البِيضُ راضيةً * وتَستهِلُّ فتبكى أوجهُ المالِ

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول زهير

تراه اذا ما جئته متهلّلاً * كأنك تعطيه الذى أنت سائلُهْ

وعاب بعضهم هذا البيت وقال : جعل الممدوح يفرح بغرض يناله ، وليس هذا صفة كبير الهمة ، والجيّد قول أبى نوفل عمرو بن محمد الثقفى

ولئن فرحتَ بما يُنيلُك إنه * لبما ينيلك من نداه أفرح
ما زال يعطى ناطقا أو ساكتا * حتى ظننت أبا عَقِيلٍ يمزح

ومثله قول أبى تمّـام

أَسائلَ نَصرٍ لا تَســله فإنّه * أحنّ الى الإرفاد منك الى الرِّفد

وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الحُطَيئة

متى تأته تعشو الى ضوء * تجدْ خيرَ نار عندها خيرُ مُوقد

٥ وقال القاسم بن حنبل

من البِيض الوجوهِ بنى سِـنانٍ * لو آنك تستضىء بهـم أضاءوا

لهم شمس النهار اذا آستقلّتْ * ونورٌ لا يغيّبـــه العـــماءُ

هم حلّوا من الشرف المعــلّى * ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

فلو أنّ السماء دنتْ لمجـدٍ * ومكرمةٍ دنتْ لهمُ الســماءُ

١٠ وقالوا أيضا : أمدح بيتٍ قيل قول الأوّل أيضا

قومٌ سِنانٌ أبوهم حين تنسِبهم * طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا

لو كان يَقعُدُ فوقَ الشمس من كرمٍ * قومٌ بعزِّهمُ أو مجـدِهمْ قَعــدُوا

مُحسّدون على ما كان من نِعمٍ * لا ينزع الله عنهـم ما له حُسِـدوا

وقالوا : أمدح بيتٍ قاله محــدَث ، قول مروان بن أبى حفصة فى معن

١٥ آبن زائدة

بنو مطــرٍ يومَ اللقــاء كأنّهـــم * أسودٌ لهـا فى غيلِ خفّان أشـبُلُ

هم المـانعون الجارَ حتى كأنما * لجـارهِمُ بين السِّماكَيْنِ منزِلُ

بَهـاليلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن * كأوّلهـــم فى الجاهليّـــة أوّلُ

هم القوم، إن قالوا أصابوا، وإن دُعُوا * أجابوا، وإن أَعْطوا أطابوا وأجزلوا

وقال العسكرىّ : وأنشد بعض أهل الأدب قول ٱبن أبى طاهر وقال : لو ٱستعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدّم ومتأخّر وهو

إذا أبو أحمـــدٍ جادت لنا يدُه * لم يُحْمَدِ الأجودان : البحرُ والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرّته * تضاءل النيّران : الشمسُ والقمر
وإن مضى رأيُه أو جدّ عزمتَه * تأخّر المـاضيان : السيفُ والقدَرُ
من لم يكن حَذِرًا من حدّ صولته * لم يدر ما المزعجان : الخوفُ والحذَرُ
حُلْوٌ، اذا أنت لم تَبعثْ مرارتَهُ * فإن أمرّ فحُلْوٌ عنــده الصَّـبِرْ
سهل الخـلائق إلا أنه خَشِنٌ * لَيْنُ المهـزّة إلا أنه حجَـر
لا حَيَّةٌ ذَكَرٌ فى مثل صولتــه * إن صال يوما ولا الصَّمصامةُ الذكَرْ
اذا الرجالُ طغتْ آراؤهم وعَموا * بالأمر رُدَّ اليــه الرأىُ والنظر
الجود منــه عِيانٌ لا ٱرتياب به * إذ جود كلّ جوادٍ عنـــده خبر

وقال : ومن المديح القليل النظير، قول علىّ بن محمد الأفوه

أوفَوا من المجد والعلياء فى قُلَلٍ * شُمٍّ، قواعدُهنّ البأسُ والجودُ
سُبْطِ اللقاءِ اذا شيمت مخائلهم * بُسْلِ اللقاء اذا صيد العسناديدْ
مُحسَّـدون ، ومَن يعلقْ بحبلهم * من البريّة يُصْبِحْ وهو محسودُ

وقالوا : أمدح بيت قاله محدَث قول علىّ بن جَبَلة فى أبى دُلَف

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين باديه ومحتضرِهْ
فاذا ولّى أبو دُلَفٍ * ولّت الدنيا على أثرِهْ

وهى من القصائد المشهورة، وأولها

ذاد وِرد الغىّ عن صَدرِه * وٱرعوى، واللهو من وطَرِه

جاء منها فى مدحه

يا دواء الأرض إن فسدت . ومجيرَ اليسر من عُسُرِهْ
كلّ من فى الأرض من عرب بين باديه الى حَضرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً . يكتسيها يومَ مفتخرِهْ
٥ إنما الدنيا أبو دلف . ...

قال العسكرىّ : ومن المديح البارع قولُ بشار

ألا أيها الطالبُ المبتغى . نجومَ السماء بسعى أَمَمْ
سمعتَ بمكرمة ابن العلاء ، فأنشأت تطلبها لستَ ثَمّْ
اذا عَرَض الهمُّ فى صدره . لَمَا بالعطاء، وضرب البُهَمْ
١٠ فقل للخليفة إن جئته ، نصيحا ولا خيرَ فى المتّهمْ
اذا أيقظتك جسامُ الأمور فنبّهْ لها عُمَرًا ثمّ نَمْ
فتًى، لا يبيت على دِمنة ، ولا يشرب الماء إلا بدَمْ
يحبّ العطاءَ وسفك الدماء ، فيغدو على نِعَمٍ أو نِقَمْ

قال ومن المديح القليل النظير : قول أمامة بنت الجلّاح الكلبيّة

١٠ اذا شئت أن تلقَ فتى لو وزنته . بكلّ معدّىّ وكلّ يمانى
وفَى بِهِمْ جودا وحلما وسؤددًا ، وبأسًا، فهذا الأسود بن قنان
فتى، كالفتاة البكر، يُسفر وجهُهُ ، كأن تلالى وجهه القمران
أغرُّ أبرّ ابنى نزار ويعرب . وأوثقهم عَقْدا بقول لسان
وأوفاهمُ عهدًا وأطولُهم يدا ، وأعلاهمُ فضلا بكلّ مكان .

وأضربهم بالسيف من دون جاره * وأطعنهم من دونه بسنان

كأن العطايا والمنايا بكفه * سحابان مقرونان مؤتلفان

ومن المديح البارع قول أبي تمام

رأيت لعياش خلائق لم تكن * لتكمل إلا في اللباب المهذب

له كرم لو كان في الماء لم يغض * وفي البرق ما شام امرؤ برق خلب ٥

أخو عزمات بذله بذل محسن * إلينا ولكن عذره عذر مذنب

يهولك أن تلقاه في صدر محفل * وفي نحر أعداء وفي قلب موكب

وما ضيق أقطار البلاد أضافني * إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي

وهذي بنات المدح فاجرر ذيولها * عليك وهذا مركب الحمد فاركب

وقد أحسن التنوخي في قوله ١٠

وفتية من حمير حمر الظبي * بيض العطايا حين يسود الأمل

شموس مجد في سموات علي * وأسد موت بين غابات أسل

وقالت الخنساء في أخيها صخر (٥٦)

طويل النجاد رفيع العما * د ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدوا بأيديهم * إلى المجد مد إليه يدا ١٥

فنال الذي فوق أيديهم * من المجد ثم مضى مصعدا

فكلفه القوم ما عالهم * وإن كان أصغرهم مولدا

ترى الحمد يهوي إلى بيته * يرى أفضل الكسب أن يحمدا

قال آخر

ومُصْعِدٍ هضباتِ المجدِ يطلعها * كأنه لسكون الجأش منحدرُ
مازال يسبق حتى قال حاسِدُه * له طريقٌ الى العَلياء مُختَصَرُ

وقال إبراهيم بن العبّاس

٥ تلج السنون بيوتَهم وترى لها * عن بيت جارهم آزورار مناكِبِ
وتراهم بسيوفهم وشفارهم * مستشرفين لراغبٍ أو راهبِ
حامين أو قارين حيث لقيتهم * نهبَ العفاة ونزهة للراغبِ

وقال أيضا

اذا السَّنَةُ الشَّهباء مدّتْ سماءَها * سددت سماءً دونها فتحلّتِ
١٠ وعادت بك الريح العقيم لدى القِرى * لِقاحا فدرّت عن نداك وطلّتِ

وقال آبن الرومىّ

كأن مواهبه فى المحو * ل آراؤه عند ضِيق الحِيلْ
فلو كان غيثًا لعمّ البلاد * ولو كان سيفا لكان الأَجلْ
ولو كان يُعطى على قدره * لأغنى النفوس وأفنى الأملْ

١٥ وقال أبو الحسن بن أبى البغل البغدادىّ يمدح أبا القاسم بن وهب وقد تقدّم ذكر بعضها لآبن أبى طاهر

اذا أبو قاسم جادت لنا يدُه * لم يُحمد الأجودان : البحر والمطرُ
وإن أضاءت لنا أنوار غرّته * تضاءل النيّران : الشمس والقمرُ
وإن بدا رأيُه أو جدّ عَزْمته * تأخر الماضيان : السيف والقَدَرُ

ينال بالظنّ ما كان اليقين به * والشاهدان عليه العين والأثرُ
كأنّه وزمام الدهر فى يده * يدرى عواقبَ ما يأتى وما يَذَرُ

وقال ذو الرمّة

يطيب تُراب الأرض إن نزلوا بها * ويختال أن تعلو عليها المنابرْ
وما زلت تسمو للمعالى وتجتنى * جَنى المجد مذ شُدّتْ عليك المآزِرُ ٥
الى أن بلغتَ الأربعين فأُلقيَت * اليك جماهير الأمور الأكابرُ
فأحكمتها لا أنت فى الحكم عاجز * ولا أنت فيها عن هُدى الحقّ جائرْ

وقال الشّريف الرَّضىّ

يامخرس الدّهر عن مقالته * كلّ زمان عليك متّهمُ
شخصُك فى وجه كلّ داجية * ضُحًى وفى كلّ مَجْهَل عَلَمُ ١٠

وقال أبو الحسن السلامىّ

اذا زرتَه لم تلق من دون بابه * حجابا ولم تدخل عليه بشافع
كماء الفرات الجمّ أعرض وِرْدَه * لكلّ أناس فهو سهل الشرائع
تراه اذا ما جئتَه متهـللا * تهـلُّل أبكار الغيوث الهوامع

وقال محمد بن الحسين الآمدىّ ١٥

من القوم لمـا استغرب المجدَ غيرهم * من الناس أمسَوا منه فوق الغرائب
اذا سالموا كانوا صدور مراتب * وإن حاربوا كانوا قلوب مواكب
جواد متى ما رامت الريحُ شأوه * كبت دون مَرْمى خطوه المتقارب
وبحر ندًى لو زاره البحر حدّثت * عجائبُه عن فعله بالعجائب

وقال الأصمعى : كنتُ بالبادية فرأيتُ آمرأةً على قبر تبكى وتقول

فمَنْ للسؤال ومن للنوال * ومن للمقال ومن للخُطَبْ؟
ومن للحماة ومن للكُماة * اذا ما الكماة جثوْا للرُّكَبْ ؟
اذا قيل: مات أبو مالك * فتى المكرمات قريع العربْ
٥ [فقد مات عزّ بنى آدم * وقد ظهر النّكد بعد الطرب](١)

قال : فملتُ إليها، وسألتُها عنه، فقالت : فديتُك! هذا أبو مالك الحجّام، ختن أبى منصور الحائك، فما ظننتُ إلا أنّه من سادات العرب .

وقال العماد الأصفهانى

حيّون يخفون إحسانهم * ويعتذرون كان قد اساءوا
١٠ اذا أظلم الدهر أعدوا عليه * وإن أظلم الخطبُ يوما أضاءوا
بمثلكمُ قد أقرّ الرجال * فمثلكمُ لم تلده النّساءُ
وللناس من حسن أيامكم * بدولتكم كلّ يوم هناءُ

وقال ايضا

فَلأطوين على أغرّ مُحَجّل * عرضَ الفلاة الى أغرّ محجّبِ
١٥ ليث الوغى غوث الورى غَيْث النّدى * بدر النّدىّ، نعم ! وصدر الموكبِ
واذا آستوى فى دَسْته مالت له * أعناقُ كل متوّج ومُعَصّبِ
وتُميت رأفتُه حُقودَ عداته * وتَحلّ هيبتُه عقود المُحتبى
إنّ الممالك ما تزال برأيه * فى صائب وبجوده فى صيّبِ

(١) الزيادة عن أمالى القالى ج ١ ص ٦٣

يحبــوك معتذرا اليك فيــالَه * من محسن تعروه تجلة مُذنبِ
يَزْهَى بأصــلٍ فى العَلاء مُخَيِّمٍ * شرفا وفرعٍ بالكرام مطنّبِ

وقال أحمد بن محمد النامى:

له سُورة فى البشر تُقرأ فى العلا * وتثبُتُ فى صُحْف العطاء وتُكتَبُ
اذا ما علىٌّ أمطــرتك سمــاؤه * رأيتَ العـــلا أنواؤها تتحلّبُ ٥
وأزهر يَبيضّ الندى منه فى الرضا * وتحمرُّ أطرافُ القنا حين يغضبُ
أميرَ الندى ما للندى عنك مَذهبٌ * ولا عنك يوما للرغائب مَرْغَبُ

وقال أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى:

ســـيّدٌ شادت علاه له * فى العـــلا آباؤه النجبُ
وله بيتٌ يُمَـــدّ له * فوق مجرى الأنجم الطُّنُبُ ١٠
نســـبه بالمصطفى شرفاً * وعلىٌّ حيـــن ينتســـبُ
رتـــبةٌ فى العـــز شامخةٌ * قصرتْ عن مثلها الرتبُ

وقال ابن نباتة السعدى:

يَرَى الشمسَ أمًّا والكواكبَ إخوةً * وينظرُ مِنْ بدر السماءِ الى تِرْبِ
غنيتُ عن الآمال حين رأيتُـــه * وأصبح من بين الورى كلّهم حسبى ١٥
فلم أطلب المعروفَ من غير كفّـه * وهل تطلب الأمطار إلا من السحب؟

وقال أبو حامد أحمد الأنطاكى:

لو نيـــل بالجـــد فى العلياء منزلةٌ * لنـــال بالجد أعنـــانَ السمواتِ
يرمى الخطوبَ برأيٍ يُستضاء به * اذا دجا الرأىُ من أهل البصيراتِ
فليس يلقاه إلا عنـــد عارفـــة * أو واقفا فى صدور السمهرياتِ ٢٠

وقال أبو طالب المأمونى

قد وجدنَا خُطا الكلامِ فِساحَا * فجعلنا النسيبَ فيك امتداحا

وأفضنا ما فى الصدور ففاض الـ * ـمدح قبلَ النسيب فيك انفساحا

وعمدنا الى علاك فصغنا * لصدور القريض منها وشاحا

٥ وصدعنا فى أوجه الشِّعرِ من بِيـ * ـضِ مَساعيكَ بالندى أوضاحا

كم كسيرٍ جبرتَه وفقيرٍ * مستميح رددتَه مُستماحا

وأمانٍ خُرسٍ بسطتَ لها فى الـ * ـقول حتى أعدتهنّ فِصاحا

وبلادٍ جوامحٍ رُضْتَهَا بالـ * ـعزم حتى أنسيتهنّ الجِماحا

شهَرَتْ منك آلُ سامانَ عضبا * يُنجِح السعىَ غربُهُ إنجاحا

١٠ لا يذوق الإغفاء إلا رجاءً * أن يرى طيف مستميح رواحا

وقال أحمد بن محمد النامى

أميرَ العلا إن العوالى كواسبٌ * عَلاءَكَ فى الدنيا وفى جَنّة الخُلد

يَمُرُّ عليك الحولُ، سيفُك فى الطُّلَى، * وطرفُك ما بين الشكيمة واللِّبد

ويَمضى عليك الدهرُ، فعلُك للعُلا * وقولُك للتقوَى، وكفُّك للرِّفد

١٥ وقال أيضا

فتى، قسّم الايام بين سيوفه * وبين طريفاتِ المكارمِ والتلدِ

فسوّد يوما بالعَجاج وبالردى * وبيّض يوما بالفضائل والحمد

وقال الصاحب بن عبّاد

أيّها الآملون حُطّوا سريعا * برفيع العماد وارى الزنادِ

فهو إن جاد ذُمّ حاتم طيء * وهو إن قال فلّ قُسّ إيادِ
واذا ما ربا فأين زيادٌ * من علاه وأين آل زيادِ

وقال أبو طالب المأمونىّ من قصيدة

فــتًى مُلئتْ بردتاه عُــلًا * ونُبــلا وفضلًا ومجــدًا وخيرا
اذا ضمّـــه الدَّستُ ألفيتَــه * سحابًا مَطــيرًا وبدرًا مُنـــيرا
وإن أبرزَتْه وغًى خلتَــه * حُساما بَتورا وليثا هَصــورا
وطورا مُعيــدا وطورا مُبيــدا * وطورا مجــيرا وطورا أمــيرا
ترى فى ذراه لسانَ المنى * طويلا وباعَ الليالى قصــيرا
تضمّ الأسرّة منــه ذُكــاءً * وتحمل منــه المذاكى ثبــيرا

وقال أبو الطيّب المتنبى

بمشى الكرام على آثار غــيرهمُ * وأنت تخلقُ ما تأتى وتبتـــدعُ
من كان فوق محلّ الشمس موضعُه * فليس يرفعـــه شيء ولا يضـــع

وقال أبو المعالى محمد بن مسعود الأصفهانىّ شاعر الخريدة

قد حلَّ فى مَدرَج العلياء مرتبــةً * مطامحُ الشهب عن غاياتهــا تقفُ
أغْرَى بوصف معاليه الورى شغَفًا * لكنه والمعــالى فوق ما وصــفوا
إن ناصبتْه العــدا فالدهر معتــذر * أو أنكروا فضــله فالمجد معــترف

وقال السلامىّ شاعر اليتيمة

يزور نائلك العــافى وصارمــك الـــعاصى فتحويهــما أيدٍ وأعنــاقُ
فى كلّ يوم لبيت المجــد منك غنًى * وثروةٌ ولبيت المــال إمـــلاقُ
كم خضتَ من لجةٍ للنفع زاخرة * ماءُ المنون بهــا ــ حاشــاك ــ دفّاقُ

وقال المتنبي

أنت الجوادُ بلا منّ ولا كدرٍ * ولا مطالٍ ولا وعدٍ ولا مَلَلِ

وقال أبو الفرج الببّغاء

لا غيثُ نعماه فى الورى خلّب الـشـبرق ولا وِردُ جوده وشَلُ

جاد الى أن لم يبقِ نائلُه * مالًا ولم يبقَ للورى أملُ

وقال محمد بن الحسن الحاتمىّ شاعر اليتيمة

ومَن عوّدته المكرماتُ شمائلا * فليس له عنها ــ ولو شاء ــ ناقلُ

وإن راسل الأعداء فالجود رُسْلُه * اليهم وأطراف العوالى الرسائلُ

عظُمتَ، فهذا الدهرُ دونك همةً، * وجُدتَ فهذا القَطرُ عندك باخلُ

وقال مؤيّد الدين الطغرائىّ

لو دبّ رأيُك فى كعوبِ قناً * ما مسّها طَنَبٌ ولا خللُ

أو كان ضوءُك للغزالة لم * يَحجبْ ضياءَ جبينها الطَّفَلُ

أو كان لطفُك فى الحياة لما * طافت بها الأسقام والعللُ

أنت الذى لولا علاه عَفَتْ * طُرُقُ الهدى واستبهم السُّبُلُ

فى كلّ شَعبٍ من رويّته * شُعَبٌ ومن آرائه شُعَلُ

يرتدّ عنه جفنُ حاسدِه * فكأنه بالنار يكتحلُ

وجهٌ كيوم الصحو مبتسمٌ * ويدٌ كليل الدَّجنِ تنهملُ

مَسَحتْ على الأنواء راحتُه * فانساق منها العارض الهطِلُ

إن ضنّ غيثٌ أو خبا قمرٌ * فجبينه ويمينه البدَلُ

وقال ٱبن الرومىّ

آراؤكم ووجوهكم وسـيوفكم * فى الحادثات – اذا دجونَ – نجوم
فيها مَعالم للهـدى ومَصابحٌ * تجلُو الدجَى والأخرياتُ رُجومُ

وقال أبو الطيّب المتنبّى

قومٌ بلوغُ الغلام عنـدهُمُ * طعنُ نحورِ الكماةِ لا الحُلُمُ
كأنمـا يولَد النـدَى معهم * لا صِغَرٌ عاذِرٌ ولا هَرَمُ
اذا تولَّوا عـداوةً كشفوا * وإن تولَّوا صنيعة كتموا
تظن من كثرة ٱعتـذارهِم * أنهـمُ أنعموا وما علمـوا
إن برقوا فالحتوفُ حاضرة * أو نطقوا فالصـواب والحِكَمُ
أو شهدوا الحربَ لاقحًا أخذوا * من مُهَج الدارعين ما ٱحتكموا
أو ركبوا الخيلَ غيرَ مُسرجةٍ * فإن أفخاذَهم لها حُزُمُ
تُشرق أعراضُهم وأوجهُهم * كأنها فى نفوسهم شِيَمُ
أعيذكم من صروفِ دهرِكُمُ * فإنه فى الكرام متَّهَـمُ

وقال أيضا

ودانت له الدنيا فأصبح جالسا * وأيّامُه فيما يريد قيامُ
وكلّ أناس يبتغون إمامهم * وأنت لأهل المكرمات إمامُ

وقال أيضا

هم المحسنون الكرَّ فى حَومة الوغى * وأحسنُ منه كرُّهم فى المكارمِ
ولولا ٱحتقار الأسد شبّهتُها بهم * ولكنها معدودةٌ فى البهائم

وقال المشوّق الشامىّ شاعر اليتيمة

يروح الى كسبِ الثناءِ ويغتدى * اذا كان همُّ الناس كسبُ الدراهمِ
وإن جلس الأقوامُ عن واجبِ الندى * وحقّ العطايا كان أوّلَ قائمِ
يزيد ابتهاجا كلّما زار قاصد * كأن به شوقًا إلى كلّ قادمِ

٥ وقال السلامىّ شاعرها

تُشبّهه المُدّاح فى البأس والندى * بمن لو رآه كان أصغرَ خادمِ
ففى جيشه خمسون ألفا كعنترٍ * وأمضى وفى خُزّانه ألف حاتمِ

وقال أبو طالب المأمونىّ من قصيدة

يُعمّم بالهندىّ حين يسلّه * أسودَ الوغى بالضرب فوق العمائمِ
١٠ فلا مُلكَ إلا ما أقمت عروشَه * ولا غيثَ إلا ما أفضتَ لشائمِ
ولا تاجَ إلا ما توليتَ عَقْدَه * على جبهة المَلْكِ المكنّى بقاسمِ
فرأيك نجمٌ فى دُجى الليل ثاقبٌ * وعزمُك عَضبٌ فى طُلى كلّ ناجمِ

وقال المشوّق الشامىّ

ما زال يبنى كعبةً للعلى * ويجعل الجود لها ركنا
١٥ حتى أتى الناسَ فطافوا بها * وقبّلوا راحته اليُمنَى

وقال المأمونىّ من قصيدة

همام يُبكّى المشرفيّةَ ساخطا * ويُضحك أبكارَ الأمانىّ راضيا
ولو أنّ بحرا يستطيع ترقّيا * اليه لأمَّ البحرُ جدواه راجيا

ذكر ما قيل فى الافتخار

قالوا : أفخر بيت قالته العرب قول جرير

إذا غضِبَتْ عليكَ بنو تميمٍ * حسبتَ الناسَ كلَّهمُ غضابا

قال : دخل رجل من بنى سعد على عبد الملك بن مروان فقال له : ممن الرجل؟

قال : من الذين قال لهم الشاعر ٥

اذا غضبت عليك بنو تميم ، البيت .

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول فيهم القائل

يزيدُ بنُو سعدٍ على عَدَد الحصى * وأثقلُ من وزن الجبال حُلومُها

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

بناتُ بنى عوفٍ طَهارَى نقية * وأوجههمْ عند المشاهدِ غُرّانُ ١٠

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

فلا وأبيكَ ما ظَلَمتْ قُرَيعٌ * بأن يبنوا المكارمَ حيث شاءوا

قال : فمن أيّهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر

قوم هم الأنف والأذناب غيرهمُ * ومن يسوّى بأنف الناقة الذنَبا

قال : اجلس ، لا جلَست ، والله لقد خفت أن تفخر علىّ ! ١٥

وقالوا : أفخر بيت قالته العرب قول الفرزدق

ترى الناس ما سِرنا يسيرون خلفنا * وإن نحن أومأنا الى الناس وَقَفوا !

وقال عمرو بن كلثوم وهو أبلغ ما قاله جاهلىّ فى الافتخار

ونحن الحاكمون إذا أُطِعنا * ونحن العائمون اذا عُصِينا !

ونحن التاركون لما سَخِطْنا * ونحن الآخذون لما رَضِينا ! ٢٠

وقال إبراهيم بن العبّاس

إما ترينى أمامَ القـوم متّبعًا، * فقد أُرى من وراء الخيل أتّبـعُ

يوماً أُبيحُ فلا أرعى على نَشَب * وأستبيح فلا أُبقى ولا أدَعُ

لا تسألى القومَ عن حىّ صبحتُهمُ * ماذا صنعت؟ وماذا أهلُه صنعوا؟

٥ وقالوا : من أحسن ما مُدح به الرجلُ نفسَه قولُ أعشَى ربيعة

وما أنا فى نفسى ولا فى عشيرتى * بمهتضَـم حقِّى ولا قارعٍ سِـنِّى

ولا مُسـلِم مولاى عنـد جنايةٍ * ولا خائفٍ مولاى من شرِّ ما أجنى

وأن فـؤادى بين جنبىَّ عالمٌ * بما أبصرتْ عينى وما سمعتْ أذنى

وفضَّلنى فى الشِّـعر واللُّبِّ أننى * أقول على علمٍ وأعـلمُ ما أعنى

١٠ فأصبحتُ إذ فضّلتُ مروانَ وآبنَـه * على الناس قد فضّلتُ خيرَ أبٍ وآبنِ

وقال أبو هفان

لعمرى لئن بُيِّعت فى دارِ غُربةٍ * بناتى إذ ضاقت علىَّ المآكلُ

فما أنا إلا السيف يأكلُ جفنَه، * له حليةٌ من نفسه وهو عاطِلُ

قال أبو هلال العسكرىّ : ولا أعرف فى الآفتخار أحسن مما أنشده أبو تمام وهو

١٥ فقل لزهيرٍ إن شتمتَ سَراتنا * فلسنا بشتّامين للُتشتِّمِ

ولكننا نأبَى الظَّلامَ ونقتضى * بكلِّ رقيقِ الشفرتين مصمِّمِ

وتجهـل أيدينا ويحلمُ رأيُنا * ونَشتُمُ بالأفعالِ لا بالتكلُّمِ

ومن الآفتخار قول السموءل بن عاديا من كلمته التى أوّلها

اذ المرء لم يَدنَسْ من اللؤم عِرضُه * فكلّ رداء يرتديه جميـلُ

٢٠ وإن هو لم يَحمِل على النفس ضَيْمَها * فليس إلى حُسن الثناء سبيلُ

وقائـلةٍ ما بالُ أُسرةِ عادِيَا * تُنادِى وفيهـا قِلّةٌ وخُمـولُ
تُعَــيِّرنا أنّا قليــلٌ عَـدِيدُنا * فقلتُ لهـا إنّ الكرامَ قليلُ
وما قَــلَّ من كانت بقاياه مثلَنا * شَـبابٌ تَسامَى للعـلا وكُهولُ
وما ضَرَّنا أنّا قليــلٌ وجارُنا * عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
وأنّا أناس لا نَرى القتـلَ سُبّةً * اذا ما رأته عامرٌ وسَــلُولُ ٥
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنـا * وتكرهُـهُ آجالُهُـم فتطـولُ
وما مات منّا سيدٌ حتفَ أنفِـه * ولا طُلَّ منّا حيثُ كان قتيلُ
تَسيلُ على حدِّ الظُّباة نفوسُـنا * وليست على غير الظُّباة تسيـلُ
صفونا فلم نكدُر وأخلص سِرَّنا * إناثٌ أطابتْ حَملَنا وفحـولُ
علونا الى خير الظهور وحطَّنا * لوقتٍ الى خير البطون نُزولُ ١٠
فنحن كماء المُزنِ ما فى نِصابنا * كَهامٌ ولا فينا يُعدّ بخيلُ
ونُنكر إن شئنا على الناس قولَهم * ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ
اذا سـيّد منا خلا قام سـيّد * قؤولٌ لمـا قال الكرامُ فعـولُ
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ * ولا ذمَّنـا فى النازلين نزيلُ
وأيامُنـا مشهورة فى عَـدوِّنا * لهـا غُررٌ معـلومة وحُجـولُ ١٥
وأسيافنا فى كلِّ شرقٍ ومغربٍ * بهـا من قِراع الدارعين فُلُولُ
معـوّدةٌ أن لا تُسَــلَّ نِصالُها * فتُغمدَ حتى يُستباحَ قبيـلُ
سلى إن جهلتِ الناسَ عنا وعنهمُ * وليس سَـواء عالمٌ وجَهـولُ
فإن بنى الديّانِ قطبٌ لقومهمْ * تدورُ رحاهم حولهم وتجـولُ

وقال أبو هلال العسكرىّ من قصيدة

وما ضاع مثلى حيث حلّت ركابُه * بلى حيث ضاع المجد مثلىَ ضائعُ

ومثلىَ مخضوعٌ له غير أنه * اذا كان مجهول الفضائل خاضعُ

ومثلىَ متبوعٌ على كل حالة * فإنْ ينقلب وجه الزمان فتابعُ

٥ وقال عبد الله بن المعتز

سألتكما بالله هل تُعلمانى؟ * ولا تكتما شيأ فعندكما خُبْرى

أأرفعُ نيرانَ القِرى لعُفاتها * وأصبر يوم الرَّوْع فى ثُغرة الثَّغر؟

وأسأل نَيْلا لا يُجاد بمثله * فيفتحه بِشرى ويختمه عذرى؟

ومن الافتخار قول بعض الشعراء، ويروى لحسّان بن ثابت من قصيدة أوّلها

١٠ أنسيمُ ريحِك أم خِيارُ العنبرِ * يا هذه، أم ريحُ مسكٍ أذفرِ؟

قولى لطيفك أن يصدَّ عن الحشى * سطواتِ نيرانِ الأسى، ثم اهجرى

وانهى رُماتك أن يُصبن مَقاتلى * فينالَ قومَك سطوةٌ من معشرى

إنّا من النَّفَرِ الذين جيادُهم * طَمَحتْ على كِسْرى بريحٍ صَرْصَرِ

وسَلَبْن تاجى مُلك قيصرَ بالقنا * واجتزْن باب الدرب لابن الأصفرِ

١٥ كم قد وَلَدنا من كريمٍ ماجدٍ * دامى الأظافرِ أو ربيعٍ مُمْطرِ

خُلقتْ أناملُه لقائمِ مُرهَفٍ * ولبذْلِ مَكْرُمة وذروة مِنبرِ

يَلْقَى الرماحَ بوجهه وبصدره * ويُقيم هامتَه مقام المِغْفرِ

ويقول للطَّرْف اصطبر لِشَبا القنا * فهدمتَ ركنَ المجد إن لم تَصبرِ

واذا تأمّل شخصَ ضيفٍ مُقبلٍ * مُتسربِلٍ سِربالَ ثوبٍ أغبرِ

٢٠ أومأ الى الكَوْماء هذا طارقٌ * نحرتْنِىَ الأعداءُ إن لم تُنحَرِ

ذكر ما قيل فى الجود والكرم وأخبار الكرام

حقيقة الجود بذل المـال ، قال الله عزّ وجلّ : (لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وقال تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله آستخلص هـذا الدِّينَ لنفسه ولا يصلح لدينكم إلا السخاءُ وحسنُ الخُلُق ألا فزيِّنوا دينكم بهما » وقال صلى الله عليه وسلم: «تجاوزُوا عن ذنب السّخىّ فإن الله عزّ وجلّ آخذ بيده كلّما عَثَر وفاتحٌ له كلّما آفتقر» وقال صلى الله عليه وسلم : «الجود من جود الله تعالى فجُودوا يجود الله عليكم » . « ألا إن السخاء شجرة فى الجنة أغصانها متدلية فى الأرض فمن تعلق بغصن منها أدخـله الجنة » . « ألا إن السخاء من الإيمـان والإيمـان فى الجنة » . وقال علىّ بن عبد الله بن عبّاس : سادةُ الناس فى الدنيـا الأسخياء . وقال بعضُ الحكماء : الجوّاد من جاد بمـاله وصان نفسه عن مالِ غيره . وقيل لعمرو بن عبيد : ماالكرم؟ فقال : أن تكون بمـالك متبرّعا ، وعن مال غيرك متورّعا . ويقال : مراتب السخاء ثلاثة : سخاء وجودٌ وإيثـارٌ ، فالسخاءُ إعطاء الأقل و إمساك الأكثر ، والجود إعطاء الأكثر و إمساك الأقل ، والإيثارُ إعطاء الكل من غير إمساك بشىء ، وهو أشرف درجات الكرم ، و به آستحقُّوا ثنـاء الله عزّ وجلّ عليهم فى قوله : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) . ومن كلامٍ يُنْسَب الى جعفر بن محمّد : لا يتمّ المعروفُ إلا بثلاثة : تعجيله، وتصغيره ، وستْره . الجُودُ زكاةُ السّعادة ، والإيثار على النفس موجب لآسم الكرم ، وقال : لا تَستحِى مَن بَذْل القليل فإن الحِرْمان أقلّ منه . قال بعضُ الشّعراء

أعط القليلَ ولا يمنعك قِلّتُه ✽ فكلُّ ما سدّ فقرًا فهو محمودُ

وقال علىّ بن الحسين : الكريم يبتهج بفضله ، واللئيم يفتخر بماله .

وقال الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما : أيها الناس من جاد ساد ، ومن بخل رذل ، وأن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه . وقيل ليزيد بن معاوية : ما الجود ؟ قال : أن تعطى المال من لا تعرف ، فإنه لا يصير اليه حتى يتخطى ٥ من تعرف .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربه : لو لم يكن فى الكرم، إلا أنه صفة من صفات الله تعالى، تسمى بها فهو الكريم عز وجل . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" . وقيل لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت فى بذل المال ، قال : إن الله عز وجل قد عودنى بعادة أن يتفضل علىّ ، وعودته أن ١٠ أتفضل على عباده، وأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى . وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبىّ : إنك متلاف، قال : منع الجود ، سوء ظن بالمعبود . قال الله تعالى : (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) . وقال أكثم بن صيفىّ حكيم العرب : ذللوا أخلاقكم للطالب ، وقودوها الى المحامد ، وعلموها المكارم ، ولا تقيموها على خلق تذمونه من غيركم، وصلوا من رغب اليكم وتحلوا بالجود يكسبكم ١٥ المحبة، ولا تعتقدوا البخل، فتعجلوا الفقر، أخذه شاعر فقال

أمن خوف فقر تعجلته * وأخرت إنفاق ما تجمع؟
فصرت الفقير وأنت الغنىّ * وما كنت تعدو الذى تصنع

وكتب رجل من البخلاء الى رجل من الأسخياء يأمره بالإنفاق على نفسه ويخوفه الفقر، فأجابه : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً ٢٠ مِنْهُ وَفَضْلًا) وإنى أكره أن أترك أمرا قد وقع لأمر لعله لا يقع .

وكان سـعيد بن العاصى يقول على المنـبر : من رزقه الله رزقا حسنا ، فلينفق منه سرا وجهرا ، حتى يكون أسعد الناس به ، فإنمـا يترك ما يترك لأحد رجلين ، إما لمُصْلِح ، فلا يقلّ عليه شيء ، وإما لمفسد ، فلا يبقَ له شيء . أخذ بعض الشعراء هذا المعنى فقـال :

أَسْـعد بمالِكَ فى الحياة فإنمـا ∴ يبقى خلافك مصلِـحٌ أو مفسِدُ ٥

فاذا جمعت لمفسـد لم يُغنِـهِ ∴ وأخو الصّلاح قليـله يتزيّدُ

وقال أبو ذرّ رضى الله عنه : لك فى مالك شريكان ، الحَدَثَان ، والوارث ، فإن آستطعتَ أن لا تكون أبخسَ الشركاء حظًّا فافعـل . وقال بُزُرْجُمِهر الفارسىّ : إذا أقبلت عليك الدنيا ، فانفق منها ، فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عليك ، فانفق منها ، فإنها لا تبقى ؛ أخذ الشاعر هذا المعنى فقال ١٠

لا تبخلَنّ بدُنْيَا وهى مقبِـلةٌ ∗ فليس ينقُصها التبذير والسَّرَفُ

وإنْ تولّت فأحرى أن تجودَ بها ∗ فالحمد منها إذا ما أدبَرَتْ خَلَفُ

وكان كسرى يقول : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ، فإنهم أهل حسن ظنّ بالله ، ولو أن أهـل البخل ، لم يدخل عليهم من ضَرّ بُخلهم ، ومذمّة الناس لهم ، وإطباق القلوب على بغضهم ، إلا سوءُ ظنّهـم بربهم فى الخلف ، لكان عظيما ؛ أخذه محمود الورّاق فقال ١٥

من ظنّ بالله خـيرا جاد مبتدِئا ∗ والبخل من سوءِ ظنّ المرء باللهِ

وقيل لأبى عُقَيل البليغ العراقىّ : كيف رأيت مروان بن الحَكَم عند طلب الحاجة اليه ؟ قال : رأيتُ رغبَته فى الإنعام ، فوق رغبتِه فى الشكر ، وحاجتـه الى قضاء الحاجة ، أشدّ من حاجة صاحِبها . ٢٠

وقال زياد : كفى بالبخيل عارا، أن آسمه لم يقع فى حمد قطّ .

وقال أسماء بن خارجة : ما أُحبُّ أن أردّ أحدا عن حاجة طَلَبها، لأنه لا يخلو أن يكون كريما، فأصون له عِرْضَه، أو لئيما، فأصون عِرْضى منه .

وقال إبراهيم بن المهدىّ : قلت لرجل من أهل الكوفة من وجوه أهلها كان لا يجِفّ بيده قلم، ولا يستريح قلبُه، ولا تسكن حركتُه فى طلب حوائج الرجال، وإدخال المرافق على الضعفاء : أخبِرْنى عن الحالة التى خفّفَتْ عنك النَّصَبَ، وهوّنت عليك التعبَ، فى القيام بحوائج الناس، ما هى ؟ قال : قد والله سمعتُ [تغريد الطّير بالأسحار، فى فروع الأشجار، وسمعتُ خَفْق أوتار العيدان][1] وترجيع أصوات القيان، فما طرِبتُ من صوت قطّ،طَرَبى من ثناء حسن، بلسان حسن، على رجل قد أحسن، ومن شُكْرِ حرّ لمنعِم حرّ، ومن شفاعة محتسب، لطالب شاكر. قال إبراهيم : فقلت، لله أبوك ! لقد حشيت كرما . وكان طلحة بن عبدالله بن عوف الزهرىّ من أجود قريش فى زمانه، فقالت له آمرأته : ما رأيت قوما ألأم من إخوتك، فقال لها : لمه ؟ وأنّى قلت ذاك ؟ فقالت : أراهم إذا أيسرتَ أتوك، وإذا أعسرت تركوك، قال : هذا والله كرمهم، يأتوننا فى حال القوّة عليهم، ويتركوننا فى حال العجز عنهم .

وحكى أن رجلا شيخا أتى سعيد بن سالم،وكلّمهفى حاجة وماشاه، فوضع الشيخ زجّ عصاه التى يتوكأ عليها، على رجل سعيد حتّىأدماها، فما تأوّه لذلك، وما نهاه، فلما فارقه، قيل له : كيف صبرتَ على هذا منه ؟ فقال : خفتُ أن يعلَم جنايته، فينقطع عن ذكر حاجته .

---

(١) الزيادة عن النسخة الراغبية .

ذكر من انتهى اليهم الجود فى الجاهلية

وذكر شىء من أخبارهم

(٦١)

والذى انتهى اليهم الجود فى الجاهلية حاتم بن عبد الله بن سعد الطائىّ، وهَرِم بن سِنان المُرِّىّ، وكعب بن مَامَة الإيادى، وضرب المثل بحاتم وكعب، والمشهور حاتم. وكعب هذا: هو الذى جاد بنفسه، وآثر رفيقه بالمـاء فى المفازة، ولم يشهر له خبرٌ غير هذا. وأما حاتم فأخباره مشهورة

منها: أنه كان اذا اشتد البَرْد، أمر غلامه يسارا، فأوقد نارا فى بقاع من الأرض، لينظر اليها مَنْ ضلّ عن الطريق، وفى ذلك يقول

أَوقِدْ فإن الليل ليل قَرٌّ * والريح يا واقِد رِيحٌ صِرٌّ
عسى يرى نارَك مَنْ يمرٌّ * إن جلبتْ ضيفا فأنتَ حرٌّ

قالوا: ولم يك حاتم يمسك غير سلاحه وفرسه، ثم جاد بفرسه فى سنة أَزْمة.

قالت النوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرّت لها الأرض، واغبرَّ أُفُق السماء، وضنَّتِ المراضِعُ عن أولادها، لا تَبِضُّ بقطرة، وأيقنّا بالهلاك، فوالله، إنّى لفى ليلة صِنَّبْرَة، بعيدة ما بين الطرفين، إذ تَضاغى صِبْيَتُنا جُوعا، عبد الله، وعدىّ، وسَفانة، فقام حاتم الى الصبيّين، وقمت الى الصبيّة، فوالله ماسكتوا إلا بعد هَدْأَة من الليل، وأقبل يعلّلنى، فعرفت ما يريد، فتناومت، فلما تهوّرتِ النجوم، إذا بشىء قد رفع كِسْر البيت، فقلت: مَنْ هذا؟ فولّى، ثم عاد آخر الليل، فقال مَنْ هذا؟ فقالت: جارتك فلانة، أتيتُك من عند صِبْيَة يتعاوون عوى الذئاب، فمـا وجدتُ معوّلا إلا عليك أبا عدىّ، فقال: أعجليهم، فقـد أشبعكِ الله وإياهم، فأقبلت المرأة تحمل اثنين،

ويمشي بجانبها أربع كأنها نَعامة حولها رِئالُها ، فقام الى فرسه ، فوجأ لبّته بمُدية ، نخر ، ثم كَشَط عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، وقال : شأنك ، فاجتمعنا على اللحم نَشوِى ، ونأكل ، ثم جعل يأتيهم بيتا بيتا ، فيقول : هبّوا عليكم بالنار ، والتفع بثوبه ناحية ينظر الينا ، لا والله إن ذاق منه مضغة وإنه لأحوج اليه منّا ، فأصبحنا وما فى الأرض إلا عظم أو حافر .

وقيل : كان مبدأ الأمر لحاتم فى الجود ، أنه لما تَرَعْرَع ، جعل يُخرج طعامَه فإن وجد من يأكله معه أكله ، وإن لم يجد طرحه ، فلما رأى أبوه ، أنه يُهلك طعامَه ، قال له : الْحَق بالإبل ، فخرج إليها ، فوهب له جارية ، وفرسا وفلوها .

وقيل : بل هلك أبو حاتم وهو صغير ، وهذه القِصّة كانت مع جدّه سعد بن الحَشْرج ، فلما أتى حاتم الإبل ، طفِق يبتغى الناس ، فلا يجدهم ، ويأتى الطريق ، فلا يجد عليه أحدا ، فبينا هو كذلك ، إذ بَصُر برَكْب على الطريق ، فأتاهم ، فقالوا : يافتى ، هل من قِرًى؟ فقال : تسألونى عن القِرَى؟ وقد تَرَوْن الإبل! وكان الذى بَصُر بهم ، عَبِيد ابن الأبرص ، وبِشر بن أبى خازم ، والنابغة الذُّبيانىّ ، وكانوا يريدون النعمان ، فنحر لهم ثلاثة من الإبل ، فقال عَبِيد : إنما أردنا اللبن ، وكانت تكفينا بَكْرة ، إن كنت لا بدّ متكلّفا لنا شيئا ، فقال حاتم : قد عرفتُ ، ولكن رأيت وجوها مختلفة ، وألوانا متفرّقة ، فظننت أن البلدان غير واحد ، فأردت أن يذكر كلّ واحد منكم ما رأى ، إذا أتى قومه فقالوا فيه أشعارا امتدحوه بها ، وذكروا فضله ، فقال حاتم : أردت أن أُحسِن اليكم ، فصار لكم الفضل علىّ ، وإنى أعاهد الله أن أَضرِب عراقيبَ إبلى عن آخرها ، أو تقوموا اليها فتقتسموها ففعلوا ! فأصاب كل واحد تسعا وثلاثين بعيرا ، ومضوا على سفرهم الى النعمان ، وأن أبا حاتم أو جدّه ، سمع بما فعل ، فقال :

أين الإبل؟ فقال : يا أبت طوقتُك بهـا طوق الحمامة مجدا وكَرما ، لا يزال الرجل يحمـل بيت شـعر أثنى به علينا عِوضا من إبلك ، فلما سمع أبوه ذلك ، قال : أبإبلى فعلتَ ذلك؟ قال: نعم، قال :والله لا أُساكنك أبدا ،فخرج أبوه بأهله ،وترك حاتما، ومعه جاريته وفرسه وفِلْوه . قال : فبينما حاتم يوما نائم، إذ ٱنتبه، وحوله نحو مائتى بعير تجول وتَحْطِمُ بعضها بعضا، فساقها الى قومه، فقالوا : ياحاتم، أبقِ على نفسك، فقد رزقتَ مالا ، ولا تعودَنّ الى ما كنت فيه من الإسراف، قال : فإنهـا نهب بينكم، فانتُهِبت ؛ ثم أقبل ركب من بنى أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتمـا، فقالوا له : إنا تركنا قومنا يُثْنُون عليك خيرا ، وقد أرسلوا اليـك برسالة ، قال : وما هى ؟ فأنشده الأسديّون شعرا، لعبيد، وأنشده الليثيّون شعرا للنابغة، ثم قالوا : إنا لنستَحِى أن نسألك شيئا وإنّ لنا لحاجة ، قال : وما هى؟ قالوا : صاحب لنا راجل، فقال حاتم : خذوا فرسى هذه، فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها، وربَطتِ الجاريةُ فِلْوها بثوبها، فأفلت فاتبعته الجارية لتردّه، فقال حاتم : ما لحقكم من شىء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية .

(٦٣) وأما هرِم بن سِنان، فمن أخباره : أنه آلى على نفسه أنه لا يسلّم عليه زُهَير إلا أعطاه فقلّ مال هَرِم، وكان زهير يمرّ بالنادى وفيه هرِمٌ فيقول: أنعموا صباحا ما خلا هرِما ، وخير القوم تركتُ؛ قالوا : وكان عبد ٱلله بن جُدعان، حين كَبُر، أخذتْ بنو تميم على يده، ومنعوه أن يعطى شيئا من ماله ، فكان الرجل اذا أتاه يطلب منه، قال له : ٱدن منّى، فاذا دنا منه لَطَمه، ثم قال : ٱذهب فاطلب لطمتك أو ترضى، فترضيه بنو تميم من ماله ؛ وفيه يقول الشاعر

والذى إن أشار نحوك لَطْماً * تبـع ٱللطمَ نائلٌ وعَطاءُ

ومن أخبار الكرام : ما حُكى أنّ خالد بن عبد الله القَسْرىّ أميرَ العراق، كان يكثر الجلوس ثم يدعو بالبِدَر ويقول: إنما هذه الأموال ودائع العرب لابدّ من تفرقتها، فقال ذلك مرّة، وقد وفد عليه أخوه أسد بن عبد الله من خُراسان، فقام، فقال: أيها الأمير إن الودائع تُجمع لا تُفرق، فقال : ويحك! إنها ودائع المكارم، وأيدينا وكلاؤها، فإذا أتانا المُملِق فأغنيناه، والظمآن فأرويناه، فقد أدّينا فيها الأمانة، ومرّ يزيد بن المهلّب بأعرابية فى هربه من سجن عمر بن عبد العزيز، وهو يريد البصرة، فقدّمت له عَنْزا فقبلها، ثم قال لابنه معاوية : مامعك من النفقة؟ قال ثمانمائة دينار، قال : ادفعها اليها! فقال له ابنه : إنك تريد الرجال، ولا تكون الرجال إلا بالمال، وهذه يرضيها اليسير، وهى بعدُ لا تعرفك، فقال: إن كانت ترضى باليسير،فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى، فأنا أعرف نفسى، ادفعها إليها، فدفعها اليها.

قال الأحنف : كثرت علىّ الدّيَات بالبصرة، لمّا قُتِل مسعود، فلم أجدها فى حاضرة تميم، فخرجت نحو يَبْرِينَ ، فسألت : مَن المقصودُ هناك ؟ فأرسلت الى قُبّة ، فاذا شيخ جالس بِفِنائها ، مؤتزر بشَمْلة، مُحتَبٍ بحبل ، فسلمت عليه ، وانتسبت له ، فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : تُوفِّى ، قال : فما فعل عمر بن الخطاب الذى كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلت : مات، قال : فأىّ خير فى حاضرتكم بعدهما ؟ قال : فذكرت الديات التى لزمتنا للأزد وربيعة ، قال : أقم، فإذا راعٍ قد أزاح عليه بألف بعير، فقال : خذها، ثم أراح عليه آخر بمثلها، فقال: خذها، قلت : لا أحتاج اليها، فانصرفت بالألف ، ووالله ما أدرى من هو الى الساعة.

وروى عن مَعْن بن زائدة ، قال : لما هربت من المنصور، خرجت من باب حرب، بعد أن أقمت فى الشمس أياما، وخففتُ لِحيتى وعارضى، ولبست

جُبَّة صوف غليظة ، وركبت جملا ، وخرجت عليه لأمضى الى البادية ، قال : فتبعنى أسودُ متقلد سيفا ، حتى إذا غبت عن الحرس ، قَبَض على خِطام الجمل فأناخه ، وقبض علىّ ، فقلت : ما شأنك؟ فقال : أنت بغية أمير المؤمنين . فقلت له : ومن أنا حتّى يطلبنى أمير المؤمنين ؟ فقال مَعْن بن زائدة فقلت : يا هـذا ! آتق الله وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا عنك ، فأنا والله أعرف بك ، فقلت له : فإن كانت القصة ٥ كما تقول ، فهذا جوهر حملتُه معى ، بأضعاف ما بذله المنصور ، لمن جاءه بى فخذه ولا تَسْفك دَمِى ، فقال : هاته ، فأخرجتُه اليه ، فنظر إليه ساعة ، وقال : صدقتَ فى قيمته ، لست قابله حتى أسألك عن شىء ، فإن صدقتنى أطلقتك ، فقلت : قل ، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود فأخبرنى هل وهبتَ قطّ مالَك كلَّه ! قلت : لا ، قال : فنصفه ! قلت : لا ، قال : فثلثه ! قلت ، لا حتى بلغ العشر فاستحييت ١٠ وقلت : إنى أظن قد فعلت هذا ، فقال : ما ذاك بعظيم ، أنا والله راجل ، ورزقى على أبى جعفر ، عشرون درهما ، وهذا الجوهر قيمته ألف دينار ، وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ، ولجودك المأثور بين الناس ، ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك ، ولا تعجبك نفسك ، ولتُحَقِّرْ بعد هـذا كلّ شىء تفعله ولا تتوقف عن مكْرمة ، ثم رمى بالعقد إلىّ ، وخلّى خِطام الجمل وآنصرف ، فقلت : يا هذا ! قد والله ١٥ فضحتَنى ، ولسَفْكُ دمى أهونُ علىّ مما فعلت ، فخذ ما دفعته اليك ، فإنى عنه فى غنًى ، فضَحِك ، ثم قال : أردت أن تكذّبنى فى مقامى هـذا ، فوالله لا آخذه ، ولا آخذ لمعروف ثمنا أبدا ، ومضى ، فوالله لقد طلبته بعد أن أمنتُ ، وبذلت لمن جاءنى به ماشاء ، فما عرفت له خبرا ، وكأنّ الأرض آبتلعته ، وكان سبب غضب المنصور على مَعْن

(٦٣) آبن زائدة : أنه خرج مع عمرو بن يزيد بن عمرو بن هُبَيْرة وأبْلَى فى حربه بلاء حسنا . ٢٠

ويقال : إن شاعرا أتى وهب بن وهب ، وكان جوادا، فمدحه فهَشّ وبَشّ له وثنى له الوسادة وأضافه ورفده وحمله ، فلما أراد الرجل الرحلة ، لم يخدمه أحد من غلمان وهب ، فأنكر الرجل ذلك مع جميل فعله ، فعاتب بعضهم، فقال له الغلام : إنّا انّما نُعين النازل على الإقامة ولا نُعين الراحل على الفراق .

٥ وكان الحارث بن هشام المخزومى فى وقعة اليرموك، وبها أصيب فأثبتته الجراح، فاستسقى ماء ، فأُتِىَ به ، فلما تناوله ، نظر الى عِكْرِمة بن أبى جهل صريعا فى مثل حاله ، فردّ الإناء على الساقى، وقال : آمض الى عِكْرِمة بن أبى جهل، فمضى إليه، فأبى أن يشرب قبله ، فرجع الى الحارث ، فوجده ميتا ، فرجع الى عِكْرمة، فوجده قد مات ، فلم يشرب واحد منهما .

١٠ وقد وصف الناس أهل الجود والكرم بمدائح ، سنذكر ما آستجودناه منها .

فمن ذلك ما حكى عن أبى العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، قال : كان ببغداد فتى يُحَنّ ستة أشهر، فاستقبلته ببعض السكك ذات يوم، فقال : ثعلب ؟ قلت : نعم، قال : فأنشِدْنى فأنشدته

وإذا مررتَ بقبره فاعقِرْ به * كُومَ الهِجان وكلَّ طِرْفٍ سابِح

١٥ وآنضحْ جوانبَ قبره بدمائها * فلقد يكون أخا دم وذبائح

فضَحِك، ثم سكت ساعة، وقال : ألا قال؟

آذهبا بى إن لم يكن لكما عَقْـ * ـرٌ على تُرب قبره فاعقِرانِى

وآنضحا من دمى عليه فقد كا * ن دمى من نَدَاه لو تعلمانِ

ثم رآنى يوما بعد ذلك فتأمّلنى ، وقال : ثعلب! قلت : نعم ، قال : أنشدنى.

٢٠ فأنشدته

أعار الجَــوْدَ نائِلَه * إذا ما مالُهُ نَفَــدَا
وإنْ لَيثًا شَكَا جُبنا * أعار فؤادَه الأســدا

فضحك، وقال: ألا قال؟

علَّم الجَوْدَ النَّــدى حتّى إذا * ما حكاه علَّم البأسَ الأسدْ
فــله الجَوْدُ مقِرٌّ بالنــدى * وله الليثُ مقِرٌّ بالجَــلَدْ

وقال مسلم بن الوليد وهو ممــا يجوز إيراده فى الشجاعة والكرم

يجود بالنفس إن ضنّ الجوادُ بهــا * والجود بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

وأول من أتى بهذا المعنى علقمة بن عَبْدة حيث قال

تجود بنفس لا يُجَــاد بمثلها * فأنتَ بها يوم اللّقاء خَصيبُ

وهذا مثل قول يزيد بن أبى يزيد الشيبانى: من جاد بنفسه عند اللقاء، وبماله عند العطاء، فقد جاد بنفسيه كلتيهما. قالوا: وأجود ماقيل فى ذلك قول أبى العتاهية يمدح العباس بن محمد

لو قيــل للعباس يا آبنَ محمــد * قل "لا" وأنت مخلَّد ما قالَها
إنّ السماحة لَم تَزَلْ معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عِقَالَها
وإذا الملوك تسايرتْ فى بلدة * كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

فلم يَنْبَه العباس، فقال

هززْتُك هِزَّة السيف المحــلَّى * فلما أن ضربت بك آنثنيتُ
فهبها مِدْحةً ذهبت ضــياعا * كَذَبْتُ عليك فيها وآفتريتُ

فلما سمع العباس الأبيات غضب، وقال: والله لأجهدنّ فى حتفه، قال: فمرّ أبو العتاهية بإسحاق بن العباس، وقال له إسحاق: أنشدنى شيئا من شعرك فأنشده

ألا أيها الطالبُ المستَغيثُ * بمن لا يُفيــدُ ولا يَرفِدُ
ألا تسأل الله من فضـله * فإن عطاياه لا تَنفَـدُ
إذا جئتَ أفضلهم للسـؤا * ل ردّ وأحشاؤه تُرعَـدُ
كأنّك من خشـيةٍ للسـؤا * ل فى عينه الحيّـةُ الأسودُ
٥ ففِـرّ الى الله من لؤمهم * فإنى أرى الناس قد أصلَدُوا
وإنى أرى الناس قد أبرقُوا * بلؤم الفعَال وقـد أرعَدُوا

ثم مضى ، فقيل لإسحاق : إن هذا الشعر لَهُ فى أبيك، فقال إسحاق : أولى له ، لم عرّض نفسه وأحوج أبا العتاهية إلى مثل هذا مع ملكه وقدرته ؟

وقد أورد أبو الفرج الأصفهانىّ خبر هـذه الأبيات ، فقال : امتدح ربيعة الرّقّى
١٠ العباس بن محمد بن على بن عبـد الله بن العباس بقصيدة لم يُسبق اليها حسنا، وهى طويلة يقول فيها

لو قيل للعباس : يا ٱبن محمّدٍ * قل "لا" وأنت مخلّد ماقالها
ماإن أعدّ من المكارم خَصْلة * إلا وجدتُك عمّها أو خالها
وإذا الملوك تسايرت فى بلدة * كانوا كواكبها وكنتَ هلالها
١٥ إن المكارم لم تزل معقولةً * حتّى حللتَ براحتيك عقالها

قال : فبعث إليه بدينارين، وكان يقدّر فيه ألفين، فلما نظر إلى الدينارين، كاد أن يُجَن غضبا، وقال للرسول : خذ الدينارين فهما لك على أن تردّ إلىّ الرُّقعة، من حيث لا يدرى العباس، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة، وأمر من كتب فى ظهرها

مدحتُك مِدْحة السيف المُحَلَّى * لتجْرِىَ فى الكرام كما جريتُ
فهبها مِدْحة ذهبت ضياعا * كذبتُ عليك فيها وٱفتريتُ
فأنت المــرء ليس له وَفَاءٌ * كأنى إذْ مدحتُك قد زَنَيتُ

(٦٤) ثم دفعها إلى الرسول وقال : ضعها فى الموضع الذى أخذتَها منه ، ففعل ، فلما كان من الغد، أخذها العباس فنظر فيها، فلما قرأ الأبيات ، غضب ، وقام من وقته ، فركب إلى الرشيد، وكان أثيرا عنده يجلّه ويقدّمه، وكان قد همّ أن يخطب اليه آبنته، فرأى الرشيد الكراهة فى وجهه، فقال ماشأنك؟ قال: هجانى ربيعة الرقّى، فأحضره الرشيد، وقال له : يا ماصّ كذا وكذا من أمّه أتهجو عمّى، وآثر خلق الله عندى؟ لقد هممت أن أضرب عنقك، فقال : ياأمير المؤمنين، والله لقد آمتدحتُه بقصيدة ما قال أحد مثلها من الشعراء فى أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت فى الثناء ، وأكثرت الوصــف ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضارها فعل ، فلمــا سمع الرشيد ذلك، سكن غضبه، وأحب أن ينظر فى القصيدة، فأمر العباس بإحضارها فتلكأ عليه، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ، إلا أمرت بإحضارها ؟ فأُحضِرت ، فإذا فيها القصيدة بعينها ، فاستحسنها وٱستجادها وأعجب بها، وقال : والله ما قال أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ، ولقد صــدق ربيعة فبرّ ، ثم قال للعباس : كم أثبتّه عليها ؟ فسكت العباس، وتغيّر لونه، وغُصّ بريقه، فقال ربيعة : أثابنى عنها يا أمير المؤمنين دينارين،فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموجدة عليــه، فقال : بحياتى يارقّى كم أثابك ؟ فقال : وحياتِك يا أمير المؤمنين ما أثابَنى إلا بدينارين ، فغضب الرشيد غضبا شديدا، ونظر فى وجه العباس، وقال : سوءة لك ! أيّةُ حال قعدت بك عن إثابته ؟ أقلّة مال ؟ فوالله لقد نولتك جهــدى، أم

انقطاع المال عنك ؟ فوالله ما انقطعتُ بك ، ام أصلُك ؟ فهو الاصل الذى لا يدانيه شيء ، أم نفسك ؟ لا ذنب لى ، بل نفسك والله فعلت بك ذلك ، حتى فضحتَ أجدادَك وفضحتَنى ، وفضحت نفسَك ، فنكَس العباس رأسه ، ولم ينطق ، فقال الرشيد : يا غلام ، أعطِ ربيعةَ ثلاثين ألف درهم ، وخِلْعَةً ، واحمله على بغلة ، ثم قال له : بحياتى لا تذكره فى شيء من شعرك تعريضا ولا تصريحا ، وفتر الرشيد عما كان قد همّ به من أن يتزوج اليه وأظهر له بعد ذلك جفاء واطراحا .

وقال محمد بن هانئ

الواهب الألفَ إلا أنها بِدَرٌ * والطاعنُ الألفَ إلا أنها نَسَقُ

تأتى عطاياه شتّى غير واحدة * كما تدافعَ موجُ البحر يصطفقُ

وقال الرضىّ المُوسوىّ

ريّان والأيام ظمآنةٌ * من النَّدَى نَشْوان بالبِشْرِ

لا يُمسك العذلُ يديه ولا * تأخذُ منه نشوةُ الخمر

وقال أيضا

ذخائره العُرْف فى أهله * وخُزّان أمواله السائلونا

وقال أمية بن أبى الصلت الثقفىّ يمدح عبد الله بن جُدْعان

أأذكر حاجتى أم قد كفانى * حَياؤك إن شيمتَك الحياءُ؟

وعلمك بالأمور وأنت قَرْمٌ * لك الحسبُ المهذَّبُ والسناءُ

كريمٌ لا يغيّره صَبَاحٌ * عن الخُلُق السنىّ ولا مَسَاءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوما * كفاه من تعرُّضه الثناءُ

وقال الشمّاخ بن ضرار

تَزورُ آمرأً يُعطى على الحمد مالَه * ومن يُعطِ أثمانَ المحامدِ يُحمَدِ

وأنتَ آمرؤ، مَن تُعطِه اليوم نائلا * بكفّك، لا يمنعْك من نائل الغدِ

ترى الجودَ لا يُدنى من المرء حتفَه * كما البخل والإمساكُ ليس بمُخلِدِ

مُفيــدٌ ومتلافٌ، اذا ما سألتــه * تهـلّل، وآهتزّ آهتزاز المهــنّدِ

متى تأتهِ تعشو الى ضـــوءِ نارِه * تجدْ خيرَ نارٍ عنـدَها خيرُ مُوقِدِ

قال : ولـما سمع عمر رضى الله عنه هذا البيت ، قال : كَذَبَ ، تلك نار موسى عليه السلام .

وقال السرىّ الرفّاء

كالغيثِ والليثِ والهلالِ اذا * أقمــر بأسًا وبهجةً وندَى

ناسٍ من الجـودِ ما يجود به * وذاكرٌ منـه كلما وعدا

وقال أبو الفرج الوأواء

من قاسَ جدواك بالغمام فما * أنصف فى الحكم بين آثنينِ

أنت اذا جدت ضاحكا أبدا * وهو اذا جاد باكِىَ العينِ

وقال آبن نباتة السعدىّ من قصيدة

لم يُبقِ جـودُك لى شيئا أؤمّله * تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

ذكر ما قيل فى الإعطاء قبل السؤال

قال سَعيد بن العاصى : قبح الله المعـروف، اذا لم يكن آبتداءً من غير مسألة ، فما المعروف عوضٌ من مسألة الرجل، اذا بذل وجهَه، فقلبُه خائفٌ ، وفرائصه ترعُد، وجبينه يرشَح، لا يدرى أيرجع بنُجح الطلب أم بسوء المنقلب ، قد بات ليلته

يتململ على فراشه، يعاقب بين شِقّيه، مرّة هكذا، ومرّة هكذا، مَنْ لحاجته؟ فخطرتُ بباله أنا أو غيرى، فمثّل أرجاهم فى نفسه، وأقربَهم من حاجته، ثم عزم علىّ، وترك غيرى، قد ٱنْتُقِع لونُه، ودهب دمُ وجهه، فلو خرجتُ له مما أملك لم أكافئه، وهو علىّ آمنُ منّى عليه، اللهم فإن كانت الدنيا لها عندى حظٌّ فلا تجعل لى حظًّا فى الآخرة. (٦٥)

٥ وقال أكثم بن صيفىّ : كلّ سؤال وإن قلّ، أكثر من كلّ نوال وإن جلّ .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لأصحابه : من كانت له إلىّ منكم حاجة، فليرفعها فى كتاب، لأصونَ وجوهكم عن المسألة .

وقال عبد العزيز بن مروان : ما تأمّلنى رجل قط، إلا سألته عن حاجته، ثم كنت من ورائها .

١٠ وقال حبيب

عطاؤك لا يفنَى ويستغرقُ المنَى * وتبقى وجوهُ الراغبين بمائها

وقال أيضا

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت * من ماء وجهى إذا أفنيتُه عوضُ

وقالوا : مَنْ بذَل اليك وجهه، فقد وفّاك حقّ نعمته .

١٥ وقال معاوية لصَعْصَعَةَ بن صُوحان : ما الجود ؟ فقال : التّبرع بالمال، والعطاء قبل السؤال .

وقال أحمد بن محمد بن عبد ربّه

كريمٌ على العِلّاتِ جَزْلٌ عطاؤه * يُنيلُ وإن لم يُعتمدْ لنوالِ

وما الجود مَنْ يُعطى إذا ما سألته * ولكنّ مَنْ يُعطِى بغير سؤالِ

وقال حبيب الطائى:

لئن جحدتُك ما أوليتَ من كرمٍ * إنى لفى اللؤم أمضَى منك فى الكرمِ
أنسَى آبتسامُك والألوانُ كاسفةٌ * تبسُّمَ الصبح، فى داجٍ من الظُّلَمِ
رددتَ رونقَ وجهى فى صفيحته * ردَّ الصِّقالِ صفاءَ الصارم الخَذِمِ
وما أبالى وخيرُ القول أصدقُه * حقنتَ لى ماءَ وجهى أم حقنتَ دمِى ٥

ذكر ما قيل فى الشجاعة والصبر والإقدام

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده، إن الله يحبّ الشجاع ولو على قتل حيّة » .

وقالوا : حدّ الشجاعة سعة الصدر بالإقدام على الأمور المتلفة .

وسئل بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلّةُ نفس أبيّة، قيل له : فما النجدة؟ قال: ١٠ ثقة النفس عند آسترسالها الى الموت، حتى تحمد بفعلها دون خوف .

وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة . وقال بعض أهل التجارب : الرجال ثلاثة : فارس، وشجاع، وبطل، فالفارس: الذى يشُدّ اذا شدّوا، والشجاع : الداعى الى البراز والمجيب داعيَهُ، والبطل : الحامى لظهور القوم اذا ولّوا .

قال يعقوب بن السكّيت فى كتاب الألفاظ : العرب تجعل الشجاعة فى أربع ١٥ طبقات، تقول: رجلٌ شجاعٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا: بطلٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا : بُهْمَةٌ، فاذا كان فوق ذلك، قالوا : ألْيَس .

وقال بعض الحكماء : جسمُ الحروب : الشجاعة، وقلبها : التدبير، ولسانها : المكيدة، وجناحها : الطاعة، وقائدها : الرفق، وسائقها : النصر .

قالوا : لما ظفر المهلّب بن أبى صُفرة بالخوارج ، وجّه كعبَ بنَ مَعْدانَ الى الحجّاج ، فسأله عن بنى المهلّب ، فقال : المغيرةُ فارسهم وسيّدهم ، وكفى بيزيد فارسا شجاعا ، وجوادُهم وشيخُهم : قَبيصةُ ، ولا يستحيي الشجاعُ أن يفرّ من مُدرِك ، وعبدُ الملك : سمٌّ ناقعٌ ، وحبيبٌ : موتٌ زعافٌ ، ومحمدٌ : ليثُ غابٍ ، وكفاك بالمفضّل نجدةً ، قال : فكيف خلّفتَ جماعةَ الناس ؟ قال : خلّفتهم بخير ، قد أدركوا ما أملوا ، وأمنوا ما خافوا ، قال : فكيف كان بنو المهلّب فيهم ؟ قال : كانوا حُماة السَّرح نهارا ، فاذا أليلوا ففرسان البيات ، قال : فأيّهم كان أنجدَ ؟ قال : كانوا كالحلْقة المفْرغة ، لا يُدرَى أين طَرَفُها ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوّكم ؟ قال : كنّا اذا أخذنا ، عفونا ، واذا اجتهدوا ، اجتهدنا فيهم ، فقال الحجّاج : (إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) .

وقالوا : أشجعُ بيت قالته العرب قول العباس بن مرداس السلمىّ

أَشُدُّ على الكتيبة لا أُبالى * أحتفى كان فيها أم سواها؟

وقد مدح الشعراءُ الشجاعةَ وأهلَها ، وأوسعوا فى ذلك ، فمن ذلك قول المتنبّى

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشقةٌ له * اذا زارها فدّته بالخيل والرَّجْلِ

وقال أيضا

وكم رجالٍ بلا أرضٍ لكثرتهم * تركتَ جمعَهُمُ أرضًا بلا رجُلِ

ما زال طِرفُك يجرى فى دمائِهمُ * حتى مشى بك مشيَ الشاربِ الثمِلِ

وقال العماد الإصفهانى

قوم إذا لبسوا الحديدَ الى الوغى * لبس الحدَاد عدوُّهم فى المهربِ

المُصدِرون الدُّهمَ عن وِرْدِ الوغى * شُقْرًا تُجلَّلُ بالعَجاج الأشهبِ

وقال أبو الفرج الببغاء

واليومُ من غَسَقِ العَجاجةِ ليـلةٌ * والكرُّ يخـرق سَجْفَها المـمـدودا
وعلى الصِّفاحِ من الكِفاحِ وصِدقِه * رَدْعٌ أحالَ بياضَـها توريدا
والطعنُ يغتصبُ الجيادَ شياتَها * والضربُ يقـدح فى التليل وقودا
وعلى النفوس من الحِـمام طلائعٌ * والخوف ينشُد صبرَها المفقودا ٥
وأجلّ ما عنـد الفوارس حثُّهـا * فى طاعة الهربِ الجيـادَ القُـودا
حتى إذا ما فارق الرأىُ الهـوى * وغدا اليقينُ على الظنون شهيـدا
لم يُغنِ غيرُ أبى شجاعٍ والعلا * عنـه تناجِى النصرَ والتأييـدا

وقال أيضا ورُوى للبحترىّ

مِن كلّ متّسِع الأخلاق مبتسِم * للخطب إن ضاقت الأخلاقُ والحِيلُ ١٠
يسعى به البرق ، إلا أنه فَـرَسٌ * فى صورة المـوتِ إلا أنه رجلُ
يلقَى الرماحَ بصـدرٍ منه ليس له * ظَهـرٌ وهادِى جوادٍ ما له كَفَلُ

وقال البحترىّ

معشر أمسكت حلومُهُمُ الأر * ضَ وكادت لولاهُمُ أن تميدا
فإذا الجـدبُ جاء كانوا غيـوثا * وإذا النقع ثار ثاروا أسـودا ١٥
وكأنَّ الإلهَ قال لهُمُ فى الـ * ـحرب كونوا حجارةً أو حديدا

وقال مُسْلِم

لو أنَّ قوما يخلُقون منيّةً * من بأسهم كانوا بنى جبريلا
قوم إذا حمِى الوطيسُ لديهمُ * جعلوا الجماجمَ للسيوفِ مَقيلَا

وقال آخر

عِقبانُ رَوْعٍ والسروجُ وُكُورها * وليوثُ حربٍ والقنا آجامُ
وبدور تمّ والشوائك فى الوغَى * هالاتُها والسابرىُّ غَمامُ
جادوا بممنوع التلادِ وجوّدوا * ضربا تُحَدُّ به الطُّلا والهامُ
٥ وتجاورت أسيافُهم وجيادُهم * فالأرض تُمطَرُ والسماء تُغامُ

وقال آخر

قوم، شرابُ سيوفِهم ورماحِهم * فى كلّ معتَرَكٍ دمُ الأشرافِ
رجَعتْ إليهم خيلُهم بمعاشرٍ * كلٌّ لكلّ جسيمِ أمرٍ كافِ
يتحنّنون إلى لقاء عدوّهم * كتحنّن الأُلّاف للأُلّاف
١٠ ويباشرون ظُبَا السيوف بأنفسٍ * أمضَى وأقطع من ظُبَا الأسيافِ

وقال ابن حَيّوس

إن تُرِدْ خُبْرَ حالهم عن قريبٍ * فأْتِهم يومَ نائلٍ أو نزالِ
تَلْقَ بيضَ الوجوه سودَ مثار الـ * ـنقع، خُضْرَ الأكناف حُمْرَ النصالِ

ومما قيل فى الصبر والإقدام

١٥ قال الله عزّ وجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنّوا لقاءَ العدوّ وسلوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا من ذكر الله وإن جلبوا وضجّوا فعليكم بالصمت » .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : ربَّ حياةٍ، سببها التعرّض للموت، وربَّ منيّة، سبّبها طلبُ الحياة .

وقالوا : أجمع كلمة قيلت فى الصبر قول بعضهم : الصبر مطيّة النصر .

وقال آخر : الصبر مَطيّةٌ لا تكبو، وإن عَنُفَ عليه الزمان .

وقال آخر : الصبر شَرْيَةٌ(١)، تثمر أرْيَةً(٢) .

وقيل للمهلّب بن أبى صفرة : إنك لتُلقى نفسك فى المهالك، فقــال : إن لم آت الموت مسترسلا، أتانى مستعجلا، إنى لست آتى الموت من حُبِّه، وإنما آتيه من بغضه، وتمثّل بقول الحُصَيْن بن الحمام

تأخّرتُ أستبقى الحياةَ فلم أجدْ * لنفسِى حياةً مثــلَ أن أتقدّما

وهى قصيدة مشهورة منها

فلسنا على الأعقابِ تَدمَى كلومُنا * ولكن على أقدامنا تقطُرُ الدّما

نفلّقُ هامًا من كرامٍ أعزّةٍ * علينا، وهم كانوا أعقّ وأظلمــا

ولما رأينا الصبرَ قد حِيلَ دونه * وإن كان يوما ذا كواكبَ مُظلما

صبرنا، وكان الصــبرُ منا سجيةً * بأسيافنا يقطعنَ كفًّا ومعصما

ولمــا رأيت الودَّ ليس بنافعى * عمدتُ الى الأمر الذى كان أحزما

فلستُ بمبتاعِ الحيــاة بسُــبّةٍ * ولا مرتقٍ من خَشيةِ الموتِ سُلّما

وقالت العرب : الشجاعة وقاية، والجُبْن مَقتلة . وكذلك : إن مَنْ يُقتل مدبرا، أكثر ممن يقتل مقبلا .

وقال أبو بكر الصدّيق رضى الله عنــه لخالد بن الوليــد : آحرِصْ على الموت، توهَبْ لك الحياة .

(١) الشرية : الحنظلة . (٢) الأرية : العسل .

وقالت الحكماء : آستقبال الموت، خير من آستدباره .

وقال العلوى

محرّمةٌ أكفالُ خيلى على القنا * ودامية لبّاتُها ونحورُها

حرامٌ على أرماحنا طعنُ مدبِر * وتندقّ منها فى الصدور صدورُها

٥ وقال أبو تمّام

قلّوا ولكنّهم طابوا فأنجدهم * جيشٌ من الصبر لا يُحصَى له عَدَدُ

اذا رأوا للمنايا عارضًا لبسوا * من اليقين دروعا مالها زَرَدُ

نأوا عن المصْرَع الأدنَى فليس لهم * إلا السيوفَ على أعدائهم مددُ

وما زالت العرب يتمادحون بالموت قَعْصًا ، و يتسابّون بالموت على الفراش،

١٠ و يقولون فيه : مات فلانٌ حتفَ أنفه ،وأوّل من قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومدح أعرابىّ قوما فقال

يقتحمون الحربَ كأنما * يَلقونها بنفوس أعدائهم

وقال عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل أخيه مُصْعَب : إن يُقتلْ فقد قُتِل أخوه وأبوه وعمه، إنا والله لانموت حتفًا ولكن قَعْصًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظِلال

١٥ السيوف. وقال السموءل بن عادياء

وما مات منا سيّد فى فراشه * ولا طُلّ منا حيث كان قتيلُ

تسيل على حدّ الظُّباة نفوسُنا * وليست على غير الظُّباة تسيلُ

وقال أيضا آخر

وإنا لتستحلى المنايا نفوسنا * ونترك أخرى مُرّةً ما نذوقها

(٦٧) وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يوم صفّين، وقد قيل له : أتقاتل أهـل الشام بالغداة، وتظهر بالعشىّ فى إزار ورداء ؟ فقال : أبالموت تخوفونى ؟ فوالله ما أبالى، أسقطت على الموت، أم سقط الموت علىّ؛ وقال لأبنه الحسن: لا تدعونّ أحدا الى المبارزة ، وإنْ دعيت اليهـا فأجب ، فانّ الداعىَ اليهـا باغٍ ، وللباغى مصرعٌ . وقال رضى الله عنه ٥

* بقية السيف أنمى عددا *

يريد أن السيف اذا أسرع فى أهل بيتٍ كثر عددُهم ونَمَى .

وقال آبن عباس رضى الله عنه : عقمت النساء أن تأتى بمثل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ، لعهدى به يومَ صِفّين ، وعلى رأسه عِمامة بيضاء ، وهو يقف على شِرذِمةٍ شرذمة من الناس ، يحضُّهم على القتال، حتى آنتهى الىَّ، وأنا فى كنف من ١٠ الناس، وفى أغيلمة من بنى عبد المطّلب، فقال: يامعشر المسلمين، تجلببوا السكينةَ، وكمّلوا اللأمةَ، وأقلقوا السيوف فى الأغماد، وكافحوا بالظُّبا، وصِلوا السيوف بالخُطا، فإنكم بعين الله، ومع آبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، عاودوا الكرّ، وآستحيوا من الفرّ، فإنه عار فى الأعقاب، ونار فى الحساب، وطيبوا على الحياة أنفسا، وسيروا الى الموت سيرا سُجُحا[(١)]، ودونكم هذا الرواق الأعظم، فاصبروا، فإن الشيطان راكب ١٥ صَعْدَتَه، قدِّموا للوثبة رِجلا ، وأخِّروا للنكوص أخرى ، فصمدًا صمدًا ، حتى يبلغَ الحقُّ أجلَه ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم ؛ ثم صـدَرَ عنا ، وهو يقرأ (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) .

وكان معاوية بن أبى سفيان يتمثل يوم صِفّين بهذه الأبيات

أبتْ لى شيمتى وأبَى بلائى * وأخذى الحمدَ بالثمن الربيحِ ٢٠

(١) السجح بضمتين : اللين السهل .

وإقدامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلّما جشأت لنفسى * مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ * وأحمى بعدُ عن عِرضٍ صحيح

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءة أمير الخوارج

٥ وقولى كلّما جشأت لنفسى * من الأبطال ويحك لا تَرَاعى
فإنك لو سألتِ بقاءَ يومٍ * على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرًا * فما نَيْل الخلود بمستطاع
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حىٍّ * وداعيه لأهل الأرض داعى

وقال عبد الله بن رواحة الأنصارىّ

١٠ يانفس إن لم تُقتلى تموتى * إن تسلمى اليومَ فلا تفوتى
أو تُبتَلِى فطالما عُوفيتِ * هذى حياضُ الموت قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد لَقيتِ * إن تفعلى فعلَهما هُديتِ
* وإن تولّيت فقد شَقيتِ *

يريد بقوله

١٥ * فإن تفعلى فعلهما هُديت *

فعلَ زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكانا قُتلا فى ذلك اليوم بموته . وكان علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، يخرج كلّ يومٍ بصفّين حتى يقف بين الصفين ويُنشد

من أىّ يومىّ من الموتِ أفرّْ * يومُ لا يُقدَرُ أم يومُ قُدِرْ
٢٠ فيومُ لا يُقدَرُ لا أرهبهُ * ثمّ من المقدور لا ينجو الحذِرْ

ومثله قول جرير من قصيدة أولها

هاجَ الفراق لقلبك المهتاج

منها

قل للجبان إذا تأخر سَرجُه * ما أنت من شَرك المنية ناجى

وقالت امرأة من عبد القيس ٥

أبوا أن يَفرُّوا والقنا فى نحورهم * ولم يبتغوا من خشية الموت سُلّما

ولو أنهم فرُّوا لكانوا أعزَّةً * ولكن رأَوا صبرًا على الموت أكرما

وقال حبيب بن أوس الطائى

فأَثبتَ فى مستنقع الموت رِجلَه * وقال لها من تحت أَخمَصك الحشرُ

وقد كان فوتُ الموتِ سهلًا فردَّه * عليه الحِفاظُ المُرُّ والخُلُقُ الوعْرُ ١٠

غدَا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائه * فلم ينصرفْ إلا وأكفانُه الأجْرُ

تردَّى ثيابَ الموتِ حُمْرًا فما أتى * لها الليلُ إلا وَهْىَ من سندس خُضرُ

وقال

قومٌ اذا لبسوا الحديدَ حسبتهم * لم يحسَبوا أن المنيَّة تُخلَقُ

أُنظرْ بحيثُ ترى السيوف لوامعًا * أبدًا وفوق رءوسهم تتألّقُ ١٥

وقال الببغاء

يسعى الى الموت والقنا قِصَدٌ * وخيله بالرءوس تنتعلُ

كأنه واثق بأن له * عُمرًا مُقيما وما له أجل

وقال كعب بن مالك

نَصلُ السيوف اذا قصُرن بخطوِنا * قُدمًا ونلحقُها اذا لم تَلحقِ ٢٠

ومثله لبعض بنى قيس بن ثعلبة

لو كان فى الألف منّا واحد فدعوا * مَنْ فارسٌ ؟ خالهم إياه يعنونا

إذا الكماة تنحّوا أن يُصيبهمُ * حدُّ الظباة وصلناها بأيدينا

ومثله قول الآخر

٥ إذا قصُرتْ أسيافُنا كان وصلُها * خُطانا الى أعدائنا فتقاربُ

ومثله قول ودّاك بن ثُمَيل المازنىّ

مَقاديمُ وصّالون فى الرَّوْع خَطوَهم * بكلّ رقيقِ الشَّفرتين يمانِى

اذا ٱستُنجدوا لم يسألوا مَن دعاهمُ * لأيةِ حربٍ أم بأىّ مكانِ

وقال أبو تمّام فى سعة الخطو

١٠ خَطْوٌ، ترى الصارم الهندىّ منتصرا * به، من المازن الخَطّىّ منتصفا

وقال آخر

كأنّ سيوفَه صِيغت عقودا * تجول على الترائب والنحورِ

وسُمْرَ رماحه جُعلتْ هموما * فما يخطُرنَ إلا فى ضميرِ

(٦٨)

وأجود ما قاله مُحدَثٌ فى الصبر قول ٱبن الرومىّ

١٥ أرى الصبر محمودا وعنه مذاهبٌ * فكيف اذا ما لم يكن عنه مذهبُ؟

هناك يحقّ الصبر، والصبر واجبٌ * وما كان منه كالضرورة أوجبُ

فشدَّ امرؤ بالصبر كفًّا فإنه * له عِصمةٌ، أسبابُها لا تَقَضَّبُ

هو المهربُ المنجى لمن أحدقتْ به * مكارهُ دهرٍ ليس منهنّ مَهرَبُ

لبوسٌ جمالٍ جُنّةٌ من شماتةٍ * شِفاء أسًى يُثنَى به ويُثوَّبُ

فياعجبا للشيء هـــذى خـلاله * وتارك ما فيه من الحظ أعجبُ
وقد يتظنى الناس أنّ أساهمُ * وصبرهمُ فيهـــم طِباعٌ مُركَّبُ
فإنهـما ليسـا كشيء مُصرَّفٍ * يصرّفه ذو نكبة حين يُنكَبُ
فإن شاء أن يأسىٰ أطاع له الأسى * وإن شاء صبرا جاءه الصبر يحلبُ
وليسا كما ظنوهـا بل كلاهـا * لكلّ لبيب مسـتطاعٌ مسبّبُ
يصـــرّفه المختـارُ منـا فتارةً * يُراد فيأتى، أو يُراد فيـذهبُ
اذا احتجّ محتجٌّ على النفس لم تكد * على قدرٍ يُمسَى لهـا تتعتّبُ
وساعدَها الصـبرُ الجميلُ فاقبلتْ * إليهـا له طوعا جنائبُ تُجنَبُ
وإن هو منّاها الأباطيلَ لم تزل * تقاتل بالعتب القضاءَ وتُغلَبُ
فيُضحِى جزوعا إن أصابت مصيبةٌ * ويمسى هلوعا إن تعـذّر مطلَبُ
فلا يعذرنّ التاركُ الصبرَ نفسَـهُ * بأن قيل: إن الصبرَ لا يُتكسّبُ

ذكر ما قيل فى وفور العقل

قال الله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) قال المفسرون: عبّر عن العقل بالقلب، لأنه محلّه وسكنه، وقال تعالى: (وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ)، وقال تعالى: (وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ). وقال تعالى: (هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ).

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أوّل ما خلق الله العقل، قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتى وجلالى، ما خلقتُ خلقا أكرم على منك، بك آخذ، وبك أعطى، وبك أثيب، وبك أعاقب».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى قسم العقل على ثلاثة أقسام، فمن كنّ فيه كمل عقلُه، ومن لم يكن فيه جزء منها، فلا عقل له»، قيل: يا رسول الله، ما أجزاء العقل ؟ قال : حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة لله، وحسن الصبر على أمر الله » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اكتسب رجل مثل فضلِ عقلٍ يَهدى صاحبَه الى هدًى، ويردّه عن ردًى ، وما تمّ إيمان عبدٍ ولا استقام دينُه ، حتى يكمُلَ عقله» .

وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لتميم الدارىّ : ما السؤدد فيكم ؟ قال : العقل، قال : صدقتَ، سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كما سألتُك، فقال كما قلتَ، ثمّ قال : سألت جبريل ما السؤدد ؟ فقال : العقل .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت : يارسول الله، بأى شىء يتفاضل الناسُ فى الدنيا ؟ قال : بالعقل، قلت : وفى الآخرة ؟ قال بالعقل، قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ! فقال : « ياعائشة، وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله تعالى من العقل ، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزَون » .

وعن سعيد بن المسيِّب: أن عمر وأبىّ بن كعب وأبا هُريرة دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يارسول الله، من أعلم الناس؟ قال : العاقل، قالوا : فمن أعبد الناس ؟ قال : العاقل، قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال : العاقل ، قالوا : أليس العاقلُ من ظَهرت مروءتُه ، وظَهرت فصاحته ، وجادتْ كفّه ، وعظُمت منزلته؟ فقال عليه الصلاة والسلام : (وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ) إن العاقل هو التقىّ وإن كان فى الدنيا خسيسا دنيًّا .

وورد فى الأثر : «أن الله تعالى أنزل على آدم عليه السلام العقلَ والدينَ والحياءَ، فاختار العقلَ، فقيل للدين والحياء : آرتفعا، قالا : لا، قال : أفعصيتما أمرَ ربِّكما؟ قالا : ما عصينا أمرَ ربِّنا، ولكنَّا أُمِرنا أن نتبعَ العقلَ حيث كان» .

وقال لقمان لآبنه : إن غايةَ الشرف والسؤدد فى الدنيا والآخرة، حسنُ العقل، لأن العبدَ إذا حسُن عقلُه، غطَّى ذلك عيوبَه، وأصلح مساوِيَهُ، ورضى عنه خالقُه، ٥
وكفى بالمرء عقلا أن يسلمَ الناس من شرِّه .

وقيل : مكتوبٌ فى حكمة آل داود عليه السلام : على العاقل أن يكون عالما بأهل زمانه، مالكا للسانه، مقبلا على شأنه .

وقال بعض الحكماء : كلّ شىء يعز اذا قلّ، والعقل كلّما كان أكثر كان أعز وأغلى، ولو بيع، لما آشتراه إلا العاقلُ لمعرفته بفضله، وأول شرف العقل أنه ١٠
لا يُشتَرى بالمال .

قال أبو عطاء السندىّ

فإن العقلَ ليس له اذا ما * تذكّرتَ الفضائلَ من كفاءِ

وقالوا : العلم قائد، والعقل سائق، والنفس بينهما حرون، فاذا كان قائدٌ بلا سائقٍ هلكتْ، وان كان سائق بلا قائد أخذَتْ يمينا وشمالا، فاذا آجتمعا أجابت طوعا ١٥
أو كُرْها .

ذكر ما قيل فى حدّ العقل وماهيّته وما وصف به

وقد آختلف الحكماء، فى حد العقل، فقيل : حدّه الوقوف عند مقادير الأشياء قولا وفعلا، وقيل : النظر فى العواقب، وقال المتكلمون : هو آسم لعلوم اذا حصلت للإنسان صحّ تكليفُه. وقيل : العاقل من له رقيب على شهواته، وقيل :
٥ هو من عقل نفسه عن المحارم، وقال عمرو بن العاص : أن يَعرِفَ خيرَ الخيرَيْن، وشرّ الشريْن.

قال أبو هلال : ومن العجب أن العرب تمثّلت فى جميع الخصال، بأقوام جعلوهم أعلاما فيها، فضربوا بها المثل اذا أرادوا المبالغة، فقالوا : أحلم من الأحنف، ومن قيس بن عاصم، وأجودُ من حاتم، ومن كعبِ بن مامة، وأشجعُ من بِسطام، وأبْين
١٠ من سَحبان، وأرمَى من آبن تِقْنٍ، وأعلمُ من دَغْفَل، ولم يقولوا : أعقلُ من فلان، فلعلّهم لم يستكملوا عقلَ أحدٍ، على حسب ما قال الأعرابىّ، وقد قيل له : حِدَّ لنا العقلَ، فقال : كيف أحِدُّه ولم أره كاملا فى أحدٍ قطّ.

وقيل لحكيم : ما جماع العقل ؟ فقال : ما رأيته مجتمعا فى أحدٍ فأصفُه، وما لا يوجد كاملا فلا حدّ له.

١٥ وقالوا : لكلّ شىء غاية وحدّ، والعقل لا غاية له ولا حدّ، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار فى الرائحة والطِّيب.

وآختلفوا فى ماهيّة العقل، كما آختلفوا فى حدّه، فقال بعضهم : هو نور وضعه الله تعالى طبعا وغريزةً فى القلب، كالنور فى العين وهو البصرُ، فالعقل نورٌ فى القلب، والبصرُ نورٌ فى العين، وهو ينقص ويزيد، ويذهب ويعود، وكما يُدرَكُ بالبصر شواهدُ

الأمور، كذلك يدرك بالعقل كثيرٌ من المحجوب والمستور؛ وعمى القلب كعمى البصر؛ قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليس الأعمى من عمِيَ بصرُه، ولكن من عَمِيَتْ بصيرتُه» .

وقال عبد الله بن عمر بن معاوية عن عمر بن عُتبةَ المعروف بالعتبيّ : العقل عقلان، عقلٌ تفرّدَ الله تعالى بصنعه، وهو الأصل، وعقلٌ يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع؛ فاذا ٱجتمعا، قوّى كلّ واحدٍ منهما صاحبَه ، تقويةَ النار فى الظُّلمة للبصر .

نظم بعض الشعراء هذا اللفظ فقال، و يروى لعليّ بن أبى طالب رضى الله عنه

رأيتُ العقلَ عقلانِ: * فمطبوعٌ ومسموعُ
ولا ينفع مســموعٌ * اذا لم يك مطبوعُ
كما لا تنفع الشمسُ * وضوءُ العين ممنوعُ

وأكثرُ الناس على أنّ العقلَ فى القلب ، ودليله قوله عز وجلّ : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العقل فى القلب يفرق به بين الحقّ والباطل» .

وقال بعضهم : هو فى الدماغ، و إليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه .

وأما ما وُصف به فقيل : العقلُ وزير رشيد، وظهير سعيد، من عصاه أرداه، ومن أطاعه أنجاه .

وقال سَعيد بن جُبَير : لم ترعيناى أجلّ من فضلِ عقلٍ يتردّى به الرجلُ إن انكسر جَبَره، وإن تصدّع أنعشه ، وإن ذلّ أعزّه . وإن اعوجّ أقامه ، وإن عثر اقاله ، وإن افتقر أغناه، وإن عرِى كساه، وإن غوى أرشده، وإن خاف أمّنه ، وإن حزن أفرحه، وإن تكلّم صدقه، وإن أقام بين أظهرِ قومٍ اغتبطوا به، وإن غاب عنهم أسفوا عليه، وإن بسط يدَه قالوا : جوادٌ، وإن قبضها قالوا : مقتصدٌ، وإن أشار قالوا : عالم، وإن صام قالوا : مجتهد، وإن أفطر قالوا : معذور .

قال بعض الشعراء

يُعَدُّ رفيعُ القوم من كان عاقلا * وإن لم يكن فى قومه بحسيب
وإن حلّ أرضا عاش فيها بعقله * وما عاقلٌ فى بلدةٍ بغـــريب

وقال بعض الحكماء : إذا غلبَ العقلُ الهوى، صرف المساوئَ الى المحاسن، فجعل البلادةَ حِلما، والحدّةَ ذكاءً، والمكرَ فطنةً، والهــذرَ بلاغةً، والعِىَّ صمتًا ، والعقوبةَ أدبا، والجُبنَ حَذَرا، والإسرافَ جُودا .

وقيل : لو صُوِّر العقلُ ، لأضاء معه الليلُ ، ولو صُوِّر الجهلُ ، لأظلم معه النهارُ .

قال المتنبّى

لولا العقولُ لكان أدنَى ضيغمٍ * أدنَى الى شرَفٍ من الإنسان

وقد نُدبَ الى صحبة العقلاء .

قال الزُّهرِىّ : اذا أنكرتَ عقلَك ، فاقدحْه بعاقلٍ . قال ابن زُرارةَ : جالِس العقلاءَ أعداءً كانوا أم أصدقاءً، فإنّ العقلَ يقع على العقل .

قال بعض الشعراء

عدوُّك ذو العقل أبقَى عليكَ * وأبقى من الوامقِ الأحمــقِ

وقال آخر

لله دَرُّ العقل من رائـــدٍ * وصاحبٍ فى اليسر والعسرِ
وحاكمٍ يقضى على غائبٍ * قضيَّةَ الشاهـد للأمرِ
وإنَّ شيئًا بعضُ أحواله * أن يفصلَ الخير من الشرِّ
له قُوًى ، قد خصّه ربُّه * بخالصِ التقديس والطُّهْرِ ٥

وقال آخر

إذا لم يكن للمـرء عقلٌ فإنه * ـ وإن كان ذا قدر على الناس ـ هيِّنٌ
وإن كان ذا عقل أُجِلَّ لعقـله ، * وأفضـلُ عقلٍ عقلُ من يتَبيَّنُ

وقال آخر

العقلُ حُلَّةُ فخرٍ مَن تَسربَلها * كانت له نَسَبا يغنى عن النَّسَبِ ١٠
وأفضل العقل ما فى الناس كلِّهمِ * بالعقل ينجو الفتى من حومة العطبِ

وقال ابن دُرَيد

وأفضلُ قِسمِ الله للمـرء عقلُه * فليس من الخيرات شيءٌ يقاربُهْ
فزينُ الفتى فى الناس صحّةُ عقله * وإن كان محظورا عليه مَكاسبُهْ
ويُزرى به فى الناس قِلَّةُ عقله * وإن كَرُمتْ أعراقُه ومَناسِـبُهْ ١٥
اذا أكمل الرحمن للمرء عقلَه * فقـد كَمُلتْ أخلاقُـه ومآربُهْ

وقال آخر

ما وهب الله لامرئٍ هِبـةً * أشرفَ من عقله ومن أدبِهْ
هما جمال الفتى ، فإن عدمَا * فإنَّ فقـدَ الحيـاة أنفعُ به

وقال آخر

ولم أرَ مثلَ الفقر أوضعَ للفتى * ولم أرَ مثل المال أرفعَ للنَّذلِ

ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ على الفتى * اذا عاش بين الناس من عَدَمِ العقلِ

ذكر ما قيل فى الصدق

٥ قال الله عزّ وجلّ مبشّرا للصادقين : (هَـٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تحرّوا الصدقَ ، فإن الصدقَ يَهدى الى البِرّ، والبِرُّ يَهدى الى الجنة ، وإن المرء ليتحرّى الصدقَ ، حتى يُكتَبَ صِدِّيقا » .

١٠ وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: جاء رجل الى النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : يارسول الله، ما عَمَلُ أهلِ الجنّة؟ قال : الصدق، اذا صدق العبد بَرَّ، واذا بر أَمِنَ ، واذا أَمِنَ دخل الجنّة . قال : يا رسول الله ما عمل أهل النار ؟ قال : الكذب، إذا كذب العبدُ فجر، واذا فجر كفر، واذا كفر دخل النار .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، بمَ يُعرَفُ ١٥ المؤمنُ ؟ قال: بوقاره، ولِينِ كلامه، وصدقِ حديثه. ومن كلام علىّ رضى الله عنه: الإيمان أن تؤثر الصدقَ حيث يضرّك، على الكذب حيث ينفعك .

وقال بعض الحكماء . الصدق أزينُ حلية ، والمعروف أربح تجارة، والشكر أدوم نعمة . وقال بعضهم : رأيت أرسطاطاليس فى المنام، فقلت : أىّ الكلام أحسن ؟

فقال : ما صدق قائله ، قلتُ : ثمّ ماذا؟ قال : ما آستحسنه سامعه ، قلت : ثمّ ماذا؟ قال : كل كلام جاوز هذا فهو ونهيقُ الحمارِ بمنزلة .

وقال الأحنف لآبنه : يا بنيّ ، يكفيك من شرف الصدق ، أن الصادق يُقبَل قولُه فى عدوّه ، ومن دناءة الكذب ، أن الكاذب لا يُقبل قوله فى صديقه ولا عدوّه ، لكلّ شيء حليةٌ ، وحليةُ المنطق الصدقُ يدل على آعتدال وزن العقل .

قال عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ فى وصيّته : إنى وجدتُ صدق الحديث طرفا من الغيب فاصدقوا ، من لزم الصدق وعوّده لسانه ، فلا يكاد يتكلّم بشيء يظنّه ، إلا جاء على ظنّه .

وقالوا : ما السيف الصارم ، فى كفّ الشجاع ، بأعزّ من الصدق .

وقيل : مرّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بعجوز تبيع اللبنَ ، فقال لها : يا عجوز ، لا تغشِّى المسلمين ، ولا تشوبى لبنَك بالماء ، قالت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم مرّ بها بعد ذلك ، فقال يا عجوز ، ألم أعهد إليك أن لا تشوبى لبنَك بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلتُ يا أمير المؤمنين ، فتكلَّمتْ بنتٌ لها من داخل الخباء ، فقالت : ياأمّاه ، أغِشًّا وحِنثًا جمعتِ على نفسك؟ فسمعها عمر فأعجبته ، فقال لولده : أيّكم يتزوّجها؟ فلعلّ الله أن يُخرج منها نَسَمةً طيّبةً ، فقال آبنه عاصم : أنا أتزوّجها ياأمير المؤمنين ، فزوّجها منه ، فأولدها أمَّ عاصم ، تزوّجها عبد العزيز بن مروان فأولدها عمرَ آبن عبد العزيز .

ورُوِىَ أنّ بلالا لم يكذب منذ أسلم ، فبلغ ذلك بعض من يحسده ، فقال : اليوم أُكذبه فسايره ، فقال له : يابلال ما سنُّ فرسك؟ قال عَظْمٌ ، قال : فما جريه؟ قال :

يحضر ما استطاع ، قال : فأين تنزل؟ قال : حيث أضع قدمى ، قال : ابنُ من أنت ؟
قال ابن أبى وأمى ، قال : فكم أتى عليك؟ قال : ليالٍ وأيام ، الله أعلم بعددها .
قال : هيهات ، أعيتْ فيك حيلتى ، ما اتعبُ بعد اليوم أبدا .

ذكر ما قيل فى الوفاء والمحافظة والأمانة

٥ قال الله عزّ وجلّ : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) . وقال تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) . وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) . وقال تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ) .

وروى : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر الصدّيق رضى الله عنه : عليك بصدق الحديث، ووفاء العهد، وحفظ الأمانة، فإنها وصيّة الأنبياء .

١٠ كان أبو العاص بن الربيع بن عبد العُزّى بن عبد شمس ، خَتَن[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنته زينب ، تاجرا تضاربه قريشٌ بأموالهم ، فخرج الى الشام سنة الهجرة ، فلما قدم ، عرَض له المسلمون ، وأسروه ، وأخذوا ما معه ، وقدموا به المدينة ليلا ، فلما وصلوا الفجرَ ، قامت زينب على باب المسجد ، فقالت : يا رسول الله ، قد أجرتُ أبا العاص وما معه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
١٥ قد أجرنا من أجرتِ ودفع اليه ما أخذوه منه ، وعرَض عليه الإسلام ، فأبى ، وخرج الى مكّة ، ودعا قريشا ، فأطعمهم ، ثم دفع اليهم أموالَهم ، ثم قال : هل وفيتُ ؟ قالوا : نعم ، قد أدّيتَ الأمانةَ ووَفَيْتَ ، قال : اشهدوا جميعا ، إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وما منعنى أن أسلم إلا أن يقولوا : أخذ أموالَنا ، ثم هاجر ، فأقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على النكاح ، وتُوفّى فى سنة اثنتى عشرة .

٢٠ (١) الخَتَن : الصهر أو كل مَنْ كان مِن قِبَلِ المرأة كالأب والأخ وجمعه : أختانٌ .

وقيل لمّا قوى أمرُ بنى العباس وظهر، قال مروان بن محمد لعبد الحميد بن يحيى كاتبـه : إنّا نجد فى الكتب، أن هـذا الأمرَ زائل عنا لا محالةَ ، وسيظهر اليك هؤلاء القوم ، يعنى ولد العباس، فصر اليهم، فإنى لأرجو أن تتمكن منهم، فتنفعنى فى مخلفى ، وفى كثير من أمورى، فقال : وكيف لى بعلم الناس جميعا أن هـذا عن رأيك، وكلّهم يقول : إنى غدرت بك، وصرت الى عدوّك ؟ وأنشد ٥

أسرّ وفاءً ثم أُظهرُ غـــدرةً * فمن لى بعُذرٍ يوسِع الناسَ ظاهِرُهْ

ثم قال

ولؤمٌ ظاهرٌ لا شكَّ فيه * للائمةٍ وعذرى بالمغيبِ

فلما سمع مروان ذلك، علم أنه لا يفعل، ثم قال له عبد الحميد: إن الذى أمرتنى به، لأنفعُ الأمرين لك، وأقبحهما بى، ولك علىّ الصبر معك، الى أن يفتح الله عليك، أو أقتلَ معك . ١٠

والعرب تضرب المثل فى الوفاء بالسموءل بن عادياء الأزدىّ، وقيل: إنه من ولد الكاهن بن هارون بن عمران ، وكان من خبره ، أن آمرأ القيس بن حُجْر ، أودعه أدراعا مائة، فأتاه الحارث بن ظالم، ويقال الحارث بن أبى شمر الغسّانىّ ، ليأخذها منه ، فتحصّن منه السموءل ، فأخذ آبنا له غلاما وناداه : إما أن أسلمتَ إلىّ الأدرع ، وإما أن قتلت آبنك ، فأبى أن يسلمها ، فقتل آبنه بالسيف ، ففى ذلك يقول ١٥

وفَيتُ بأدْرُع الكِنْدِىِّ، إنى * اذا ما القومُ قد غَدَروا وفَيتُ

وأوصَى عاديا يوما بأن لا * تُهَـــدِّم ياسموءلُ ما بَنَيتُ

وفيه يقول الأعشى

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به * فى جحفل كسواد الليل جرّار
الأبلق الفرد من تيماء منزله * حصن حصين وجار غير غدّار
قد سامه خطّتى خسف فقال له: * قل ما بدا لك إنى سامع حار
فقال : ثكل وغدر أنت بينهما * فاختر وما فيهما حظّ لمختار ٥
فشك غير طويل ثم قال له : * أقتل أسيرك إنى مانع جارى

ومن وفاء العرب، مافعله هانئ بن مسعود الشّيبانىّ، حتى جرّ ذلك يوم ذى قار، وكان من خبره : أن النعمان بن المنذر لما خاف كسرى ، وعلم أنه لا منجا منه ولا ملجأ، رأى أن يضع يده فى يده، فأودع ماله وأهله عند هانئ، ثم أتى كسرى فقتله، وأرسل الى هانئ يطالبه بوديعة النعمان، وقال له : إن النعمان كان عاملى، ١٠ فابعث الىّ بوديعته، وإلا بعثت اليك بجنود تقتل المقاتلة وتسبى الذّرّية، فبعث اليه هانئ: أن الذى بلغك باطل، وإن يكن الأمر كما قيل، فأنا أحد رجلين، إما رجل استودع أمانة، فهو حقيق أن يردّها على من استودعه إياها، ولن يسلّم الحرّ أمانته، أو رجل مكذوب عليه، وليس ينبغى للملك أن يأخذه بقول عدوّ، فبعث كسرى اليه الجنود، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع العرب ، وبعث معه الكتيبة الشّهباء ١٥ والأساورة[1]، فلما التقوا ، قام هانئ بن مسعود ، وحرّض قومه على القتال ، وجرى بينهم حروب كثيرة ليس هذا موضع ذكرها، وسنذكرها إن شاء الله فى وقائع العرب، (٧٢) فانتصر هانئ وانهزمت الفرس، وكانت وقعة مشهورة، قيل : وكان مرداس فى سجن عبيد الله بن زياد بن أبيه ، فقال له السجّان : أنا أحبّ أن أوليك حسنة ، قال : فإن أذنت لك فى الانصراف الى دارك أفتدلج علىّ؟ قال : نعم، فكان يفعل ذلك به، ٢٠

(١) الأساورة جمع إسوار بالضم والكسر وهو قائد الفرس .

فلما كان ذات يوم، قتل بعضُ الخوارج صاحبَ شرطة آبن زياد، فأمر أن يقتل من فى السجن من الخوارج ، وكان مرداس إذ ذاك خارجا، فقال له أهله : آتق الله فى نفسك ، فإنك مقتول إن رجعت ، فقال : ما كنت لألقى الله غادرا، وهذا جبّار ، ولا آمن أن يقتلَ السجّانَ ، فرجع وقال للسجّان : قد بلغنى ما عزم صاحبك عليه من قتل أصحابنا، فبادرت لئلا يلحقَك منه مكروه، فقال له السجّان : خذ أىّ طريق شئت، فانج بنفسك .

خرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المُهَلَّب الى بعض جبابين[1] الشام، وإذا بامرأة جالسة عند قبر تبكى، فجاء سليمان ينظر اليها، فقال لها يزيد، وقد عجب سليمان من حسنها : يا أَمَةَ الله، هل لك فى أمير المؤمنين؟ فنظرت إليهما، ثم نظرت الى القبر، وقالت

فإن تسألانى عن هواىَ فإنه * بِحَوماء هذا القبرِ يافتيانِ
وإنى لأَستحْييه والتُّربُ بيننا * كما كنتُ أستحييه وهو يرانِى

ومن أحسن الوفاء، ما حكى عن نائلة بنت القرافصة زوج عثمان بن عفّان رضى الله عنه : أن معاوية خطبها فردّته، وقالت : ما يعجب الرجال منّى؟ قالوا : ثناياك، فكَسرتْ ثناياها، وبعثت بها الى معاوية، فكان ذلك مما رغّب قريشا فى نكاح نساء كلب . وآمرأة هُذْبة لما قُتِل زوجها، قَطَعت أنفَها وشفتَيْهَا، وكانت جميلة الوجه، لئلا يرغب فيها .

وحيث ذكرنا الوفاء والمحافظة، فلنذكر بيعة خليفةٍ ويمينٍ، ذكرها بعض أهل الأدب فى تصنيفه، وهى : تبايع عبد الله الإمام أمير المؤمنين، بيعة طوع وإيثار ورضا وآختيار وآعتقاد وإضمار وإعلان وإسرار وإخلاص من طويتك وصدق من نيتك،

(١) الجَبَابين جمع جَبّانة .

وآنشراح من صدرك، وصحة من عزيمتك، طائعا غير مُكْرَه، ومنقادا غير مُجْبَر، مُقِرّا بفضلها، مُذْعِنا بحقها، ومعترفا ببركتها، ومُعْتَدّا بحسن عائدتها، وعالما بما فيها، وفى توكيدها من صلاح الكافّة، وآجتماع كلمة الخاصّة والعامّة، ولمّ الشَّعَث، وأمن العواقب، وسكون الدَّهْمَاء، وعِزّ الأولياء، وقَمْع الأعداء : على أن فلانا عبد الله
٥ وخليفته المفترض عليك طاعته، الواجب على الأمة إمامته وولايته، اللازم لهم القيام بحقه، والوفاء بعهده، لا تَشُكّ فيه، ولا ترتاب به، ولا تُداهِن من أمره، ولا تميل، ولكك ولىّ أوليائه، وعدوّ أعدائه، من خاصّ وعامّ، وقريب وبعيد، وحاضر وغائب، متمسك فى بيعته بوفاء العهد، وذمّة العقد، سريرتك مثل علانيتك، وضميرك فيه وَفْق ظاهرك، على أن إعطاءك هذه البيعة من نفسك، وتوكيدك إياها
١٠ فى عنقك، لفلان أمير المؤمنين، على سلامة من قلبك، وآستقامة من عزمك، وآستمرار من هواك ورأيك، على أن لا تتأوّل عليه فيها، ولا تسعى فى نقض شىء منها، ولا تقعد عن نصرة له فى الرخاء والشدّة، ولا تدع النُّصْح له فى كل حال راهنة وحادثة، حتى تلقى الله مُوفِيا بها، مؤدّيا للأمانة فيها، إذ كان الذين يبايعون وُلَاة الأمر وخلفاء الله فى الأرض (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا
١٥ يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) عليك بهذه البيعة التى طوّقتها عنقك، وبسطت لها يدك، وأعطيتَ ما شُرِط عليك فيها، من وفاء، ونُصْح، ومُوَالاة، ومشايعة، وطاعة، وموافقة، وآجتهاد، ومبالغة ؛ عهد الله إن عهده كان مسئولا، وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام، وعلى من أخذ من عباده من وَكِيدات مواثيقه، ومُحْكَمَات عهوده، وعلى أن تتمسك بها، فلا تُبدل، وتستقيم، فلا تميل، وإن نكثتَ
٢٠ هذه البيعة، وبدّلتَ شرطا من شروطها، أو عفّيتَ رسما من رسومها، أو غيّرتَ

حكما من أحكامها، معلنا أو مسرّا، محتالا اومتأولا، أو زُغْتَ عن السبيل التى يسلكها من لا يحتقر الأمانة، ولا يستحلّ الغدر والخيانة، ولا يستجيز حلّ العقود والعهود، فكلّ ما تملكه من عين أو وَرِق، أو آنيـة أوعقار أو سائمة أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقدة، والأموال المدّخرة، صدقة على المساكين، يحرم عليك أن ترجع شيئا من ذلك الى مالك، بحيلة من الحيل، على وجه من الوجوه، أو سبب من الأسباب، أو مخرج من مخارج الإيمان، فكلّ ما تفيده عمرك من مال يقلّ خطره أو يجلّ فتلك سبيله الى أن تتوفاك [منيتك، أو يأتيك[1] أجلك، وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى أو تملكه الى آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله تعالى، ونساؤك يوم يلزمك الحنْث وما تتزوّج بعدهن مدة بقائك طوالق ثلاثا، طلاق الحَرَج والسنّة لا مثنويّة فيها ولا رجعة، وعليك المشى الى بيت الله الحرام، ثلاثين حجّة حافيا راجلا، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها، ولا يقبل الله صرفا ولا عدلا، وخذلك يوم تحتاج اليه، وبرّأك من حوله وقوّته، وألجأك الى حولك وقوّتك والله عزّ وجلّ بذلك شهيد (وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا) والله على ما نقول وكيل.

ذكر ما قيل فى التواضع

قال الله تبارك وتعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ). وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى: (وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ) قال: هم المتواضعون. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض متواضعا.

(١) الكلام الذى يبتدئ بهـذا المربع ينتهى فى صحيفة ٢٥٠ بمربع مثله وهو ساقط بالأصل ويقع فى صحيفتى (٧٣ و ٧٤) وقد نقلنا من النسخة الراغبية.

وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار، ولقد رأيته يوم حُنَين على حمار، خطامه ليف . وقال صلى الله عليه وسلم : « إن العفو لا يزيد العبد إلا عزّا فاعفُوا يُعزّكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رِفعة فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة ٥ لا تزيد المال إلا نماء فتصدّقوا يزدكم الله » . وقال عروة ابن الزبير: التواضع أحد مصايد الشرف ، وفى لفظ " سلّم الشرف " . وقال جعفر بن محمد : رأس الخير التواضع، فقيل له : وما التواضع ؟ فقال : أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تُسَلِّم على من لَقِيت ، وأن تترك المِرَاء وإن كنت مُحِقًّا .

وعن على رضى الله تعالى عنه ولم يذكر المِرَاء فيه وزاد فيه : وتكره الرياء ١٠ والسمعة . وقيل : ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة، وقيل: التواضع نعمة لا يفطن لها الحاسد ، وقيل : التواضع كالوَهْدة يجتمع فيها قَطرها وقطر غيرها .

وقال عبد الله بن المعتز : متواضِع العلماء أكثرُهم علما ، كما أن المكان المنخفض أكثرُ الاماكن ماءً .

وكان يحيى بن خالد يقول : لست أرى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه ١٥ اكبر مما نال من سلطانه .

ومن التواضع المأثور ما رُوِى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرّ ويدُه على المُعَلَّى بن الجارود فلقيته آمرأة من قريش، فقالت له : يا عمر، فوقف لها، فقالت له : كنّا نعرفك مرّة عُمَيْرا ثم صرتَ بعدَ عُمَيْرٍ عُمَرَ ثم صرت بعد عمرَ أَمِيرَ المؤمنين فاتق الله يابنَ الخطّاب، فانظر فى أمور الناس ، فإنّه من خاف الوعيد ، قرب عليه

البعيد ، ومن خاف الموت ، خشى الفوت ، فقال لها المعلّى ، إيهاً ، إليك يا أَمَةَ الله لقد أبكيتِ أمير المؤمنين ، فقال له عمر أتدرى مَنْ هذه ؟ ويحك ! هذه خَوْلة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ، فعمرُ أحرى أن يسمع قولها ويقتدىَ به . وقال عدىّ بن أَرْطاة لإياس بن معاوية : إنك لسريع المشية ؛ قال : ذلك أبعد من الكِبْر وأسرع الى الحاجة . وقال عمر رضى الله عنه وقد قيل له مثل هذا : أنجح للحاجة وأبعد من الكِبْر . أما سمعت قوله عز وجل ؟ (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) .

وقد مدح الشعراء أهل التواضع ، فمن ذلك قول أبى تمّـام حبيب

مُتَبَذِّلٌ فى القوم وهو مُبَجَّلٌ * متواضع فى الحىّ وهو مُعَظَّمُ

وقال آخر

متواضع والنُّبْلُ يَحْرُس قدرَه * وأخو النباهة بالنباهة يَنْبُــلُ

وقال البحترىّ

دَنَوْتَ تواضعا وعلَوْتَ مجدا * فشأناك ٱنحـدارٌ وٱرتفـاعُ

كذاك الشمسُ تبعدأنْ تُسامَى * ويدنو الضوء منها والشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمىّ

تواضعَ لمـا زاده اللهُ رِفعةً * وكلُّ رفيع قدرُه متواضِـعُ

وقال آخر

دَنوتَ تواضعا وعلوت قدرا * ففيـك تواضـعٌ وعُلُّو شانِ

ذكر ما قيل فى القناعة والنزاهة

جاء فى تفسير قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) أن المراد بالحياة الطيبة : القناعة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القناعة مال لا يَنْفَدُ". وقال عليه السلام : "ما عَالَ مَنِ ٱقْتَصَدَ" . ومن كلام على رضى الله عنه : كفى بالقناعة مُلْكا، وبحسن الخُلُق نعيما .

وقال جعفر بن محمد : ثمرة القناعة الراحة .

وقال على بن موسى : القناعة تجمع الى صيانة النفس، وعز القدرة طَرْح مؤونة الاستكثار والتعبّد لأهل الدنيا ، ولا ملك طريقَ القناعة إلا رجلان، إما متقلِّلٌ يريد أجرَ الآخرة ، أو كريمٌ يتنزّه عن آثام الدنيا .

وقال الراضى: القانع يعيش آمنا مطمئنا مستريحا مريحا، والشَّرِهُ لا يعيش إلا تعِبًا نَصِبًا فى خوف وأذًى .

وقال بعض الحكماء : عزّ النزاهة أحبّ الىّ من فرح الفائدة، والصبر على العسرة أحبّ الىّ من آحتمال المِنّة . وقال أبو ذؤيب الهُذَلىّ

والنفسُ راغبة إذا رغّبتَها * وإذا تُرَدُّ الى قليل تَقْنَعُ

وقال سالم بن وامصة

غِنَى النفسِ ما يكفيك فِى سَدِّ فاقةٍ * فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنَى فَقْرا

وقال أبو هلال العسكرى

أَلَا إنَّ القنــاعة خيرُ مالٍ * لذى كَرَمٍ يروح بغــيرِ مالِ

وإن يصبرْ فإن الصبر أولى * بمَنْ عثرت به نُوَبُ الليـالى
تجمّـلْ إن بُليتَ بسوء حالٍ * فإن من التجملِ حسن حالِ

ذكر ما قيل فى الشكر والثناء

قال الله تبارك وتعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) فالشكر مما يوجب الزيادة .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه : لا يُزَهِّدك فى المعروف من لا يشكرك عليه، فقد يشكرك عليــه من لا يستمتِــع بشىء منه ، وقد يُدرك من شكر الشاكر، أكثر مما أضاع الكافر، (وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

ومما تعزيه الفرس الى إسفنديار: الشكر أفضل من النعمة لأنه يبقى وتلك تفنى .

وقال موسى بن جعفر : المعروف لا يفكّه إلا المكافأة أو الشكر، وقال : قلّة الشكر تُزَهِّد فى ٱصطناع المعروف .

وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة، فليطلْ لسانك بالشكر . وقيل : للشــكر ثلاث منازل : ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد . قال الشاعر

أفادتكما النّعْـــماء منّى ثلاثة * يدى ولسانى والضميرَ المُحَجَّبا

وقال يحيى بن زياد الحارثىّ بن كعب

حلفتُ بربِّ العِيسِ تَهْوِى بِرَكْبِها * الى حَرَمٍ ما عنه للنـاس معـدِلُ
لمـا يبلغ الإنعـام فى النفع غاية * على المرء إلا مبلغ الشـكر أفضـلُ
ولا بلغتْ أيدى المُنيـلينَ بَسْـطةً * من الطُّول إلا بسطةُ الشكر أطولُ

ولا ثقُلَت فى الوزن أعباءُ مِنَّةٍ * على المرء إلا مِنَّةُ الشكر أثقلُ
فمن شكر المعروفَ يوما فقد أتى * أخا العرف من حُسن المكافاة من علُ

وقال رجل من غطفان

الشكر أفضلُ ما حاولتَ ملتَمِسًا * به الزيادةَ عند الله والناسِ

٥ وقال أبو بَجيلةَ

شكرتُك إنّ الشكرَ حَبْلٌ من التُّقى * وما كلّ من أوليتَه نعمةً يقضى
ونَبّهتَ لى ذِكْرى وما كان خامِلًا * ولكنّ بعضَ الذِّكْرِ أنبهُ منْ بعضِ

وقال آخر

سأشكُرُ عَمرًا ما تراخت مَنِيَّتِي * أيادِىَ لم تُمْنَن وإن هِى جَلَّتِ
١٠ فتى غيرِ محجوبِ الغِنى عن صديقه * ولا مُظهِرِ الشكوى إذا النعلُ زَلَّتِ
رأى خَلَّتِي من حيث يَخفَى مكانُها * فكانتْ قَذَى عينيهِ حتَّى تَجَلَّتِ

وقال أبو تمام

كَمْ نِعمةٍ منك تَسَرْبلتُها * كأنها طُرَّةُ بُردٍ قَشِيب
من اللواتى إن ونَى شاكر * قامت لمُسْديها مقامَ الخطيب

١٥ وقال أبو عُيَيْنة بن محمد بن أبى عُتْبة المُهلّبىّ

ياذا اليمينَين قد أوليتَنى مِنَنًا * تَتْرَى هى الغايةُ القُصوى من المِنَنِ
ولستُ أسطيع من شكرٍ أجىءُ به * إلا استطاعةَ ذِى جِسْمٍ وذى بدنِ
لو كنتُ أعرِف فوقَ الشكر منزلةً * أوفى من الشكر عند الله فى الثَّمَنِ
أخلصتُها لك من قلبى مُهَذَّبةً * حَذْوًا على مثل ما أوليتَ من حَسَنِ

قالوا وأجود ما قيــل فى عِظم النعمة وقصور الشكر من قديم الشِّــعر قول طُرَيح بن إسماعيل

سعيتُ ٱبتغاء الشكر فيما صنعتَ لى * فقصّرتُ مغــلوبا وإنّى لشــاكرُ
لأنك تُولِيــنى الجميــلَ بَدَاهــةً * وأنت لمــا ٱستكثرتُ من ذاك حاقرُ
فأَرْجِــع مَغْبوطا وترجِــعُ بالَّتِى * لهـــا أوّلٌ فى المَكرماتِ وآخرُ ٥

وقال دعبِل

هجرتُك لا عن جَفْــوةٍ وملَالَة * ولا لِقِلًى أبطأتُ عنك أَبا بكرِ
ولكنَّنِى لمــا رأيتُــك راغِبًــا * فأفرطتَ فى بِرّى عَجزتُ عن الشكرِ
فمِــلْآن[1] لا آتيــك إلا تعـــذُّرًا * أزوركَ فى الشهرينِ يوما وفى الشهرِ

وقال البحترىّ ١٠

هاتيك أخلاقُ إسماعيل فى تَعبٍ * من العُلَا والعُلَا منهنَّ فى تَعبِ
أبثُّ شكرى فأُمسى منك فى نَصَبٍ * أَقْصِرْ فمالىَ فى جَدواك منْ أَرَبِ
لا أقبلُ الدهرَ نَيْلا لا يقوم له * شكرى ولو كان يُسديه إلىَّ أَبِى
لمــا سألتُــك وافانى نَدَاك على * أضعافِ شكرى فلم أظْفَرْ ولم أَخِبِ

وقال أيضا ١٥

إنى هجرتُك إذ هجرتُك وَحْشةً * لا العَــودُ يذْهبُها ولا الإبداءُ
أخجلتَنِى بِنَدى يَدَيْك فسوّدتْ * ما بيننا تلك اليـــدُ البيضاءُ
وقطعتنِى بالجــود حتّى إنّنِى * مُتَخَوِّفٌ أن لا يكون لِقــاءُ
صِلَةٌ غَدَتْ للناس وَهىَ] قطيعةٌ * عَجَبًا وبِرٌّ راح وهو جَفَــاءُ
ليواصِلَنّك رَكْبُ شِــعرٍ سائرٍ * يرْويهِ فيكَ لحسْــنهِ الاعداءُ

(١) فلآن أى فمن الآن .

حتى يتمّ لك الثناء مخلّدا * أبدا كما تمّت لك النعماء
فتظلّ تحسدك الملوكُ الصّيد بى * وتظلّ تحسدنى بك الشعراءُ

وقال الحسن بن هانئ

قد قلتُ للعباس معتذرًا * من عُظم شكريه ومعترفَا
أنت آمرؤ جلّلتنى نعمًا * أوهتْ قُوَى شكرى فقد ضَعُفَا
لا تُسْدِيَنّ إلىّ عارفةً * حتّى أقومَ بشكرها سَلَفَا

وقال الحسين بن الضحّاك للواثق من أبيات

إذا كنتُ من جدواك فى كلّ نعمةٍ * فلا كنتُ إن لم أَفْنِ عُمْرِى بشكركا

وقال البحترىّ

إذا أنا لم أشكر لنُعماك جاهدًا * فلا نلتُ نُعْمَى بعدها تُوجب الشكرا

وقال عُبَيد الله بن عبد الله بن طاهر

إنى لشاكرُ أمسهُ ووليّهُ * فى يومه ومُؤَمِّلٌ عنه غدَا

وقال آخر

وكيف أنساك ؟ لا نُعْماك واحدة * عندى ولا بالذى أوليتَ من قِدَمِ

وقال عبدُ الأعْلى بن حمّاد : دخلتُ على المتوكّل، فقال لى: قد هممنا أن نصلَك، فتدافعت الأمور، فقلت : يا أمير المؤمنين، قد بلغنى عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال : من لم يشكر للهِمّة، لم يشكر للنعمة، وأنشدته قول الباهلىّ

لأشكرنّك معروفا هممتَ به * إن آهتمامَك بالمعروف معروفُ
ولا ألومُك إن لم يُمضه قَدَرٌ * فالشىءُ بالقَدَر المحتومِ مصروفُ

وقال ابن الرومىّ

كم من يدٍ بيضاءَ قد أسديتَها * تَثْنِى إليـــك عِنَانَ كلِّ وِدَادِ
شَكَر الإلهُ صـــنائعًا أوليتَها * سَلَكَتْ مع الأرواح فى الأجسادِ

وقال آخر

وأحسنُ ما قال امرؤ فيك مِدْحة * تلاقتْ عليهـا مِنّـــةٌ وقَبُولُ
وشكرٌ كأن الشمسَ تعنَى بنشره * ففى كلّ أرض مُخْـبِرٌ ورسولُ

ومن كلام الحسن بن وهب : من شكر لك على درجة رفعتَه اليها ، أو ثروة أفدتَه إيّاها ، فإن شكرى لك على مهْجة أحييتَها ، وحُشَاشة أبقيتَها ، ورَمَق أمسكته ، وقفتَ بين التّلَف و بينه ، ولكل نعمة من نعم الدنيا حدٌّ يُنْتَهى إليه ، ومدًى توقَف عليه ، وغاية من الشكر يسمو اليها الطرْف ، خلا هـذه النعمة التى فاتتِ الوصفَ ، وطالتِ الشكرَ ، وتجاوزتْ كلَّ قَدْر ، وأتت من وراء كلّ غاية ، وردت عنّا كَيْد العدوّ ، وأرغمتْ أنفَ الحسود ، نلجأ منها الى ظِلٍّ ظليل ، وكَنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر ، وأين يبلغُ جهد المجهود .

وقال الشريف الرضىّ

ألبستَنِى نِعَــما عـلى نِعَـمٍ * ورفعتَ لى عَلَمَـا على عَلَمِ
وعلوتَ بى حتّى مشيتُ على * بُسُـطٍ من الأعناق والقِمَمِ
فلأشــكرَنَّ يديك ما شكرت * خُضْرُ الرِّياضِ مَصَانِـعَ الدِّيَمِ
فالحمــدُ يُبْقِى ذِكْرَ كلِّ فتًى * ويُبِينُ قَدْرَ مواقِـعِ الكَرَمِ
والشكر مَهْـرٌ للصنيعة إنْ * طُلِبَتْ مُهُــورُ عقائِلِ النِّعَمِ

وقال أبو الحسن الكاتب المغربى

سأشكر نُعمَاكَ التى آنبسطَتْ بها * يَدِى ولسانِى فهو بالحمد يَنْطِقُ
وأُثنِى بمـا أوليتَنِى من صنيعةٍ * ومن منّـةٍ تَغْـدُو علىّ وتَطْرُقُ
وكلُّ آمرئ يرجو نداكَ مُوفَّقٌ * وكلُّ آمرئ يُثْنِى عليك مُصَدَّقُ

٥ وقال آبن رشيق القيروانى

خُذْ ثَنَاءً عليك غِبَّ الأيادى * كَثَنَاءِ الرُّبَى على الأمطارِ
سَقَطَ الشكر وهو موجب نُعْما * كَ سُقُوطَ الأنواءِ بالأثمـارِ

ومن المُنْعِمين من رأى أن الشكر بإظهار النعمة، أبلغ منه بالنطق باللسان، وعاقب على ذلك بالحِرْمان .

١٠ فمن ذلك مارواه أبو هلال العسكرى بسنده الى العُتْبِى قال: أراد جعفر بن يحيى حاجة كان طريقه إليها على باب الأَصْمَعِى، فدفع الى خادم له كيسا فيه ألف دينار وقال: إنى سأنزل فى رَجْعتى الى الأَصْمَعِى، ثم سيحدثنى ويُضحكنى، فاذا ضحكت، فضع الكِيسَ بين يَدَيْه، فلما رجع، ودخل إليه، رأى حُبًّا[1] مكسورَ الرّأس، وجرّةً مكسورةَ العُنُق، وقَصْعة مشعبة، وجَفْنة أعشارا، ورآه على مُصلًّى بالٍ، وعليه بَرْنَكان[2] أجْرَدُ، فغمز غلامَه أن لا يضعَ الكيسَ بين يديه، فلم يدع الأَصْمَعِى شيئا ممّا ١٥ يُضْحك الثّكلان والغضبان إلا أورده عليه فلم يتبسم، ثمّ خرج، فقال لرجل يسايره: من آسترعى الذئب ظَلَم، ومن زَرَع السَّبخة حصد الفقر، إنى والله لما علمت أن هـذا يكتم المعروف بالفعل، ما حفلتُ بنشره له باللسان، وأين يقع مديح اللسان

(١) الحُبّ: الجَرّة الضخمة . (٢) البَرْنَكَان على وزن زعفران: ضرب من الأكسية .

من آثار العيان؟ إن اللسان قد يكذب ، والحال لا تكذب، ولله در نُصَيب حيث يقول

فعاجُوا فأثنَوْا بالذى أنت أهلُه ✽ ولو سَكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

ثم قال : أعلمت أن ناووس أبرويز، أمدح لأبرويز من زُهَيْر لآل سِنَان ؟

(٧٦) وقالت الحكماء : لسان الحال، أصدق من لسان الشكوى . ٥

وقد أجاد ابن الرومىّ فى هذا المعنى فقال

حالى تَبُوح بما أَوْليتَ من حسَنٍ ✽ فكلُّ ما تدعيــه غـيرُ مردودِ

كلّى هجاء، وقتـلى لا يحـلُّ لكم ✽ فـا يداويكُمُ منّى سوى الجُـودِ

وقالوا : شهادات الأحوال، أعدل من شهادات الرجال .

ذكر ما قيل فى الوَعْد والإنجاز ١٠

رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « وعد المؤمن كأخذٍ باليد » .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : الوعد مرض فى الجود، والإنجاز دواءه .

ومن كلامه : المسئول حُرٌّ حتّى يَعِدَ، ومسترَقٌّ بالوعد حتى يُنْجِزَ .

وقال الزُّهْرِىُّ : حقيق على من أزهر بالوعد، أن يُثمِر بالفعل .

وقال مسلم بن الوليد عن أبيه قال : سألت الفضل بنَ سَهْلٍ حاجة، فقال : أشرِّفك ١٥ اليوم بالوعد، وأحبوك غدا بالإنجاز ، فإنى سمعتُ يحيى بنَ خالد يقول : المواعيد شَبَكة من شِباك الكرام ، يَصيدون بها محامد الأحرار، ولو كان المُعْطى لا يعد، لارتفعتْ مفاخر إنجاز الوعد، ونقص فضلُ صدقِ المقال .

وقال الأَبْرَش الكلبىُّ لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين، لا تصنع إلىّ معروفا حتى تَعِدَنى، فإنه لم يأتنى منك سَيْب على غير وعد ، إلا هان علىّ قَدْرُه ، وقلّ منّى ٢٠

شكره، فقال له هشام : لئن قلتَ ذلك، لقد قال سيّدُ أهلِك أبو مسلم الخَوْلانى : أنجعُ المعروف فى القلوب ، وأبردُه على الأكباد ، معروف منتظَر من وعد لا يُكَدَّر بالمطل .

وكان يحيى بن خالد لا يقضى حاجةً إلا بوعد .

٥ وقالت أعرابيّة لرجل: مالك تعطِى ولا تَعِد، فقال: مالكِ والوعد؟ قالت ينفسِح به البصرُ، وينشر فيه الأملُ، وتطيب بذكره النفسُ ، ويَرْخَى به العيشُ، وتربح به المدحَ بالوفاء .

قيل : كلّم منصور بن زياد يحيى بن خالد فى حاجة لرجل فقال : عِدْه عنّى قضاءَها، قال : وما يدعوك أعزّك الله الى العِدَة مع وجود القُدْرة ؟ فقال يحيى : هذا قول

١٠ من لا يعرف موضع الصنائع من القلوب ، إن الحاجة إن لم تتقدمها بوعد ينتظر به نُجْحها، لم تتجاذب الأنفسُ بسرورها، ولم تتلذذ بتأميلها، وإن الوعد تطعّم، والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام، كمن وجد رائحته ، وتمطّق له وتطعّمه، ثم طَعِمه، فدع الحاجة تختمّ بالوعد، ليكون لها عند المصطنع اليه حسنُ موقع، ولطفُ مَحلّ .

وقال عيسى بن ماهان : إنى أُحِبُّ أن أَهِب بلا وعد، وأُحِبُّ أن أَعِد، لأَخرجَ

١٥ من جملة المخلفين ، وأدخلَ فى عدد الوافين ، ويُؤْثرَ عنّى كرم المُنْجزين ، فإن من سبق فعلُه وعدَه، وُصِف بكرم فرد، وسقط عنه جميع ما ذكرت .

قال ذكر العباس المأمون فقال : إنه أَلْقَحَ معروفه عندى بالوعد، ونتجه بالنُّجْح، وأرضعه بالزيادة ، وشيّبه بالتعهد ، وهرّمه باستتمامه من جهاته ، وهنّأه بترك الامتنان به .

٢٠ (١) هَنَأَهُ : طلاه بالهِناء وهو القَطِران .

وشكا رجلٌ جعفرَ بن يحيى لأبيه: أنه وعده وعدا ومَطَله به، فوقّع: يا بنيّ، أنتم معاقل الأحرار ومَظانّ المطالب ومعادنُ الشكوى، فكونوا سَواءً فى الأقوال والأفعال، فإن الحُرّ، يدّخر وعدَ الحر ويعتقده وينفقه قبل ملكته، فإن أخفق أمله، كان سببا لذمّه واتّهامه وسوءِ ظنّه، حتّى يوارِىَ قُبْحُ ذلك حُسنَ يقينه، فأنجز الوعد، وإلا فأقصِرِ القول، فإنه أعذر والسلام . ٥

قال: كُلِّمَ المأمون فى الحسين بن الضحّاك الخليع أن يردّ عليه رزقَه، فقال: أليس هو القائل فى الأمين

فلا فَرِحَ المأمونُ بالمُلْك بعدَه * ولا زال فى الدُّنيا طَرِيدًا مشردا

فما زالوا يتلطفون معه فى القول، إلى أن أَذِن له أن يُنْشده، فأنشده

أَجِرْ لى فإنى قد ظَمِئْتُ الى الوعدِ * متى تُنجِزِ الوعدَ المؤكَّدَ بالعهدِ؟ ١٠

أُعِيذُكَ من صَدِّ الملوك وقد ترى * تقطُّعَ أنفاسى عليك من الوَجْدِ

فما لى شَفِيعٌ عند حسنك غيره * ولا سببٌ إلا التمسكُ بالوُدِّ

أيبخَلُ فَرْدُ الحُسنِ فرد صفاته * علىّ وقد أفردتُه بهوًى وحدى

رأى اللهُ عبدَ الله خيرَ عباده * فملّكَهُ والله أعلم بالعبدِ

فقال له المأمون: هذه بتلك، وقد عفونا عنك فقال: يا أمير المؤمنين، فأتبع عفوَك إحسانَك، فأمر بردّ أرزاقه عليه، وكانت فى كلّ شهر خمسمائةِ دينارٍ، فقال المأمون: لولا أنى نويتُ عفوا عنه، وجعلت ذلك وعدا له من قبل، ما فعلته، وإنما ذكر الوعد فى تشبيبه يذكّرنيه . ١٥

وقال بعض ملوك العجم: البخل بعد الوعد، يضعفُ قبحه على البخل قبلَه، فما قولك فى أمرٍ، البخل أحسن منه ؟ ٢٠

وقال بعض الشعراء

ولى منـك مَوْعودٌ طلبتُ نجاحه * وأنت آمرؤٌ لا تُخلف الدهرَ مَوْعدَا

تُؤَعوِّدُنى أن لا تزالَ تُظلُّنِى * يدٌ منـك قد قدَّمتَ من قبلها يدَا

فلو أن مجدا أو ندًى أو فضـيلة * تُخَلِّد شيئا كنتَ أنت المخـلَّدَا

٥ وقال بشّار

وعد الكريم يَحُثُّ نائلَه * كالغَيْث يَسْبِق رعدُه مَطَرَهْ

وقال ٱبن الرومىّ

يتخطّى العِداةَ عمدا الى البـذْ * لِ كَسَحِّ الحَيَا بلا إيمـاض

ذكر ما قيل فى الشفاعة

١٠ قال الله عزّ وجلّ : (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له : جعلت لك جاها، فهل نصرتَ به مظلوما، أو قمعتَ به ظالما، أو أعنتَ به مكروبا» ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاهَ له » وقال : « الخلق عيال الله، فأحبّهم اليه ، أنفعُهم لعياله » .

١٥ وقال : « الشفيعُ جَناحُ الطلب » .

وقيل : قصـد ٱبن السمّاك الواعظ رجلا فى حاجةٍ لرجلٍ سأله الشفاعة فيهـا ، فقال ٱبن السمّاك : إنى أتيتك فى حاجةٍ ، وأن الطالب والمطلوبَ اليـه عزيزان إن قُضيتْ الحاجةُ، وذليلان إن لم تُقْضَ ، فٱختر لنفسك عزَّ البذل ، على ذلّ المنع، وٱختر لى عزَّ النُّجح، على ذلّ الردّ، فقضى حاجته .

قال أبو تمـام

واذا آمرؤ أسدى اليك صنيعة * من جاهه فكأنها من ماله

وقال رجل لبعض الملوك : إن الناس يتوسّلون اليك بغيرك، يسألون معروفك، ويشكرون غيرك، وأنا أتوسّل اليك بك، ليكون شكرى لك لا لغيرك .

قال بعض الشعراء

إذا أنتَ لم تَعطفْك إلا شفاعةٌ * فلا خيرَ فى ودّ يكون بشافعِ

ذكر ما قيل فى الآعتذار والآستعطاف

رأيتُ جماعةً من أهل الأدب قد ألحقوا الآعتذار والآستعطاف بالمدح، كالحمدونىّ فى تذكرته، وغيره، فلذلك أضفته اليه، وجعلته من فصوله . قال الله عزّ وجلّ : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) .

ورُوِىَ عن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : « من آعتذر اليه أخوه المسلمُ، فلم يقبلْ، لم يَرِدْ على الحوض » .

وقال علىّ رضى الله عنـه : أَوْلَى الناس بالعفو، أقدرهم على العقوبة . وقال : العفو زكاة الظّفر . وقال : اذا قدرت على عدوّك ، فاجعـل عفوك عنـه شـكر المقدرة عليه .

وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : لا تعاجل الذنبَ بالعقوبة، وآجعل بينهما للآعتذار طريقاً . وقال : أوسعُ ما يكون الكرمُ بالمغفرة، اذا ضاقت بالذنب المعذرة .

وقال جعفر بن محمد الصادق : شفيع المذنب إقراره، وتوبة المجرم الآعتذار .

وقالوا ما أذنب من آعتذر، ولا أسى من آستغفر .

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال : يابنىّ لا يعتذر اليك أحد من الناس ، كائنا من كان، فى أى جرم كان، صادقا كان أو كاذبا، إلا قبلتَ عذره، فكفاك بالاعتذار برًّا من صديقك، وذلًّا من عدوّك .

قال بعض الشعراء

٥ فإن كنت ترجو فى العقوبة راحةً ٭ فلا تزهدنْ عند التجاوز فى الأجْرِ

وقال أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرىّ : الاعتذار ذلّة، ولابدّ منه ، لأن الإصرار على الذنب، فيما بينك وبين خالقك هلكةٌ، وفيما بينك وبين صديقك فُرقةٌ، وعند سائر الناس مثلبةٌ وهُجنةٌ، فعليك به، اذا واقعت الذنب، وقارفت الجرم، وَلا تستنكف من خضوعك وتذلّلك فيه، فربما استثير العزّ من ١٠ تحت الذلة ، واجتُنِيَ الشرف من شجرة النذلة، وربّ محبوبٍ فى مكروه، والمجدُ شهدٌ يُجتَنَى من حنظل .

قال : ومما خُصّ به الاعتذار أنّ الحقّ لا يثبت لباطله ، والحقيقةَ لا تقوم مع تخييله وتمويهه، وأنّ ردّه لا يسعُ مع الكذب اللائح فى صفحاته.. وقالوا : لا عذرَ فى ردّ الاعتذار، والمعتذرُ من الذنب، كمن لا ذنب له ، وهذه خَصلة لا يشركه ١٥ فيها غيرُه .

قال بعضهم : كنت بحضرة عُبيد الله بن سليمان، فوردت عليه رقعة من جعفر ابن ثوابة ، نسختُها : قد فتحتَ للمظلوم بابَك، ورفعتَ عنه حجابَك ، فأنا أحاكم الأيّام الى عدلك ، وأشكو صُروفَها الى فضلك ، وأستجير من لؤم غلَبتها بكرم قدرتِك ، وحسن ملكَتِك، فإنها تؤخّرنى اذا قدّمتُ، وتحرمنى اذا قسّمتْ ، فإن

أعطت أعطت يسيرا، و إن آرتجعتْ آرتجعتْ كثيرا، ولم أشـكُها الى أحد قبلك، ولا أعددت الآنتصاف منها إلا الى فضلك، ولى مع ذمام المسألة لك، وحقّ الظُّلام اليك، ذمامُ تأميلك، وقَدمُ صدقٍ فى طاعتك، والذى يملأ من النَّصَفَة يدى، ويُفرغ الحقَّ علىّ، حتى تكونَ لى محسِنا، وأكونَ بك الى الأيام مقربا، أن تخلطنى بخواصّ خدمك الذين نقلتهم من حدّ الفراغ الى الشغل، ومن الخمول الى النباهة والذِّكْر، فإن رأيتَ أنْ تعـذّبنى فقد آستعديتُ اليك، وتنصُرَنى فقد عذت بك، وتُوسعَ لى كنفَك فقد أويتُ اليه، وتسمَنى بإحسانك فقد عوّلت عليه، وتستعمل يدى ولسانى فيما يصلحان له من خدمتك، فقد درستُ كتبَ أسلافك وهم القدوة فى البيـان، وآستضأتُ بآرائهم، وآقتفوتُ آثارَهم آقتفاءً جعلنى بين وحشىّ الكلام وأنيسـه، ووقفنى منه على جادةٍ متوسطةٍ، يرجع اليها العالى، و يلحق بها المقصّر التالى، فعل إن شاء الله . قال : فعل إن شاء الله ! قال : فجعل عبيد الله يرددها و يستحسنها، ثم قال : هذا أحقّ بديوان الرسائل .

ومن الآستعطاف : ماحكى أن محمد بن الحنفيّة، جرى بينه و بين أخيه الحسين، كلام آفترقا بسببه متغاضبين؛ فلما وصل محمد الى منزله، كتب الى الحسين رقعة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، أبونا علىٌّ، لا أفضلك فيـه ولا تفضلنى، وأمّى آمرأة من بنى حنيفـة ، وأمّك فاطمةُ بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الأرض نساءً مثلَ أمى ما وفين بأمّك، فاذا قرأت رقعتى هـذه فآلبس رداءك ونعليك وتعـال لترضّانى، و إياك أن أسبقك الى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى والسلام . فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء الى محمد وترضّاه .

وقيل : وقّع جعفر بن يحيى فى رقعة معتذرا : قد تقدمتْ طاعتُك ونصيحتُك، فإن ثبت منك هفوة فلن تغلبَ سيئةٌ حسنتين .

وقال شاعر

إرضَ للسائل الخضوعَ وللقا * رف ذنبًا مَذلَّةَ الإعتذارِ

٥ قال أبو هلال العسكرىّ : لم يُروَ عن أحد قبل النابغة الذبيانىّ فى الآعتذار شعر ؛ فمن أجود ما روى له فيه، قوله حين سعى به المنخَّل اليشكُرىّ الى النّعمان، وزعم أنه غشى المتجرّدَة حظيّة النعمان، وذلك حين وصفها النابغة فى شعره فقال

واذا لمستَ، لمستَ أخثمَ جاثمًا * متحيِّزًا بمكانه ملءَ اليدِ

واذا طعنتَ، طعنتَ فى مستهدف * رابى المجسّة بالعبير مقرمَدِ

١٠ واذا نزعتَ، نزعتَ من مستحصِف * نزعَ الحَزَوَّر بالرِّشاء المحصَدِ

فقال المنخَّل للنعمان : هذا وصفُ من ذاقها، فوقَر ذلك فى نفس النعمان، ثم وفد عليه رهط من بنى سعد بن زيد مناة من بنى قُرَيع، فأبلغوه أن النابغة ما يزال يذكرها ويصف منها، فأجمع النعمان على الإيقاع بالنابغة، فعرَّفه بذلك عِصام حاجب النعمان، وهو الذى قيل فيه

١٥ * نفسُ عِصامٍ سوّدتْ عِصاما *

فانطلق النابغة الى آل غسّان وكانوا قتلوا المنذر والد النعمان، فزادهم لحاق النابغة بهم حشمة؛ ثم آتصلت بالنعمان كثرة مدائح النابغة لهم، فحسدهم عليه وأمّنه وراسله فى المصير اليه، فأتاه وجعل يعتذر ممّا قذف به ومن مدحه لآل غسّان فقال

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً * وليس وراء الله للمرء مذهبُ

لئن كنت قد بُلِّغتَ عني جنايةً * لَمبلغُك الواشى أغشُّ وأكذبُ
ولستَ بمستبقٍ أخا لا تَلُمّه * على شعث! أىّ الرجال المهذَّبُ؟
فأن ألك مظلوما، فعبدٌ ظلمتَه * وإن تك ذا عُتبى، فمثلك يعتبُ

يقول: مثلك يعفو ويُحسِنُ وإن كان عاتبا، وفى كرمك ما يفعل ذلك، ولك العتبى والرجوع الى ما تحبّ. ومنه قوله أيضا للنعمان

أتانى أبيتَ اللَّعنَ! أنك لمتنى * وتلك التى تستكُّ منها المسامعُ
مقالةَ أن قد قلتَ سوف أنالُه * وذلك من تلقاء مثلِك رائعُ
فبتُّ كأنّى ساورتنى ضئيلةٌ * من الرُّقشِ فى أنيابها السمُّ ناقعُ
لكلّفتنى ذنبَ آمرئٍ وتركته * كذى العُرِّ يكوى غيرُه وهو راتعُ

الى أن قال

فإن كنتُ لا ذو الضِّغن عنى مكذِّبٌ * ولا حَلِفى على البراءة نافعُ
ولا أنا مأمونٌ بشيء أقوله * وأنت بأمرٍ لا محالة واقعُ
فإنك كالليل الذى هو مدركى * وإن خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

وقال أيضا

أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى * ولا قَرار على زأرٍ من الأسدِ
مهلًا، فداءٌ لك الأقوام كلّهم، * وما أُثمّرُ من مالٍ ومن ولدِ
لا تقذفنّى بركنٍ لا كِفاءَ به * وإن تأثّفكَ[1] الأعداءُ بالرِّفَدِ
ما قلتُ من سيئٍ ممّا أُتيتَ به * اذا فلا رفعتْ سوطى الىّ يدى

قال: فخلع عليه النعمان خِلعَ الرضى، وكَنّ حبراتٍ خُضرا مطرَّقةً بالجوهر.

(١) أى لم تبرح تغريك.

قال العسكرىّ : ولم يسلك أحد طريقته فأحسن فيها كإحسان البحترىّ ، فمن اعتذاراته قوله فى قصيدته التى أوّلها

* لوت بالسلام بنانا خضيبا *

قال منها

فديناك من أىّ خطب عرى * ونائبة أوشكت أن تنوبا
وإن كان رأيك قد حال فىّ * وأوليتنى بعد شرٍّ قطوبا
يريبنىَ الشىءُ تأتى به * وأُكبرُ قدرك أن أستريبا
وأكره أن يتمادى على * سبيلُ اغترار فألقى شعوبا
أكذّب نفسى بأن قد سخطتَ * وما كنتُ أعهد ظنّى كذوبا
ولو لم تكن ساخطا لم أكن * أذمّ الزمان وأشكو الخطوبا
أيصبح وِرْدى فى ساحتيك طَرْقا[1] ومرعاى محْلا جديبا
وما كان سخطك إلا الفراق * أفاض الدموعَ وأشجى القلوبا
ولوكنتُ أعرف ذنبا لما كا * ن خالجنى الشك فى أن أتوبا
سأصبر حتى ألاقى رضا * ك إما بعيدا وإما قريبا
أراقب رأيك حتى يصحّ * وأنظرُ عطفَك حتى يثوبا

وقوله

عذيرِى من الأيّام رنّقن مشربى * ولقّيننى نحسا من الطير أشأما
وأكسبننى سخط امرئٍ بتُّ مَوْهِنا * أرى سخطه ليلا مع الصبح مظلما
تبلّج عن بعض الرضى، وانطوى على * بقيةِ عتبٍ شارفت أن تَصَرّما
اذا قلتُ يوما : قد تجاوز حدَّها * تلبّثَ فى أعقابها وتلوّما
وأصْيد إن نازعتَه الطرف ردّه * قليلا، وإن راجعتَه القول جمجما

(١) الطَّرْق : الماء الذى خوضته الإبل وبولت فيه .

ثناه العدا عنى، فأصبح مُعرِضا * ووهّمـه الواشون حتى توهّما
وقد كان سهلا واضحا فتوعّرت * رباه، وطَلْقا ضاحكا فتجهّما
أمتّخذٌ عندى الإساءة محسنٌ * ومنتقم منى آمرؤ كان مُنعِما
ومكتسبٌ فىّ الملامةَ ماجد * يرى الحمد غُنماً والملامةَ مَغْرما
يخوّفنى من سوء رأيك معشرٌ * ولا خوف إلا أن تجور وتظلما
أعيذك أن أخشاك من غير حادثٍ * تَبيَّنَ، أو جُرمٍ إليك تقدما
ألستُ الموالى فيك نظمَ قصائدٍ * هى الأنجم آقتادت مع الليل أنجما؟
أعِدْ نظرا فيما تسخطْتَ، هل تَرى * مقالا دنيئا أو فَعالا مذمَّما؟
وكان رجائى أن أؤوب مملَّكا * فصار رجائى أن أؤوب مسلّما
حياء فلم يذهب بىَ الغىُّ مذهبًا * بعيدا، ولم أركب من الأمر مُعظَما
ولم أعرف الذنب الذى سؤتنى له * فأقتلَ نفسى حسرةً وتندّما
ولو كان ما خُبّرتَه أو ظننتهُ * لما كان غروا أن ألوم وتكرما
أذكّرك العهدَ الذى ليس سؤددا * تناسيه، والودَّ الصحيح المسلّما
وما حمل الركبان شرقا ومغربا * وأنجد فى أعلى البلاد وأتهما
أُقرّ بما لم أجنه متنصّلا * إليك، على أنى إخالك ألوما
لىَ الذنب معروفا. فإن كنتُ جاهلا * به، فلك العتبى علىّ وأنعما
ومثلك، إن أبدى الفَعال أعاده * وإن صنع المعروف زاد وتمّما

وقال سعيد بن حُميد

لم آت ذنبا، فإن زعمت بأن * أتيت ذنبا، فغير معتمِدِ
قد تطرِفُ الكفُّ عينَ صاحبها * فلا يرى قطعها من الرشد

وقال آخر

وكنتُ اذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسى * ووجهك من ماء البشاشة يقطُر
فمن لىَ بالعين التى كنتَ مرّةً * الىَّ بها فى سالف الدهر تنظرُ؟

وقال آخر

اغتفر زلّتى لتُحرز فضل الـ * ـعفو عنى ولا يفوتك أجرِى
لاتكِلْنى الى التوسّل بالعذ * ر لعلّى أن لا أقوم بعذرى

وقال بعض فضلاء الأندلس

إنى جنيتُ ولم يزل أهلُ النهى * يَهبونُ للجانين ما يجنونَهُ
ولقد جمعتُ من الذنوب فنونها * فاجمع من الصفح الجميل فنونَهُ
من كان يرجو عفوَ مَن هو فوقه * فليعفُ عن ذنب الذى هو دونَهُ

الباب الثانى

من القسم الثالث من الفن الثانى

فى الهجاء، وفيه أربعة عشر فصلا

ما قيل فى الهجاء ومن يستحقّه .

ما قيل فى الحسد .

ما قيل فى السعاية والبغى .

ما قيل فى الغيبة والنميمة .

ما قيل فى البخل واللؤم وأخبار البخلاء وٱحتجاجهم .

٥

ذكر ما قيل فى الهجاء ومن يستحقه

١٠

قال الله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) فهذه رخصة لمن ظلم فى الانتصار .

وقال حسّان بن ثابت الأنصارىّ يردّ على أبى سفيان بن الحارث

١٥

ألا أبلغ أبا سفيان عنى * مغلغلةً[1] فقد برح الخفاءُ
هجوتَ محمدًا، فأجبتُ عنه، * وعند الله فى ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ * فشرّكما لخيركما الفداءُ

(١) يقال : رسالة مغلغلة : أى محمولة من بلد إلى بلد .

لنا فى كلّ يومٍ من معــدّ * سبابٌ أو قتـالٌ أو هجـاءُ

لسانى صارم لا عيب فيه * وبحـرى لا تكدّره الدّلاءُ

فإنّ أبى ووالدتى وعِرضى * لعِـرض محمّدٍ منكم وِقاءُ

ويستحقّ الهجاءَ من آتصف بسوء الخصال، وآتسم بأخلاق الأرذال والأنذال، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره، والبخل وِطاءه ودثاره، وسأذكر جماع ما آتصفوا به من سوء الفعال، وأسّسوا بنيانهم عليه من قبح الخلال .

قال بعض الحكماء : أربعة من علامات اللؤم : إفشاء السرّ، وآعتقـاد الغدر، وغِيبة الأحرار، وإساءة الجوار .

وسأل عبـد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف عن خلقه، فتلكأ عليه وأبى أن يخبره فأقسم عليـه فقال : حسود، كنود، حقود . فقال عبد الملك : ما فى إبليس شرٌّ من هذه الخلال . فبلغ ذلك خالد بن صفوان فقال : لقد آنتحل الشرّ بحذافيره، ومرق من جميع خلال الخير، وتأنّق فى ذمّ نفسه، وتجرّد فى الدلالة على لؤم طبعه، وأفرط فى إقامة الحجّة على كفره، وخرج من الخلال الموجبة رضى ربّه .

قال أبو تمـام

تأنّستْ بذميمِ الفعلِ طلعتُه * تأنُّسَ المقلة الرمداء بالظلَمِ

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أربعة، من كنّ فيه فهو منافق، مَن اذا حدّث كذب، واذا وعد أخلف، واذا عاهد غدر، واذا أؤتمن خان »

وقالوا : اللئيم كذوب الوعد، خؤون العهد، قليل الرفد . وقالوا : اللئيم اذا آستغنى بطر، واذا آفتقر قنط، واذا قال أفحش، واذا سئل بخل، وإن سأل ألحّ، وإن

أُسدِىَ اليه صنيعٌ أخفاه، و إن ٱستُكْتِمَ سرًّا أفشاه، فصديقه منه على حذر، وعدوّه منه على غَرر(١).

و إنَّ للشعراء والبلغاء فى الذّم والهجاء نظما ونثرا سنورد منه طُرَفا، ونشرح ما يجعل ضوء النهار على المقول فيه سَدَفا(٢).

فمن ذلك ما قاله أحمد بن يوسف الكاتب فى بنى سعيد بن مسلم بن قتيبة: محاسنهم مساوئُ السِّفَل، ومساوئهم فضائح الأمم، وألسنتهم معقودة بالعِىّ، وأيديهم معقولة بالبخل، وأعراضهم أعراض الذمّ؛ فهم كما قيل

لا يَكْثُرُون و إن طالتْ حياتهمُ ⁂ ولا تَبِيــد مخازيهم و إن بادوا

وذمّ أعرابى قوما فقال

هم أقلّ الناس ذنوبا الى أعدائهـــم، وأكثرهم تجرؤا على أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويُفطِرون على الفحشاء.

وذمّ أعرابىّ قوما فقال: قوم سُلِخت أقفاؤُهم بالهجاء، ودُبغت جلودُهم باللؤم، فلباسهم فى الدنيا الملامة، وفى الآخرة الندامة.

وكان عيسى بن فرخان شاه يتيــه على أبى العَيْناء حال وزارته، فلمــا صرف عن الوزارة لقى أبا العيناء فى بعض السكك فسلّم عليــه سلاما خفيفا، فقال أبو العيناء لقائده: من هــذا؟ قال: أبو موسى، فدنا منه حتّى أخذ بعنَان بغلته وقال: لقد كنت أقنع بإيمائك دون بَنَانك، وبلحظك دون لفظك، الحمد لله على ما آلت اليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، لقد أصابت فيك النِّقمة؛ ولئن كانت الدنيا أبدت صفحتها بالإقبال عليــك، لقد أظهرت محاســنَها بالإدبار عنك، ولله المنَّــةُ

(١) الغَرَرُ: التعرض للهلكة. (٢) السَّدَفُ: الظلمة.

إذ أغنانا عن الكذب عليك، ونزّهنا عن قول الزور فيك، وقد والله أسأتَ حمل النعمة، وما شكرتَ حقّ المنعم؛ ثم أطلق يده من عِنانه، ورجع الى مكانه فقيل له: يا أبا عبد الله! لقد بالغتَ فى السّبّ؛ فما كان الذنب؟ قال: سألته فى حاجة أقلّ من قيمته، فردّنى عنها بأقبح من خلقته.

٥ قال بعض الأعراب: نزلت بذاك الوادى فإذا ثياب أحرار على أجسام عبيد، إقبال حظهم، إدبار حظ الكرام؛ ألَمَّ بهذا المعنى شاعر فقال

أرى حُلَلًا تُصانُ على رجال * وأعراضًا تُذَالُ ولا تُصانُ

يقولون الزمانُ به فسادٌ * وهم فسدوا وما فَسَد الزمانُ

وسئل بعضُ البلغاء عن رجل فقال: هو صغير القَدْر، قصير الشِّبْر، ضيّق الصدر،

١٠ لئيم النَّجر[1]، عظيم الكِبْر، كثير الفخر.

وذمّ أعرابىّ رجلا فقال: هو عبد البَدَن، حُرّ الثياب، عظيم الرِّواق، صغير الأخلاق، الدهرُ يرفعه، ونفسه تَضَعُه.

وقال آخر: فلان غَثٌّ فى دينه، قَذِر فى دنياه، رَثٌّ فى مُرُوءته، سَمِج فى هيئته، منقطع الى نفسه، راضٍ عن عقله، بخيل بما أنعم الله عليه، كتوم لما آتاه الله من

١٥ فضله، حَلّاف لَجُوج، إن سأل ألحف، وإن وعد أخلف، لا يُنْصِف الأصاغر، ولا يعرف حقّ الأكابر.

وترجم الفتحُ بن عبد الله القَيْسىّ صاحبُ قلائد العِقْيان فى كتابه عن أبى بكر بن ماجة المعروف بابن الصائغ فقال: هو رَمَدُ جَفْن الدِّين، وكَمَدُ نفوس المهتدين، اشتهر سخفا وجنونا، وهجر مَفْرُوضا ومَسْنُونا، فما يتشرع، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا (٨١)

٢٠ (١) النَّجْر: الأصل.

يشرع ، ناهيك به من رجل ما تطهّر من جنابه ، ولا أظهر مخيلةَ إنابه ، ولا آستنجى من حَدَث ، ولا أشجى فؤاده مُوارًى فى جَدَث ، ولا أقرّ ببارئه ومُصوِّره ، ولا فرّع تباريه فى ميدان تهوّره ، الإساءة اليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة أهدَى عنده من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكّر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفَض كتاب الله الحكيم العليم ، ونبذه وراء ظهره ، ثانىَ عِطْفه ، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وآقتصر على الهيئة ، وأنكر أن يكون له عنــد الله تبارك وتعالى فيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، وآجترم على الله اللطيف الخبير ، وآجترأ عند سماع النهى والإيعاد ، وآستهزأ بقوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ) فهو يعتقــد أن الزمان دَوْر ، وأن الإنسان نبات له نَوْر ، حَمامُه تَمــامُه ، وآختلافه فطامه ، قد مُحِى الإيمــان من قلبه فما له فيه رسم ، ونَسِىَ الرحمنَ لسانُه فما يمرّ له عليه آسم ، وآنتمت نفسه للضلال وآنتسبت ، ونفت يوما تُجْزَى فيه كُلُّ نَفْسٍ بما كسبتْ ، فقصر عمرَه على طَرَب ولهو ، وآستشعر كل كِبْر وزهو ، وهو يَعكُفُ على سماع التلاحين ، ويقف عليها كلَّ حين ، يعلن بذلك الآعتقاد ، ولا يؤمن بشىء قادنا الى الله فى أسلس مَقَاد ، مع منشإ وخيم[1] ، ولؤم أصل وخِيم ، وصورةٍ شوّهها الله وقبحها ، وطلعةٍ لو رآها كلبٌ لنبحها ، وقذارةٍ يُؤْذِى البلادَ نفَسُها ، ووضارةٍ يحكى الحداد دنَسَها وفَنَدٍ لا يَعْمُر إلا كنفه ، ولَدَدٍ لا يقوِّم إلا الصِّقَادُ جَنَفه[2] .

وكتب أحمد بن يوسف : أما بعــد فإنى لا أعرف للمعروف طريقا أوعر من طريقه إليك ، لأنه يحصل منك بين حسب دنىء ، ولسان بَذىء ، وجهل قد ملك عليك طِباعَك ، فالمعروف لديك ضائعٌ ، والشكر عندك مهجورٌ ، وإنما غايتك فى المعروف أن تُحوِّره ، وفى وليّه أن تُكفِّرَه .

(١) الخيمُ : السجيّة .	(٢) الجنف : الميل .

ومما قيل فى الهجاء من النظم

فمن ذلك قول جرير وهو أهجى بيت قالته العرب

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك من نُمَيْرٍ * فلا كَعْبًا بلغت ولا كِلَابَا

ولو وُضِعَتْ فِقَاحُ بَنِى نُمَيْرٍ * على خَبَثِ الحَدِيدِ إذًا لَذَابَا

وقال عبد الملك بن مروان يوما لجلسائه : هل تعلمون أهل بيت قيل فيهم شعرٌ ودُّوا أنهم آفتدَوْا منه بأموالهم، وشعرٌ لم يسرّهم به حُمْر النَّعم فقال أسماء بن خارجة : نحن يا أمير المؤمنين ! قال : وما قيل فيكم : قال : قول الحارث بن ظالم

وما قومى بثعلبة بن سعد * ولا بفزارة الشُّعْرِ الرِّقابا

فوالله يا أمير المؤمنين! إنى لأَلْبَسُ العِمَامة الصفيقة فيخيَّل إلىّ أن شعر قفاى قد بدا منها، وقول قيس بن الخطيم

همَمْنا بالإقامة يومَ سِرْنا * مَسير حُذَيْفة الخيرِ بن بدرِ

فما يسرّنا أنّ لنا بها أو بِهِ حُمْرَ النَّعم، فقال هانئ بن قبيصة النُّمَيْرىّ : أولئك نحن يا أمير المؤمنين ! قال : ما قيل فيكم ؟ قال قول جرير

* فَغُضَّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرٍ *

والله لودِدْنا أننا آفتديناه بأملاكنا، وقول زياد الأعجم

لعمرُك ما رِماحُ بنِى نُمَيْرٍ * بطائشةِ الصُّدور ولا قصار

فوالله ما يسرّنا به حُمْر النَّعم

قال العسكرىّ وذكر أن جريرا لما قال

والتَّغلَبِىُّ إذا تَنَحْنَحَ للقِرَى * حَكَّ آسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا .

قال : قلت فيهم بيتا لو طُعِنَ أحدُهم فى أسته لم يَحُكّها ! وقالوا : مرت آمرأة ببنى نُمَير فتغامزوا إليها فقالت : يا بنى نمير ! لم تعملوا بقول الله ولا بقول الشاعر، يقول الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) ويقول الشاعر

* فَغُضَّ الطَّرْفَ إنّكَ مِنْ نُمَيرٍ *

فخجلوا ؛ وكان النُّمَيرىّ إذا قيل له : ممن أنت؟ قال : من نُمَير، فصار يقول : من بنى عامر بن صَعْصَعَةَ .

قال العسكرىّ : ولو قيل إنَّ أهجى بيت قالته العرب قول الفرزدق لم يبعد وهو

ولو تُرْمَى بِلُؤْمِ بَنِى كُلَيْبٍ * نُجُومُ الليلِ ماوضَحتْ لِسارِى

ولو يُرْمَى بِلُؤْمِهِمُ نهار * لدنّس لؤمهم وَضَحَ النَّهارِ

وما يَغْدُو عَزِيزُ بنى كُلَيْبٍ * ليطلبَ حاجةً إلا بجَارِ

ومثله قول الآخر

ولَوْ أَنَّ عَبْدَ القَيْسِ ترمى بلؤمها * على الليل لم تَبْدُ النجومُ لِمَنْ يَسْرِى

وقالوا : أهجى بيت قالته العرب قول الأعشى

تَبِيتون فى المَشْتا مِلاءً بطونكم * وجاراتُكم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصَا

وهذا البيت من أبيات ولها سبب نذكره الآن فى هـذا الموضع وإن كان خارجا عن مكانه وذلك : أنّ عامرَ بنَ الطُّفَيْل بن مالك وعلقمة بن عُلاثَةَ تنازعا الزعامة فقال عامر : أنا أفضل منك ! وهى لعَمّى ولم يمت، وعمّه عامر بن مالك بن جعفر آبن كلاب وكان قد أهتر وسقط، وقال علقمة : أنا أفضل منك ! أنا عفيف، وأنت

عاهر، وأنا وفيٌّ وأنت غادر، وأنا وَلُود وأنت عاقر، وأنا أدنَى الى ربيعة، فتداعيا الى هَرِم بن قُطْنة؛ ليحكم بينهما فرحلا اليه ومع كل واحد منهما ثلثمائة من الإبل، مائة يُطعمها مَنْ تبعه، ومائة يُعْطِيها للحاكم، ومائة تُعقر إذا حكم؛ فأبى هرم بن قُطْنة أن يحكم بينهما مخافةَ الشَّرِّ وأبيا أن يرتحلا؛ فخلا هَرِم بعلقمةَ وقال له : أترجو أن ٥ ينفّرك رجل من العرب على عامرٍ فارسِ مُضَر؛ أندى الناس كفًّا، وأشجعهم لِقَاءً، لَسِنانُ رمح عامر أذكرُ في العرب من الأحوص، وعمّه ملاعب الأسنة، وأمه كبشة بنْت عُروة الرَّحال، وجدَّتُه أم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضَّحْياء، وأمك من النَّخَع، وكانت أمُّه مُهَيْرة، وأمّ عُلاثة أخيذة من النَّخع، ثم خلا بعامر فقال له : أعَلى علقمة تفخر؟ أنت تناوئه؛ أعلى بن عوف بن الأحْوَص؛ أعفّ بني عامر وأيمنهم ١٠ نقيبة، وأحلمهم وأسودهم وأنت أعور عاقر مشئوم! أما كان لك رأى يزعك عن هذا! أكُنتَ تظنّ أن أحدا من العرب يُنفّرك عليه؟ فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قال : أنتما كركبتَي الجمل فتراجعا راضيين .

قال العسكرىّ : والصحيح أنه توارى عنهما ولم يقل شيئا فيهما ولو قال : أنتما كركبتى الجمل لقال كل واحد منهما : أنا اليُمْنَى، فكان الشرّ حاضرا؛ قال وسأله عمر بن ١٥ الخطاب رضى الله عنه بعدذلك بحين : لمن كنتَ حاكما لو حكمت؟ فقال : أعفِنِي يا أمير المؤمنين! فلو قلتها لعادت جَذعةً . فقال عمر : صدقتَ ! مثلُك فلْيَحْكُم .

قال فارتحلوا عن هَرِم لمـا أعياهم نحوَ عُكاظ فلقيهم الأعشى منحدرا من اليمن، وكان لمّـا أرادها قال لعلقمة : اعقد لى حَبْلا فقال : أعقد لك من بنى عامر! قال : لا يغنى عنّى قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا بزائدك، فأتى عامر بن الطفيل ٢٠ فأجاره من أهل السماء والأرض فقيل له : كيف تجيره من أهل السماء؟ قال : إن مات

وَدِيَتُــه ، فقال الأعشى لعامر : أظهِر أنكما حَكَّمْتُمانى ففعل ؛ فقام الأعشى فرفع عَقيرتَه (أى صوته) فى الناس فقال

حَكَّمْتُموه فَقَضَى بينكم * أبلج مثل القَمَرِ الزاهِرِ

لا يأخذ الرِّشوة فى حُكمِه * ولا يبـالى خُسُرَ الخاسِرِ

علقمُ لا لستَ الى عامرِ الـنَّـاقض الأوتار والواتِرِ ٥

واللابِس الخيل بخيلٍ اذا * ثار عَجَاجُ الكَبَّة الثائرِ

إن تسدِ الحوص فلم تعدُهم * وعامِرٌ سادَ بَنِى عامِرِ

ساد وأَلْفَى رهْطَه سادةً * وكابِراً سادُوكَ عن كابِرِ

قال وشدّ القوم فى أعراض الإبل المائة فعقروها وقالوا: نُفِّر عامر، وذهبت بها الغوغاء، وجهد علقمة أن يردّها فلم يقدر على ذلك، فجعل يتهدّد الأعشى فقال ١٠

أتانى وعيد الحوص من آل عامرٍ * فيا عبـد عمرو لو نهيتَ الأحاوِصَا

فما ذنبُنا إن جاش بحر ٱبن عمِّكم * وبحـرك ساجٍ لا يوارى الدَّعامِصَا

كِلا أَبَوَيكم كان فَرْعا دِعامةٍ * ولكنّهم زادوا وأصبحتَ ناقِصًا

تَبيتون فى المشـتا مِلاءً بطونكم * وجاراتُكم غَرْثَى يبِتْنَ خمائصا

يراقِبْنَ من جوعٍ خِلالَ مخافةٍ * نجوم العِشاء العاتمـات الغَوامِصَا ١٥

رمى بكَ فى أُخراهمُ تَرْكُكَ النَّـدَى * وفضّـل أقواما عليـك مراهِصَا

فعضَّ حديدَ الأرضِ إن كنتَ ساخطا * بفيك وأحجارَ الكلاب الرَّواهِصَا

قال فبكى علقمةَ لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه فى العار، والعرب تعيّر بالبكاء؛ قال مهلهل

يَبكِى علينا ولا نَبكِى على أحدٍ * ونحنُ أغلظُ أكبادا من الإبلِ ٢٠

وقال جرير

بكى دَوْبَلٌ لا يُرقئُ اللهُ دَمْعَــه * ألا إنمــا يبكى من الذُّل دَوْبَلُ

قال عبد الملك بن مروان لأمية : مالك وللشاعر إذ يقول

إذا هتف العصفورُ طار فؤادهُ * وليثٌ حديدُ النابِ عند الشدائد

٥ فقال : أصابه حدّ من حدود الله فأقمته عليه قال : فهلّا درأته عنه بالشُّبهات ؟ قال: كان أهون علىّ من أن أُعطِّل حدّا من حدود الله فقال: يابنى أمية ! أحسابكم أحسابكم ،أنسابكم أنسابكم ،لاتعرضوا للفصحاء فإن للشعر مواسمَ لايزيدها الليل والنهار إلا جِدّة، والله مايسرّنى أنى هُجيتُ ببيت الأعشى حيث يقول : تبيتون فى المشتا الخ ولى الدنيا بحذافيرها ولو أن رجلا خرج من عَرَض الدنيا كان قد أخذ عوضا لقول

١٠ ابن حُرْثان

على مكثريهم حقّ من يعتريهمُ * وعنــد المُقِلّين السماحةُ والبذْلُ

وهذا البيت لزهير .

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الحطيئة فى الزِّبْرِقان بن بدر

دَع المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتهـا * واقعُدْ فإنك أنت الطاعِمُ الكاسى

ولهذا الشعر حكاية نذكرها فى أخبار الحطيئة فى البخلاء . وقيل : اتفق جماعة

١٥ من الشعراء على أن أهجى بيت قالته العرب، قول الفرزدق فى جرير

أتم قرارة كلّ معدن سَوْءة * ولكلّ سائلة تسـيل قَرارُ

أخذه أبو تمــام فقال

وكانت زفرة ثم اطمأنت * كذاك لكل سائلة قَرارُ

(٨٣) وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الأخطل لجرير

ما زال فينا رباط الخيل مُعْلمة * وفى كُلَيب رِباطُ اللُّؤمِ والعَارِ
قومٌ إذا آستنبح الأضيافُ كَلْبَهمُ * قالوا لأمهم : بُولى على النَّارِ

قالت بنو تميم : ما هجينا بشيء، هو أشدّ علينا من هذا البيت، وهو يتضمن وجوها شتّى من الذّم : جعلهم بخلاء بالقِرَى ، وجعل أمّهم خادمهم ، يأمرونها بكشف فَرْجها، وجعلهم يبخلون بالماء أن يطفئوا به النار ، وجعل نارهم من قلّتها تطفى ببولة، وأغرى بينهم وبين المجوس؛ لتعظيم المجوس للنار، وإهانتهم لها إلى غير ذلك .

وقالوا أهجى بيت قالته العرب قول الطرمّاح

تميمٌ بِطُرْق اللؤمِ أهدى من القَطَا * ولو سلكتْ طُرْقَ المكارم ضَلَّتِ

وقيل أهجى بيت قالته العرب قول الأعرابىّ

اللـؤمُ أكرمُ من وَبْرٍ ووالدِه * واللؤم أكرم من وَبْر وما وَلَدا
قـوم إذا ما جَنَى جانيهمُ أَمِنُوا * من لؤم أحسابِهم أن يقتَلوا قَوَدَا

وقال مسلم بن الوليد يهجو دِعْبِل الخُزاعىّ

أما الهِجَاء فدقَّ عِرْضُك دُونَه * والمَدْح عنك كما علمتَ جَلِيلُ
فاذهبْ فأنتَ طليقُ عِرْضك إنَّه * عرضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

وكان سبب ذلك أنه كان بخراسان عند الفضل بن سهل، فبلغ دعبل ما هو فيه من الحَظْوَة عنده، فصار إلى مَرْو، وكتب الى الفضل بن سهل

لا تعبأنْ بآبن الوليـد فإنه * يرميك بعـد ثلاثة بمَلالِ
إن المَلُول إذا تقادم عهـدُه * كانت مودّتُه كفَىْء ظلالِ

فدفع الفضـــل الرّقعة إلى مسلم، فلما قرأها قال : هل عرفت لقب دعبل وهو غلام أمرد يُفْسَق به ؟ فقال : لا، قال : كانَ يُلَقَّب بمَيَّاس، وكتب إليه

مياسُ قل لى: أين أنتَ من الورى؟ ٭ لا أنت معـــلوم ولا مجهـــولُ

أما الهجاء الخ، ومنه أخذ إبراهيم بن العباس فقال

٥ فكن كيف شئتَ وقُلْ ماتَشَاء ٭ وأَبْرِق يمينا وأرعِدْ شِمَـالَا

نجا بك لؤمُك مَنْجا الذُّبابِ ٭ حمَتْهُ مَقاذيرُه أن يُنَالَا

وأنشد الجاحظ

ووثقتُ أنَّك لَا تُسَبُّ ٭ حَماكَ لُؤْمُك أَنْ تُنَالَا

وقال الآخر

١٠ بِذِلَّةِ والديْك كُسِيتَ عِــزًّا ٭ وباللؤم ٱجترأتَ على الجوَابِ

وقال آخر

دناءة عِرْضِــك حِصْنٌ مَنيعُ ٭ يقيك إذا ساء مِنــك الصنيعُ

فقــل لعــــدوِّكَ ما تشتهى ٭ فأنتَ المَنيــعُ الرفيعُ الوَضيــعُ

وقال أبو نُوَاس

١٥ ما كانَ لو لم أهجُهُ غالبٌ ٭ قام له هجوى مقامَ الشرفْ

يقول : قد أسرفَ فى هجــونا ٭ وإنما ساد بذاك السَّرفْ

غالبُ، لا تسعَ لتبنى العلا، ٭ بلغتَ مجدا بهجائى، فقِفْ

قد كنتَ مجهــولا ولكننى ٭ نوهتُ بالمجهولِ حتى عُرِفْ

وقال أبو هلال العسكرى

أهنتُ هجائى يابن عُروةَ، فانتحى * علىّ ملام الناس فى البعد والقربِ
وقالوا : أتهجو مثله فى سقوطه؟ * فقلت لهم : جرّبتُ سيفىَ فى كلبِ

وقال ابن لنكك

وعصــبةٍ لمّـا توسّـــطهمْ * صارت علىّ الأرضُ كالخاتَمِ
كأنّهـم من سوء أفهامهـم * لم يخرجوا بعدُ إلى العـالَمِ
يَضحكُ إبليسُ سرورا بهـم * لأنهـــم عارٌ عـــلى آدَمِ

وقالوا أهجى بيت قالهُ محدّث قول الآخر

قَبُحَتْ مَناظِرُهم، فحين خبرتُهم، * حسُنتْ مناظرُهم لقبح المَخْـبرِ

وقال العسكرىّ: ولست أعرف فى الهجاء أبلغَ من قول الأوّل ١٠

إن يفجُروا أو يغدروا * أو يبخـلوا لم يحفِـلوا
وغدوا عليـــك مُرجَّلينَ كأنّهـم لم يفعـلوا!

ومن البليغ قول حسان

أبناء حار، فلن تلقى لهم شبها * إلا التيوسَ على أكتافها الشَّـعَرُ
إن نافروا نُفِروا، أو كاثروا كُثِروا، * أو قامروا الريحَ عن أحسابهم قُمِروا ١٥
كأنّ ريحَهمُ فى الناس إن خرجوا * ريحُ الكلاب إذا ما مسَّها المطرُ

وقال أيضا

أبوك أبو سوء وخالُك مثــلُه * ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالِكا
وإن أحقَّ الناس أن لا تلومَه * على اللؤم من ألفى أباه كذلكا

وقال الآخر

سلِ اللهَ ذا المنّ من فضله * ولا تسألنّ أبا وائله

فما سأل اللهَ عبدٌ له * فخاب ولو كان من باهله

وقال آخر

٥ ولو قيل للكلب : ياباهليّ * لأعولَ من قُبْح هذا النسبْ!

وقال زياد : ما هُجيتُ ببيتٍ قطّ أشدّ عليّ من قول الشاعر

فكّرْ، ففى ذاك إن فكّرتَ معتبر * هل نلتَ مكرُمةً إلا بتأمير

عاشت سُميّةُ ما عاشت وما علمت * أن ٱبنها من قريش فى الجماهير

وقال إبراهيم بن العباس

١٠ ولما رأيتك لا فاسقا * تُهابُ ولا أنت بالزاهد

وليس عدوّك بالمتّقى * وليس صديقك بالحامد

أتيتُ بك السوقَ سوقَ الهوان * فناديت : هل فيك من زائد؟

على رجلٍ غادر بالصديق * كفورٍ لنعمائه جاحد

فما جاءنى رجُلٌ واحد * يزيد على دِرهم واحد

١٥ سوى رجُلٍ حان منه الشقاء * وحلّت به دعوة الوالد

فبعتُك منه بلا شاهد * مخافةَ ردِّك بالشاهد

وأبتُ الى منزلى سالما * وحلّ البلاء على الناقد

وقال العسكرىّ

إن كان شكلُك غيرَ متّفِق * فكذا خلالك غير مؤتلفه

٢٠ صُوّرتَ من نُطَف قد ٱختلفتْ * فأتت خلالُك وهى مختلفَهْ

من عصبةٍ شتّى اذا اجتمعوا * شبّهتُ داركم بهـم عرقَهْ
فورثتَ من ذا قُبْحَ مَنظَرِه * وورثتَ ذاك خناه أو صلفَهْ

(٨٤)

وقال الحسن بن مطران شاعر اليتيمة

كم غُصتُ فى مدحك فكرا على * درٍّ نفيس غــيرِ مثقــوبِ
ولم يغصْ رأيُك يوما عــلى * برٍّ، ولا رأىٌ لمكــذوبِ
إن كان موعودك فى الجود لى * أَكذب من موعودِ عُرقوبِ
فإنّ أخبـارك فى مدحتى * أكذبُ من ذئب ابن يعقوبِ

وقال أحمد بن محمد بن حامد شاعر الخريدة

بُليت بقومٍ ما لهم فى العـلا يدٌ * ولا قدمٌ تسعى لبذل الصـنائع
اذا نظَرتْ عينى اليهم تنجّستْ * برؤيتهـم طهّرتُهـا بالمـدامع

وقال المتنبّى.

إن أوحشتك المعالى * فإنهـا دار غُربَـهْ
أو آنستك المخازى * فإنهـا بك أشــبَهْ

وقال أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحجّاج

ولقـد عهـدتك تشـتهى * قربى، وتستدعى حضورى
وأرى الجفـا بعـد الوفا * مثل الفُسـا بعـد البخورِ
يا خرْية العــدس الصحـــيح النِّيء والخـبزِ الفطيرِ
فى جوف منحلّ الطبيـــعة والقُوَى شيخٍ كـبيرِ
يخرَى فيخرجُ سُــرمُه * شِبرينْ من وجعِ الزحيرِ
يا قَســوةً بعـــد العَشـا * بالبَيْض واللبنِ الكثيرِ

وفطائرٍ عُجنتْ بلا الـ * ـمِلح الجريش ولا الخمير
يا نَتْنَ رائحةِ الطبيـ * ـخ إذا تغيّر فى القدورِ
يا عُشّ بيض القمْل فـ * ـرَّخَ فى السوالف والشعورِ
يا بَولَ صبيانِ الفِطا * مِ ويا خراهم فى الحجورِ
٥ يا بعض تدخين الحشا * فى الصوم من تُخَم السّحورِ
يا حَرّ قُولَنج البطـو * ن وبردَ أعصابِ الظهورِ
يا ذِلّة المظلوم أصـ * ـبح وهو معدومُ النصيرِ
يا سوءَ عاقبة التفـ * ـقُّد عند تشبيه الأمور
يا كلَّ شىء مُتعِبٍ * متعقِّدٍ صعبٍ عسيرِ
١٠ يا حَيْرَةَ الشيخ الأصـ * ـمّ، وحسرةَ الحَدَث الضريرِ
يا قعدةً فى دِجلَةَ * والريحُ تلعبُ بالجسورِ
يا قرحةَ السلّ التى * هدّتْ شراسيفَ الصدورِ
يا أربعاء لا تـدو * ر به مخافاتُ الشهورِ
يا هدّة الحيطان تُنـ * ـقَضُ بالمعاوِلِ والمُرورِ
١٥ يا قَرحةً فى ناظرٍ * غلطوا عليها بالذّرورِ
فتسلّختْ مع ما يليـ * ـها فى الجفون من البُثورِ
يا خيبةَ الأمل الذى * أمسَى يعُلِّل بالغرورِ
يا غُلمةَ المتخدّرا * تِ وراء أبواب القُصورِ
يا وحشةَ الموتَى إذا * صاروا إلى ظُلَم القبورِ
٢٠ يا ضجرةَ المحموم بالـ * ـغدَواتِ من ماء الشعيرِ

يا شـؤمَ إقبـالِ الشـتا * ءِ أضرَّ بالشـيخ الفقـيرِ
يا دولةَ الحُسْنِ التى * خُسِفَتْ بأيّام السّـرورِ
يا ضَجّـةَ الضَّجِرِ المصـدَّع بالتنازُع والشّـرورِ
يا عـثرَةَ القـلم المرشَّـش بين أثناءِ السطور
يا ليـلةَ العُريانِ غِبَّ عشـيّةِ اليومِ المَطـيرِ ٥
يا نومـةً فى شمس آ * بَ على الترابِ بلا حَصيرِ
يا لجاةَ المكروهِ فى الشـيوم العبوس القَمطريرِ
يا نهمةَ الكَلْبِ الرضيـع ونَكهةَ الليثِ الهصـور
يا عيشَ عانٍ موثَقٍ * فى القَيْـد مغلولٍ أسـيرِ
يا حِـدّة الرَّمَد الذى * لا يستفيقُ من القُطورِ ١٠
يا عِيشةَ الكَنّاس من * شَـمِّ الذرائرِ والعبـيرِ
يا حَيْرة العطشانِ وقـتَ الظُّهر فى وسَـط الهبيرِ
من لى بأن تلقاك خيـلُ بنى كلاب بلا خفـيرِ
وأرى بعينى لحمَك المطبـوخَ فى حَـرّ الهجـيرِ
فى الأرض مابين السبا * ع وفى السما بين النُّسورِ ١٥

وقال المتنبّى

يمشى بأربعـة على أعقـابه * تحت العلوج ومن وراء يُلجمُ
وجفونه ما تسـتقر كأنها * مطروفةٌ أو فُتَّ فيها حِصرِمُ
وتراه أصـغر ما تراهُ ناطـقا * ويكونُ أكذبَ مايكونُ ويُقسمُ

وإذا أشار مكلِّمًا فكأنه * قِردٌ يُقهقِهُ أو عجوزٌ تَلطِمُ
يَقلَى مُفارقةَ الأكفِّ قَذالُه * حتى يكادَ على يدٍ يتعمَّمُ

ومما يذمّ به الرجل أن يكون ثقيلا، فأبلغ ما قيل فى ذلك قول بعضهم

وثقيل أشدّ من غَصَص المو * ت ومن زَفْرة العذابِ الأليمِ
لو عَصَتْ ربَّها الجحيمُ لما كا * ن سِواه عقوبةً للجحيمِ

وأبلغ ما قيل فى هذا المعنى قول بشّار

ولقد قلتُ حينَ وَتَّدَ فى الأر * ض ثقيلٌ اربَى على ثَهْلانِ
كيف لم تَحمِلِ الأمانةَ أرضٌ * حَمَلت فوقَها أبا سُفْيانِ

ومما هجى به أهلُ الوقت على الإطلاق. فمن ذلك قول أبى هلال العسكرىّ

كم حاجةٍ أنزلتُها * بكريم قومٍ أو لئيمِ
فإذا الكريمُ من اللئيـ * ـم أو اللئيمُ من الكريمِ
سبحانَ ربٍّ قادرٍ * قَدَّ البريّةَ من أديمِ
فشريفُهم ووضيعُهم * سِيّان فى سَفَهٍ ولؤمِ
قد قلَّ خيرُ غنيِّهم * فغنيُّهم مثلُ العديمِ
وإذا اختبرتَ حميدَهم * ألفيتَه مثلَ الذميمِ

* * *

وممـا قيل فى هجاء بعض العشـيرة ومدح بعضهم ، فمن ذلك قول أبى عُيينة ليهجوَ خالدَ بنَ يزيد المُهلّبىّ ويمدحُ أباه

أبوك لنا غَيْثٌ نعيشُ بفضلِه ⁂ وأنت جَرادٌ ليس يُبْــقى ولا يَذَرْ
له أثَرٌ فى المَكْرُماتِ يَسرُّنا ⁂ وأنت تُعَـفِّى دائبًا ذلك الأثَرْ
لقــد قُنّعتْ قحطانُ خِزْيًا بخالدٍ ⁂ فهل لك فيه يُخْزِكَ اللهُ يا مُضَرْ ؟

وله فى قَبِيصة بن رُوح ، يُفَضِّل عليه ٱبنَ عَمِّه داودَ بنَ يزيد بن حاتم

أَقَبِيصُ لستَ وإن جهدتَ ببالغ ⁂ سَعْىَ ٱبنِ عمِّكَ ذى النَّدى داودِ
شتَّان بينـك ياقبيصُ وبينَــهُ ⁂ إنّ المُذَمَّمَ ليس كالمحمودِ
داودُ محمــودٌ وأنت مُــذَمَّمٌ ⁂ عَجَبًا لذاك وأنتمـا من عُــودِ
ولرُبَّ عُودٍ قد يُشَقّ لمسـجدٍ ⁂ نصفًا وسائرُه لحشِّ يَهُــودِى

وقال حسّان فى أبى سُفْيان بن الحارث

أبوكَ أبٌ حُرٌّ وأمُّــك حُرّةٌ ⁂ وقد يَلِدُ الحُـرّانِ غيرَ نجيبِ
فلا تعجبنّ الناسُ منك ومنهما ⁂ فما خَبَثٌ من فِضّةٍ بعجيبِ

ذكر ما قيل فى الحسد

وممـا يذمّ به الرجلُ ، أن يكون حسودا ، وقد أمر الله تعالى نبيّه عليـه الصلاة والسلام ، أن يتعوّذ من شرّ الحاسد إذا حَسَد

قال ٱبن السمّاك

أنزل الله تعالى سورة جعلها عُوذةً لخلقه من صنوف الشرّ، فلما انتهى الى الحسد، جعله خاتمها إذْ لم يكن بعده فى الشرّ نهاية. والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله تعالى به فى السماء، وأوّل ذنب عُصِىَ به فى الأرض، أما فى السماء، فحسد إبليسَ لآدمَ، وأما فى الأرض، فحسد قابيلَ لهابيلَ. وذهب بعضُ أهل التفسير فى قوله عزّ وجلّ إخبارا عن أهل النار (رَبَّنَا أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ) أن المراد بالجنّ إبليس، و بالإنس قابيل، وذلك أن إبليسَ أوّلُ من سَنّ الكفرَ، وقابيلَ أوّلُ من سَنّ القتلَ، وأصل ذلك كلّه الحسدُ.

وقال عبد الله بن مسعود : لا تُعادُوا نِعَمَ الله، فقيل له : ومن يُعادى نِعَمَ الله؟ قال : الذين يَحْسُدُون الناسَ على ما آتاهم الله مِن فَضْلِه، يقول الله تعالى فى بعض الكتب : الحَسُودُ عدوُّ نِعْمتى، مسخِط لقضائى، غيرُ راض بقسمتى.

وقالت الحكماء : إذا أراد الله، أن يُسَلِّطَ على عبد عدوًّا لا يرحمه، سلّط عليه حاسدا.

وكان يقال فى الدعاء على الرجل : طلبك من لا يقصّر دون الظّفر، وحسدك من لا ينام دون الشّفاء.

وقالوا : ما ظنُّك بعداوة الحاسد، وهو يرى زوالَ نعمتك نعمةً عليه؟

قال أبو الطيب المتنبىّ

سوى وجع الحساد داءٍ فإنه ⁂ إذا حَلّ فى قلبٍ فليس يَحُولُ
ولا تطمعَنْ مِن حاسدٍ فى مَوَدَّةٍ ⁂ وإن كنتَ تُبديها له وتُنيلُ

وقال البَبَّغاءُ

ومن البلية أن تُداوىَ حِقْدَ مَنْ * نِعَمُ الاله عليك من أحقادِه

وقال علىّ رضى الله عنه

لا راحةَ لحَسُود، ولا أخ لِمَلُول، ولا مُحِبَّ لسيءِ الخُلُق .

وقال الحسن

ما رأيت ظالمـا أشبهَ بمظلوم من حاسد؛ نَفَس دائم، وحزن لازم، وغَبْرة لا تنفد، ثم قال : لله دَرُّ الحسد ما أعدله ! يقتل الحاسـد قبل أن يَصِلَ الى المحسود .

وقال الجاحظ : من العدل المَحْض، والإنصاف الصحيح، أن تَحُطَّ عن الحاسد نِصفَ عِقابه، لأنّ ألَمَ جسمه، قد كفاك مَئُونَة شطر غيظك عليه .

وقيل : الحسد أن تَمَنّى زوال نعمةِ غيرك، والغبطة أن تَمنّى مثلَ حالِ صاحِبك، وفى الحديث : « المُؤْمِنُ يَغْبِطُ ، والمنافق يَحْسُدُ » .

وقال أرسطاطاليس : الحســد حسدان : محمود، ومذموم، فالمحمود أن ترى عالمـا فتشتهى أن تكون مثله، وزاهدا فتشتهى مثل فعله، والمذموم أن ترى عالمـا وفاضلا فتشتهى أن يموتا . وقيـل : الحسود غضبان على القَدَر، والقدر لا يَعْتبه .

قال منصور الفقيه

ألا قُلْ لمن كان لى حاســدا * أتدرى على من أسأتَ الأدبْ؟

أسأتَ على الله فى فضــله * إذا أنتَ لم تَرْضَ ما قـدْ وَهَبْ

وقال المتنبّى

وأظلم أهلِ الأرض من بات حاسدا * لمن بات فى نَعمائه يتقلّبُ

ومن أخبار الحَسَدة : ما حكى ، أنه آجتمع ثلاثة نفر منهم ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال : ما آشتهيتُ أن أفعل بأحد خيرا قطّ ؛ فقال الثانى : أنت رجل صالح، أنا ما آشتهيت أن يفعل أحد بأحد خيرا قطّ ، فقال الثالث : ما فى الأرض أفضل منكما، أنا ما آشتهيت أن يفعل بى أحد خيرا قط .

* * *

ومما قيل من الشعر فى تفضيل المحسود ومدحه ، وهجاء الحاسد وذمّه .

قال بعض الشعراء

إن يحسُدونى فإنى غيرُ لائمهم * قبلى من الناس أهلَ الفضل قد حَسدوا

فدام لى ولهم ما بى وما بهم * ومات أكثرنا غَمًّا بما يَجِدُ

وقال آخر

إن الغرابَ وكان يمشى مِشْيةً * فيما مضى من سالف الاحوالِ

حسَد القَطاةَ ورامَ يمْشِى مشيَها * فأصابه ضَرْب من العقَّالِ

وقال آخر

حَسَدوا الفتَى إذْ لم ينالُوا سعْيَه * فالقومُ أعداءٌ له وخُصُومُ

كضرائرِ الحَسْناء قُلْن لوجهِها * حَسَدًا وبَغْيًا إنّه لدَميمُ

وقال البُحترىّ

لا تحسُدوه فَضْلَ رُتْبَته التى * أَعْيتْ عليكم وآفعلوا كفعَالِه

وقال السَّرىّ الرفَّاء

نالتْ يدَاه أقاصِىَ المجْـدِ الّذى * بَسَط الحسود إليه باعا ضَيِّقا

أَعَدُوُّهُ هــل للسِّماك جَرِيرةٌ * فى أَنْ دَنوتَ من الحَضيض وحلَّقَا؟

أم هل لِمَنْ ملأَ اليدَيْنِ من العُلَا * ذَنْبٌ إذا ما كنتَ منها مُمْلِقَا؟

وقال أبو تمـام الطائىّ

وإذا أراد الله نَشْرَ فضــيلةٍ * يوما أتاح لهـا لِسانَ حَسـودِ

لولا آشتعالُ النارِ فيما جاورتْ * ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال البُحترىّ

ولن يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعُ نِعمةٍ * إذا أنْتَ لم تُدْلَلْ عليها بحاسـدِ

وقال محمد بن مُناذِر

يا أيُّهـا العاتبى وما بِيَ مِنْ * عَتْبٍ ألا تَرْعَوِى وتَزْدَجِرُ!

هل لك عنــدى وِتْرٌ فتطلبُهُ * أم أنت ممّـا أتيتَ مُعتذِرُ؟

إن يك قِسْمُ الإلٰهِ فَضَّلنِى * وأنت صَلْدٌ ما فيـك مُعتَصَرُ

فالحمـد والشـكر والثناء له * وللحسـود التُّرابُ والحَجَــرُ

ما ذا الذى يجتنى جليسُكَ أو * يبدو له منك حين يختــبِرُ

اِقـرأْ لنـا ســورةً تُذكِّرُنا * فإن خيرَ المواعظِ السُّــوَرْ

أوْصِفْ لنا الحُكْمَ فى فرائضنا * ما تستحقّ الأُنثى أو الذَّكَرُ

أو آرْوِ فقهًا تُروَى القلوبُ به * جاء به عن نبيِّنا الأَثَرْ

أو من أحاديثِ جاهليّتِنا * فإنهـا حكمـةٌ ومفتخَــرُ

أو آرْوِ عن فارسٍ لنا مَثَلًا * فإن أمثالهـا لنـا عِبَرْ

أو غَنِّ صوتًا تُشجِى النفوسَ به * وذَنْبُ ما قـد أتيتَ مُغتفَرُ

فإن تكنْ قد جَهِلتَ ذاك وذا * فَفِيكَ للناظرين مُعتَــبَرُ

ذكر ما قيل فى السّعاية والبغْى والغيبة والنّميمة

قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) . وقال تعالى : (ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ) . وقال تعالى : (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفعن إلينا عورة أخيه المؤمن » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يُرَاحُ القَتَّاتُ رائحة الجَنَّة » . وفى لفظ « لا يدخل الجنّة قتّاتٌ » ؛ والقتّاتُ : النمّام .

قال بعض الشعراء

فلا تسعَى على أحد ببَغْيٍ . فان البَغْيَ مَصْرَعُه وَخِيمُ

وقال العتّابىّ

بَغَيتَ فلم تَقَع إلا صَرِيعًا . كذاك البغىُ مصرعُ كلِّ باغِى

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ. فقال لأصحابه : إذا شئتُم، فقاموا، فلما تهيّأ الرجل للكلام، قال له : إياك أن تمدحنى فإنى أعلم بنفسى منك، أو تكذبنى، فإنه لا رأى لِكَذُوب، أو تسعى إلىّ بأحد، وإن شئتَ أقلتُك، قال : أقلنى .

قال : ولما وَلِى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دِمَشْقَ، ولم يكن فى بنى أُميّة ألبُّ منه فى حداثة سنّه، قال أهل دمشق : هذا غلام شابٌّ، ولا علم له بالأمور، وسيسمع منا، فقام إليه رجل، فقال : أصلح الله الأميرَ، عندى نصيحةٌ، فقال له : ياليتَ شعرى . ما هذه النصيحةُ التى ابتدأتنى بها من غير يدٍ سبقتْ منّى إليك ؟ فقال : جارٌ لى عاصٍ، متخلّف عن ثَغْره ، فقال له : ما اتقيتَ الله ، ولا أكرمتَ أميرَك ، ولا حفظت جِوارَك ، إن شئتَ ، نظرْنا فيما تقول ، فإن كنتَ صادقا ؛

لم ينفعك ذلك عندنا ، و إن كنتَ كاذبا ، عاقبناك ، و إن شئتَ ، أقلناك ، قال : أقلني ، قال : آذهب حيث شئتَ ، لا صَحِبك الله ، ثم قال : يا أهلَ دِمَشْق ، ماأعظَمتم ما جاء به الفاسقُ ، إن السِّعاية أحْسَبُ منـه سجيّةً ، ولولا أنه لا ينبغي للوالى أن يعاقِبَ ، قبل أن يُعاتِبَ ، كان لى فيه رأيٌ ، فلا يأتنى أحد منكم بِسعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق ، والكاذبَ بَهّاتٌ . وسَعَى رجل برجل إلى عُمَرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فقال : إن شئتَ نظرنا فى أمرك ، فإن كنتَ كاذبا ، فأنت من هذه الآية : (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ) و إن كنتَ صادقا ، فأنت من هذه الآية : (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) وإن شئت عفونا عنك ، قال : العفو يا أمير المؤمنين ، قال : على أن لا تعودَ .

وكتب محمد بن خالد إلى آبن الزيّات : إن قوما صاروا إلىّ مُتَنَصِّحين ، فذكروا أن رُسُـوما للسلطان قد عَفَتْ ودَرَستْ ، وأنه توقّف عن كشفها إلى أن يعرف مَوقِع رأيه فيهـا ، فوقّع على رُقْعته : قرأت هـذه الرُّقعةَ المذمومة ، وسُوق السُّعاة مُكْسِدٌ عنـدنا ، وألسنتُهم تَكِلُّ فى أيامنا ، فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بمـا فى ديوانك ، فلم ترد للناحية لكشف الرسـوم العافية ، ولا لِتُحْيِيَ الأعلام الدائرة ، وجنّبنى وتجنّب قول جرير

وكنت إذا حَلَلْت بدار قوم * رَحلتَ بِخِزْيَة وتركتَ عَارَا

قالوا : وكان الفضل بن يحيى يكره السُّعاة ، فإذا أتاه ساع ، قال له : إن صَدَقْتنا ، أبغضناك ، و إن كَذَبْتَنا ، عاقبناك ، و إن آستقلتنا ، أَقَلْناك .

وحكى صاحب العقـد قال : قال العُتْبىّ ، حدّثنى أبى عن سـعيد القصرىّ ، قال : نظر إلىّ عمرو آبن عتبة و رجل يشتِم بين يَدَىّ رجلا ، فقال لى : وَيْلَك ،

وما قال لى و يلك قبلها : نَزِّه سمعك عن ٱستماع الخنا، كما تُنَزِّه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريك القائل، و إنه عمد إلى شرِّ ما فى وِعائه، فأفرغه فى وِعائك، ولو رُدَّتْ كلمةُ جاهل فى فيه، لَسَعَدَ رادُّها، كما شَقِىَ قائلها. وقد جعله الله تعالى شريك القائل، فقال : (سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ) .

٥ ⁂

وممـا قيل فى الغِيبة والنَّميمة، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا قلت فى الرجل ما فيه فقد ٱغتبتَه و إذا قلت ما ليس فيه فقد بهتّه » .

اغتاب رجل رجلا عند قُتَيبة بن مسلم، فقال له : أَمْسِك عليه أيُّها الرجلُ، والله لقد تلمظتَ بمُضْغة طالمـا لفظتْها الكرام .

١٠ وذكر فى مجلسه رجل، فنال منه بعض جلسائه، فقال له : يا هذا أوحشتَنا من نفسك، وأيأستَنا من مودّتك، ودلَلتنا على عَوْرتك .

وٱغتاب رجل عند بعض الأشراف، فقال له : قد ٱستدللتُ على كثرة عيو بك، بمـا تَذْكُر من عيب الناس، لأن الطالب للعيوب، إنمـا يطلبها بقدر ما فيه منها، أما سمعت قول الشاعر

١٥ لَا تَهْتِكَنْ من مَساوِى الناسِ ماسَتَرُوا ... فيهتِكَ اللهُ سِتْرًا من مساوِيكَا
وٱذْكُرْ محاسنَ ما فيهـم إذا ذُكِرُوا ... ولا تَعِبْ أحدا منهـم بِمَـا فيكَا

وقال ٱبن عبَّاس رضى الله عنهما

ٱذكرْ أخاك إذا غاب عنك بمـا تُحِبُّ أن يذكرَك به، ودَعْ منه ما تُحِبُّ أن يَدَع منك .

وقال بعض الملوك لولده وهو ولىّ عهـده : يا بُنَىّ ليكنْ أبغضُ رعيتك إليك ، أشدّهم كشفا لمعايب النـاس عندك ، فإنّ فى الناس معايبَ وأنت أحق بِسَتْرِها ، وإنمـا تحكم فيما ظهر لك ، والله يحكُم فيما غاب عنـك ، وآكره للنـاس ما تكرهُه لنفسك ، وآستُرِ العَورةَ ، يَسْتُرِ الله عليك ، ما تُحبّ سترَه ، ولا تعجّل الى تصديق ساعٍ ، فإن الساعِىَ غاشّ ، وإن قال قَوْلَ نُصْحٍ .

وَوَشَى واشٍ برجل الى الإسكندر فقال له : أَتُحبّ أن نقبلَ منك ما قلتَ فيه ، على أن نقبلَ منه ما يقول فيك؟ قال : لا ، قال : فَكُفَّ عن الشر، نكفّ عنك .

وقال ذو الرِّياستين : قَبُول النميمة ، شرٌّ من النميمة ، لأنـ النميمةَ دَلالة ، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شىء ، كمن قَبِلَه وأجازه .

قال أبو الأسود الدُّؤَلِى

لا تقبلَنّ نميمةً بُلِّغتَهـا ۞ وتحفظَنّ من الذى أنباكها

إن الذى أهدى إليك نميمةً ۞ سَيَنُمّ عنك بمثلها قد حاكها

وقال رجل لعمرو بن عُبَيد : إن الأساوِرِىّ لم يزل يذكرك ، ويقول : الضالّ ، فقال عمرو : يا هذا ! والله ما راعيتَ حقّ مجالسته ، حتّى نقلتَ إلينا حديثَه ، ولا راعيتَ حقِّى ، حين أبلغتَنى عن أخى ما أكرهُهُ ، اعلم أنـ الموت يعمّنا ، والبعثَ يَحْشُرنا ، والقيامةَ تجمعنا ، واللهَ يحكم بيننا .

وقال معاوية للأحنف فى شىء بلغه عنه ، فأنكره الأحنف : بلّغنِى عنك الثقة ، فقال الأحنف : إن الثقة لا يُبَلِّغ .

قال بعض الشعراء

لعمرُك ماسَبَّ الأميرَ عدوُّه * ولكنما سَبَّ الأمــيرَ المُبَلِّغُ

وقال ٱبن المعتزّ : الساعى كاذب لمن سعى إليه ، خائن لمن سعى عليه .

وقالوا : النَّمام ، شرٌّ من الساحر . فإن النمامَ يُفسد فى الساعة الواحدة ، ما لا يفسد الساحر فى المدة الطويلة .

٥

وقالوا : النميمة ، من الخلال الذميمة ، تَدُلُّ على نفس سقيمة ، وطبيعة لئيمة ، مشغوفة بهتك الأستار ، و إفشاء الأسرار .

وقال بعض الحكماء : الأشرار يتتبعون مساوئ الناس ، ويتركون محاسنهم . كما يتتبع الذباب المواضع الأَلِمَةَ من الجسد ، ويترك الصحيحة .

١٠ وقالوا : لم يَمْشِ ماش ، شرٌّ من واش . والساعى بالنميمة ، كشاهد الزُّور ، يهلك نفسه ، ومن سعى به ، ومن سعى اليه .

وقالوا : حَسْبُك من شرٍّ سَمَاعه . وقد لهج الشعراء بذمّ النمام ، وجعلوه من أهاجيهم .

قال بعض الشعراء .

١٥ من نَمَّ فى الناس لم تُؤْمَنْ عقاربُه * على الصــديق ولم تُؤْمَنْ أَفَاعِيــه

كالسَّيل بالليل لا يدرى به أَحدٌ * من أينَ جاء ولا من أين يأتيــه

وقال السَّرِىُّ الرَّفَّاء

أَنَمّ بمــا ٱســتودعتَــه من زُجاجة * تَرَى الشيءَ فيها ظاهرا وهو باطِنُ

وقال محمد بن شَرَف

وناصبٍ نحوَ أفواه الورى أُذُنًا * كالقَعْب يلقُط فيها كلّ ما سَقَطَا

يظَلُّ يلتقِـط الأخبارَ مجتهِـدًا * حتى إذا ما وعاها زَقَّ ما لقطَا

وقال ٱبن وكيع

يَنُمُّ بسرِّ مسـترعيـه لُؤْما * كما نَمَّ الظلامُ بسرِّ نارِ ٥

أنَمّ من النُّصول على مَشيب * ومن صافى الزُّجاج على عُقارِ

وقال الحسن البصرىّ : لا غِيبة فى ثلاثة : فاسقٍ مجاهِرٍ ، و إمامٍ جائرٍ ، وصاحب بِدعة .

وكتب الكِسائىّ الى الرقاشىّ

تركت المسجد الجامـِـعَ والتَّركُ له رِيبـهْ ١٠

وأخبـارُك تأتينـا * على الأعلام منصوبهْ

فإن زدت من الغيبـ * ـة زدناك من الغِيبـهْ

ذكر ما قيل فى البخل واللؤم

والبخل منع الحقوق وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ١٥ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) ، وقال تعالى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خَلّتانِ لا تجتمعان فى مؤمن : البخلَ وسوءُ الخُلُقِ » .

وقال بعض السلف : منع الجود، سوء ظن بالمعبود، وتلا (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

٥ وروى أبو بكر الخطيب فى كتاب البخلاء، بإسناده عن أبى هُرَيْرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لما خلق الله تعالى جَنَّة عَدْن، قال لها: تزيَّنى فتزينت، ثم قال لها : أَظْهِرى أنهارَكِ. فأظهرتْ عَيْنَ السلسبيل، وعين الكافور، وعين التسنيم، ونهر الخمر، ونهر العسل، ونهر اللبن. ثم قال لها : أظهرى حُورَكِ، وحُلَلَكِ، وسررك وحجالك. ثم قال لها : تكلَّمِى. فقالت : طُوبَى لمن دخلنى، فقال

١٠ الله عزَّ وجل : أنتِ حرام على كل بخيل" .

وقال سُقْراط : الأغنياءُ البخلاءُ. بمنزلة البِغَال والحَمِير، تحمل الذهب والفضة، وتعتلف التِّبنَ والشعيرَ .

وقالوا : البخلُ من سوء الظن، وخمول الهِمّة، وضعف الروِيّة، وسوء الاختيار، والزُّهد فى الخيرات .

١٥ وقال الحسن بن علىّ رضى الله عنهما : البخل جامع للساوئ والعيوب، وقاطع للودّات من القلوب .

وقالوا : حدُّ البخل، منع المسترفِد مع القدرة على رِفْده .

وكان أبو حنيفة لا يقبل شهادة البخيل، ويقول محتجّا لذلك : إن البخيل يحمله بخلُه، على أن يأخذ فوق حقِّه، مخافةَ أن يُغْبن. ومن كان هكذا لا يكون مأمونا .

وقال بشر بن الحارث الحافى : لا غِيبة لبخيــل ، ولَشُرَطِىٌّ سخىٌّ أحبّ إلىّ من عابد بخيل .

وقالوا : البخيل لا يستحق آسمَ الحُرِّية ، فإن ماله يملكه .

ويقال : لا مال للبخيل ، وإنما هو لمــاله .

وقال الحسن البصرىّ : لم أر أشقى بماله من البخيل ؛ لأنّه فى الدنيا يَهْتَمّ بجمعه ، وفى الآخرة يحاسَبُ على منعه ، غيرَ آمن فى الدنيا من همه ، ولا ناج فى الآخرة من إثمه ، عيشه فى الدنيا عيشُ الفقراء ، وحسابه فى الآخرة حساب الأغنياء . ودخل رحمه الله على عبــد الله بن الأهتم يعوده فى مرضه ، فرآه يُصَــعِّد بصَرَه ويُصَوِّبه الى صُندوق فى بيته ، ثم آلتفت اليــه ، فقال : ياأبا سعيد ، ما تقول فى مائة ألف دينار فى هــذا الصندوق لم أُؤَدِّ منها زَكاةً ولم أَصِــلْ بها رَحِماً ؟ فقال له : ثكلتْك أمك ! ولِمَ كنتَ تجمعها؟ قال لَرَوْعة الزمان ، وجَفْوَة السلطان ، وتكاثر العشــيرة ، ثمّ مات ، فشَهِده الحسن ، فلما فَرَغ من دفنه ، ضرب بيده على القبْر ، ثم قال : انظروا إلى هذا ، أتاه شيطانه نخوَّفه رَوْعَة زمانه ، وجفوة سلطانه ، بما آستودعه الله إيّاه ، وعمّره فيه ـ انظروا اليه كيف خرج مذموما مَدْحُورا ! ثم آلتفت إلى وارثه ، فقال : أيها الوارث لاتُخْدَعَنّ كما خُدِع صُوَيْحِبُكَ بالأمس ، أتاك هذا المــال حلالا ، فلا يكونن عليك وَبَالا ، أتاك عفوا صفوا ، ممن كان له جَمُوعا مَنُوعا ، من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، قطع فيه لُجَجَ البحار ، ومفاوزَ القِفَار ، ولم تَكْدَحْ لك فيه عينٌ ولم يَعْرَقْ لك فيه جَبين ، إنّ يوم القيامة يوم ذو حَسَرات ، وإن من أعظم الحسرات غدا ، أن ترى مالك فى ميزان غيرك ، فيالها حسرة لا تُقَال ، وتَوْبة لا تُنَال .

ومن أخبار البخلاء : قيل : بخلاءُ العرب أربعة، الحطيئة، وحُمَيد الأرْقُط، وأبو الأسود الدُّؤلىّ، وخالدُ بنُ صفوان، ونُقلت عنهم أُمُور دلّت على بخلهم .

أما الحطيئة : فقد حكى عنه : أنه مَرّ به آبن الحمامة، وهو جالس بفِنَاء بيته، فقال له : السلام عليكم، فقال: قلت مالا يُنْكَر، فقال : إنى خرجتُ من أهلى بغير زاد، قال : ما ضَمنتُ لأهلك قِرَاكَ، قال : أفتأذن لى أن آتى بظلّ بيتك فأتفيأ به؟ ٥ قال : دونك الجبل يَفىء عليك، قال أنا آبن الحمامة، قال: آنصرف وكن آبن أى طائر شئتَ . قال : وآعترضه رجل وهو يَرْعى غنما، فقال له : ياراعىَ الغنم، وكان بيد الحطيئة عَصًا فرفعها، وقال : عَجْراءُ من سَلَم، فقال الرجل : إنما أنا ضيف، فقال : للأضياف أعددتها . وكان الحطيئة أحد الحَمْقَى، أوصى عند موته، أن يُحْمَل على حمار، ١٠ وقال : لعلّى إن حُملتُ عليه، لا أموت، فإنى ما رأيت كريما مات عليه قطّ . وقال : لكُلّ جَديد لَذّةٌ، إلا جديد الموت، فإنى رأيته غيرَ لذيذ . وقيل له : أوص، فقال : أُوصِى أن مالى للذكور دونَ الإناث، قالوا : فإن الله ليس يقول كذلك، قال : لكنى أقوله . وقالوا له : قل لا إله الا اللهُ، فقال : أشهَدُ أن الشّماخ أشعرُ غطفان .

١٥ ومن أخباره : أن الزِّبرِقان بن بدر، لَقِيَه فى سفر، فقال له : مَن أنت؟ فقال : أنا حَسَبٌ موضوع، أنا أبو مُلَيْكَة، فقال له الزِّبرِقان : إنى أريد وَجْهًا، فَصِرْ إلى منزلى، وكن هناك، حتّى أرجع . فصار الحُطَيئةُ إلى آمرأة الزِّبْرِقان، فأنزلته وأكرمته، فحسده بنو عمّه، وهم بنو لأيٍ، فقالوا للحطيئة : إن تحولتَ إلينا، أعطيناك مائة ناقة، ونَشُدّ الى كلّ طُنُب من أطناب بيتك حُلّةً تحويه، وقالوا

لآمرأة الزِّبرِقان : إن الزِّبرِقان إنمـا قدم هـذا الشيخ ليتزوج بنته ، فقـدَح ذلك في نفسها ، فلما أراد القوم النُّجْعَة ، تحلّف الحطيئة ، فتغافلت عنه آمرأة الزِّبرِقان ، فاحتمله القُرَيعِيّون ووفَّوْا له بمـا قالوا ، فمدَحهم ، وهجا الزِّبرِقان ، فقال

أزمعتُ يأسًا مُبِينًا من نوالِكُمُ * ولا يُرَى طاردا للحُـرِّ كاليـاس

دعِ المكارمَ لا ترحـلْ لبُغْيتها * وآقعُدْ فإنك أنتَ الطاعِمُ الكاسِى ٥

مَنْ يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَم جَوازِيَه * لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والنـاس

فاستعدى الزبرقانُ عليـه عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ، فحكَّم عمرُ حسان ابنَ ثابت ، فقال حسـان : ما هجاه ولكن سَلَح عليـه ، فحبس عمرُ الحطيئةَ . فقال يستعطفه

ما ذا تقول لأفراخٍ بِذِى مَرَخٍ * حُمْرِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجَـرُ؟ ١٠

ألقيتَ كاسبهم فى قَعْرِ مُظلِمَة * فاغفِر عليك سـلامُ الله يا عمرُ

ما آثروك بها إذْ قدَّموك لهـا * لكن لأنفسهم كانت بك الأَثَرُ

فأخرجه عمرُ ، وجلس على كرسىّ ، وأخذ بيده شَفْرة ، وأوهم أنه يريد قَطْعَ لسانه ، فضجّ ، وقال : إنى والله يا أمير المؤمنين ! قد هجوتُ أبِى وأُمِّى وآمرأتِى ونفسى ، (٩٣) فتبسّم عمرُ ، ثم قال : ما الذى قلتَ ؟ قال : قلتُ لأبى وأمّى ١٥

ولقد رأيتُكِ فى النساء فسؤْتِنِى . وأبَا بَنِيك فساءنى فى المجلس

وقلتُ لأَبِى خاصة

فبِئسَ الشـيخُ أنتَ لَدَى تميمٍ * وبئس الشيخُ أنت لَدَى المَعَالى

وقلت لأمّى خاصة

تنحَّىْ واجلسى منّى بعيـدا * أراح الله منك العالمينا؟

أغربالا إذا استودعت سرًّا * وكانونًا على المتحدِّثينا؟

وقلت لامرأتى

٥ أطوِّف ما أطوِّف ثم آتى * إلى بيت قعيدته لَكَاعِ

وقلت لنفسى

أبتْ شفتاىَ اليومَ إلا تكلُّماً * بسوء فما أدرى لمن أنا قائلُهْ

أرى لِىَ وجْها شوَّه الله خَلْقَهُ * فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّح حاملُهْ

فخلّى عمر سبيله، وأخذ عليه أن لا يهجوَ أحدا، وجعل له ثلاثة آلاف اشترى

١٠ بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكر نَهْيَهُ إيّاه عن الهجاء ويتأسف

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تَدَعْ * شَتْمًا يضُرّ ولا مديحا ينفعُ

ومنعتنى عِرْض البخيل فلم يَخَفْ * شَتْمى وأصبحَ آمنًا لا يجزعُ

وأما حميد الأرقط : فكان هجّاءً للضيف، فحّاشًا عليه، فنزل به ضيف ذات

ليلة، فقال لامرأته : نزل بك البلاءُ، قومى فأعِدِّى لنا شيئا، ففعلتْ، فجعل

١٥ الضيف يأكل ويقول : ما فعل الحجاج بالناس؟ فلما فرغ، قال حُميد

يجرّ على الأطناب من جذْل بيتنا * هِجَفٌّ[1] لمخزون التحيّة باذلُ

يقول وقد ألْقَى المراسِىَ للقِرَى * أبِنْ لِىَ ما الحجّاجُ بالناس فاعلْ؟

فقلت : لَعَمْرى ما لهذا أتيتَنا * فكُلْ ودع الأخبارَ ما أنت آكلُ

(١) الهِجَفّ : الجافى الثقيل .

تُدَبِّرُ كفاه ويحْـــدرُ حَلْقُـــهُ * الى الصدر ما حازتْ عليه الأنامِلُ
أتانا ولم يَعْـــدِلْه سَحبانُ وائلٍ * بيانا وَعِلْمًـا بالذى هـــو قائلُ
فمـا زال عنـــه اللقْمُ حتّى كأنه * من العِيِّ لمـّا أنْ تكلّم باقِلُ

ونزل به أضياف، فأطعمهم تمرا وهجاهم، وآدعى عليهم أنهم يأكلونه بنواه، فقال

باتوا وجُلّتُنا[1] الصَّهْبَاءُ حَوْلَهُـمُ * كأن أظفارهم فيهـا السكاكِينُ ٥
فأصبحوا والنَّوى مُلْقَى مُعَرَّسِهِم * وليس كلُّ النَّوى ألقى المساكِينُ

وأما خالد بن صفوان : فكان إذا أخذ جائزَتَه، قال للدرهم : طالمـا سرتَ فى البلاد، أما والله لَأُطيلَنَّ حبسَك ، ولأَدِيمنَّ لُبثَك . وقيل له : مالك لا تنفق ، فإن مالك عريض ؟ فقال : الدهر أعرضُ منه، قيـل : كأنك تؤمل أن تعيشَ الدهرَ كلَّه، قال : ولا أخاف أن أموت فى أوله . ١٠

وأما أبو الأسود الدؤلىّ : فعمل دكانا عاليا يجلس عليه . فكان ربمـا أكل عليه فلا يناله المجتاز، فمرّ به أعرابىّ على جمل، فعرض عليه أن يأكل معه ، وظنّ أنه لا يناله . فأناخ الأعرابىّ بعيره، حتّى وازى الدكان ، وأكل معه ، فمـا جلس بعد ذلك على الدكان ، وكان يقول : لو أطعنا المساكين فى أموالنا ، كنا أسوأَ حالا منهم . وقال لبنيه : لا تُطعِموا المساكين فى أموالكم ، فإنهم لا يَقْنَعُون منكم، حتّى ١٥ يَرَوْكم فى مثل حالهم . ووقف عليه أعرابىّ وهو يتغدّى ، فسلّم عليه، فردّ عليه، ثم أقبل على الأكل، ولم يَعْرِض عليه . فقال الأعرابىّ : أما إنى قد مررتُ بأهلك ، قال : كان ذلك طريقك ، قال : وهم صالحون ، قال : كذلك فارقتُهـم . قال :

(١) الجُلّة : قفة كبيرة للتمر .

وآمرأتك حُبْلى ، قال : كذلك كان عهدى بها ، قال : ولَدَتْ ، قال : ما كان بدٌّ لها أن تَلِدَ ، قال : ولدتْ غلامين ، قال : كذلك كانت أمُّها ، قال : مات أحدهما ، قال : ما كانت تَقْوَى على رضاع آثنين ، قال : ثمَّ مات الآخر ، قال : ما كان لِيَبْقى بعد أخيه ، قال : وماتت الأُمُّ ، قال : جَزَعًا على ولَدَيْها ، قال : ما أطيبَ ٥ طعامَك ! قال : ذلك جزائى على أهله ، قال : أُفٍّ لك ما ألأَمَكَ ! قال : من شاء سَبَّ صاحبَه .

ونظير هذه الحكاية : ما حُكِيَ أن أعرابيًّا مرَّ بآخر ، فقال : مِن أين أقبلت يابن عمّ ؟ قال : من الثَّنِيَّة ، قال : فهل أتيتَنا منها بخبر ؟ قال : سل عما بَدَا لك ، قال : كيف علمُك بحيي ؟ قال : أحسن العلم ، قال : هل لك علم بكلبي نفّاع ؟ ١٠ قال : حارس الحَيّ ، قال : فبأمّ عثمان ؟ قال بَخٍ بَخٍ ، ومَن مِثل أمّ عثمان ! لا تدخلُ من الباب إلا منحرفة بالثياب المُعَصْفَرَات ، قال : فبعثمان ؟ قال : وأبيك فإنه جَرْو الأسد ويلعب مع الصبيان ، وبيده الكِسْرَةُ ، قال : فبجملنا السقّاء ؟ قال : إن سنامه لَيَخْرج من الغبيط ، قال فبالدار ؟ قال : وأبيك ، إنها لخصيبة الجناب ، عامرة الفِنَاء ، ثم قام عنه ، وقَعَد ناحيةً يأكل فلا يدعوه ، فمرّ كلب ، فصاح به ، ١٥ وقال : يابن عم ، أين هذا الكلب من نفّاع ؟ قال : يا أَسَفَا على نَفَّاع ! مات ، قال : وما أماته ؟ قال : أكل من لحم الجمل السقّاء ، فاغْتُصّ بعظمٍ منه فمات ، قال : إنا لله ، أو قد مات الجمل ! فما أماته ؟ قال : عثر بقبر أم عثمان ، فانكسرتْ رِجْلُه . قال : ويْلُمّك ! أماتت أم عثمان ؟ قال : إى والله ، أماتها الأسف على عثمان . قال : ويلك ! أمات عثمان ؟ قال : إى وعهد الله ! سقطتِ الدار عليه ، فرمى الأعرابيّ

(٩٣) بطعامه ونثره وأقبل ينتف لحيته و يقول : إلى أينَ أذهب؟ فيقول الآخر الى النار، وأقبل يلتقط الطعام و يأ كله ويهزأ به و يضحك، و يقول : لا أرغم الله إلا أنفَ اللئام .

وكان أُحَيْحَةُ بن الجُلَاح من البُخَلاء، وكان إذا هبتِ الصَّبَا، طلع أُطُمَة، ينظر الى ناحية هبوبها ثم يقول : هُبِي هبوبَك، فقد أعددتُ لك ثلثمائةٍ وستين صاعا من عَجْوة، أدفع الى الوليد منها، خمسَ تمرات، فيردّ علىّ منها ثلاثا، أى لصلابتها بعد جهد ما يَلُوكُ منها .

والعرب تضرب المثل فى اللؤم بمَـادِر، تقول : هو أَلْأَمُ من مَادِرٍ، و يزعُمون أنه بنى حوضا وسقَى إبله، فلما أصدرَها سَلَحَ فى الحوض، لئلا يَسْقِيَ غيرُه فيه .

وكان عُمَرُ بن يزيد الأسدىّ مبخلًا جدًا، فأصابه القُولَنْجُ فحقنه الطبيب بدُهن كثير، فانحل ما فى بطنه، فلما أبرزه، قال للغلام : ما تصنع به؟ قال أُصُبُّه، قال : لا ولكن ميِّزِ الدُّهن منه وآستصبح به .

وقال سلم بن أبى المعافى : كان أبى متنحياً عن المدينة، وكان الى جنبه مزرعة فيها قِثّاء، وكنت صبياّ فجاءنى صِبْيان أقران لى، فكلّمتُ أبى ليهب لى درهما أشترى لهم به قثّاء، فقال لى : أتعرف حال الدرهم؟ كان فى حجر فى جبل، فضُرب بالمعاول، حتى آستُخرج، ثم طُحِن، ثم أُدخل القِدْرَ وصُبّ عليه المـاء، وجُمع بالزِّئبق، ثم صُفِّىَ من رَقّ، ثم أدخل النارَ فسُبك، ثم أُخرج فضُرب، وكُتب فى أحد شِقّيه : لا إله إلا الله، وفى الآخر : محمد رسول الله، ثم حُمل الى أمير المؤمنين، فأمر بإدخاله بيت ماله، ووَكَلَ به عُوجَ القلانِس صُهْبَ السِّبال، ثم وهبه لجارية حسناء جميلة، وأنت والله أقبح من قِرْدٍ، أو رَزَقه رجلا شجاعا وأنت والله أجبن من صُرَد، فهل ينبغى

لك أن تمسّ الدرهم إلا بثوب؟ ومثله قول سهل بن هارون، وقد قال له رجل : هبني ما لا مَرْزِئَةَ عليك فيه، قال: وما ذاك؟ قال : درهما واحدا، قال : يابن أخى لقد هوّنتَ الدرهم، وهو طابع الله فى أرضه، والدرهم ويحك عُشْر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف عشر دِيَة المُسلم. ألا ترى يابن أخى كيف انتهى الدرهم الذى هوّنتَه؟ وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟ .

وقال سليمان بن مُزاحم، وقد وقع بيده درهم، فجعل يقلّبه، ويقول: فى شِقّ، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفى شِقّ، قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ، ما ينبغى لهذا إلا أن يكون تعويذًا أو رُقْيَة، ويُرمى به فى الصندوق .

كان بعضهم إذا صار الدرهم فى يده يخاطبه ويقول : بأبى وأمّى أنت، كم من أرض قطعتَ، وكيس خرقتَ، وكم من خامل رفعتَ، ومن رفيع أخملتَ، لك عندى أن لا تَعْرَى ولا تَضْحَى، ثم يلقيه فى كيسه، فيقول : اسكن على اسم الله، فى مكان لا تزول عنه، ولا تزعج منه .

ومن البخلاء "مُزَبِّد" وله حكايةٌ نذكرها، قيل : كان بالمدينة جارية جميلة مُغَنِّيَةٌ، يقال لها : "بَصْبَص" وكانت الأشراف تجتمع عند مولاها، فاجتمع يوما عنده محمّد بن عيسى الجعفَرِىّ وعبد الله بن مُصعب الزُّبيرىّ فى جماعةٍ من الاشراف، فتذاكروا أمر مزبد وبخله، فقالت الجارية : أنا آخذ لكم منه درهما، فقال لها مولاها : أنت حرّة إن فعلتِ إن لم أستر لك مخنقة بمائة دينار وثوب وشى بمائة دينار، وأجعل لك مجلسا بالعقيق أنحر فيه بَدَنَةً، فقالت : جئ به، وارفع الغَيْرة، حتّى أفعل، فقال : أنت حرّة إن منعك منه، ولأعاوننّه عليك إن حصّلت

منه الدرهمَ ، فقال عبـد الله بن مُصعب : أنا آتيكم به ، قال عبد الله : فصلّيْتُ الغَـداة فى المسجد ، فاذا أنا به قد أقبل ، فقلتُ : يا أبا إسحاق، إنّا نُحب أن نرى بصبص ؟ قال : بلى والله ، وآمرأته طالقٌ إن لم تكن له سـنة يشتهى أن يلقاها ، فقلت له : إذا صليتَ العصر ، فاتنى ها هنا ، فقال : آمرأته طالق إن برح من ها هنا الى العصر ، قال فانصرفتُ فى حوائجى ، فلما كان العصر جئتُ فوجدتُه ، فأخذتُ بيده ، وأتيتُهم به ، فأكل القوم وشربوا حتّى صُلِّيت العَتَمَةُ ، ثم تساكروا وتناوموا ، فأقبلتْ بَصْبَص على مُزَبِّد ، فقالت له : يا أبا إسحاق كأنّى والله فى نفسك تشتهى أن أُغَنِّيَك الساعةَ

لقد حَثُّوا الجمالَ ليهـــربُوا مِنَّا فلم يئلُوا

فقال لها : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى اللوح المحفوظ ، فغنته إيَّاه ، ثم قالت له : كأنّى بك تشتهى أن أقوم من مجلسى فأجلس إلى جنبك فتُدْخل يدَك فى جِلْبَابى ، فقال : آمرأته طالق إن لم تكونى تعلمين ما فى الأرحام ، وما تَكْسِب الأَنْفُسُ غدًا قالت : فقم ، فقام وجلس إلى جانبها وغنّتْ له ، ثم قالت : أعلم أنك تشتهى أن أغنّيك

أنا أبصرتُ بالليْـل * غُلامًا حسَـنَ الدَّلّ
كغُصن البان قد أصبـــح مَسْقِيًّا من الطَّلّ

فقال لها : آمرأته طالق أن لم تكونى نبيَّةً مُرسلةً ، فغنته وقبلها ، ثم قالت : يا أبا إسحاق ، هل رأيتَ قطّ أنذل من هؤلاء ؟ يدعوننى ويدعونك ، ويُخرجوننى اليك ولا يشترون نُقْلا ولا رَيْحانا ، كأنّى بك وفى جيبك درهم وأنت تقول : الساعة أخرجه ،

وأعطيها إياه، وتشترى به ما تريد. فقام من جنبها وقال : أخطأت آستك الحُفْرَة، وآنقطع عنك الوحى . ووثب وجلس ناحيــة ، فآنتبه القوم وعَطْعَطُوا[1] عليها وعلموا أن حيلتَها لم تتِمّ، وخرج من عندهم ولم يَعُــد إليهم .

وقال بعضهم: بتُّ عند رجل من أهل الكوفة من الموسرين ، وله صِبْيان نيام . فرأيته فى الليــل يقوم فيقلّبهم من جنب الى جنب. فلما أصبحنا سألته عن ذلك. فقال : هؤلاء الصبيان يأكلون وينامون على اليسار، فيمريهم الطعام، ويصبحون جياعا ، فأنا أقلّبهم من اليسار الى اليمين لئلا يَنْهضمَ ما أكلوه سريعا .

وكان زياد بن عبد الله الحارثىّ واليا على المدينة، وكان فيه بُخْلٌ وجفاء، فأهدى اليه كاتب له سِلَالًا فيها أطعمةٌ، وقد تَنَوَّق فيها فوافته وقد تغدّى، فقال : ما هذه؟ قالوا : غداء بعثه فلان الكاتب، فغضب، وقال : يبعث أحدهم الشئَ فى غير وقته، ياخَيْثم بن مالك! يريد صاحبَ شُرْطته، آدع لى أهل الصُّفَّة يأكلون هذا ، فبعث خيثمُ الحرسَ يدعونهم . فقال الرســول الذى جاء بالسِّلَال : أصلح الله الأمير، لو أمرتَ بهذه الســلال تُفتح ويُنْظَر ما فيها، قال : آكشفوها فاذا طعام حسن من دَجَاجٍ وفراخ وجِدَاءٍ وسمك وأَخْبِصَة وحَلْوَاء فقال : آرفعوا هذه السِّلَال، وجاء أهلُ الصُّفَّة، فأُخبِر بهم، فأمر بإحضارهم وقال : يا خَيْثم! آضْرِبهم عشرة أسواط، فإنه بلغنى أنهم يفسون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن الخلفاء من يُنْسب الى البخل . فمنهم عبد الملك بن مروان كان يلقب برَشْح الحَجَر ولبن الطير لبخله .

---

(١) العَطْعَطة : تتابع الأصوات واختلاطها أو حكاية صوت المُجّان اذا قالوا : عِيطْ عِيطْ وذلك اذا غلبوا قوما .

ومنهم هشام ٱبنه وكان ينظر فى بيع الهدايا التى تُهْدَى اليه . حُكِىَ عنه أن أعرابياً أكل عنده فرفع اللُّقمةَ الى فيه، فقال له هشام : فى لقمتك شَعْرة ياأعرابىّ، فقال: وإنك تلاحظنى ملاحظة مَن يَرَى الشَّعْرة ، والله لا أكلتُ عندك أبدا ، ثم قام وٱنصرف .

ومنهم أبو جعفر المنصور كان يلقب بأبى الدوانيق، لُقِّب بذلك لأنه لما بنى مدينةَ بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصُّناع ، فيقول لهذا : أنت نمتَ القائلة، ولهذا : لم تُبَكِّر، ولهذا : ٱنصرفتَ قبل أن تُكَمِّل اليوم، فَيُسقط لهذا دانقا، ولهذا دانقين، فلا يكاد يعطى لأحد أُجْرةً كاملة، وكان يقول : يزعُمون أنّى بخيل، وما أنا ببخيل، ولكن رأيت الناس عبيدَ المال، فمنعتُهم عنه، ليكونوا عبيدا لى . ويُحكى عنه أنه قال لطباخه : لكم ثلاثة وعليكم ٱثنتان، لكم الرءوس والأكارع والجلود، وعليكم الحبوب والتوابل . ومن حكاياته الدالة على بخله: أن صاحبه الربيع بن يونس قال له يوما : ياأمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك وهم كثير، وقد طالت أيامهم ونفدت نفقاتهم، فقال: ٱخرج إليهم وسلم عليهم، وقل لهم مَنْ مدحنا منكم فلا يصف الأسدَ، فإنما هو كلب من الكلاب، ولا الحيَّةَ، فإنما هى دويبة منتنة تأكل التراب، ولا الجَبَلَ فإنه حجر أصَمُّ، ولا البحرَ، فإنه غَطِم بِضٌ لِجبٌّ ، فمن ليس فى شعره شىء من هذا فليَدْخُلْ، ومن كان فى شعره شىءٌ منه فَلْينصَرِفْ ، فأبلغهم فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هَرْمَةَ فقال : أنا له يا ربيع فأدخلنى عليه : فأدخله ، فلما مثل بين يديه، قال له : ياربيع قد علمت أنه لايجيبك غيره فأنشده قصيدته التى منها

له لحَظَات فى حِفَافَىْ سريره * إذا كرَّها فيها عِقاب ونائلُ
فَأُمُّ الذى أمَّنتَ آمِنةُ الردى * وأُمُّ الذى خوَّفتَ بالثُّكل ثاكِلُ

فرفع له السّتر وأقبل عليه وأصغى إليه، فلما فرغ من إنشاده أمر له بعشرة آلآف درهم وقال له : يا إبراهيم، لا تتلفها طمعا فى نَيْل مثلها منّا، فما كلّ وقت تصل إلينا، فقال إبراهيم : ألقاك بها يا أمير المؤمنين يوم القيامة وعليها الجِهْبِذ (1) .

ودخل المؤمّل بن أميل على المهدىّ وكان بالرّىّ، وهو إذ ذاك ولىّ عهد أبيه المنصور، فامتدحه بأبيات يقول فيها

هو المهدىُّ إلا أن فيه * مَشابه صورة القمر المنيرِ
تشابه ذا وذا فهُما إذا ما * أنارا يُشْكَلانِ على البصيرِ
فهذا فى الضياء سراج عدلٍ * وهذا فى الظلام سراج نُورِ
ولكن فضّل الرحمنُ هذا * على ذا بالمنابر والسّريرِ
وبعض الشهرِ يَخْفَى ذا، وهذا * منير عند نقصان الشهورِ

وجاء منها

فإن سبق الكبيرَ فأهلُ سَبْقٍ * له فضلُ الكبير على الصغيرِ
وإن بلغ الصغيرُ مَدَى كبيرٍ * فقد خُلِق الصغير من الكبيرِ

(٩٥)

فأعطاه عشرين ألف درهم، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو ببغداد، فكتب الى المهدىّ يلومه ويقول له : إنما كان ينبغى أن تعطىَ الشاعر إذا أقام ببابك سنة، أربعة آلاف درهم، وأمره أن يوجهه إليه، فطلب فلم يوجد، وتوجه إلى بغداد، فكتب الى المنصور بذلك، فأمر بإرصاده فُسِك، وقيل له أنت بغية أمير المؤمنين وطِلْبته، قال المؤمل: فكاد قلبى يخلع خوفا وفَرَقا، ثم أخذ بيدى وآنطلق بى إلى الربيع، فأدخلنى على المنصور، وقال : يا أمير المؤمنين، هذا المؤمّل

(1) الجهبذ : كاتب رسم آستخراج المال وقبضه .

آبن أميل قد ظفر به ، فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ، فسكن جأشى وآطمأن قلبى وزال رَوْعى ، ثم قال لى : أتيت غلاما غِرًّا فخدعته فآنخدع ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إنما أتيت ملِكا جوادا كريما ، فمدحته فحملته أريحيّتُه على أن وصلنى وبرّنى ، فأعجبه ذلك ، ثم قال : أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشدتُه ، فقال : والله لقد أحسنت ، لكن ما يساوى عشرين ألفا ، يا ربيع ، خُذِ المالَ منه ، وأَعْطِه منه أربعة آلاف درهم ، فلما ولى المهدى الخلافة ، قدم عليه المؤمَّلُ ، فأخبره بما كان بينه وبين أبيه ، فضحك وردّ عليه ما أُخِذَ منه .

وحكى آبن حمدون فى كتابه المترْجَم بالتذكرة : أن المنصور حجَّ فى بعض السنين فحدا به سالم الحادى يوما بقول الشاعر

أبلجُ بين حاجبيه نُورُهُ ＊ إذا تغدّى رفعت ستورُهُ
يَزِينُـــه حيــاؤُه وخيرُهُ ＊ ومِسْكُه يَشُوبُه كافورُهُ

فطرِبَ المنصور حتى ضرب برجله المَحْمِل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطه نصف درهم ، فقال سالم : لا غير ، يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت بهشام بن عبد الملك فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال المنصور : ما كان له أن يعطِيَك من بيت المـال ما ذكرت ، يا ربيع ! وكِّلْ به من يستخرج منه هذا المـالَ ، قال الربيع : فما زلت أسفِر بينهما حتى شرط عليه أن يحدو به فى خروجه ورجوعه بغير مئونة ، وكان سالم هـذا يورِد الإبل لثمان ولِتِسـع ولعشر ، فيحدو لها فَيُلْهِيها حدوه عن ورود المـاء .

ومن طريف ما حكِى عنه : أن عبيد الله بن زياد الحارثىّ ، كتب إليه رقعة بليغة يستميحه فيها ، فوقَّع عليها : إن الغِنى والبلاغة إذا آجتمعا لرجل أبطراه ، وإن أمير المؤمنين مشفِق عليك ، فا كتفِ بالبلاغة .

وقد ذمّ الشعراء البخل وهجوا من اتصف به، فمن ذلك، وهو أبلغ ما قاله مُحْدث، قول ابن الرومى

الحابسُ الروثَ فى أعفاج بَغْلَتِه * خوفا على الحَبِّ من لَقْط العصافيرِ

وقال العسكرىّ : أبلغ ما قيل فى البخل، قول ابن الرومىّ

يُقَتِّرُ عيسى على نفسه * وليس بباقٍ ولا خالدِ

فلو يستطيع لتقتيره * تنفَّسَ من مَنْخِرٍ واحدِ

رضيت لتشتيت أمواله * يَدَىْ وارثٍ ليس بالحامدِ

وقال أبو تمام

صدَّق أَلِيَّتَه إن قال مجتهدًا * لا وَالرَّغيف فذاك البرّ من قَسَمِهْ

و إن هممتَ به فافتك بخُبزته * فإن موقعها من لحمه ودمه

قد كان يُعجبنى لو كان غَيْرتُه * على جَرادقه كانت على حَرَمِهْ

وقال دِعبِل

استَبْقِ وُدَّ أبى المقَا * تِل حين تأكُلُ من طَعَامِهْ

سيّان كَسْرُ رغيفِه * أو كسرُ عَظْمٍ من عِظامِهْ

وتراه من خوف النزيل به يُرَوَّع فى منامهْ

وقال أبو هلال العسكرىّ

خُبزُ الأميرِ عَشِيقُهُ * يَغْدُو عليه يُلاعِبُهْ

و إذَا بَدَا لجليسه * أفضى إليه يُعاتِبُهْ

وتحوطه حرّاسُهُ * وتَذُبُّ عنه كَتَائبُهْ

فالزَّورُ يُصفَعُ عنده * والضيفُ يُنْتَفُ شارِبُهْ

وقال آخر

فتى لرغيفه قُرطٌ وشَـنْفٌ * وإكليلان من دُرٍّ وشَـذْرِ
إذا كُسِر الرغيفُ بكى عليه * بُكَا الخنساء إذ فُجعتْ بِصَخْرِ
ودون رغيفه قَلْعُ الثنايا * وحَرْبٌ مثل وَقْعَةِ يوم بَدْرِ

وقال آخر

٥

إن هـذا الفتى يصون رغيفا * ما إليه لآكلٍ من سَـبيلِ
هو فى سُـفْرتين من أَدَم الطا * ئف فى سَـلَّتينَ من زَنْبيـلِ
خُتِمتْ كلُّ سَـلَّةٍ برَصاصٍ * وسُـيُورٍ قُدِدْنَ من جلْدِ فِيلِ
فى جِرَابٍ فى جوف تابوتِ موسى * والمفاتيح عنـد ميكائيـلِ

وقال العسكرىّ

١٠

قلَّ خـيرُ ابن قاسم * فغِنـاه كعُدْمِـهِ
كادَ من خشية القِرَى * يختبى فى حِر أمــه
جاز فى اللؤم حدّه * كأبيـه وعمــه
كاد يُعـديك لؤمُهُ * لو تسمّيتَ باسمــه

وقال ايضا

١٥

لك برمَـــةٌ نزّهتَهـا * من أن تُدَنَّسَ بالدَّسَمْ
بيضـاءُ يُشرق نُورها * كالبدْر فى غَسَقِ الظُّلَمْ
لو كان عِرْضُك مثلَها * كنتَ المُمَدَّحَ فى الأُمَمْ
أو كان فعلُك مثلَ قو * لك كنتَ تاريخَ الكَرَمْ

وقال أيضا

ضفتُ عمرا فجاءنى برغيف * زادنى أكْلُه على الجوع جُوعَا
ثم وَلَّى يقول وهو كئيب: * لَهْفَ نَفْسِى على رَغيفٍ أُضِيعَا
كان خدَّاعةَ الضيوف ولكن * ربما أصبح الخَدُوعِ خَديعَا
كنتُ أنزلتُـه مَحَلاًّ رفيعًا * فغـدا ذلك الرفيع وَضِيعَا
عَجَباً منـه إذْ أُبِيح حِمَاه * كيف لم يمتنع وكان مَنِيعَا

وقال آخر

أرى ضيفَك فى الدار * وكَرْب المـوت يَغْشَاهُ
على خُبْزِكَ مَكْتُوبٌ: * «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ»

وقال بشّار

وضيفُ عمرٍو وعمرو يَسْهَران معًا * عمرٌو لِبِطْنَتِه والضيفُ للجوعِ

وقال آخر

نوالُك دونَهُ خَرط القَتَادِ * وخـبزُك كالثُّرَيَّا فى البعَادِ
ولو أبصرتَ ضيفا فى منـام * لحـرّمتَ المنـامَ الى التَّنَادِى
أرى عُمُرَ الرغيفِ يطول جِدًّا * لديك كأنَّه من قـوم عَادِ
وما أهجوك أنك كُفْءُ شِعْرِى * ولكنِّى هجوتُك للكَسَاد

وقال العسكرى

قد كان للمـال رَبًّا * فصار بالبخل عَبْـدَهْ
وصَحَّفَ الضَّيفَ ضَيفًا * فـراح يَلْطُم خَـدَّهْ

وقال أبو نُوَاسٍ فى إسماعيل بن نُوبخت. بعد أن نصب إسماعيل فى صحن داره طارمة، واصطبح فيهـا أربعين يوما ومعه جماعة. منهـم أبو نُوَاس، فبلغت نفقته اربعين ألف درهم، ثم قال بعد ذلك

خبزُ إسماعيـل كالوشـــى إذا ما شُـــقَّ يُرْفا
عجبا من أثر الصنـــعة فيـه كيف تخفَى؟
إنَّ رَفَّاءك هـــذا ألطف الأمة كَفًّا
فإذا ألْصَـــق بالنصـــف من الجَرْدَق نصفا
الطف الصـنعة حتَّى ما ترى مَطْعَنَ إشْفَى[1]
مثـل ما جاء من التَّنُّـــور ما غادر حَـــرْفا
وله فى المـاء أيضـا عمـــلٌ أبدع ظَـرْفا
مَزجه العَذْب بمـاء الـــبِئْر كى يزدادَ ضِـعْفا
فهو لا يَسْقِيك منـــه مثـل ما يشرب صِرْفا

وقال فيه

على خبز إسماعيل واقيــةُ البُخلِ فقد حلَّ فى دار الأَمان من الأَكْلِ
وما خبزه إلا كعنقاء مُغْـرِب يُصَوَّر فى بُسْط الملوك وفى المُثْلِ
يحدِّث عنها الناسُ من غير رؤية سوى صورة ما إن تُمِرُّ ولا تُحْـلِي
وما خبزه إلا كآوَى يُرى ٱبْنُـهُ ولم يُرَ آوَى فى الحُزُون وفى السَّهْلِ
وما خبزه إلا كليبُ بنُ وائلٍ ليـالىَ يَحْمِى عِزُّهُ مَنْبِتَ البَقْـلِ[2]

(١) الإشْفى : الإسكاف .

(٢) هكذا فى الأصل . وفى ديوان أبى نواس : ومن كان الخ ولعله الصواب .

وإذْ هو لا يَسْتَبُّ خَصْمَان عنده ... ولا الصوتُ مرفوعٌ بِجِدٍّ ولا هَزْلِ
فإن خبزُ إسماعيلَ حلَّ به الذي ... أصاب كليبًا لم يكن ذاك عن ذُلِّ
ولكن قضاءٌ ليس يُسْطاعُ ردُّه ... بحيلةِ ذي مَكْرٍ ولا دَهْيِ ذي عقلِ

وقال ابن الرومىّ

بخيــل يَصُوم أضــيافَه ... ويبخَلُ عنهم بأجر الصيامِ
يدُسّ الغــلامَ فيولِيهـــمُ ... هوانا فَيَشْــتِمُ مولى الغــلامِ
فهم مُفْطِرون وهم صائمون ... وما يَطْعَمون وهــم فى أثامِ
فيحتال بخلا لأنْ يُفْطِرون ... على رفَثِ القول دون الطَّعامِ

وقال أحمد بن كُشَاجِم

صديقٌ لنا من أبرَعِ الناس فى البخلِ ... وأفضلِهم فيــه وليس بذى فَضْلِ
دعانى كما يدعو الصــديقُ صديقَه ... فجئتُ كما يأتى إلى مثــله مِثْـلِى
فلمــا جلســنا للطعام رأيتُــه ... يرى أنه من بعض أعضائه أَكْلِى
ويغتاظ أحيانا ويَشْــتِمُ عبــده ... وأَعْلَمُ أن الغيظ والشــتمَ من أجلى
فأقبلت أسـتلُّ الغــداء مخــافَةً ... وألحاظ عينيــه رقيبٌ على فعْــلى
أمــدّ يدى سِرا لأَسْرِقَ لُقْــمةً ... فيلحظنى شَزْرًا فأعبَثُ بالبَقْــلِ
إلى أن جنتْ كَفِّى لحتفى جِنَايةً ... وذلك أن الجوعَ أعدَمنى عَقْلِى
فجــرّت يدى لِلْحَيْن رِجْلَ دَجَاجةٍ ... فجُرَّتْ كما جَرَّتْ يدى رجلَها رِجْلِى
وقدّمَ من بعــد الطعامِ حلَاوةً ... فلم أستطِع فيهــا أُمِرُّ ولا أُحْلِى
وقمتُ لو انّى كنتُ بَيَّتُّ نيَّــةً ... ربحتُ ثوابَ الصومِ مع عدمِ الأكلِ

وقال آخر

ترَاهم خشيَة الأضيافِ خُرْسًا * يُقيمون الصلاةَ بلا أذانِ

* * *

احتجاج البخلاء وتحسينهم للبخل على قبحه

قالت الحكماء : لتكن عنايتُك بحفظ ما اكتسبتَه، كعنايتك باكتسابه . ٥

وقال أبو الأسود الدؤليّ لبنيه : لا تُجاودوا الله، فإنه أكرم وأجود ، ولو شاء أن يُغْنِيَ الناس كلَّهم لفعل ، ولكنه علِم أن قوما لا يصلحهم ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوما لا يصلحهم ولا يصلح لهم إلا الغنَى .

وقال رجل من تَغْلِب: أتيت رجلا من كِندة أسأله ، فقال: يا أخا بنى تغلب، إنِّى لن أصلَك حتَّى أحرِم من هو أقرب إلى منك، وإنه لم يبقَ من مالى وعِرْضى ١٠ واهلى إلا ما منعتُه من الناس .

وقيل : إن لقمانَ الحكيمَ ، قال لابنـه : يابُنَيَّ، أُوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسكتَ بهما : دِرْهَمِكَ لمعاشك، ودينِكَ لمَعادِك .

وقال أبو الأسود : إمساكُك ما تبذُل، خير من طلبك ما يبذُل غيرُك، وأنشد

يلومونى فى البخل جَهْلًا وضلَّةً * وَلَلْبُخلُ خيرٌ من سؤال بخيل ١٥

ونظيره قول المتلمِّس

وحَبْسُ المـال أيْسَرُ من بُغَاهُ * وضَرْبٍ فى البـلاد بغير زاد

وإصْلَاحُ القليـل يَزِيدُ فيـه * ولا يَبْقَى الكثيرُ مع الفسادِ

وقال الجاحظ : قلت للحزامىّ : يابخيل! قال : لا أعدمنى الله هذا الاسم ، لأنه لا يقال لى: بخيل إلا وأنا ذو مال فَسَلِّمْ لى المال، وسَمِّنى بأىّ اسم شئت، قلت : ولا يقال لك : سخىّ، إلا وأنت ذو مال، فقد جمع الله لهذا الأسم المال والحمد، وجمع لذاك المال والذّم، فقال : بينهما فرق عجيب، وبَوْن بعيد، إن فى قولهم : ٥ بخيل، سببا لمكث المال فى ملكى، وفى قولهم: سخىّ،سببا لخروجه عن ملكى، وأسم البخل فيه حزم وذّم وأسم السخاء فيه تضييع وحمد، وما أقلّ غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه وعَرِىَ ظهره وضاع عياله وشمت به عدوّه.

(٩١) وقال محمد بن الجَهْم : من شأن مَنِ آستغنى عنك، أن لا يقيم عليك،ومن آحتاج إليك أن لا يزول من عندك، ومن حُبِّك لصديقك وضَنِّك بمودّته أن لا تبـذل له ١٠ ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يُحْوِجه إليك .

وقد قيل فى مثل هذا : "أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْك، وسَمِّنْه يَأْكُلْك". فمن أَغْنَى صديقه فقد أعانه على الغَدْر، وقطع أسباب الشكر، والمُعين على الغدر شريك للغادر، كما أن المزيِّن للفُجُور شريكٌ للفاجر.

وقال أبو حنيفة : لا خير فيمَنْ لايصون ماله ليصونَ به عِرْضَه، ويَصِلَ به رحمه ١٥ ويستغنِىَ به عن لئام الناس . قال عبد الله بن المعتزّ

أَعَاذِل ليس البخل منّى سَجِيّةً * ولكن وجدتُ الفقرَ شرَّ سبيلِ
لَموت الفتى خيرٌ من البخل للفتى * ولَلْبخلُ خيرٌ من سؤال بخيلِ

وكان داود بن علىّ يقول : لَأَن يترك الرجلُ مالَه لأعدائه، خيرٌ من الحاجة فى حياته لأوليائه؛ قال الشاعر

مَالٌ يُخَلِّفُـهُ الفـتَى * للشامتين من العِـدَا
خير له من قصـده * إخـوانَهُ مسـترْفِدا

وقال سُـفْيَان الثَّوْرِىّ : لأن أُخلِّفَ عشرة آلاف درهم أحاسب عليها، أحب إلىّ من أن أحتاج إلى الناس ؛ وقال : كان المـال فيما مضى يكره، وأما اليوم فهو يزين المؤمن؛ وجاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله، تمسك هذه الدنانير ! فقال : اسكت، فلولاها لتَمَنْدَلَتنا هؤلاء الملوك، ولكن من كان فى يده منها شىء فليصلحه، فإنه زمانٌ من احتاج فيه كان أوّل ما يبذُل دينه .

وقال المنصور لمحمد بن مروان التيمىّ : إنك لسيد لولا جمودٌ فيـك ، فقال : يا أمير المؤمنين، إنى لأجمُد فى الحق، ولا أذوب فى الباطل .

وكان محمد بن الجهم يقول : من وَهَب من عمله ، فهو أحمق ، ومن وهب بعد العزل ، فهو مجنون، ومن وهب من جوائز ملوكه أو ميراثه ، فهو مخذول ، ومن وهب من كَسْبه وما استفاده بحيلة، فهو المطبوع على قلبه، المأخوذ ببصره وسمعه .

وسأل رجلٌ زياد بن أبيه ، فأعطاه درهما، فقال : صاحب العِراقَيْن أسأله فيعطينى درهما؟ فقال له زياد : مَنْ بيده خزائن السموات والأرض ربما رزق أخصّ عباده عنده وأكرمهم لديه التمرةَ واللقمة، وما يكبر عندى أن أصلَ رجلا بمائة ألف درهم ، ولا يصغر أن أعطى سائلا رغيفا ، إن كان ربّ العالمين فعل ذلك . قال الشاعر

يارُبَّ جُود جرَّ فَقْـرَ امرئٍ * فقام للنـاس مَقَام الذليـل
فاشدد عُرَى مالِكَ واستَبْقِهِ * فالبخلُ خيرمن سؤال البخيل

وقال الشريف بن الهَبَّارِيَّة

لَأصونَنَّ درْهمِى * فهو لا شكَّ صائنى
لم يُغنِّى ٱبنُ والدى * وصحيحى أعانَنِى

وقال أيضا

لله دَرُّ دراهمى * فهى التى أعلت مكانى ٥
لولا الغِنَى عن صاحبى * لَأَحَلَّنِى دار الهوانِ

وقال آخر

كن بما أُوتِيتَه مُغتبِطا * تَستدِمْ عيشَ القَنُوع المُكتفِى
إن فى نَيْل المُنى وَشْكَ الرَّدَى * وٱجتناب القصد عين السَّرَف
كسراجٍ دُهْنُه قوتٌ له * فإذا غَرَّقْتَه فيه طُفِى ١٠

ومن ذلك رسالة كتبها سهل بن هارون، وقد عيب عليه أمور من البخل، فاعتذر عنها وٱحتجّ فقال: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخيرَ، وجعلكم من أهلِه، قال الأحنفُ بن قَيْس: يا بنى تميم، لا تُسرِعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال، أقلُّهم حَياء من الفِرار، وكانوا يقولون: إذا أردتَ أن ترى العيوب جَمَّةً، فتأمَّلْ عيَّابا فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العَيْب، ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح ١٥ أن تَنْهى مرشدا أو تُغْرى مُشْفقا، وما أريد بما قلت إلا هدايتَكم وتقويمَكم وصلاحَ فسادكم، وإبقاءَ النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم، ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما ٱخترناه لأنفسنا قبلكم، وشُهِرْنا به فى الآفاق دونكم، ثم نقول فى ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: (وَمَا أُرِيدُ

أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) فما كان أحقكم فى كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، على مارعيناه من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفخرا، لرأينا فى أنفسنا عن ذلك شغلا، عبتمونى بقولى لخادمى : أجيدى العجين فيكون أطيب لطعمه، وأزيد فى ريعه، ٥
وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أملكوا العجين فإنه أحد الريعين، وعبتمونى حين ختمت على سَلٍّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رطبة غريبة، على عبد نهم، وصبيّ جشع، وأمة لكعاء، وزوجة مضيعة، وليس بين أهل الأدب، ولا فى ترتيب الحكم، ولا فى عادات القادة، ولا فى تدبير السادة، أن يستوى — فى نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب — التابع ١٠
والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوى مواضعهم فى المجالس، ومواقع أسمائهم فى العنوانات، ومن شاء أطعم كلبه الدجاجة السمينة، وعلف حماره السمسم المقشر، وعبتمونى بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مُدّ سويق، وختم على كيس فارغ، وقال طينة خير من ظِنَّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم على من ختم على شيء، وعبتمونى أيضا، أن قلت للغلام : إذا زدت فى المرق، فزد فى الإنضاج، ١٥
ليجتمع مع التأدم باللحم طيبُ المرق، وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « إذا طبخ أحدكم لحما، فليزد من الماء، فمن لم يصب لحما أصاب مرقا، » وعبتمونى بخصف النعل، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المخصوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنُّسك، وأن الترقيع من الحزم، والتفريق من التضييع، والاجتماع مع الحفظ،

وقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نعلَه ، ويُرَقّع ثوبه ، ويَلْطَع أصابعه ، ويقول : «لو أهدِىَ إلىّ كُرَاع لقبلت ، ولو دُعِيتُ إلى ذراع لأجبت» وقال صلى الله عليه وسلم «من لم يَسْتَحِى من الحلال ، خفت مَئُونته ، وقلّ كِبْرُه» . وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يَلْبَس الخَلَق ، وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحَدِّثا ، وآشترط عليه أن يكون عاقلا ، فأتاه به موافقا ، فقال له : أكنتَ به ذا معرفة ؟ قال : لا ، ولكنّى رأيته فى يوم قائظ ، يلبَس خَلَقا ، ويلبس الناس جديدا ، فتفرّست فيه العقل والأدب ، وقد علمت أن الخَلَق فى موضعه ، مثل الجديد فى موضعه ، وقد جعل الله لكل شىء قَدْرًا ، وسمى له موضعا ، كما جعل لكل زمان حالا ، ولكل مقام مقالا ، وقد أحيا الله بالسّم ، وأمات بالغِذَاء ، وأغصّ بالماء ، وقتل بالدواء ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين ، كما زعموا أن قلّة العيال أحد اليسارين ، وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز وأمر مالك بن أنس بفرك البَعر ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة ، ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية ، وقال رجل لبعض الحكماء : أريد أن أهدىَ لك دجاجة ، قال : إن كان لا بدّ ، فاجعلها بيُوضا ، وعبتمونى حين قلت : من لم يعرف مواضع السَّرَف فى الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد فى الممتنع الغالى ، وقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية ، وأشفّ من الكفاية ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت فى الأعضاء فضلا عن الماء ، فعلمت أن لو كنت مكّنتُ الاقتصاد فى أوائله لخرج أوّله على كفاية آخره ، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنعتموه علىّ ، وقد قال الحسن وذكر السرف : أما إنه ليكون فى الماء والكلا ، فلم يرض

بذكر المـاء حتى أردفه بالكلإ ، وعبتمونى أنى قلت : لا يغترّن أحد بطول عمره، وتقويس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوّته، وأن يرى دخله أكثر من رزقه فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده ، وتحويله إلى ملك غيره، أو تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه، فلعلّه أن يكون معمّرا وهو لا يدرى وممدودا له فى السن وهو لا يشعُر، ولعلّه أن يُرْزَقَ الولَدَ على اليأس ، وتُحدِث عليه آفات الكِبَر ما لا يخطر على باله ، ولا يدركه عقله ، فيستردّه ممن لا يردّه ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبح ما كان له أن يطلب ، فعبتُمونى بذلك ، وقال عمرو بن العاص : اْعْمَل لدنياك عَمَـلَ من يعيش أبدا ، واْعْمَل لآخرتك عَمَلَ من يموت غدا ، وعبتمُونى بأن قلت : إن التلف والتبذير إلى مال المواريث ، وأموال الملوك ، وإن الحفظ الى المـال المكتسب ، والغنى المجتلب ، والى ما يعرض فيه بذهاب الدين ، واْهتضام العرض ، ونصب البدن ، واْهتمام القلب أسرع ، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع المـال ، ومن لم يعرف للغنى قـدره فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذلّ ، وعبتمُونى بأن زعمت أن كسب الحلال ، مُضمَّن بالإنفاق فى الحلال ، وأن الخبيث ينْزع إلى الخبيث ، وأن الطيِّب يَدعو إلى الطيِّب ، وأن الإنفاق فى الهوى ، حجاب دون الحقوق ، وأن الإنفاق فى الحقوق حجاب دون الهوى ، فعِبتُم علىّ هـذا القول ، وقد قال معاوية بن أبى سفيان : لم أر تبـذيرا قطّ ، إلا وإلى جنبه حقٌّ مُضَيَّع ، وقال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله ، فانظروا فى أىّ شىء ينفقه ، فإن الخبيث إنما يُنْفَق فى السرف ، وقلت لكم بالشفقة عليكم ، وحسن النظر منّى إليكم ، أنتم فى دار الآفات ، والجوائحُ غير مأمونات ، فإن أحاطت بمـال

أحدكم آفةٌ، لم يرجع إلى ثقة، فاحذروا النِّقم، باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجرى في الجميع، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه في العبد، والأمة، والشاة، والبعير: فرّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين، وقال ابن سيرين [لبعض البحريين] (1): كيف تصنعون في أموالكم؟ قالوا: نفرّقها في السفن، فإن عَطِب بعض، سلم بعض، ولولا أن السلامة أكثر، ما حملْنا أموالنا في البحر، فقال ابن سيرين: تَحْسَبُها خَرْقَاء وهي صَنَاعٌ، وعبتمُونى بأن قلت لكم عند إشفاقى عليكم: إن للغنى سُكْرًا، والمال نَزْوَةٌ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره، فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال لخوف الفقر فقد أهمله، فعبتمُونى بذلك، وقد قال زيد بن جَبَلَة: ليس أحدٌ أقصر عقلا، من غَنِيٍّ أَمِنَ الفقرَ، وسكرُ الغِنى أشدُّ من سكر الخمر، وقد قال الشاعر في يحيى ابن خالد

وَهُوبٌ تِلَادِ المالِ فيما ينوبُهُ * مَنُوعٌ إذا ما مَنْعُه كان أَحْزَمَا

وعبتمُونى حين زعمتم، أنّى أقدّم المالَ على العلم، لأن المال به يُفاد العلم، وبه تقوم النفس، قبلْ أن يُعرَف فضلُ العلم، فهو أصل، والأصل أحقُّ بالتفضيل من الفرع، فقلتم. كيف هذا؟ وقد قيل لبعض الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بالُ العلماء يأتون أبوابَ الأغنياء، أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحقّ المال، وجهل الأغنياء بحقّ العلم، فقلت: حالها هى القاضية بينهما، وكيف يستوى شىء حاجة العلماء إليه، وشىء يغنى فيه بعضهم عن بعض، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتّخاذ الغَنَم، والفقراء باتّخاذ الدَّجاج، وقال أبو بكر الصدِّيقُ رضى الله عنه: إنى

(1) الزيادة لازمة من كتاب البخلاء.

لأبعض أهل البيت ينفقون نفقةَ الأيام فى اليوم الواحد، وكان أبو الأسود الدُّؤَلِيّ يقول لولده : إذا بَسَط الله لك فى الرزق فابْسُط، وإذا قبض فاقبِض ، وعبتُمُونى حين قلت : إن فضل الغِنَى عن القوت، إنّما هو كفضل الآلة تكون فى البيت، إن آحتيج إليها آستُعْمِلت، وإن آستغنِيَ عنها كانت عُدّةً، وقد قال الحُصَيْنُ بن المنذر: ودِدْتُ أن لى مثلَ أُحُد ذهبا لا أنتفع منه بشىء، قيل له : فما كنتَ تصنع به ؟ ٥ قال : لكثرة مَنْ كان يخْدُمنى عليه، لأن المـال مخدوم، وقال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن فيـه إلا أنه عِزٌّ فى قلبك، وذُلٌّ فى قلب عدوّك، لكان الحظّ فيه جسيما، والنفع عظيما، ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتأدّب الخلفاء، وتعليم الحكماء، لأصحاب الهوى، فلستم علىّ تردّون، ولا رأيى تُفَنِّدون، فقدّموا النظر قبل العَزْم، وأَدْرِكوا ما عليكم من قبل أن تُدرِكوا مالكم، والسلام . ١٠

***

ومن نوادر البخلاء، قال رجل لبعض البخلاء : لِمَ لا تدعونى إلى طعامك؟ قال : لأنك جَيِّدُ المَضْغ سريعُ البَلْع، إذا أكلتَ لُقْمَةً هَيَّأْتَ أخرى، قال: يا أخى أتريد إذا أكلتُ عندك أن أُصَلِّيَ ركعتين بين كلّ لقمتين ؟ .

وقال آخرُ لبخيل : لِمَ لا تدعونى إلى طعامك ؟ قال : لأنك تُعلِّق، وتُشـدِّق، ١٥ وتُحـدِق ، أى تحمل واحدة فى يدك ، وأخرى فى شِـدْقك ، وتنظر إلى الأخرى بعينك .

وقال بعض البخلاء : أنا لا آكل إلا نصفَ الليل ، قيل له : ولِمَ ؟ قال يَبْرُدُ المـاء، وينْقَمِع الذُّباب، وآمَنُ فَجْأة الداخل، وصَرْخَةَ السائل .

وطبخ بعض البخلاء قِدْراً ، وجلس يأكل مع زوجتــه فقال : ما أطيبَ هذا الطعامَ! لولا كثرة الزِّحام، فقالت : وأىّ زحام وما ثَمَّ إلا أنا وأنتَ؟ قال : كنت أُحِبُّ أن أكون أنا والقِدْر .

وقال بعض البخلاء لغلامه : هاتِ الطعامَ ، وأَغْلِقِ الباب، فقال : يا مولاى، ليس هذا بحَزْم، و إنَّمــا أُغْلِقُ الباب، وأُقَدِّم الطعام، فقال له : أنت حُرٌّ لوجه الله .

وعزم بعضُ إخوانِ أَشْعَبَ عليه ليأكلَ عنــده ، فقال : إنِّى أخاف من ثقيل يأكل معنا فينغِّص لذّتنا ، فقال : ليس عنــدى إلا ما تُحِبُّ فمضى معه فبينما همــا يأكلان ، إذا بالباب قد طُرِق ، فقال أشعب : ما أرانا إلا صِرْنا لمــا نكره، فقال صاحب المنزل : إنه صديق لى، وفيه عشْرُ خصال، إن كرهتَ منها واحدة لم آذن له ، فقال اشعب : هاتِ ، قال : أولها ، أنه لا يأكل ولا يشرب ، فقال : التسعُ لك ودَعْه يدخل ، فقد أَمِنَّا منه ما نخافه .

ذكر ما قيل فى التطفيل

ويتصــل به أخبـارُ الأَكلة والمُؤَاكلة

والتطفيل من اللؤم، وهو التعرّض إلى الطعام، من غير أن يدعى إليه، وسنذكر تلو هذا الفصل آدابَ الأكل ، والمُؤَاكلة ، والاقتصاد فى المطاعم ، والعفَّة عنها، وما يجرى هذا المَجْرَى، و إن كان خارجا عنه، و إنما الشيء يُذْكر بالشيء، والعرب تقول للطفيلِىّ : الوارِش، والراشِن، قيل : هو مشتق من الطَّفَل، وهو الظلمة لأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذى لم يُدْعَ إليه مستترا بالظلمة، لئلا يُعرَفَ . وقيــل : سُمِّى بذلك ، لإظلام أمره على الناس ، لا يدرى مَنْ دعاه . وقيل : بل

من الطَّفَل لهجومه على الناس كهجوم الليل على النهار، فيكون من الظلمة، ولذلك قيل: "أطفل من ليل على نهار"، وأوّل من سمى بهذا الاسم: طُفَيل العَرائس، وإليه ينسب الطُّفَيليّون، وكان يقول لأصحابه: إذا دخل أحدُكم عُرسا، فلا يلتفت تلفّت المريب، ويتخيّر المجالس، وإن كان العُرس كثيرَ الزحام، فليمض ولا ينظر فى عيون الناس، ليظنّ أهلُ المرأة أنه من أهل الرجل، ويظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة، وإن كان البوّاب غليظا فاحشا، فليبدأ به، ويأمره وينهاه من غير أن يُعَنِّف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال .

وأشهر من نُسب إليه هذا الاسم، وكثرت عنه الحكايات، بُنَان الطُّفَيلى، وهو عبد الله بن عثمان، ويكنى أبا الحسن، ولقبه بُنَان، وأصله مَرْوَزِىّ وأقام ببغداد، وكان نقشُ خاتمه، "مَالَكُمْ لَا تَأْكُلُونَ" . حكى أن رجلا سأله أن يدعو له، فقال: اللهم آرزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المَعِدَة، وأَمْتِعه بِضِرْس طَحُون، ومَعِدة هَضُوم، مع السعة والدَّعَة، والأمن والعافية؛ وقال يُوصى بعضَ أصحابه: إذا قعدتَ على مائدة وكان موضعُك ضيِّقا فقل للذى يليك: لعلى ضيقتُ عليك فإنه يتأخر إلى خلف، ويقول: موضعى واسع، فيتسع عليك موضع رجل؛ وقال له طفيلىٌّ: أوصنى، فقال: لا تصادِفَنّ من الطعام شيئا، فترفع يدك عنه وتقول: لعلِّى أصادف ما هو أطيب منه، فإن هذا عجز ووَهَن، قال: زدنى، قال: إذا وجدت خبزا فيه قِلّة، فكُلِ الجروف، فإن كان كثيرا فكل الأوساط، قال: زدنى، قال: لا تكثر شرب الماء وأنت تأكل، فإنه يصدّك عن الأكل، ويمنعك من أن تستوفى، قال: زدنى، قال: إذا وجدت الطعام، فكل منه أكل من لم يره قط، وتزوّد منه زاد من لا يراه أبدا، قال: زدنى، قال: إذا وجدت الطعام، فآجعله زادك إلى الله تعالى،

وقال : إذا دعاك صديق لك ، فاقعد يَمْنَةَ البيت فإنّك ترى ما تُحِبّ ، وتسودهم فى كلّ شىء ، وتسبقهم إلى كلّ خير ، وأنت أوّل من يغسل يده والمِنْديل جافّ ، والماء واسع ، والخِوان بين يديك يوضع ، والنبيذ أوّل القِنِّينة و رأسها تشربه ، والنقل منتخب ، يوضع بين يديك ، وتكون أوّل من يتبخّر ، فإذا أردت أن تقوم لحاجة لم تحتج أن تتخطّاهم ، وأنت فى كل سرور الى أن تنصرف . قال البديع الهمذانىّ فى طفيليّين يشبههم بُنَان

خلقتُم بَنَانا فكم من أديبٍ * من الغَيْظ عَضّ عليكم بَنَانا
إذا ما النهار بدا ضوءُه * غدوتُم خِماصا ورُحْتُم بِطانا

ومنهم : عثمان بن دَرّاج ، قيل له : كيف تصنع إذا لم يدخلك أهل العُرس ؟ قال : أنوح على الباب ، فيتطيّرون فيدخلوننى . وحكى أبو الفرج الأصفهانى : أن عثمان هذا ، كان يلزم سعيد بن عبدالكريم الخطابىّ أحد ولد زيد بن الخطاب ، فقال له : ويحك ! إنى أبخل بأدبك وعلمك ، وأضنّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولى وظيفة راتبة فى كلّ يوم ، فالزمنى وكن مدعوّا ، أصلح لك مما تفعل ، فقال : يرحمك الله فأين لذّة الجديد ، وطيب التنقل كل يوم إلى مكان ؟ وأين هُوَيْناك ووظيفتك من احتفال العرس ؟ وأين ألوانك من ألوان الوليمة ؟ قال : فأما إذا ثبت ذاك : فإذا ضاقت عليك المذاهب فأتنى قال : أمّا هذا فنعم ؛ قال : وقال له رجل : ما هذه الصُّفرة التى فى لونك ؟ قال : من الفترة التى بين القَصْعَتين ، ومن خوفى فى كل يوم من نفاد الطعام قبل أن أشبع ؛ وقيل له مرة : هل تعرف بستان فلان ؟ فقال : إى والله ، وإنه لجنة الحاضرة فى الدنيا ، قيل له : فلم لاتدخل اليه فتأكل من ثماره ، وتقيل

تحت أشجاره، وتسبح فى أنهاره؟ قال: لأن فيه كلبا لا يتضمض إلا بدماء عراقيب الرجال، وعثمان هذا الذى يقول

لَذَّة التطفيل دُومى * وأَقيمى لا تَرِيمى

أنت تشفين غَليلى * وتُسلِّين هُمُومى

ولهم أخبار وحكايات، منهـا: ما نقل عن نصر بن علىّ الجهضمىّ أنه قال: كان لى جار طفيلىّ، إذا دعيت إلى مدعاة ركب معى وجلس حيث أجلس، فيأكل وينصرف، وكان نظيفا عطرا، حسن اللباس والمركب، وكنت لا أعرف من أمره إلا الظاهر، فاتفق لجعفر بن القاسم الهاشمىّ حقٌّ دعا له أشراف البصرة ووجوهها، وهو يومئـذ أمير البصرة، فقلت فى نفسى: إن تبعنى هـذا الرجل إلى دار الأمير لأخزينه، فلما كان يوم الحضور، جاءنى الرسول، فركبت، وإذا به قد تبعنى حتى دخل بدخولى، وآرتفع حيث أُجلست، فلما حضرنا الطعام، قلت: حدّثنا دُرُسْتُ آبن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن آبن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دخل إلى دار قوم بغير إِذْنهم، دخل سارقا، وخرج مُغيرا، ومن دُعِى ولم يُجب فقد عصى اللهَ ورسولَه»، فظننت أنى قد أشرفت على الرجل وقصّرت من لسانه، فأقبل علىّ وقال: أعيذك بالله من هذا الكلام فى دار الأمير، فإن الأشراف لا يحتملون التعريض باللؤم، وقد حَظَر الدينُ التعريضَ، وعزّر عليه عمر رضى الله عنه، ووليمة الأمير دعاء لأهل مصره فإنه سَلِيلُ أهل السقاية، والرفادة، والمطعمين الأفضلين الذين هَشَمُوا الثَّرِيد، وأبرزوا الجِفَان لمن غدا إليهـا، ثم لا تُوزع وأنت فى بيت من العلم معروف من أن تحدّث عن درست بنِ زياد وهو ضعيف عن أبان آبن طارق وهو متروك الحديث بحكم رفعه الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، والمسلمون

على خلافه ، لأن حكم السارق القطع ، والمغير يُعَزَّرُ على ما يراه الإمام، وهذان حكمان لا ينفذان على داخلٍ دارا فى مجمع فيتناول لُقَما من فضل الله الذى آتى أهلها ثم لا يُحدِثُ حدثا حتى يخرجَ عنها ، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « طعامُ الواحد يكفِى الاثنين، وطعامُ الاثنين يكفِى الأربعَة » ، حدّثنا بذلك أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسناد والمتن ؟ قال نصر : فأصابتنى خَجْلَة شديدة ، فلما نظر الرجل إلى ما بى أكل ونهض قبلى ، فلما خرجت وجدتُه واقفا على دابتـه بالباب ، فلما رآنى تبعنى ، ولم يكلّمنى ولم أكلّمه ، إلا أنى سمعته يتمثل

ومَن ظنّ ممّن يُلاقِى الحروب * بأنْ لا يُصاب فقد ظَنّ عَجْزا

وقيل : مرّ طفيلىٌّ بسكة النَّخَع بالبصرة على قوم ، وعندهم وليمة ، فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلســه مع مَنْ دُعِى ، فأنكره صاحب المنزل ، فقال له : لو تأنّيتَ أو وقفت حتّى يُؤْذَنَ لك ، أو يُبعثَ إليك ، فقال : إنما اتُّخذتِ البيوتُ ليُدخَلَ إليها ، ووُضعتِ الموائدُ ليؤكَلَ ما عليها ، وما وجّهت بهديّة فأتوقع الدعوة ، والحِشْمَةُ قطيعةٌ ، واطِّراحُها صلَةٌ ، وقد جاء فى الأثر : « صِلْ مَنْ قطعك ، وأعْطِ مَنْ حرمك » ، ثم أنشد

كلَّ يوم أدورُ فى عَرْصَة الدّا * ر أشُمُّ القُتَـار[1] شمَّ الذُّبابِ
فاذا ما رأيتُ آثارَ عُرْس * أو دُخَانا أو دَعْوةَ الأصحابِ
لم أُعرِّج دونَ التقحُّم لا أر * هَب شتمـا ولَكْزة البوّابِ
مُستهِينا بمن دخَلت عليـه * غيرَ مُسـتأذن ولا هيَّـابِ
فترانى أُلُفُّ بالرغم منــه * كلَّ مَا قدّموه لَفَّ العُقَابِ

(١) القتار : ريح الشواء .

ووصف طفيلىّ نفسه فقال

نحنُ قومٌ إذا دُعينا أَجبْنَا * ومتى نُنْسَ يَدْعُنَا التطفيلُ

قولنـا : علَّنا دُعينَا فَغِبنَا * أَوْ أتانا فلم يَجِدْنَا الرســولُ

وقال آخر

نحنُ قومٌ نُحِبُّ هَدْىَ رسولِ اللهِ هَــدْياً به الصوابَ أَصَبْنَا ٥

فادْعُنا كلَّمــا بَسطْتَ فإنَّا * لَو دُعِينا إلى كُرَاعٍ أَجَبْنَا

وقال آخر

نحنُ قومٌ إن جفا النَّا * سُ وَصَلْنَا من جفانا

لا نُبالى صاحب الدَّا * ر نَسِــينا أم دَعانا

وقال آخر وقد أقبل إلى طعام، من غير أن يُدْعى إليه فقال له صاحب الصنيع: ١٠
مَنْ دعاك ؟ فأنشد

دعوتُ نفسى حين لم تَدْعُنى * فالحمدُ لِى لا لكَ فى الدَّعوةِ

وكان ذَا أحسن من مَوْعِدٍ * إخلافُه يدعو إلى جفــوةِ

وقد مدح أبو رَوْح ظفر بن عبدالله الهَرَوِىّ طُفَيلياً ولم يسبق إليه، فقال

إنَّ الطفَيْــلِىَّ له حُرْمَةٌ * زادت على حُرمة نَدْمَانى ١٥

لِأنَّه جاء ولم أَدْعُـــه * مبتدِئاً منــه بإحســانِ

ودخل طفيلىّ إلى قوم فقالوا له : ما دعوناكَ ! فمـا الذى جاء بك ؟ فقال :
إذا لم تدعونى ولم آت، وقعت وحشة، فضحكوا منه وقرّبوه .

وقيل : مرّ طفيليّ على قوم يتغدّون، فقال : سلام عليكم معشرَ اللئام، فقالوا : لا والله، ! بل كرام، فثنى ركبتَه ونزل، وقال : اللهــمّ آجعلهم من الصادقين، وآجعلنى من الكاذبين .

قال هشام أخو ذى الرمّة لرجل أراد سفرا : إن لكل رُفقة كلبا يشركهم فى فضلة الزاد، فإن آستطعت أن لا تكون كلب الرِّفاق فآفعل . ٥

ونظر طفيليّ إلى قوم من الزنادقة يُسار بهم إلى القتل، فظنهم يُدْعون الى صنيع، فتلطّف حتّى دخل فى لفيفهم وصار كواحد منهم، فلما بلغوا صاحب الشُّرطة، أمر بضرب أعناقهم، فقدّموا واحدا بعد واحد حتّى آنتهوا إلى الطفيليّ فلما قُدِّم للقتل آلتفت إلى صاحب الشُّرطة، فقال له : إنّى والله ما أنا منهم، ولا أعلم بما يدينون، وإنمــا أنا طفيليّ ظننتُهم يُذْهَبُ بهم إلى صنيع، فتلطّفت حتّى دخلت فى جملتهــم، ١٠ فقال ليس هذا مما ينجيك، آضربوا عنقه، فقال : أصلحك الله، إن كنتَ عزمتَ على قتلى، فأمر السياف أن يضرب بطنى بالسيف، فإنه هو الذى أوقعنى فى هــذه الورطة، فضحك، وكشف عنه، فأُخبِر أنه طفيليّ معروف، فخلّى سبيله .

وحُكِى أن المأمون أمر أن يُحمل إليــه عشرة مــن الزنادقة سُمُّوا له من أهــل البصرة، فجُمِعوا، فأبصرهم طفيليّ، فقال : ما آجتمعوا إلا لصنيع، فدخل فى وسطهم ١٥ ومضى بهم الموكَّلون، حتّى آنتهوا إلى زورق قد أُعِدَّ لهم، قال الطفيليّ : هى نُزْهة، فدخل معهم الزَّورق، فلم يكن بأسرع من أن قُيِّدوا، وقُيِّد معهم الطفيليّ، ثم سِير بهم إلى بغداد، فأُدْخِلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلا رجلا، ويأمر بضرب (١٠٢) أعناقهم، حتّى وصل إلى الطفيليّ، وقد آستوفى العِدّة، فقال للموكلين : ما هــذا ؟ قالوا : والله ما ندرى، غيرَ أنَّا وجدناه مع القــوم، فجئنا به، فقــال له المأمون : ٢٠

ما قصَّتُك؟ ويلك! فقـال يا أمير المؤمنين : آمرأتى طالق إن كنت أعرف من أقاويلهم شيئا ولا ممـا يدينون به وإنمـا أنا رجل طفيلىّ ، رأيتُهـم مجتَمِعين ، فظننتُ صنيعا يُدْعَون إليـه ، فضحك المـأمون وقال : يُؤَدَّبُ ، وكان إبراهيم بن المهدىّ قائمـا على رأس المأمون فقال : يا أمير المؤمنين ، هب لى أدبه ، وأحدثك بحديث عجيب عن نفسى ، قال : قل يا إبراهيم ، قال : يا أمير المؤمنين ، ٥ خرجتُ من عندك يوما ، فطُفتُ فى سِكَك بغداد متطرِّفا ، حتّى آنتهيت إلى موضع كذا ، فشممت من قُتَار أبازير قُدور قد فاح ، فتاقت نفسى إليهـا ، وإلى طِيب ريحها ، فوقفت إلى خياط ، فقلت له : لمَنْ هذه الدار؟ فقال : لرجل من التجّار ، قلت : ما آسمه؟ قال : فلان بن فلان ، فرميت بطرفى إلى الدار ، فإذا شُبّاك فيها مطلٌّ ، وإذا كَفٌّ قد خرج من الشُّبّاك ومِعْصَم ، فشغلنى حسنُ الكفِّ والمعصم عن ١٠ رائحة القُدور ، فَبُهِتُّ ساعة ، ثم أدركنى ذهنى ، فقلت للخياط : أهو ممّن يشربُ النبيذَ؟ قال : نعم ، وأحسب أن عنده اليومَ دعوة ، وهو لا ينادم إلا تُجّارا مثله مستورين ، فإنى لكذلك ، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدَّرْب ، فقال لى الخياط : هؤلاء منادماه ، فقلت : ما آسماهما وما كُنَاهما؟ فقال : فلان وفلان ، فحرّكتُ دابتى وداخلتهما ، وقلت : جُعِلْتُ فِدَاكما ، قد آستَبْطَأَكما أبو فلان ، وسايرتهما حتّى بلغنا ١٥ البـاب فأجلّانى وقدّمانى ، فدخلت ودخلا ، فلما رآنى صاحب المنزل معهما ، لم يشكّ أنى منهما ، فَرَحَّبَ بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ، فجىء يا أمير المؤمنين بمائدة عليها خبز نظيف وأُتينا بتلك الألوان ، فكان طعمها أَطْيَبَ من رِيحها ، فقلت فى نفسى : هـذه الألوان قد أكلتُها ، بقيت الكَفُّ ، كيف إلى صاحبتها ؟ ثم رُفِع الطعام ، وجِىءَ بالوَضُوء ، ثم صرنا إلى مجلس المنادمة ، فإذا أشكل منزل ، وجعل ٢٠

صاحب المنزل يلطف بى ، و يميل علىّ بالحديث ، حتّى إذا شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية ، كأنها بدر ، تثنى يا أميرالمؤمنين كالخيزران ، فأقبلتْ ، وسلّمت غير خَجلة وثُنيت لها وِسَادة ، فجلست عليهـا ، وأُتى بالعود فوُضِع فى حِجْرِها ، فجسّته فآستبنتُ حِذْقها فى جَسِّها ، ثم آندفعت تُغَنِّى

توهّمَهَا طَرْفِى فأصـــبح خَدُّها * وفيه مكان الوَهْمِ من نظرى أَثْرُ

تُصافِحُها كَفِّى فتُؤْلِمُ كَفَّهَا * فمِنْ مَسِّ كَفِّى فى أناملها عَقْرُ

فهيّجتْ يا أمير المؤمنين بلابلى ، وطرِبتُ لحسن شعرها ، ثم آندفعت تغنّى

أشرتُ إليها هل عرفتِ مودّتى؟ * فردّتْ بطرف العين إنى على العهد

فَحِدْتُ عن الإظهار عَمْــدا لسرها * وحادت عن الإظهار أيضا على عَمْد

فصحت يا أمير المؤمنين ، وجاءنى من الطرب مالم أملك نفسى معه ، ثم آندفعتْ فغنّت الصوت الثالث

أليس عجيبا أنّ بيتا يَضُمُّنِى * و إياك لا نخـلو ولا نتـكَلَّمُ!

سوى أعين تشكوالهوى بجفونها * وتقطيع أكباد على النار تُضْرَمُ

إشارة أفواهٍ وغَمْــز حواجبٍ * وتكسـير أجفان وكَفّ تُسَلِّمُ

فحسدتها والله يا أمير المؤمنين على حِذْقِها ومعرفتها بالغناء ، و إصابتها لمعنى الشعر ، فقلت : بقِىَ عليك ياجارية ، فضربتْ بالعود على الأرض ، وقالت : متى كنتم تُحْضرون مجالِسَكم البُغَضَاءَ ؟ فندمتُ على ما كان منِّى ، ورأيت القوم قد تغيّروا لى ، فقلت : أما عندكم عود غير هذا ؟ قالوا : بلى ، فأُتيت بعود ، فأصلحت من شأنه ثم غنّيتِ

ما للنازل لَا يُجِبْنَ حَزِينا * أَصممْنَ أم قَدُم البِلَى فَبلِينا؟
راحوا العَشِيَّةَ رَوْحةً مذكورةً * إنْ مُتْنَ مُتْنا أو حَيِينَ حَيِينَا

فما آستَتْمَمْتُه يا أمير المؤمنين، حتَّى قامت الجارية، فأكبّت على رجلىّ تقبّلهما، وقالت: مَعْذرة ياسيدى، فوالله ما سمعت أحدا يُغَنِّى هذا الصوت غِنَاءك، وقام مولاها وأهل المجلس، ففعلوا كفعلها، وطرب القوم وآستحثّوا الشرب فشربوا، ثم آندفعتُ أُغَنِّى ٥

أَفِى الحقّ أن تَمْشِى ولا تَذْكرِنّنى * وقد هَمَعت عيناى من ذكرها الدّما
إلى الله أشكو بُخْلَها وسماحتى * لها عسل منى وتبذل عَلْقَما
فَرُدِّى مُصَابَ القلبِ أنتِ قتلتِه * ولا تَتْرُكيه ذَاهِلَ العقلِ مُغْرَما

فطَرِب القومُ حتَّى خرجوا من عقولهم، فأمسكت عنهم ساعة حتَّى تراجعوا، ثم غنّيتُ الثالث ١٠

هذا مُحِبُّك مطوِيًا على كَمَدِهْ * عبرى مدامُعه تَجْرِى على جسدهْ
له يَدٌ تسأل الرحمنَ راحته * مما به ويَدٌ أخرى على كَبِدِه

فجعلت الجارية تصيح: هذا الغِناء والله ياسيدى، لا ما كُنّا فيه منذ اليوم، وسَكِرَ القومُ، وكان صاحب المنزل حسنَ الشرب، صحيحَ العقل، فأمر غلمانه أن يُخرِجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم، وخلوتُ معه، فلما شرِبْنا أقداحا، قال: ياسيدى، ذهب ما مضى من أيامى ضَيَاعا، إذ كنتُ لا أعرفك، فمن أنت؟ ولم يزل يلِحّ علىّ، حتَّى أخبرتُه الخبَر، فقام وقبّل رأسى، وقال: وأنا أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لملك! وإنى لجالس مع الخلافة ولا أشعر، ثمّ سألنى عن قصتى، فأخبرته حتَّى بلغتُ إلى صاحبة الكف والمعصم، فقال للجارية: قومى فقولى لفلانة تنزل، فلم تزل تنزل ١٥ (١٠٣) ٢٠

جواريه واحدةً واحدةً، فأنظر إلى كَفِّها ومِعصَمِها، وأقول: ليس هى هذه! حتَّى قال: والله ما بقى غير أختى وأمى، والله لأنزلها إليك، فعجبتُ من كرمه وسعة صدره، فقلت: جُعِلتُ فداك، ابدأ بالأخت قبل الأم فعسى أن تكون هى، فبرزتْ، فلما رأيتُ كَفَّهَا ومِعْصَمَها، قلت: هى هذه فأمر! غلمانه، فساروا إلى عشرة مشايخ من جِلَّة جيرانه، فأقبلوا بهم، وأمر بِبَدْرتين فيهما عشرون ألف درهم، ثمّ قال للشايخ: هذه أختى فلانة، أشهدكم أنى قد زوّجتها من سيدى إبراهيم بن المهدىّ، وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم، فرضيت وقَبِلت النكاح، فدفع إليها بَدْرة، وفرّق الأخرى على المشايخ وصرفهم، ثم قال: ياسيدى، أمهِّد بعض البيوت فتنام فيه مع أهلك، فأحشمنى مارأيت من كرمه، فقلت: أحضر عَمَارِيَّةً[1] وأحملها إلى منزلى، ففعل، فوالله يا أمير المؤمنين، لقد أتبعها من الجَهَاز ما ضاقت عنه بيوتنا، فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين، يشير إلى ولده، فعجب المأمون من كرم الرجل وألحقه فى خاصة أهله، وأطلق الطفيلىّ وأجازه.

ومن إنشاء المولى الفاضل تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانىّ وهو الذى حاز قصبات السبق فى فن الأدب على أترابه، وفاز من البلاغة بقِدْحها المُعَلَّى فى عُنفُوان شبابه، رسالة وضعها فى هذا الفنّ، وصار له بها على أهله غاية المنّ، مع نزاهة نفسه الأبِيّة، وآرتفاعه عن المطاعم الدنية، وإنما وضعها تجربة لخاطره، وضمها إلى فوائد دفاتره، وهى:

هذا عهد عهده زارِد بن لاقم، لبالع بن هاجم، آستفتحه بأن قال: الحمد لله مسهل أوقات اللذّات وميسّرها، وناظم أسباب الخيرات ومُكَثِّرها، وجاعل أسواق الأفراح قائمة على ساق، جابرة لمن ورد إليها بأنواع الإرفاد وأجناس الإرفاق، أحمده

(١) العمارية: هودج يُجلَس فيه.

على أن أحلّنا فى منازل السادات، أرفَعَ الدرجات، وأحلّ لنـا من الأطعمة الفائقة الطيّبات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تهدينا إلى المقام الرفيع، وتخصنا بالمحل الجسيم المنيع، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام، ومعدن الجسارة والإقدام، الجامع بين فضيلتى الطعان والطعام، صلى الله عليه وعلى آله أهـل السماحة والكرم والإكرام، صـلاة تُحِلُّ قائلها فى غُرُفَات الجنان فى دار السـلام، وبعد، فإن صـناعة التطفيل صناعةٌ مهوبة، وحِرْفَة هى عنـد الظرفاء محبوبة، لا يَلْبَس شِعارَها إلا كلُّ مقدام، ولا يرفع خافقَ علمها إلا من عُدَّ فى حِرْفته من الأعلام، ولا يتلو أساطير شهامتها إلا من آرتضع أفاويق الصَّفَاقة، ولا يهتدى لمنار عَلَائِهـا إلا من نزع عن مَنْكِبيه رِدَاء الرَّقاعة والحمـاقة، وكنتُ والفَوْد غُدَافِىّ الإهاب، والغصن رَيّان من ماء الشباب، والقَدّ يَميس فى حُلّة النشاط، والقـدَم تَذْرَع الأرض ذَرْعَ الآختباط، لا يُقام سوقُ وليمة إلا وأنا الساعى إليها، ولا ترفع أعلام نار مَأْدَبة إلا وكنت الواقف لديها، أتخذ الدروب شِباكا للآصطياد، وحبائل أبلغ بها لذيذ الآزدراد، قد جعلت المعطس حليف الهواء، والقلب نزيل الأهواء، فحيث عَبَقت روائح الأبازير من أعالى تلك القصور، وتمنـدلت تلك الشوارع بزعفران البُرَم والقُـدُور، ألقيت عصا المسـير على البـاب، وخَلبتُ بحسن أدبى قَلْبَ البواب، وأوسعت فى وصولى ألف حيله، وجعلتها على ما عندى من حسن فنونها مَخِيله، فلا دعوة، إلا وكنت عليهم دعوة، ولا وليمة خِتَان، إلا وقد طلعت على أرجائها مثل الجان، ولا سِمَاط تأنيب، إلا وكنتُ إليه الساعى المنيب، ولا تجمع ضيافة، إلا وكنت عليه أشد آفة، ولا ملاك عُرْس مشهود، إلا وآنتظمت فى سلك الشهود، يحسن فىّ قول القائل

لو طُبخَت قِدْر بمَطْمُورة * مَوقدُها الشام وأعلى الثغور
وأنت فى الصين لوافيتها * ياعالمَ الغيب بمـا فى القُدُور

واليوم قد مال القَويمُ إلى الاعوجاج، وعزّ بازى الشيب غُرَاب الشَّعر الدّاج، وقيّد الزمَنُ أقدامًا، ومنعت الشيخوخة إقداما، وصرتُ لحما على وَضَم، بعد أن كنت نارا على علَم، وقد أفادتنى التَّجْرِبةُ من هذه الصناعة فنونا، وتلت علىّ من محاسنها متونا، وقد أبقيت لكل مجمْع بابا، وفَذْلَكْت لكل مَشهد حسابا، وقد اقتضى حسن الرأى أن أفوض إليـك أمرها، وأودِع تأمورَ قلبك وحِسّك سِرّها، علمى بأنك الكَيِّس الفَطِن، بل الألْمعِىّ الذَّرِب المَرِن، لو عقدت أكلةُ الولائم بِغَابٍ وبِلَه، وأحسن بتأَتّيه الجميل مَدْخَلَه ومَخْرَجَه، وقد شاهدتُ من أعمالك الصالحة، ما يقال عند ذهابى: ما أشبه الليلة بالبارحة، وقد عَهِدتُ إليك، واستخرت الله فى التعويل عليك، فمثلك من يُخْطَب للمناصب، و يتسنَّم ذِرْوَة المراتب، ودونك ما أنطق به من الوصايا، واحفظ ما يسْرُدُه لسانُ القلم من جميل المزايا، إياك وموائدَ اللئام، وانزِل بساحات الكرام، واتخذ الشروع فى الشوارع حِرفة، وأظهر على مشيك صَلافة وعِفّة، ومَيِّز بعينك حُسْنَ المساطب ونَقْش الستُور، وجمـال الخدم وقُعود الصـدور، واقصِد الأبواب العاليـة، والأكلة المنقوشـة الحالية، فإن دُلِلت على مأْدبة نصبها بعض الأعيان، وجمع إليهـا أصحابه الإخوان، فالْبَسْ من ثيابك الجميلة قشيبَها، وضوِّع بالمنْدل الرطب طِيبَها، وأتقن خُبْرَ صاحب الدار وأخباره، وقف فى صدر الشارع من الحاره، فإذا رأيت الجمع وقد تهادَوْا بالهوادى والأقدام، وتهادَوْا فيما بينهم لذيذَ الكلام، تَقَدّمْ إليهم بقلب قَلَبَ الأمور، وعلم بحسن تطلّعه وتضلّعه داءَ الجمهور، وقل لهم: رب الدار قد استبطأكم، فما الذى أبطأكم؟ حتّى إذا قاربوا صُعُود العتبة،

ولم تبقَ هنا لك مَعْتَبَة ، تقدَّمْ رافعا لهم الستور ، ومعترفا بمقـدار أولئك الصدور ،
فالأضياف ، يعتقدون أنك غلام المضياف ، وربُّ الحلّة ، يعتقد أنك رفيق السادة
الجِلّة ، وإن وَلجْتَ مجتمع ختان ، وقد نُصبت فيه موائدُ الألوان ، وذُرْفِنَتِ الأبواب ،
وٱكفهرَّت وجوهُ الحُجّاب ، فاجعل تحت ضِبْنِكَ المجمع ، وٱخدع قلوبَهم فمثلك من
يَخْدَع ، وقل : رفيق الأستاذ ومعينُه ، ورِجْله التى يسعى بها بل يمينُه ، فحينئذ تُرْفَع ٥
الستُور ، وتُقَدَّمُ لك أطايبُ القُدور ، وإن رماك القَدَرُ على باب غفل عنـه
صاحبُه ، وسها فى غَلْقه حاجبُه ، وقد مدُّوا فى أوانيه سِمَاطا ، وجعلوا لأوائل من
يقدمه فِرَاطا ، وقد تقاربت الزبادى ، وٱمتدت الأيادى ، ورأيت السِّمَاط رَوْضَةً
تخالفت ألوانها ، وٱمتـدت أفنانها ، والموائد فيما بينها أفلاكٌ تدور بصحونها ، بل
بروج ثابتة تُشْعِرُ بسكونها ، فَلِجْ على غَفْلة من الرقيب ، وٱبسُط بَنَانَ الأكل وكُفَّ ١٠
لسان المجيب ، فإن قيل لك : أما غُلق دونك باب؟ فقل : ما على الكرماء من حِجَاب ،
وإيّاك والإطالةَ على الموائد ، فإنها مصايدُ الشوارد ، وإياك والقَذَارةَ عليها ، فإنها إمارة
الحِرْمان لديها ، وإن وقعتَ على وليمة كثيرة الطعام ، قليلة الازدحام ، كَبِّر اللقمة ولا تطل
عَلْكَها ، ومُر الفكَّ فى سرعة أن يَفُكَّهَا ، فإنك ما تدرى ما تُحدث الليالى والأيام ، خِيفةَ
أن يعثُرَ عليـك بعض الأقوام ، فتكتسى حُلَّة الخجَـل ، وتظهر على وجهك صُفرة ١٥
الوَجَل ، وٱجعل من آدابك ، تطلعك الى أثوابك ، ولا ترفع لمستجلّ وجها وجيها ،
وقل لمن يحادثك : إيه ولا تقل : إيها ، وجاوب بنعم ، فإنها مُعينة على ٱللُّقم ، وٱجعل
لكل مقام ما يناسبه من الحيلة ، ومِلْ على أهل الولائم والمآدب ميلَةً وأىّ ميلَة ،
وٱسأل عمن ورث من آبائه مالا ، وقد جمعـه بوَعْثَاء السفر وعنَائه حراما وحلالا ،
أهل يَعْقد مقاما؟ أم يبلُغ من دنياه بالقصف مراما؟ فإن قيل : فلان الفلانىّ رَبّ ٢٠

هــذه المثابة، وصاحب الدعوة المجابة ، فكن ثالثة الأثافى لِبابه، وآنتظم فى سلك
عشرائه وأترابه، وتفقّد الأســواق خصوصا الحمّامين ، ومواطنَ الطبخ ومساطبَ
المطربين، ومجمَع القراء ومعاهدَ محالّ الوعّاظ، وكلّ بقعة هى مَظَنّة فرح يعود عليك
نفعه وكن أوّل داخل وآخر خارج، ومل إلى الزوايا، فهى أجمل مالهذه الحِرْفة من
٥ المزايا، ونَقِّل ركابك فى كلّ يوم ، فتــارة فى سوق اللحم وتارة فى سوق الثّوْم ، وغيِّر
الحِليَة ، وقصِّر اللحْية ، وآبرُزْ كلّ يوم فى لباس ، فهو أكثر للآلتباس ، وجدِّد البَهْتَ
حتى تتخذه عصاك ، وتجعلَه ذَريعةً لمن عصاك ، وأتقن الفنون المحتاج اليها من غنى
ونجامة ، وطب وشهامة ، وتاريخ وأدب ، وكرم أصــل وحسب ، وحالتى التوقيت
والتنزيل ، فاجعلهما دأبك ، فإذا عرفوك ، وحضر الجمعُ وكشفوك ، فَطَرِّز كلّ محفل
١٠ بمحاسن أقوالك ، وكلّل جيدَ كلّ مأدُبة بجواهر أفعالك ، وآعلم أنهــا صنعة دَثَرَتْ
معالمُها ، وقلّ عالمُها ، ولو لم أَرَ على وجهك مخايلَ بِشْرِها ، وعلى أعطاف أردافك روائحَ
نَشْرِها ، لمــا ألقيتُ إليك كتاب عهدها ، ولا حَملتُ لبابك رايةَ مجْدِها ، فتلقَّ رايةَ
هذا العهد بساعدٍ مُسَاعِد ، وعَضُد فى الوُلُوج على الأسْمِطَة مُعاضِد ، فوضتُ اليك أمرَ
مَنْ تحلّى بجواهرها المنظومة ، ولَبِسَ حُلَلها القشيبةَ المرقومة ، وبسطتُ لسانَ
١٥ قلمك فى رَقْم عهودها ، وأذنتُ لك أن تُجْرِيَهم على سَنَن معهودِها ، وإياك أن تَعْهَدَ
إلا لمن ملك خِصَالها ، وجاس خلالها ، وآستجلى هِلالها ، وأتقن أحوالهــا ، ولايةً
عامّة ، وكلمــةً مُبْرَمَةً تامّة ، حَرَس الله بك مَعْقِلَ الأدب وآللطافة ، ومحَا بك معالِمَ (١٠٥)
الثقالة والكثافة .

ذكر آداب الأكل والمؤاكلة

قال الله تعالى (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) وروى أنّ داودَ عليه السلام أمر مناديَه فنادى : أيها الناس، ٱجتمعوا لأعلّمكم التقوى، فاجتمعوا فقام فى محرابه، فبكى ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : يأيها الناس، لا تُدخلوا ها هنا إلا طيّبا، ولا تُخرجوا منه إلا طيّبا، وأشار ٥ إلى فيه . قيل : أوّل آداب الأكل، معرفة الحلال من الحرام، والخبيث من الطيّب .

وأما الآداب فى هيئة المؤاكلة وأفعالها، فقد روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعاب طعاما قطُّ، إن ٱشتهاه أكله وإلا تركه . وروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَشُمُّوا الطعام كما تَشُمُّه البهائم، من ٱشتهى شيئا فليأكل، ومن كَرِه ١٠ فليَدَع » . وقال أَنَس : قَدِمَ النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة، وأنا ٱبن عشر، ودخل دارنا، فحَلَبْنَا له شاةً، فشرب، وأبو بكر عن يساره، وأعرابىّ عن يمينه، فقال عُمَرُ بن الخطاب رضى الله عنه : أعط أبا بكر، فقال صلى الله عليه وسلم : «الأيمنَ فالأيمن» وفى هذا المعنى يقول الشاعر

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمْرٍو ... وكان الكأسُ مَجْرَاها اليَمِينا ١٥

ورُوى عن أَنَس : أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم شرب جُرْعة، ثم قطع، ثمّ سَمَّى، ثم شرب جُرْعة، ثم قَطَع، ثم سَمَّى، ثم قَطَع الثالثة، ثمّ جَرَع مَصًّا، حتّى فرغ ثمّ حَمِد الله . وقد ندب إلى غسل اليد قبل الأكل فإنه ينفى الفقر، ويَنْفِى اللَّمَم؛ ومن السُّنّة : البَدَاءةُ باسم الله، وحَمْده عند الانتهاء .

رُوِى عن عمرَ بن أبى سَلمةَ أنه قال : مررت بالنبىّ صلى الله عليه وسلم وهو يأكل، فقال « ٱجلس يا بُنىّ وسمّ الله ، وكُلْ بيمينك مما يليك » .

وقال بعض السلف : إذا جَمَعَ الطعامُ أربعا ، فقد كَمُلَ كلُّ شىء ، إذا كان حلالا ، وذُكِرَ ٱسمُ الله عليه ، وكَثُرَتْ عليه الأيدى، وحُمِدَ اللهُ حين يُفْرَغُ منه .

٥ ورُوِى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال عند مَطْعَمِه ومَشْرَبِه بسم ٱلله خَيْرِ الأسماء رَبِّ الأرض والسماء لم يضره ما أَكَلَ وما شَرِب» وفى حديث عائشة رضى الله عنها ، عنه صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أكل أحدُكم فَلْيَذْكُرِ ٱسْمَ الله فإن نَسِىَ فى أوله ، فَلْيَقُلْ بِسْمِ الله فى أوله وآخره » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب ١٠ بشماله » .

ورُوِى : أنّ المسيحَ عليه السلام كان إذا دعا أصحابَه قام عليهم ، ثمّ قال: هكذا فاصنعوا بالفقراء .

و وصف شاعر قوما فقال

جُلُوسٌ فى مجالسهم رِزَانٌ * وإن ضَيْفٌ أَلَمَّ بهم وُقُوفُ

١٥ قال سَهْلُ بن حُصَين : شهدت الحسَنَ فى وليمة، فَطَعِم ثم قام ، فقال : مدّ الله لكم فى العافية، وأوسع عليكم فى الرزق، وٱستعملكم بالشكر .

ورُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تخلّلُوا فإنه نظافة والنظافة من الإيمان، والإيمان مع صاحبه فى الجنّة » .

وفى حديث عمر رضى الله عنه : عليكم بالخَشَبَتَيْن : يعنى السِّوَاكَ والخِلَالَ .

وكان بعضهم يقول لولده إذا رأى حرصه فى الطعام : يابُنَيَّ، عوِّد نفسك الأثرة، ومجاهدة الشهوة، ولا تَنْهَسْ نَهْسَ السِّباع، ولا تَخْضَمْ خَضْمَ البراذين، فإن الله جعلك إنسانا، فلا تَجْعَلْ نفسَك بهيمةً .

وحكى عن بعض الكتّاب قال : تغديت مع المأمون فالتفت إلىّ وقال : خِلال قبيحة عند الجلوس على الطعام : كثرةُ مسح اليد، والانكباب على الطعام، وكثرةُ أكل البقل، ومعنى ذمّه هذه الخلال الثلاث: أنه إذا أكثر مسح اليد فإنما ذلك من غَمْسها فى الطعام، والانكباب يدُلّ على شدّة الحرص وزيادة الشره والنَّهَم . قال الشاعر

لقد سَتَرَتْ منك الخوانَ عِمامَةٌ * دَجُوجِيَّـة ظَلْمَاؤها ليس تقلع

وأما البقل، فإن الحاجة إلى البُلْغة منه، وفى الإكثار منه تشبّهٌ بالبهائم، لأنه مرعاها .

وقيل : الأكل ثلاثة : مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب .

وقيل لبعض الحكماء : أىّ الأوقات أحمد للأكل ؟ فقال : أما مَنْ قَـدَر فإذا اشتهى، وأما من لم يَقْدِر فإذا وجد .

ذكر الاقتصاد فى المطاعم والعفّة عنها

قال الله عز وجل : (يابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْـدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « من زاره أخوه المسلمُ فقرّبَ إليه ما تيسر غفرَ له وجعـل فى طعامه البركةُ، ومن قُرِّب إليه ما تيسر فاستحقر ذلك كان فى مَقْت من الله حتَّى يخرج » . وقالت عائشة رضى الله عنها : أَوْلَمَ النبىّ صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه مُدَّيْنِ من شعير .

وقيل : كان عيسى بن مريم صلوات الله عليه يقول : اعملوا ولا تعملوا لبطونكم، وإياكم وفضولَ الدنيا، فإن فضولها رِجزٌ، هذه طير السماء تغدو وتروح، ليس معها من أرزاقها شيء، لا تحرُث ولا تحصد، والله يرزقها، فإن قلتم : بطوننا أعظم من بطونها، فهذه الوَحْشُ تغدو وتروح، وليس معها من أرزاقها شيء والله يرزقها .

٥ ورُوِى أَنّ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : لما دخل شهر رمضان كان يفطر ليلة عند الحسن، وليلة عند الحسين، وليلة عند عبد الله بن جعفر، لا يزيد على لقمتين أو ثلاث، فقيل له، فقال : إنما هى أيّام قلائل يأتى أمر الله وأنا خَمِيص؛ فقتل من ليلته .

وفى الحديث عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "من قلّ طُعْمُه صحّ بدنه ١٠ وصفا قلبه، ومن كثر طعمه سَقِمَ جسمه وقسا قلبه" . وعنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما زيّنَ الله رجلا بزينة أفضل من عَفَاف بطنه" . قال حاتم

أَبِيتُ خَمِيصَ البطنِ مُضْطَمِرَ الحشا * من الجوع أخشى الذّم أن أتضلعا

فإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤْلَه * وفَرْجَك نالا منتهى الذّم أجمعا

وقال بعضهم : رأيت مجنونا ببغداد، وهو على باب دار فيها صنيع والناس ١٥ يدخلون، وكنتُ ممن دُعى، فقلت : ألا تدخل فتأكل؟ فإن الطعام كثير، قال : وإن كثر فإنى ممنوع منه، فقلت : كيف والباب مفتوح، ولا مانع من الدخول؟ فقال : أآكل طعاما لم أُدْعَ إليه؟ لقد اضطرنى إلى ذلك غير الجوع، فقلت : ما هو؟ قال : دناءة النفس وسوء الغريزة، قال شاعر

وإنّى لَعَفٌّ عن مَطَاعِمَ جَمّةٍ * إذا زيّنَ الفحشاءَ للنفس جُوعُها

وقال آخر

وأعرِضُ عن مَطَاعِمَ قد أراها * فأتركها وفى البطن انطواءُ
فلا وأبيـك ما فى العيش خيرٌ * وفى الدنيا إذا ذهب الحيـاءُ!

قال الجنيد : مرّ بى الحارث بن أسد المحاسبىّ ، فرأيت فيه أثَرَ الجوع ، فقلت : ياعمّ ، تدخل الدار وتتناول شيئا ؟ قال : نعم ، فدخل ، وقدّمت إليـه طعاما حُمِل إلىّ من عُرْس ، فأخذ لقمة فلاكها ونَهَضَ فألقاها فى الدّهليز ومضى ، فالتقيت به بعـد أيام ، فقلت له فى ذلك ، فقال : كنت جائعا ، وأردت أن أسرّك بأكلى ، ولكن بينى وبين الله تعالى علامة ، أن لا يُسَوِّغنى طعاما فيـه شُبْهة ، فمن أين كان ذلك الطعام؟ فأخبرتُه ، ثم قلت له : تدخل اليوم ؟ قال : نعم ، فقدّمت إليه كِسَرًا كانت لنا فأكل وقال : إذا قدّمت لفقير شيئا ، فقدّم مثل هذا .

رُوِى أن عمرو بن العاص قال لأصحابه يوم الحكمين : أكثِرُوا لهم الطعام ، فوالله ما بَطِنَ قوم إلا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عَزْمَةُ رجل بات بطينا ، فلما وجد معاوية ما قال صحيحا ، قال : البِطْنَة تُذْهِب الفِطْنة .

ورُوِى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لا تُميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلوب تموت كالزّرع إذا كثر عليه المـاء» .

ودخل عمر رضى الله عنه على ابنه عاصم وهو يأكل لحما فقال : ما هذا؟ قال : قَرِمنا اليه . قال : ويحك ! قَرِمتَ إلى شىء فأكلتَه ، كفى بالمرء شَرَهًا أن يأكل كلَّ ما يشتهى .

قال ابن دريد : العرب تُعيِّر بكثرة الأكل ، وأنشد

لستُ بأكّال كأكل العبد * ولا بِنَوَّام كنَوْمِ الفَهْـد

وقال عمر رضى الله عنه : ما آجتمع عند النبىّ صلى الله عليه وسلم إدامان إلا أكل أحدَهُما وتصدّق بالآخر .

وقال أبو سليمان الدارانىّ : خيرُ ما أكون إذا لَصِقَ بطنى بظهرى ، أجُوعُ الجَوْعَة فأخرج تَرْحَمُنِى المرأةُ فما ألتفت إليها ، وأشبَع الشَّبْعَة فأخرج فأرى عينىّ تطمحان .

ذكر أخبار الأَكَلَة

قد نُسِب ذلك إلى جماعة من الأكابر وذوى الهمم ، فمن ذلك ما حكاه الحمدونىّ فى تذكرته : أن معاوية بن أبى سفيان أُتى بعجل مَشْوِىّ ، فأكل معه دستا من الخبز السميد ، وأربع فَرَانىّ[1] ، وجَدْياً حارا ، وجديا باردا ، سوى الألوان ، ووُضِع بين يديه مائةُ رطل من الباقِلّاء الرطب ، فأتى عليه ، وقيل : إنه كان يأكل كل يوم أربع أَكَلَات آخرهنّ أشدّهنّ ، ثم يقول : ياغلام ، ارفع ، فوالله ما شبِعت ، ولكنى مَلِلتُ .

ومنهم عُبَيد الله بن زياد ، كان يأكل فى اليوم خمسَ أكلات آخرها جنبة بغل ، ويُوضع بين يديه بعد ما يفرغ من الطعام عَنَاق[2] أو جَدْى فيأتى عليه وحدَه .

ومنهم الحجّاج بن يوسف ، قال سالم بن قُتَيبة : كنت فى دار الحجاج مع ولده ، وأنا غلام ، فقالوا جاء الأمير ، فدخل الحجاج وأمر بتنُّور ، فنُصِب ، وأمر رجلا يَخْبِزُ خبز الماء ودعا بسمك ، فأكل حتّى أتى على ثمانين جاما من السمك بثمانين رغيفا من خبز الماء .

ومنهم سليمان بن عبد الملك ، رُوِى أنه شُوِىَ له أربعة وثمانون خروفا ، فمدّ يده إلى كلّ واحد منها فأكل شحم أَليته ونصف بطنه ، مع أربعة وثمانين رغيفا ، ثم أَذِنَ للناس ، وقُدّم الطعام ، فأكل معهم أَكْلَ من لم يَذُق شيئا .

(١) الفرانىّ : خبزٌ يُشوى ويُروّى سمنا ولبنا وسكّرا .

(٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .

وقال الشَّمَرْدَل وكيل عمرو بن العاص : قَدِم سليمان بن عبد الملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبد العزيز، فجاء حتى ألقى صدره إلى غصن، ثم قال : يا شَمَرْدَل، ما عندك شيء تُطعِمُني؟ قلت عندى جَذَعٌ تغدو عليه حافل وتروح أخرى، قال : عجِّل به، فأتيته به كأنه عُكَّة سمن، فجعل يأكل، وهو لا يدعو عمر، حتى بقى منه فخذ، قال : يا أبا حفص، هَلُمّ، قال : إنى صائم، فأتى عليه، ثم قال : ياشمردل ويلك ! ما عندك شيء؟ قلت : دجاجات ست، كأنهن رِئلان النعام، فأتيته بهن فأتى عليهن، ثم قال : ويلك ياشمردل ! ما عندك ؟ قلت : سَوِيق كأنه قُراضة الذهب، فأتيته بعُسّ[1] يغيب فيه الرأس، فشربه، فلما فرغ تجشأ كأنه صارخ فى جُبّ، ثم قال : يا غلام ! أفرغْتَ من غدائنا؟ قال : نعم، قال : ما هو؟ قال : نَيِّف وثمانون قِدرا، قال : فأت بقدر قدر، وبقناع عليه رُقَاق، فأكل من كل قِدْر ثلاث لقم، ثم مسح يده وآستلقى على فراشه، فوضع الخِوان، وقعد يأكل مع الناس .

ومن المشهورين بالأكل، هلال بن الأَسْعر المازنى، قال المعتمر بن سليمان : سألته عن أكله فقال : جعتُ مرة ومعى بعيرٌ لى فنحرتُه وأكلتُه إلا ما حملتُ منه على ظهرى، فلما كان الليل راودتُ أمة لى فلم أصل إليها، فقالت كيف تصل إلىّ وبينى وبينك جمل ؟ فقلت له : كم بلّغتك هذه الأكلة ؟ فقال : أربعة أيام .

وحكى أبو سعيد منصور بن الحسن الأبِىّ فى كتابه المترجم بنثر الدّر : أن هلالا هذا أكل بعيرا، وأكلت آمرأته فصيلا وجامعها، فلم يتمكن منها، فقالت له : كيف تصل إلىّ وبينى وبينك بعيران؟ وله حكايات ذكرها الحمدونى فى التذكرة، والأبى فى نثر الدر تركناها اختصارا .

---

(١) العُسّ : القَدَحُ العظيم .

ومنهم محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، ذكر الجاحظ : أنه أكل يوما جنبى بكر شواء بعد طعام كثير .

ومن المشهورين بالنهم ، أحمد بن أبى خالد الأحول وزير المأمون، وكان المأمون إذا وجهه فى حاجة، أمره أن يتغدى ويمضى فرُفع إلى المأمون فى المظالم : إن رأى أمير المؤمنين أن يجرى على ابن أبى خالد نُزُلا ، فإن فيه كلبية ، إلا أن الكلب يحرس المنزل بكسْرة، وابن أبى خالد يقتل المظلوم، ويُعين الظالم بأكْلة، فأجرى عليه المأمون فى كل يوم ألف درهم لمائدته، وكان مع ذلك يشرَه الى طعام الناس . ولما انصرف دينار بن عبد الله من الجبل ، قال المأمون لاحمد بن أبى خالد : امض إلى هذا الرجل وحاسبه وتقدّم إليه بحمل ما يحصل لنا عليه وأنفذ معه خادما يُنْهى إليه ما يكون منه ، وقال : إن أكل أحمد عند دينار عاد إلينا بما نكره، ولما اتصل خبر أحمد بدينار، قال للطباخ: إن أحمد أشره من نُفخ فيه الروح، فإذا رأيته فقل له : ما الذى تأمر أن يتخذ لك ؟ ففعل الطباخ ، فقال أحمد : فراريج كسكرية بماء الرمان تقدّم مع خبز الماء بالسميد، ثم هَات بعدها ما شئت، فابتدأ الطباخ بما أمر،وأخذ أحمد يُكَلّم دينارا، فقال له : يقول لك أمير المؤمنين : إن لنا قبلك مالا قد حبسته علينا، فقال : الذى لكم ثمانية آلاف ألف، قال فاحملها، قال : نعم . وجاء الطباخ فاستأذن فى نصب المائدة، فقال أحمد : عجّل بها فإنى أجوع من كلب . فقُدّمت وعليها ما اقترح، وقدّم الدجاج وعشرين فروجا كسكرية فأكل أكل جائع نهِم ،ما ترك شيئا مما قدّم . فلما فرغ وقدّر الطباخ أنه قد شبع ، لوّح بطيفورية فيها خمس سمكات شبابيط كأنها سبائك الفضة . فأنكر أحمد عليه إلا قدمها ؟ وقال : هاتها ، وأعاد أحمد الخطاب ، فقال دينار : أليس قد عرفتك

أن الباقى لكم عندى سبعة آلاف ألف؟ قال أحسبك ٱعترفتَ بأكثر منها ، فقال : ما ٱعترفت إلا بها ، فقال : هاتِ خطك بما ٱعترفت به ، فكتب بستة آلاف ألف فقال أحمد : سبحان الله ! أليس قد ٱعترفت بأكثر من هذا ؟ قال : ما لكم قِبلى إلا هذا المقدار ، فأخذ خطه بها وتقدّم الخادم ، فأخبر المأمون بمـا جرى ، فلما ورد أحمد ناوله الخط ، فقال : قد عرفنا ما كان من الألف ألف بتناول الغداء ، فمـا بال الآلف ألف الأخرى ، فكان المـأمون بعد ذلك يقول : ما أعلم غداء قام على أحد بألفى ألف إلا غداء دينار ، وٱقتصر على الخط ولم يتعقبه كَرما ونُبْلا .

ومنهم أبو العالية ، حُكِى أنــ ٱمرأة حملت فحلفت إن ولدت غلاما لَأُشبِعَنّ أبا العالية خَبِيصا ، فولدت غلاما ، فأطعمته ، فأكل سبع جِفان ، فقيــل له : إنها حلفت أن تشبعك خَبِيصا ، فقال : والله لو علمت لمـا شبِعت إلى الليل .

ومنهم أبو الحسن بنــ أبى بكر العلّاف الشاعر دخل يوما على الوزير المُهَلَّبى ببغــداد ، فأنفذ الوزير من أخذ حِماره الذى كان يركبه من غلامه ، وأُدخل المطبخ وذُبِح وطُبِخ لحمــه بماء وملح ، وقُدِّم بين يديه ، فأكله كلّه وهو يظن أنه لحم بقر ، فلما خرج طلب الحمار ، قيل له : قد أكلتَه ، وعوّضه الوزير عنه ووصله ، فهذا كافٍ فى أخبار الأَكَلة .

ذكر ما قيل فى الجُبْن والفِرار

ومن أقبح ما هُجِى به الرجل أن يكون جبانا فرّارا ، وقد نهانا الله عزّ وجل عن الفرار ، فقال : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ ٱللَّهِ

ومأواه جهنم وبئس المصير) . وقال تعالى: (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم).
وقالت عائشة رضى الله عنها : إن لله خلقا، قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها، فأف للجبناء، أف للجبناء .

٥ وقال خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا، وما فى جسدى موضع إلا فيه طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى، كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء .

وقيل كتب زياد إلى ابن عباس : أن صف لى الشجاعة والجبن والجود والبخل فكتب إليه : كتبت تسألنى عن طبائع ركبت فى الإنسان تركيب الجوارح، اعلم أن

١٠ الشجاع يقاتل عمن لا يعرفه ، والجبان يفر عن عرسه ، وأن الجواد يعطى من لا يلزمه، وأن البخيل يمسك عن نفسه؛ وقال شاعر

يفر جبان القوم عن عرس نفسه * ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه

وقالوا : الجبن غريزة كالشجاعة يضعها الله فيمن شاء من خلقه .

قال المتنبى

١٥ يرى الجبناء أن الجبن حزم * وتلك خديعة الطبع اللئيم

وقالوا : حد الجبن الضن بالحياة، والحرص على النجاة .

وقالت الحكماء فى الفراسة : من كانت فزعته فى رأسه، فذاك الذى يفر من أمه وأبيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التى تؤويه .

ويقال : أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار . وقال هانئ الشيبانى

٢٠ لقومه يوم ذى قار يحرضهم على القتال : يابنى بكر ! هالك معذور، خير من ناج

فرور من المنيّة، ولا الدّنيّة، آستقبال الموت خير من آستدباره، الثغر فى ثغور النحور، خير منه فى الأعجاز والظهور، يا بَنِى بكر ! قاتلوا، فما من المنايا بُدٌّ ، الجبان مُبغَّض حتّى لأمّه، والشجاع مُحبَّب حتّى لعدوّه .

ويقال : الجُبنُ خيرُ أخلاق النساء، وشرّ أخلاق الرجال .

وقال يَعلَى بن مُنبِّه لقومه حين فروا من علىّ يوم صِفّين : إلى أين ؟ قالوا : ذهب الناس ، قال : أُفٍّ لكم ! فرارا وآعتذارا ! قال : ولما قوتل أبو الطيّب المتنبى ورأى الغلبة عليه فرّ، فقال له غلامه : أترضى أن يُحدَّث بهذا الفِرار عنك ؟ وأنت القائل

الخيـلُ والليـلُ والبيـداءُ تعرفُنى * والطّعنُ والضّربُ والقِرطاسُ والقلمُ

فكرّ راجعا، وقاتل حتى قُتِلَ، وآستقبح أن يُعيَّر بالفِرار .

وقال المنصور لبعض الخوارج عليه وقد ظفر به : أخبرنى عن أصحابى، أيهم كان أشدّ إقداما فى المبارزة، قال : لا أعرف وجوههم مقبلين وإنما أعرف أقفيتهم مُدْبِرين، فقل لهم : يُدْبِروا لأعرّفك أيّهم كان أشدّ فِرارا .

وقال آبن الرُّومىّ فى سليمان بن عبد الله بن طاهر

قِـرْنُ سليمانَ قـد أضَرَّ به * شوقٌ إلى وجهـه سيُدْنِفُهُ

لا يعرفُ القِرنُ وجْهَه ويرى * قفـاه من فَرْسخٍ فيعرِفُهُ

وقال حسّان بن ثابت يُعيِّر الحارث آبن هشام بفراره يوم بدر

إن كنتِ كاذبةَ الذى حدّثتنى * فنجوتِ مَنْجَى الحارثِ بنِ هشَامِ

تَرَكَ الأحِبّـةَ لم يُقاتل دونهـم * ونجـا برأس طِـمِرّةٍ ولِجَـامِ

ملأتْ به الفَرْجَين فارمدّت به * وثَوَى أحبّتـُـه بِشَرِّ مُقَـامِ

وقال أبو الفرج الأصفهانىّ : وكان أبو حيَّة النميرىّ وهو الهَيْثَم بن الربيع
آبن زُرَارة جبانا بخيلا كذّابا، قال آبن قُتَيبة : وكان له سيف يسمّيه: لُعَاب المنية،
ليس بينه و بين الخشبة فرق، قال : وكان أجبن الناس ؛ قال : فحدثنى جار له،
قال : دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصًّا ، فأشرفتُ عليه ، وقد آنتضى سيفه ،
٥ وهو واقف فى وسط الدار يقول : أيها المُغترّ بنا ، المجترئ علينا ، بئس والله
ما آخترتَ لنفسك ، خيرٌ قليل ، وسيفٌ صقيل، لعاب المنية الذى سمعت به ،
مشهورة ضربته ، لا تُخاف نَبْوتُه ، آخرج بالعفو عنك قبل أن أدخل بالعقوبة
عليك، إنى والله إن أدعُ قيسا إليك لا تقم لها، وما قيس؟ تملأ والله الفضاء خيلا
ورَجْلا، سبحان الله ! ما أكثرها وأطيَبَها ! فبينا هو كذلك، إذا الكلب قد خرج،
١٠ فقال : الحمد لله الذى مسخك كلبا، وكفانا حربا .

ومن أبلغ ما قيل فى الجبن من الشعر القديم، قول الشاعر

ولو أنها عُصْفُورة لحسبتها ... مسوّمةً تدعو عُبيدا وأزْنَما[1]

ومثله قول عروة بن الورد

وأشجعُ قد أدركتُهم فوجدتُهم ... يخافون خَطْفَ الطير من كلِّ جانبِ

١٥ وقال آخر

مازلت تَحْسَبُ كلّ شىء بعدهم ... خيلا تكرُّ عليهمُ ورِجالا

وقول أبى تمام

مُوَكَّلٌ بيفاع الأرض يشرفه ... من خفة الخوف لا من خِفّة الطَّرَبِ

(١) قبيلتان .

وقال ابن الرومى

وفارسٍ أجبن من صِفْرِدٍ (١) * يحول أو يغور من صَفرَهْ

لو صاح فى الليل به صَائحٌ * لكانتِ الأرضُ له طَفرَهْ

يرحمه الرحمنُ من جُبنه * فيرزقُ الجنـد به النصرَهْ

ومن أخبار الفرّارين الذين حسّنوا الفِرار على قُبحه

(١٠٩)

٥

قال صاحب كليلة ودمنة : إن الحازم يكره القتال ما وجد بُدًّا منه ، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة فى غيره من المـال .

وقالوا : من تَوقَّى سَلِم، ومن تهوّر نَدِم .

وقال عبـد الله بن المقفّع : الشجاعة مَتْلَفَة ، وذلك أن المقتول مُقْبلا أكثر من المقتول مُدْبرا، فمن أراد السلامة فَلْيُؤْثِر الجُبن على الشجاعة .

١٠

ولِيمَ بعضُ الجبناء على جبنه ، فقال : أوّل الحرب شَكْوى، وأوسطها نَجْوَى ، وآخرها بَلْوى .

وقال آخر : الحرب مقتَلة للعباد، مذهبة للطارف والتّلاد .

وقيل لجبان : لِمَ لا تقاتل ؟ فقال : عند النطاح يُغْلَب الكبش الأجمّ (٢) .

وقالوا : الحياة أفضل من الموت، والفِرار فى وقته ظَفَر .

١٥

وقالوا : الشجاع ملقًّى، والجبان موقًّى . قال البديع الهمذانى

ماذاق همًّا كالشجاع ولاخلا * بمَسَرّةٍ كالعاجز المُتَـوانى

وقالوا : الفرار فى وقته، خير من الثبات فى غير وقته .

(١) الصفرد : طائر يقال له : أبو المليح وهو طائر جبان .

(٢) الأجمّ : الذى لا قرن له ، وهو مثل يضرب لمن عليه صاحبه بما أعدّ له .

٢٠

وقالوا : السّلم أزكى للمال، وأبقى لأنفس الرّجال .

وقالوا : الحمام فى الإقدام، والسلامة فى الإحجام .

وقال المتوكّل لأبى العيناء : إنى لأفرق من لسانك ، فقال: يا أمير المؤمنين، الكريم ذو فَرَق و إحجام، واللئيم ذو وقاحة و إقدام .

٥ وقيل لأعرابىّ : ألا تعرف القتال؟ فإن الله قد أمرك به ، فقال: والله إنى لأبغض الموت على فراشى فى عافية، فكيف أمضى إليه ركْضا ؛ قال شاعر

تمشى المنايا الى قوم فأبغضها * فكيف أعدو إليها عارىَ الكَفَنِ؟

وقيل ليزيد : إن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيتَ شخصا بالليل ، فكن للإقدام عليه أولى منه عليك » فقال : أخاف أن يكون قد سمع الحديث قبلى ، فأقع ١٠ معه فيما أكره ، و إنما الهربُ خير .

وسمع سليمانُ بن عبد الملك قارئا يقرأ (قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا) فقال : ذلك القليلَ نريد .

ولما فرّ أُميّةُ بن عبد الله بن خالد بن أسد يوم مَرْدَاء هَجَر بالبحرين من أبى فُدَيْك الخارجىّ إلى البصرة ، ودخل عليه أهلُها ، فلم يدروا كيف يكلّمونه ١٥ ولا ما يلقونَه به من القول، أيهنئونه بالسّلامة أم يعزّونه بالفِرار، حتى دخل عبد الله ابنُ الأهتم ، فاستَشْرف الناس له ، ثم قالوا : ما عسى أن يقول لمنهزم؟ فسلّم ثم قال: مرحبا بالصابر المخذول ، الحمد لله الذى نظر لنا عليك، ولم ينظر لك علينا ، فقد تعرضت للشهادة جهدك ، ولكن الله علم حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخِذلان من معك لك ، فقال أميّة : ما وجدتُ أحدا أخبرنى عن نفسى غيرَك .

٢٠ وقال الحارث بن هشام وأحسن فى اعتذاره عن الفرار

الله يَعْـــلمُ ما تركْتُ قتـــالهم * حتى عَلَوْا مُهرى بأشــقرَ مُزبِدِ
وعلمتُ أنّى إنْ أقاتلْ واحدا * أُقتلْ ولا يضرر عدوّى مَشْهَدى
فصَدفْتُ عنهم والأحبّــةُ فيهمُ * طمعا لهم بعِقَاب يوم سَرْمــدِ

وقال زُفَرُ بن الحارث وقد فرّ يوم مَرْج رَاهِطٍ عن رفيقَيه

أَيَذْهبُ يوم واحد إن أسَأتُهُ * بصــالح أيامى وحسنِ بلائيــا؟
فلم تُرَ منّى زلَّةٌ قبــل هـــذه * فِرَارى وتَرْكى صاحبيّ ورائيــا

وهى أبيات نَذْكُرها إن شاء الله فى التاريخ، ونظير ذلك قول عمرو بن معد يكرب من أبيات يخاطب بها أخته رَيْحَانة، وقد فرّ من بنى عبْس

أجاعـــلةٌ أمُّ الثُّـــوَيْرِ خزايةً * علىَّ فِرَارى إذ لَقيتَ بنى عَبْس
وليس يُعاب المرءُ من جبنِ يومِه * إذا عُرِفت منه الحمَاية بالأمسِ

وعكَس هذا البيت عبدُ الله بنُ مطيع بن الأسود العَدوىّ، وكان قد فرّ يوم الحَرّة من جيش مُسلِم بنِ عُقبةَ، فلما حاصر الحجاج عبدَ الله بنَ الزبير بمكةَ جعـــل يقاتل أهل الشّام ويرتجز

أنا الذى فررتُ يوم الحَــرَّهْ * والشيـــخ لا يفِـــرّ إلا مَرَّهْ
فاليـــومَ أَجزِى كَرَّةً بفَـــرَّهْ * لا بأس بالكَرَّة بعـــد الفَـــرَّهْ

ولم يَزلْ يُقاتِل حتى قُتِل، قال الفرّار السُّلمىّ

وفوارسٍ لَبَّسْتُهــا بفــوارس * حتى إذا الْتبسَت أَملْتُ بها يدى
وتَرَكْتُهم نقض الرِّماح ظهورهم * من بين مقتـــولٍ وآخرَ مُسْنَد
هل ينفعنّى أن تقول نســاؤهم * وقُتلتُ دون رجالِهم : لا تَبْعَـدِ؟

وقال آخر

قامت تُشَجِّعنى هِنْدٌ فقلت لها : * إن الشجاعة مَقْرُونٌ بها العطبُ
لا والذى منع الأبصارَ رؤيَته * مايشْتَهى الموتَ عندى مَنْ له أَرَبُ
للحرب قوم أضلّ الله سعيَهمُ * إذا دعَتْهُم إلى نيرانها وَثَبُوا

٥ وقيل لجبان فى بعض الوقائع : تَقَدَّم، فقال

وقالوا : تقدّم قلتُ : لستُ بفاعل * أخاف على فَخّارتى أن تَحَطّما
فلو كان لى رأسان أتلفتُ واحدا * ولكنه رأس إذا زال أعقما
وأُوتِم أولادا وأرمِلُ نسوةً * فكيف على هذا تَرَوْن التقدما؟

ذكر ما قيل فى الحمق والجهل

١٠ قالوا : الحُمْق قِلّةُ الإصابة، وَوَضْع الكلام فى غير موضعه، وقيل : هو فقْدان ما يُحمد من العاقل؛ وقيل لعمرَ بن هُبَيْرة : ما حدّ الحمق ؟ قال : لاحدّ له كالعقل .

وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الأحمق أبغضُ الخلقِ إلى الله، لأنّه حرمه أعزّ الأشياء عليه وهو العقلُ» .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى : أتَدْرِى لِمَ رزقتُ الأحمقَ؟ قال : لا يارب ،
١٥ قال : ليعلم العاقلُ أن طَلَبَ الرزق ليس بالاجتهاد .

وقال الشعبىّ : إذا أراد اللهُ أن يُزيلَ عن عبد نعمةً، كان أوّل ما يُعدمه عقله .

وقالوا : الحمق داءٌ دواؤه الموتُ . وقد بيّن الله تعالى لحبيبه مَن لم يعقل بقوله (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) قيل : عاقلا ، و بقوله (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ) .

وعَنْ أنس بنِ مالكٍ رضى اللهُ عنه قال : أثنى قومٌ على رجل عند النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى بالَغُوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف عقلُ الرجل؟ » فقالوا : نُخبرُك عن آجتهاده فى العبادَة وأصنافِ الخير وتسألنا عن عقله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الأحمقَ يصيبُ بحُمقه أعظمَ من فُجورِ الفاجرِ، وترتفِـع العبادُ غدا فى الدرجات على قدر عقولهم » . ٥

ومِن كلام لقمانَ لابنه : أنْ تكون أخرَسَ عاقلا خيرٌ من أن تَكونَ نطوقا جاهلا، ولكل شىء دليل، ودليلُ العـقلِ التفكُّرُ، ودليلُ التفكرِ الصمتُ، وكَفَى بك جهلا أن تَنهى الناس عن شىء وتركبه .

وقال عيسى عليه السلام : عَالجتُ الأَكمَهَ والأبرصَ فأَبرأْتُهما، وعالجت الأَحمقَ فأَعيانى؛ قال شاعر ١٠

لِكل داءٍ دواءٌ يُستطبُّ به * إلا الحماقةَ أعيت من يُداويها

وقال آخر

وعلاجُ الأَبْدان أيسرُ خطبٍ * حينَ تعتلّ من علاجِ العقــول

وقال آخر

الحمق داءٌ ما له حيلةٌ * تُرجى كبعدالنجم من مسّه ١٥

وقيل : إذا قيل لك إن فقيرا آستغنى، وغنيّا آفتَقر، وحيّا مات، أو ميتا عاش، فصدّق، و إذا بلَغَك أن أحمقَ آستفادَ عقلا فلا تصدّقْ .

وقالوا : الأحمقُ تتمنى أمه أنّها به مُثْكلة ، وتتمنى زوجُه أنّهـا منه أرملة، وتتمنى جارُه منه العزلةَ ، ورفيقه منه الوحشةَ، وأخوه منه الفُرْقةَ .

وقال سهل بنُ هارونَ : وجدتُ مودّة الجاهل ، وعداوةَ العاقل ، أسوةً فى الخَطَر ، ووجدت الأُنسَ بالجاهل ، والوحشَةَ من العاقل ، سِيّيْن فى العيب ، ووجدتُ غِشَّ العاقل أقلَّ ضررًا من نصيحةِ الجاهلِ ، ووجدتُ ظنَّ العاقل أوقعَ بالصوابَ من يَقينِ الجاهل ، ووجدتُ العاقلَ أحفظَ لما لم يُستَكتَم من الجاهل لما ٱستُكتِمَ .

٥ وقال لقمان لٱبنه : لا تُعاشرْ الأحمقَ وإنْ كان ذا جمال ، وٱنظر إلى السيف ما أَحسنَ مَنظَرَه وأقبحَ أثَرَه !

وقال علىٌّ رضى الله عنه : قَطيعةُ الجاهل تَعدِلُ صِلَةَ العاقل ؛ وقال : صديقُ الجاهلِ فى تعب .

وقال آخر : لَأَنَا للعاقلِ المُدْبِرِ ، أَرْجَى شيء من الأَحمقِ المُقْبِل ، وقال شاعر

١٠ عَدُوّكَ ذُو العقل خيرٌ من الـ * ـصّديقِ لكَ الوَامِقِ الأَحمَقِ

والبيت المشهور السائر

وَلَأَنْ يُعادىَ عاقلا خيرٌ له * مِنْ أنْ يكُونَ له صديقٌ أحمقُ

وقيل : الحمق يَسلبُ السلامة ، و يورث الندامة ؛ وقد ذمّوا مَنْ له أدب بلا عقْل .

١٥ ووصف أعرابىّ رجلا فقال : هو ذو أدبٍ وافر ، وعقل نافر ؛ قال شاعر

فَهَبْكَ أخا الآدابِ ، أَىّ فَضيلةٍ * تكونُ لذى علمٍ وليس له عقلُ ؟

\+ \+ \+

ومن صفات الأحمقِ وعلاماتِه ، قيل : ما أَعْدمكَ من الأحمقِ فلا يعدمُك منه كثرة الآلتفاتِ وسرعة الجوابِ ، ومن علاماته الثقةُ بكلِّ أحد .

ويُقال: إنَّ الجاهلَ مُولَعٌ بحلاوةِ العاجل، غيرمبالٍ بالعواقب، ولا مُعْتَبِر بالمواعظ، ليس يُعجبُه إلا ما ضَرَّه، إن أصابَ فَعلَ غيرِ قصدٍ، وإنْ أخطأَ فهو الذى لا يحسن به غيرُه، لا يَستوحِشُ من الإساءة، ولا يفرحُ بالإحسانِ .

وقالوا: ستُّ خِصال تُعرفُ فى الجاهل، الغضبُ منْ غيرِ شىء، والكلام فى غير نفع، والفِطْنة فى غيرِ موضع ، ولا يَعرفُ صديقَه مِن عدوّه ، وإفشاءُ السرِّ، والثِّقةُ بكلِّ أحد .

وقالوا : غضَب الجاهلِ فى قوله ، وغضبُ العاقلِ فى فعـلِه ، والعاقلُ إذا تَكلَّم بكلمةٍ أَتْبَعهامثلا ، والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها خُلْفا، الأحمقُ إذا حَدَّث ذَهَل ، وإذا تكلم عجِل، وإذا حُمِلَ على القبيحِ فَعَل .

وقال أبو يوسف : إثْباتُ الحجةِ على الجاهلِ سهلٌ، ولكن إقراره بها صعبٌ .

وقال وهب بنُ منبّه : كان يقالُ للأحمق إذا تكلَّم : فضَحَه حمقُهُ ، وإذا سكَت فضحه عِيُّه، وإذا عمِل أفسَدَ، وإذا تَرَك أضَاع، لا علمُه يُعِينُه، ولا علْمُ غيرِه ينْفَعُه، تَوَدّ أمُّه أنها ثكلَتْه ، وتمنى امرأتُه أنهـا عَدِمَتْه، ويتمنى جارُه منه الوحدةَ، وتأخذ جليسَه منه الوحشةُ.

ويُستدلُّ على الأحمق بأشياء،قالوا: من طالتْ قامتُه، وصَغُرت هامتُه، وآنسدلت لحيته، كان حَقيقا على من يراه أنْ يُقرِئَه عن عقلِه السلامَ .

ويُقال فى التوراة : اللحيةُ مَخْرَجُها من الدِّماغ، فمن أفرطَ عليه طولُها قلَّ دِمَاغُه، ومن قلَّ دِماغُه قلَّ عقلُه، ومن قلَّ عقلُه فهو أحمقُ .

وقالت أعرابيّة لقاضٍ قضى عليهـا : صَغُر رَأسُك، فَبعُدَ فهمُك، وآنسـدلت لحيتُك، فتكوَّسج عقلُك، وما رأيت مَيّتا يقضى بين حَيَّيْنِ غيرك .

(١٦١) وقال مَسْلَمة بنُ عبدِ الملكِ لجلسائه : يُعرفُ حمقُ الرجلِ فى أربع ، طولِ لحيتِه ، وبشاعة كنيتِه ، وإفراط شَهوتِه ، ونقش خاتِمه ، فدخلَ عليه رجلٌ طويلُ اللحية ، فقال : أمّا هذا فقد أتاكم بواحدةٍ ، فانظروا أينَ هوَ من الثلاثِ؟ فقيل له : ما كُنيتُك؟ فقال : أبو الياقوتِ ، فقيل له : ما نقشُ خاتَمِك؟ فقال : (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَا أَرَى ٱلْهُدْهُدَ) قيل : فأىُّ الطعامِ أحبُّ إليكَ ؟ قال : الجلنجبين[1] ، فقال مَسْلَمة : فيه ما بعدَ كنيتِه ، معَ طول لحيتِه ، مع نقش خاتِمه ، شكٌّ لِمُعْتبِر .

قال الشعبىّ : خطَب الحجاجُ يومَ جمعةٍ فأطال ، فقام إليه أعرابىٌّ ، فقال له : إن الوقت لا ينتظرُك وإنَّ الربَّ لا يَعذِرك ، فأمر به فحُبِسَ ، فأتاه أهلُه يشفعون فيه وقالوا : إنه مجنونٌ ، فقال الحجاجُ : إن أقرَّ بالجنونِ خليتُ سبيلَه ، فأتوه وسألوه ذلك ، فقال : لا واللهِ ، لا أقول إن الله ٱبتلانى وقد عافانى ، فبلغ كلامُه الحجاجَ ، فعظُم فى نفسه وأطلقه .

وقال الأصمعىُّ : قلت لغلامٍ من أبناء العرب : أيسرُّك أن يكون لك مائةُ ألفٍ وأنت أحمقُ؟ قال : لا واللهِ ، قلتُ : ولِمَ ؟ قال : أخافُ أن يَجنِىَ علىّ حُمقى جِنايةً ، فتذهب منّى ، ويبقى حُمقى .

والعربُ تَضرِبُ المَثَلَ فى الحمُقِ بِعِجْل بن لُجَيْم ، ويزعمون أنّه قيل له : إنَّ لكل فرسٍ جوادٍ ٱسمًا ، وإنَّ فرَسَك هذا سابقٌ فسمِّه ، ففقأ عينَه وقال : سميتُه الأعورَ ، وفيه يقول الشاعر

(١) قال صاحب أقرب الموارد : الجلنجبين : معجون يعمل من الورد والعسل ، فارسىّ معرّب عن كلمة "كُلّ" ومعناها ورد ، وعن كلمة "أنكبين" ومعناها عسل .

رَمَتْنِي بَنُــو عِجْــلٍ بِداءِ أبيهِــمُ * وهل أحدٌ فى الناس أحمقُ من عِجْلِ؟
أليس أبوهم عَارَ[1] عينَ جــوادِه ؟ * فسارتْ به الأمثالُ فى الناس بالجهلِ!

ويضربون المَثَل فى الحمق بِهَبَنَّقَةَ القَيْسىّ، وهو يَزِيدُ بنُ ثَرْوَان، ويكنى أبا نافع، حُكِى أنه شَرد له بعيرٌ، فقال : من جاء به فله بَعــيران، فقيلَ له : أتجعلُ فى بعــير بَعِيرَيْنِ؟ فقال : إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان .

وقد رضِى قومٌ بالجهــل فقالوا : ضعفُ العقلِ أمانٌ من الغمّ ؛ وقالوا : ما سُرّ عاقل قَطّ؛ قال أبو الطيّب المتنبي

ذو العقلِ يَشْقَى فى النعيم بعقلِه * وأخو الجَهَالَةِ فى الشقاوةِ يَنعمُ

وقال حكيمٌ : ثمرةُ الدنيا السرورُ، ولا سرورَ للعقلاءِ ؛ وقال المغيرةُ بنُ شعبةَ : ما العيشُ إلّا فى إلقاء الحِشمةِ . وقالَ بكر بن المعتَمر : إذا كان العقلُ سبعةَ أجزاءٍ آحتاجَ الى جزء من جَهلٍ ليقدم على الأُمورِ، فإنَّ العاقلَ أبدا مُتوانٍ مترقبٌ متوقِّف متخوِّف؛ قال النابغةُ الجعدىّ

ولا خَيرَ فى حِلْمٍ إذا لَمْ تكن له * بوادرُ تَحمى صــفوَه أن يُكدَّرا

وقال آخر

من راقبَ الناسَ لم يَظفرْ بحاجَتِه * وفَازَ بالطيّباتِ الفــاتِكُ اللَّهِجُ

أخذه آخر فقال

من راقب الناس ماتَ غمًّا * وفاز باللــذّة الجَســورُ

وقالوا : الجاهلُ يَنالُ أغراضَه، ويَظفَر بآرائه، ويطيعُ قلبَه، ويَجرى فى عِنان هواه، وهو برىءٌ من اللومِ، سليمٌ من العيبِ، مغفورُ الزّلّات .

---

(١) عَارَهُ : صيّره أعور .

وقالوا : الجاهلُ رَخِىُّ الذرع، خالى البالِ، عازبُ الهمّ، حسنُ الظن، لا يَخطُرُ خوفُ الموت بفكرِه، ولا يجرى ألمُ الإشفاق على ذكره .

وقالوا : الجهلُ مَطِيَّةُ المِزَاح والمسرة، ومسرحُ المِزَاح والفُكاهة، وحليفُ الهوى والتصابى، وصاحبُه فى ذِمَامٍ من عهدة اللوم والعتْب، وأمانٍ من قوارص الذمّ والسبّ؛

٥ قال بعضُ الشعراء

ورأيتُ الهمومَ فى صحّـة العقلِ فَداويتُها بإمراضِ عَقْلى

وقالوا : لو لم يكنْ من فَضيلةِ الجهلِ، غيرُ الإقدام، وورود الحِمام، إذ هما من الشجاعةِ والبسالة، وسبب تحصيل المهابة والجلالة، لكفاه؛ قال أبو هلال العسكرى: سألنى بعضُ الأُدباءِ أىّ الشعراء أشدُّ حمقا، قلت الذى يقول

١٠ أتيـهُ على إنسِ البـلاد وجنِّها * ولو لم أجد خلقا لَتِهْتُ على نفسى

أتيـه فلا أدرى من التِّيـهِ مَنْ أنا * سوى ما يقول الناسُ فىّ وفى جنسى

فإنْ صدقوا أنى من الإنس مثلُهم * فما فىّ عيبٌ غيرَ أنّى من الإنسِ

ذكر ما قيل فى الكذب

قال الله عزّ وجلّ : (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) . وقال : (إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ) وقال فى الكاذبين: (لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) . ١٥

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكَذِبَ فإنّ الكَذِبَ يهدى إلى الفُجُور، والفجور يهدى إلى النّار» . وقال صلى الله عليه وسلم : « الكَذِبُ مُجانِبٌ

الإِيمَانِ » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافقٌ، وإنْ صلَّى وصامَ وزعَم أنه مسلمٌ، مَنْ إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَد أخلَف، وإذا أؤتُمِنَ خان » . وقال صلى الله عليه وسلم : « لايجوز الكذبُ فى جدّ ولا هَزْلِ » وقال : « لا يكونُ المؤمنُ كذَّابا » .

وقالت الحكماء : ليس لكاذبٍ مُروءةٌ . ٥

وقالوا : من عُرِفَ بالكذِبِ لم يَحسن صِدقُه .

وقال عبدُ الله بنُ عمَرَ رضى الله عنهما : خُلْفُ الوعد ثُلُثُ النفاق .

وقال بعض الحكماء : الصدقُ مُنجيك وإنْ خفتَه، والكذبُ مُرديك وإن أَمنتَه .

قال عمرُو بنُ العلاءِ القارئ : سادَ عُتبةُ بن ربيعة وكان مملقا، وساد أبو جهل وكان حَدَثًا، وساد أبو سفيان وكان بخّالا ، وساد عامر بن الطُّفَيل وكان عاهرا، وساد ١٠ كليب بن وائل وكان ظلوما، وساد عُيَينة وكان مُحمَّقًا، ولم يَسُد قطُّ كذاب، فصلح (١١٢) السؤْدُد مع الفقر والحداثة والبخل والعهر والظلم والحمق، ولم يصلح مع الكَذِب، لأن الكذبَ يعمّ الأخلاقَ كلَّها بالفساد .

وقال يحيى بنُ خالد : رأيت شِرِّيبَ خمر نزَع، ولصّا أقلَع، وصاحبَ فواحشَ رجع، ولم أرَ كذَّابا رجع . ١٥

ويقال : الكذبُ مفتاح كُلّ كبيرة، والخمر جِمَاعُ كل شَرّ .

وقيل : لا تَأمنَنَّ مَنْ يكذِبُ لك أَنْ يَكذبَ عليك .

وقيل : الكَذِبُ والنفاقُ والحسد أثافِيّ الذّلّ .

وقال ابنُ عباس : حقيقٌ على الله أن لا يرفع للكاذب درجةً، ولا يُثْبِتَ له حجةً .

وقال سليمانُ بن سَعدٍ : لو صحبنى رجلٌ وقال : لا تشترط على إلا شرطا واحدا لقلت : لا تكذبنى .

وقال أبو حيان التوحيدىّ : الكذب شعارٌ خلَق، ومَوْرِدٌ رَنِق، وأدبٌ سيّئ، وعادةٌ فاحشةٌ، وقلّ مَن استرسلَ فيه إلا ألِفه، وقلّ من ألفه إلا أتلفه .

وقال غيرُه : الكَذِب أوضع الرذائل خطة، وأجمعها للذمّة والمحطّة، وأكبرُها ذُلًّا فى الدنيا، وأكثرُها خزيا فى الآخرة، وهو من أعظم علامات النفاق، وأقوى الدلائل على دناءة الأخلاق والأعراق، لا يُؤتَمن حاملُه على حال، ولا يُصدَّق إذا قال .

وقيل : لكل شىء آفةٌ، والكذب آفة النطق .

وقال بعضُ الكرماء : لو لم أدَعِ الكَذِبَ تأثُّما، لتركته تكرُّما .

وقال أرسطاطاليس: فُضِّلَ الناطقُ على الأخرس بالنطق، وزَين النطق الصدقُ، فإذا كانَ الناطقُ كاذبا، فالأخرس خيرٌ منه .

وقال بعض الحكماء لولده : يابُنَىَّ إياك والكذبَ ، فانه يُزْرِى بقائله ، و إنْ كان شريفا فى أصله، ويُذِلُّه وإن كان عزيزا فى أهله .

وقال الأحنفُ بن قيس : اثنانِ لا يجتمعان : الكذبُ والمروءةُ .

وقال بزرُجْمِهر : الكاذبُ والميتُ سواء، لأن فضيلة النطق الصدقُ، فإذا لم يُوثق بكلامه بطُلَت حياته .

وقال معاويةُ يوما للأحنف : أتكذبُ؟ فقال : والله ما كَذبتُ مُذ علمتُ أن الكذبَ شَينٌ .

وقيل : لا يجوز للرجل أن يكذب لصلاح نفسه، فما عجز الصدقُ عن إصلاحه كان الكذب أولى بفساده . قال بعض الشعراء

ماأحسن الصدقَ والمغبوطُ قائلُه * وأقبحَ الكِذْبَ عند الله والناسِ

وقالوا : آحذر مصاحبةَ الكذّاب، فان آضطُرِرتَ إليهـا فلا تصدّقه ولا تعلمه أنك كذبتَه، فينتقل عن مودّته، ولا ينتقل عن كذبه .

وقال هُرمس : آجتنب مصاحبة الكذاب، فإنك لستَ منه على شيء يُتَحصَّل، وإنما أنت معه على مثل السَّراب يلمَعُ ولا ينفَع .

وقيل : الكذّاب شرٌّ من النَّمّام، فإن الكذّاب يختلق عليك، والنمّامَ ينقل عنك . قال شاعر

إنّ النُّمُومَ أغَطّى دونه خَبَرِى * وليس لى حيلةٌ فى مفْتَرِى الكَذِبِ

وقال آخر

لى حيـــلةٌ فيمن يَنُمّ وليس فى الكذّاب حيــلَهْ
من كان يخلُق ما يقو * لُ فحيلتى فيـــه قليـــلَهْ

ووصف أعرابىّ كذابا فقال : كَذِبهُ مثل عُطاسه، لا يُمكنه ردّه .

وقال بعض الأعراب : عجِبت من الكذّاب المُشيد بكَذِبه، وإنما هو يدلّ الناس على عيبه، ويتعرّض للعقاب من ربّه، فالآثام له عادة، والأخبار عنه متضادّة، إن قال حقـا لم يُصَدَّق، وإن أراد خيرا لم يُوفّق، فهو الجانى على نفسه بفعاله، والدّالّ على فضيحتها بمقاله، فما صحّ من صدقه نُسِب إلى غيره، وما صحّ من كذب غيره نُسِب إليه .

ويقال : الكذب جِمَاع النفاق ، وعمَــاد مساوئ الاخلاق ، عارٌ لازم ، وذلّ دائم ، يخيف صاحبه نفسَــه وهو آمن ، ويكشف سِتْرَ الحَسَب عن لُؤْمه الكامن ، وقال بعض الشعراء

لا يكذب المرءُ إلا من مَهَانته * أو عادةِ السوءِ أو من قِلّة الوَرَع

وقال الأصمعيّ : قيــل لرجل معروف بالكذب. هل صدقتَ ؟ قال : أخاف أن أقول : "لا" فأصدق . وآفة الكذب النسيان . قال شاعر

ومن آفةِ الكذّاب نسيانُ كِذْبِهِ * وتلقاه ذَا دَهْيٍ إذا كان كاذبا

وقال عليّ بن الجَهْم شاعر اليتيمة

تكذب الكِذْبة يوما * ثم تنسـاها قــريبا
كن ذَكُورًا يا أبا يحــيى إذا كنت كَذُوبا

وقال أبو تمّــام

يا أكثر الناس وعدا حَشْوُه خلف * وأكثر الناس قولًا حَشْوُه كَذِبُ

وقال أحمدُ بنُ محمّد بن عبد ربّه

صحيفةٌ أُثْبِتتْ "لَيْتٌ" بها و"عَسَى" * عُنوانُها راحــة الراجى إذا يَئِسَا
وَعْدٌ له هاجِسٌ فى القلب قد بَرِمتْ * أحشاءُ صدرى به من طول ما هَجَسا
يراعةٌ غرّنى منها وَمِيضُ ســنًا * حتى مددت إليها الكفَّ مُقْتبِسا
فصادفَتْ حَجَرًا لو كنتَ تضربُه * من لُؤْمه بعصًا موسى لمَا انْبَجَسَا

وقال آخر

وتقــول لى قولا أظنُّك صادقا * فأجِيءُ من طمع اليك وأذهبُ
فإذا اجتمعتُ أنا وأنتَ بمجلسٍ * قالوا مُسَــيْلِمةٌ وهــذا أشْعَبُ

ذكر ما قيل في الغدر والخيانة

قال الله عزّ وجلّ : (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ) . (١١٣)

ورُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أمَّنَ رجلا ثم قتله وجبت له النار وإن كان المقتول كافرا » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا جمع الله الأوّلين والآخرين رُفع لكل غادرٍ لواءٌ وقيل : هذه غَدْرة فلان» . ٥

وقالوا : من نقض عهده ، ومنع رِفْده ، فلا خيرَ عنده .

وقالوا : الغالب بالغدر مغلول ، والناكث للعهد ممقوت مخذول .

وقالوا : من علامات النفاق ، نقضُ العهد والميثاق . ١٠

وقالوا : لا عذر في الغدر . والعــذر يصلح في كل المواطن ، ولا عذر لغــادر ولا خائن .

وفي بعض الكتب المنزّلة : إن مما تُعَجَّل عقوبته من الذنوب ولا يؤخر: الإحسان يُكْفَر ، والذمة تُخْفَر . قال شاعر

أخلِقْ بمن رَضِيَ الخيانةَ شيمةً * أن لا يُرَى إلا صريعَ حوادث ١٥

ما زالتِ الأرزاءُ تُلحِقُ بُؤْسَها * أبدا بغادرِ ذمّةٍ أو ناكث

وقالوا : الغَدْر ضامن العَثْرة ، قاطع ليد النُّصرة .

ويقال : من تعدّى على جاره ، دلّ على لُؤْمِ نِجَارِه .

وذُكر أن عيسى صلوات الله عليه مرّ برجل وهو يُطارِد حيّة وهى تقول له : والله لئن لم تذهب عنّى، لأنفخَنّ عليك نفخة أُقَطِّعك بها قِطَعا ، فمضى عيسى عليه السلام فى شأنه، ثم عاد فرأى الحية فى جُونة الرجل محبوسة، فقال لها : ويحك ! أين ما كنت تقولين ؟ قالت: يا روح الله، إنه حلف لى وغَدَر، وإنّ سُمَّ غدره أقتل له من سُمّى .

ذكر أخبار أهل الغَدْر وغَدَرَاتهم المشهورة

أعرف الناس فى الغدر آل الأشعث بن قيس بن معد يكرب، وقد عدّت لهم غَدَرَات ، فمنها : غدر قيس بن معد يكرب بمراد، وكان بينهم عهد أن لا يغزوهم إلى آنقضاء شهر رجب، فوافاهم قبل الأَمَد بِكِنْدَة، وجعل يحمل عليهم ويقول

أقسمت لا أنزل حتّى يُهْزَمُوا * أنا آبن معد يكرب فاستسلِمُوا
* فارسُ هَيْجا ورئيسٌ مِصْدَمُ *

فقُتِل قيس بن معد يكرب وآرتد الأشعث عن الإسلام . وغدر الأشعث ببنى الحارث بن كعب ، وكان قد غزاهم فأسَرُوه، ففدى نفسه بمائتى بعير، فأعطاهم مائة وبقى عليه مائة، فلم يُؤَدِّها، وجاء الإسلام فهدَم ما كان فى الجاهلية .

وغدر محمد بن الأشعث بن قيس بمسلم بن عَقِيل بن أبى طالب، وغدر أيضا بأهل طَبَرَسْتان وكان عُبَيد الله بن زياد ولّاه إياها، فصالح أهلها على أن لا يدخلها ورحل عنهم، ثم عاد إليهم غادرا، فأخذوا عليه الشِّعاب، وقتلوا آبنه أبا بكر .

وغدر عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بالحجّاج لما ولّاه خُرَاسان ، وخرج عليه وآدّعى الخلافة ، وكان بينهم من الوقائع ما نذكره فى التاريخ فى أخبار الحجاج

إن شاء الله تعـالى ، وكانت الدائرة على عبد الرحمن . وكلّهم ورثُوا الغـدر عن معديكرب؛ فإنه غدر مَهْرَة، وكان بينه و بينهم عهد إلى أجل، فغزاهم ناقضا لعهدهم، فقتلوه وبَقَرُوا بطنه وملأوه بالحصا .

وغدرت ٱبنـة الضَّيْزَن بن معاوية بأبيهـا صاحب الحصن ودلّت سابور على طريق فتحه، ففتحه وقتل أباها وتزوجها، ثم قتلها . وقد ذكرنا ذلك فى الجزء الأوّل من هذا الكتاب فى المبانى . ومن ذلك ما فعـله النعمان بِسِنِمَّار، وقد ذكرناه أيضا فى خبر بناء الخَوَرْنَق .

وممن ٱشتُهر بالغـدر عمرو بن جُرموز : غدر بالزّبير بن العوّام ، وقتـله بوادى السباع، ونذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى حرب الجمل .

ومن الغدر الشنيع ما فعله عَضَـل والقَارَة ، رُوى أنه قدم على رسـول الله صلى الله عليه وسـلم بعـد أُحُد رهط من عَضَل والقارة ، فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما وخيرا فٱبعث معنا نفرا من أصحابك يفقّهوننا فى الدِّين ، ويُقرئوننا القرءان، ويعلّموننا شرائع الإسلام،فبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من أصحـابه ، وهم مَرْثَد بن أبى مرثد الغَنَوِىّ ، وخالد بن البُكَيْر حليف بنى عدىّ ٱبن كعب، وعاصم بن ثابت بن أبى الأَقْلَح أخو بنى عمرو بن عوف،وخُبَيب بن عدىّ أخو بنى جَحْجَبَى بن كُلْفة بن عمرو بن عَوْف، وزيد بن الدَّثِنَـة أخو بنى بَيَاضَـة بن عامر، وعبد الله بن طارق، ومُعَتِّب بن عُبَيد أخو عبد الله لأُمّه، وأَمَّر عليهم مَرْثَد ٱبن أبى مرثد، وقيل أَمَّر عليهم عاصما، فخرجوا مع القوم،حتى إذا كانوا على الرجيع : — ماء لهذيل — غدروا بهم وٱستصرخوا عليهم هذيلا ، فلم يرع القوم وهم فى رحالهم إلّا

الرجال فى أيديهم السيوف، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا : إنا والله ما نُريد قتلكم، ولكنا نريد أن نُصيبَ بكم شيئا من أهل مكةَ، فأما مرثد وخالد وعاصم ومُعتِّب فقالوا : والله ما نقبل من مشرك عهدا ولا عَقْدا، فقاتَلوا حتى قُتلوا ؛ وأما (١١٤) زيد وخُبَيْب وعبد الله فلانوا ورغبوا فى الحياة، وأعطوا بأيديهم، فأسروهم وخرجوا

٥ بهم إلى مكة ليَبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بمَرّ الظَّهران، انتزع عبد الله بن طارق يده من القِرَان، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم، فَرَمَوْهُ بالحجارة حتى قتلوه، وقدِمُوا بخبيب وزيد الى مكة فباعوهُما فابتاع خبيبا حُجَيْرُ بنُ أبى إهاب التميمىّ حليف بنى نوفل لعُقْبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ليَقْتله بالحارث، وأما زيد بن الدَّثِنَة فابتاعه صَفْوانُ بنَ أميّة ليقتله بأمية بن خَلَف، ورُوى أن خُبيبا لما حصل عند بنات

١٠ الحارث استعارَ من إحداهن موسى يستحدّ بها فما راع المرأةَ إلا صبىّ لها يَدرُج، وخُبيب قد أجلس الصبىَّ على فخذه، والموسى فى يده، فصاحت المرأة، فقال خُبيب : أتحسَبِين أنى أقتله ؟ إن الغدر ليس من شأننا، فقالت المرأة : ما رأيت بعدُ أسيرا قطّ خيرا من خُبيب، لقد رأيتُه وما بمكّة من ثمرة، وان فى يده قطْفا من عنب يأكله، إن كان إلا رزقا رزقه اللهُ خبيبا، ولما خُرج بخُبيب من الحرم ليقتلوه،

١٥ قال : ذَرونى أصلِّ ركعتَين، ثم قال: لولا أن يقال : جزِع لزِدْت، وما أبالى على أى شِقٍّ كان مصرعى، وهذه القصَّةُ نذكرها إن شاء الله تعالى بما هو أبسطُ من هذا فى السّيرة النبويّة فى سيرة مَرْثَد إلى الرجيع .

قيل : أغار خَيْثَمَة بن مالك الجُعْفِىّ على حىّ من بنى القَيْن فاستاقَ منهم إبلا فلحقوه ليَستَنقذوها منه، فلم يطمَعوا فيه، ثم ذكَر يدا كانت لبعضهم عنده، فخَلّى عما كان

٢٠ فى يده، وولّى منصرفا، فنادوه وقالوا : إن المفازة أمامَك، ولا ماءَ معك، وقد فعلت

جميلا ، فانزل ولك الذِّمام والحِبَاء فنزل فلما اطمأنّ وسكن ، واستمكنوا منه غدروا به فقتلوه ، ففي ذلك تقول عَمْرة ابنته

غدرتم بمن لو كان ساعةَ غدركم * بكفّيه مفتوقُ الغرارين قاضبُ
أذادكمُ عنـــه بضربٍ كأنّه * سهام المنايا كلّهن صوائبُ

وتلاحى بنو مَقْرون بن عمرو بن محارب ، وبنو جَهْم بن مُرّة بن محارب ، على ماءٍ لهم فغلبتهم بنو مقرون فظهرت عليهم ، وكان في بني جَهْم شيخٌ له تجربة وسنّ ، فلمــا رأى ظهورهم ، قال : يابني مقرون ، نحن بنو أب واحد ، فلِمَ نتفانى؟ هلمّوا إلى الصلح ، ولكم عهدُ الله تعالى وميثاقُه وذمّة آبائنا ، أن لا نهيجكم أبدا ولا نزاحمكم في هذا المــاء ، فأجابتهم بنو مقرون إلى ذلك ، فلما اطمأنوا ووضعوا الســلاح عدَا عليهم بنو جهم فنالوا منهم منالا عظيما ، وقتلوا جماعة من أشرافهم ، ففي ذلك يقول أبو ظَفَر الحارثيّ

هــلّا غدرتم بمقرونٍ وأسرته * والبيضُ مُصْلَتةٌ والحرب تستعرُ
لمــا اطمأنوا وشاموا في سيوفهمُ * ثُرْتم إليهم وعُرُّ الغــدر مشتهرُ
غدرتموهم بأيمــانٍ مؤكدةٍ * والوِرْدُ من بعده للغادر الصَّدَرُ

هذا ما قيل في الغدر .

وأما الخيانة ، فقد نهى الله تعالى عنها فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا إيمان لمن لا أمانةَ له ولا دينَ لمن لا عهدَ له » .

وقيل : من ضيّع الأمانة ، ورَضِي بالخيانة ، فقد بَرِئَ من الدِّيانة .

وقال حكيم : لو علم مُضيِّع الأمانة، ما فى النّكث والخيانة، لقصّر عنهما عِنانه .

وقالوا : من خان مان، ومن مان هان، وتبرّأ من الإحسان .

قيل دخل شَهْر بنُ حَوْشَب وهو من جِلّة القرّاء وأصحاب الحديث على معاوية، وبين يديه خرائطُ فيها مال ، قد جمعت لتوضع فى بيت المال ، فقعَد على خريطة منها، وأخذها، ومعاوية ينظرُ إليه، فلما رُفعت الخرائط، فُقِدَ من عددها خريطة، فأعلم الخازنُ بذلك معاويةَ، فقال: هى محسوبة لك فلا تسألْ عن آخذها، ففيه يقول بعض الشعراء

لقد باع شَهْرٌ دينـه بخَرِيطة * فمَن يأمَن القرّاءَ بعدك ياشهرُ؟

وقال المنصور لعامل بلغه عنه خيانتُـه : ياعدوّ الله، وعدوّ أمير المؤمنين، وعدوّ المسلمين، أكلتَ مالَ الله، وخُنتَ خليفةَ الله، فقال : يا أمير المؤمنين، نحن عيالُ الله، وأنت خليفةُ الله، والمال مالُ الله، فمن أين نأكل إذا، فضحك وأطلقه، وأمر أن لا يُوَلَّى عملا بعدها .

وسرق رجل فى مجلس أَنُو شَرْوان جامًا من ذهب وهو يراه ، فتفقّده الشرابىّ، فقال : والله لا يخرج أحد حتى يُفَتَّش، فقال له أنو شَرْوان : لا تتعرّض لأحد، فقد أخذه من لا يردّه، ورآه من لا يَنُمّ عليه .

وحُكى أنّ بعض التّجار أودع عند قاضٍ بمَعَرّة النعمان وديعـةً، وغاب مدّةً، فلما رجع، طالب بها، فأنكرها القاضى، فتشفع إليه برؤساء بلده فى ردّها، فما زالوا به حتى أقرّبها ، وآدّعى أنها سُرقت من حِرْزه ، فآستحلفه المُودع فحلف ، فقال آبن الدُّوَيدة فى ذلك

لا يَصدقُ القاضى الخَئونُ إذا آدّعى * عدمَ الوديعـة من حصين المودع

(١١٥) إن قال قد ضاعت فيصدق أنها * ضاعت ولكن منك يعنى لو تعى !
أو قال قد وقعت فيَصْـــدُق أنها * وقعت ولكن منـه أحسنَ مَوْقع

وقال ٱبن الحجاج

وأدعوهم إلى القــاضى عسـاهُمْ * إذا وقَع اليمينُـ يُحلِّفُـــونِى
وأضيع ما يكون الحق عندى * إذا عَزَم الغريمُ على اليمين

٥

ذكر ما قيل فى الكِبْر والعُجْب

قال الله عزّ وجلّ : (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ) . وقال تعالى : (فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقال : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ) . وقال : (كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) . وقال : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) .

١٠

وناهيك بهذا زجراً .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يدخُل الجنةَ ، من فى قلبه حَبّةٌ من خَرْدَلٍ من كِبْر» . وقال صلى الله عليه وسلم : «من تَعظَّم فى نفسه ، وٱختال فى مِشْيته لقى اللهَ عزّ وجلّ وهو عليه غضبان» . وقال صلى الله عليه وسلم : «من جَرَّ ثوبَه خُيَلاء لم ينظُرِ اللهُ إليه» .

١٥

وروى : أن عبد الله بنَ سَـلَام ، مرّ بالسوق يحمـل حُزْمة حطب ، فقيل له : أليس قد أغناك اللهُ عن هـذا ؟ قال : بلى ! ولكنى أردت أنْ أقمع به الكِبْر ، سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسـلم يقول : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبّة من كِبر » .

وقال عمر بنُ الخطاب رضى اللهُ عنه : ما وجد أحدٌ فى نفسه كبْرًا إلا من مَهانة يجِدُها فى نفسه .

وقالوا : مَنْ قَلَّ لُبُّه، كثر عُجْبُه .

وقالوا : عُجب المرء بنفسه ، أحد حسّاد عقله .

وقال أزدَشِير بن بابَك : ما الكِبْرُ إلا فضل حُمْقٍ لم يدر صاحبُه أين يَضَعُه فصرفه إلى الكِبْر .

ومن كلام لابن المعتزّ : لما عرَف أهلُ التقصير حالَهم ، عند أهل الكمال آستعانوا بالكِبر ليُعظَّم صغيرا، ويَرفَعَ حقيرا، وليس بفاعل .

وقال أكثم بنُ صَيْفِيّ : من أصاب حظا من دنياه ،فأصاره ذلك الى كِبْرٍ وترَفُّعٍ، فقد علم أنه نال فوق ما يستحقّ، ومن أقام على حاله فقد علم أنه نال ما يستحقّ، ومن تواضع وغادر الكِبْر، فقد علم أنه نال دون ما يستحقّ .

وقال على رضى الله عنه : عجِبت للتكبر الذى كان بالأمس نطفة، وهو غدًا جِيفة .

وقيل : مرّ بعضُ أولاد المُهَلَّب بمالك بن دينار وهو يَخْطِر، فقال له : يا بُنَيّ، لو خَفَّفتَ بعض هذه الخُيَلاء! ألم يكن أحسنَ بك من هذه الشّهرة التى قد شَهَرْتَ بها نفسَكَ؟ فقال له الفتى : أو ما تعرِفُ من أنا؟ قال : بلى! والله أعرِفك معرفة جيّدة، أوّلك نطفة مَذِرة، وآخرك جيفة قَذِرة، وأنت بين ذلك حامل عَذِرة ، فأرخى الفتى رُدَيْنه وكفّ مما كان يفعله ، وطأطأ رأسه، ومضى مسترسِلا .

وقال الواقِدىّ : دخل الفضل بنُ يحيى ذاتَ يوم على أبيه وهو يتَبَختر فى مِشْيته، فقال له يحيى : يا أبا عبد الله ، إن البخل والجهلَ مع التواضع ، أزيَنُ بالرجل من الكِبْر مع السخاء والعلم؛ فيالها من حسنة غطّتْ على عيبَيْن عظيمين، ويالها

من سيئة غطّت على حسنَتَيْن كبيرتين، ثم أومأ اليه بالجلوس وقال: آحفظه ياعبد الله، فإنه أدب كبير أخذناه عن العلماء .

ومن الكِبْر المستهجَن ما رُوى : أن وائل بنَ حُجْر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فأقطعه أرضا، وقال لمعاوية : آعرض هذه الأرض عليه وآكتبها له ، فخرج مع وائل فى هاجرة شاوية، ومشى خلف ناقتـه، وقال له : أَردفْنِي على عَجُز راحلتك، فقال : لست من أرداف الملوك ، قال : فأعطنى نعلَيْك، فقال : ما بخـلٌ يمنعنى يآبن أبى سُـفيان، ولكن أكرهُ أن يبلُغ أقيالَ اليمن أنك لبست نَعْلى، ولكن آمش فى ظل ناقتى، فحسبُك بها شرفا . وقيل : إن وائلا أدرك زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدّثه .

والعرب تجعل جَذِيمة الأبرش الغاية فى الكِبْر، ورُوى : أنه كان لا ينادم أحدا ترفُّعا وكبرا، ويقول : إنمـا ينادمنى الفَرْقَدان . ومنه قول متمّم :

* وكنا كنَدْمانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً *

قيل : إنمـا أراد الفَرْقدين ، لا كما ذكره الرواة أنهما مالك وعَقيل .

وقيل : كان أبو ثَوابة أقبحَ الناس كِبْرا ، روى : أنّه قال لغلامه آسـقنى ماء، فقال : نعم، قال : إنمـا يقول : "نعم" من يقدر على أن يقول : "لا" وأمر بضربه، ودعا أكّارًا فكلمه ، فلما فرَغ دعا بمـاء، وتمضمض آستقذارا لمخاطبته . قال عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبةَ بن مسعود

ولا تعجبا أن تُؤْتَيَا فتُكَلَّما * فما حُشِىَ الأقوامُ شرًّا من الكبر

قال الجاحظ : المذكورون بالكبر من قريش، بنو مخزوم ، وبنو أميّة ، ومن العرب، بنو جعفر بن كلاب ، وبنو زُرارة بن عُدَس ، وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدّون الناس إلا عبيدا، وأنفسهم إلا أربابا؛ والكِبرُ في الأجناس الذليلة أرسخُ، ولكن القلّة والذلّة مانعتان من ظهور كبرهم، ومن قَدَر من الوضعاء أدنى قُدرة، ظهر من كبره ما لا خَفاء به، ولم أر ذا كبر قطّ علا مَنْ دونه، إلا وهو يَذِلّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه .

قال : أما بنو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، وآختصاصهم بالتِّيه، فإنهم أبطَرَهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قُوَى عقولهم فضلٌ عن قُوَى دواعي الحَمِيّة فيهم، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وإنصافهم مَنْ دونهم .

وقال أبو الوليد الأعرابيّ

ولستُ بتيَّاهٍ إذا كنتُ مُثْرِيا * ولكنه خُلْقِي إذا كنت مُعْدِما
وأن الذى يُعطَى من المال ثَرْوةً * إذا كان نذلَ الوالدين تعظّما

ومن المتكبرين، عُمَارةُ بن حمزة، حُكِي عنه : أنه دخل على المهديّ، فلما آستقر به الجلوس ، قام رجل كان المهديّ قد أعدّه له ليَتهكّم به ، فقال : مظلوم يا أمير المؤمنين، قال : مَنْ ظلمك؟ قال : عُمَارة غصبني ضَيْعتي، وذكر ضَيْعة من أحسن ضياع عُمَارة وأكثرها خَراجا، فقال المهديّ لعُمَارة : قم فآجلس مع خَصْمِك، فقال : يا أمير المؤمنين، ماهو لي بخَصْم، إن كانت الضَيعة له، فلستُ أنازعه فيها، وإن كانت لي فقد وهبتُها له ، ولا أقومُ من مجلس شرّفني به أميرُ المؤمنين، فلما آنصرف المجلس، سأل عُمارة عن صفة الرجل، وماكان لباسُه، وأين كان موضع

جلوســه ، وكان من تيهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه تكبرا عن الرجوع و يقول : نقض و إبرام فى ساعة واحدة ، الخطأ أهون منه .

ومنهم من أهلكه الكبر وأذلّه . كان خالد بن عبد الله بن يَزيدَ بن أسد القَسْرىّ أميرا على العراق ، و بلغ من هشام بن عبد الملك محلا رفيعا ، فأفسد أمره العُجبُ والكِبْرُ، وأدناه إلى الهَلَكة ، وعُذِّب حتّى مات ، وذلك أنه كان إذا ذُكِر هشام ٥
عنده، قال : ٱبن الحمقاء ! فسمعها رجل من أهل الشام ، فقال لهشام : إنّ هذا البَطِرَ الأَشِر الكافرَ لنعمتك ونعمة ابيك و إخوتك ، يذكرك بأسوأ الذّكر، قال : لعله يقول : الأحولُ، قال : لا ، ولكنّه يقول : مالا تلتقى به الشّفتانِ، قال : لعله يقول : ٱبن الحمقاء ، فامسك الشامىّ، فقال هشام قد بلغنى كلّ ذلك عنه ؛ وكان
خالد يقول : والله ما إمارةُ العراق ممـا تشرّفنى، فبلغ ذلك هشاما ، فكتب إليه : ١٠
بلغنى أنك يٱبن النصرانية تقول : إن إمارة العراق لاتُشرِّفك وأنت دَعِىّ بجيلة القليلة الذليلة ، والله إنى لأظن أن أول من يأتيك صيفىّ بن قيس فيشدّ يدَك إلى عُنقك،
قال خالد بن صفوان بن الأهتم : لم تزل أفعال خالد حتى عزله هشام وعذّبه، وقتل ٱبنه يزيدَ بن خالد، فرأيت فى رجله شَرِيطا قد شدّه به الصّبيان يجرّونه ، فدخلت
إلى هشام يوما ، فحدّثته فأطلت ، فتنفّس ، وقال: ياخالد! كان أحبّ إلىَّ قُرْبا وألذَّ ١٥
عندى حديثا منك، يعنى خالدَ القَسْرىّ . قال : فانتهزتُها ورجوت أن أشفع فتكون لى عند خالد يدا، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما يمنعك من ٱستئناف الصّنيعة ، فقد أدّبتّه بمـا فَرط منه، فقال: هيهاتَ ! إن خالدا أوجَفَ فأعجَفَ، وأدلّ فأملّ، وأفرط فى الإساءة، فأفرطنا فى المكافاة، فحَلِمَ الأديمُ ، ونغِل الجُرْح، و بلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى،
والحزام الطُّبْيَيْنِ، ولم يبق فيه مستصلَح، ولا للصّنيعة عنده موضع. عُدْ إلى حديثك. ٢٠

ومنهم : من أفرط به الكبر إلى الكفر، حُكِى : أن سعيد بن زُرارة مرّت به آمرأة فقالت له : ياعبد الله، كيف الطريقُ إلى مكان كذا؟ فقال لها : أمِثْلى يكون مِنْ عَبِيد الله .

ومنهم : عُبَيْـد الله بن زياد بن ظَبْيان، قال له رجل من قومه وقد رأى منـه ما أعجبه : كثّر اللهُ فينا مثلَك، فقال : لقد كلّفتم اللهَ شططا .

ومن أشعار المتكبّرين التيّاهين قول بعضهم

* أتيه على جِنّ البلاد وإنْسِها *

الأبيات، وقد تقدّمت فى الحُمْقَ .

وقال آخر

أَلقِـنى فى لَظًى فإن أحرقَتْنى * فتيقّن أن لستُ باليـاقوت

صَنَعَ النسجَ كلُّ مَنْ حاك لكنْ * ليس داودُ فيـه كالعنكبوت

قال آبن حُبَارة الحرّانىّ المنجنيقىّ يردّ عليه

أيّها المدّعى الفخارَ دعِ الفَخْـ * ـرَ لذى الكِبْرِياء والجبرُوتِ

نسجُ داود لم يُفِـد ليـلة الغا * رِ وكان الفخار للعنكبوتِ

وبقاءُ السَّمَنْدِ(١) فى لَهَبِ النـا * رِ مُزِيلٌ فضـيلةَ الياقوتِ

وكذاك النّعام يلتقم الجمْـ * ـرَ وما الجَمْـرُ للنّعام بقُـوتِ!

* * *

وممـا هُجِى به أهل التكبّر ، قول جُعَيفران يهجو سعيد بنَ مُسلم بن قُتَيبة

أمِّ سـعيدٍ لِمِ ولدتيـهِ * ملوّثا بالكِبْرِ والتيـهِ؟

ليتكِ إذ جئتِ به هكذا * حين خَرِيتيـه أكلتيهِ

(١) السَّمَنْدُ : طائر يستلذّ بالنار ولا يحترق بها .

ذكر ما قيل فى الحرص والطمع

قال الله عزّ وجل لنبيّه صلى الله عليه وسلم : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أربعٌ من الشقاء الخ ... عُدّ منها الحرص والأمل » وقال : «ماذئبان جائعان أُرسلا فى غنم فأفسداها أشدّ من حرص المرء على المـال»(١) . وقال : «يشيب آبنُ آدم وتشبّ منـه آثنتان : «الحرص على المـال، والحرص على العمر» وقال : « إيّاكم والطمعَ فإنه الفقر الحاضر» .

ومن كلام علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : الطمعُ مُورِد غير مُصْدِر، وضامن غير وفىّ، وكلما عَظُم قدر الشىء المتنافَس فيه، عظمت الرّزية لفقده، والأمانىّ تُعمِى البصائرَ . أزرى بنفسه من آستشعر الطمع، وآستولت عليه الأمانىّ .

وقال بعضهم : الحرص ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد فى رزقه .

وقال قُتَيبة : إن الحريص آستعجل الذّلة، قبل إدراك البغية .

وقيل : لا راحةَ لحَرِيص، ولا غِنًى لِذِى طَمَع .

وقيل : إن كَعْبا لَقِىَ عبد الله بن سلام، فقال : يابن سـلام، مَنْ أرباب العلم ؟ قال : الذين يعملون به، قال : فما أذهب العلم من قلوب العلمـاء بعد إذْ عَلموه ووعوه؟ قال : الطمعُ، وشَرَهُ النفس، وطلب الحوائج الى الناس . قال الأصْمعىّ : سمعتُ أعرابيّا يقول : عجبتُ للحريص المستكثِر، المستقِلّ لكثير ما فى يده، المستكثِر

(١) هكذا فى الأصل : والذى فى الجامع الصغير : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المـال والشرف لدينه) .

لقليل ما فى يد غيره، حتّى طلب الفضل، بذهاب الأصل، فركبَ مفاوز البرارى، ولُجَجَ البِحار، معرِّضا نفسَه للمات، وماله للآفات، ناظرا إلى من سَلِم، غيرَ معتبر بمن عطِب .

قال يزيد بن الحَكَم الثَّقَفِيّ

٥ رأيتُ السَّخِيَّ النفس، يأتيه رِزْقُه * هنيئا، ولا يُعطَى على الحِرْص جامِعُ
وكلّ حريص لن يُجَاوِزَ رزقه * وكم من مُوَفّى رزقه وهو وَادِعُ

وقالوا : مصارِعُ الألباب تحت ظلال الطمع . ويقال

الحرّ عبد ما طَمِع * والعبد حرٌّ ما قنِـع

وقالوا : أخرِج الطمعَ من قلبك، تَحُلَّ القيد من رجلك. وقال عمرو بن مالك الحارثىّ

١٠ الحِرْصُ للنفسِ فقرٌ والقُنُوعُ غِنًى * والقوتُ إن قَنِعتْ بالقوت يجزيها
والنفسُ لو أن ما فى الأرض حِيزَلها * ما كان إن هى لم تَقْنَعْ بكافيها

وقال ابن هَرْمة

وفى اليأس عن بعض المطامع راحةٌ * ويارُبَّ خُسْرٍ أدركتْه المطامِعُ

وقال هَرْمة بن خَشْرم

١٥ وبعضُ رَجَاء المرء ماليس نائلًا * عَنَاءٌ وبعضُ اليأس أعفى وأروَحُ

وقال مُكْنِف بن معاوية التيمىّ

ترى المرءَ يأمُلُ ما لا يرى * ومن دون ذلك ريبُ الأَجَلْ
وكم آيِسٍ قد أتاه الرَّجاءُ * وذِى طَمَعٍ قد لَوَاه الأَمَلْ

وقال آخر

٢٠ طَمِعتَ فيما وعدتك المنى * وليس فيما وَعَدَتْ مَطْمَعُ

وثِقتَ بالباطل من قولها ... وليس حقًّا كلُّ ما تسمعُ
وإنمـا مَوْعِدُهـا بارِقٌ ... فى كل حين خُلَّبٌ يلمعُ

ويضرب المثل فى الطمع "بأشعب". قيل له : ما بلغ من طمعك؟ فقال للقائل له : لم تقل هذا إلا وفى نفسك خيرٌ تصنعه بى؛ وقيل : إنه لم يمت شريف قطّ من أهل المدينة إلا آستعدَى أشعبُ على وصيِّه أو وارثه وقال له : آحلف أنه لم يُوصِ لى بشىء قبل موته؛ ووقف على رجل يعمل طبقا من الخَيْزُران، فقال له : وسِّعْه قليلا، قال الخيزرانىّ : كأنك تريد أن تشتريَه؟ قال : لا، ولكن ربما يشتريه بعض الأشراف فيَهْدِى إلىّ فيه شيئا؛ وسأله سالم بن عبد الله بن عُمَر رضى الله عنه عن طمعه، قال : قلت لصبيان مرةً : آذهبوا، هذا سالم قد فَتَح بيت صدَقَة عمر حتى يُطعِمكم تمرا، فلما أحضروا ظننت أنه كما قلت لهم، فعدوْتُ فى إثرهم؛ وقيل له : ماذا بلغ من طمعك؟ قال : أرى دخان جارى فأثْرُد عليه[1]؛ وقيل له أيضا : ما بلغ من طمعك؟ قال : ما رأيت عَرُوسا بالمدينة تُزَفّ إلا كنست بيتى ورشَشته طمعا أن تُزَفّ إلىّ؛ وقيل له : هل رأيتَ أطمع منك؟ قال : نعم، كلب أمّ حَوْمَل، تبعنى فرسخين، وأنا أمضغ كُنْدُرا[2]، ولقد حسدته على ذلك.

ذكر ما قيل فى الوَعْد والمَطْل

رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العِدَة دَيْن».

وقال بعض القُرشيِّين : من خاف الكذب، أقلّ من المواعيد.

وقيل : أمران لا يسلمان من الكذب : كثرة المواعيد، وشدّة الاعتذار.

(١) ثرد الخبز : فتّه.

(٢) الكُنْدُر : ضربٌ من العلك وهو اللبان الذكر.

وقالوا : خُلْف الوعد، خُلُقُ الوَغْد .

وقال المهلّب لبنيه : يا بَنِيّ، إذا غدا عليكم الرجل أو راح مُسَلِّمًا ، فكفى بذلك تقاضيـا .

قال الشاعر

اروح لتسـليم عليك وأَغتدى * فحسبُك بالتسـليم منى تقاضيا
كفى بِطلاب المرء ما لا يناله * عَنَاءً وباليأس المصرّح ناهيـا

وقيل : الوعد إذا لم يشفَعه إنجاز يُحَقِّقه، كان كلفظ لا معنى له ، وجسم لا رُوح فيه . وقالوا : الخلف ألأَمُ من البخل، لأنه من لم يفعل المعروف، لزمه ذمّ اللؤم،(١) وذمّ الخلف، وذمّ العجز . قال بعض الشعراء

وعدتَ فأكذبت المواعيدَ جاهدا * وأقلعتَ إقلاع الجَهَام بلا وَبْل
وأجرَرْتَ لى حَبـلا طويلا تَبِعتُه * ولم أدرِ أن اليأس فى طَرَف الحبل

وقال أبو تمّـام

وما نفعُ من قد مات بالأمس صاديًا * إذا ما سمـاءُ اليـوم طال آنهمَارُهَا
وما العُـرْفُ بالتّسـويف الا كَخَلّة * تسلّيتَ عنها حين شَطّ مَزَارُهَا

والعرب تضرب المثل بمواعيد عُرقوب ، وكان رجلا من العماليق وله فى ذلك حكايات، فمنها : أنه أتاه أخ له ، يسأله شيئا، فقال له عرقوب : إذا أطلعَتْ هذه النخلة فلك طَلْعها، فلما أطلعت، أتاه الرجل للعدَة، فقال : دعها حتى تصير بلَحا، فلما أبلحت، أتاه، فقال : دعها حتى تصير زَهْوًا، فلما أزهت، قال : دعها حتى

(١) فى العقد الفريد : ذم اللؤم وحده، ومن وعد فأخلف لزمه ثلاث مذمات : ذم اللؤم وذم الخلف وذم الكذب .

تصير رُطَبا ، فلما أرطبت ، قال : دعها حتى تصير تمرا ، فلما أتمرت ، عمد إليها عرقوب ، فجذّها ولم يعط أخاه منها شيئا .

وفيه يقول الأشجعىّ

وعدْتَ وكان الخلف منك سجيّةً ٭ مواعيدَ عُرْقوب أخاه بيــثرب[1]

وقال كعب بن زُهَير بن أبى سُلْمى

كانت مواعيدُ عُرْقوب لها مثلاً ٭ وما مواعيــدُها إلا الأباطيـــلُ

وقال السِّكّيت للمهدىّ : يا أمير المؤمنين ، لو كان الوعد يُستنزَل بالإهمال والسكون ، لشكرتك القلوب بالضمير ، ولنظرت إلى فضلك العيون بالأوهام ، فقال المهدىّ : هذا جزاء التفريط فيما يكسب الأجر ، ويذخر الشكر ، وأمر بقضاء حاجته .

وقال أعرابىّ : العُـذْرُ الجميل ، أحسن من المَطْل الطويل ، فإن أردت الإنعام فأنجِح ، وإن تعذّرتِ الحاجةُ فأفْصِح .

وقال بعض كُرَماء العرب : لأن أموتَ عَطَشا ، أحبُّ إلىّ من أن أُخلِف مَوْعدا .

وقالوا : من وَعَد فأخلف ، لزِمتْهُ ثلاثُ مذمّات : ذمُّ اللُّؤم ، وذمُّ الخُلْف ، وذمّ الكذب ؛ وقال بعض الشعراء

ولا خيرَ فى وَعْدٍ إذا كان كاذبا ٭ ولا خيرَ فى قول إذا لم يكن فِعْلُ

فإن تُجْتَمَـــع الآفاتُ فالبخلُ شرُّها ٭ وشرٌّ من البخل المواعيدُ والمَطْـلُ

قال بعض الأعراب : فلان له مواعيدُ عواقِبُها المَطْلُ ، وثمارُها الخُلْفُ ، ومحصولُها اليـــأْس .

---

(١) كذا بالأصل بالثاء المثلثة وقال فى اللسان و فى القاموس : إنها بالتاء المثناة وفتح الراء وهى قرية باليمامة .

وقال آخر : فلان له وعد مُطْمِع ، ومَطْلٌ مُؤْيِس، وأنت منه أبدا بين يأس وطمع، فلا بَذْلٌ مُرِيح، ولا مَنْعٌ صَرِيح .

وقال الثعالبيّ : أوّل من أخلف المواعيدَ ولم يَفِ بشيء منها: إسماعيلُ بن صُبَيح كاتبُ الرشيد، وما كان الرؤساء يعرفون قبله المواعيد الكاذبة

ذكر ما قيل فى العِيّ والحَصَر

قال الله عزّ وجلّ : (أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) وقال تعالى إخبارا عن فرعون عند آفتخاره على موسى بالبيان : (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) قال أهل التفسير: إن موسى عليه السلام لما سمع هذا القول قال :(رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) الآية، فقال الله تعالى : (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) .

وقيل: حدّ العِيّ معنًى قصير، يَحْويه لفظٌ طويل. وقال أَكْثَمُ بن صَيْفِيّ : هو أن تتكلّمَ فوق ما تقتضيه حاجتُك . وقالوا : الفقير الناطق، أغنى من الغنيّ الساكت .

وقال كسرى : الصَّمْتُ خيرٌ من عِيِّ الكلام .

وقالوا : فُضِّلَ الإنسانُ على ما عداه من الحيوان بالبيان ، فإذا نطق ولم يُفْصِح عاد بهيما .

وقالوا : العِيُّ داءٌ دواؤُه الخَرَس . ومن علامات العِيّ الاستعانة ، وهى أن ترى المخاطب إذا كلَّ لسانه عند مَقاطِع كلامه، يقول للخاطب : اسمع منّى ، أو سمعت لى، وافهم عنى، وأشباه ذلك .

ومنهم من يقول : قولى كذا، أعنى به كذا، ولا يريد التفسير، ولكنه يعيد كلامه بصيغة أخرى تكون غير مراده الأوّل ليفهم عنه .

ومن عيوب اللسان، التَّمْتَمَةُ، والفَأْفَأَةُ، والعُقْلة، والحُبْسَةُ، واللَّفَف، والرُّتَّةُ، والغَمْغَمَة، والطَّمْطَمة، واللُّكْنَةُ، والغُنَّة، واللُّثْغَة . فالتمتمة، قال الأصمعىّ : إذا تعتع فى التاء فهو تَمْتَام، وإذا ردّد فى الفاء فهو فأْفَاء، قال الراجز

ليس بفَأْفَاءٍ ولا تمتـامِ ٭ ولا كثيرِ الهُجْرِ فى الكلامِ

والعُقْلة : ٱلتواء اللسان عنـد الكلام ؛ والحُبْسَةُ : تعذّر النطق، ولم تبلغ حدّ الفأفاء ولا التمتام، ويقال : إنها تعرض أوّل الكلام، فإذا مرّ فيه ٱنقطعت . واللَّفَف : إدخال بعض الكلام فى بعض؛ قال الراجز

كأنّ فيـه لَفَفًا إذا نَطَق ٭ من طول تَحْبِيسٍ وهَمٍّ وأَرَق

والرُّتَّةُ : ٱتصال بعض الكلام ببعض دون إفادة، والغمغمة : أن تسمع الصوت ولا يتبيّن لك تقطيعُ الحروف، ولا تفهم معناه، والطمطمة : أن يكون الكلام شبيها بكلام العجم، وهى حِمْيريّة، وقالوا : هى إبدال الطاء بالتاء لأنهما من مخرج واحد، فيقول : السُّلتان والشّيتان، وأشباه ذلك، قيـل : وكانت فى لسان زيادِ بن سَلْمَى، وكان خطيبا شاعرا كاتبا؛ واللُّكْنَةُ : إدخال بعض حروف العرب فى حروف العجم، وتشترك فيها اللغة التركية والنبطيّة، وهى إبدال الهاء حاءً، وٱنقلاب العين همزة، وكانت فى لسان عُبَيد الله بن زياد، وصُهَيب الرومىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن مَوْلًى لزياد، قال له : أيها الأمير، أَهْدوا لنا هَمَارَ وَهْش : يريد : أهدوا لنا حمارَ وحش، فلم يفهم زياد عنه، وقال : ويلك! ماذا تقول ؟ قال : أهدوا لنا أَيْرًا : يريد عَيْرًا، فقال زياد : أرجعنا إلى الأول فهو خير ؛ والغُنَّة :

أن يشرب الصوتَ الخَيْشُومُ، والخُنّـةُ : ضرب منها ، والترخيم : حذف بعض الكلمة لتعذّر النطق بهـا ، واللُّثْغَة : إبدال ستة حروف بغيرها ، وهى الهمزة والراء والسين والقاف والكاف واللام ، فالتى تعرض للهمزة ، فهى إبدالها عينا ، فإذا أراد أن يقول : أنت ، قال : عَنْتَ وهى مستعملة فى لسان التُّكْرور ، وأما التى تعرض فى الراء ، فهى ستة أحرف ، فمنهم من يجعلها غينا معجمة فيقول (غُمَغ) : يريد عُمَر ، وهى غالبة على لسان أهل دمشق ، و إذا ٱجتمعت الراء والغين فى كلمة كقولهم : رغيف ، قال : (غريف) ، وفَغْرت بمكان فرغت : فيبدلون كلّ حرف بالآخر ، قيل : وكانت فى لسان محمد بن شبيب الخارجىّ ، وواصل بن عطاء المعتزلىّ ، وكان لاقتداره على الكلام ، وغزارة مادته ، يتجنب النطق بهـا ، وفيـه يقول الشاعر من ابيات

ويجعـــل البُرَّ قمحا فى تصـرّفه ... وجانبَ الرّاء حتى ٱحتال للشَّعَرِ

ولم يُطِقْ مَطَرًا والقـولُ يعجله ... فعـاذ بالغَيْث إشفاقا من المَطَرِ

ومنهم من يجعلها عينا مهملة ، فيقول فى أزرق : أزعق ، وهى فى لسان عوامّ أهل دمَشق ، ومنهم من يجعلها ياء ، فيقول فى عُمَر : عُمَى ، ومنهم من يبدلها بالظاء أخت الطاء ، ومنهم من يبدلها همزة ، فإذا أراد أن يقول : رأيت ، قال : أأيْتُ ، وأما التى تعرض للسين ، فإنهم يبدلونها ثاء ، فيقولون : بثم الله ، ويُثْرة الله : إذا أرادوا بسم الله ، ويُسرة الله ، أو أشباه ذلك ، وهى مستحسنة فى الجوارى والغلمان . قال الشاعر

وأهيف كالهلال شكوتُ وَجْدى ... إليـــه لِحُسْـنه وأطلتُ بَثّى

وقلت له فدتك النفسُ صِـلْنى ... تحـرّزْ فىّ الثـوابَ فقال بَثّى

وأما التي تعرض للقاف ، فإن صاحبها يجعل القاف طاءً ، فإذا أراد أن يقول : قال، وقلت، نطق: بطالّ، وطُلْتُ، وهي نبطيّة، وكانت في لسان أبي مُسْلم صاحب الدعوة، وعُبَيد الله بن زياد؛ ومنهم من يجعلها كافا فيقول : كَال وكُلْت ؛ وأمّا التي تعرض للكاف ، فمنهم من يجعلها همزة ، فيقول : أأَف ، ومنهم من يبدلها تاء ، فيقول : تَانَ، إذا أراد : كان ، وأما التي تعرض في اللام ، فمنهم من يبدلها ياءً، فيقول : آعتَيَيْتُ، بمعنى : آعتللت، ويقول في جَمَل : جمي، وإذا أقسم بالله، يقول : ويّاه ، ومنهم من يبدل الخاء المعجمة حاءً مهملة، فيقول في خوخ : حُوح ؛ وتُستحسن في الغِلْمان والجواري ، ومنهم من يبدل الجيم ضاداً ، فإذا آجتمع لأحد في كلمة جيم وضاد، مثل ضجر ، ونضج، قال : جضر، ونجض . والحمد لله وحدَه!

كمل الجـــزء الثـــالث

من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، يتلوه إن شاء الله تعالى في أول الجزء الرابع منه :

"الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثاني في المجون والنوادر والفكاهات والملح"

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

وحسبنا الله ونعم الوكيل



تراثنا



في

فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النُّوَيري

٦٧٧ - ٧٣٢ هـ

السِّفر الرابع

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وقف الخربوطلي بالظاهر ت ٩٠١١٨
القاهرة

فهرس

السفر الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى

صفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

صفحة

السفر الرابع

من

كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل أفضل صلاة على أفضل خلقك سيدنا محمد وآله وسلم .

الباب الثالث

(١)

من القسم الثالث من الفن الثانى

(فى المجون والنوادر والفُكاهات والمُلَح)

وهذا الباب مما تجذب النفوس اليه، وتشتمل الخواطر عليه؛ فإن فيه راحةً للنفوس إذا تعبت وكلَّتْ، ونشاطًا للخواطر إذا سئمت وملّت؛ لأن النفوس لاتستطيع ملازمة الأعمال، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال. فإذا عاهدتها بالنوادر فى بعض الأحيان، ولاطفتها بالفكاهات فى أحد الأزمان، عادت إلى العمل الجدّ بنَشْطة جديدة، وراحةٍ فى طلب العلوم مديدة .

وقد رُوِى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رَوِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت » .

وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : أَجِمُّوا[1] هذه القلوب والتمسوا لها طرق الحكمة، فإنها تَمَلّ كما تَمَلّ الأبدان، والنفس مؤثِرة للهوى، آخذة بالهوينى، جانحة إلى

---

(١) أى أريحوها من تعبها .

اللهو، أمّارة بالسوء، مستوطنة بالعجز، طالبــة للراحة، نافرة عن العــمل؛ فإن[(١)] أكرهتها أنْضَيْتَها، وإن أهملتها أرْدَيْتَها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدوَ نواجذه . وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لُعابه .

٥ وقال هشام بن عبد الملك : قد أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعما، وشممت الطِّيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالي أَمرأةً أتيتُ أم حائطا؛ فما وجدت شيئا ألذّ إليّ من جليس تسقط بيني وبينه مـُونة التحفُّظ[(٢)] .

وقال أحمد بن عبد ربه : المُلَح نُزهة النفس، وربيع القلب، ومَرْتَع السمع، ومجلب الراحة، ومَعدِن السرور . وقال أيضا : إن فى بعض الكتب المترجمة أن يوحنّا ١٠ وشمعون كانا من الحَوَارِيِّين، فكان يوحنا لايجلس مجلســا إلا ضحك وأضحــك مَن حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلسا إلا بكى وأبكى من حوله . فقال شمعون ليوحنا : ما أكثر ضحكك ! كأنك قد فرغت من عملك ! فقال له يوحنا : ما أكثر بكاك ! كأنك قد يئست من ربك . فأوحى الله إلى عيسى بن مريم عليه السلام : أنّ أحبَّ السيرتين إليّ سيرة يوحنا .

١٥ والعرب إذا مدحوا الرجل قالوا : هو ضحوك السنّ، بسّام العشيّات[(٣)]، هَشٌّ الى الضيف . وإذا ذمّته قالت : هو عَبُوس الوجه، جَهْم المُحَيّا، كريه المنظر، حامض الوجه "كأنمــا وجهه بالخل منضوح". وكأنما أُسعِط خيشومه بالخردل .

وقيل لسفيان: المِزاح هُجْنة؛ فقــال : بل سُنَّة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق »، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين .

٢٠ (١) كذا فى العقد الفريد . وفى الأصل : « فان أكرهتها أنصبتها، وإن أهملتها أدبتها » .
(٢) فى الأصل : « مروءة التحفظ » .
(٣) فى العقد الفريد : « بسام الثنيات » .

ذكر مُزَاحات رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فمن ذلك : أنه قال صلى الله عليه وسلم لرجل آستحمله : « نحن حاملوك على ولد الناقة » يريد : البعير . وقال صلى الله عليه وسلم لآمرأة من الأنصار : « الحَقِي زوجَك ففى عينه بياضٌ » .فسعتِ المرأة نحو زوجها مرعوبة؛ فقال لها : مادهاكِ ؟ فقالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنّ فى عينك بياضا؛ فقال : إن فى عينى بياضا لا لسوء . وأتته عجوز أنصاريّة فقالت : يارسول الله، آدع لى بالمغفرة. فقال لها : « أمَا علمتِ أنّ الجنة لايدخلها العُجُز» ! فصرخت؛ فتبسّم صلى الله عليه وسلم وقال لها : " أمَا قرأتِ ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابىّ قد صلى صلاة خفيفة ، فلما قضاها قال : اللهم زوّجنى بالحورِ العينِ ؛ فقال عمر : ياهذا ! أسأت النَّقْد، وأعظمت الخِطْبة .

ذكر من آشتهر بالمزاح من الصحابة

رضوان الله عليهم

كان أشهرهم بالمزاح رضى الله عنهم نُعَيْمان، وهو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم البدريّين، وله رضى الله عنه مزاحات مشهورة، منها ماروى : أنه خرج مع أبى بكر الصِّدِّيق إلى بُصْرَى، وكان فى الجملة سُوَيْبِط، وهو بدرىّ أيضا، وكان سويبط على الزاد؛ فجاءه نعيمان فقال له : أطعمنى؛ قال : لا، حتى يأتى أبو بكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنّك. وجاء إلى أناس جلبوا ظَهْرًا، فقال آبتاعوا منى غلاما عربيا فارها إلا أنه دَعّاء، له لِسان، لعله يقول: أنا حرّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه،

لا تُفسدوا علىّ غلامى . قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص . فأقبل بها يسوقها، وأقبل بالقوم حتى عقلها، ثم قال : دونكم ! هذا هو. فقالوا : قد آشتريناك . فقال سويبِط : هو كاذب، أنا رجل حرّ؛ فقالوا : قد أُخبِرنا خبرك، ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به . فجاء أبو بكر رضى الله عنــه فأُخبِر بذلك، فذهب هو وأصحابه ، فردّوا القلائص على أربابها وأخذوه . وأُخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحك منها حولا . ٥

ومن مزاحاته : أنه أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جرّةَ عسل آشتراها من أعرابىّ ، وأتى بالأعرابىّ إلى باب النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : خذ الثمن من هاهنــا . فلما قسمها النبىّ صلى الله عليــه وسلم نادى الأعرابىّ : ألَا أُعْطَى ثمن عسلى؟ ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إحدى هَنَاتِ نُعَيان" . وسأله : لِمَ فعلتَ هذا ؟ فقال : أردت بِرّك يارسول الله ، ولم يكن معى شىء . فتبسّم النبىّ صلى الله عليه وسلم وأعطى الأعرابىّ حقّه . ١٠

ومن مزاحاته أيضا : أنه مرّ يوما بمَخْرَمة بن نَوْفَل الزُّهرىّ ، وهو ضرير، فقال له : قُدْنى حتى أبول ، فأخذ بيده حتى إذا كان فى مؤخّر المســجد قال له : آجلس؛ فجلس مخرمة ليبول؛ فصاح الناس : ياأبا المِسْوَر، أنت فى المسجد . فقال: من قادنى ؟ فقيل له : نعيان . قال : لله علىّ أن أضربه بعصاى إن وجدته . فبلغ ذلك نعيان ، فجاء يوما فقال لمخرمة : يا أبا المِسور ، هل لك فى نعيان ؟ قال نعم . قال : هو ذا يصلى . وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفّان رضى الله عنــه وهو يصلّى، فقال : هــذا نعيان؛ فعلاه مَخْرَمة بعصاه؛ فصاح به الناس : ضربتَ أمير المؤمنين . فقال: من قادنى؟ قالوا : نعيان؛ فقال: لاجَرَم لاعرَضت له بسوءٍ أبدًا . ١٥ ٢٠

ومنهم ابن أبي عَتيق، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق رضى الله عنهم . وكان ذا ورع وعفاف وشرف، وكان كثير المجون، وله نوادر مستظرفة ، منها : أنه لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما تقول فى إنسان هجانى بشعر، وهو :

٥ أذهبتَ مالك غير مُتَّرِكٍ * فى كل مؤنسةٍ وفى الخمرِ [1]

ذهب الإله بما تعيش به * وبَقِيتَ وحدك غير ذى وَفْرِ

فقال عبد الله بن عمر : أرى أن تأخذ بالفضل وتصفَح . فقال له عبد الله بن محمد ابن عبد الرحمن : والله أرى غير ذلك . فقال : وما هو؟ قال : أرى أن أنيكه . فقال ابن عمر : سبحان الله! ما تترك الهزل! وافترقا . ثم لقيه بعد ذلك فقال له : أتدرى

١٠ ما فعلت بذلك الإنسان؟ فقال : أىّ إنسان؟ قال : الذى أعلمتك أنه هجانى . قال: ما فعلت به ؟ قال : كل مملوك لى حرّ إن لم أكن نِكته . فأعظم ذلك عبد الله بن عمر واضطرب له . فقال له : امرأتى والله التى قالت الشعر وهجتنى به . وكانت امرأته أمّ إسحاق [2] بنت طلحة بن عبيد الله .

وقد مدح الشعراء اللعب فى موضعه، كما مُدح الجدّ فى موضعه؛ فقال أبو تمّام:

١٥ الجِدّ شيمتُه وفيه فُكاهةٌ * طورًا ولا جِدّ لمن لم يلعبِ

وقال الأُبَيْرِد رحمة الله عليه :

اذا جدّ عند الجِدّ أرضاك جِدُّه * وذو باطلٍ إن شئت ألهاك باطِلُهْ

---

(١) رواية البيتين فى كتاب التاج للجاحظ ص ١٣١ :

ذهب الاله بما تعيش به * وقرت ليلك أيما قر

٢٠ أنفقت مالك غير محتشم * فى كل زانية وفى الخمر

(٢) فى التاج أنها عاتكة بنت عبد الرحمن .

ومن مجونِ عبــد الله بن محمد بن عبد الرحمن ما حكِى أنّ جاريته قالت له : إن فلانا القارئ ، وكان يظهِر النسك ، قد قطع علىّ الطريق وآذانى ويقول لى : أنا أحبّكِ . فقال لها : قولى له : وأنا أُحبّك أيضا ، وواعديه المنزل؛ ففعلت وأدخلته المنزل؛ وكان عبد الله قد واعد جمــاعةً من أصحابه ليضحكوا من الرجل . ودخلت الجارية الى البيت الذى فيــه الرجل ، فدعاها فاعتلّت عليه؛ فوثَب إليها [(١) فاحتملها وضرب بها الأرض؛ فدخل عليه آبن أبى عَتِيق وأصحابه وقد تورّكها؛ فخجل وقام وقال : يافُسّاق ، ماتجمّعتم هاهنا إلا لِريبة . فقال له آبن أبى عتيق : أُستر علينا ستر الله عليك . ثم لم يرتدع عن العبث بها ، فشكَتْ ذلك الى سيّدها؛ فقال لها : هَيِّئِي من الطعام طِحْن ليلة الى الغداة ففعلت ، ثم قال لها : عِدِيه الليلةَ ، فإذا جاء فقولى له : إنّ وظيفتى الليلةَ طَحْن هذا كله ، ثم آخرجى الى البيت وآتركيه ، ففعلت . فلما دخل طَحنت الجارية قليلا ، ثم قالت له : أدِرِ الرَحى حتى أفتقد سيّدى؛ فاذا نام وأمِنّا أن يأتينا أحد ، صرتُ إلى ما تحبّ ، ففعل ، ومضت الجارية الى مولاها ، وأمر آبن أبى عَتِيق عدّة من مَوْلَياته أن يتراوحن على سَهَرِ ليلتهِنّ ويتفقّدن أمر الطّحن ويَحُثُثْن عليــه ، ففعلن وجعلن يُنادِين الفتى كلمــا كفّ عن الطحن : يا فلانةَ إنّ مولاكِ مستيقظ والساعة يعلم أنك قد كَفَفت عن الطحن ، فيقوم إليك بالعصا كعادته مع من كانت نوبتها قبلك إذا هى نامت وكفّت عن الطحن . فلم يزل كلما سمع ذلك الكلام منهن آجتهد فى العمل والجارية تتفقّده وتقول له : استيقظ مولاى والساعة ينام فأصير الى ما تحبّ وهو يطحن ، حتى أصبح وفرغ القمح . فأتته الجارية بعد فراغه فقالت له : قد أصبح فانجُ بنفســك . فقال : أوَ قد فعلتِهــا يا عدوّة الله !

(١) الكلام الذى يبتــدئ بهذا المربع [وينتهى فى صفحة ١١ بهذا المربع] ساقط من الأصل وموجود بالنسخة الراغبية .

وخرج تعبا نصبا ، وأعقبه ذلك مرضا شـديدا أشرف منه على الموت، وعاهد الله ألّا يعود الى كلام الجارية،فلم تر منه بعد ذلك شيئا تكرهه . قال : وتعشّى عبد الله ليلة ومعه رجل من الأنصار، فوقع حجر فى الدار و وقع آخر وثالث؛ فقال للجارية : آخرجى فانظرى : أذّنوا المغربَ أم لا ؛ فخرجت وجاءت بعد ساعة ، وقالت : قد أذّنوا وصلّوا . فقال الرجل الذى كان عنده : أليس قد صلّينا قبل أن تدخل الجارية؟ قال: بلى، ولكن لو لم أرسلها تسأل عن ذلك لَرُجمنا الى الغداة، أفهمت ؟! قال : نعم، قد فهمت . قال وسمع عبد الله بن أبى عَتيق قول عمر بن أبى ربيعة .

مَنْ رسـولى الى الثُّرَيّا فإنى[1] * ضِقتُ ذرعًا بهجرها والكتاب

فركب بغلته من المدينة، وسار يريد مكة،فلما بلغ ذا الحُلَيْفة[2] قيل له : أحرم، قال: ذو الحاجة لا يُحرِم، وجاء حتى دخل على الثريّا . فقال لها : ابن عمك يقول :

* ضِقت ذرعًا بهجرها والكتاب *

ثم ركب بغلته وعاد .

ذكر شىء من مجون الأعراب

سئل أعرابىّ عن جارية له يقال لها زهرة، فقيل له : أَيسُرّك أنك الخليفة وأن زهرة ماتت؟ فقال : لا والله! تذهب الأُمّةُ وتضيع الأمّة. وجد أعرابىّ مرآة وكان قبيح الصورة ، فنظر فيها فرأى وجهه فاستقبحه، فرمى بها وقال : لشرٍّ ما طرحَك أهلُك . وقيل لأعرابىّ : لِمَ يقال : باعك الله فى الأعراب؟ فقال : لأنّا نُجيع كَبِده، ونُعرِى جلدَه، ونُطيل كدَّه . وتزوّج أعرابىّ على كِبَرِ سِنه، فقيل له

(١) فى ديوان عمر بن أبى ربيعة : « بأنى » .

(٢) ذو الحليفة : ميقات أهل المدينة .

فى ذلك؛ فقال : أُبادِره باليُتْم، قبل أن يُبادرنى بالعقوق . ومرّ أعرابىّ وفى يده رغيف برجل فى يده سيف، فقال: بِعنى هذا السيف بهذا الرغيف؛ فقال : أمجنون أنت؟ فقال الأعرابىّ : ما أنكرت منى؟ أنظر أيهما أحسن أثرًا فى البطن .

وحُكى أن المهدىّ خرج للصيد فغلبه فرسه حتى آنتهى به الى خِباء لأعرابىّ، فقال: يا أعرابىّ، هل من قِرىً؟ قال نعم، وأخرج له فضلةً من خُبْز مَلّةٍ فأكلها وفضلة من لبن فسقاه، ثم أتى بنبيذ فى زُكْرة[(١)] فسقاه قَعْبا[(٢)] . فلما شرِب قال : أتدرى من أنا؟ قال : لا والله . قال : أنا من خَدَم الخاصّـة؛ قال : بارك الله لك فى موضعك . ثم سقاه آخر؛ فلمّا شرِبه قال : أتدرى من أنا؟ قال : نعم، زعمت أنك من خدم الخاصة؛ قال : بل أنا من قوّاد أمير المؤمنين؛ فقال له الأعرابىّ : رحُبت بلادُك، وطاب مزادك ومَرَادك . ثم سـقاه قدحا ثالثا؛ فلما فرغ منه قال : يا أعرابىّ، أتدرى من أنا؟ قال : زعمتَ أخيرا أنك من قوّاد أمير المؤمنين؛ قال : لا ولكنى أمير المؤمنين . فأخذ الأعرابىّ الزكرة فأوكاها[(٣)] وقال : والله لئن شربت الرابع لتقولنّ: إنك لرسول الله؛ فضحك المهدىّ . ثم أحاطت بهم الخيل، فنزل أبناء الملوك والأشراف؛ فطار قلب الأعرابىّ؛ فقال له المهدىّ : لابأس عليك! وأمر له بصلة . فقال: أشهد أنك صادق، ولو آدّعيت الرابعة لخرجت منها .

ودخل أعرابىّ على يزيد بن المهلّب وهو على فرشه والناس سِماطان، فقال : كيف أصبح الأمير؟ قال يزيد : كما تُحِبّ . فقال الأعرابىّ : لو كنتَ كما أُحِبّ كنتَ أنت مكانى وأنا مكانك؛ فضحك يزيد .

---

(١) الزكرة (بالضم) : زق للخمر . (٢) القعب : القدح الضخم .
(٣) أوكاها : ربطها .

ذكر شيء من نوادر القضاة

قيل : أتى عَدِىّ بن أرطاة شُرَيْحا القاضى ومعه آمرأة له من أهل الكوفة يخاصمها اليه ؛ فلما جلس عَدِىّ بين يدى شُرَيح، قال عدىّ : أين أنت؟ قال : بينك وبين الحائط . قال : إنى آمرؤ من أهل الشام؛ قال : بعيد الدار . قال : وإنى قدمت العراق؛ قال : خير مقدم . قال : وتزوجت هذه المرأة؛ قال : بالرفاء والبنين . قال : وإنها ولدت غلاما؛ قال : لِيَهْنِك الفارس. قال : وقد أردت أن أنقلها إلى دارى؛ قال : المرء أحق بأهله . قال : كنت شَرَطت لها دارها؛ قال : الشرطُ أملك . قال : آقض بيننا؛ قال : قد فعلت . قال : فعلى من قضيت؟ قال : على ابن أُمّك .

ودخل على الشعبىّ فى مجلس قضائه رجل وآمرأته، وكانت المرأة من أجمل النساء ، فاختصما اليه ، فأدلت المرأة بحجتها، وقَوِيت بيِّنتها. فقال للزوج : هل عندك من دافع ؟ فأنشأ يقول :

فُتِنَ الشَّعْبِىّ لمّا * رفع الطَّرْفَ إليها
فتنته بِدلالٍ * وبِخَطَّىْ حاجِبَيْها
قال لِلجِلوازِ[1] قَرِّبْ * ها وقدّم شاهِدَيْها
فقضى جَوْراً على الخَصْـ * ـمِ ولم يقضِ عليها

قال الشعبىّ : فدخلت على عبد الملك بن مروان؛ فلما نظر إلىّ تبسّم وقال :

فُتِنَ الشعبىّ لمّا * رفع الطرف اليها

ثم قال : ما فعلت بقائل هذه الأبيات ؟ قلت : أوجعته ضربًا يا أمير المؤمنين بما آنتهك من حرمتى فى مجلس الحكومة وما آفترى به علىّ . قال : أحسنت! .

(١) الجلواز : الشرطى .

وأحضر رجل آمرأته الى بعض قضـاة البصرة، وكانت حسـنة المُنْتَقَب، قبيحة المَسْفَر، فمال القاضي لها على زوجها وقال: يعمِد أحدكم الى المرأة الكريمة فيتزوجها ثم يسيء اليهـا . ففطن الرجل لميـله اليها فقال : أصلح الله القاضي، قد شككتُ في أنها آمرأتي، فمُرْها تَسْفِر عن وجهها؛ فوقَع ذلك بِوفاق من القاضي، فقال لها: آسفرى رحمكِ الله؛ فسفَرت عن وجه قبيح. فقال القاضي لمّـا نظر الى قبح وجهها: قُومى عليكِ لعنة الله! كلامُ مظلوم، ووجهُ ظالم .

قيل: بينا رَقَبة بن مَصْقَلة القاضي في حَلْقته، إذ مرّ به رجل غليظ العنق؛ فقال له بعض جلسائه : يا أبا عبد الله ، هذا أعبد الناس . فقال رقبة : إنى لأرى لهذا عنقًا ما دقّقتها[(١)] العبادة . قال : فمضى الرجل وعاد قاصدًا اليهم . فقال رجل لرقبة : يا أبا عبد الله، أخبره بما قلت حتى لا تكون غِيبة؛ قال : نعم، أخبره أنت حتى تكون نميمة . ودخل رَقَبة الى المسجد الأعظم فألقى نفسه الى حلقة قوم، ثم قال : قتيل فالوذج رحمكم الله! قالوا: عند من ؟ قال : عند من حكم في الفرقة وقضى في الجماعة، يعنى : بلال بن أبي بُرْدة .

وآختصم رجلان الى إيَاس بن معاوية وهو قاضي البَصْرة لعمر بن عبد العزيز في مِطْرَف خَزّ وأنبجانيّ، وآدّعى كل واحد منهما أن المطرف له وأن الأنبجانيّ لصاحبه . فدعا إياس بمشط وماء، فبلّ رأس كل واحد منهما، ثم قال لأحدهما: سَرّح رأسك فسرّحه، فخرج في المشط عفر المطرف ، وفي مشط الآخر عفر الأنبجانيّ؛ فقال: ياخبيث ! الأنبجانيّ لك، فأقرّ، فدفع المطرف لصاحبه . وقال رجل لإياس : هل ترى علىّ من بأس إن أكلت تمـرا؟ قال لا . قال : فهل ترى علىّ من بأس ان أكلت معه كَيْسوما ؟ قال لا . قال : فإن شربت عليهـما ماء؟ قال : جائز .

(١) فى أحد الأصول : « ماوقدتها » وفى أصل آخر . « مادقتها » .

قال: فلم تحرّم السكر، وإنما هو ماذكرت لك؟ قال له إياس لوصببت عليك ماء هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فلو نثرت عليك ترابًا هل كان يضرّك ؟ قال لا . قال : فإن أخذت ذلك فخلطته وعجنته وجعلت منه لَبِنةً عظيمة فضربت بها رأسك هل كان يضرّك ؟ قال : كنتَ تقتلنى . قال : فهذا مثل ذاك .

٥ دعا الرشيد أبا يوسف القاضى فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف درهم. فقال] إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح ! فقال : عجِّلوها له . فقيل : إن الخازن فى بيته والأبواب مغلقة . فقال أبو يوسف : وقد كنت فى بيتى والدروب مغلقة ، فلما دُعيت فُتحت . فقال له الرشيد : بلغنى أنك لا ترى لبس السواد . فقال: يا أمير المؤمنين، ولِمَ وليس فى بدنى شىء أعزّ منه؟ قال : وما هو؟
١٠ قال : السواد الذى فى عينىّ .

وسأل الرشيد الأوزاعىّ عن لُبْس السواد، فقال: لا أحرّمه، ولكنى أكرهه. قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه لا تُجْلَى فيه عَرُوس، ولا يلبّى فيه مُحْرِم، ولا يُكَفَّن فيه ميت . فالتفت الرشيد الى أبى يوسف وقال : ما تقول أنت فى السواد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، النور فى السواد . فاستحسن الرشيد ذلك . ثم قال : وفضيلة
١٥ أخرى يا أمير المؤمنين . قال : وما هى؟ قال : لم يكتب كتاب الله إلا به، فاهتزّ الرشيد لذلك .

تقدّم رجل الى أبى حازم عبد الحميد بن عبد العزيز السَّكُونىّ قاضى المعتمد، وقدّم أباه يطالبه بدَين له عليه، فأقرّ الأب بالدين، وأراد الابن حبس والده . فقال القاضى : هل لأبيك مال ؟ قال: لا أعلمه . قال : فمذ كم داينته بهذا المال ؟ قال :
٢٠ منذ كذا وكذا . قال: قد فرضتُ عليك نفقة أبيك من وقت المداينة؛ فحبس الابن وخلّى الأب .

كان عبد الملك بن عمر قاضى الكوفة، فهجاه هُذَيْل الأشجعىّ بأبيات منها :

اذا ذاتُ دَلٍّ كلمتــه بحــاجةٍ * فهمَّ بأن يقضى تحنح أو سَعَلْ

فكان عبد الملك يقول : قاتله الله ! والله لربما جاءتنى النحنحة وأنا فى المتوضأ فأذكر ما قال فأردّها .

٥ وقيل : شهد سلمىّ الموسوس عند جعفر بن سليمان على رجل، فقال : هو — أصلحك الله — ناصِبىّ، رافِضىّ، قَدَرِىّ، مجبِرِىّ، يشتم الحجــاج بن الزبير الذى يهدم الكعبة على علىّ بن أبى سفيان . فقال له جعفر : ما أدرى على أى شىء أحسدك : على علمــك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب ! فقال : أصلح الله الأمير، ما خرجتُ من الكُتّاب، حتى حذفت هذا كله ورائى .

١٠ وآستُفْتِى بعضُ القضاة، وقد نُسِبت الى القاضى أبى بكر بن قُرَيْعة، فقيل له : مايقول سيدنا القاضى أيده الله فى رجل باع حِجْرا(١) من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلّبه خرجت منها رِيح مصوّتة آتصلت بحصاة ففقأت عين المشترى؟ أفتنا فى الدية والردّ يرحمك الله . فأجاب : لم تجرِ العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ و بائع، فلذلك لم يثبت فى كتب الفقهاء، ولم يستعمل فى فتوى العلماء؛ لكن هذا وما شاكله يجرى مجرى الفضول،

١٥ المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه — و بالله العصمة من الزلل والخطل — : أن دِيةَ ماجنته الحِجْر ملغى فى الهدر، عملًا بقول النبىّ المختار، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، « جُرْح العجماء جُبَار »؛ لا سيما والمشترى عند كشفه لعورتها ، آستثار كامِن سَــوْرتها . وعلى البائع لها آرتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها، لأنه دلّس حِجْرا مَضيقُها مَنْجنيقُها . و إذا كانت السهام طائشةً، فهى من العيوب الفاحشة . وكيف

٢٠ يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق ، وقلّما يَسْتظهر المقلّبون الخيل بالدَّرَق .

(١) الحجر (بالكسر) : الأنثى من الخيل .

ذكر شيء من نوادر النُّحاة

قدّم رجل من النحاة خصما الى القاضى، وقال: لى عليه مائتان وخمسون درهما. فقال لخصمه : ماتقول ؟ فقال : أصلح الله القاضى، الطلاق لازم له ، إن كان له إلا ثلثمائة، وإنما ترك منها خمسين ليعلم القاضى أنه نَحْوِىّ .

٥ ومرّ أبوعلقمة بأعْدال قد كُتِب عليها : رُبٌّ سُلِّمَ لأبو فلان؛ فقال لأصحابه : لا إله إلا الله! يلحنون و يربحون .

وجاء رجل الى الحسن البصرىّ فقال : ما تقول فى رجل مات فترك أبيه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه. فقال : ما لأباه وأخاه؛ فقال الحسن: ما لأبيه وأخيه . فقال الرجل: إنى أراك كلما طاوعتك تخالفنى! . وقيل سكر هارون بن محمد

١٠ آبن عبد الملك ليلة بين يدى الموفّق، فقام لينصرف فغلبه السكر فنام فى المضرب. فلما آنصرف الناس جاء راشد الحاجب فأنبهه وقال : يا هارون آنصرف. فقال: هارون لا ينصرف. فأعاد راشد القول على هارون، فقال هارون : سل مولاك فهو يعلم أن هارون لا ينصرف . فسمع الموفّق فقال : هارون لا ينصرف؛ فتركه راشد. فلما أصبح الموفّق وقف على أن هارون بات فى مضربه؛ فأنكر على راشد، وقال:

١٥ يا راشد، يبيت فى مضربى رجل لا أعلم به! فقال : أنت أمرتنى بهذا، قلت : هارون لاينصرف. فضحك وقال : ما أردت إلا الإعراب وظننت أنت غيره .

وقيل: قدم العُرْيان بن الهيثم على عبد الملك، فقيل له : تحفَّظ من مَسْلَمة فإنه يقول: لَأَنْ يُلقِمنِى رجل بحجر أحبُّ إلىّ من أنْ يُسمِعنى رجل لحنا . فأتاه العريان ذات يوم فسلّم عليه . فقال له مَسْلَمة : كم عطاءك ؟ قال : ألفين. فنظر الى رجل

٢٠ عنده وقال له : لحن العراقِىّ؛ فلم يفهم الرجل عن مسلمة، فأعاد مسلمة القول على

العريان وقال : كم عطاؤك؟ فقال : ألفان . فقال : ما الذى دعاك الى اللحن أوّلا والإعراب ثانيـا؟ قال : لحن الأمير فكرِهت أن أُعرِب، وأعرب فأعربت . فاستحسن قوله وزاد فى عطائه .

ووقف نحوِىّ على بقّال يبيع الباذنجان فقال له : كيف تبيع؟ قال : عشرين بدانق، فقال : وماعليك أن تقول: عشرون بدانق؟ فقدّر البقّال أنه يستزيده، فقال ثلاثين بدانق . فقال : وما عليك أن تقول : ثلاثون؟ فما زال على ذلك الى أن بلغ سبعين، فقال: وماعليك أن تقول: سبعون؟ فقال: أراك تدور على الثمانون وذلك لايكون أبدا .

ذكر شيء من نوادر المتنبئين

قيل : ادّعى رجل النبوّة فى أيام المهدى، فأُدخِل عليه؛ فقال له : الى من بُعثت؟ فقال : ما تركتمونى أذهب الى من بُعثت اليهم، فإنى بُعثت بالغــداة وحبستمونى بالعشىّ . فضحك المهدىّ منه وأمر له بجائزة وخلّى سبيله .

وتنبأ رجل وآدّعى أنه موسى بن عِمران . فبلغ خبره الخليفة، فأحضره وقال له : من أنت؟ قال : أنا موسى بن عمران الكليم . قال : وهذه عصاك التى صارت ثعبانا ! قال نعم . قال : فألقِها من يدك ومُرْها أن تصير ثعبانا كما فعل موسى . قال : قل أنت ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كما قال فرعون حتى أُصَيِّر عصاى ثعبانا كما فعــل موسى . فضحك الخليفة منه وآستظرفه . وأُحْضِرتِ المــائدة، فقيل له : أكلت شيئا ؟ قال : ما أحسَنَ العقلَ ! لو كان لى شيء آكله، ما الذى كنتُ أعمل عنــدكم ؟ فأعجب الخليفة وأحسن اليه .

وآدّعت آمرأة النبوّة على عهد المأمون، فأُحضِرت اليه فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا فاطمة النبيّة . فقال لها المأمون : أتؤمنين بمــا جاء به محمد صلى الله عليه

وسلم ؟ قالت : نعم، كل ما جاء به فهو حق . فقال المأمون : فقد قال محمد صلى الله عليه وسلم « لانبيّ بعدى » . قالت : صدق عليه الصلاة والسلام، فهل قال : لا نبية بعدى ؟ فقال المأمون لمن حضره : أمّا أنا فقد آنقطعت، فمن كانت عنده حجة فليأتِ بها، وضحِك حتى غطّى على وجهه .

وآدّعى رجل النبوّة؛ فقيل له : ما علاماتُ نبوّتك؟ قال : أنبئكم بما فى نفوسكم. قالوا : فما فى أنفسنا؟ قال : فى أنفسكم أنى كذبت ولست بنبيّ .

وتنبأ رجل فى أيام المأمون، فأُتِى به إليه؛ فقال له : أنت نبيّ؟ قال نعم . قال: فما معجزتك؟ قال : ماشئت . قال : أَخرِج لنا من الأرض بِطّيخة. قال : أمهلنى ثلاثة أيام . قال المأمون : بل الساعة أريدها . قال : يا أمير المؤمنين ، أنصفنى ، أنت تعلم أن الله يُنبِتها فى ثلاثة أشهر، فلا تقبلها منى فى ثلاثة أيام! فضحك منه ، وعلم أنه محتال، فآستتابه ووصله .

وآدّعى آخر النبوّة فى زمانه فطالبه بمُعجِزة، فقال : أطرَح لكم حصاةً فى الماء فأُذيبها حتى تصير مع الماء شيئا واحدا . قالوا : قد رضِينا. فأخْرَج حصاةً كانت معه فطرحها فى الماء فذابت. فقالوا : هذه حيلة، ولكن أَذِبْ حصاةً غيرها نأتيك بها نحن . فقال لهم: لا تتعصّبوا، فلستم أضلّ من فرعون، ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون موسى: لا أرضى بما تفعله بعصاك حتى أُعطيك عصا من عندى تجعلها ثعبانا . فضحك المأمون منه وأجازه .

وآدّعى رجل النبوّة فى أيام المعتصم، فأُحضر بين يديه؛ فقال له : أنت نبي؟ قال نعم . قال : إلى من بُعثت ؟ قال : إليك. قال : أشهد إنك لسفيه أحمق. قال: إنما يذهب إلى كل قوم مثلُهم . فضحِك منه وأمر له بشيء .

وآدّعى آخر النبوّة فى أيام المأمون، فقال له : ما مُعْجِزتك؟ قال : سل ما شئت، وكان بين يديه قُفْل، فقال : خذ هذا القفل فافتحه . فقال : أصلحك الله ، لم أقل إنى حدّاد . فضحك منه وآستتابه وأجازه .

وآدّعى آخر النبوّة، فطُلِب ودُعِى له بالسيف والنِّطْع، فقال : ما تصنعون؟ قالوا : نقتلك . قال : ولِم تقتلونى ؟ قالوا : لأنك آدّعيت النبوّة . قال : فلست أدّعيها . قيل له : فأىّ شىء أنت؟ قال : أنا صِدّيق . فدُعِى له بالسياط، فقال : لم تضربوننى؟ قالوا : لآدّعائك أنك صِـدّيق، قال : لا أدّعى ذلك . قالوا : فمن أنت؟ قال : من التابعين لهم بإحسان . فدُعِى له بالدِّرة . قال : ولِم ذلك؟ قالوا : لآدّعائك ما ليس فيك ؛ فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبىّ تريدون أن تحطّونى فى ساعة واحدة الى مرتبة العوامّ! لا أقلّ من أن تصبروا علىّ الى غد حتى أَصِيرَ لكم ما شئتم . (١)

وآدّعى آخر النبوّة، وسمّى نفسه نوحا، فنهاه صديق له عن ذلك فلم ينته، فأخذه السلطان وصلبه، فمرّ به صديقه الذى كان ينهاه، فقال : يانوح ! ماحصل لك من السفينة غير الدَّقَل .

ذكر شىء من نوادر المغفّلين وآلحَمْقَى

قال بعضهم : رأيت آبن خلف الهمدانىّ فى صحراء وهو يطلب شيئا، فقلت له : ما تبغى هاهنا ؟ قال : دفنت شيئا ولست أهتـدى اليه . قلت : فهلّا علّمت عليه بشىء! قال : جعلت علامتى قطعة من الغيم كانت فوقه، وما أراها الساعة . ونظر مرة فى الحُبّ (وهو الزير) فرأى وجهه، فعدا الى أمّه فقال : يا أُمّى فى الحُبّ لِصّ . فجاءت أمه وتطلّعت فيـه، فقالت : إى والله ومعه قَحْبـة . ورُئِى فى وسط داره

(١) فى الأصول : « لا أقل مما تصبروا » .

وهو يعدو عَدْوًا شديدا ويقرأ بصوت عال . فسئِل عن ذلك فقال : أردت أن أسمع صوتى من بعيد . ودخل إلى رجل يعزّيه، فقال : عظّم الله مصيبتكم، وأعان أخاك على مايرِد عليه من يأجوج ومأجوج . فضحك الناس. فقال : تضحكون مما قلت ! وإنمـا أردت هاروت وماروت .

٥ وقيل: كتب المنصور إلى زِياد بن عبد الله الحارثى ، ليقسّم بين القواعد والعميان والأيتام مالا . فدخل عليـه أبو زياد التميمى ، وكان مغفّلا فقال : أصلحك الله ! اكتبنى فى القواعد . فقال له : عافاك الله ، القواعد هنّ النساء اللّاتى قعـدن عن أزواجهنّ . فقال : فاكتبنى فى العميان . قال: اكتبوه منهم؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ . قال أبو زياد :

١٠ واكتب ابنى فى الأيتام؛ قال : نعم! من كنتَ أباه فهو يتيم .

وسُئِل بعضهم عن مولده، فقال: وُلِدت رأسَ الهلال للنصف من رمضان بعد العيد بثلاثة أيام، فاحسبُوا الآن كيف شئتم .

ذكر شيء من نوادر النبيذيّين

قال رجل لبعض أصحاب النبيذ : وجّهتُ إليك رسولا عشيّة أمس فلم يجدك؛

١٥ فقال : ذاك وقت لا أجد فيه نفسى .

وقيل لبعضهم : كم الصلاة ؟ فذكر الغداة والظهر . قالوا : فالعصر؟ قال : تعرف وتنكر . قالوا : فالعِشاء؟ قال : يبلغها الجواد . قالوا : فالعَتَمة؟ قال : ما كانت لنا فى حساب قطّ .

شرب الأُقَيْشر فى حانوت خمّار حتى نفِد مامعه، ثم شرب بثيابه وبقى عُرْيانا،

٢٠ فجلس فى تبن يستدفىء به . فمرّ رجل ينشُد ضالّة؛ فقال الأقيشر : اللّهم اردُد عليه،

وآحفظ علينا . فقال له الحمار : سَخِنتْ عينُك، أىّ شىء يحفظ عليك ربّك ! قال : هذا التبن، لئلا يأخذه صاحبه فأهلِك من البرد .

وباع بعضهم ضَيعةً له، فقال له المشترى : بالعشىّ أشهد عليك . فقال : لو كنتُ ممن يفرغ بالعشىّ ما بعت ضيعتى .

ذكر شىء من نوادر النساء والجوارى

٥

قال رجل : قلت لجارية أريد شراءها : لا يُريبكِ شيبى؛ فإن عندى قوّة . فقالت : أَيسرك أنّ عندك عجوزا مُغْتلِمة !

أُدخِل على المنصور جاريتان فأعجبتاه . فقالت التى دخلت أوّلا : يا أمير المؤمنين، إن الله فضّلنى على هذه بقوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ . وقالت الأخرى : لا، بل الله فضّلنى عليها بقوله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

١٠

وعُرِض على المعتصم جاريتان بِكر وثيِّب، فمال إلى البِكر . فقالت الثيب : ما بيننا إلا يوم واحد . فقالت البكر : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

قيل لآمرأة ظريفة : أبِكر أنتِ ؟ قالت : أعوذ بالله من الكساد .

وقال المتوكل لجارية آستعرضها : أنت بكر أم إيش ؟ قالت : أنا إيش يا أمير المؤمنين .

١٥

وآستعرض رجل جارية فآستقبح قدميها . فقالت : لا تُبالِ؛ فإنى أجعلهما وراء ظهرك .

وقال الرشيد لبغيض جاريته : إنك لدقيقة الساقين . قالت : أحوج ما تكون إليهما لا تراهما .

وروى أبو الفرج الأصفهانيّ عن إسحاق: أن الرشيد أحضره مجلسه ذاتَ ليلة، وقد مضى شَطْر الليل؛ قال : فأخرج جارية كأنها مَهَاة، فأجلسها فى حِجره، ثم قال غنِّينى؛ فغنته :

جِئْن من الروم وقَاليقَـلا [(1)] * يَرْفُلْنَ فى المِرْط ولِين المُلَا
مُقَرْطَقَات بصنوف الحُلَى * ياحبذا البِيضُ وتلك الحُلَى

فآستحسنه وشرب عليه .

طُلبت جارية محمود الورّاق للمعتصم بسبعة آلاف دينار، فامتنع من بيعها، وآشتريتْ له بعد ذلك من ميراثه بسبعمائة دينار . فذكر المعتصمُ ذلك لها، فقالت : إن كان أمير المؤمنين ينتظر بشهواته المواريث فسبعون دينارا فى ثمنى كثيرٌ، فكيف بسبعمائة !

وآستعرض رجل جارية فقال لها : فى يَدَيْك عمل؟ قالت : لا، ولكن فى رجلىّ .

وحُكى أنّ بعض المُجّان كان يعشق جارية أمجن منه . فضاق يوما، فكتب إليها : قد طال عهدى بك ياسيّدتى، وأقلقنى الشوق إليك . فإن رأيتِ أن تستدركى رَمَقى بمُضْغة مِلْك وتجعليه بين دينارين وتُنفذيه إلىّ لأستشفى به فعلتِ إن شاء الله . ففعلتْ ذلك وكتبتْ إليـه : ردُّ الظَّرف من الظَّرف، وقد سارعتُ إلى إنفاذ ما طلبتَ؛ فأنعِمْ بردّ الطبق والمكبَّة، وآستعمِلِ الخبر : « اِستدِرّوا الهدايا بردّ الظّروف » .

وطلب آخر من عشيقته خاتمـا كان معها؛ فقالت : يا سيّدى، هذا ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود حتّى تعود .

---

(1) قاليقلا : بلد من أعمال أرمينية .

وكتب رجل الى عشيقته : مُرِى خيالك أن يلم بى . فكتبت اليه : ابعث إلىّ بدينارين حتى آتيك بنفسى .

قدّم بعضهم عجوزا دلّالة الى القاضى وقال : أصلح الله القاضى، زوّجتنى هذه امرأةً، فلما دخلت بها وجدتها عرجاء . فقالت : أصلح الله القاضى ! زوّجته آمرأة يجامعها، ولم أعلم أنه يريد أن يحج عليها أو يسابق بها فى الحَلْبة أو يلعب عليها بالكرة والصولجان ! .

كتب رجل الى عشيقته رقعة، قال فى أوّلها : عصمنا الله وإياك بالتقوى . فكتبت اليه فى الجواب : يا غليظ الطبع، إن آستجاب الله دعاءك لم نلتق أبدا .

قال عقيل بن بلال : سمعتنى أعرابيّة أُنشد :

وكم ليـلةٍ قد بِتّها غيرَ آثمٍ * بمهضومة الكشحين ريّانة القُلْبِ (١)

فقالت : هَلّا أَثمت ! أخزاك الله ! .

كان أبو نواس يوما عند بعض إخوانه ، فخرجت عليه جارية بيضاء عليها ثياب خضر . فلما رآها مسح عينيه وقال : خيرا رأيت إن شاء الله تعالى . فقالت : وما رأيت ؟ قال : ألكِ معرفة بعلم التعبير؟ قالت : ولا أعرف غيره . قال : رأيت كأنى راكب دابّة شهباء، وعليها جُلٌّ أخضر وهى تمرح تحتى . فقالت : إن صدقت رؤياك فستدخل بخلة . وقد روى أن هذه الحكاية آتفقت له مع عنان جاريةِ الناطفىّ .

وكان بعضهم جالسا مع آمرأته فى مَنْظَرة ، فمرّ غلام حسن الوجه، فقالت : أُعيذ هـذا بالله، ما أحسنه وأحسن وجهه وقدّه ! فقال الزوج : نعم، لولا أنه خَصِىّ . فقالت : لعنه الله ولعن من خصاه ! .

(١) القلب (بالضم) : سوار المرأة .

قال أبو العيناء : خطبتُ آمرأة فآستقبحتني . فكتبت اليها :

فإن تَنْفِرِى من قبح وجهى فإننى * أريب أديب لا غبِىّ ولا فُدُمُ

فأجابتنى : ليس لديوان الرسائل أريدك .

وخطب ثُمامة العوفىّ آمرأة . فسألت عن حِرفته؛ فكتب اليها يقول :

٥ وسائلةٍ عن حِرفتى قلت حِرفتى * مقارعة الأبطال فى كل مَازِقِ

وضربِى طُلَى الأبطال بالسيف مُعْلَماً * إذا زحف الصفان تحت الخوافق

فلما قرأتِ الشعر، قالت للرسول : قل له : فديتك! أنت أسد، فاطلب لك لَبُؤة؛ فإنى ظبية أحتاج الى غزال .

خرجت حُبّى المدنيّة فى جوف الليل؛ فلقيها إنسان فقال لها : تخرجين فى هذا ١٠ الوقت! قالت : ما أبالى، إن لقينى شيطان فأنا فى طاعتـه، وإن لقينى رجل فأنا فى طلبـه . وجاءت الى شيخ يبيع اللبن ، ففتحت ظرفا فذاقتـه ودفعته إليـه وقالت : لا تعجَل بشدّه؛ ثم فتحت آخر فذاقته ودفعته إليه . فلما أشغلت يديه جميعا، كشفت ثوبه من خلفه، وجعلت تَصْفِق(١) بظاهر قدميها آسته وخصييه، وتقول : يا ثارات ذات النِّحْيَين، والشيخ يستغيث، فلم يخلُص منها إلا بعد جهد.

١٥ غاب رجل عن آمرأته فبلغها أنه آشـترى جارية، فاشترت غلامين . فبلغه ذلك فجاء مبادرا، وقال لها : ما هذا؟ فقالت : أمَا علمت أنّ الرحى الى بغلين أحوج من البغل الى رَحيَين! ولكن بع الجارية حتى نبيع الغلامين؛ ففعل ذلك ففعلت .

ومثـل ذلك ما حكى عن الأحنف : أنه اعتمّ ونظر فى المرآة؛ فقـالت له آمرأته : كأنك قد هممت بخطبة آمرأة! قال : قد كان ذلك . قالت: فإذا فعلت

٢٠ (١) تصفق : تضرب . والصفق : الضرب يسمع له صوت .

فاعلم أن المرأة الى رجلين أحوج من الرجل الى آمرأتين . فنقض عمته وترك ما كان قد همّ به .

ذكر شيء من نوادر العميان

قال إبراهيم بن سَيّابة لبشّار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كريمتيه إلا عوّضه عنهما : إمّا الحفظ والذكاء ، و إمّا حسن الصوت . فما الذى عوّضك الله عن عينيك؟ قال : فقد النظر لبغيض ثقيل مثلك ! (١)

ونظير هذه الحكاية ما حُكى عن بعضهم ، قال : خرجت ليلة من قرية لبعض شأنى ، فإذا أنا بأعمى على عاتقه جرّة و بيده سِراج ، فلم يزل حتى آنتهى إلى النهر ، وملأ جرّته وعاد . قال : فقلت له : ياهذا ، أنت أعمى ، والليل والنهار عندك سواء ، فما تصنع بالسراج ؟ قال : ياكثير الفضول ، حملته لأعمى القلب مثلك ، يستضىء به لئلا يعثر فى الظلمة ، فيقع علىّ ويكسر جرّتى .

قالوا : بلغ أبا العيناء (٢) أنّ المتوكل يقول : لولا عمى أبى العيناء لآستكثرت منه ؛ فقال : قولوا لأمير المؤمنين : إن كان يريدنى لرؤية الأهلّة ونظم اللآلئ واليواقيت وقراءة نقوش الخواتيم ، فأنا لا أصلُح لذلك ؛ و إن كان يريدنى للمحاضرة والمنادمة والمذاكرة والمسامرة ، فناهيك بى . فانتهى ذلك الى المتوكل فضحك منه ، وأمر بإحضاره ، فحضر ونادمه .

تزوّج بعض العميان بسوداء ؛ فقالت له : لو نظرت الى حسنى وجمالى وبياضى لآزددت فىّ حبّاً . فقال لها : لو كنت كما تقولين ما تركك لى البُصَراء .

---

(١) فى إحدى النسخ : «الراحة من النظر ... »

(٢) فى الأصول : « أبا العتاهية » والتصويب عن وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ١ ص ٧٢٠ طبع بولاق) .

ذكر شيء من نوادر السؤّال

سأل أبو عون رجلا فمنعه، فألحّ عليه فأعطاه؛ فقال: اللهم آجرنا و إياهم، نسألهم إلحافا و يعطوننا كرها، فلا يبارك الله لنا فيها ولا يُؤجرهم عليها .

وقف أعرابىّ سائل على باب وسأل؛ فأجابه رجل وقال : ليس هاهنا أحد . فقال : إنك أحَدٌ لو جعل الله فيك بركة .

ووقف سائل على باب، وكانت صاحبة الدار تبول فى البالوعة؛ فسمع السائل صوت بولتها فظنه نشيش المقلَى، فقال : أطعمونا من هذا الذى تقْلونه؛ فضرطت المرأة وقالت : حَطبُنا رَطْبٌ ليس يُشعل .

ووقف سائل على باب وقال: تصدّقوا علىّ فإنى جائع. قالوا: إلى الآن لم نخبِز . قال : فكفٌّ سويق . قالوا: ليس عندنا سوِيق. قال: فشربةً من ماء فإنى عطشان. قالوا : ما أتانا السقاء . قال : فيسير دهن أجعله فى رأسى. قالوا: من أين لنا دهن. فقال : يا أولاد الزنا، فما قعودكم هنا ! قوموا وآشحتوا معى[1] !

ذكر شيء من نوادر من آشتهر بالمجون

كان مُزَبِّد ممن آشتهر بالمجون والنوادر، وله نوادر . فمنها ما قيل : إنه أخذه بعض الولاة وقد آتُّهِم بالشُّرْب، فاستنكهه، فلم يجد منه رائحة؛ فقال : قيّئوه . فقال مزبّد : ومن يضمن عشائى أصلحك الله؟ فضحك منه وأطلقه . وهبّت ريح شديد فصاح الناس : القيامة، القيامة! فقال مزبّد: هذه قيامة على الريق بلا دابة، ولا دجّال، ولا القائم، ولا عيسى بن مريم، ولا يأجوج ومأجوج . وقيل له :

(١) هذه الكلمة عامية . والفصيح فى هذا المعنى «شحذ» أو «سأل» .

لم لا تكون كفلانٍ؟ (يعنون رجلا موسِرا) فقال : بأبى أنتم ! كيف أشبَّه بمن يَضْرِط فيُشَمَّت[1] وأعطسُ فأُلطم ! . وقيـل له : ما بال حِمارك يتبلّد إذا توجّه نحو المنزل وحمير الناس إلى منازلها أسرع ؟ قال : لأنه يعرف سوء المنقلَب . ونظرت آمرأته وهى حبلى الى قبح وجهـه ، فقالت : الويل لى إنْ كان الذى فى بطنى يُشبهك . فقال لهـا : الويل لك إن لم يكن يشبهنى . وسمِـع رجلا يقول عن آبن عباس : مَنْ نوى حِجّةً وعاقه عائق ، كُتِبت له . فقال مزبّد : ما خرج العام كِراء أرخص من هذا .

وممن آشتهر بالمجون أشعب .

ذكر شىء من نوادر أشعب وأخباره

هو أشعب بن جُبَير. وآسمه شُعَيب، وكنيته أبو العلاء. وأمه أمّ الجلندح، وقيل: أمّ حميد حميدة[2]. وهى مولاة أسماء بنت أبى بكر الصدّيق رضى الله عنها . وكان أبوه قد خرج مع المختار بن أبى عُبَيـد ، فأسره مُصْعَب بن الزبير، فقال له : ويلك ! تخرج علىّ وأنت مولاى ! وقتله صبرا . وقد قيـل فى ولائه : إن أباه مولى عثمان آبن عفّان رضى الله عنه، وإن أمه كانت مولاة أبى سفيان بن حرب، وإن ميمونة أمّ المؤمنين أخذتها لمـّا تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت تدخل على أزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم، فيستظرِفنها ؛ ثم صارت تنقل أحاديث بعضهنّ الى بعض، وتُغرِى بينهن . فدعا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . وقد حُكِى

(١) التشمت (بالشين المعجمة والسين المهملة) : الدعاء للعاطس .

(٢) فى الأغانى : «كان يقال لأمه أم "الخلندج" وقيل أم جميل وآسمها حميدة» .

عن أشعب : أنه جلس يوما فى مجلس فيه جماعة ، فتفاخروا وذكر كل واحد منهم
مناقبه وشرفه أو شجاعته أو شِعره وغير ذلك مما يتمدّح به الناس و يتفاخرون؛ فوثب
أشعب وقال : أنا ٱبن أمّ الجلندح ، أنا ٱبن المحرّشة بين أزواج النبىّ صلى الله
عليه وسلم . فقيل له : و يلك ! أو بهذا يفتخر الناس ! قال : وأىّ ٱفتخار أعظم
٥ من هذا ! لو لم تكن أمّى عندهن ثقةً لَمَا قَبِلن روايتها فى بعضهنّ بعضا . وقد حُكى:
أنها زنت، فحُلِقت، وطِيف بها على جمل، فكانت تنادى على نفسها : من رآنى فلا
يَزْنِيَنّ . فقالت لها ٱمرأة : نهانا الله عز وجل عنه فعَصَيناه ، ونُطيعك وأنت
مجلودة محلوقة ، راكبة على جمل ! . ونشأ أشعب بالمدينة فى دور آل أبى طالب،
وكَفَلته وتولّت تربيته عائشة بنت عثمان . وعُمِّر أشعب عمرًا طويلا . وحُكى عنه
١٠ أنه قال : كنت مع عثمان رضى الله عنه يوم الدارِ لمّا حُصِر؛ فلما جرّد مماليكه
السيوف ليقاتلوا كنت فيهم؛ فقال عثمان : من أغمد سيفه فهو حرٌّ. فلما
وقعت فى أذنى كنت واللهِ أوّل من أغمد سيفه فعُتِقت . وكانت وفاته بعد
سنة أربع وخمسين ومائة . وهذا القول يدل على أنه كان مولى عثمان بن عفّان
رضى الله عنه .

١٥ وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناد رفعه الى إبراهيم بن المهدىّ عن عبيد (١٢)
ابن أشعب عن أبيه : أنه كان مولده فى سنة تسع من الهجرة، وأن أباه كان من
مماليك عثمان بن عفان . وعمّر أشعب حتى هلك فى أيام المهدىّ . قال : وكانت
فى أشعب خِلال ، منها : أنه كان أطيب أهل زمانه عِشرة ، وأكثرهم نادِرة،
وكان أقوم أهل دهره لحجج المعتزلة، وكان ٱمرأً منهم . وقال مصعب بن عبد الله:
٢٠ كان أشعب من القرّاء حسن الصوت بالقراءة، وكان قد نسك وغزا؛ وقد روى
الحديث عن عبد الله بن جعفر . وقال الأصمعىّ : قال أشعب : نشأت أنا وأبى الزِّناد

فى حجر عائشة بنت عثمان؛ فلم يزل يعلو وأسفل حتى بلغنا هذه المنزلة . وقال إسحاق آبن إبراهيم : كان أشعب مع ملاحته ونوادره يغنّى أصواتا فيُجيدها . وفيه يقول عبد الله آبن مُصْعَب الزبيرى عفا الله عنه :

اذا تمـــززت صُراحِيّـــةً (١) * كمثل ريح المِسك أو أطيبُ
ثم تغَـــنَّى لى بأهزاجه * زيد أخو الأنصار أو أشعبُ
حسِبت أنى مَلِكٌ جالسٌ * حَفّت به الأملاك والموكب
وما أبالىَ وإلهِ العـــلا (٢) * أشَـــرّق العـالم أم غَرّبوا

ولأشعب نوادر مستظرفة وحكايات مستحسنة، وقد آن أن نذكرها . فمنهـا ما حُكى أنه كان يقول : كلبى كلب سوء، يبصبص للأضياف، و ينبح على أصحاب الهدايا . وقيل له : قد لَقِيتَ رجالًا من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فلو حَفِظت أحاديث تتحدّث بها ! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . قيل : فحدِّثنا . قال : حدّثنى عِكْرِمة عن آبن عبّاس رضى الله عنهم قال : خَلّتان لا تجتمعان فى مؤمن إلا دخل الجنة، ثم سكت . فقيل له : هاتِ، ما الخلتان؟ قال : نسِى عكرمة إحداهما ونسيت أنا الأخرى . وكان أشعب يحدّث عن عبـد الله بن عمر رضى الله عنهما فيقول : حدّثنى عبد الله ، وكان يُبْغِضنى فى الله . وكان أشعب يلازم طعام سالم بن عبد الله آبن عمر رضى الله عنهم . فآشتهى سالم أن يأكل مع بناته فخرج الى البستان؛ فجاء أشعب الى منزل سالم على عادته؛ فأُخبر بالقصـــة ؛ فاكترى جملا بدرهم وجاء الى البستان . فلمـا حاذى الحائط وثب فصار عليـه ؛ فغطّى سالم بناته بثوبه وقال : بناتى بنـاتى ! فقال أشعب : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) .

(١) الصراحية : آنية للخمر . (٢) فى الأغانى : «وإله الورى» .

قال أشعب : جاءتني جارية بدينار وقالت : هذا وديعة عندك؛ فجعلتُه بين ثِنْي الفِراش . فجاءت بعد أيام وقالت : بأبي أنت! الدينار؛ فقلت آرفعي فراشي وخذي ولده فإنه قد ولد ، وكنت قد تركت الى جنبه دِرهما ، فأخذتِ الدرهم وتركت الدينار. وعادت بعد أيام فوجدت معه درهما آخر فأخذته ، وفي الثالثة كذلك . ٥ وجاءت في الرابعة ، فلما رأيتها بكيتُ؛ فقالت : ما يُبكيك ؟ قلت : مات دينارك في النفاس . فقالت : وكيف يكون للدينار نفاس ؟ قلت : يا فاسقة ! تُصَدِّقين بالوِلادة ولا تصدّقين بالنفاس ! .

ومن أخباره المستظرفة ما حكاه المدائني ، قال : قال أشعب : تعلّقت بأستار الكعبة فقلت : اللهم أذهب عنّي الحِرْص والطلبَ إلى الناس؛ فمررت بالقرشيين ١٠ وغيرهم فلم يُعطني أحدٌ شيئا . فجئت الى أمي ، فقالت : مالك قد جئت خائبا ؟ فأخبرتها بذلك؛ فقالت : والله لا تدخل حتى ترجع فتستقيل ربك . فرجعت فجعلت أقول : يا ربّ أقِلني ، ثم رجعت ، فما مررت بمجلس لقريش ولا غيرهم إلا أعطوني ، ووُهِب لي غلام؛ فجئت الى أمي بجمال موقرة من كل شيء . فقالت: ما هذا الغلام ؟ فخفت أن أخبرها فتموت فرحا إن قلت : وهبوه لي . فقالت : ١٥ أيّ شيء هذا ؟ فقلت : غين . قالت : أيّ شيء [غين][1] ؟ قلت : لام . قالت: أيّ شيء [لام][1] ؟ [قلت : ألف . قالت : وأي شيء ألف][1] ؟ قلت : ميم . قالت : وأيّ ميم ؟ قلت : غلام ؛ فغُشِي عليها . ولو لم أقطِّع الحروف لماتت الفاسقة فرحا . قال : وجلس أشعب يوما الى جانب مروان بن أبان بن عثمان ؛ فانفلتت من مروان ريح لها صوت ؛ فانصرف أشعب يوهم الناس أنه هو الذي ٢٠ خرجت منه الريح . فلما آنصرف مروان الى منزله جاءه أشعب فقال له : الدية ،

(١) التكملة عن الأغاني (ج ١٧ ص ٨٥ طبع بولاق) .

قال : دية ماذا ؟ قال : دية الضرطة التى تحملتهـا عنك ، و إلا شهرتك ؛ فلم يدعه
حتى أخذ منه شيئا صالحه عليه .

(١٣) وقال محمد بن أبى قبيلة : غذّى أشعب جديًا بلبن أمّه وغيرها حتى بلغ غاية ،
ثم قال لزوجته أمّ آبنـه وردان : إنى أحبّ أن ترضعيه بلبنك ففعلت . ثم جاء به
الى إسماعيـل بن جعفر بن محمـد ، فقال : تالله إنه لآبنى، رضع بلبن زوجتى، قد ٥
حبـوتك به ، ولم أر أحدا يستأهله سواك . فنظر إسماعيل إليـه وأمر به فذُبح
وسُمِط . فأقبل عليه أشعب وقال : المكافأة؛ فقال : ما عنـدى والله اليوم شىء،
ونحن من تعـرف، وذلك غير فائت لك . فلما يئس أشعب منـه قام من عنـده
فدخل على أبيه جعفر، ثم آندفع فشهَق حتى التقت أضـلاعه، ثم قال : أَخْلِنى .
قال : ما معنا أحد يسمع، ولا عليك عين . قال : وثب آبنك إسماعيـل على آبنى ١٠
فذبحه وأنا أنظر اليه . فارتاع جعفـر وصاح : ويلك! وفيم؟ وتريد ماذا؟ قال :
أمّا ما أريد فوالله مالى فى إسماعيـل حيلة ولا يسمع هذا سامع أبدا بعدك . فجزاه
خيرا وأدخله منزله وأخرج اليه مائتى دينار فقال : خذ هذه، ولك عندنا ما تحبّ .
قال : وخرج الى إسماعيل وهو لا يبصر ما يطأ عليه، فإذا به مسترسل فى مجلسه .
فلما رأى وجه أبيه أنكره وقام إليـه؛ فقال : يا إسماعيل، فعلتها بأشـعب! قتلت ١٥
ولده؟ قال : فاستضحك وقال : جاءنى، وأخبره الخبر . فأخبره أبوه بمـا كان منـه
وما صار إليـه . قال : فكان جعفر يقول لأشعب : رُعْتنى راعك الله ! فيقول :
روعة آبنك بنا فى الجدى أكثر من روعتك بالمـائتى الدينار .

قال المدائنىّ : دخل أشعب على الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، وعنده أعرابىّ
قبيح المنظر، مختلف الخلقة؛ فسبّح أشعب حين رآه وقال للحسين : بأبى أنت وأمى، ٢٠
أتأذن لى أن أسلح عليـه؟ فقال : إن شئت . ومع الأعرابىّ قوس وكنانة ، ففوّق

نحـوه سهما، وقال : والله لـئن فعلت لتكونن آخر سلحة سلحتها . فقـال أشعب للحسين : جُعلتُ فِداك، أخذنى القَوْلَنْج[1] . وعنه قال : توضأ أشعب فغسل رجله اليسرى وترك اليمنى . فقيل له : لِمَ تركت غسل اليمنى؟ فقال : لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «أمتى غُرٌّ محجَّلون من آثار الوضوء»[2] وأنا أحب أن أكون أغرّ محجّلا
٥ مطلق اليمين . وقال : سمع أشعب حُبَّى المدنيّة تقول : اللهم لا تمتنى حتى تغفرلى ذنوبى؛ فقال لها : يا فاسـقة ! أنت لم تسألى الله تعالى المغفرة، وإنمـا سألته عمر الأبد! (يريد : أن الله لا يغفر لها أبدا) .

وقال الزبير بن بكّار : كان أشعب يوما فى المسـجد يدعو، وقد قبّض وجهه فصـيّره كالصُّـبْرة[3] المجموعة . فرآه عامر بن عبد الله بن الزبير فحصَـبه وناداه :
١٠ يا أشعب، إنما أنت تناجى ربك فناجه بوجه طليق . قال : فأرخى لَحْييه حتى وقعا على زَوْرِه[4] . قال : فأعرض عنه، وقال : ولا كلّ ذا .

وقال مصعب : بلغ أشعب أنّ الغاضرىّ قد أخذ فى مثل مذهبـه ونوادره، وأن جماعة آسـتطابوه؛ فرَقَبهم حتى علم أنه فى مجلس من مجالس قريش يحادثهـم ويُضحِكهم، فصار إليهم، ثم قال : قد بلغنى انك قد نحوت نحوى، وشغلت عنى
١٥ من كان يألفنى؛ فإن كنت مثلى فافعل كما أفعل . ثم غضّن وجهه وعرّضه وشنّجه، حتى صار عرضُـه أكثرَ من طوله ، وصار فى هيئة لم يعرفه أحد بهـا، ثم أرسل

---

(١) القولنج (بضم القاف وقد تفتح، و بفتح اللام وقد تكسر) : مرض معوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح .

(٢) الذى فى الجامع الصغير : «أمتى يوم القيامة غر من السجود محجلون من الوضوء» .

٢٠ (٣) كذا فى الأغانى . والصـبرة : المناسب من معانيها هنا أن تكون بالضم بمعنى الكومة المجتمعة من الطعام وغيره . وفى الأصول : «كالشعرة» . ولم نجد لها معنى مناسبا .

(٤) الزور : وسط الصدر .

وجهه حتى كاد ذقنه يجوز صدره، وصار كأنه وجه الناظر فى سـيف؛ ثم نزع ثيابه وتحادب، فصار فى ظهـره حدبة كسنام البعـير، وصار طوله مقدار شـبر، ثم نزع سراويله، وجعل يمد جلد خصييه حتى حك بهما الأرض، ثم خلاّهمـا من يده، وجعل يميس، وهما يخطان الأرض، ثم قام فتطاول وتمدّد وتمطّى، حتى صار كأطول ما يكون من الرجال . فضحك القوم حتى أغمى عليهم، وقُطع بالغاضرىّ فمـا تكلم بنادرة ولا زاد على أن يقول : يا أبا العلاء، لا أعاود ما تكره أبدا، إنمـا أنا عبدك وتخريجك؛ ثم انصرف أشعب وتركه .

وقال الزبير بن بكّار: حدثنى عمّى، قال : لقِى أشعبَ صديقٌ لأبيه، فقال له : ويلك يا أشعب ! كان أبوك الحى وأنت أقطّ[1]، فإلى من خرجت تشـبه ؟ قال : إلى أُمّى .

وقال الهيـثم بن عدىّ : لقِيت أشعبَ فقلت له : كيف ترى أهـل زمانك هذا؟ قال : يسألوننى عن أحاديث الملوك؛ ويعطوننى عطاء العبيد .

وقال مصعب بن عثمان : لقِى أشـعبَ سالمُ بنُ عبـد الله بن عمر، فقال له : يا أشـعب، هل لك فى هريس أُعِدّ لنـا ؟ قال : نعم، بأبى أنت وأمى . فمضى أشعب إلى منزله؛ فقالت له امرأته : قد وجّه عبد الله بن عمرو بن عثمان يدعوك، قال : ويحك ! إن لسالم بن عبد الله هريسة قد دعانى اليها، وعبـد الله بن عمرو فى يدى متى شئت، وسالم إنمـا دعوتُه للناس فلتة، وليس لى بدٌّ من المضىّ اليه . قالت : إذًا يغضب عبـد الله . قال : آكل عنده ثم أصير إلى عبد الله . فجاء إلى منزل سـالم فجعل يأكل أكلَ متعالِلٍ . فقال له : كل يا أشعب، وابعث ما فضل

(١) الأقط : القصير الشعر .

(١٤)

عنك إلى منزلك . قال : ذلك أردت، بأبى أنت وأمّى . قال : فقال : ياغلام ، آحمل هذا إلى منزله ، فحمله ومشى أشعب معه . فقالت آمرأته : ثكلتك أمّك، قد حلف عبدالله لايكلّمك شهرا؛ قال : دعينى و إياه، هاتى شيئا من زعفران؛ فأعطته، فأخذه ودخل الحمّام، فسحه على وجهه وبدنه، وجلس فى الحمام حتى صفّره ،

٥ وخرج متوكأ على عصا يرعد حتى أتى دار عبد الله بن عمرو بن عثمان . فلما رآه حاجبه قال : ويحك ! بلغتْ بك العلّةُ ما أرى . ودخل فأعلم صاحبه ، فأذن له . فلما دخل عليه، إذا سالم بن عبد الله عنده، فجعل يزيد فى الرعدة، ويقارب الخطو، وجلس وما كاد أن يستقِلّ . فقال عبد الله : ظلمناك يا أشعب فى غضبنا عليك . فقال له سالم : ويلك ! مالك ؟ ألم تكن عندى آنفا وأكلت هريسة ! قال : لقد

١٠ شُبّه لك، لاحول ولا قوة إلا بالله . قال : لعل الشيطان يتشبّه بك . قال أشعب: علىّ وعلىّ إن كنت رأيتك منذ شهر . فقال له عبد الله : آعزب ويلك عن خالى! أتبهته لا أمّ لك ! قال : ماقلتُ إلا حقّا . قال : بحياتى آصدُقْنى وأنت آمن من غضبى . قال : وحياتِك لقد صدق؛ وحدّثه بالقصة؛ فضحك حتى آستلق على قفاه .

١٥ وقال المدائنىّ والهيثم بن عدىّ : بعث الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان إلى أشعب بعد ما طلّق آمرأته سعدة، فقال له : يا أشعب، لك عندى عشرة آلاف درهم على أن تُبلّغ رسالتى سعدة . فقال له : أحضر المال حتى أنظر اليه، فأحضر الوليد بَدْرة، فوضعها أشعب على عنقه، وقال : هات رسالتك . قال : قل لها يقول لك :

٢٠ أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ
بلى ! ولعلّ دهرًا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلك أو طلاقِ

فأُصبِحَ شـامتًا وتَقَرَّ عينى * ويجمعَ شملُنا بعـــد آفتراقِ

قال : فأتى أشعب الباب فأُخبِرتُ بمكانه، فأمرت ففُرِش لها فرش وجلست وأذِنت له؛ فدخل فأنشدها . فلما أنشد البيت الأوّل :

أسعدةُ هل اليك لنا سبيلٌ * وهل حتى القيامةِ من تلاقِ

قالت : لا والله، لا يكون ذلك أبدا . فلما أنشد البيت الثانى : ٥

بلى! ولعلّ دهرا أن يؤاتى * بموتٍ من حليلك أو طلاقِ

قالت : كلّا إن شاء الله، بل يفعل الله ذلك به . فلما أنشد البيت الثالث :

فأُصبِحَ شامتا وتقــرَّ عينى * ويُجمعَ شملُنا بعـــد آفتراق

قالت : بل تكون الشماتة به . ثم قالت لخدمها : خذوا الفاسق . فقــال : ياسيِّدتى، إنها عشرة آلاف درهم. قالت : والله لأقتلنّك أو تبلِّغه كما بلّغتنى. قال : ١٠ وما تَهَبين لى ؟ قالت : بساطى الذى تحتى . قال : قومى عنه ؛ فقامت ، فطواه، ثم قال : هاتى رسالتَك، جُعلت فداكِ! قالت : قل له :

أتبكى على لُبْنَى وأنت تركتَها * فقد ذهبتْ لبنى فما أنت صانعُ ؟

فأقبل أشعب، حتى دخل على الوليد، فأنشده البيت. فقال : أوّه قتلتنى والله! فما ترانى صانعا بك يا آبن الزانية ! اختَرْ إمّا أن أُدلِيك مُنَكَّسًا فى بئر، أو أرميَك من ١٥ فوق القصر منكّسا ، أو أضربَ رأسك بعمودى هـذا ضربة . قال له : ما كنتَ فاعلًا بى شيئا من ذلك . قال : ولِمَ؟ قال : لأنك لم تكن لتعذِّب عينين قد نظرتا إلى سُعْدة! قال : صدقت يا آبن الزانية !

ورَوى أبو الفرج الأصفهانى بإسناده إلى إبراهيم بن المهدى عن آبن أشعب عن أبيه، قال : دُعِى ذات يوم بالمغنّين إلى الوليد بن يزيد، وكنت نازلًا معهم، ٢٠

فقلت للرسول : خذنى فيهم؛ قال: لم أؤمر بك، إنما أمرت بإحضار المغنين ، وأنت بَطّال لا تدخل فى جملتهم . فقلت له : أنا والله أحسن غناءً منهم؛ ثم آندفعت فغنّيت . فقال : لقد سمعتُ حسنا، ولكن أخاف . قلت : لاخوف عليك، ولك مع ذلك شرط . قال : وما هو ؟ قلت : كل ما أصبت فلك شطره؛ فأشهد علىّ الجماعة، ومضينا حتى دخلنا على الوليد، وهو لَقِس النفس؛ فغنّاه المغنون فى كل فنّ فلم يتحرك ولم يَنْشَط . نقام الأبجر إلى الخلاء، وكان خبيثا داهيا، فسأل الخادم عن خبره؛ فقال: بينه و بين آمرأته شرّ، لأنه عشق أختها فغضبت عليه، وهو إلى أختها أميل، وقد عزم على طلاقها، وحلف ألّا يذكرها أبدًا بمراسلة أو مخاطبة، فخرج على هذه الحال من عندها . فعاد الأبجر الينا، وجلس ثم آندفع يغنّى :

فبِينِى فإنى لا أبالى وأيْقِنِى * أصعّد باقى حبّكم أم تَصَوَّبا
ألم تعلمى أنى عَزُوفٌ عن الهوى * إذا صاحبى من غير شىء تَغَضَّبا

فطَرِب الوليد وآرتاح ، وقال للأبجر : أصبت والله يا عُبَيد ما فى نفسى ، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وشرب حتى سَكِر، ولم يحظَ أحدٌ بشىء سوى الأبجر. فلما أيقنت بانقضاء المجلس وثبتُ فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر من يضربنى مائة سوط الساعة بحضرتك! فضحك. ثم قال: قبّحك الله ! وما السبب فى ذلك؟ فأخبرته بقصّتى مع الرسول، وقلت له : إنه بدأنى بالمكروه فى أول يومه فاتصل علىّ (١) إلى آخره، فأريد أن أضرب مائة سوط ويضرب بعدى مثلها . فقال : لقد لطُفت، بل أعطوه مائة دينار ، وأعطوا الرسول خمسين دينارا من مالنا عوض الخمسين التى أراد أخذها من أشعب، فقبضتُها وآنصرفت .

---

(١) فى الأغانى : « بما اتصل » .

قال آبن زَبَنَّج [(١)] : كان أبَان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم [(٢)]، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب، إذ أقبل أعرابىّ معــه جمل، والأعرابىّ أشقر أزرق أزعر يتلظّى كأنه أفعى، والشرّ بيّنٌ فى وجهه، مايدنو منــه أحد إلا شتمه ونهره؛ فقال أبان: هذا والله من البادية [(٣)]، ادعوه لى، فدعوه له وقيل: إن الأمير أبان بن عثمان يدعوك؛ فأتاه فسلّم عليه، فسأله أبان بن عثمان عن نسبه، فانتسب له. فقال له أبان: حيّاك الله يا خال، اجلس، فجلس. فقال له: إنى أطلب جملًا مثل جملك هــذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه الهامة والصورة والورك والأخفاف، والحمــد لله الذى جعل ظَفَرِى به عند من أُحبّه، أتبيعُنيه؟ فقال: نعم أيها الأمير. قال: فإنى قد بذلت لك به مائة دينار؛ فطمع الأعرابىّ وسُرّ بذلك وآنتفخ، وبان الطمع فى وجهه. فأقبل أبان على أشعب ثم قال له: ويلك يا أشعب! إن خالى هذا من أهلك وأقاربك (يعنى: فى الطمع) فأوسِعْ له مما عنــدك؛ قال: نعم، بأبى أنت وزيادة. فقال له أبان: يا خال، إنمــا زدتك فى الثمن على بصيرة أن الجمل يساوى ستين دينارا، ولكنى بذلت لك مائة دينار لقلة النقد عندنا، وإنى أُعطيك عُرُوضا تساوى مائة دينار؛ فزاد طمع الأعرابىّ وقال: قد قبلت ذلك أيها الأمير. وأسرّ أبان الى أشعب، فأخرج شيئا مغطًّى، فقال له: أخرج ما جئت به؛ فأخرج جرد عمامة تساوى أربعة دراهم. فقال له: قوِّمها يا أشعب. فقال: عمامة الأمير يشهد فيها الأعيادَ والجُمَع ويلقى فيها الخلفاء! خمسون دينارا. قال: ضعها بين يديه،

---

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٧ ص ١٠٢ طبع بولاق). و زبنج بفتح الزاى والباء وفتح النون مشددة، وراوية ابن هرمة. وفى الأصول «ربيح» وهو تصحيف.

(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «وأولعهم» وهو تحريف.

(٣) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «البابة».

وقال لابن زَبنّج: أثبت قيمتها، فكتب ذلك، ووُضعت العمامة بين يدى الأعرابيّ؛ فكاد يدخل بعضُه فى بعض غيظا، ولم يقدر على الكلام . قال: هات قَلَنسُوَتى، فأخرج قلنسوةً طويلةً خَلَقًا(١) قد علاها الوسخ والدُّهن وتخرّقت تساوى نصف درهم. قال : قوِّم؛ فقال : قلنسوة الأمير تعلو هامته ، ويصلِّى فيها الصلوات الخمس ، ويجلس فيها للحكم ! ثلاثون دينارا . قال: أثبِتْ، فأثبت ذلك، ووُضعت القلنسوة بين يدى الأعرابيّ فاربدّ وجهه وجحظت عيناه وهَمّ بالوثوب، ثم تماسك وهو مقلقل . ثم قال لأشعب: هاتِ ما عندك؛ فأخرج خُفَّين خَلَقَين قد نُقبا وتقشّرا وتفتّتا، فقال : قَوِّمْ؛ فقال : خُفَّا الأمير يطأ بهما الروضة، ويعلو بهما منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ! أربعون دينارا، فقال : ضَعْهما بين يديه. ثم قال للأعرابى: أُضمم اليك متاعك ، وقال لبعض الأعوان : آمضِ مع الأعرابيّ وآقبض ما بقِى لنا عليه من ثمن المتاع، وهو عشرون دينارا . فوثب الأعرابيّ فأخذ القماش فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدّة الرمى، ثم قال له : أتدرى فى أى شىء أموت ؟ قال لا ؛ قال : لم أُدرك(٢) أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ وَلَد مثلك ! ثم نهض كالمجنون حتى أخذ برأس بعيره؛ وضحك أبان حتى سقط، وضحك من كان معه . فكان الأعرابيّ بعد ذلك إذا لقِى أشعب يقول له : هلمّ إلىّ يابن الخبيثة، حتى أكافئك على تقويمك(٣) المتاع يوم قومت؛ فيهرُب منه أشعب .

وقال المدائنىّ : حدّثنى شيخ من أهل المدينة قال : كانت آمرأة شديدة العين، لا تنظر الى شىء فتستحسنه إلا عانته ؛ فدخلت على أشعب وهو فى الموت ، وهو

(١) فى الأصل «خلقة» وهو خطأ، يقال: ثوب خلق وجبة خلق بغير هاء .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «كيف لا أدركت» .

(٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «قيمتك» ، وهو تحريف .

يقول لابنته : يا بنية، إذا أنا مت فلا تندبيني، والناس يسمعونك، وتقولين : وا أبتاه، أندبُك للصوم والصلاة، للفقه والقرآن، فيكذّب الناس و يلعنوني . ثم ٱلتفت فرأى المرأة، فغطّى وجهه بكمه وقال لها : يا فلانة، بالله إن كنت ٱستحسنت شيئا مما أنا فيـه، فصلى على النبيّ صلى الله عليه وسـلم ولا تُهلكيني؛ فغضبت المرأة وقالت : سخِنت عينك! وفى أى شىء أنت ممـا يستحسن ؟ أنت فى آخر رمق ! قال : قـد علمت، ولكن قلتُ لئلا تكونى[1] قد ٱستحسنت خفة الموت علىّ وسهولة النزع، فيشتدّ ما أنا فيه . فخرجت من عنده وهى تسبّه، وضحك من كان حوله من كلامه ومات .

ذكر شىء من نوادر أبى دُلَامة

هو أبو دُلَامة زَنْد بن الجَوْن . و زند بالنون . وهو كوفىّ، أسود، مولى لبنى أسد؛ كان أبوه عبدا لرجل منهم يقال له قصافِص، فأعتقه . وأدرك آخر زمن بنى أمية ولم يكن له نباهة فى أيامهم، ونبغ فى أيام بنى العباس، فانقطع الى أبى العباس السفّاح وأبى جعفر المنصور والمهـدىّ، وكانوا يقدّمونه و يفضّلونه و يستطيبون مجالسته ونوادره .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : كان أبو دُلامة ردىء المذهب، مرتكبا للمحارم، مُضيِّعا للفروض، متجاهرا بذلك؛ وكان يُعلَم هـذا منه و يُعرَف به، فيُتجافَى عنـه للطف محلّه . وله أخبار وأشعار ليس هذا موضع ذكرها، وإنما نثبت فى هذا الموضع ما له من نادرة أو حكاية مسـتظرفة . فمن ذلك أنه دخل على أبى جعفر المنصور، وكان المنصور قد أمر أصحـابه بلُبْس السواد والقلانس الطوال، تُدعَم[2] بعِيدان من

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «ولكن قد لا تكونين» وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ١ طبع بولاق) . وفى الأصول : «وتدعم» .

داخلها، وأن يعلّقوا السيوف فى المناطق، ويكتبوا على ظهورهم: (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). فلما دخل عليه أبو دُلامة فى هذا الزىّ قال له المنصور: ما حالك؟ قال: شرُّ حال يا أمير المؤمنين، وجهى فى نصفى، وسيفى فى آستى، وقد صَبَغتُ بالسواد ثيابى ونبذتُ كتاب الله وراء ظهرى؛ ثم أنشد:

وكنّا نرجى مِنحةً من إمامنا * فجاءت بطُولٍ زاده فى القَلانِس

تراها على هام الرجال كأنها * دِنانُ[1] يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانِس

فضحك منه المنصور وأعفاه وحذّره من ذلك، وقال: إياك أن يسمع هذا منك أحد.

وحكى عنه: أنه كان واقفا بين يدى السفاح أو المنصور، فقال له: سلنى حاجتك؛ فقال أبو دلامة: كلب صيد؛ قال: أعطوه إياه. قال: ودابّة أتصيّد عليها. قال: أعطوه. قال: وغلام يقود الكلب ويتصيّد به؛ قال: أعطوه غلاما. قال: وجارية تُصلح لنا الصيد وتُطعمنا منه؛ قال: أعطوه جارية. قال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال[2] فلا بدّ لهم من دار يسكنونها؛ قال: أعطوه دارا تجمعهم. قال: فإن لم يكن ضيعة فمن أين يعيشون؟ قال: قد أقطعتك مائة جَرِيب[3] عامرة ومائة جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: مالا نبات فيه. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافى بنى أسد. فضحك وقال: آجعلوا المائتين كلها عامرة. قال: فأْذَنْ لى أن أقبِّل يدك؛ قال: أمّا هذه فدعها، فإنى لا أفعل. قال: والله ما منعت عيالى شيئا أقلَّ عليهم ضررا منها.

---

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصول: «ديار» وهو تحريف.

(٢) فى الأغانى: «عبيدك».

(٣) الجريب: مقدار معين من مساحة الأرض.

ورُوى : أنه دخل على المنصور فأنشده قصيدته التى يقول فيها :

إنّ الخليط أجدّوا البين فآنتجعوا * وزوّدوك خبالًا بئس ما صنعوا

والله يعلم أن كادت، لبينهم * يوم الفراق، حصاة القلب تنصدع

عجبتُ من صِبيتى يومًا وأمِّهمُ * أمّ الدُّلامة لمّا هاجها الجزع

لا بارك الله فيها من مُنَبِّهة * هبّتْ تلوم عيالى بعد ما هَجعوا

ونحن مُشتبهو الألوان، أوجهنا * سود قباح، وفى أسمائنا شُنُعُ

إذا تَشَكَّتْ إلىّ الجوعَ، قلتُ لها * ما هاج جوعَك إلا الرِّىّ والشِّبَعُ

أذابك الجوع مذ صارت عيالتنا[1] * على الخليفة منه الرىّ والشبع

لاوالذى يا أمير المؤمنين قضى * لك الخلافة فى أسبابها الرِّفَعُ

ما زلت أُخلصها كسبى فتأكله * دونى ودون عيالى ثم تضطجع

شوهاءُ مَشْنأةٌ[2] فى بطنها ثجَلٌ[3] * وفى المَفاصل من أوصافها فَدَعُ[4]

ذَكَّرتُها بكتابِ الله حُرمَتَنا * ولم تكن بكتاب الله ترتجعُ

فآخرنطمتْ[5] ثم قالت وهى مُغْضَبةٌ[6] * أأنت تتلو كتاب الله يا لُكَعُ!

(١) ورد هذا البيت فى الأصول : «قالت أذابك قد صارت الخ ... » . وهو تحريف . وقد أورد صاحب الأغانى هذا البيت على أنه رواية أخرى فى البيت قبله وهى الرواية الجيدة . ولذلك كانا متحدى القافيـــة .

(٢) مشنأة : قبيحة .

(٣) الثجل : عظم البطن وآسترخاؤه .

(٤) الفدع : اعوجاج الرسغ فى اليد أو الرجل .

(٥) آخرنطمت : رفعت أنفها آستكبارا أو غضبا .

(٦) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « مصغية » وهو تحريف .

أخرُجْ تَبَغّ لنا مالًا ومَزْرعةً * كما لجيراننا مالٌ ومُزْدَرعُ
وٱخْدَعْ خليفتَنا عنّا بمسألةٍ * إنّ الخليفة للسؤّال ينخدع

قال : فضحك أبو جعفر وقال : أرضوها عنه بمائتى جريب عامرة — و يروى ستمائة جريب عامرة وغامرة — فقال : أنا أقطعك يا أمير المؤمنين أربعة آلاف جريب غامرة فيما بين الحِيرة والنّجَف ، و إن شئت زدتُك . فضحك وقال : ٱجعلوها كلها عامرة .

قال : ولمّا توفّى السفّاح دخل أبو دُلامة على المنصور والناس عنده يعزّونه ، فقال :

أمسيتَ بالأنبارِ يا بن محمد * لم تَستطِعْ عن عُقْرِها تحويلا
و يلى عليك وويل أهلى كلِّهم * ويلًا وعَوْلًا فى الحياة طويلًا
فَلْتَبْكِيَنّ لك السماءُ بعَبْرةٍ * ولتبكينّ لك الرجالُ عَوِيلا
مات الندى إذ متّ يا بن محمد * بجعلته لك فى التراب عديلا
إنى سألتُ الناسَ بعدك كلَّهم * فوجدتُ أسمح من سألتُ بخيلا .
ألِشقوتى أُخّرتُ بعدك للتى * تدعُ العزيز من الرجال ذليلا؟
فَلَأَحْلِفَنّ يمينَ حقٍّ برّةٍ * تالله ما أُعطيتُ بعدك سولا

قال : فأبكى الناس قولُه . فغضِب المنصور غضبًا شديدًا وقال : إن سمعتُك تُنشد هذه القصيدة لأقطعنّ لسانك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنّ أبا العباس أمير المؤمنين كان لى مُكرِما ، وهو الذى جاء بى من البدو ، كما جاء الله بإخوة يوسف اليه ؛ فقل كما قال يوسف : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . فسُرّىَ عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دُلامة ، فسل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لى بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوبا وهو مريض ولم أقبِضها . فقال المنصور : ومن يعلم ذلك؟ قال : هؤلاء (وأشار الى جماعة ممن حضر) فوثب سليمان آبن مُجالد وأبو الجهم فقالا : صَدَق أبو دُلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبى

أيّوب الخازن [وهو مغيظ] [1] : ياسليمان آدفعها اليـه وسيّره الى هـذا الطاغية (يعنى عبد الله بن علىّ ، وكان قد خرج بالشام وأظهر الخلاف) فوثب أبو دلامة وقال : يا أمير المؤمنين، أُعيذُك بالله أن أخرُج معهم، و والله إنى مشئوم . قال المنصور : امض فإن يُمْنِى يغلب شُـؤمَك. فقال : يا أمير المؤمنين، والله ما أُحبّ أن يجرّب ذلك منّى على مثل هذا العسكر، فإنى لا أدرى أيّهما يغلب: يمنك أو شؤمى؛ إلّا أنى بنفسى أوثق وأعرَف وأطولُ تجربة. فقال : دعْنى وهذا، فمالك من الخروج بدّ . قال : فإنى أصْـدُقك الان، شهدت والله تسعةَ عشر عسكرًا كلها هُزِمت، وكنت سببها، فإن شئتَ الآن على بصيرةٍ أن يكون عسكرك تمام العشرين فافعل . فضحك المنصور وأمره أن يتخلّف مع عيسى بن موسى بالكوفة .

وعن جعفر بن حسين اللّهْبِىّ قال : حدثنى أبو دُلامة قال : أُتِى بِى المنصور او المهدىّ وأنا سكران، فحلف ليُخْرِجَنّى فى بعْث حرب؛ فأخرجنى مع رَوْح بن حاتم المهلّبىّ لقتال الشُّراة [2] . فلمـا آلتقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو أنّ تحتى فرسَك ومعى سـلاحك لأثّرت فى عدوّك اليوم أثرًا ترتضيه ! فضحك وقال : والله العظيم لأدفعنّ اليك ذلك ولآخذنّك بالوفاء بشَرْطك؛ فنزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفع ذلك إلىّ ، ودعا بغيره فاستبدل به . فلمّا حصل ذلك فى يدى قلت : أيها الأمير، هذا مقام العائذ بك، وقد قلت أبياتا فاسمعها . قال : هات، فأنشدته :

إنى آستجرتُك أن أقدَّمَ فى الوغَى * لتَطاعُنٍ وتَنازُلٍ وضِرَابِ

فهَبِ السيوفَ رأيتُها مشهورةً * وتركتُها ومضيتُ فى الهُـرّابِ

ماذا تقول لِـمَا يجىء ولا يُرَى * من بادرات الموتِ بالنُّشّـابِ

---

(١) زيادة عن الأغانى .

(٢) الشراة : الخوارج الذين شروا أنفسهم [أى باعوها] فى طاعة الله بالجنة .

(١٨) فقال : دع هـذا عنـك، وبرز رجل من الخوارج يدعو الى المبارزة فقال : اخرج اليـه يا أبا دُلامة . فقال : أنشُدك اللهَ أيها الأمير فى دمى . فقال : والله لَتخرُجنّ! فقلت : أيها الأمير، فإنه أوّل يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا، وأنا والله جائع ما تَنبعِث منى جارحةٌ من الجوع، فمُر لى بشىء آكلُه ثم أخرُج؛ فأمر لى برغيفين ودَجاجة؛ فأخذت ذلك وبرزت عن الصفّ. فلما رآنى الشارى أقبل ٥ نحوى وعليـه فروٌ قد أصابه المطر فابتلّ، وأصابته الشمس فاقفعلّ(١) وعيناه تقدان، فأسرع إلىّ؛ فقلت : على رِسْلك يا هذا! فوقف؛ فقلت : أتقتل من لا يقاتلك؟ قال لا . قلت : أتستحلّ أن تقتل رجلا على دينك ؟ قال لا . قلت : أفتستحلّ ذلك قبـل أن تدعو من تقاتله الى دينك؟ قال : لا، فاذهب عنى الى لعنة الله، ١٠ فقلت : لا أفعل أو تسمعَ منى. قال : قل. فقلت : هل كانت بيننا عداوة أو تِرةٌ أو تعرفنى بحالٍ تُحفِظك علىّ أو تعلم بينى وبين أهلك وِترا؟ قال : لا والله؛ قلت: ولا أنا والله لك إلا على جميل [الرأى](٢)، فإنى لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك وأريد السوء لمن أرادك. فقال : يا هذا، جزاك الله خيرا فانصرِف. قلت : إنّ معى زادًا أريد أن آكله وأريد مؤاكلتك لتتوكّد المودّة بيننا ويرى أهلُ العسكرين هوانَهم ١٥ علينا؛ قال : فافعل . فتقدّمت اليه حتى اختلفت أعناق دوابّنا وجمعنا أرجلنا على مَعارِفها وجعلنا نأكل والناس قد غُلبوا ضحكا . فلما استوفينا ودّعنى، ثم قلت له : إنّ هـذا الجاهل، إن أقمتَ على طلب المبـارزة ندَبنى اليك فتتعَب وتُتعبنى، فإن رأيت ألّا تبرز اليوم فافعل . قال : قد فعلت؛ فانصرف وانصرفت . فقلت لروح: أمّا أنا فقد كفيتُك قِرْنى ، فقل لغيرى يكفيك قِرْنَه كما كفيتك . وخرج آخر يدعو ٢٠ الى البِراز؛ فقال لى : اخرج اليه، فقلت :

(١) اقفعل : تقبض .   (٢) زيادة عن الأغانى .

إنى أعوذ برَوْح أن يُقَدِّمَنى * الى القتال فتخزَى بى بنو أسَدِ
إن البِرازَ الى الأقران أعلمه * مما يُفَرِّق بين الرُّوح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ رُصِدت لها * وأصبحت لجميع الخلق كالرَّصَد
إنّ المهلَّب حُبَّ الموت أورثكم * فما وَرِثْتُ آختيارَ الموت عن أحدِ
لو أنّ لى مهجةً أخرى لجُدْتُ بها * لكنها خُلقت فردًا فلم أَجُدِ ٥

قال : فضحك روح وأعفانى .

قال : وشرب أبو دُلامة فى بعض الحانات وسكر، فمشى وهو يميل، فلقيه العَسَس فأخذه؛ فقيل له : من أنت؟ وما دينك؟ فقال :

دينى على دين بنى العبّاسِ * ما خُتِم الطّين على القِرْطاسِ
إذا آصطحبتُ أربعًا بالكاسِ * فقد أدار شُرْبُها براسى ١٠
* فهل بما قلت لكم من باسِ *

فأخذوه وخرقوا ثيابَه وساجه[(١)]، وأُتى به الى أبى جعفر، فأمَر بحبسه مع الدَّجاج فى بيت . فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرّةً وجاريته أخرى فلا يجيبه أحد، وهو مع ذلك يسمع صوت الدّجاج وزُقَاء[(٢)] الديك . فلمّا أكثر قال له السجّان : ما شأنك؟ قال : ويلك! من أنت؟ وأين أنا؟ قال : أنت فى الحبس، وأنا فلان ١٥ السجّان . قال : ومَنْ حبَسنى؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرّق طيلَسانى؟ قال : الحرس . فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس، ففعل فأتاه؛ فكتب الى أبى جعفر المنصور يقول :

أميرَ المؤمنين فَدَتْك نفسى * عَلامَ حبستَنى وخَرَقْتَ ساجى

(١) الساج : الطيلسان .
(٢) الزقاء : الصياح .

أمِنْ صهباءَ صافيــةِ المِزاجِ * كأنّ شعاعها لَهَبُ السِّراجِ
وقد طُبِخَتْ بنـار الله حتى * لقد صارت من النُّطَفِ النِّضَاجِ
تَهَشّ لهـا القلوب وتشتهيها * اذا بَرَزَتْ تَرَقْرَقُ فى الزُّجَاجِ
أُقاد الى السجون بغيـر جُرْمٍ * كأنى بعضُ عمّـال الخراجِ!
٥ فلَوْ معهم حُبِستُ لكان سهلا * ولكنى حُبِستُ مع الدجاجِ
وقد كانت تُخَـــبِّرُنى ذنوبى * بأنى من عِقابك غيرُ ناجِ
على أنّى وإن لاقيتُ شرًّا * لَخيرِكَ بعد ذاك الشرِّ راجى

فاستدعاه المنصور وقال : أين حُبِستَ يا أبا دُلامة ؟ قال : مع الدَّجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أُقوقئ[(1)] معهم الى الصباح ؛ فضحك وخلّى سبيلَه وأمر له بجائزة . فلما خرج قال الربيع : إنه شرِب الخمر يا أمير المؤمنين، أمَا سمعتَ قوله : ١٠ وقد طُبِخت بنار الله ؟ (يعنى الشمس) قال : لا والله ، ما عَنَيتُ إلا نار الله المُوقَدة التى تَطَّلِع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور وقال: خذها يا ربيع ولا تعاود التعرّض له .

(١٩)

ورُوِى عن المدائنىّ قال : دخل أبو دُلامة على المهدىّ وعنده إسماعيل بن على ١٥ وعيسى بن موسى والعبّاس بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بنى هاشم ؛ فقال له المهدىّ : أنا أُعطِى الله عهدًا إن لم تَهْجُ واحدًا ممن فى البيت ، لأقطعنّ لسانَك أو لأضربنّ عُنُقَك . فنظر اليــه القوم ، وكلما نظر إلى أحد منهــم غمزه بأنّ علىّ رضاك . قال أبو دلامة : فعلمتُ أنى قد وقعت وأنهـا عَزْمةٌ من عَزَماته لابدّ منها ، فلم أرَ أحدًا أحقّ بالهجاء منّى ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسى ، فقلت :

٢٠ ألَا أبلِــغْ لديكَ أبا دُلامه * فلست من الكرامِ ولا كرامَه

(١) أقوقئ : أصيح .

إذا لبس العمامة كان قِـرْدًا (١) * وخـــنزيرًا إذا نزع العمامه
جمعتَ دَمامةً وجمعت لؤمًا * كذاك اللؤم تتبعــه الدّمامه
فإن تكُ قد أصبتَ نعيمَ دنيا * فلا تفرحْ فقد دنتِ القيامه

فضحك القوم ولم يبقَ منهم أحد إلا أجازه .

قال : وخرج المهديّ وعليّ بن سليمان الى الصيد ، فسنح لهما قطيع من ظباء ، فأُرسلت الكلاب وأُجرِيت الخيـل ، ورمى المهـديّ سهما فأصاب ظبيا ، ورمى عليّ بن سليمان فأصاب بعض الكلاب فقتله؛ فقال أبو دلامة :

قد رمى المهدىّ ظبيًا * شـكّ بالسهم فؤاده
وعليّ بن سـليما * ن رمى كلبًا فصـاده
فهنـيئا لهـما كلّ امرئ يأكل زاده

فضحك المهدىّ حتى كاد يسقط عن سرجه ، وقال : صدق والله أبو دُلامة ، وأمر له بجائزة سنية ؛ فلقّب عليّ بن سليمان بعد ذلك صائد الكلب ، فغلب عليه .

قال : وتوفّيت حمادة بنت عيسى ، وحضر المنصور جنازتها ؛ فلما وقف على حُفْرتها قال لأبي دُلامة : ماأعددت لهذه الحُفرة؟ قال : ابنة عمك يا أمير المؤمنين حمادة بنة عيسى يجاء بها الساعة فتدفن فيها . فضحك المنصور حتى غُلِب وستر وجهه .

قال الهيثم بن عدىّ رحمة الله عليـه : حجّت الخيزُران ، فلمـا خرجت ، صاح أبو دلامة : جعلني الله فداكِ ، اللهَ اللهَ في أمري ! فقالت : من هذا؟ قالوا : أبو دلامة . فقالت : سلوه ما أمره ؛ قالوا له : ما أمرك ؟ قال : أدنوني من محْمِلها ؛ قالت أدنوه ؛ فأُدني ، فقال لها : أيتها السيدة ، إني شيخ كبير وأجرك فيّ عظيم . قالت :

(١) كذا في الأغاني . وفي الأصل : « قلت قردا » .

فمه! قال : تَهَبِينى جاريةً من جَواريك تُؤنسنى، وترفُق بى وتُريحنى من عجوز عندى؛ قد أكلت رِفْدى، وأطالت كَدّى ؛ فقد عاف جلدى جِلْدها، وتشوّقتُ فقدَها. فضحكت الخيزران وقالت : سوف آمرُ لك بما سألت. فلمّا رجعت تلقّاها وأذكرها وخرج معها الى بغداد، فأقام حتى غَرِض (١) . ثم دخل على أمّ عَبِيدة حاضنة موسى وهارون فدفع اليها رقعة قد كتب بها الى الخيزران، فيها :

أبلغى سيِّدتى بالله * يا أمّ عَبِيدَهْ
أنّها أرشدها الله * وإن كانت رشيده
وعدتنى قبل أن تخـ * ـرجَ للحج وليده
فتأنّيتُ وأرسلـ * ـتُ بعشرين قصيده
كلما أخلقن أخلفـ * ـتُ لها أخرى جديده
ليس فى بيتى لتمهيـ * ـد فِراشى من قعيده
غير عجفاء عجوز * ساقها مثل القديده
وجهها أقبح من حو * ت طَرِىّ فى عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عِرْسى بسعيده

فلما قُرِئت عليها، ضحكت ودعت بجارية من جواريها فائقة الجمال، فقالت لها : خُذى كل مالك فى قصرى، ففعلت ؛ ثم دعت بعضَ الخدم وقالت له : سلّمها الى أبى دُلامة . فانطلق الخادم بها فلم يصادفه فى منزله ؛ فقال لامرأته : اذا رجع أبودلامة فادفعيها اليه وقولى له : تقول لك السيدة : أحسِنْ صُحْبة هذه الجارية فقد أمرت لك بها . فقالت له نعم . فلما خرج الخادم دخل ابنها دُلامة فوجد أمّه تبكى؛ فسألها عن خبرها فأخبرته وقالت: إن أردت أن تبرّنى يوماً من الأيام فاليوم.

(١) غرض : مل وضجر .

قال : قولى ما شئت فإنى أفعله . قالت : تدخل عليها فتُعلِمها أنك مالكَها وتَطَؤها فتحتزمها عليه وإلا ذهبتْ بعقله بجفانى وجفاك ، ففعل ودخل الى الجارية فوطئها ووافقها ذلك منه ، وخرج . فدخل أبو دلامة فقال لامرأته : أين الجارية؟ قالت : فى ذلك البيت ، فدخل اليها شيخ محطَّم ذاهب ، فمدّ يده اليها وذهب ليقبِّلها ؛ فقالت : مالك ويحك ! تنَحَّ وإلّا لطمتُك لطمةً دققت منها أنفك . فقال لها : أبهذا أوصتكِ السيِّدة ؟ قالت : إنها بعثت بى الى فتى من هيئته وحاله كيت وكيت ، وقد كان عندى آنفا ونال منى حاجته . فعلم أنه قد دُهِى من أمّ دُلامة وآبنها . فخرج أبو دلامة الى دُلامة فلطمه ولبّبـه (١) وحلف ألّا يفـارقه إلا الى المهدىّ . فمضى به مُلَبِّبا (٢) حتى وقف بباب المهدىّ ، فعُرِّف خبره ، وأنه جاء بابنه على تلك الحال . فأمر بإدخاله فلما دخل قال : مالك ؟ قال : فعل بى هذا آبن الخبيثة ما لم يفعله ولد بأبيه ، ولا يرضينى إلا أن تقتله . قال : ويحك ! وما فعل بك ؟ فأخبره الخبر ؛ فضحك حتى آستلقى ثم جلس . فقال له أبو دُلامة : أعجبك فعله فتضحك منه ؟ ! فقال : علىّ بالسيف والنِّطع . فقـال له دُلامة : قد سمعتَ قوله يا أمير المؤمنين ، فاسمع حجّتى . قال : هات ! قال : هذا الشيخ أصفق الناسِ وجها ، هو يفعل بأمّى منـذ أربعين سنة ما غضِبتُ ، وفعلتُ أنا بجاريتـه مرّةً واحدة غضب وصنع بى ما ترى . فضحك المهدىّ أشدّ من ضحكه الأوّل ، ثم قال : دَعْها له يا أبا دُلامة ، وأنا أُعطيك خيرا منها ؛ قال : على أن تخبأها لى بين السماء والأرض وإلا فعَل بها والله كما فعل بهذه ؛ فتقدّم إلى دُلامة ألّا يعاود مثل فعله ، وحلف أنه إن عاود قتله ، ثم وهب له جارية .

(١) كذا فى الأغانى . ولببه : جمع ثيابه عند صدره ونحره وجره . وفى الأصول : « وتلبب به » وتلبب بالشىء : تحزم به وهى غير لائقة .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول . «متلببا به» .

قال عبد الله بن صالح رحمه الله: جاء ٱبن أبي دُلامة يوما الى أبيه وهو فى محفل من جيرانه وعشيرته فجلس بين يديه ، ثم أقبل على الجماعة فقال لهم : إنّ شيخي كما ترون قد كبِر سنّه ورَقّ جلده ودقّ عظمه، وبنا الى حياته حاجة شديدة، فلا أزال أُشير عليه بالشيء يُمسك رمقه ويُبقي قوته فيخالفني فيه، وإني أسألكم أن تسألوه قضاء حاجة لى أذكرها بحضرتكم فيها صلاح جسمه وبقاء حياته، فأسعفوني بمسألته معي.

فقالوا: نفعل حبًّا وكرامة، ثم أقبلوا على أبي دُلامة بألسنتهم فتناولوه بالعتاب حتى رضى ٱبنه وهو ساكت، قال: قولوا للخبيث فليقل ما يريد، فستعلمون أنه لم يأت إلا ببليّة. فقالوا له: قل؛ فقال : إن أبي إنما قتله كثرة الجماع، فتعاونوني حتى أخصيه، فلن يقطعه عن ذلك غير الخصاء فيكون أصحّ لجسمه وأطول لعمره . فعجبوا بما أتى به وضحكوا . ثم قالوا لأبي دُلامة : قد سمعتَ فأجبْ . قال : قد سمعتم أنتم فعرّفتكم أنه لم يأت بخير . قالوا : فما عندك فى هذا ؟ قال : قد جعلتُ أمّه حكما فيما بيني وبينه، فقوموا بنا اليها . فقاموا بأجمعهم ودخلوا اليها، وقصّ أبو دلامة القصة عليها وقال : قد حكّمتك . فأقبلت على الجماعة فقالت : إن ٱبني هذا أبقاه الله قد نصح أباه ولم يألُ جهدا، وما أنا إلى بقاء أبيه أحوج مني الى بقائه[1]، وهذا أمر لم يقع به تجربة منّا ولا جرى بمثله عادة لنا، وما أشك فى معرفته بذلك، فليبدأ بنفسه فليخصها، فاذا عوفى ورأينا ذلك قد أثّر عليه أثرا محمودا ٱستعمله أبوه . فضحك أبوه والقوم وٱنصرفوا يعجبون من خبثهم جميعا .

ومنهم أبو صدقة .

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ما أنا إلا الى » .

ذكر شيء من نوادر أبي صدقة

هو أبو صدقة مسكين بن صدقة من أهل المدينة مولى لقريش. قال أبو الفرج:
وكان مليح الغناء طيب الصوت كثير الرواية صالح الصنعة، من أكثر الناس نادرة
وأخفّهم رُوحا وأشدّهم طمعا وألحّهم مسألة، وهو من المغنّين الذين أقدمهم الرشيد (٣١)
من الحجاز فى أيامه. قيل: إنه عوتب على كثرة إلحاحه فى المسألة، فقال: وما يمنعنى ٥
من ذلك، وآسمى مسكين وكنيتى أبو صدقة وآبنتى فاقة وآبنى صـدقة، فمَنْ أحقُّ
بهذا منى؟ وكان الرشيد يعبث به كثيرا؛ فقال ذات يوم لمسرور: قل لآبن جامع
وإبراهيم الموصلىّ وزبير بن دحمان وزلزل وبرصوما وآبن أبى مريم المدينىّ: إذا رأيتمونى
قد طابت نفسى، فليسأل كل واحد منكم حاجة، مقدارها مقدار صلته، وذكر لكل
واحد منهم مبلغ ذلك، وأمرهم أن يكتبوا أمرهم عن أبى صدقة؛ فقال لهم مسرور ١٠
ما أمر به الرشيد. ثم أذن الرشيد لأبى صدقة قبل إذنه لهم. فلما جلس قال له:
يا أبا صدقة، لقد أضجرتنى بكثرة مسألتك وأنا فى هذا اليوم ضجر وأحببت أن أتفرّج
وأفرح، ولست آمن أن تنغص علىّ مجلسى بمسألتك، فإما أن تعفينى أن تسألنى اليوم
حاجة وإلّا فانصرف. فقال له: لست من يومى هذا الى شهر أسألك حاجة. فقال
له الرشيد: أمّا إذ شَرَطت لى هذا على نفسك فقد اشتريت منك حوائجك بخمسمائة ١٥
دينار وهاهى ذه فخذها طيبة معجلة، فإن سألتنى شيئا بعدها من هذا اليوم فلا لوم علىّ
إن لم أصلك سنةً بشىء. فقال: نعم وسنتين. فقال له الرشيد: زدنى فى الوثيقة.
فقال: قد جعلت أمر أمّ صـدقة فى يدك فطلّقها متى شئتَ، إن شئت واحدة
وإن شئت ألفا إن سألتُك فى يومى هذا حاجة، وأشهدتُ الله ومَن حضر على
ذلك. فدفع اليه المـال، ثم أذن للجلساء والمغنّين فدخلوا وشرب القوم. فلما طابت ٢٠
نفس الرشيد، قال له آبن جامع: يا أمير المؤمنين، قد نِلْت منك مالم تبلغه أُمنيّتى،

وكثر إحسانك إلىّ حتى كَبَتُّ أعدائى وقتلتهم، وليس لى بمكة دار تشبه حالى، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر لى بمالٍ أبنى به دارا وأفرشها بباقيه لأفقأ عيون أعدائى وأزهق نفوسهم فعل . فقال له : وكم قدّرت لذلك؟ قال : أربعة آلاف دينار، فأمر له بها . وقام إبراهيم الموصلىّ فقال : يا أمير المؤمنين، قد ظهرت نعمتك علىّ وعلى الكبار من ولدى؛ وفى أصاغرهم من أحتاج [إلى] (١) ختانه، وفيهم صغار أحتاج أن أتخذ لهم خدما؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يحسن معونتى على ذلك فعل . فأمر له بمثل ما أمر به لابن جامع . وجعل كل واحد منهم يقول فى الثناء ما يحضره ويسأل حاجته على قدر جائزته، وأبو صدقة ينظر إلى الأموال تُفرَّق يمينا وشمالا، فوثب قائما ورمى بالدنانير من كمّه وقال للرشيد : أقِلْنى أقال الله عَثْرَتَك . فقال الرشيد: لا أفعل . فجعل يستحلفه ويضطرب ويلحّ والرشيد يضحك ويقول : مالى إلى ذلك سبيل، الشرط أملَكُ . فلمّا عِيل صبرُه أخذ الدنانير ورمى بها بين يدى الرشيد وقال : ها كها قد رددتها عليك وزدتك أمّ صدقة فطلّقها واحدة إن شئت وإن شئت ألفا . وإن لم تلحقنى بجوائز القوم فألحقنى بجائزة هذا البارد عمرو الغزّال — وكانت جائزته ثلاثة آلاف دينار — فضحك حتى استلقى ثم رد عليه الخمسمائة الدينار وأمر له بألف أخرى معها، وكان ذلك أكثر ما أخذه منذ خدمه إلى أن مات، رحمة الله عليهم .

وروى أبو الفرج عن أبى إسحاق قال : مُطِرنا ونحن مع الرشيد بالرَّقّة مع الفجر فاتّصل إلى غد ذلك اليوم ، وعرفنا خبر الرشيد أنه مقيم عند أمّ ولده المسماة سحر، فتشاغلنا عنه فى منازلنا . فلما كان من غد جاءنا رسول الرشيد فحضرنا جميعا، وأقبل يسأل كلّ واحد منا عن يومه الماضى وما صنع فيه ؛ فيخبره إلى أن انتهى

(١) زيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ١٥٨ طبع أوربا) . وقد جاء الكلام فيه هكذا : «وفى أصاغرهم من قد بلغ وأريد تزويجه، ومن أصاغرهم من أحتاج الى أن أطهره ... الخ» .

إلى جعفر بن يحيى، فسأله عن خبره فقال له : كان عندى أبو زكّار الأعمى وأبو صدقة، وكان أبو زكّار كلما غنّى صوتا، لم يفرغ منه حتى يأخذه أبو صدقة ؛ فإذا انتهى الدور اليه أعاده وحكى أبا زكّار فيه وحركاته وشمائله ، ويفطن أبو زكّار لذلك فيُجَنّ ويموت غيظا ويشتم أبا صدقة كلّ الشتم حتى يضجر، وهو لا يجيبه ولا يدع العبث به وأنا أضحك من ذلك ، إلى أن توسّطنا الشرب وسئمنا من عبثه به؛ فقلت له : دع هذا عنك وغنّ غناءك . فغنّى رَمَلًا ذكر أنه من صنعته ، فطربت له والله يا أمير المؤمنين طربا ما أذكر أنى طربتُ مثله منذ حينٍ(١) وهو :

فتنتنى بفاحم اللونِ جَعْدِ * وبثغرٍ كأنه نظمُ دُرِّ
وبوجه كأنه طلعة البـدْ * رِ وعينٍ فى طرفها نفثُ سِحرِ

فقلت له : أحسنتَ والله يا أبا صدقة ! فلم أسكت من هذه الكلمة حتى قال: ياسيدى إنى قد بنيت دارًا أنفقتُ عليها جميع مالى وما أعددت لها فرشا فأفرشها لى. فتغافلت عنه . وعاود الغناء فتعمّدتُ أن(٢) قلتُ : أحسنتَ ، فسألنى فتغافلت؛ فقال: يا سيدى ، هذا التغافل متى حدث لك ؟ سألتك بالله وبحقّ أبيك عليك إلا أجبتنى عن كلامى ولو بشتم . فأقبلتُ عليه وقلت له : أنت والله بغيض ، اسكت يا بغيض ، واكْفُفْ عن هذه المسألة الملحّة . فوثب من بين يدىّ ، فقلت : إنه قد خرج لحاجة ، فإذا هو قد نزع ثيابه وتجرّد منها خوفا من أن تبتلّ ووقف تحت السماء لا يواريه شيء والمطر يأخذه ورفع رأسه وقال : يا ربّ أنت تعلم أنى مُلّهٍ ولست نائحا ، وعبدك الذى قد رفعته وأحوجتنى الى خدمته يقول لى : أحسنتَ لا يقول لى : أسأت ، وأنا مذ جلست أقول له : بنيت ولا أقول له : هدمت ، فيحلف

---

(١) فى الأصول : « منذ حين وزمان » ولا معنى لذكر كلمة « زمان » وهى غير موجودة فى الأغانى .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لأن قلت » .

بك جرأة عليك أنى بغيض، فاحكم بينى وبينه فأنت خير الحاكمين . فغلبنى الضحك وأمرت به فتنحّى، وجهدت به أن يغنّى فآمتنع، حتى حلَفتُ له بحياتك أنى أفرش له داره يا أمير المؤمنين، وخدعته فلم أُسمِّ له بما أفرشها . فقال له الرشيد: طيِّبٌ والله! الآن تمّ لنا به اللهو، أدعُه فإنه اذا رآك سوف يتنجّزك الفرش لأنك حلفتَ له بحياتى فهو يقتضيك ذلك بحضرتى ليكون أوفق له ؛ فقل له : أنا أفرشها لك بالبوارىّ[(1)] وحاكِمْه الىّ . ثم دعا به فحضر؛ فلما آستقرّ فى المجلس قال لجعفر : الفرش الذى حلفت بحياة أمير المؤمنين أنك تفرش به دارى، تقدَّمْ به . فقال له جعفر : آختر، إن شئت فرشتُها لك بالبوارىّ وإن شئت فبالبَردىّ من الحصر؛ فصاح وآضطرب . فقال له الرشيد : وكيف كانت القصة؟ فأخبره، فقال له : أخطأتَ يا أبا صدقة إذ لم تسمِّ النوع ولا حدّدت[(2)] القيمة؛ فاذا فرشها لك بالبردىّ أو بما دون ذلك فقد برَّ فى يمينه، وإنما خدعك ولم تفطن أنت ولا توثّقت وضيّعت حقّك . فسكت ثم قال : نوفَّر أيضا البردىّ والبوارىّ عليه أعزّه الله . وغنّى المغنّون حتى آنتهى الدور اليه، فأخذ يغنّى غناء الملّاحين والبنّائين والسقّائين وما يجرى مجراه من الغناء . فقال له الرشيد: أىّ شىء هذا الغناء؟ قال : مَن فُرِش داره بالبوارىّ والبردىّ فهذا الغناء كثير منه، [وكثير][(3)] أيضا لمن هذه صلته . فضحك الرشيد وطرب وصفّق وأمر له بألف دينار من ماله، وقال له : آفرش دارك بهذه . فقال : وحياتك يا أمير المؤمنين لا آخذها أو تحكم لى على جعفر بما وعدنى وإلا متُّ والله أسفا لفوات ما حصل فى طمعى ووُعِدتُ به؛ فحكم له على جعفر بخمسمائة دينار أخرى، فأمر له جعفر بها .

---

(1) البوارىّ جمع بارىّ وهو الحصير المنسوج .

(2) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « وحدّ » .

(3) زيادة عن الأغانى .

ذكر شيء من نوادر الأُقَيْشر[1]

هو أبو مُعرض المغيرة بن عبد الله بن معرض بن عمرو بن معرض بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . والأقيشر لقب غلب عليه لأنه كان أحمر الوجه أقيشر . قال أبو الفرج الأصفهانيّ : وعُمِّر الأقيشر عمرا طويلا ، ولعله ولد فى الجاهلية ونشأ فى الإسلام ، وكان أبعد بنى أسد نسبًا . قال : وكان كوفيًّا خليعا ماجنا مدمنا للخمر . وهو الذى يقول لنفسه :

فإنّ أبا معرضٍ إذ حسا * من الرّاح كأسا على المنبر

خطيبٌ لبيبٌ أبو معرضٍ * فإن لِيم فى الخمر لم يصبرِ

أحلّ الحرامَ أبو معرضٍ * فصار خليعا على المكبرِ

يحبّ اللئامَ ويَلْحى الكرام * وإن أقصروا عنه لم يُقصِرِ

قال : وشرب الأقيشر فى بيت خمّار بالحِيرة ، فجاءه الشُّرطُ ليأخذوه ، فتحرّز منهم وأغلق الباب وقال : لست أشرب فما سبيلكم علىّ ؟ قالوا : قد رأينا العُسّ فى كفّك وأنت تشرب . فقال : إنما شربت من لبن لَقْحة لصاحب هذه الدار ، فما برحوا حتى أخذوا منه درهمين . فقال :

إنما لقحتُنا باطِيَــةٌ[2] * فاذا ما مُزِجتْ كانتْ عَجَبْ

لبنٌ أصفَرُ صافٍ لونُهُ * ينزع الباسور من عَجْبِ[3] الذَّنَبْ

إنما نشرب من أموالنا * فسلوا الشرطىّ ما هذا الغضبْ ؟

---

(١) الأقيشر هو تصغير أقشر وهو الشديد الحمرة .

(٢) الباطية : إناء من الزجاج للخمر يوضع بين الشرب يغترفون منه .

(٣) العجب : أصل الذنب .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن أبى عمرو الشيبانىّ وغيره قال : كان الأقيشر لا يسأل أحدا أكثر من خمسة دراهم ، يجعل درهمين للشراب ودرهما للطعام ودرهمين فى كراء بغل الى الحيرة . وكان له جار يكنى أبا المضاء، له بغل يكريه ، فكان يعطيه درهمين ويأخذ بغله فيركبه الى الحيرة حتى يأتى به بيت الخمّار فينزل عنه ويربطه ، ثم يجلس للشرب حتى يمسى ثم يركبه . وله فى ذلك أشعار كثيرة .

قال وتزوّج الأقيشر ٱبنة عمّ له يقال لها الرَّباب ، على أربعة آلاف درهم — ويقال: على[1] عشرة آلاف درهم — فأتى قومه فسألهم فلم يعطوه شيئا ،فأتى ابن رأس البغل وهو دِهْقان[2] الصين، وكان مجوسيّا، فسأله فأعطاه الصَّداق كاملا، فقال :

كفانى المجوسىُّ مَهْرَ[3] الرَّباب * فِدًى للمجوسىّ خالٌ وعمّْ

شهدت بأنك رَطْب[4] اللسان * وأنك بحرٌ جوادٌ خِضمّْ

وأنك سيد أهل الجحيم * اذا ما تردّيت فيمن ظلَمْ

تجاور هامان فى قعرها * وفرعون[5] والمكتنى بالحكَمْ

فقال له المجوسىّ : ويحك ! سألت قومك فما أعطوك شيئا ، وجئتنى فأعطيتك فجزيتنى هذا القول ولم أُفلت من شرّك! قال : أوما ترضى أن جعلتك مع الملوك وقرين أبى جهل؟ . قال : ثم جاء الى عكرمة بن ربعىّ التيمىّ، فسأله فلم يعطه شيئا، فقال فيه :

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٩٢ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الى » وهو تحريف .

(٢) الدهقان (بالكسر والضم) : رئيس الإقليم .

(٣) فى الأغانى : « مهر » .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «بظر اللسان» .

(٥) فى الأغانى: «قارون» .

سألت ربيعة مَنْ شَرُّها * أبًا ثم أمًّا فقالوا لِمَهْ
فقلت لأعلم مَنْ شَرُّكم * وأجعلَ للسبّ فيه سِمَهْ
فقالوا لِعكرِمةَ المخزياتُ * وما ذا يرى الناس فى عِكرِمَهْ
فإن يك عبدا زكا ماله * فما غيرذا فيه من مكرمَهْ

قال الأصمعى : قال عبد الملك بن مروان للأقيشر: أنشدنى أبياتك فى الخمر؛ ٥
فأنشده قوله :

تُريك القذى من دونها وهى دونه * لوجه أخيها فى الإناء قطوبُ
كُمَيْتٌ اذا شُجَّت(١) وفى الكأس وَرْدةٌ * لها فى عظام الشارِبين دبيبُ

فقال له : أحسنت والله يا أبا مُعرض ! لقد أجدت فى وصفها ، وأظنك قد
شربتها . فقال : والله يا أمير المؤمنين، إنه ليريبنى معرفتك بها . قال : وكان الأقيشر ١٠
يأتى إخوانا له فيسألهم فيعطونه ، فأتى رجلا منهم فأمر له بخمسمائة درهم فأخذها
ومضى الى الحانة فدفعها الى صاحبها، وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل .
فانضم اليه رفقاء له فلم يزل معهم حتى نفدت الدراهم؛ فأتاهم بعد إنفاقها فاحتملوه
يوما و يوما . فلما أتاهم فى اليوم الثالث نظروا اليه من بعيد ، فقالوا لصاحب
الحانة : آصعد بنا الى الغرفة ، وأَعلِمْ الأقيشر أنا لم نأت اليوم، ففعل . فلما جاء ١٥
الأقيشر أعلمه بما قالوا، فعلم أنه لا فرج له عند صاحب الحانة إلا برهنٍ، فطرح
اليه بعض ثيابه وقال له : أقم لى ما أحتاج اليه، ففعل . فلما أخذ منه الشراب
أخذ يقول :

يا خليلَيَّ آسقيانِىَ كأسا * ثمّ كأسا حتى أَخِرَّ نُعاسا

(١) فى الأغانى : "فضت" .

إن فى الغرفة التى فوق رأسى * لأناسا يُخادِعون أُناسا

يشربون المعتّق الراح صِرفا * ثم لا يرفعون للزّور[1] راسا

قال : فلما سمع أصحابه هذا الشعر، فدّوه بآبائهم وأمهاتهم، ثم قالوا له : إمّا أن تصعد الينا و إما أن ننزل اليك، فصعِد اليهم .

قال : وكان يختلف الى رجل من بنى تميم وكان يجرى عليه فى كل شهر عشرة دراهم، فجاءه مرة فوجده قد أصيب بابنه ، فردّته آمرأته عنه، ثم عاد بعد ذلك بيومين فردّته عنه أيضا ؛ فكتب اليه بيتى شعر ودفع الرقعة اليها وقال : أوصليها اليه؛ فقرأها، فاذا فيها :

ألا أبلغْ لديك أبا هشامٍ * فإن الريح أبردُها الشَّمالُ

عِداتُك فى الهلال عِداتُ صدقٍ * فهل سمنتْ كما سمن الهلالُ

فلما قرأ الرقعة أمر بردّه وقال : لقد سمنت وما بقى إلا الهزال إن تأخرت، فأمر له بها و زادها خمسة دراهم .

وكان الأقيشر مع شرفه وشعره يرضيه اليسير و يسخطه. وأخباره كثيرة ونوادره مشهورة ، وفيما أوردناه منها كفاية . ومات الأقيشر قتيلا . وقيل : إنه مدح عبد الله بن إسحاق بن طلحة بن عبيد الله فلم يعطه شيئا فهجاه؛ فزعموا أنّ غلمانا لعبد الله بن إسحاق قتلوه؛ فاجتمع بنوأسد وادّعوا عليه قتل الأقيشر؛ فافتدى منهم بديته . وقال آبن الكلبىّ : كان الأقيشر مولَعا بهجاء عبد الله بن إسحاق ومدح أخيه زكريا . فقال لغلمانه : ألا تريحوننى منه ! فانطلقوا فجمعوا بعرا وقصبا

(١) الزور : جمع زائر، كراكب وركب .

بظهر الكوفة وجعلوه فى وسط إِرَةٍ[1] ، وأقبـل الأقيشر سكرانا من الحِيرة على بغـل أبى المضاء المكارى، فأنزلوه عن البغل وشدّوه رباطا ثم وضعوه فى تلك الإِرَةِ وألهبوا النار فى القصب والبعر فمات، ولم يُعلَم من قتله . والله أعلم .

ذكر شيء من نوادر ٱبن سَيَّابة

هو إبراهيم بن سَيَّابة مولى بنى هاشم . كان يقال : إن جدّه حجّام أعتقـه بعض الهـاشميين . قـدّمه إبراهيم الموصلىّ وٱبنـه إسحاق لأنه مدحهما فرفعا من قدره وغنّيا بشعره ونوّها بذكـره . وكان خليعا ماجنا حسن النادرة . وله نوادر نذكر منها نُبَـذًا فيما رواه أبو الفرج الأصفهانىّ . منها مارواه عن إسحاق الموصـلىّ قال : أتى إبراهيم ٱبن سيابة وهو سكران ٱبنـا لسوّار بن عبد الله القاضى أمرد ، فعانقه وقبّله ؛ وكانت معـه دايةٌ يقال لها رَحاص، فقيل لهـا : إنه لم يقبّله تقبيل التسليم، وإنما قبّله شهوةً ؛ فلحقته الداية فشتمته وأسمعته كلّ ما يكره، وهجره الغلام بعد ذلك؛ فقال :

لئن لثمتُـك سِرًّا * فأبصرتنى رَحاصُ
وقال فى ذاك قومٌ * على ٱنتقاصى حِراصُ
هجَـرتَنى وأتتـنى * شتيمة وٱنتـقاصُ
فهاك فاقتصّ منى * إنّ الجروحَ قِصاصُ

وقد قيل : إنّ رَحاص هذه كانت مغنّية كان الغلام يهواها، وإنه سكر ونام، فقبّله ٱبن سيّابة . فلما ٱنتبه قال للمغنّية : ليت شعرى ! ما كان خبرك مع ابن سَيّابة؟ فقالت له : سَلْ عن خبرك أنت معه، وحدّثته بالقصة؛ فهجره الغلام، فقال هذا الشـعر .

(١) الإرة : موضع النار .

وقال إسحاق بن إبراهيم : كان ابن سَيَّابة عندنا يومًا مع جماعة نتحدّث ونتناشد وهو يُنشد شيئا من شعره، فتحرّك فضرط فضرب بيده على آسته غير مكترث وقال: إما أن تسكتى حتى أتكلّم، و إما أن تتكلّمى حتى أسكت .

وقال جعفر الكاتب : قال لى إبراهيم بن سيّابة الشاعر : اذا كان عند جيرانك جنازة وليس فى بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة، فإن المصيبة عندك أكبر منها عند القوم، و بيتك أولى بالمأتم من بيتهم . وقال سليمان بن يحيى بن معاذ : قدِم علىّ إبراهيم بن سيّابة بنيسابور فأنزلته علىّ، فجاء ليلة من الليالى فجعل يصيح : يا أبا أيّوب، فخشيت أن يكون قد غشيه شىء، فقلت : ما تشاء ؟ فقال :

* أعيانِىَ الشادنُ الربيبُ *

قلت بماذا ؟ فقال :

* أكتبُ أشكو فلا يُجيبُ *

فقلت : دَارِه وداوِه، فقال :

من أين أبغى شفاء قلبى * وإنما دائىَ الطبيبُ

فقلت : لا دواء إذًا إلا أن يفرّج الله عزّ وجلّ عنك . فقال :

يا رب فرّج إذًا وعَجِّل * فإنك السامعُ المجيبُ

ثم آنصرف . وقد تقدّمت هذه الحكاية . والسلام .

ذكر شىء من نوادر مطيع بن إياس الكنانىّ وأخباره

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : هو شاعر من مخضرمى الدولتين الأمويّة والعباسيّة . كان ظريفًا خليعًا ماجنا حلو العشرة مليح النادرة قال : وكان متهما فى دينه بالزندقة . وكان مولده ومنشؤه بالكوفة، وكان منقطعا الى الوليد بن عبد الملك، ثم آتصل بخدمة الوليد بن يزيد . وكان سبب ذلك ما حكى عن حكَم

الوادىّ المغنّى، قال : غنّيت الوليد بن يزيد وهو غلام حديث السنّ بشعر مطيع بن أياس وهو :

إكليلُهـا ألوانُ * ووجهها فتّـانُ
وخالُهـا فـريدٌ * ليس له جيرانُ
اذا مشت تثنّتْ * كأنها ثعبانُ
قدجُدِلتْ بجاءتْ * كأنها عِنانُ

فطرِب حتى زحف عن مجلسه الىّ ، واستعادنى الصوت حتى صَحِلَ[1] صوتى؛ ثم قال : ويحك ! من يقول هذا ؟ فقلت: عبد لك يا أمير المؤمنين أرضاه لخدمتك. قال: ومن هو؟ قلت : مطيع بن إياس . قال : وأين هو ؟ قلت : بالكوفة ؛ فأمر أن يُحْمَلَ اليه مع البريد، فحُمِلَ اليه ؛ فسأله عن الشعر فقال: من يقول هذا؟ فقال: عبدك أنا يا أمير المؤمنين . فقال له : أدن منى، فدنا منه فضمّه الوليد اليه وقبّل فاه وبين عينيه، وقبّل مطيعٌ رجليه والأرضَ بين يديه ؛ ثم أدناه حتى جلس فى أقرب المجالس اليه، وآصطبح معه أسبوعا متوالىَ الأيام على هذا الصوت . وكان فى خلال الدولة الأمويّة ينقطع الى أوليائها وعلمائها ، ثم آنقطع فى الدولة العباسيّة الى جعفر آبن أبى جعفر المنصور فكان معه حتى مات جعفر . ومات مطيع فى خلافة الهادى بعـد ثلاثه أشهر مضت منها . وله نوادر وأخبار مستظرفة هـذا موضع ذكرها ، فلنقتصر هاهنا من أخباره عليها دون غيرها .

قيل : سقط لمطيع حائطٌ؛ فقال له بعض أصحابه : آحمد الله على السلامة . قال : آحمد الله أنت إذ لم تَرُعْك هدته، ولم يصبك غباره، ولم تغرم أجرة بنائه .

---

(١) صحل : بح .

ومن أخباره ما رواه أبو الفرج الأصفهانىّ بإسناده الى عبد الملك المروانىّ عن مطيع بن إياس، قال: قال لى حماد عَجْرَد يوما: هل لك أن أريك "خُشّة" صديقتى وهى المعروفة بظبية الوادى! قلت نعم. قال: إنك إن قعدت عندها وخبّثت[1] عينك فى النظر أفسدتها علىّ. فقلت: لا والله لا أتكلّم بكلمة تسوءك ولأسرّنّك. فمضى بى وقال: والله لئن خالفت ما قلت لأخرجنّك. قال: قلت: إن خالفت إلى ما تكره فاصنع بى ما أحببتَ. قال: آمض بنا فمضينا، فأدخلنى على أحسن خلق الله وأظرفهم وأحسنهم وجها. فلما رأيتها أخذنى الزَّمَع[2]، وفطن لى فقال: آسكت يابن الزانية، فسكتُّ قليلا، فلحظتنى ولحظتها لحظة أخرى فغضب ووضع قلنسوته عن رأسه، وكانت صلعته حمراء كأنها آست قرد؛ فلما وضعها وجدت للكلام موضعا، فقلت:

وإن السوءة السوءا * ء يا حمّاد عن خُشّهْ
عن الأُتْرجّة الغضّـ * ـة والتفّاحة الهشّهْ

فالتفتَ الىّ وقال: فعلتها يابن الزانية! فقالت له: أحسن، فوالله ما بلغ صفتك بعد، فما تريد منه! فقال لها: يا زانية! فسبّته وتثاوراً، فشقّت قميصه وبصقت فى وجهه وقالت له: ما يُصادقك ويدع مثل هذا إلا زانية، وخرجنا وقد لقى كلّ بلاء، وقال لى: ألم أقل لك يابن الزانية: إنك ستفسد علىّ مجلسى! فأمسكت عن جوابه، وجعل يهجونى ويسبنى ويشكونى الى أصحابنا، فقالوا لى: آهجه ودعنا وإياه؛ فقلت:

ألا يا ظبيةَ الوادى * وذات الجسد الرادى
وزينَ المصرِ والدارِ * وزينَ الحىّ والنادى

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٢ ص ٨٢ طبع بولاق). وفى الأصول: «إنك إن بعدت عنها وحققت عينيك فى النظر... الخ». (٢) الزمع: الدهش.

وذات المِبسم العذبِ * وذات المبسم البادى
أما بالله تسـتحيـ * ـين من خلّة حمّادِ
فحـمّادٌ فتى ليس * بذى عزٍّ فتنقادى
ولا مالٍ ولا طِرْفٍ * ولا حـظٍّ(١) لمرتادِ
فتـوبى واتّقى الله * وبُتِّى حبلَ عجْـرادِ
فقد مُيِّزتِ بالحسنِ * عن الخـلْق بإفراد
وهـذا البينُ قد حُمَّ * فجُـودى لِىَ بالزادِ

قال : فأخذ أصحابنا رقاعا فكتبوا الأبيات فيها وألقوها فى الطريق، وخرجت أنا فلم أدخل عليهم ذلك اليوم، فلمـا رآها وقرأها قال لهم : يا أولاد الزنا فعلها آبن الزانيـة وساعدتموه ؟ قال : وأخذها حكم الوادىّ فغنّى بها، فلم يبق بالكوفة سقّاء ولا طحّان ولا مكارٍ إلا غنّى فيها ثم غبتُ مدّة وقدمتُ فأتانى فما سلّم علىّ حتى قال لى :

أما بالله تسـتحيـ * ـين من خلّة حمّادِ

قتلتنى قتلك الله ! والله ما كلمتْنى حتى الساعةَ . قال : قلت : اللهم أَدِم هجرها له وسوء رأيها فيه وأسقه عليها وأغوه بها؛ فشتمنى ساعة . قال مطيع : ثم قلت له : قم آمض بنا حتى أريك أختى — وكانت لمطيع صديقةٌ يسمّيها أختى وتسمّيه أخى، وكانت مغنّية — فلما خرجت الينا، دعوتُ قيّمةً لها فأسررت إليها فى أن تصلح لنـا طعاما وشرابا ، وعرفتها أن الذى معى حمّاد فضحكت . ثم أخذت صاحبتى فى الغناء وقد علمت بموضعه وعرفت، فكان أوّل ما غنّت :

أما بالله تسـتحيـ * ـين من خلّة حمّاد

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : «خلط» وهو تحريف .

فقال لها : يازانية! وأقبل علىّ وقال : وأنت يازانى يابن الزانية! أسررتْ هذا الى قيمتها ! فقلت : لا والله كذبت . وشاتمتهُ صاحبتى ساعةً ثم قامت فدخلت ، وجعل يتغيّظ علىّ . فقلت : أنت ترى أنى أمرتها أن تغنّى بمـا غنّت ؟ فقال : أرى ذلك وأظنّه ظنّا لا والله ولكنى أتيقنه . فحلفت له بالطلاق على بطلان ظنّه وآنصرفنا .

٥ وحكى قال يحيى بن زياد الحاربىّ لمطيع وكان صديقا له : آنطلق بنا الى فلانة صديقتى ، فإن بينى و بينها مغاضَبة لتُصلح بيننا و بئس المصلح والله أنتَ . قال : فدخلا عليها(١) ، فأقبلا يتعاتبان ومطيعٌ ساكتٌ ، حتى اذا أكثر قال يحيى : مايسكتك؟ أسكت الله نأمتك(٢) ! قال مطيع :

أنت معتلّة عليـــه وما زا * ل مُهينًا لنفسه فى رضاكِ

١٠ فاعجب يحيى وهشّ له . فقال مطيع :

فدعيه وواصلى آبنَ إياسٍ * جعلت نفسُه الفداة فداكِ

فقام يحيى اليـــه بوسادة فى البيت فمـا زال يجلد بها رأسه ويقول : ألهذا جئتُ بك يابن الزانية ! ومطيع يُغوِّث(٣) حتى ملّ يحيى ، والجارية تضحك منهما ، ثم تركه .

ورُوىَ عن محمد بن الفضل السكونىّ قال : رفع صاحب الخبر الى المنصور أن ١٥ مطيع بن إياس زنديق وأنه يلازم آبنه جعفر و جماعة من أهل بيته ، و يوشك أن يفسد أديانهم أو يُنسَبوا الى مذهبه . فقال له المهدىّ : أنا به عارف ، أما الزندقة فليس من أهلها ، ولكنه خبيث الدين فاسق مستحلٌّ للحارم ؛ قال : فأحْضره وآنهه(٤) عن صحبة جعفر وسائر أهله ؛ فأحضره المهدىّ وقال له : يا خبيث يا فاسق ! لقــد

(١) فى الأصول : « فدخلنا » ، والتصويب عن الأغانى .

٢٠ (٢) النأمة : الصوت . وأسكت الله تعالى نأمته أى أماته .

(٣) غوّث الرجل : قال واغوثاه .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « ونهاه » وهو لا يستقيم مع السياق .

أفسدت أخى ومن تصحبه من أهلى ، والله لقد بلغنى أنهـم يتقارعون عليك ، ولا يتم لهم سرور إلا بك ، وقد غررتهم وشهرتهم فى الناس ، ولولا أنى شهدت لك عند أمير المؤمنين بالبراءة مما نسبت اليه من الزندقة ، لقد كان أمر بضرب عنقك ! يا ربيع آضربه مائة سوط وآحبسه . قال : ولِمَ يا سيدى ؟ قال : لانك سِكّير خِمّير قد أفسدت أهلى كلّهـم بصحبتك . فقال له : إن أذِنت لى وسمعت احتججت . فقال له : قل ؛ فقال : أنا آمرؤ شاعر ، وسوقى إنمـا تنفُق مع[1] الملوك وقد كسدت عندكم ، وأنا فى أيامكم مُطَّرَح[2] ، وقد رضيتُ منها مع سَعتها للناس جميعا بالأكل على مائدة أخيك ، لا يتبع ذلك غيره ، وأصـفيته على ذلك شكرى وشـعرى ؛ فإن كان ذلك غاليا عنـدك تبتُ منـه . فأطرق المهدىّ ثم رفع رأسه فقال : قد رفع إلىّ صاحب الخبر أنك تُماجن على السؤّال ، وتضحك منهم . قال : لا والله ما ذاك من فعـلى ولا شأنى ولا جرى منّى قط إلا مرة واحدة ؛ فإن سائلا أعمى آعترضنى وقد عبرت الجسر على بغلتى ، فظنّنى من الجند فرفع عصاه فى وجهى ، ثم صاح : اللهم سخّر الخليفة لأن يعطى للجند أرزاقهم فيشتروا من التجار الأمتعة وتربح التجار عليهم فتدرّ أموالهم فتجب فيها الزكاة عليهم فيتصدّقوا علىّ منها . فنفرتْ بغلتى من صياحِه ورفعِه عصاه فى وجهى حتى كدتُ أسقط فى المـاء . فقلت : يا هذا ، ما رأيت أكثر فضولا منك ، سَلِ الله أن يرزقك ولا تجعل بينك و بينه هذه الحوالات والوسائط التى لا يحتاج إليها فإن هذه المسائل فضول . فضحك الناس منه ورفع علىّ فى الخبر [قولى له هذا][3] . فضحك المهدىّ وقال : خلّوه ولا يُضرَب ولا يُحبَس . فقال له : أدخل عليـك لمَوْجدة وأخرج عن رضا وتَبْرأ ساحتى وأنصرف بلا جائزة ! قال :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « على » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « مطوح » بالواو وهو تصحيف .

(٣) زيادة عن الأغانى (ج ١٢ ص ١٠١ طبع بولاق) .

لا يجوز هذا ، اعطوه مائتى دينار، ولا يعلم أمير المؤمنين فتُجدَّد عنده ذنوبُه ؛ وقال له : آخرج عن بغـداد ودع صحبة جعفر حتى ينساك أمير المؤمنين، ثم عد إلىّ . فقال له : فأين أقصـد ؟ قال : أ كتبُ الى سليمان بن علىّ فيولّيك عملا ويُحسن اليك . قال : قد رضِيت . فوفد الى سليمان بكتاب المهدىّ فولّاه الصدقة بالبصرة، وكان عليها داود بن أبى هند فعزلَه به .

وأخباره فى هذا الباب كثيرة أغضينا عن كثير منها .

ذكر شيء من نوادر أبى الشِّبل

هو عاصم بن وهب بن البَرَاجِم . مولده الكوفة . نشأ وتأدّب بالبصرة . وفد إلى سامرّاء[1] أيام المتوكل ومدحه . وكان طيّبا كثير الغزل والنوادر والمجون . فنفق عند المتوكل وخدمه وآختصّ به وآمتدحه بقوله :

أقبلى فالخير مُقبِـلْ * وآتركى قول المُعَلِّلْ
وثقى بالنُّجح إنْ * أبصرتِ وجهَ المتوكِّلْ
ملِكٌ يُنصف يا ظا * لمتى فينا ويعـــدِلْ
فهو الغـاية والمـأ * مول يرجوه المؤمِّلْ

فأمر له بثلاثين ألف درهم . وله أخبار مستظرفة تتضمن شـعرا ونوادر تدلّ على ظرفه سنذكر منها طرفا . فمن ذلك ما حكى عنه : أنه مدح مالك بن طوق، وقدّر أن يعطيه ألف درهم . فبعث اليه بصرة مختومة فيها مائة دينار، فظن أنهـا دراهم فردها اليه وكتب معها :

فليت الذى جادت به كفُّ مالكٍ * ومالك مدسوسان فى آستِ آمّ مالكِ

(١) سامرّاء : لغة فى سر من رأى ، وهى مدينة كانت بين بغداد وتكريت .

وكان الى يوم القيامة فى آستها * فأيسرُ مفقـودٍ وأيسـر هالكِ

وكان مالك يومئذ أميرا على الأهواز. فلما قرأ الرقعة أمر بإحضاره فأحضر وقال: ما هـذا ؟ ظلمتنا وآعتديت علينا . فقال : قدرت عندك ألف درهم فوصلتنى بمائة درهم. فقال : آفتحها؛ ففتحها فإذا فيها مائة دينار؛ فقال: أقِلْنى أيها الأمير. فقال: قد أقلتك ولك كل ماتحب أبدا ما بقيت وقصدتنى . ٥

قال : وكان له جار طبيب أحمق، فمات فرثاه فقال :

قـد بكاه بولُ المريضِ بدمع * واكفٍ فوق مقلتيـه ذروفِ

ثم شـقّت جيوبَهن القواريـ * رُ عليه ونُحنَ نَوْحَ اللهيفِ

يا كساد الخيـار شـنبَر والأقـ * ـراص طرًّا ويا كساد السفوفِ

كنت تمشى مع القوىّ فإن جا * ءَ ضعيفٌ لم تكترث بالضعيفِ ١٠

لهف نفسى على صنوف رقاعا * تٍ تولّت منـه وعقل سخيفِ

وقال أبو الشبل : كان خالد بن يزيد بن هُبَيرة يشرب النبيذ، وكان يغشانا، وكانت له جارية صفراء مغنية يقال لها لَهَب، كانت تغشانا معه، وكنت أعبث بها كثيرا . فقام مولاها يوما الى الخابية(1) يستق نبيذا، فاذا قميصه قد آنشق؛ فقلت فيه :

قالت له لَهَبٌ يوما وجاد لهـا * بالشِّعر فى باب فعلانٍ ومفعولِ ١٥

أمّا القميصُ فقد أزرى(2) الزمانُ به * فليت شعرِىَ ما حالُ السراويلِ

قال أبو الشبل : وكانت أمّ خالد هذا ضرّاطة تضرط على صوت العيدان وغيرها فى الإيقاع . فقلت فيه :

فى الحىّ من لاعدِمت خلّته * فتى إذا ماقطعتُـه وصـلا

(1) كذا فى الأغانى (ج ١٣ ص ٢٣ طبع بولاق) . وفى الأصول : « الجابية » وهو تحريف . ٢٠

(2) فى الأغانى : « أودى » .

له عجوزٌ بالحَبِق(١) أبصر من * أبصرتُه ضاربا ومرتجلا
نادمتُه مرّة وكنت فتى * مازلت أهوى وأشتهى الغزلا
حتى إذا ما أمالها سَكَرٌ(٢) * يبعث فى قلبها لها مثلا
اتكأتْ يَسرة وقد خرفت(٣) * أشراجها كى تقوّم الرَّملا
٥ فلم تزل إستها تطارحنى * اِسمعْ إلى من يسومنى العِللا

وقال محمد بن المرزبان : كنت أرى أبا الشبل كثيرا عند أبى، وكان إذا حضر أضحك الشكلى بنوادره . فقال له أبى يوما : حدّثنا ببعض نوادرك وطرائفك . قال نعم . من طرائف أمورى أن ابنى زنى بجارية سِنديّة لبعض جيرانى، فحبلت وولدت، وكانت قيمة الجارية عشرين دينارا . فقال: يا أبت، الصبيّ والله ١٠ ابنى، فساومتُ فيه فقيل لى: خمسون دينارا . فقلت له : ويلك ! كنت تخبرنى وهى حبلى فأشتريها بعشرين دينارا ونربح الفضل بين الثمنين ! وأمسكت عن المساومة بالصبى حتى اشتريته من القوم بما أرادوا . ثم أحبلها ثانيا فولدت ابنا آخر، فجاء يسألنى أن أبتاعه ؛ فقلت : عليك لعنة الله، أى شىء حملك على أن تُحبِل هذه ، هلا عزلت عنها ! فقال : إنى لا أستحلّ العزلَ . ثم أقبل على جماعة عندى فجعل ١٥ يقول : شيخ كبير يأمرنى بالعزل ويستحلّه . فقلت له : يابن الزانية ! تستحلّ الزنا وتتحرّج من العزل! فضحكنا منه .

ذكر شىء من نوادر حمزة بن بَيْض الحنفى

كان شاعرا من شعراء الدولة الأمويّة، وهو كوفىّ خليع ماجن. وكان منقطعاً إلى المهلّب بن أبى صُفْرةَ وولَدِه، ثم إلى أبَان بن الوليد وبِلال بن أبى بُرْدة ،

٢٠ (١) الحبق : الضراط . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شعث »
(٣) خرفت : أمالت وصرفت .

واكتسب بالشعر من هؤلاء مالًا عظيما . يقال : إنه أخذ بالشعر من مال وشاء ورقيق وحُمْلان وغير ذلك ألفَ ألفِ درهم . وله نوادر ، منهـا ما حكاه أبو الفرج الأصفهانى عنه :

أنه كان يسامر عبد الملك بن بشر بن مروان ، وكان عبد الملك يعبث به عبثا شديدا . فوجّه اليه ليلةً برسول وقال : خذه على أىّ حالة وجدته ، وأحلفه وغلّظ عليه الأيمان على ذلك . فمضى الرسول فهجم عليه فوجده يريد أن يدخل الخلاء ، فقال له : أجب الأمير . فقال : ويحك ! إنى أكلت طعامًا كثيرا وشربت نبيذًا حُلْوًا وأخذنى بطنى . فقال : والله ما تفارقنى أوْ أمضىَ بك اليـه ولو سلحتَ فى ثيابك . فجهد فى الخلاص فلم يَقْدِر عليه . ومضى به ، فوجده قاعدًا فى طارمة[1] له وجاريةٌ جميلةٌ جالسة بين يديه ، وكان يتحظّاها ، تسجر[2] الندَّ . فجلس حمزة يحادثه وهو يعالج ماهو فيه . قال حمزة : فعرضتْ لى ريح فقلت : أُسَرِّحها وأستريح لعل ريحها لا يظهر مع هذا الندّ ، فأطلقتها ، فغلبت والله ريحَ البخور وغمرته . فقال : ما هذا يا حمزة؟ فقلت : علىّ عهد الله وميثاقه وعلىّ المشىُ والهَدْىُ إن كنتُ فعلتُها ! وماهذا إلا عمل هذه الجارية الفاجرة . فغضب ، وخجلت الجارية فما قَدَرتْ على الكلام . ثم جاءتنى أُخرى فسرّحتها ، فسَطَع والله ريحُها . فقال : ما هذا؟ ويلك ! أنت والله الآفة . فقلت : امرأتى طالق ثلاثًا إن كنتُ فعلتها . فقال : وهـذه اليمين لازمةٌ إن كنت فعلتها ، وما هو إلا عمل هذه الجارية ؛ وقال لها : ماقصّتك ؟ ويلك ! قُومى إلى الخلاء إن كنت تجدين شيئا . فزاد تَخجُلها ، وطمِعتُ فيهـا فسرّحت الثالثة فسطَع من ريحها مالم يكن فى الحساب . فغضب عبد الملك حتى كاد يخرج من جِلْده ؛ ثم قال : ياحمزة ، خذ بيد الزانيـة فقد وهبتُها لك وآمضِ ، فقد نغّصت علىّ ليلتى . فأخذتُ بيدها

(١) الطارمة : بيت من خشب كالقبة . (٢) تسجر : تحرق .

وخرجتُ. فلقيني خادم له فقال: ما تريد أن تصنع؟ فقلت له: أمضي بهذه الجارية. فقال: لاتفعل، فوالله لئن فعلت لَيُبْغِضنّك بغضًا لاتنتفع به بعده أبدا، وهذه مائتا دينار خذها ودع هذه الجارية فإنه يتحظّاها، وسيندَم على هبتــه إيّاها لك. فأبيتُ إلا بخمسمائة دينار. فقال: ليس غير ماذكرت لك. فأخذتها وتركت الجارية. فلما كان بعد ثلاث دعاني عبد الملك. فلمــا قرُبت من داره لقيني الخادم وقال لي: هل لك في مائة أخرى وتقول مالا يضرّك ولعله ينفعك؟ قلت: وما ذاك[1]؟ قال: إذا دخلت فادّعِ الفَسَوات الثلاث وانسبْها إلى نفسك وانضِح[2] عن الجارية ماقرفتَها به. فأخذتُها ودخلتُ على عبد الملك. فلما وقفتُ بين يديه قلت له: الأمان حتى أخبرك بخبر يسرّك ويُضحكك. قال: لك الأمان. فقلت: أرأيتَ ليلة كذا وكذا وما جرى؟ قال نعم. قلت: فعلـيّ وعليّ إن كان فسا تلك الفَسَوات غيري. فضحِك حتى سقَط على قفاه وقال: ويلك! فلم لم تخبرني؟ قال فقلت: أردت بذلك خصالاً، منها أني قمتُ فقضيت حاجتي وقد كان رسولك منعني من ذلك. ومنها أني أخذتُ جاريتــك. ومنهـا أني كافأتك على أذاك لي بمثـله. قال: وأين الجارية؟ قلت: ما بَرِحتُ من دارك ولا خرجتُ حتى سلّمتها الى فلان الخادم وأخذتُ مائتي دينار. فسُرَّ بذلك وأمر لي بمــائتي دينار أخرى، وقال: هــذه لجميل فعلك فيّ وتركِكَ أخذَ الجارية. قال حمزة: ودخلتُ اليه يوماً وكان له غلام لم ير الناس أنتنَ إبطًا منــه. فقال لي: يا حمزة، سابِقْ غلامي هذا حتى يفوح صُنَانكما، فأيّكما كان صُنانه أنتن فله مائة دينار. فطمعتُ في المــائة ويئستُ منها لمــا أعلمــه من نَتْن إبط الغــلام؛ فقلت: أفعل. وتعادينا ساعةً فسبقني، فسلَحتُ في يدي ثم طليت إبطي بالسُّلاح، وقد كان عبد الملك جعل بيننا حكما؛ فلمّا

(١) كذا في الأغاني. وفي الأصل: «وماذا».   (٢) انضح، أي ادفع عنها.

دنا الغلام منه وشمّه وشب وقال : هذا والله لا يُشاكله شيء. فصِحت به : لا تعجَل عليّ بالحكم ، مكانك! ثم دنوت منه فألقمت أنفه إبطى حتى علمت أنه قد خالط دماغَه وأنا ممسك رأسه تحت يدى ؛ فصاح : الموت والله ! هذا بالكُنُف أشبه منه بالإبط . فضحك عبد الملك ثم قال: أحكمت له؟ قال نعم . فأخذت الدنانير.

قال : ودخلت يومًا على سليمان بن عبد الملك . فلما مَثَلت بين يديه قلت : ٥

رأيتُك فى المنام شنَنتَ خَزًّا(١) * علىّ بَنَفْسَجًا وقضيتَ دَيْنى

فصدِّقْ يافدتك النفسُ رؤيا * رأتها فى المنـام لديك عينى

قال سليمان : يا غلام ، أدخِله خزانةَ الكُسْوة وآشتُن عليه كلَّ ثوب خزّ بنفسجىّ ؛ فخرجتُ كأنى مِشْجبٌ(٢) . ثم قال : كم دَينك؟ قلت : عشرة آلاف ؛ فأمر لى بهـا وما أعلم والله أنّى رأيت من ذلك شيئا . ١٠

ذكر شيء من نوادر أبى العيناء عفا الله عنه

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان، من بنى حنيفة أهل اليمامة . وأُسِر ياسر فى سِباء فى خلافة المنصور. فلما صار فى يد المنصور أعتقه ؛ فهم موالى بنى هاشم . وكان أبو العينـاء ضرير البصر، يقال : إنّ جدّه الأكبر لقى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فأساء مخاطبته فدعا عليه وعلى ولده بالعمى ؛ فكلّ من عَمِى منهم فهو صحيح النسب . وهو ممن آشتهر بالمجون، وله نوادر وحكايات مستظرفة، ومراسلات عجيبة، سأورد منها طَرَفا، وأُسطّر طُرَفا . فمن ذلك : أنّ بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء، لو مُتَّ لرقص الناس طَرَباً وسرورا . فقال بديهةً : ١٥

أردتَ مذَمّتى فأجدتَ مَدْحِى * بحمد الله ذلك لا بحمدِكْ

---

(١) [illegible] (٢) المشجب : خشبات تنصب لتوضع عليها الثياب .

فلا تك واثقا أبدًا بعَمْـدٍ * فقد يأتى القضاءُ بغير عَمْدِكْ

ثم قال : أجل ! الناس قد ذهبوا، فلو رآنى الموتى لطربوا لدخول مثلى عليهم، وحلول عقلى لديهم، ووصول فضلى اليهم؛ فما زال الموتى يغبطونكم ويرحموننى بكم .

وقال : وآتصلت أشغال أبى الصَّقْر الوزير، فتأخر توقيعه عن أبى العيناء برسومه . فكتب اليه : رقعتى، أطال الله بقاء الوزير، رقعة مَنْ عَلِمَ شُغْلَك فاطَّرح عَذْلَك ؛ وحقَّق أمرك فبَسَط عُذْرَك . أمّا والليل اذا عسعس، فالبنان لبنات الدِّنان، ومُلامسات الحِسان ؛ وأمّا والصبح اذا تنفّس، فالبنان للعِنان، ومؤامرات السلطان؛ فمَنْ أبو العيناء القرنان[1] ! . فوقّع أبو الصَّقْر تحت سطوره : لكل طعام مكان، ولكل مُعْوِز إمكان؛ وقد وقّعنا لك بالرسوم، وجعلنا لك حظًّا من المقسوم؛ وكَفَينا أنفسَنا عُذْرَك الذى هو تعزير، ولسانك الذى هو تحذير . والسلام .

ثم لقيه أبو العيناء فى صدر موكبه فقال : طاعة شِيمَك لسلطان كَرَمك، ألزمتك الصبر على ذنوبى إليك، وتجنِّى خُلُقى عليك . فقال أبو الصقر : كبير حَسناتك، يستغرق يسير سيئاتك . فدعا له وآنصرف شاكرا . قال : وبسط أبو العيناء لسانه على أهله فى بعض الدواوين . فقال له فتى من أبناء الكُتّاب كانت فيه جرأة : كلّ الناس لك يا أبا العيناء زوجة، وأنت زوجة أبى علىّ البصير . فقال له أبو العيناء: قد ملكنا عِصْمتك بيقين فَحْواك، ثم ننظر فى شكوك دعواك، وقد طلّقت الناس كلهم سواك؛ ذلك أدنى ألّا تعول، وفيك ما يروى الفحول، ويتجاوز السول . قال : ففضحه بهذا الكلام، فلم يُجبه . قال : وكان فى بنى الجراح فتى خليع ماجن فأراد العبث بأبى العيناء؛ فنهاه نصحاؤه فأبى؛ فقالوا : شأنك . فقال له :

(١) القرنان : من لاغيرة له .

يا أبا العيناء، متى أسلمت؟ فقال : حين آمن أهلُك وأبوك الذين لم يؤدّبوك . فقال له الفتى : إذًا قــد علمتُ أنك ما أسلمت . فقــال أبو العيناء : شهادتُك لأهلك دعوى، وشهادتى عليهم بلوى، وسترى أىّ السلطانيــن أقوى . وأىّ الشيطانين أغوى؛ وسيعلم أهلُك، ما جنى عليهم جهلُك . قال : فأتاه أبوه فتبرّأ من ذِمّتــه، ودفعه اليه برُمّته . فقال له أبو العيناء : قد وهبتُ جورَه لعَذْلك ، وتصدّقتُ بحُمقه على عقلك . ٥

ومن أخبار أبى العيناء أيضا : أنّ محمد بن عبيد الله بن خاقان حمله على برذون زعم أنه غير فاره، فكتب الى أبيه : أَعلَم الوزير أعزّه الله تعالى أنّ أبا علىّ محمدا أراد أن يبرّنى فعقّنى، وأن يُركبنى فأرجلنى ! أمر لى بدابّة تقف للنبرة، وتعثُر بالبعرة، كالقضيب اليابس عَجَفا، وكالعاشق المجهود دَنَفا[(1)]؛ يساعد أعلاه لأسـفله، حُبَاقه[(2)] مقرون بسُعَاله؛ فلو أمسك لترجّيت، أو أفرَد لتعزّيت؛ ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مُرْشِد، أو شاعر مُنْشِد؛ تضحك من فعله النسوان، ويتناغى من فعــله الصبيان؛ فمن صائح يصيح : داوِه بالطباشير، ومن قائل يقول : نقِّ له من الشعير . قد حفظ الأشعار، وروى الأخبار، ولحق العلماء فى الأمصــار؛ فلو أُعِين بنطق، لروى بحقٍّ وصــدق ، عن جابر الجُعْفىّ، وعامر الشَّعْبىّ . وإنمــا أُتيتُ من كاتبه الأعور، الذى اذا آختار لنفسه أطاب وأكثر، وإذا آختار لغيره أخبث وأنزر . فإن رأى الوزير أن يُبدلنى ويريحنى بمركـوب يضحكنى كما يُضحَك منى، يمحو بحسنه وفراهته، ما سطّره العيب بقُبحه ودَمامته . ولست أردّ كرامةً، سرجَه ولجامَه؛ لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يُهديه، أو ينقض ما يمضيه . فوجّه اليــه عبيد الله برذوناً من براذينه بسَرْجه ولجامه. ثم آجتمع محمد ١٠ ١٥ ٢٠

(١) كذا بالأصل . (٢) الحباق : الضراط .

ابن عبيد الله عند أبيه . فقال عبيد الله لأبى العيناء : شكوتَ دابّة محمد، وقد أخبرنى
إنه ليشتريه منك الآن بمائة دينار، وما هذا ثمنه فلا يُشتَكى . فقال : أعزّ الله الوزير
لو لم أكذب مستزيدا، لم أنصرف مستفيدا . وإنى وإياه لكما قالت آمرأة العزيز:
(ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ). فضحك عبيد الله
٥ وقال : حجّتك الداحضة ، بملاحتك وظَرْفك أبلغ من حجة غيرك البالغة . ودخل
أبو العيناء على أبى الصَّقْر وكان قد تأخّر عنه، فقال: ما أخّرك عنا؟ قال: سُرِق حمارى .
قال: وكيف سرق ؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك . قال : فلم لم تأتِ على غيره؟
قال : أبعدنى عن الشراء قلّة يسارى ، وكرِهت ذِلّة المُكارى ، ومنّة العوارى . قال:
وصار يوما الى باب صاعد بن مَخْلَد ، فقيل له : هو مشغول يصلّى ؛ فقال: لكلّ جديد
١٠ لذّة . وكان صاعد نَصْرانيا قبل الوزارة . وقال له صاعد يوما : ما الذى أخّرك عنّا ؟
قال : بنتى . قال : وكيف؟ قال : قالت لى : يا أبت ، قد كنت تغدو من عندنا فتأتى
بالخِلْعة السَّرِيّة ، والجائزة السنيّة، ثم أنت الآن تغدو مُسْدِفاً ، وترجع مُعْتِما، فإلى من؟
قلت : إلى أبى العلاء ذى الدرايتين . قالت : أيُعطيك؟ قلت : لا . قالت : أفيشفّعك؟
قلت : لا . قالت : أيرفع مجلسك؟ قلت : لا . قالت : يا أبت لِم تَعبُد ما لا يسمع
١٥ ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئا ! .

وقال له رجل من بنى هاشم : بلغنى أنك بغّاء . قال : ولم أنكرت ذلك مع
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مولى القوم منهم"؟ قال : إنك دعىّ فينا .
قال : بِغائى صحّح نسبى فيكم . وسأل أبو العيناء الجاحظَ كتابا الى محمد بن عبد الملك
فى شفاعة لصاحبٍ له ، فكتب الكتاب وناوله الرجل ، فعاد به الى أبى العيناء وقال:
٢٠ قد أسعف . قال : فهل قرأته؟ قال: لا ، لأنه مختوم . قال : ويحك! فُضّه لا يكون
صحيفةَ المتلمّس . ففضّه فاذا فيه : مُوَصِّل كتابى سألنى فيه أبو العيناء، وقد عرفتَ

سفهه و بذاء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلا . فإن أحسنت اليه فلا تحسبه علىّ يدا،
و إن لم تحسن اليه لم أعُدّه عليك ذنبا، والســلام . فركب أبو العيناء الى الجاحظ
وقال له : قد قرأتُ الكتاب يا أبا عثمان . فخجِل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء، هذه
علامتى فيمن أعتنى به . قال : فإذا بلغك أنّ صاحبى قد شتمك فآعلم أنهـا علامته
فيمن شكر معروفه. وقال أبو العيناء: مررت يوماً بدرب بسامَرّاء، فقال لى غلامى: ٥
يا مولاى،فى الدرب حَمَل سمين والدرب خال. فأمرته أن يأخذه وغطّيته بطيلَسانى
وصرتُ به الى منزلى. فلما كان من الغد جاءتنى رُقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب
مكتوب فيها : جُعلت فداك، ضاع لنا بالأمس حَمَل، فأخبرنى صبيان دَرْبنا أنك
أنت سَرَقته، فأْمُرْ بردِّه متفضِّلا . قال أبو العيناء : فكتبت اليه : أى سبحان الله!
ما أعجبَ هــذا الأمر! مشايخ دَرْبنــا يزعمون أنك بَغّاء وأُكذّبهم ولا أُصــدّقهم، ١٠
وتصدّق أنت صبيانــ دربكم أنى سرقت الحمــل! . قال فسكت وما عاودنى .
ولأبى العيناء أخبار كثيرة وحكايات مشهورة قد أوردنا منها ما يدخل فى هذا الباب
وتركنا ما سواه .

ذكر ما ورد فى كراهة المزح

رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "مَنْ مَزَح آستُخِفَّ به" . ١٥
وقال حكيم : خير المزاح لا يُنــال ، وشرّه لا يُقــال؛ سكرات الموت به مُحدقة ،
وعيون الآجال اليــه محدِّقة . وقال آخر : تجنّب شؤم الهزل ونكد المزاح؛ فإنهـما
بابان إذا فُتحا لم يُغْلَقا إلا بعــد عسر ، وفحلان إذا لَقَحا لم ينتجا غير ضُرّ . وقالوا :
المُزاح يضع قدر الشريف، ويُذهب هيبــة الجليل . وقالوا : لا تقــل ما يسوءك
عاجله، ويضرّك آجله . وقالوا : إيّاك وما يُستقبَح من الكلام ، فإنه يُنَفّر عنــك ٢٠

الكرام، ويُجسّر عليك اللئام . وقال عمر بن عبد العزيز : اتّقوا المزاح ، فإنها حَمْقة تورث ضغينة . وقال حكيم لابنه : يا بنىّ، إياك والمزاح؛ فإنه يذهب ببهاء الوجه ويحطّ من المروءة . قال شاعر :

إِكْرَهْ لنفسك ما لغيرك تكْرَهُ * وافعل لنفسك فعلَ من يتنزّهُ

وارفَع بصمتك عنك سُبَّاتِ الورى * خوفَ الجواب فإنه بك أشبَهُ

ودع الفكاهةَ بالمزاح فإنها * تُودى وتُسقط مَنْ بها يتفكّهُ

وقيل :

ألَا ربَّ قولٍ قد جرى من ممازحٍ * فساق اليه الموتَ فى طَرَف الحبل

فإنّ مزاحَ المرء فى غير حينه * دليلٌ على فرط الحماقة والجهل

وقيل :

فإياك إيّاك المزاحَ فإنه * يُجَرِّى عليك الطفلَ والرجلَ النَّذْلا

ويُذهِبُ ماءَ الوجه بعد بهائه * ويورثُ بعد العزّ صاحبَه ذُلّا

وقال بعض البلغاء : المزاح خَرَف، والاقتصاد فيه ظَرْف، والإفراط فيه ندامة. وقالوا : من كثر مزحه لم يسلم من استخفاف به أو حقد عليه . ويقال : أكثر أسباب القطيعة المزاح . وإن كان لا غنى للنفس عنه لجَمام[1] ، فليكن بمقدار الملح فى الطعام . قال أبو الفتح البستىّ رحمه الله :

أفِدْ طبعَك المكدودَ بالهمّ راحةً * تراحُ وعلّله بشىءٍ من المزحِ

ولكن إذا أعطيته المزحَ فليكن * بمقدار ما يُعطَى الطعامُ من الملح

(١) الجمام (بالفتح) : الراحة .

وقيـــل :

اِمزَحْ بمقدار الطلاقة واَجتنب * مزحًا تضاف به الى سوء الأدَبْ

لا تُغضِـبنَّ أخًا إذا مازحتَـــه * إن المزاح على مقـدّمة الغضَبْ

وقيـــل :

مازح صديقك ما أحبَّ مزاجا * وتوقَّ منـه فى المـزاح جِمـاحا ٥

فلربمـا مَزَح الصـديقُ بمزحةٍ * كانت لبـدء عداوةٍ مفتـاحا

وقال سعيد بن العاص لولده : يابُنىَّ ، اِقتصد فى مزحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب البهاء ، ويُجَرِّئ السفهاء . ويقال : المزاح أوّله فَرَح ، وآخره تَرَح . قال أبو العتاهية :

وترى الفتى يَلقَى أخاه وخِدْنَهُ * فى بعض مَنطِقه بمـا لا يُغفَـر

ويقـول كنتُ ملاعباً وممازحاً * هيهات ! نارُك فى الحشا تتسعّرُ ١٠

ألقيتها وطَفِقتَ تضحك لاهياً * وفـــؤادُه ممـا به يتفطّـــرُ

أوماعلمتَ ومثلُ جهلك غالبٌ * أنّ المزاح هو السِّبابُ الأكبرُ

فهذه نبذة مما قيل فى الفكاهات والمجون ، يفرح لها قلب المحزون ، وتزول عنه الشجون . فلنذكر ما قيل مما يناسب هذا الباب من أشعار المزّاحين .

ذكر شىء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه ١٥

وسنورد فى هذا الفصل من أشعار هذا الفن ، ما رَفَلت معانيه فى حُلَل أنفاسها على صفحات أطـراسها ، وأهِلت مغانيـه بما أودعه لسانُ القلم صدرَ قرطاسها من بديع إيناسها . يُضحك سامعَه وإن كان ثَكِلا . ويستوفيه وإن كان عَجِلا . هذا مع ما فيه من فُحْش القول الذى إذا تأمّلتـه فى موضـعه كان أزين من عقود اللآلى ،

وإن لمحتبسه فى غيره كان أقفر من ظُلَم الليالى . نسأل الله المسامحة لكاتبه وقائله، ومستمعه وناقله . فمن ذلك ما كتب به ابن حجاج لمن شرب دواء :

يا أبا أحمد بنفسيَ أفديـ * ـك وأهلى من سائر الأسواءِ
كيف كان انحطاطُ جَعْسك[1] فى طا * عة شرب الدواء يوم الدواءِ
٥ كيف أمسى سِبالُ مبعَرك النَّدْ[2] * ل غريقا فى المرّة الصفراء

وقال الحسن بن هانئ :

لَلَطمةٌ يلطمنى أمردٌ * تأخذ منّى العين والفكّا
أطيبُ من تُفّاحة من يدَىْ * ذى لحية محشوّة مسكا

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن الحجاج :

١٠ قُومِى تنحَّىْ فلستِ من شانى * قُومِى اذهبى لا يراكِ شيطانى
لا كان دهرٌ عليك حصّنَنى * ولا زمانٌ اليك ألجانى
قعدتِ تفسين فوق طِنفستى * ما بين راحى وبين ريحانى
فما عدِمنا من الكنيف وقد * حضَرتِ إلا بناتِ وَرْدانِ[3]

وقال أبو بكر محمد الخوارزمىّ :

١٥ فسا الشيخ سهوًا وفى كفّه * شرابٌ فلُمْناه لومًا قبيحا
فقال لِىَ الدخلُ والخرجُ لِى * فأدخلتُ راحا وأخرجتُ ريحا

وقال ابن سكّرة الهاشمىّ :

وبات فى السطح معى صاحبٌ * من أكرم الناس ذوى الفضل
أفسو فيفسو فهو لى مُسعِدٌ * وإنما أُملِى ويَستملى

٢٠ (١) الجعس : الرجيع . (٢) الندل : الوسخ .
(٣) بنات وردان : دواب حمراء اللون وأكثر ما تكون فى الحمامات وفى الكنف .

البـاب الرابع
من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

فى الخمر وتحريمها وآفاتها وجناياتها وأسمائها، وأخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة، ومن حُدّ فيها من الأشراف، ومن آشتهر بها، ولبس ثوب الخلاعة بسببها، وما قيل فيها من جيّد الشعر، وما قيـل فى وصف آلاتها وآنيتها، وما قيل فى مبادرة اللذّات، وما وُصفتْ به المجالس وما يجرى هذا المجرى ٥

ذكر ما قيل فى الخمر وتحريمها

أجمع الناس على أنّ الخمر المحرَّمةَ فى كتاب الله عزّ وجلّ هى المتَّخَذة من عصير العِنب بعد أن يَغلِي ويقذف بالزَّبَد من غير أن يمسّها نارٌ. واذا آنقلبت بنفسها وتخلّلت طهُرت من غير أن يُتسبّب فى ذلك بشىء يُلقَى فيها. وطهارتها إذا غلبت عليها ١٠ الحموضةُ وفارقتها النشوة. والخمر المتَّخَذة أيضا من التمر، لقول النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه: «الخمر من هاتين الشجرتين النخلةِ والعنبةِ». وفى حديثٍ آخرَ: «من هاتين الشجرتين الكَرْمةِ والنخلةِ». وعن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت عمر رضى الله عنه على منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أمّا بعد، أيها الناس: إنه نزل تحريمُ الخمـر وهى من ١٥ خمسـةٍ، من التمر والعنب والعسل والحنطة والشعير». والخمر ما خامر العقـلَ. ولا خلاف بين أحدٍ من الأئمة فى أن الخمـر حرام، لمـا ورد فى ذلك من الكتاب والسنة. أما ماورد فى كتاب الله عزّ وجلّ فأربع آيات، منها مايقتضى الإباحة، ومنها مايقتضى الكراهة والتحريم. فأوّل مانزل فيها بمكة قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَمِنْ

(٨٢) ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا). فكان المسلمون يشربونها يومئذ وهى حلالٌ لهم . ثم أنزل الله عزّ وجلّ بالمدينة : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) نزلت هذه الآية فى عمر بن الخطّاب ومعاذ بن جبل ونفرٍ من الأنصار أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، أفتنا فى الخمر والميسر فإنهما مَذْهَبَةٌ للعقل مَسْلَبَةٌ للمال ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن ربكم تقدّم فى تحريم الخمر» . فتركها قوم للإثم الكبير وقالوا : لاحاجة لنا فى شربها ولا فى شيء فيه إثم كبير ، وشربها قومٌ لقوله تعالى : (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) . وكانوا يستمتعون بمنافعها ويتجنّبون مآثمها ؛ الى أن صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعا ناسا من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا وحضرت صلاة المغرب ، فقدّموا بعضهم ليصلّى بهم ؛ فقرأ قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون الى آخر السورة بحذف "لا" فأنزل الله عزّ وجلّ . (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) فحرّم السكر فى أوقات الصلاة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن الله عزّ وجلّ تقارب فى النهى عن شرب الخمر وما أراه إلا سيحرّمها . فلما نزلت هذه الآية تركها قومٌ ، وقالوا : لا خير فى شيء يحول بيننا وبين الصلاة . وقال قوم : نشربها ونجلس فى بيوتنا ؛ فكانوا يتركونها وقت الصلاة ويشربونها فى غير حين الصلاة ؛ الى أن شربها رجلٌ من المسلمين ، فجعل ينوح على قتلى بدرٍ ويقول :

تُحيّا بالسلامة أمُّ بكرٍ * وهل لى بعد رهطك من سلامِ

ذَريِنى أصطبحْ بِكْرًا فإنى * رأيت الموت نَقّبَ عن هِشامِ

ووَدّ بنو المُغيرة لو فدَوْهُ * بألفٍ من رجالٍ أو سَوامِ

فى أبيات أخر . فبلغ ذلك رســول الله صلّى الله عليه وســلّم ، فجاء فَزِعا يجرّ رداءه حتى ٱنتهى اليه ، ورفع شيئًا كان فى يده ليضرب به؛ فلما عاينه الرجل قال : أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله ، والله لا أطعَمها أبدا؛ ثم نزلت آية التحريم وهى قوله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ . ورُوى أن هذه الآية نزلت فى شأن حمزة بن عبد المطّلب ، وكان نزولها وتحريم الخمر فى شهر ربيع الأوّل سـنة أربع من الهجرة .

وكان من خبر حمزة بن عبد المطّلب مارواه مسلم بن الحجاج بن مسلم فى صحيحه عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : أصبتُ شارفًا(١) مع رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم فى مَغْنَم يوم بدر ، وأعطانى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم شارفًا أخرى من الخُمُس . قال علىّ : فلما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واعدتُ رجلا صَوّاغا من بنى قَيْنُقَاع(٢) يرتحل معى فنأتى بإذْخِر(٣) أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به على وليمة عُرْسى . فبينا أنا أجمع لشارفىّ متاعًا من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاى مُناختان الى جنب حُجرة رجل من الأنصار ورجعت حين جمعتُ ما جمعتُ ، فاذا شارفاى قد ٱجتُبَّتْ أسنمتهما وبُقِرت خواصرهما وأُخِذ من أكبادهما، فلم أملِك نفسى حين رأيت ذلك المنظر منهما [أن](٤) قلت : مَنْ فعل هذا؟ قالوا : فعله حمزة بن عبد المطلب وهو فى هـذا البيت فى شَرْبٍ من الأنصار، غنّته قَيْنة وأصحابَه، فقالت فى غنائها :

* أَلَا ياحمزَ للشُّرُفِ النِّوَاءِ *

(١) الشارف : المسنة الهرمة من النوق .

(٢) بنو قينقاع (بفتح القاف وتثليث النون) : شعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة .

(٣) الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٤) زيادة يقتضيها السياق .

— لم يذكر مسلم فى صحيحه من الشعر غير ماذكرناه . والأبيات التى غنت بها :

ألا يا حمز للشُّرُف[1] النّواءِ * وهنّ معقّلاتٌ بالفناءِ

ضع السكّين فى اللّبّات منها * فضرّجهُنّ حمزةُ بالدماءِ

وعجّل من شرائحها كباباً * ملهوجةً[2] على وهج الصّلاءِ

وأصلح من أطايبها طبيخًا * لشَرْبك من قديدٍ أو شواءِ

فأنت أبا عمارةٍ المُرَجّى * لكشف الضرّ عنها والبلاءِ

— فقام حمزةُ بالسيف فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما .

فقال علىّ : فانطلقت حتى أدخل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده زيد بن حارثة . قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهى الذي لقيت ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : " مالك "؟ قلت : يارسول الله ، ما رأيت كاليوم قط ، عدا حمزةُ على ناقتىّ فاجتبّ أسنمتهما وبقر خواصرهما وها هو ذا فى بيت معه شَرْبٌ . فدعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بردائه فارتداه ثم انطلق يمشى واتّبعته أنا وزيد بن حارثة حتى جاء الباب الذى فيه حمزةُ ، فاستأذن فأذنوا له ، فإذا هم شَرْبٌ ، فطفِق رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوم حمزةَ فيما فعل وإذا حمزةُ محمّرةٌ عيناه ، فنظر حمزةُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعّد النظر الى ركبتيه ثم صعّد النظر الى سرّته ثم صعّد النظر فنظر الى وجهه ، فقال حمزة : وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبى ! فعرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه ثَمِلٌ ، فنكص رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عقبيه القَهْقرى وخرج وخرجنا معه . وفى حديث آخر : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال لعلىّ : "إنّ عمّك قد ثَمِلَ وهما لك علىّ" فغرِمهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

(١) الشرف : جمع شارف وهى الناقة المسنة كما تقدّم قريبا .

(٢) ملهوجة : غير ناضجة .

لعلىّ . فلما أصبح حمزة غدا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعتذر . فقال : "مَهْ ياعمِّ فقد سألتُ الله فعفا عنك" . قالوا : وآتخذ عتبان بن مالك صنيعًا ودعا رجالًا من المسلمين ، منهم[1] سعد بن أبى وقّاص ، وكان قد شوَى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتى أخذت منهم ، ثم إنهم آفتخروا عند ذلك وآنتسبوا وتناشدوا الأشعار ، وأنشد سعد قصيدةً فيها هجاء الأنصار وفخرٌ لقومه ، فقام رجلٌ من الأنصار فأخذ لَحْيَ البعير فضرب به رأس سعد فشجّه شجّةً مُوضِحةً . فانطلق سعدٌ الى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وشكا اليه الأنصار . فقال عمر رضى الله عنه : اللهم بيِّنْ لنا رأيك فى الخمر بيانا شافيًا ، فأنزل الله عزّ وجلّ تحريم الخمر فى سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ الآية الى ﴿ مُنْتَهُونَ ﴾ . فقال عمر : انتهينا ياربِّ . وقيل : إنها حُرِّمت بعد غزوة الأحزاب بأيام فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة . والله أعلم .

قال أنس رضى الله عنه : حُرِّمتْ ولم يكن للعرب يومئذ عيشٌ أعجبُ منها ، وما حُرِّم عليهم شيء أشدُّ من الخمر . قال : فأخرجنا الحِبابَ الى الطريق فصببنا ما فيها ، فمنّا من كسر حُبَّه ، ومنّا من غسله بالماء والطين ، ولقد غودرت أزقّة المدينة بعد ذلك حِينًا ، كلّما مُطِرت آستبان فيها لون الخمر وفاحت ريحها .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : كنتُ ساقى القوم يوم حُرِّمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وما شرابهم إلا فَضِيخ[2] البسر والتمر ، فاذا منادٍ ينادى ، فقال القوم : أُخرج فآنظر ، فاذا منادٍ ينادى : ألَا إنّ الخمر قد حُرِّمَتْ ، قال : فجَرَت فى سكك المدينة . فقال لى أبو طلحة : أُخرجْ فأَهْرِقها فهرقتُها . فقالوا أو قال بعضهم : قُتِل فلان ! قُتِل فلان ! وهى فى بطونهم ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ .

(١) فى الأصل : «فنهم» . (٢) الفضيخ : نبيذ يعمل من البسر والتمر .

*
* *

وأما ماورد فى تحريمها فى كتاب الله وبيّنته السُّنَّةُ، فالأحاديث متضافرة فى تحريمها . فمن ذلك ما رُوى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : « من مات وهو مدمنُ خمرٍ لقى الله وهو كعابدِ وثن » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايدخل الجنة مدمنُ خمرٍ » . وأمّا من زعم أنها تباح للتّداوى بها فيردّ عليه ذلك ما صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طارق بن سويد الجُعْفىّ سأل النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها، وقال : إنما أصنعها للدواء؛ فقال : «إنها ليست بدواء ولكنه داء» . وعنه صلّى الله عليه وسلّم وقد سأله رجل قدِم من جَيشان (وجَيشان من اليمن) فسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذّرة يقال له المِزْر؛ فقال النبىّ صلّى الله عليه وسلّم : « أَوَمُسْكِرٌ هو» قال نعم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكر حرام إن على الله عهدًا لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال » . فقالوا : يا رسول الله، وما طينة الخبال ؟ قال : « عَرَقُ أهل النار » . وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مسكرٍ خمرٌ وكلّ مسكرٍ حرامٌ ومَنْ شربَ الخمرَ فى الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتب لم يشربها فى الآخرة » وفى لفظ : « حُرِمَها فى الآخرة فلم يُسقَها» وفى لفظ : «إلا أن يتوب» . وعن عبد الله بن عبّاس رضى الله عنهما قال : حُرِّمتِ الخمر قليلها وكثيرها وما أسكر من كلّ شراب . وعنه رضى الله عنه : من سرّه أن يُحرِّم ماحرّم اللهُ ورسولُهُ فليحرّم النبيذ . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : « لا يزنى الزّانى حين يَزْنى وهو مؤمن ولا يشرب الشارب حين يشرب وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أخرجه البخارىّ فى صحيحه والله سبحانه وتعالى أعلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ذكر ما قيل فى إباحة المطبوخ

والمطبوخ يسمّى الطِّلاء وهو الذى طُبِخَ حتى ذهب ثُلُثاه وبقى ثلثه . سُمِّىَ بذلك لأنه شبيه بِطِلاءِ الإبل فى ثِخَنِه(1) وسواده . وقد آختلف العلماء فى المطبوخ، فقال بعضهم : كلّ عصيرٍ طُبِخَ حتى ذهب نصفه فهو حلالٌ إلا أنه يُكْرَه ، وإن طُبِخَ حتى ذهب ثلثاه وبقى ثلثه فهو حلالٌ مباحٌ شربُه وبيعُه إلا أن السكر منه حرام . وحجتهم فى ذلك ماروى : أن عمر بن الخطّاب رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله : أن آرزق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعن عبد الله بن يزيد الخطمىّ قال : كتب الينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أمّا بعد، فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فى عود الكَرْم ، فإن له اثنين ولكم واحد . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه : أنّ نوحا عليه السلام لمّا نازعه الشيطان فى عود الكرم فقال : هذا لى، وقال : هذا لى؛ فاصطلحا على أن لنوح ثلثها وللشيطان ثلثيها . وسئل سعيد بن المسيّب : ما الشراب الذى أحلّه عمر رضى الله عنه ؟ فقال : الذى يطبخ حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه . وحكى أن أبا موسى الأشعرىّ وأبا الدرداء كانا يشربان من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وعلى الجملة فجموع هذه الأخبار فى مُثَلَّث(2) لم يسكر البتة . ودليل ذلك ماحُكِى عن عبد الله بن عبد الملك ابن الطفيل الخزرجىّ قال : كتب الينا عمر بن عبد العزيز : ألّا تشربوا من الطِّلاء حتى يذهب ثلثاه ويبقى ثلثه، وكلّ مسكرٍ حرامٌ . هذا الذى عليه أكثر العلماء . وقال قوم : اذا طُبِخَ العصيرُ أدنَى الطبخ صار حلالا، وهو قول إسماعيل بن عُلَيّة

(1) الثخن : الغلظ .

(2) المثلث من الشراب : الذى طبخ حتى ذهب ثلثاه .

و بشر المرِّيسىّ وجماعة من أهل العراق . وذهب بعضهم الى أن الطِّلاء الذى رُخِّص فيه إنما هو الرُّبُّ[١] والدِّبْس . والله عزّ وجلّ أعلم .

ذكر آفات الخمر وجناياتها

وآفات الخمر وجناياتها كثيرة، لأنها أمّ الكبائر . وأوّل آفاتها أنها تُذهِب العقلَ، وأفضل ما فى الإنسان عقلُه، وتحسّن القبيحَ وتقبّح الحسَنَ . قال أبو نُوَاس الحسن ابن هانئ عفا الله عنه ورحمه وغفر له ما أسلف :

اسقنى حتى ترانى * حَسَنًا عندى القبيحُ

وقال أيضا :

اسقنى صِرْفًا حُمَيّا * تترك الشيخَ صبيّا

وتريه الغَىّ رُشْدًا * وتُريه الرُّشد غَيّا

وقال أبو الطيّب :

رأيتُ المُدامةَ غلّابةً * تُهيّج للمرء أشواقَهُ

تسىء من المرء تأديبَه * ولكن تُحسّن أخلاقَهُ

وأنفَسُ ما للفتى لُبُّهُ * وذو اللبّ يكره إنفاقَهُ

وقد مُتُّ أمس بها مِيتةً * وما يشتهى الموتَ مَنْ ذاقَهُ

قالوا : و إنما قيل لمُشارب الرجل نديمٌ، من الندامة ؛ لأن الرجل معاقر الكأس اذا سكر تكلّم بما يندَم عليه وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه «نادَمه» لأنه فعل مثل فعله فهو نديم له، كما يقال : جالسه فهو جليس له . والمعاقر : المدمن، كأنه لزِم عُقْرَ الشىء أى فِناءه . وقد شُهِر أصحابُ الشراب بسوء العهد وقلّة الحفاظ،

(١) الرب : ما يطبخ من التمر، أو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها . والدبس : عسل التمر .

وقالوا : صاحب الشراب صديقك ما آستغنيتَ عنه حتى تفتقر، وما عُوفيت حتى تُنْكَب، وما غَلَت دِنانُك حتى تُنْزَف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك. قال بعض الشعراء عفا الله تعالى عنه :

أرى كلّ قومٍ يحفَظون حريمهم * وليس لأصحابِ النّبيذ حريمُ
اذا جئتَهم حيَّوْك ألفًا ورحَّبوا * وإنْ غبتَ عنهم ساعةً فذميمُ ٥
إخاؤهُمُ مادارت الكأسُ بينهم * وكلّهُمُ رَثُّ الوصال سئومُ
فهذا بيانى لم أقل بجهالةٍ * ولكنني بالفاسقين عليمُ

قيل : سقى قومٌ أعرابيّةً مسكرا، فقالت : أيشرب نساؤكم هذا الشراب ؟ قالوا نعم . قالت : فما يدرى أحدُكم مَنْ أبوه . وقال قُصَيّ بن كلاب لبَنِيه : اِجتنبوا الخمر فإنه يصلح الأبدان ويفسد الأذهان . وقيل لعدىّ بن حاتم : مالك ١٠ لاتشرب النبيذ؟ قال: معاذ الله! أُصبحُ حليمَ قوم وأُمسى سفيههم . وقيل لأعرابىّ : مالك لا تشرب النبيذ؟ قال : لا أشرب ما يشرب عقلى . وقيل لعثمان بن عفّان : ما منعك من شرب الخمر فى الجاهليّة ولا حرج عليك؟ قال: إنى رأيتها تُذهِب العقل جملةً وما رأيت شيئا يَذهَب جملةً ويعود جملة . وقال عبد العزيز بن مروان لنُصَيب آبن رَباح : هل لك فيما يُثمر المحادثة ؟ يريد المنادمة، فقال : أصلح الله الأمير ! ١٥ الشّعْرُ مفلفلٌ واللون مُرْمَدٌّ ، ولم أقعد اليك بكرم عنصر ولا بحسن منظَر ، وإنما هو عقلى ولسانى؛ فإن رأيت ألّا تفرّق بينهما فافعل . ودخل نُصَيبٌ هذا على عبد الملك آبن مروان فأنشده فاستحسن عبدُ الملك شِعْرَه فوصله؛ ثم دعا بالطعام فطَعِم معه. فقال له عبد الملك: هل لك [أن](١) تُنادِم عليه؟ قال: يا أمير المؤمنين، تأمّلْنى. قال: قد أراك . قال : يا أمير المؤمنين، جلدى أسود وخَلْق مشوّه ووجهى قبيح ولست ٢٠

(١) زيادة يقتضيها السياق .

فى منصب ، وإنما بلغ بى مجالستَك ومؤاكلتَك عقلى، وأنا أكره أن أُدخل عليه ماينقُصُه . فأعجبه كلامه وأعفاه .

وقال الحسن : لوكان العقل عَرَضا لتغالى الناسُ فى ثمنه ؛ فالعجب لمن يشترى بماله شيئا ليشربه فيُذهب عقله ! .

٥ وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج بن يوسف فى وَفْدة وفدها عليه وقد أكلا: هل لك فى الشراب؟ قال: ياأمير المؤمنين، ليس بحرام ماأحللتَ، ولكن أمنع أهل عملى،وأكره أن أخالف قول العبد الصالح(١) وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقالوا : للنبيذ حدّان ، حدّ لا همّ معه ، وحدّ لا عقلَ معه ؛ فعليك بالأوّل ١٠ واتّق الثانى .

ومن آفات الخمر ٱفتضاح شاربها بريحها عند من يَحْتشم منه ويتّقيه ويخافه فلا يستطيع مع وجود ريحها إنكارَ شربها . والوُلاة تَحُدّ بالاستنكاه؛ لأن خُمَارها يثبت فى الفم اليوم واليومين بعد تركها . فمن شربها ساعةً وهو يحتشم من الناس أن يظهر ذلك عليه ٱحتاج الى الانقطاع فى بيته بعد زوال السكر وأَوْبة العقل حتى ١٥ تزول الرائحة . وقد تحايل الذين يشربون الخمر على قطع ريحها من الفم وعالجوا ذلك بأدوية صنعوها يستعملونها بعد شربها . فأجود ماصنعوه من هذه الأدوية أن يؤخذ من المر والبسباسة(٢) والسُّعْد(٣) والجَنَاح(٤) والقَرَنْفُل أجزاءً متساوية وجزءان من الصمغ، ويُدَقّ

(١) هو شعيب عليه السلام . (٢) البسباسة : قشر جوزة الهند .
(٣) السعد : نبات له أصل تحت الأرض أسود طيب الرائحة .
٢٠ (٤) الجناح : نبات طيب الرائحة ، ويقال له : "الراسن" .

ذلك ويجبل[1] بماء الورد ويستعمل منـه فإنه يقطع رائحة الخمر من الفم، كما زعموا.
وقد نظم بعض الشعراء هذه المفردات فى أربعة أبيات فقال :

مُرٌّ وبسباسةٌ وسُـــعدٌ * الى جَنَـاحٍ وماءِ وَردِ
ينظمها الصمغُ إن تلاه * قَرنفُل الهند نظم عِقـدِ
أجزاؤها كلّها ســـواءٌ * والصمغ جزآن، لا تعدّى
فيـــه لذى مِرّةٍ شفاءٌ * وصونُ عِرضٍ وحفظ ودّ ٥

ذكر أسماء الخمر من حين تُعصَر الى أن تُشربَ

الخمر اذا عُصِرَ فاسم ما يسيل منه قبـــل أن تطأه الرجل : السُّلَاف؛ وأصله من السَّلَف وهو المتقدّم من كلّ شيء، وهو فى مثل ذلك الخُرطوم أيضا. ويقال للذى يعصر بالأقدام : العصير، والموضع الذى يُعصَر فيه : المَعصرة. والنَّطْل: ما عُصِرَ ١٠ فيه السلافُ؛ ويقال للعاصر: الناطِل، ثم يُترَكُ العصيرُ حتى يغلى فاذا غلا فهو خمر، وقيل : سمّيت خمرا لأنها تخامر العقول فتخالطها . وقالوا : لأنها تُخْمَرُ فى الإناء، أى تُغطَّى وهى مؤنثة . ويقال لها : القهوة، لأنها تُقْهِى عن الطعام والشراب، يقال : أقهى عن الطعام وأقهم عنه اذا لم يشتهه . ومن أسمائها : الشَّـــمول، سمّيت بذلك لأن لها عَصْفة كعصفة الشَّمال، وقيل : لأنها تشمَل القومَ بريحها. ومنها : السُّلَاف ١٥ والسُّلافة والخرطوم وقد تقدّم معناها . ومنهـا : القَرْقَف لأن شاربها يُقَرقِف اذا شربها، أى يَرْعد، يقال: قَرْقَفَ وقَفْقَفَ . وقال أبو عمرو : القرقف آسم للخمر غير صفة وأنكر قولهم سمّيت بها لأنها تُرْعِد . ومنها : الراح لأنها تكسب صاحبها الأريحيّة أى خفة العطاء . ومنها : العُقَار لأنها عاقرت الدّنّ ، وقيل : لأنها تعقِر شاربَها

(١) يجبل : يرش .

من قول العرب : كلأ بنى فلان عقار، أى يعقر الماشية . ومن أسمائها : المُدامةُ والمدام لأنها داومت الظّرف الذى آنتُبِذت فيه . والرحيق ومعناه الخالص من الغش . وقيل : الصافى . وقيل : العتيق . والكميت سمّيت بذلك للونها اذ كانت تضرب الى السواد . والجِرْيال وهو صِبغٌ أحمرُ سمّيت بذلك للونها أيضا . والسبيئةُ والسِّباء وهى المشتراة وأصلها مَسْبوءة، يقال : سبأتُ الخمر اذا آشتريتها . والمشعشعة وهى الممزوجة . والصهباء وهى التى عُصِرَتْ من العنب الأبيض . والشَّموسُ شبّهت بالدابّة التى تجمح براكبها . والخَندريس وهى القديمة . والحانيّة : منسوبة الى الحانة . والماذيّة : اللينة يقال : عسل ماذىّ اذا كان ليّنا . والعانيّة : منسوبة الى عانة . والسُّخامية : اللينة من قولهم : قطن سُخَامٌ أى ليّن وثوبٌ سُخَامٌ . قال الراجز :

كأنه بالصَّحْصَحان[1] الأنجلِ * قطنٌ سُخَامىّ بأيدى غُزَّلِ

والمَزّةُ والمُزّاءُ لطعمها . والإسفَنْط، قال الأصمعىّ : هو بالرومية . والغرب ومعناه الحدّ، وغَرْبُ كلّ شىء حدّه . ولعلها سمّيت بذلك لحدّتها . والحُمَيّا، وحُمَيّا كلّ شىء سَوْرته وحدّته . والمُصْطارُ : الخلّة ويقال : المُضْطار بالضاد أيضا . والخَمْطَةُ : المتغيّرة الطعم . والمعتّقة : التى قد طال مكثها . والإثم : اسم لها لعله وقع عليها لما فى شربها من الإثم . والحمق كذلك . قال الشاعر :

شربتُ الإثم حتى ضلّ عقلى * كذاك الإثم يفعل بالعقولِ

والمُعْرَق : الممزوج قليلا، يقال : عَرَقٌ من ماء أى ليس بكثير . ومن أسمائها : القِنْديدُ والفَيْهجُ وأمّ زَنْبق والمَقطَّب والطَّوْس والسَّاسَال والسَّلسَل والزَّرْجُون والكَلْفاء والجِرْباء والعانسة والطّابَةُ والتّأجود والكأس والطِّلاء، قال عَبِيدُ بن الأبرص :

(١) الصحصحان : ماآستوى من الأرض . والأنجل : الواسع .

(٤٢)

هي الخمر صرفا تكنّى الطلا[(١)] * كالذئب يُسمَى أباجعدةِ

والباذَق والبُخْتُجُ : فارسيّان . والجَهْوَرِيّ . والمَقَدِيّ منسوبة الى قرية من قُرَى الشام . والمزاء من قولك : هذا أَمْزَى من هذا أى أفضل . والنبيذ . والبِتْعُ : نبيذ العسل والسُّكُرْكَةُ من الذرة . والجِعَة من الشعير . والفَضِيخ من البسر . والمِزْر من الحبوب

ذكر أخبار من تنزّه عنها فى الجاهليّة وتركها ترفّعا عنها ٥

كان ممن تركها فى الجاهلية عثمان بن عفان رضى الله عنه وعبد المطلب بن هاشم وعبدالله بن جُدعان التيمىّ وكان سيّدا جوادا من سادات قريش ، وسبب تركه لها أنه شرب مع أميّة بن أبى الصلت الثقفىّ فأصبحت عين أميّة مخضرّة نخاف عليها الذهاب ، فسأله عبد الله : مابال عينك ؟ فقال : أنت صاحبها أصبتها البارحة ، قال : وبلغ منّى الشراب ما أبلغ معه من جليسى هذا المبلغ ، فأعطاه عشرة آلاف درهم ١٠ وقال : الخمر علىّ حرام ، لا أذوقها أبدا ، وقال فيها :

شربت الخمر حتّى قال صحبى * ألستَ عن السُّقاة بمستفيقِ ؟
وحتى ما أُوسَّـــد فى مبيتٍ * أنام به سوى التُّرب السحيقِ

وممّن حرّمها فى الجاهليّة : قيس بن عاصم المنقرىّ ، والسبب فى ذلك أنه سكر فغمَز عُكنة ابنته أو أخته فهربت منه ، فلما صحا أخبروه فحرّم الخمر على نفسه ، ١٥ وقال فى ذلك :

وجدتُ الخمـــرَ جامحةً وفيها * خصالٌ تفضح الرجلَ الكريما
فـــلا والله أشربُها حيـاتى * ولا أدعو لها أبـــدا نديمـا

(١) فى اللسان : وقالوا هى الخمر تكنى الطلا * كما الذئب ... الخ .

ولا أعطى لهـا ثمنا حيـاتى * ولا أشـفى بهـا أبدا سقيا

فإنّ الخمرَ تفضح شاربيها * وتجشمهم بهـا أمرا عظيما

اذا دارت حميّاها تعلّت * طوالع تَسْـفَه الرجلَ الحليما

ومنهم : عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ، قال :

٥ سآلةٌ للفتى ماليس فى يده * ذَهَّابةٌ بعقول القـوم والمـالِ

أقسمتُ بالله أسقيها وأشربها * حتى يفرِّق تربُ القبرِ أوصالى

ومنهم : صفوان بن أميّة بن مُحرِّث الكنانىّ وعُفَيف بن معديكرب الكندىّ والأسلوم بن نامى من همدان ومِقْيَس بن عدىّ السهمىّ وكان سكر فجعل يخط ببوله : أنَعَامَةً أو بعيرًا، فلما أفاق وأخبر بذلك حرّمها .

١٠ ومنهم : العبّاس بن مرداس السلَمىّ قيل له : لم تركتَ الشراب وهو يزيد فى جرأتك وسماحتك؟ فقال : أكره أن أصبح سيّد قومى وأمسى سفيهم .

ومنهم : سعيد بن ربيعة بن عبـد شمس وورقة بن نوفل والوليد بن المغيرة .

وقال زيد بن ظبيان :

بئس الشرابُ شرابٌ حين تشربه * يوهى العظام وطورا يوهى العصبِ(١)

١٥ إنى أخاف مليكى أن يعذِّبنى * وفى العشيرة أن يُزرى على حسبى

وقال رجل لسعيد بن سلم : ألا تشرب النبيذ ؟ فقال : تركت كثيره لله تعالى وقليله للناس .

---

(١) كذا بالأصل، ولعل صوابه "وطورا موهن العصب" .

ذكر من حُدَّ فيها من الأشراف ومن شربها منهم ومن ٱشتهر بها ولبس فيها ثوب الخلاعة ومن ٱفتخر بشربها

فأما من حُدَّ فيها من الأشراف فالوليـدُ بن عُقبة بن أبى مُعَيط وهو أخو عثمان بن عفّان لأمه ، شهد عليه أهل الكوفة أنه صـلّى بهم الصبح ثلاثَ ركعاتٍ وهو سكران ثم ٱلتفت اليهم فقال : وإن شئتم زدتكم، فجلده عبد الله بن جعفر بين يدى عثمان رضى الله عنه، وسنذكر الواقعة إن شاء الله تعالى بجملتها فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الخامس فى التاريخ فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

ومنهم : عبيـد الله بن عمر بن الخطاب شرب بمصر فحدّه بها عمرو بن العاص سرًّا، فلما قدم على أبيه جلده حدًّا آخر علانية .

ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطّاب المعروف بأبى شَحْمة(1)، حدّه أبوه فى الشراب فمات تحت حدّه .

ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطّاب، حدّه بعض ولاة المدينة .

ومنهـم : قُدامة بن مظعون، حدّه عمـر بن الخطّاب رضى الله عنه بشهادة عَلْقمة الخصىّ وغيره .

ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير، حدّه هشام بن إسماعيل المخزومىّ .

ومنهم : عبد العزيز بن مروان ، حدّه عمرو بن سعيد الأَشْدَق .

ومنهم : أبو مِحْجَن الثقفىّ وٱسمه عمـرو بن حبيب ، وكان مغرما بالشراب ، حدّه عمر مرارا فى الخمر ، وحدّه سعيد بن أبى وقّاص مرارا وشهد القادسيّة وأبلى

(1) كذا فى كتاب المعارف لابن قتيبة والقاموس . وفى الأصول : « سحمة » بالسين المهملة وهو تحريف .

بلاء حسنا، ثم حلف بعد القادسيّة ألا يذوق الخمر أبدا ومات تائبا عنها، وأنشد رجل عند عبد الله بن مسلم بن قتيبة قوله :

اذا مِتُّ فآدفنّى الى جنب كَرْمةٍ * تُرَوِّى عظامى بعد موتى عروقُها

ولا تدفننّى فى الفلاة فإننى * أخاف اذا مامِتُّ أن لّا أذوقها

٥ فقال عبد الله : حدّثنى من رأى قبره بأرمينيّة بين شجرات كرم يخرج اليه الفتيان ويشربون عنده ويتناشدون شعره فاذا جاءت كأسه صبّوها على قبره .

ومنهم : إبراهيم بن هَرْمة وكان مغرما بالشراب، حدّه جماعة من عمال المدينة فلما طال ذلك عليه رحل الى أبى جعفر المنصور، وقيل : إنما رحل الى المهدىّ وآمتدحه بقصيدته التى يقول فيها :

١٠ له لحظاتٌ فى حِفافَىْ سريره * اذا كرّها فيها عِقابٌ ونائلُ

له تربةٌ بيضاءُ من آل هاشم * اذا آسودَّ من لؤم التراب القبائلُ

فآستحسن شعره وقال له : سل حاجتك، فقال : تأمر لى بكتاب الى عامل المدينة ألّا يحدّنى على شراب ، فقال له : ويلك ! لو سألتنى عزلَ عامل المدينة وتوليتك مكانه لفعلت، قال : يا أمير المؤمنين، ولو عزلته ووليتنى مكانه أما كنت ١٥ تعزلنى أيضا وتولّى غيرى ! قال : بلى، قال : فكنت أرجع الى سيرتى الأولى فأُحَدّ، فقال المهدىّ لوزرائه : ماتقولون فى حاجة آبن هرمة وما عندكم فيها من التلطّف ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، إنه سأل مالا سبيل اليه، إسقاطُ حدّ من حدود الله عزّ وجلّ، فقال المهدى : له حيلة اذا أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا الى عامل المدينة : مَنْ أتاك بآبن هرمة سكرانا فآضربه مائة سوط وآجلد آبن هرمة ثمانين، فكان إذا ٢٠ شرب ومشى فى أزقة المدينة يقول : مَنْ يشترى مائةً بثمانين ؟

* * *

وأما من شربها منهم وآشتهر بها، جماعة من الأكابر والأعيان والخلفاء .

منهم : يزيد بن معاوية شُهر بشربها، وكان يقال له : يزيد الخمور، روى هشام ابن الكلبيّ عن أبيه قال : وجّه معاوية جيشا الى أرض الروم فأصابهم الجُدَرِيّ، وعند يزيد آمرأته أمّ كلثوم بنت عبد الله بن عامر فسكر وأنشأ يقول : ٥

إذا آرتفقتُ على الأنماطِ فى غُرفٍ * بدَيْر مُرّانَ عنــدى أمُّ كلثوم
فــا أبالى الذى لاقت جيوشُهــمُ * بالغَــذْقَذُونة[1] من حُمّى ومن مُومِ[2]

فبلغ الخبر معاوية ، فقال : أنت هاهنا ! إلحقْ بهم ، وسيّره الى قتال الروم .

ومنهم : عبد الملك بن مروان، وكان يسمّى : حمامة المسجد ، لآجتهاده فى العبادة، هــذا قبل أن يلى الخلافة ، فلمــا أفضت الخلافةُ اليه شرب ، فقال له سـعيد بن المسيّب : بلغنى يا أمير المؤمنين ، أنك شربت الطلاء، قال : إى والله والدماء . ١٠

ومنهم : يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو صاحب حَبابة[3] وسَلّامة، وأخباره مشهورة .

ومنهم : آبنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب به الشراب كلّ مذهب حتى خُلع وقُتل ؛ وله فى ذلك حكايات وأشعــار . منها : أنه سمع بشُرّاعة بن الزَّندَبوذ الكوفىّ، وكان من أهل البَطالة المشهورين باللعب واللهو و إدمان الشراب ، فاستدعاه ١٥

(١) الغذقذونة : آسم جامع للثغر الذى منه المصيصة وطرسوس وغيرها .

(٢) الموم : البرسام وأشد الجدرىّ .

(٣) حبابة وسلامة : قينتان مشهورتان كانتا له . ٢٠

بالكوفة الى دمشق فحمل اليه فلما دخل عليه قال له : ياشرّاعة، ما أرسلت اليك لأسألك عن كتاب الله ولا سنّة نبيّه، قال : لو سألتنى عنهما لوجدتنى فيهما حمارا، قال : وإنما أرسلت اليك لأسألك عن القهوة، قال : أنا دهقانها الخبير، ولقمانها الحكيم ، وطبيبها الماهر، قال : فأخبرنى عن الشراب قال : سل عمّا بدالك

٥ قال : ما تقول فى الماء قال : لا بدّ منه ، والحمار شريكى فيه . قال : فاللبن ؟ قال : مارأيته إلا آستحييت من طول ما أرضعتنى أمّى به ، قال : فالسَّوِيق ؟ قال : شراب الحزين والمستعجل والمريض . قال : فشراب التمر؟ قال : سريع الآمتلاء، سريع الآنفشاش . قال : فنبيذ الزبيب؟ قال : حاموا به على الشراب، قال : فالخمر ؟ قال : تلك والله صديقة روحى ، قال : وأنت والله صديق روحى،

١٠ قال: فأى المجالس أحسن ؟ قال : ماشرب فيه على وجه السماء؛ ومن شعر الوليد:

خذوا ملككم لاثبّت اللهُ ملككم * ثباتا يساوى ماحييت عقالا
دعوا لِىَ سلمَى والنبيذَ وقينةً * وكأسا ، ألا حسبي بذلك مالا
أبآلملك أرجو أن أخلَّد فيكُمُ * ألا ربَّ مُلك قد أزيل فزالا

ومنهم : المأمون بن الرشيد وشُهِر بالشراب وله فيه أخبار، منها : أنه شرب هو

١٥ ويحيى بن أكثم القاضى وعبد الله بن طاهر ، فتعامل(١) المأمون وآبن طاهر على سكر يحيى، فأشار الى الساقى فأسكره، وكان بين أيديهم رِزَم من الورد والرياحين ، فأمر المأمونُ فشُقّ ليحيى لحدٌ من الورد والرياحين وصيّروه فيه ، وعمل بيتى شعر ودعا قينة فجلست عند رأس يحيى وغنّت بالشعر :

دعوته وهو حىٌّ لاحياةَ به * مكفَّنا فى ثياب من رياحينِ
٢٠ فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى * فقلت خذ قال كفّى لا تواتينى

(١) كذا بالأصول، ولعلها « فتحامل » .

فانتبه يحيى لرنّة العود وصوت الجارية فقال :

ياســـيّدى وأميرَ النــاس كلّهــم * قد جار فى حكمه من كان يسقينى
إنى غفلتُ عن الساقى فصــيّرنى * كما ترانى ســليبَ العقلِ والدِّينِ
فآنظر لنفســك قاضٍ إننى رجل * ألراحُ يقتــلنى والرَّوح يُحيينى

ومنهم : العباس بن علىّ بن عبدالله بن العباس وهو عمّ المنصور، كان يأخذ الكأس بيــده ويقول : أما العقل فتُتلفين، وأما المروءة فتمحقين، وأما الدِّين فتُفسدين، ويسكت ساعة ثم يقول : وأما النَّفس فتُسَخِّين ، وأما القلب فتُشَجِّعين، وأما الهمّ فتطردين، أفتراك منى تُفلتين! ثم يشربها .

ومنهم : بلال بن أبى بُردة فُضح بالشراب وفيه يقول يحيى بن نوفل الحميرىّ :

وأما بلالٌ فــذاك الذى * يميــل الشرابُ به حيثُ مالا
يبيت يمصّ عتيــقَ الشراب * كمصّ الوليــد يخاف الفِصالا
ويصــبح مضـــطربا ناعسا * تخال من السُّكْر فيــه آحولالا
ويمشى ضعيفا كمشى النّزيف[(١)] * تخالُ به حين يمشى شِكالا

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الثقفىّ قاضى الكوفة وفُضح بمنادمة سعد بن هبّار وفيه يقول حارثة بن بدر :

نهــارُه فى قضــايا غيرِ عادلةٍ * وليلُهُ فى هَوَى ســعد بن هَبّارِ

ومنهم : آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وهو الذى يقول :

هاك فآشرب يا خليــلى * فى مَدَى الليل الطويلِ
قهوةً فى ظـــلّ كرمٍ * سُبِيتْ من نهر نيــلِ

(١) النزيف : الذى سال دمه بافراط حتى ضعف .

فى لسانِ المرء منها * مثــلُ لَذْعِ الزنجبيلِ
إنمــا أَذهبَ مالى * طولُ إدمانِ الشَّمولِ (١)
وحنينُ العُــودِ تنثيـ * ـه يدا ظبى كحيــلِ
فالطويلُ العنقِ الأ * هيفُ كالسيفِ الصقيلِ
يا خليــليَّ اسقيــانى * واهتفا بالشمس زُولى
قل لمن لامك فيهــا * من نصيح أو عذول
يَبْقَ بين البــاب والدا * ر على تَعْبِ الطلولِ

وقيل لأبيه عبد العزيز بن عمر : إن بنيك يشربون الخمر، فقال : صفوهم لى، فقالوا : أما فلان إذا شرب خرق ثيابه وثياب نديمه ، فقال : سوف يدَع هذا شربها، قالوا: وأما فلان فاذا شربها تقيأ فى ثيابه، قال: وهذا سوف يدعها، قالوا: وأما آدم فإذا شربها فأسكن ما يكون لاينال أحدًا بسوء، قال : هذا لا يدعها أبدا.

ومنهم : حارثة بن زيد العَدْوانىّ — رجل من تميم — دخل يوما على زياد ابن أبيه و بوجهه أثر، فقال له زياد : ما هذا الأثر بوجهك ؟ فقال : أصلح الله الأمير ركبت فرسى الأشقر (٢) فجمح بى حتى صدمنى الحائط، فقال : أما إنك لو ركبت فرسك الأشهب (٢) لم يصبك مكروه . ولحارثة فيها أشعار كثيرة وأخبار مع الأحنف ابن قيس، وكان الأحنف ينهاه عنها وهو لا ينتهى ويجيبه بشعر فى مدحها وقيل : إن حارثة هذا أدرك النبىّ صلى الله عليه وسلّم بالسنّ فى حال صباه وحداثته .

ومنهم : والبة بن الحُبَاب الأسدىّ وهو الذى ربّى أبا نُوَاس وأدّبه وعلّمه الفتوّة وقول الشعر . حكى أن المنصور قال له يوما : ادخل إلى محمد — يعنى المهدىّ — وحدّثه، فدخل عليه ، فأوّل ما أنشده قوله :

(١) الشمول : من أسماء الخمر. (٢) يريد الأوّل بالأشقر: الخمر، ويريد الثانى بالأشهب: الماء.

قولا لعمرو لا تكن ناسـيا * وسقّنى لا تحبسنْ كاسـيا
وآردد على الهيثم مثل الذى * هجتَ به ويحك وَسْواسِـيا
وقل لساقينـا عـلى خلوة * أَدنِ كذا رأسَك من راسـيا

(٤٥) فبلغ ذلك المنصور، فقال : لا تعيدوه إليه أردنا أن نصلحه فأراد هو أن يفسده .

٥

ومنهم : أبو الهندىّ وهو عبد المؤمن بن عبد القدّوس بن شبث بن رِبعىّ اليربوعىّ، حجّ به نصر بن سيّار فلما ورد الحرم قال له نصر : إنك بِفناء بيت الله الحرام ومحل حرمه فدع الشراب، فلما زال عنـه وضعه بين يديه وجعل يشرب ويبكى ويقول :

١٠

رضيعُ مدامٍ فارق الراحَ رُوعَه * فظلّ عليها مستهلَّ المدامِـع
أديرا علىّ الكأسَ إنى فقدتها * كما فَقَد المفطومُ درَّ المراضع

ومرّ به نصر بن سيّار وهو يميل سكرا، فقال له : أفسدت شرفك، فقال : لو لم أُفسد شرفى لم تكن أنت اليوم والى خراسان .

ومنهم : سعيد بن وهب وكان شاعرا بصريّا .

١٥

ومنهم: الحسين بن الضحّاك النديم صاحب الحسن بن هانئ وكان خليعا ماجنا مليح الشعر وهو الذى يقول :

ألا إنمـا الدُّنيا وصالُ حبيبٍ * وأخذُك من مشمولةٍ بنصيبِ
وعيشُك بين المُسمعاتِ ممّتعـا * بفنّين من عزف وشدوٍ مصيبِ
وأنسٌ وإنسان تلذُّ بقـربه * وبذلةُ معشـوقٍ ونومُ رقيبِ
وعدِّىَ ساعاتِ النهـارِ ورِقْبتى * إلى الشمس لمـا آذنت بمغيبِ

٢٠

ومنهم : يحيى بن زياد وهو الذى يقول :

أعاذل ليت البحرَ خمرٌ وليتنى * مدى الدهر حوتٌ ساكن لُجَّةَ البحرِ

فأضحى وأمسى لا أفارق لجّـة * أروّى بها عظمى وأشفى بها صدرى

طوال الليالى، ليس عنّى بناضبٍ * ولا ناقصٍ حتى أصيرَ الى الحشرِ

٥ ومنهم : أبو نُوَاس الحسن بن هانئ ممن اشتهر بالشراب واللهو والطرب ومناصمة القيان، وله فى الخمر تشبيهات حسنة وحكايات ظريفة، نذكر هاهنا من أخباره طـرفا :

حكى أن مسلم بن الوليد عاتبه وقال : يا أبا نواس، قد خلعت عذارك وأطلت الإكباب على المجون حتى غَلَب على لبّك وما كذلك يفعل الأدباء ! فأطرق ثم قال :

١٠ فأوّلُ شربك طرحُ الرداء * وآخِرُ شربك طرحُ الإزارِ

وما هنّأتك الملاهى بمثل * إماتةِ مجدٍ وإحياءِ عارِ

وما جاد دهرٌ بلذّاته * على من يَضَنُّ بخلع العذارِ

فآنصرف مسلم وقد أيس من فلاحه وهو يقول : جوابٌ حاضر، من كهلٍ فاجر . ومما يحفظ من أخباره، و يروى من أشعاره فى ذلك : أنه بلغ إخوانه عنه

١٥ أنه ترك الشراب واللذّات وأخذ فى الزهد والصلاة فى أوقاتها فآجتمعوا إليه وأقبلوا يهنّئونه، فوضع بين يديه باطِيَةً وجعل لا يدخل اليه أحد يهنئه إلا شرب بين يديه رطلا وأنشد :

قالوا نزعتَ ولمّا يعلموا وطرى * فى كلّ أغيدَ ساجى الطرف ميّاسِ

كيف النزوع وقلبى قد تقسّمه * لحظُ العيون وقرع السنّ بالكاسِ

٢٠ لاخير فى العيش إلا فى المجون مع الـ * ـأكفاء والراح والريحان والآسِ

ومسمع يتغنّى والكئوس لهـا * حَثٌّ علينـا بأخماسٍ وأســـداسِ
يا مُورِىَ الزند قد أكبت قوادحُه * اِقبِس اذا شئت من قلبى بمقباسِ
ما أقبح الناسَ فى عينى وأسمجَهم * إذا نظرتُ فلم أُبصِرْكَ فى النـاسِ

(٤٦) وحدّث الفضــل بن سلمة عن الثورىّ، قال : خرج الحسن بن هانئ ومعه مُطَيط صاحبــه ، حتى أتيا دار خمّار . فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نمزح بهذا الخمّار . فدخلا فسلّما فردّ عليهما . فقال له الحسن : أعندك خمرٌ عتيقةٌ يا خمّار ؟ ٥
فقال : عندى منها أجناس، فأيها تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجِبَتْ خِيفةً وصِينتْ بجاءت * بجلاءِ العروس بعـــد الصِّيانِ
وكأنّ الأكفَّ تُصْبَغُ من ضو * ءِ سناها بالوَرْسِ والزعفـــرانِ

فملأ له الخمّـار قَدَحا من خمر صفراء ، كأنها ذهبٌ محلولٌ؛ فشربه الحسن وقال : ١٠
أحسن من هذا أريد . فقال له الخمـار : أىّ جنسٍ تريد؟ قال : التى يقول فيها الشــاعر :

دفعتها أيدى الهواجر حتّى * صَيَّرتْ جسمَها بجسم الهواءِ
فهى كالنُّور فى الإناء وكالنّا * ر إذا ما تَصيرُ فى الأحشاءِ

فملأ له الخمار قدحا من خمر كأنها العقيق . فشربه وقال : أرفع من هذا أريد. ١٥
فقال : أىّ جنس؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :.

وإذا حسَا منها الوضيعُ ثلاثةً * سَمُحَ الوضيعُ كفعلِ ذى القَدْرِ
فى لونــ ماء الغيث إلا أنها * بين الضلوعِ كواقد الجمــر

فملأ له قَدَحاً من خمر بيضاء ، كأنها ماء المزن . فشرب الحسن وقال للخمار :
أ‍ـ ‍ـ ق‍ـ ؟ قا‍ـ : إى، والله يا سيدى، أنا أعرَف الناس بك . قال : من أنا؟ قال: ٢٠

أنت الذى يسكر من غير وزن . فضحك الحسن وقال لمطيط : ادفع إليه ما بقى عندك من النفقة ، فأعطاه مائة درهم وآنصرف .

وقال الحسين بن الضحّاك : كنت مع أبى نُوَاس بمكة عامَ حجٍّ ، فسمع صبياً يقرأ (يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) .

٥ فقال أبو نُوَاس : فى مثل هذا يجىء للخمر صفة حسنة ؛ ففكّر ساعةً ثم أنشدنى :

وسيّارةٍ ضلّت عن القصد بعد ما * ترادفهم أفقٌ من الليل مظلمُ

فأصغوا الى صوتٍ ونحن عصابةٌ * وفينا فتًى من سكره يترنّمُ

فلاحت لهم منّا على النأى قهوة * كأن سناها ضوءُ نار تضرّمُ

إذا ما حسوناها أقاموا مكانهم * وإن مُزِجتْ حثُّوا الركاب ويمّموا

١٠ قال : فحُدّث بهذا الحديث محمدُ بن الحسين فقال : لا ولا كرامة ، ما سرقه من القرآن ولكن من قول الشاعر :

وليلٍ بهيمٍ كلّما قلت غوّرتْ * كواكبُهُ عادت لنا تتذيّلُ

به الركبُ إمّا أومضَ البرقُ يمّموا * وإن لم يَلُحْ فالقوم بالسير جُهّلُ

وقال أبو نُوَاس فيها :

١٥ ألَا دارِها بالماء حتى تُلينَهَا * فما تُكرِمُ الصهباءُ حتى تُهِينَهَا

أُغالِي بها حتى اذا ما مَلِلْتُها * أهنتُ لإكرام النديم مصونَهَا

وقال أيضا :

نبّهتُهُ والليلُ ملتبسٌ به * وأزحتُ عنه خُشَاتَهُ[1] فانزاحا

قال آبغِنى المصباحَ ، قلتُ له آتّئدْ * حسبي وحسبك ضوءُها مِصباحا

٢٠ (١) الخشاث : النوم .

فسكبت منهـا فى الزجاجة شَربةً * كانت له حتى الصباح صباحا
من قهوةٍ جاءتك قبــل مِزاجها * عطــلا فألبسها المِــزاجُ وشاحا
شــكَّ البِزالُ(١) فــؤادَها فكأنهــا * أبدت اليــك بريحهــا تُفـاحا

وقال أيضا :

رُدَّا عَلَىَّ الكأسَ ، إنكما * لا تدريان الكأسَ ما تُجدى ٥
خوّفتمانى اللهَ جَهــدَكما * وكخيفتيه رجاؤه عنــدى
لا تعــذُلَا فى الراح إنكما * فى غفلةٍ عن كنه ما تُسدى
لو نلتما ما نلتُ ما مُزِجتْ * إلا بدمعكما من الوجدِ
ما مثــل نُعماها اذا آشتملت * إلا آشتمالُ فـمٍ على خــدّ
إن كنتما لا تشربان معى * خوفَ الإله شربتُها وحدى ١٠

وأخبار الحسن بن هانئ فيها كثيرة، وفيما أوردناه منها كفاية .

ومنهم : الثَّرْوانىّ، كان شاعرا مطبوعا بليغا، من أهل الخلاعة المشهورين . وكان آخر أمره أن أصيب فى حانة خمّار بين زِقَّىْ خمرٍ وهو ميْتٌ . وهو القائل فيهـا :

كَرَّ الشرابُ على نشوانَ مضطجعٍ * قد هب يشربهــا والدِّيكُ لم يَصِحِ ١٥
والليــلُ فى عسكرٍ حُمْــرٍ بوارقُهُ * من النجوم، وضوء الصبح لم يضِحِ
والعيش لا عيشَ إلا أن تُباكرها * نشوانَ تقتــلُ همَّ النفس بالفرحِ
حتى يظَلَّ الذى قد بات يشربُها * ولا مراحَ به يختــال كالمَــرِحِ

(١) البزال : الحديدة يفتح بها مبزل الدن .

ومنهم : مُطيع بن إياس . وكان شاعرا أديبا ظريفا مشتهرا بالخلاعة واللعب . وكان أصحابه على ذلك، وهم يحيى بن زياد، ووالبة بن الحُباب ، وحمّاد عجرد .

ومنهم : أبو عبد الرحمن العطَوِىّ . كان شاعرا فصيحا، لا يكاد يتقدّمه أحد بجزالة ألفاظه وحلاوة معانيه . وكان مولعا بالخمر مشتهرًا بها مُدمنًا عليها ، أكثرُ أشعاره فيها . فمن شعره :

أخطبْ لكأسك نَدمانا تُسَرُّ به * أولَا فنادِمْ عليها حِكمةَ الكتبِ

أُخطبهُ حرًّا كريما ذا محُافظةٍ * ترى مودّتَهُ من أقربِ النسب

وقال أيضا :

وكم قالوا تَمَنَّ ، فقلتُ كأسًا * يطوف بها قضيبٌ فى كثيبِ

ونَدْمانًا يُساقطــنى حديثًا * كصدقِ الوعد أو غضّ الرقيبِ

ومنهم : أبو هفّان . وكان شاعرا محسنا، وخليعا ماجنا . حكى أنه شرب مع أحمد بن أبى طاهر حتى فنى ما عندهما ، وكانا بجوار العلاء بن أيّوب . فقال آبن أبى طاهر لأبى هفّان : تماوتْ حتى نحتال على أبى العلاء فى أن ينيلنا شيئا . فمضى اليه آبن أبى طاهر فقال : أصلحك الله ! نزلنا جوارك فوجب حقّنا عليك، وقد مات أبو هفّان وليس له كَفَن . فقال لوكيله : اِمض معه وشاهد أمره وآدفع اليه كَفَنًا . فأتاه فوجده مُلقىً عليه ثوبٌ فنقر أنفه فضرط . فقال : ما هذا؟ فقال : أصلحك الله عَجِّلَتَ له صعقةَ القبر فإنه مات وعليه دين ؛ فضحك وأمر له بدنانير .

ومنهم : الأقيشر . وكان مغرما بالشراب مُدمنا عليه . وهو القائل :

ومُقْعَدِ قومٍ قد مشى من شرابنا * وأعمى سقيناه ثلاثا فأبصرا

كميتٌ كأن العنـــبر الورد ريحُــه * ومسحوق هندىّ من المسك أذفرا

ومنهم : النعمان بن علىّ بن نَضْلة . وكان عاملا لعمر بن الخطّاب رضى الله عنه على مَيْسان، وكان مدمنَ الشراب . وهو القائل :

ألا أبلغ الحســناء أنّ خليلها * بمَيْسان يُسْقَى فى زُجاجٍ وحَنـتمِ [1]

فإن كنتَ نَدمانى فبالأ كبر آسقِنى * ولا تسـقِنى بالأصـغر المتثـلِّمِ

لعـلَّ أميرَ المؤمنين يســوءه * تَنادُمُنا بالجَوْسَـقِ [2] المتهـدِّمِ

فبلغ الشعر عمر رضى الله عنه .

فكتب اليه : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، حٰمٓ تَنْزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ غَافِرِ ٱلذَّنْبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أما بعد، فقد بلغنى قولك :

لعلَّ أميرَ المؤمنين يســوءه * تنادُمُنـا بالجَوْسَـقِ المتهدِّمِ

وآيم الله لقد ساءنى ! وعزله . فلمّـا قدم عليه سأله ، فقال : والله ما كان من هذا شىء ، وما كان إلا فضل شعر وجدته وما شربتها قط . فقال عمر : أظنّ ذلك، ولكن لا تعمل لى عملا أبدا . فنزل البصرة، ولم يزل يغزو مع المسلمين حتى مات رحمه الله .

ومنهم : عمـارة بن الوليـد بن المغيرة . خطب آمرأة من قومه ، فقالت : لا أتزوّجك حتى تدع الخمر والزنا . فقال : أمّا الزنا فإنى أدعه ، وأما الخمر فوجدى بها شديد . ثم آشتدّ وجده بالمرأة فعـاود طلبها ، فقالت : حتى يحلف بطلاقى يوم

(١) الحنتم : الجرة الخضراء .

(٢) الجوسق : القصر .

يزنى أو يشرب خمرا؛ فحلف لها وتزوجها . ومكث حينا لايشرب، الى أن مرّ بخمّار وعنـده قوم يشربون وقَيْنة تغنيهم وهو على ناقة؛ فطرب اليهم وٱرتاح ورمى بثيابه الى الخمّار، وقال : أسقهم بها؛ ونحر لهم ناقته، ومكث أياما يطعمهم ويسقيهم حتى أنفد مامعه . ثم رجع الى آمرأته، فلامته، فأنشأ يقول :

٥ أقلّى علىّ اللـــومَ يا أمّ ســالم * وكُفّى فإنّ العيش ليس بدائم

أسرّكِ لمّـا صرّعَ القومَ نشوةٌ * خروجى منهم سالمًـا غير غارم

سليما كأنى لم أكن كنتُ منهُمُ * وليس الخداعُ من تصافى التنادُم

ثم قال لها : الحقى بأهلك، وعاد الى ما كان عليه .

*
* *

١٠ وأما من ٱفتخر بشربها وسِبائها[1]، فقد كانت العـرب تفتخر بسبـائها، وتضيفه إلى عظيم غنائها، وتقرنه بمذكور بلائها. وشاهد ذلك قول آمرئ القيس :

كأنّىَ لم أركبْ جوادًا للــذّةٍ * ولم أتبطّن كاعبـا ذاتَ خلخالِ

ولم أسبأ الزّقّ الروىّ ولم أقل * لخيلِىَ كُرّى كَرّةً بعـــدَ إجفالِ

فقرن جودَه فى سِباء الزقّ ببسالتـه فى كرّ الخيل . ولمّـا أنشـد أبو الطيب المتنبى

١٥ سيف الدولة بن حمدان قصيدته التى يقول فيها :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ

تمــرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمـــةً * ووجهُـك وضّاحٌ وثغـــرُك باسمُ

فقال له سيف الدولة : انتقدنا عليك يا أبا الطيّب هذين البيتين كما ٱنتُقد على آمرئ القيس بيتاه، وذكرهما، قال : و بيتاك لا يلتئم شطراهما كما لا يلتئم شـطرا

٢٠ هذين البيتين : كان ينبغى لآمرئ القيس أن يقول :

---

(١) السباء : شراء الخمر .

كأنىَ لم أركب جوادا ولم أقل * لخيــلِيَ كُرِّى كَرّة بعد إجفالِ
ولم أســبأ الزقّ الروىّ للذةٍ * ولم أتبطّن كاعبا ذات خلخال

وأن تقول أنت :

وقفتَ وما فى الموت شكٌّ لواقفٍ * ووجهــك وضّاحٌ وثغــرك باسمُ
تمرّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمــةً * كأنك فى جفنِ الردى وهو نائمُ ٥

فقال : أيّد الله مولانا ! إن كان صحّ أنّ الذى آستدرك على آمرئ القيس أعلم منه بالشعر فقد أخطأ آمرؤ القيس وأخطأتُ أنا ، والثوبُ لا يعرفه البزّاز معرفة الحائك لأن البزّاز يعرف جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقَه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزليّة الى الثوبيّة . وإنما قرن آمرؤ القيس لذّة النساء بلذّة الركوب للصيد ، وقرن السماحة فى سباء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ؛ وأنا لما ذكرت ١٠ الموت فى أوّل البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه . ولما كان الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه باكية قلت :

* ووجهك وضّاح وثغرك باسم *

لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لم يتسع اللفظ لجميعها . فأُعجب سيف الدولة بقوله ووصله . ١٥

وقال لَقِيط بن زُرارة :

شربتُ الخَمر حتى خلتُ أنى * أبو قابوسَ أو عبدُ المَدَان

وقال حسّان بن ثابت الأنصارىّ عفا الله عنه ورحمه :

إذا ما الأشرباتُ ذُكرنَ يوما * فهنّ لطيِّبِ الراح الفِداءُ
ونشربها فتتركنا ملوكا * وأُسْــدًا ما ينهنهها اللّقــاءُ ٢٠

حكى أنّ حسّان بن ثابت عنّف جماعةً من الفتيان على شرب الخمر وسوء تنادمهم عليها وأنهم يُضَرَّبُون عليها ضربَ الإبل ولا يرجعون عنها ؛ فقالوا : إنا اذا هممنا بالإقلاع عنها ذكرنا قولك :

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأُسْدًا ما ينهنهها اللقاءُ

٥ فعاودناها .

وقال الأخطل يخاطب عبد الملك بن مروان :

اذا ما نديمى علّنى ثم علّنى * ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ

خرجتُ أجرُّ الذيلَ حتى كأننى * عليك أمير المؤمنين أميرُ

وقال آخر :

١٠ إذا صدَمتنى الكأسُ أبدت محاسنى * ولم يخش نَدْمانى أذاىَ ولا بخلى

ولست بفحّاش عليه وإن أسا * وما شكلُ من آذى نداماه من شكلى

وقال آخر :

شربنا من الدّاذِىّ (١) حتى كأننا * ملوكٌ لهم برُّ العراقيْن والبحرُ

فلما انجلت شمسُ النهار رأيتَنا * تولّى الغنى عنّا وعاودنا الفقرُ

١٥ ومثله للُمنَخّل اليَشْكُرِىّ :

فإذا سكرتُ فإننى * ربُّ الخورنق والسديرِ

وإذا صحوتُ فإننى * ربُّ الشُّوَيهةِ والبعيرِ

وقال عنترةُ :

وإذا سكرتُ فإننى مستهلك * مالى، وعِرضى وافرٌ لم يُكلَمَ

٢٠ وإذا صحوتُ فما أُقَصِّرعن نَدًى * وكما علمت شمائلى وتكرّمى

(١) الداذىّ : شراب معروف بجودة إسكاره .

أخذه البحترىّ وزاد عليه فى قوله :

وما زلتَ خِلًّا للندامَى إذا آنتشوا * وراحوا بدورا يستحثّون أنجما

تكرّمت من قبل الكئوس عليهمُ * فما آسطعن أن يُحدثن فيك تكرُّما

والزيادة أن عنترة ذكر أنه يستهلك ماله اذا سكر، والبحترى ذكر أن ممدوحه يتكرم قبل الكئوس فيبالغ حتى لا تستطيع الكئوس أن تزيده تكرُّما . ٥

وكان الأعشى ميمون بن قيس مشهورا بتعاطى الخمر مشغوفًا بها كثير الذكر لها فى شعره . ومن آشتهاره بها قال المفضّل بين قدماء الشعراء : أشعرهم آمرؤ القيس اذا ركب، والنابغة اذا رهب، وزُهَير اذا رغِب، والأعشى اذا طَرِب . وقصد الأعشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُسلم وآمتدحه بقصيدته التى أوّلها :

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرمَدَا * وبتَّ كما باتَ السليمُ مسهّدَا ١٠

فاعترضه فى طريقه من أراد منعه، فقالوا له : إنه يحرّم عليك الزنا والخمر . فقال : أمّا الزنا فقد كَبِرت فلا حاجة لى فيه، وأمّا الخمر فلا أستطيع تركها . وعاد لينظر فى أمره، وقيل : إنه قال : أعود فأشربها سنة وأرجع، فمات قبل الحول .

قالوا : ونظر الحسن بن وهب الى رجل يَعبِس فى كأسه، فقال : ما أنصفتَها، تضحك فى وجهك وتعبِس فى وجهها . ومن ذلك قول الشريف الرضىّ : ١٥

كالخمر يعبِس حاسيها على مِقَةٍ * والكأسُ تجلو عليه ثغرَ مبتسم

وهو مأخوذ من قول عبد الله بن المعتزّ حيث يقول :

ما أنصف النّدمانُ كأسَ مُدَامةٍ * ضَحِكتْ اليه فشمّها بتعبُّس

ذكر شيء مما قيل فيها من جيّد الشعر

قد أوسع الشعراء فى هذا المعنى وأطنبوا فيه وتنوّعوا . فمنهم من مدحها ومنهم من وصفها وشبّهها، ومنهم من ذكر أفعالها وتغزّل فيها . وسنورد فى هذا الموضع نبذة مما طالعناه فى ذلك؛ إذ لو أوردنا مجموع ماوقفنا عليه لطال، ولاتسعت فيه دائرة المقال . ٥

* * *

فأمّا ما قيل فيها على سبيل المدح لها، فمن ذلك قول ابن الرومى حيث يقول :

تالله ما أدرى بأيّة علّةٍ * يدعون هذا الراحَ باسم الراحِ؟

ألريحها ولرَوْحها تحت الحشا * أم لارتياح نديمها المرتاحِ؟ ١٠

إن حُرِّمت فبحقِّها من خمرةٍ * ما كان مثلُ حريمها بمباحِ

أو حُلِّلتْ فبحقِّها من نَشْوةٍ * تشفى سقامَ قلوبنا بصِحاحِ

وقال أيضا :

خمرٌ اذا ما نديمى ظلّ يَكرَعها * أخشى عليه من اللألاء يحترقُ

لو رام يحلف أن الشمس ماغَرَبت * فى فيه كذّبه فى وجهه الشفَقُ ١٥

ومثله قول الطليق المروانىّ :

فإذا ما غَرَبتْ فى فمه * أطلعتْ فى الخدّ منه شفقا

وقال الناجم :

وقهوةٍ كشعاع الشمس صافيةٍ * مثل السراب تُرى من رقّةٍ شبحا

اذا تعاطيتَها لم تدرِ من فرحٍ * راحًا بلا قدَحٍ أُعطيتَ أم قَدَحا؟ ٢٠

وقال الناشى :

يا ربّما كأس تناولتها * تسحب ذيلا من تلاليها
كأنها النار ولكنها * منعَّمٌ واللهِ صاليها

ومما قيل فى وصفها وتشبيهها، فمن ذلك ما قاله يزيد بن معاوية :

٥ ومُدَامةٍ حمراءَ فى قارورةٍ * زرقاءَ تحملها يدٌ بيضاءُ
فالخمر شمسٌ والحَبابُ كواكبٌ * والكفُّ قُطْبٌ والإناءُ سماءُ

وقال السروىّ :

عُنيتْ بالمدامةِ الشعراءُ * وصفوها وذاك عندى عناءُ
كيف تحصيل علمها وهى موتٌ * وحياةٌ وعلّةٌ وشفاءُ
١٠ فهى فى باطنِ الجوانح نارٌ * وهى فى ظاهرِ المحاجرِ ماءُ
حُلوةٌ مرّةٌ فما أحدٌ يد * رى أداءٌ خُصُوصُها أم دواءُ

وقال البحترىّ :

اِشرب على زَهْرِ الرياض يشوبُه * زهرُ الخدود وزهرةُ الصهباءِ
من قهوةٍ تُنسِى الهمومَ وتبعث الـ * شوقَ الذى قد ضلّ فى الأحشاءِ
١٥ يُخفى الزجاجةَ لونُها فكأنها * فى الكفّ قائمةٌ بغير إناءِ
ولها نسيمٌ كالرياض تنفّستْ * فى أوجه الأرواحِ والأنداءِ
وفواقعٌ مثل الدموع تردّدت * فى صحنِ خدّ الكاعبِ الحسناءِ
يسقيكها رشأٌ يكاد يردّها * سكرى بفترةِ مقلةٍ حوراءِ
يسعى بها وبمثلها من طَرْفِهِ * عَوْدًا وإبداءً على الندماءِ

٢٠ وقال الوأواء الدمشقىّ :

فامزُج بمائك نار كأسك واسقنى * فلقد مزجتُ مدامعى بدماءِ

وٱشرب على زهر الرياض مُدامةً * تَنْـفِى الهمـومَ بعاجل السَّراء
لَطُفتْ فصارتْ من لطيف محلِّها * تجرى بجرى الروح فى الأعضـاءِ
وكأنّ مُختنَقَـةً عليهـا جوهرٌ * ما بين نارٍ أُذكِيَتْ وهواءِ
وكأنها وكأنّ حاملَ كأسهـا * إذ قام يجـلوها على النـدماءِ
٥ شمسُ الضحى رقَصتْ فنقّط وجهَها * بدرُ الدجى بكواكب الجوزاءِ

وقال أبو نُوَاس :

أقول لمـا تحـاكيا شبهًا * أيّهـما للتشابه الذهبُ
همـا سواءٌ وفرقُ بينهما * أنهـما جامدٌ ومُنسكبُ

وله أيضا :

١٠ إذا عَبَّ(١) فيها شاربُ القوم خلتَه * يقبّــل فى داجٍ من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مَشرِقًا * وما لم تكن فيـه من البيت مَغرِبا
يدور بها سـاقٍ أغنّ ترى له * على مستدار الأذن صُـدْغًا مُعقرَبا
ســقاهم ومنّانى بعينيه مُنيــةً * فكانت الى نفسى ألذَّ وأطيبـا

ومثل البيت الأوّل قول ٱبن المعتزّ :

١٥ كأنه قائم والكأس فى يـده * هلالُ أوّلِ شهرٍ غابَ فى شفق

وقال ٱبن الرومىّ :

ومهفهفٍ تمّت محاسـنُه * حتى تجاوز منتهى النفسِ
أبصرتُه والكأسُ بين فمٍ * منه وبين أناملٍ خمسِ
فكأنه والكأس فى فمـه * قمرٌ يقبّـل عارضَ الشمس

---

٢٠ (١) العب : الشرب من غير مص .

وقال الحسين بن الضحّاك :

كأنما نُصْبَ كأسِه قمــرٌ * يكرَع فى بعض أنجم الفلكِ

وقال آخر :

وآكتست من فضّةٍ دُرَرًا * خلتُها من تحتها ذهبــا

ككميت اللون قلدها * فارسٌ من لؤلؤ حَبَبا

وقال آخر :

تغشى[1] بياض شاربها * فتخالها بيمين مختضبِ

دارت وعين الشمس غائبة * فحسبتُ عينَ الشمس لم تغب

وقال آخر :

حمــراء وردية مشعشعة * كأنهــا فى إنائهــا لهبُ

صهباء صِرْفا لو مسّها حجـرٌ * من جامد الصخر مسّه طربُ

وقال آخر :

قلت والراح فى أكفّ النّدامَى * كنجوم تــلوحُ فى أبراجِ

أمُــدامًا خرطـــتُمُ لمُــدامٍ * أم زجاجا سبكـتُمُ لزجاجِ

وقال الحسن بن وهب :

وقهــوةٍ صافيــةٍ * كالمسك لمّا نفحا

شربتُ من دِنانهــا * من كلّ دنٍّ قَدَحا

فعــدتُ لا تحملنى * أعوادُ سرجى مَرَحا

من شدة السكر الذى * على فؤادى طفحا

(١) هـذا الشطر مختل الوزن وورد هكذا بكل الأصول . ولعله : « تغشى الكؤوس » أو تغشى المدام » مما يستقيم به المعنى والوزن .

وقال ابن المعتز :

خليلىّ قد طاب الشرابُ المبرَّدُ * وقد عدتُ بعد النسك والعودُ أحمدُ

فهاتِ عُقارا من قميص زجاجةٍ * كياقوتةٍ فى دُرَّةٍ تتوقّـدُ

يصوغ عليها الماءُ شُبّاكَ فضةٍ * له حَلَقٌ بيضٌ تُحَلّ وتُعقَدُ

٥ وقال التنوخىّ :

وراح من الشمس مخلوقةٍ * بدت لك فى قَدَحٍ من نهارِ

هواءٌ ولكنه ساكنٌ * وماءٌ ولكنه غير جارى

اذا ما تأملته وهى فيه * تأملتَ ماءً محيطا بنارِ

فهذا النهاية فى الابيضاضِ * وهذا النهاية فى الاحمرارِ

١٠ وما كان فى الحكم أن يُوجَدَا * لفرط تنافيهما والنِّفارِ

ولكن تجاوَرَ سطحاهما الـ * ـبسيطان فأتلفا بالجوارِ

كأنّ المديرَ لها باليمين * إذا مال بالسَّقْى أو باليسارِ

تدرَّعَ ثَوْبا من الياسمين * له فردُ كُمٍّ من الجُلّنارِ

وقال ابن وكيع التِّنِّيسىّ :

١٥ حَمَلتْ كفُّه الى شفتيه * كأسَه والظلامُ مُرخى الإزارِ

فألتقَى لؤلؤا حَبابٍ وثغرٍ * وعقيقانِ من فم وعُقارِ

وقال آخر :

قم فأسقنى قد تبلّج الغَسَقُ * من قهوةٍ فى الزجاج تأتلقُ

كأننا والكئوس نأخذها * نشرب نارًا وليس نحترق

وقال أبو نواس :

غنِّنا بالطلول كيف بَلينا * وٱسقنا نُعْطِك الجزاء الثمينا[1]

من سلاف كأنها كلّ شيء * يتمنى مخيَّر أن يكونا

أكل الدهرُ ماتجسَّم منها * وتبقَّى لنا بها المكنونا[2]

فإذا ما ٱجتليتَها فهباءٌ * تمنع الكفَّ ماتُبيح العيونا

ثم شُجَّتْ فاستضحكت عن لآلٍ * لو تجمّعن فى يدٍ لاقتُنينا

فى كئوسٍ كأنهن نجوم * جاريات، بُروجها أيدينا

طالعات مع السقاة علينا * فاذا ما غَرَبْنَ يغرُبن فينا

لو ترى الشَّرْبَ حولها من بعيدٍ * قلتَ قومٌ من قِرَّةٍ يصطلونا

وقال ٱبن المعتزّ :

وخمّارةٍ من بناتِ المجوسِ * ترى الدَّنَّ فى بيتها شائلا

وزنّا لها ذَهَبًا جامدًا * فكالت لنا ذَهَبًا سائلا

* * *

وأما ماقيل فى أفعالها، فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

وكأسٍ كمعسول الأمانى شربتُها * ولكنها أجلَتْ وقد شَرِبتْ عقلى

اذا عُوتبت بالماء كان ٱعتذارُها * لهيبا كوقع النار فى الحطَب الجَزْلِ

اذا اليدُ نالتها بوَتْرٍ توفَّرت * على ضِغْنها[3] ثم ٱستقادت من الرِّجل

(١) فى الأصل : «نقطة الجزاء ...» وهو تحريف . وفى ديوان أبى نواس

* وٱسقنا نعطك الثناء الثمينا *

(٢) كذا بالأصل، وفى الديوان : * وتبقى لبابها المكنونا *

(٣) كذا فى الديوان . وفى الأصل : «صنعها» وهو تحريف .

ومثله قول ديك الجنّ واسمه عبد السلام :

فقام تكاد الكأس تخضب كفّه * وتحسَبه من وجنتيه استعارَها

مشعشعة من كفّ ظبي كأنما * تناولها من خدّه فأدارَها

فظلنا بأيدينا نُتعتِعُ رُوحها * وتأخذ من أقدامنا الراحُ ثارَها

٥ وقريب من المعنى الأوّل قول أبى بكر الخالدىّ :

كانت لها أرجُل الأعلاج[1] وآونةً * بالدوس فانتصفت من أرؤس العربِ

[أخذ[2] هذا المعنى أبو غالب الإصباعىّ الكاتب فقال :

عقرتهمُ معقـورةٌ لو سالمت * شُـرّابها ما سُمِّيتْ بعُـقارِ

لانَتْ لهم حتى انتشَوْا وتمكّنتْ * منهم فصاحت فيهمُ بالثارِ

١٠ ذكرت حقائدَها القديمةَ إذ غدت * صَرْعَى تُداسُ بأرجل العُصّارِ]

وقال آخر :

أسروها وجهَ النهار من الدّنّ * فأمسَوْا وهم لها أُسَراءُ

وقال عبد الصمد بن بابك عفا الله عنه :

عُقارٌ عليها من دم الصّبّ نفضةٌ * ومن عَبَرات المستهام فواقعُ

١٥ معـوّدةٌ غصبَ العقول كأنما * لها عند ألباب الرجال ودائعُ

*
* *

وأما ما وُصفت به غير ما قدّمناه، فمن ذلك قول أبى الفضل يحيى بن سلامة الحصكفىّ [والحصكفى نسبة الى حصن كيفا] :

وخليع بتّ أعتبه * ويرى عتبي من العبث

---

٢٠ (١) الأعلاج : جمع علج وهو الرجل من كفار العجم .

(٢) الزيادة التى بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن إحدى النسخ .

قلتُ إنَّ الخمر مَخْبَثةٌ * قال حاشاها من الخَبث
قُلت منها القىء، قال أَجَلْ * طَهُرت عن مخرج الحَدَثِ
قلتُ فالأرفاث نتبعها * قال طِيبُ العيش فى الرفثِ
وسأسلوها فقلت متى * قال عند الكونِ فى الجدثِ

وقال آخر :

ثقُلت زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغا * حتى اذا مُلِئت بِصرفِ الراحِ
خفَّتْ فكادت أن تطيرَ بما حوت * وكذا الجسوم تَخِفُّ بالأرواحِ

[وقريب من المعنى قول الآخر :

وزنَّا الكأس فارغةً وملأى * فكان الوزنُ بينهما سواء](١)

وقال أبو نواس :

قهوةٌ أُعْمِىَ عنها * ناظرا ريْبِ المنونِ
عُتِّقتْ فى الدنّ حتى * هى فى رقّة دينى
ثم شُجَّت فأدارت * فوقها مثلَ العيونِ
حَدَقاً ترنو الينا * لم تُحَجَّرْ بجفونِ
ذهبا يُثمر دُرًّا * كلَّ إبَّانٍ وحينِ
من يَدىْ ساقٍ عليه * حلّةٌ من ياسمينِ
غايةٍ فى الظرف والشكل وفردٍ فى المجونِ

وقال :

ذُدْ بماء الكَرْمِ والعنبِ * خطراتِ الهمِّ والنُّوَبِ
قهوة لو أنها نطقتْ * ذكرتْ ساماً أبا العربِ

(١) الزيادة التى بين هاتين العلامتين [ ] منقولة عن بعض النسخ .

وهى تكسو كفَّ شاربها * دستبانات[1] من الذهب

وقال تاج الملوك بن أيوب :

وكم ليلةٍ فيها وصلنا غَبوقَنا * وكم من صباحٍ كان فيه صَبوحُ
تُدار علينا من أكفِّ سُقاتنا * عُقارٌ من الهمِّ الطويل تُريحُ
تلوحُ لنا كالشمس فى كفِّ أغيدٍ * يلوح لعينى البدرُ حين يلوحُ
مدامٌ تُحاكى خدّه ورُضابَه * ونكهتَه فى الطِّيبِ حين تفوحُ
ولكن لها أفعالُ عينيه فى الحشا * فكلُّ حشًا فيها عليه جَريحُ

وقال أيضا :

والكأس أعطاها عقيقا أحمرا * قالت ، فأعطيها لُجَيْنًا يقَقَا[2]
من قهوةٍ ما العيش إلا أن أُرَى * مصطبِحا فى شربها مغتبِقا
أشربها شُربًا هنيئا من يدَىْ * غصنٍ رشيقٍ وغزالٍ أرشقَا

ومما قيل فيها اذا مُزجت بالماء، فمن ذلك قول أبى نواس :

وصفراءُ قبل المزج بيضاء بعده * كأن شعاع الشمس يلقاك دونَها
ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتحسُر حتى ما تُقِلّ جفونَها

ومنه أخذ ديك الجنّ فقال :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده * بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائق
حكت وجنةَ المعشوق صِرْفًا فسلّطوا * عليها مزاجا فاكتستْ لونَ عاشقِ

وقال أبو هلال العسكرىّ :

راحٌ اذا ما الليل مدَّ رواقه * لاحت تُطرِّزُ حُلّةَ الظلماءِ

(١) الدستبانات : كلمة فارسية ومعناها الأساور . (٢) اليقق : الأبيض .

حتى اذا مُزِجتْ أراكَ حَبابُها * زهراتِ أرضٍ أو نجومَ سماءِ

وقال أيضا :

وكأس تمتطى أطرافَ كفٍّ * كأنّ بنانَهـا من أرجـوانِ
أنازعها على العلّات شَرْبًا * لهنّ مضاحكٌ من أقحـوانِ
يلوح على مفارقها حَبابٌ * كأنصافِ الفـرائد والجُمانِ
وطالعنى الغـلامُ بها سُحَيرًا * فزاد على الكوا كب كوكبانِ
ووافقهـا بخـدٍّ أُرجُوانٍ * وخالفها بفرعٍ أدجـــوانِ

قـــوله :

* كأنصافِ الفرائد والجمان

مأخوذ من قول ابن الرومى :

لها صَريحٌ كأنه ذهبٌ * ورغوةٌ كاللآلئ الفُـلُق

وقال أبو نواس :

فإذا عـــلاها المـاءُ ألبسهـا * حببًا[(١)] شـبيهَ جَلاجِلِ الحِجْـلِ
حتى اذا سكنتْ جوانحُها[(٢)] * كتبتْ بمثـلِ أكارع النمـل

وهو مأخوذ من قول الأوّل، ويقال : إنه ليزيد بن معاوية :

وكأسٍ سباها التَّجْرمن أرض بابلٍ * كرقّة ماء الحُزْنِ فى الأعينِ النُّجلِ
اذا شجّها الساقى حسبت حَبـابَها * عيونَ الدَّبا[(٣)] من تحت أجنحةِ النملِ

وقال أبو نواس أيضا :

قامت تُرينى وأمرُ الليـل مجتمعٌ * صبحا تولّد بين المـاء واللهبِ

(١) كذا فى ديوانه . وفى الأصول : « نمشا » . (٢) كذا بالأصل . وفى الديوان : «جوامحها» . (٣) الدبا : الجراد .

كأنّ صُغْرَى وكُبْرَى من فقاقعها * حصباءُ دُرٍّ على أرضٍ من الذهبِ

وقال آبن المعتز :

للماء فيها كتابةٌ عجبٌ * كمثل نقشٍ فى فَصِّ ياقوتِ

وقال العسكرىّ :

٥ ذاب فى الكأس عقيقٌ فجرى * وطفا الدُّرُّ عليه فسبَحْ

نصب الساقى على أقداحها * شَبَكَ الفِضّةِ تصطادُ الفرحْ

وقال آبن الساعاتىّ :

وليلةٍ بات بدرُ التمّ ساقِيَنَا * يُدير فى فَلَكٍ من شربها شُهُبا

بكر اذا قُرعتْ بالماء كان بنا * جِدًّا وإن كان فى كاساتها لَعِبا

١٠ حمراء من خجلٍ حتى اذا مُزِجت * لم تدر ماخجلا تحمرُّ أم غضبا

تزيد بالبارد السلسال جذوتُها * وما سمعت بماء محدِثٍ لهبا

تكسو النديمَ إذا ما ذاقها وَضَحًا * حتى كأنّ شعاعَ الشمس قد شَرِبا

وقال آخر :

فَنَبَّهتْنى وساقى القوم يمزُجها * فصار فى البيت للصباح مصباحُ

١٥ قلنا على علمنا والشكُّ يغلبنا * أراحُنا نارُنا أم نارُنا الراحُ

وقال آبن وكيع التِّنِّيسىّ :

وصفراء من ماء الكروم كأنها * فراقُ عدوٍّ أو لقاءُ صديقِ

كأنّ الحبابَ المستديرَ بطوقها * كواكبُ دُرّ فى سماءِ عقيقِ

صببت عليها الماءَ حتى تعوّضت * قميصَ بَهارٍ من قميص شقيقِ

٢٠ وقال آخر :

حمراء ما آعتصموا بالماء حين طفت * إلا وقد حسبوها أنها لهبُ

(٥٣)

وقال الخالديّان :

فهاتها كالعروس محمـــرّة الـ * ـخدّين فى مِعجرٍ(١) من الحبَبِ

كادت تكون الهواءَ فى أرج الـ * ـعنبر لو لم تكن من العنبِ

من كفِّ راضٍ عن الصدود وقد * غضِبتُ فى حبّــه على الغضبِ

فلو ترى الكأسَ حين يمزُجها * رأيت شيئا من أعجب العجبِ

نار حواهـا المِــزاج يُلْهِبها المــــاءُ ودُرٌّ يـــدور فى لهبِ

ذكر ما قيل فى مبادرة اللّذات ومجالس الشراب وطيّها

قال أحمد بن أبى فَنَن :

جدِّد اللّــــذّاتِ فاليومُ جديدُ * وآمض فيما تشتهى كيف تريدُ

والله ما أمحكنَ يومٌ صالحٌ * إن يومَ الشرِّ لا كان عتيدُ

وقال ديك الجنّ :

تمتّــع من الدنيا فإنك فانى * . . . فى أيد؛ حو'دث عانى

ولا تُنْظِرنّ اليومَ لهواً إلى غدٍ * . . . ن لغــدٍ من حادثٍ بأمانِ

فإنى رأيتُ الدهرَ يُسرع بالفتى * وينقــله حالين مختلفان(٢)

فأمّا الذى يمضى فأحلامُ نائمٍ * وأمّا الذى يبــقى له فأمانى

وقال آبن المعتزّ من أبيات :

وبادِرْ بأيام السرور فإنهــا * سِراعٌ وأيامُ الهمــوم بِطــاءُ

وخلِّ عتابَ الحادثاتِ لوجهها * فإن عتــابَ الحادثاتِ عناءُ

تعالَوْا فسقّوا أنفسا قبل موتها * ليأتِىَ ما يأتى وهنّ رِواءُ

(١) المعجر : ثوب تلفه المرأة على آستدارة رأسها . (٢) كذا بالأصل . ولعلها "تختلفان" .

وقال أحمد الماردانىّ :

عاقرِ الرّاحَ ودَعْ نعتَ الطلَلْ * وٱعْصِ من لامك فيها وعذَلْ
غادِها واسعَ لها وٱغْرَ بها * وإذا قيل : تصابَى، قل أجَلْ
إنما دنياك — فٱعلم — ساعةٌ * أنت فيها وسوى ذاك أملْ

٥ وقال ٱبن بسّام :

واصِلْ خليلك إنما الـ * ـدنيا مواصلةُ الخليـلِ
وٱنعَمْ ولا تتعجّل الـ * ـمكروهَ من قبل النزول
بادِرْ بما تهوى فما * تدرى متى وقت الرحيل
وٱرفُضْ مقالةَ لائم * إن الملامَ من الفُضولِ

١٠ ومما وَصفتْ به مجالس الشرب، فمن ذلك قول أبى نواس :

فى مجلِسٍ ضحِك السرورُ به * عن ناجذيه وحُلّت الخُمُرُ

وقال ديك الجنّ :

كأنما البيتُ بريحانة * ثوبٌ من السندس مشقوقُ

وقال السرىّ :

١٥ ألستَ ترى ركبَ الغمامِ يُساقُ * وأدمعُهُ بين الرياض تُراقُ
وقد رقّ جِلبابُ النسيم على الثرى * ولكن جلابيبُ الغيوم صفاقُ
وعندى من الرَّيحانِ نوعٌ تجسّه * وكأسٌ كَرَقْراق الخَلُوق[١] دِهاقُ
وذو أدبٍ جلّتْ صنائعُ كفِّه * ولكن معانى الشعر منه دِقاقُ
له أبدًا من نثره ونظامه * بدائعُ حَلْيٍ ما لهنّ حِقاقُ

٢٠ (١) الخلوق : ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن غالب أجزائه من الزعفران .

وأغيـدُ مهتزٍّ، على صحن خدّه * غلائلُ من صِبغ الحيـاءِ رِقاقُ

أحاطت عيونُ العاشقين بخصره * فهنّ له دون النِّطاق نطاقُ

وقد نظـم المنثور فهـو قلائد * علينا، وعقدٌ مُذْهَبٌ وخنـاقُ

وغرفتنا بين السحائب تلتـقِي * لهن علينا كِلّةٌ ورِواقُ

تقسّم زُوّارٌ من الهند سَقفَها * خِفافٌ على قلب الكريم رِشاقُ

أعاجمُ تلتـذُّ الخصامَ كأنها * كواعبُ زنْجٍ راعهنّ طَلاقُ

أنِسنَ بنا أنسَ الإماءِ تحبّبتْ * وشيمتها غَـدْرٌ بنـا وإباقُ

مُواصِـلةٌ والورد فى شجـراته * مفارقةٌ إن حانَ منـه فراقُ

فزُرْقيةٌ، بَرْدُ الشرابِ لديهمُ * حميمٌ اذا فارقتهـم وغَسَاقُ (١)

قـــوله :

أحاطت عيون العاشقين بخصره * فهن له دون النطاق نطاقُ

مأخوذ من قول المتنبّي :

وخصرٍ تثبُت الأحداق فيه * كأنّ عليه من حَدَقٍ نطاقا

وقال أبو هلال العسكريّ :

وليـــل آبتعتُ به لذّةً * وبعتُ فيه العقـلَ والدّينـا

أصاب فيه الوصلُ قلبَ الجوى * وبات فيـه الهمُّ مسكينا

وقد خلطنا بنسـيم الصَّبا * نسـيم راحٍ ورياحينـا

وأكؤس الراح نجومٌ اذا * لاحت بأيدينـا هوتْ فينـا

تضحك فى الكأس أباريقُنا * وحسـبها تضحك تبكينا

(١) الغساق : المنتن الشديد البرد الذى يحرق من برده كإحراق الحميم .

ومما قيل فى طىّ مجالس الشراب، فمن ذلك قول بعض الشعراء :

حُكم العُقارِ اذا قصدتَ لشربها * فى لذّةٍ من مُسمِع[1] وقيانِ

ألّا تعود لذكر ماأبصرتَ من * أُحدوثةٍ من شاربٍ سكرانِ

وقال آخر :

٥ إذا ذُكر النبيذُ فليس حقًّا * إعادة مايكون على النبيذِ

إعادة مايكون من السّكَارى * يكدّر صفوةَ العيش اللذيذِ

وقال آخر :

تَنازعوا لذّة الصهباء بينهُمُ * وأوجبوا لرضيع الكأسِ مايجب

لايحفظون على السكران زَلّتهُ * ولا يُريبك من أخلاقهم رِيَبُ

---

١٠ ذكر ماقيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها

من ذلك ماقيل فى وصف مَعصرة الخمر :

قال أبو الفرج الببَّغاء :

ومَعصرة أنختُ بها * وقرنُ الشمس لم يَغِبِ

خِلْتُ قرارها بالرا * ح بعضَ معادنِ الذهبِ

١٥ وقد ذَرَفت لفقد الكرْ * م فيها أعينُ العنبِ

وجاش عُبابُ واديها * بمنهلٍّ ومُنسَكِبِ

وياقوت العصير بها * يلاعبُ لؤلؤ الحببِ

فياعجبا لعاصرها * وما يفنَى به عجبى

وكيف يعيش وهو يخو * ض فى بحرٍ من اللّهب

---

٢٠ (١) المسمع : المغنى .

وقال ابن المعتز يصف الدنان :

ودنانٍ كمثلِ صفِّ رجال * قد أقيموا ليرقصوا دَسْتَبَنْدَا (١)

وقال القطامى يصف جِرارَ الخمر :

واستودعتها رواقيــدُ (٢) مقـيَّرةٌ (٣) * دُكْنُ الظواهر قد بُرْنِسن بالطّينِ

مكالحِـاتٌ لحرِّ الشمس قائمةٌ * كأنهنّ نَبِيــطٌ فى تبابيـن (٤)

٥

وقال العلوى الأصفهانى :

مخــدَّرةٌ مكنونةٌ قد تَقَشَّفتْ * كراهبةٍ بين الحســانِ الأوانسِ

وأترابُهــا يلبَسن بيضَ غلائلٍ * هى العُرْىُ مغرورٌ بها كلُّ لابسِ

مشــعَّثةٌ مَرْهاء (٥) ماخلتُ أننى * أرى مثلَها عذراءَ فى زِىّ عانسِ

ومما قيل فى الراووق؛ قال بعض الشعراء :

١٠

كأنمـا الراووقُ وانتصـابُه * خُرطومُ فيلٍ سقطتْ أنيابُهُ

والبيت منـــه عَطِرٌ ترابُهُ * كأنَّ مسكًا فُتِّقَتْ عِيـابُهُ

وقال آخر :

سَماء لاذٍ (٦)، قَطْرُها رحيــقُ * رحبُ الذّرى يخطّ فيه الضِّيقُ

ماءُ عقيقٍ لو جرى العقيقُ * حتى اذا ألهبهـا التّصـفيقُ

١٥

* صِحْنا الى جيراننـا : الحريقُ *

(١) الدستبند : نوع من أنواع رقص المجوس : يأخذ بعضهم بيد بعض و يدورون و يرقصون .

(٢) رواقيد : جمع راقود وهو الدنّ الكبير .

(٣) مقيرة : أى مسيعة بالقار وهو "الزفت" .

(٤) التبابين : جمع تبّان وهو سراويل صغير يستر العورة .

٢٠

(٥) المرهاء : التى ابيضت حماليقها من تركها الكحل .

(٦) اللاذ : جمع لاذة وهى ثوب حرير أحمر صينى .

ومما وُصفت به زقاق الخمر، فمن ذلك قول الأخطل :

أناخوا بجرّوا شاصياتٍ[1] كأنها * رجالٌ من السودان لم يتسربلوا

وقال أبو الهندى وأجاد فى شعره :

أتاقَ المالَ وما جمّعتُه * طلبُ اللّذاتِ من ماء العنبْ

واستباءُ الزقّ من حانوتها * شائلِ الرجلين مَعْضوبِ[2] الذنبْ

كلّما كُبّ لشرب خلتَه * حبشيًا قُطعتْ منه الرُّكَبْ

وقال ابن المعتزّ :

وتراها وهى صَرْعَى * فُرَّغًا بين الندامَى

مثلَ أبطالِ حروب * قُتِلوا فيها كِرامَا

وقال العلوىّ الأصفهانىّ :

عجبتُ من حبشىّ لا حَراكَ به * لا يُدرك الثأر إلا وهو مذبوحُ

طَوْرًا يُرَى وهو بين الشَّرب مضطجعٌ * رخو الصِّفاقِ[3] وطَوْرًا وهو مشبوحُ

ومما وُصفت به الأباريقُ ؛ فمن ذلك قول شُبرمة بن الطفيل :

كأنّ أباريقَ الشّمول عشيّةً * إوزٌّ بأعلى الطفِّ عُوجُ الحناجر

وقال آخر :

يا رُبَّ مجلس فتيةٍ نادمتُهم * من عبد شمسٍ فى ذرى العلياءِ

وكأنما إبريقُهم من حُسنهِ * ظبيٌ على شَرَفٍ أمامَ ظباءِ

وقال ابن المعتزّ :

وكأنّ إبريقَ المدام لديهمُ * ظبيٌ على شَرَفٍ أناف مدلَّها

(١) الشاصيات : القرب اذا كانت مملوءة أو نفخ فيها فارتفعت قوائمها.

(٢) المعضوب : المقطوع. (٣) الصفاق : جلد البطن.

لمـا استحثته السُّقاة جثى لها * فبكى على قدح النـديم وقهقها

وقال إسحاق الموصليّ :

كأن أباريقَ المدام لديهـمُ * ظبـاءٌ بأعلى الرَّقْمتين قِيامُ

وقد شربوا حتى كأنّ رقابَهم * من اللِّين لم يُخلَقْ لهنّ عِظـامُ

وكلّهم نظروا الى قول عَلْقمة بن عَبَدَة :

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شَرَفٍ * مُفَدَّمٌ بسَـبا(١) الكَتّان ملثومُ

وقال محمد بن هانئ من أبيات :

والأباريقُ كالظبـاء العواطى * أوجستْ نبأةَ الخيولِ العتـاقِ

مُصغياتٌ إلى الغناءِ مُطِـلّا * تٌ عليـه كثيرةُ الإطراقِ

وهى شُمُّ الأنوفِ يشمخن كبرًا * ثم يَرْعُفن بالدّمِ المُهـراق

وقال أبو نواس عفا الله عنه :

والكوب يضحك كالغزال مسبِّحًا * عنـد الركوع بلثغـةِ الفأفاءِ

وكأنّ أقداح الرحيـق إذا جرت * وسط الظلامِ كوا كبُ الجوزاءِ

وقال بشّار بن بُرْد :

كأنّ إبريقَنا والقَطْرُ من فمه * طـيرٌ تنـاول ياقوتًا بمنقارِ

ومما وُصفت به الكاساتُ والأقداحُ ، فمن ذلك قول ابن المعتزّ :

غدا بها صفراء كَرْخيّة * تخالهـا فى كأسهـا تتّقـدْ

وتحسب المـاءَ زجاجًا لها * وتحسب الأقداحَ ماءً جَمَدْ

وقال ابن المعتزّ أيضا عفا الله عنه :

وكأسٍ تُحَجَبُ الأبصـارُ عنها * فليس لنـاظرٍ فيهـا طريقُ

(١) السب والسبية : الشقة ، وخص بعضهم به الشقة البيضاء . كذا فى اللسان ، وقد استشهد بهذا البيت وعقب عليه قائلا : « إنما أراد بسبائب فحذف » .

كأنّ غمامةً بيضاءَ بيني * وبين الكأس تخرِقها البروقُ

وقال أبو الفرج الببّغاء :

من كلّ جسم كأنه عَرَضٌ * يكاد لُطفًا باللحظ يُنتَهَبُ

كأنما صاغه النّفاق فما * يخلُص منه صدقٌ ولا كذبُ

٥ وقال الرفّاء :

كأنّ الكئوسَ بفضلاتها * متوّجةً بأكاليل نورِ

جيوبٌ من الوشي مَزرورةٌ * يلوح عليها بياضُ النحورِ

وقال آخر :

وكأنما الأقداحُ مترعة الحشا * بين الشروب كواكبُ الجوزاءِ

١٠ وكأنها ياقوتةٌ فضلاتها * مخروطةٌ من دُرّة بيضاءِ

وقال المعوّج :

يعاطيك كأسًا غير ملأى كأنها * إذا مُزِجتْ أحداقُ درعٍ مُزرَّدِ

كأنّ أعاليها بياضُ سوالف * يلوح على توريدِ خدّ مورَّدِ

وقال أبو نواس :

١٥ وكأنما الروضُ السماءُ ونهرُه * فيه المجرّةُ والكئوسُ الأنجمُ

وقال الثعالبيّ :

ياواصفَ الكأس بتشبيهها * دونك وصفًا عاليَ القَدْر

كأنّ عينَ الشمس قد أُفرِغتْ * في قالَبٍ صِيغ من البدر

وقال آخر :

٢٠ أقول للكأس إذ تبدّتْ * بكفّ أحْوى أغنّ أحورْ

أخربتِ بيتي وبيتَ غيري * وأصلُ ذا كعبُك المدوّرْ

(٥٦)

البـاب الخـامس

من القسم الثـالث من الفنّ الثـانى

فى النّدمان والسُّقاة

قال سهل بن هارون : ينبغى للنـديم أن يكون كأنما خُلق من قلب الملك يتصرّف بشهواته ويتقلّب بإرادته، لايَمَلّ المعاشرة، ولا يسأم المسامرة؛ إذا آنتشى يحفظ، وإذا صحا يَقَظ، ويكون كاتما لسرّه، ناشرا لبرّه . قالوا :

فاخَر كاتبٌ نديما، فقال الكاتب : أنا معونة، وأنت مؤونة؛ وأنا للجدّ، وأنت للهزل؛ وأنا للشـدّة، وأنت للرخاء؛ وأنا للحرب، وأنت للسّـلم . فقال النديم : أنا للنعمة، وأنت للخدمة؛ وأنا للحُظوة، وأنت للمهنة؛ تقوم وأنا قاعد، وتحتشم وأنا مؤانِس؛ تدأب لراحتى، وتشقى لمـا فيه سعادتى؛ فأنا شريك وأنت مُعين، كما أنك تابع وأنا قرين . فلم يُحِر الكاتبُ جوابا . والله أعلم .

وسئل إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ رحمه الله عن الندماء، فقال :

واحدٌ غَمٌّ، وآثنان هَمٌّ، وثلاثةٌ قِوَامٌ، وأربعةٌ تَمَـامٌ، وخمسةٌ مجلِسٌ، وستّةٌ زحامٌ، وسـبعةٌ جَيْشٌ، وثمـانيةٌ عَسكرٌ، وتسعةٌ آضربْ طبلَك، وعشرة آلقَ بهم مَن شئتَ .

وقال الجمّـاز : النبيـذ حرام على آثنى عشر نفسا، مَن غَنّى الخطأ، وآتكأ على اليمينِ، وأكثَر من أكل البقل، وكسر الزجاجَ، وسرق الريحانَ، وبل مابين يديه، وطلب العَشاء، وقطع البَمّ[1]، وحبس أوّلَ قدحٍ، وأكثر الحديثَ، وآمتخط فى منديل الشراب، وبات فى موضع لايُحتَمَلُ المبيتُ فيه .

(١) البم : الوتر الغليظ من أوتار العود .

قال أبو هلال العسكرىّ :

ما أعافُ النبيذَ خيفةَ إثمٍ * إنما عفتُه لفقدِ النّديمِ
ليس فى اللهو والمدامةِ حظٌّ * لكريمٍ دون النديم الكريمِ
فتخيَّرْ قبلَ النبيذ نديمًا * ذا خلالٍ معطَّراتِ النسيمِ
وجمالٍ إذا نظرتَ بديعٍ * وضميرٍ إذا ٱختبرتَ سليمِ

٥

وقال آخر :

أرى للكأس حقًّا لا أراه * لغيرِ الكأس إلا للنديمِ
هو القطبُ الذى دارتْ عليه * رحَى اللّذاتِ فى الزمنِ القديمِ

وقال آخر :

١٠

ونَدْمانٍ أخى ثقةٍ * كأنّ حديثَه حِبَرُه[1]
يسرُّك حسنُ ظاهرِهِ * وتَحمَد منه مُخْتَبَرَهْ
ويستر عيبَ صاحبِه * ويسترُ أنه سَتَرَهْ

وقال آخر :

ونديم حلو الحديث يجاريـ * ـك بما تشتهيه فى مَيدانِكْ
ألمعيّ كأنّ قلبَك فى أضـ * ـلاعه أو كلامَهُ فى لسانِكْ

١٥

وقال يحيى بن زياد :

ولستُ له فى فضلة الكأسِ قائلا * لأصرفه عنها[2] : تحسَّ وقد أبَى
ولكن أُحيِّيه وأُكرم وجهَهُ * وأشربُ ما أَبقَى وأسقيه ما ٱشتهى
ولستُ إذا ما نام عندى بموقظ * ولا مُسمِعٍ يقظانَ شيئا من الأذَى

٢٠

وقال آخر :

ليس من شأنه إذا دارتِ الكأ * س فأزرى إدمانُها بالحلومِ

(١) الحبرة : ضرب من برود اليمن منمر .
(٢) هذه رواية الأصل وهى غير مستقيمة ويحتمل أن تكون محرّفة عن « لأصرفها عنى » أو « لأصرعه سكرا » أو نحو ذلك .

قولُ مايُسخط النديمَ وإنأسـ * ـخطَه عند ذاك قولُ النـديم

وقال عبد الرحمن العَطَوىّ رحمه الله :

أُخْطُبْ لكأسك نَدماناً تُسَرُّ به * أو لا فنادِمْ عليها حكمةَ الكتب
أخطُبْه حرًّا كريمـا ذا محافظة * ترى مودّتَه من أقرب النسب

٥ وقال أبو نُوَاس :

ونَدْمانٍ يَرَى عيبًـا عليـه * بأن يمشى وليس به آنتشاءُ
إذا نَبّهته من نوم سكرٍ * كفاه مرّةً منـك النداءُ
فليس بقائل لك : إيهِ دعنى * ولا مستخبرا لك ما تشاءُ
ولكن سَقِّنى ويقول أيضا * عليك الصِّرْفَ إن أعياك ماءُ
١٠ اذا ما أدركته الظهرُ صـلَّى * ولا عصرٌ عليـه ولا عِشاءُ
يصلِّى هذه فى وقت هذى * وكلّ صـلاته أبدًا قضاءُ

وقال آخر :

نبهت نُدْمانى فهبّـوا * بعد المنام لـما آستحبّوا
هـذا أجاب وذا أنا * ب وذا يسير وذاك يحبو
١٥ أنشـدتهم بيتا يعـلِّم ذا الصبابةِ كيف يصبو
«ما العيش إلا أن تُحِبَّ وأن يحبّـك من تحبّ»
فتطـربوا والأريحيـة شأنهـا طَرَبٌ وشربُ

وقال أبو عُبَادة البحترىّ عفا الله تعالى عنه :

ونديم نبّهتُـه ودجى الليـ * ـل وضوءُ الصباح يعتلجانِ
٢٠ قم نبادرْ بها الصيامَ فقد أقـ * ـمر ذاك الهلالُ من شعبانِ

وقال أيضا :

بات نديمًا لِيَ حتى الصباح * أغيدُ مجدولُ مكانِ الوشاح
كأنما يبسم عن لؤلؤ * مُنَضَّدٍ أو بَرَدٍ أو أقاح
يساقط الوردَ علينا وقد * تبلّج الصبحُ، نسيمُ الرياح
إن لان عِطْفاه قسا قلبُه * أو ثبّت الخلخال جال الوشاح(١)
أمزُجُ كأسى بِجَنَى ريقه * وإنما أمزُجُ راحًا براح

ومنهم من كره النديم وآثر الانفراد . قال إبراهيم الموصلىّ عفا الله تعالى عنه ورحمه :

دخلت يوما على الفضل بن يحيى فصادفته يشرب وعنده كلب، فقلت له : تُنادم كلبا ! قال : نعم، يمنعنى أذاه، ويَكُفّ عنّى أذى سواه، ويشكر قليلى، ويحفظ مَبيتى ومَقيلى . وأنشد :

وأشرب وحدى من كراهتِي الأذى * مخافةَ شرّ أو سِبَابِ لئيم

انتهى وأستغفر الله العظيم .

ومما قيل فى السُّقاة، فمن ذلك قول الصنوبرىّ عفا الله عنه :

ومُوَرَّد الخدّين يخـ * ـطِر حين يخطر فى موردْ
يسقيك من جفن اللُّجيـ * ـن اذا سقاك دموعَ عَسْجَدْ
حتى تظنّ النجم ينـ * ـزل أو تظنّ الأرض تصعدْ
فإذا سقاك بعينه * وبفيه ثم سقاك باليدْ
حيّاك بالياقوت ثم الدُّرّ من تحت الزَّبرجدْ

(١) هذا البيت ساقط من أبيات هذه القصيدة فى ديوان البحترى .

وقال ديك الجن :

ومُزِرٍ بالقضيب اذا تثنّى * ومزهاةٍ على القمــر التمامِ
ســقانى ثم قبّلنى وأوما * بطرفٍ سُقْمُه يشفى سَقامِى
فبِتّ له على الندمان أَسقِى * مُداماً فى مُدامٍ فى مدامِ

٥ وقال ابن المعتز :

تدور علينا الراحُ من كفّ شادنٍ * له لحظُ عينٍ يشتكى السقمَ مُدنَفُ
كأنّ سلافَ الخمر من ماء خدّه * وعنقودها من شعره الجعدِ يُقطَفُ

(٥٨)

وقال أيضا :

بين أقداحهم حديثٌ قصيرٌ * هو سحرٌ وما ســواه الكلامُ
١٠ فكأنّ السُّقاةَ بين النـدامَى * ألِفـاتٌ بين السطور قيامُ

وقال أحمد بن أبى فنَن :

بكفّ مُقرطَقٍ خَنِثٍ * تطيب بطيبه الرِّيَبُ
تراهـا وهى فى كفّيـ * ـه من خدّيه تلتهبُ

وقال الصنوبرىّ :

١٥ وساقٍ اذا همّ ندماننـا * بأن يُزجِىَ الكأسَ لم يُزجِهِ
كلعبة عاج على فرشـه * وليثِ عرينٍ على سَرْجِهِ
لطيفِ المنطق مهــتزّه * ثقيــلِ المؤزّرِ مرتجّه
سقانى بعينيه أضعافَ ما * سقانى بكفّيه من غُنْجِه

وقال آخر :

٢٠ ياساقىَ القوم إن دارت إلىّ فلا * تمزُجْ فإنى بدمعى مازجٌ كاسى
و ياقىَ الحىّ إن غنّيتَ من طرَبٍ * فغنِّ : واحَرَبَا مِن قلبه القاسى

وقال ابن المعتز :

وعاقدِ زُنّارٍ على غُصُن الآس * دقيق المعانى مُخْطَف الخصر ميّاس
سقانى عُقارًا صبَّ فيها مِزاجَها * فأضحك عن ثغر الحَباب فَمَ الكاس

وقال أيضا :

قام كالغصن فى النقا * يمزُج الشمس بالقمر
وسقانى المدام والليـلُ بالصبح مؤتزر
والثريّا كنَوْرِ غصـنٍ على الغرب قد نُثِر

وقال البحترىّ :

وفى القهوة أشكالٌ * من الساق وألوانُ
حَبابٌ مثلُ ما يضحـ * ـكُ عنه وهو جذلانُ
ونشرٌ مثل ما يُسْكـ * ـرُ طَرْفٌ منه وَسْنانُ
وطعمُ الريق إن جاد * به والصبّ هَيمانُ
لنا من كفّه راحٌ * ومن ريّاه ريحانُ

وقال أبو القاسم المُبيرىّ الكاتب رحمة الله تعالى عليه :

سقانا الراح ساقٍ، كلُّ راح * سوى ألحاظ عينيه سرابُ
يدير الكأسَ مبتسما علينا * فما ندرى أثغرٌ أم حَبابُ؟
وقد سَفَر الدجى عن ثوب فجر * منير مثل ما سفر النقابُ
خلتُ الصبح فى أثر الثريّا * بشيرًا جاء فى يده كتابُ

وقال أبو الشِّيص :

يطوف علينا به أحـورٌ * يداه من الكأس مخضوبتانِ
غزالٌ تميل بأعطافه * قناةٌ تعطَّف كالخيزُران

وقال أبو بكر محمد بن عمّار :

وهَوِيتــه يسـقى المُدامَ كأنه * قمرٌ يطوف بكوكبٍ فى حِنْدِسِ

متأرج الحركات تنـدَى ريحُهُ * كالغصن هزّته الصَّبا بتنفسِ

يسعى بكأسٍ فى أنامل سَوْسَنٍ * ويُدير أخرى فى محاجر نَرْجِسِ

وقال المعوّج يصف ساقية : ٥

لاعيش إلا من كفّ سـاقيةٍ * ذاتِ دلال فى طرفها مَرَضُ

كأنمـا الكأسُ حين تمزُجها * نجومُ ليـلٍ تعـلو وتنخفضُ

وقال آخر يصف آمرأةً ساقيةً :

وساقيةٍ كأنّ بمَفرِقيها * أكاليلًا على طبقاتِ وردِ

لها طِيبُ المنى وصفاءُ لونٍ * وحمرةُ وجنـةٍ ومَذاقُ شَهدِ ١٠

وقال ديك الجنّ يصف ساقيا وساقيةً :

أفـديكما من حاملَىْ قَـدَحَيْنِ * قمرين فى غصنين فى دِعصَينِ

رُودٌ منعّمةٌ ومهضوم الحشا * للناظريـن مُنًى وقُرّة عَينِ

قامت مؤنّثـةً وقام مؤنّثـا * فتناهبا الألحـاظَ بالنظرينِ

صُبَّا علىَّ الراحَ إنّ هلالَنا * قـد صبَّ نعمته على الثقلينِ ١٥

وإلىَّ كأسـكما على ماخيّلت * بالتـبر معجوناً بمـاء لُجَينِ

الباب السادس

من القسم الثالث من الفنّ الثانى

فى الغناء والسماع، وما ورد فى ذلك من الحَظْر والإباحة، وما ٱستدلّ به من رأى ذلك؛ ومن سمع الغناء من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ومن التابعين ومن الأئمة والعبّاد والزّهاد، ومن غنّى من الخلفاء وأبنائهم والأشراف والقُوّاد والأكابر، وأخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة الى العربيّة، ومن أخذ عنهم، ومن ٱشتهر بالغناء وأخبار القيان .

ذكر ما ورد فى الغناء من الحَظْر والإباحة

قد تكلم الناس فى الغناء فى التحريم والإباحة وٱختلفت أقوالهم وتباعدت مذاهبهم وتباينت ٱستدلالاتهم؛ فمنهم من رأى كراهته وأنكر ٱستماعه، وٱستدلّ على تحريمه؛ ومنهم من رأى خلافَ ذلك مطلقا وأباحه وصمّم على إباحته؛ ومنهم من فرّق بين أن يكون الغناء مجرّدا أو أضيف اليه آلة كالعود والطنبور وغيرهما من الالات ذوات الأوتار والدفوف والمعازف والقصب، فأباحه على ٱنفراده وكرهه إذا ٱنضاف إلى غيره وحرّم سماع الالات مطلقا . ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلّة ٱستدلّت بها . وقد رأينا أن نثبت فى هذا الموضع نبذة من أقوالهم على سبيل الاختصار وحذف النظائر المطوّلة فنقول وبالله التوفيق .

⁂

أما ما قيل فى تحريم الغناء وما ٱستدلّ به مَن رأى ذلك، فإنهم ٱستدلّوا على التحريم بالكتاب والسنّة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء

المسلمين . أما دليلهم من الكتاب العزيز فقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ . وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . ٥
وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ ، وقوله : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ . قال ٱبن عباس : (سَامِدُونَ) هو الغناء بلغــة حِمْير ، وقال مجاهد : هو الغناء بقول أهل اليمن ، سَمَد فلان اذا غنّى . وروى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ : إنه الغناء ، ومن طريق آخر : إنه الغناء وأشباهه . ١٠
وروى عن عبــد الله بن مسعود رضى الله عنه : هو — والذى لا إله إلا هو — الغناء . وعن مجاهد رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : صوته الغناء والمزامير . وعنــه فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ قال : الغناء .

وأمّا دليلهم من السنّة ، فما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن الله ١٥ عزّ وجلّ حرّم القينة وبيعها وثمنهــا وتعليمها والاستماع اليهــا ، ثم قرأتْ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ الآية . وروى أبو أُمامة رضى الله عنــه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما رفع أحدٌ صوته بغناء إلّا بعث الله عزّ وجلّ اليه شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يُمسك» . وروى أبو الزبير عن جابر بن عبــد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٢٠
"كان إبليس أوّل من ناح وأوّل من تغنّى" . وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله

عنـه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " نُهيتُ عن صوتين أحمقـين فاجرين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة " .

وأمّا أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، فقد روى عن عثمان بن عفّان رضى الله عنه أنه قال : ما تغنّيت قطّ . فتبرّأ من الغناء وتبجّح بتركه . ورُوى عن ٱبن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الغناء يُنبت النفاق فى القلب كما ينبت الماءُ البقلَ. ورُوى أنّ ٱبن عمر رضى الله عنهما مرّ على قوم محرمين ومعهم قوم ورجل يغنّى فقال : الا لا أسمع والله لكم ، ألا لا أسمع والله لكم . ورُوى عن عبـد الله ابن دينار قال : مرّ ٱبن عمر رضى الله عنهـما بجارية صغيرة تغنّى، فقال : لو ترك الشيطان أحدًا ترك هذه . وعن إسحاق بن عيسى قال: سألت مالك بن أنس رضى الله عنــه عمـا ترخّص فيه بعض أهل المدينـة من الغناء فقال : ما يفعله عنـدنا إلا الفُسّاق . وقال الشعبىّ : لُعِن المغنّى والمغنَّى له . وقال الحكم بن عتيبة : حبّ السماع ينبت النفاق فى القلب. ورُوى أن رجلا سأل القاسم بن محمد فقال: ما تقول فى الغناء، أحرام هو؟ فأعاد عليه؛ فقال له فى الثالثة: اذا كان يوم القيامة فأُتى بالحق والباطل أين يكون الغناء؟ قال : مع الباطل . قال القاسم : فأَفتِ نفسك . وقال الفُضَيل بن عياض : الغناء رُقْية الزنا . وقال بعضهم : الغناء رائد من رُوّاد الفجور . وقال الضحّاك : الغناء مَفْسَدة للقلب ، مَسْخَطة للرب . وقال يزيد ابن الوليد مع ٱشتهاره بمـا ٱشتهر به : يا بنى أُميّة، إيّاكم والغناء، فإنه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعله السكر، فإن كنتم لا شكّ فاعلين فجنّبوه النساء، فإن الغناء رقية الزنا . وإنى لأقول ذلك فيه على أنه أحبّ إلىّ من كلّ لذّة ، وأشهى الى نفسى من المـاء الى ذى الغُلّة الصادى، ولكن الحقّ أحقّ أن يقال .

وأمّا أقوال الأئمة رحمهم الله تعالى فقد قال الإمام الشافعيّ رضى الله عنه في كتاب أدب القضاة : الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطل . وقال : من استكثر منه فهو سفيه تُرَدّ شهادته . قال القاضى حسين بن محمد : وأمّا سماعُه من المرأة التى ليست بمَحْرم ، فإن أصحاب الشافعيّ قالوا : لا يجوز بحال سواء كانت بارزة أو من وراء حجاب وسواء كانت حرّة أو مملوكة . وقال الشافعيّ : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُرَدّ شهادته . ثم غلّظ القول فيه وقال : هو دِياثةٌ . قال : وإنما جعل صاحبها سفيها لأنه دعَا الناس إلى الباطل، ومن دعا الى باطل كان سفيها فاسقا . وقال مالك بن أنس : اذا اشترى جارية فوجدها مغنّية كان له ردّها بالعيب، قال : وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده. وكره أبو حنيفة ذلك وجعل سماع الغناء من الذنوب. قال: وذلك مذهب سائر أهل الكوفة وسفيان الثوريّ، وحمّاد بن سَلَمة، وإبراهيم النّخعيّ، والشعبيّ وغيرهم لا خلاف بينهم فى ذلك . قال : ولا يُعْرَف أيضا بين أهل البصرة خلاف فى كراهة ذلك والمنع منه . وقال بعض الزهّاد : والغناء يورث العناد فى قوم، ويورث التكذيب فى قوم، ويورث القساوة فى قوم .

وقال بعضهم عن حاله عند السماع :

أتذكُرُ وقتنا وقد اجتمعنا * على طِيبِ الغناءِ الى الصباحِ
ودارت بيننا كأسُ الأغانى * فأسكرتِ النفوسَ بغير راحِ
فلم ترفيهمُ إلا نشاوَى * سروراً والسرور هناك صاحى
إذا لبّى أخو اللذّاتِ فيه * منادى اللهوِ حىّ على السماحِ
ولم يملك سوى المُهجاتِ شيئا * أرقناها لألحاظٍ مِلاحِ

هـذا ملخص ما ذكروه فى تحريم الغناء . وقـد آستدلّ مَن أباحه بما يناقض ما تقدّم على ما نذكر ذلك إن شاء الله فى إباحة الغناء.

ذكر ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة

وقد تكلم الناس فى إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات، وهى الدفّ واليراع والقصب والأوتار على آختلافها من العود والطُّنبور وغيره ، وأباحوا ذلك وآستدلّوا عليه وضعّفوا الأحاديث الواردة فى تحريمه، وتكلّموا على رجالها وجرّحوهم وبسطوا فى ذلك المصنّفات ووسّـعوا القول وشرحوا الأدلّة . وطالعت من ذلك عدّة تصانيف فى هذا الفنّ مجرّدة له ومضافة الى غيره من العلوم . وكان ممّن تكلّم فى ذلك وجرّد له تصنيفا الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمـد بن طاهر بن على المقدسىّ رحمه الله تعالى، فقال فى ذلك ما نذكر مختصره ومعناه :

اعلم أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة الى الكافّة . قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. فبلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وسنّ وشرع، وأمر ونهى، كما أمر صلى الله عليه وسلم . فليس لأحد بعده وبعد الخلفاء الراشدين الذين أمر رسول الله صلّى الله عليـه وسلّم بالاقتداء بهم والاتباع لسنّتهم أن يحرّم ما أحلّ الله عزّ وجلّ ورسوله صلّى الله عليـه وسلّم إلا بدليل ناطق من آية محكمة، أو سنّة ماضية صحيحة ، أو إجماع من الأمة على مقالته .

وأما الآستدلال بالموضوعات والغرائب والأفراد من رواية المكذَّبين والمجرحين الذين لا تقوم برواياتهـم حجة ، وبأقاويل مَنْ فسّر القـرآن على حسب مراده ورأيه، فلا يُرْجع إلى قولهم ولا يُسلك طريقُهم؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن قول أحد من الناس أولى من قول غيره ، وإنمـا يُلْزم بقول من أُيّد بالوحى والتنزيل ، وعُصم من التغيير والتبديل . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ . فعلمنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يأمر ولم ينهَ عن أمر إلا بوحى من الله تعالى . وكذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا سئل عن أمر لم ينزل فيه وحىٌ توقّف حتى يأتيه الوحى، وليست هذه المنزلة لغيره فيلزم قبول قوله .

ذكر ما آستدلّوا به على إباحة الغناء من الأحاديث النبوية

قد آستدلّوا على إباحة الغناء بأحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منها ما رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل علَىَّ أبو بكر رضى الله عنه وعنـدى جاريتان من جوارى الأنصار تغنّيان بمـا تقاولتْ به الأنصارُ يوم بُعاث وليستا بمغنّيتين؛ فقال أبو بكر : أمِزْمارُ الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم! وذلك يوم عيد. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا " . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها قالت : دخل علَىَّ رسول الله صـلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنّيان بغناء بُعَاث؛ فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر فآنتهرنى وقال : مِزْمَارَةُ الشيطان عند النبىّ صلى الله عليه وسلم ! فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "دعهما". فلما غَفَل غمزتُهما فخرجتا، وكان يومُ عيدٍ يلعب فيـه السودانُ بالدَّرَق والحِرَاب، فإمّا سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمّا قال : " تَشتهين تَنظُرينَ " فقلت نعم .

فأقامنى وراءه، خدّى على خدّه وهو يقول : "دونكم يابنى أَرْفِدَةَ"[1] حتى اذا مَلِلت قال . "حسبُكِ؟" قلت نعم . قال : "فاْذهبى" . ومن طريق آخر عنها رضى الله عنها : أنّ أبا بكر رضى الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام مِنًى تُدَفِّفان وتضربان والنبىّ صلى الله عليه وسلم متغشّ بثوبه ؛ فانتهرهما أبو بكر ؛ فكشف النبىّ صلى الله عليه وسلم عن وجهه وقال : "دعهما يا أبا بكر فإنها أيامُ عيد" . وتلك الأيام أيامُ مِنًى . وقالت عائشة : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم يسترنى وأنا أنظر الى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "دعهم أَمْنًا بنى أَرْفِدَة" (يعنى من الأمن) . قال أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد ابن حزم رحمه الله عند ذكر هذه الأحاديث : أين يقع إنكار مَنْ أنكر مِنْ إنكار سَيِّدَىْ هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم ؛ أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ! وقد أنكر عليه الصلاة والسلام عليهما إنكارهما ، فرجعا عن رأيهما إلى قوله صلى الله عليه وسلم . وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت جاريةٌ من الأنصار فى حِجْرِى فزَفَفتُها ؛ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمع غناء ، فقال : "ياعائشة ألَا تبعثين معها مَنْ يُغَنِّى فإن هذا الحىَّ من الأنصار يحبّون الغناء" . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : نكح بعضُ الأنصار بعضَ أهل عائشة فأهدتها إلى قُبَاءَ ؛ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أهديتِ عروسَكِ" ؟ قالت نعم . قال : "فأرسلتِ معها بغناء فإن الأنصار يُحبّونه" ؟ قالت لا . قال : "فأدركيها يازينب" (امرأة كانت تغنّى بالمدينة) رواه أبو الزبير محمد بن الزبير بن مسلم المكىّ عن جابر . وعنه أيضا قال : أنكحتْ عائشةُ رضى الله عنها ذاتَ قرابة لها رجلا من الأنصار ؛ فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أهديتُم الفتاةَ" ؟

(١) بنو أرفدة : جنس من الحبشة يرقصون .

قالوا نعم . قال : "أرسلتم معها"؟ . — قال أبو طلحة راوى الحديث : ذهب عنى — فقالت لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الأنصار قوم فيهـم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول :

أتيناكم أتيناكم * فحيّـانا وحيّـاكم[1]"

وروى عن فَضَالة بن عُبَيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لله أَشَدُّ أَذَنًا إلى الرجل الحَسَن الصوت بالقرآن يَجْهَر به من صاحب القَيْنة الى قَيْنته" . قال أبو عبـد الله الحاكم فى كتابه المستدرك : هـذا حديث صحيح على شرط البخارى ومسلم، ولم يخرجاه؛ وقد خرّجه الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزوينىّ فى سننه . قال الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى : ووجه الاحتجاج من هذا الحديث هو أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت أن الله تعالى يستمع الى حَسَنِ الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القَيْنة الى قَيْنته، فأثبت دليل السماع إذ لا يجوز أن يقيس على استماع[2] محرّم . قال : ولهذا الحديث أصـل فى الصحيحين أخرجاه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم قال : " ما أَذِنَ اللهُ لشىء ما أَذِنَ[3] لنبىّ يتغنَّى بالقرآن" . هذا ما ورد فى السماع .

*
* *

وأمّا ما ورد فى الضرب بالآلة، فمن ذلك ما ورد فى الدُّفّ . رُوى عن محمد ابن حاطب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فصل ما بين الحلال والحرام

(١) الذى فى العقد الفريد : "فحيونا نحييكم" وترجحه القافية إذ روى البيت الثانى :

ولولا الحبة السمرا * ء لم تحلل بواديكم

(٢) فى الأصل هكذا : «الاستماع محرّم» وهو إما محرف عن «استماع محرم» أو «الاستماع المحرم» بتعريفهما معا أو تنكيرهما معا .

(٣) فى نهاية ابن الأثير : «ما أذن الله لشىء كأذنه لنبىّ يتغنى بالقـرآن . أى ما استمع الله لشىء كاستماعه لنبىّ يتغنى بالقرآن، أى يتلوه : يجهر به» .

الدّفّ والصوت فى النكاح". قال الحافظ أبو الفضل رحمه الله تعالى : هذا حديث صحيح ألزم أبو الحسن الدارقطنىّ مسلماً إخراجه فى الصحيح، وقال : قد روى عنه (يعنى محمد بن حاطب) أبو مالك الأشجعىّ وسِمَاك بن حرب وآبن عون ويوسف بن سعد وغيرهم . قال : وأخرج هذا الحديث أبو عبد الرحمن النسائىّ وأبو عبد الله آبن ماجه فى سُنَنِهما . وروى الحافظ أبو الفضل بسند رفعه إلى جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع صوت دفّ فقال : "ماهذا" ؟ فقيل : فلان تزوّج . فقال : "هذا نكاح ليس بالسِّفاح" . وقد ضعّف أبو الفضل إسناد هذا الحديث، وقال : إنما أخرجته على ضعف إسناده لأنه شاهد الحديث الصحيح المتقدّم . وروى أبو الفضل أيضا بسنده إلى خالد بن ذَكْوان عن الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ قالت : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل علىَّ صبيحة بُنِىَ عَلَىَّ[(١)]، فجلس على فراشى كمجلسك منِّى، فجعلت جُوَيْرِيَاتٌ يَضرِبْنَ بدُفٍّ لهنّ ويندُبْنَ مَن قُتِل من آبائى يوم بدر إلى أن قالت إحداهن : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "دَعِى هذا[(٢)] وقولى الذى كنتِ تقولين قبله" . وهذا حديث صحيح أخرجه البخارىّ قال : وقد رواه حمّاد بن سلمة عن خالد بن ذكوان أتمّ من هذا، قال : كنّا بالمدينة يوم عاشوراء وكان الجوارى يضربن بالدّفّ ويغنّين، فدخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ، فذكرنا لها ذلك، فقالت : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة عُرْسى وعندى جاريتان تُغنّيان وتندُبان آبائى الذين قُتلوا يوم بدر، وتقولان فيما تقولان : وفينا نبىٌّ يعلم ما فى غد، فقال : "أمّا هذا فلا تقولوه لا يعلم ما فى غدٍ إلا اللهُ عزّ وجلّ". وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سافر سفرا، فنَذَرت

(١) الذى فى البخارى : «فدخل حين بنى على» .

(٢) الذى فى البخارى : «دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين» .

جارية من قريش لئن ردّه الله تعالى أن تضرب فى بيت عائشة بُدَفّ . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت الجارية فقالت عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : فلانة ٱبنة فلان نذرت لئن ردّك الله تعالى أن تضرب فى بيتى بُدَفّ، قال: "فلْتضرِب" . قال أبو الفضل : وهذا إسناد مُتَصــل ورجاله ثِقات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا نذر فى معصية الله" . فلو كان ضربُ الدف معصيةً لأمر بالتكفير عن نذرها أو مَنَعَها من فعله . وروى عن الشعبىّ قال : مرّ عياض الأشعرىّ فى يوم عيــد فقال : مالى لا أراهم يُقَلِّسون فإنه من الســنّة ! . والتقليس : الضرب بالدفّ . قاله هُشَيم .

* * *

وأمّا ماورد فى اليَرَاع، فقد ٱحتجّ بعضهم بحديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما وهو ما خرّجه أبو داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتانى فى سُنَنه قال : حدّثنا أحمد بن عبد الله الغُدَانىّ، حدّثنا مسلم، حدّثنا سَعِيد بن عبد العزيز عن سليمان بن موسى عن نافع، قال : سمع ٱبن عمر رضى الله عنهما مزماراً، فوضــع إصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق، وقال لى : يا نافع، هل تسمع شيئا ؟ قلت لا . قال : فرفع إصبعيه من أذنيه وقال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثلَ هــذا . قال أبو عبد الله اللؤلئىّ : سمعت أبا داود يقول : هــذا الحديث منكر . وقال الحافظ محمد بن طاهر : هذا حديث خرّجه أبو داود فى سُنَنه هكذا وقد أنكره . وقد ورد من غير هذا الطريق أن ٱبن عمر رضى الله عنهما سمع راعيا وذكره . وفساد هــذا الحديث من وجهين : أحدهما فساد طريق الإسناد؛ فإن سليمان هذا هو الأشدق الدمشقىّ تكلم فيه أهل النقل وتفرّد بهذا الحديث عن نافع ولم يَرْوِه عنه غيرُه . وقال البخارىّ : سليمان بن موسى عنــده مــنا كيرُ . والثانى

قول عبـد الله بن عمر لنافع رضى الله عنهم : أتسمع؟ ولو كان ذلك منهيًّا عنـه لم يأمره بالاستماع . وقوله : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع مثل هذا فصنع مثل هـذا . ولو كان حرامًا لنهاه عنه وصرح بتحريمه ؛ لأنه الشارع المأمور بالبيان . قالت عائشة رضى الله عنها : عَلَّقتُ على سَهْوةٍ[1] لى سِتْرا فيه تصاوير، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلوّن وجهه وهتكه . وسمع النبىُّ صـلى الله عليه وسـلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحلف بآبائه فنهاه عن ذلك . ورأى يزيدَ بنَ طَخْفة مضطجعا على بطنه فنهاه وقال : "هـذه ضِجْعة يُبْغِضُها الله عزّ وجلّ" . وسمع صلى الله عليه وسـلم رجلا يلعن ناقتـه، فوقف فقال : "لا يَتْبَعنا ملعون"؛ فنزل عنها وأرسلها . قال الحافظ المقدسىّ : وتأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوز بحال، فثبت فساد هذا الحديث إسنادا ومتنا .

*
* *

وأمّا ما ورد فى القصب والأوتار . ويقال له التغبير، ويقال له القطقطة أيضا . ولا فرق بينـه وبين الأوتار، إذ لم يوجد فى إباحتـه وتحريمه أثر لا صحيح ولا سقيم[2]؛ وإنمـا استباح المتقدّمون استماعه لأنه مما لم يرد الشرع بتحريمه ، وكان أصله الإباحة .

وأمّا الأوتار، فالقولُ فيها القولُ فى القصب ، لم يرد الشرع بتحليلها ولا تحريمها . قال : وكل ما أوردره فى التحريم فغير ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا خلاف بين أهـل المدينة فى إباحة سماعه . ومن الدليـل على إباحته أنّ إبراهيم بن

---

(١) السهوة : سترة تكون قدام فناء البيت ربما أحاطت بالبيت شبه سور حول البيت . وقيل هو شبيه بالرف أو الطاق يوضع د . الشىء . (عن لسان العرب) .

(٢) فى الأصل : «لا صحيحا ولا سقيا» .

سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف مع جلالته وفقهه وثقته كان يُفتى بحِلّه ، وقد ضرب بالعود – وسنذكر خبره فى ذلك بعد هذا إن شاء الله تعالى – ولم تسقط عدالته بفعله عنــد أهل العلم ، فكيف تسقط عدالة المستمع ! وكان يبالغ فى هــذا الأمر أتمّ مبالغة . وقد أجمعت الأئمة على عدالته وآتفق البخارىّ ومسلم على إخراج حديثه فى الصحيح ؛ وقد عُلِمَ من مذهبه إباحةُ سماع الأوتار . والأئمة الذين رووا عنه أهلُ الحلّ والعقد فى الآفاق إنمــا سمعوا منه ورووا عنه بعــد آستماعهم غناءه وعلمِهم أنه يُبيحه ، ومنهم الإمام أحمــد بن حنبل ، سمع منه ببغداد بعــد حلفه أنه لا يحدّث حديثا إلا بعــد أن يُغنّى على عود ، وذلك أنه لا شك سمع غناءه ثم سمع حديثه . قال : وهــذا أمر لم يرد عن رسول الله صــلى الله عليه وسلم فى تحليله ولا تحريمه نصّ يُرجع إليه ، فكان حكمه كحكم الإباحة . وإنمــا تركه مَن تركه من المتقدّمين تورّعا كما تركوا لُبْسَ اللّين وأكلَ الطّيب وشربَ البارد والآجتماع بالنسوان الحسان ؛ ومعلوم أن هذا كلّه حلالٌ . وقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلَ الضبّ وسئل عنــه أحرام هو ؟ قال : " لا ولكن لم يكن بأرضِ قومى فأجــدنى أعافه " وأُكِلَ على مائدته صــلى الله عليه وســلم . وقــد رُوى عن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : إذا رأيتَ أهلَ المدينة آجتمعوا على شىء فاعلم أنه سنّة . وقد رُوى عن محمــد بن سِيرِين رحمه الله أنّ رجلا قدِم المدينــة بجَوَارٍ ، فنزل على آبن عمــر وفيهنّ جارية تضرب ؛ فجاء رجل فساومه فلم يهوَ منهنّ شيئا . فقال : انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعا من هــذا ؛ فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهنّ عليه ؛ فأمر جارية قال : خذى ، فأخذت العود حتى ظنّ آبن عمر أنه قد نظر إلى ذلك ؛ فقال آبن عمر : حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان ، قال : فبايعه . ثم جاء الرجل إلى آبن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى غُبنت بسبعمائة درهم . فأتى

آبن عمر إلى آبن جعفر فقال : إنه قد غُبن بسبعمائة درهم، فإما أن تُعطيها إياه وإمّا أن تردّ عليه بيعه ؛ فقال : بل نعطيها إياه . وهذه الحكاية ذكرها أبو محمد بن حَزْم وآستدلّ بها على إباحته فقال : فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود، وإن كان آبن عمر كره ما ليس من الجِدّ فلم ينهَ عنه، وقد سفر(١) فى بيع مغنّية كما ترى، ولو كان حراما ما آستجاز ذلك أصلا .

*
* *

وأما ما ورد فى المزامير والملاهى ، قال الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ : وأما القول فى المزامير والملاهى، فقد وردت الأحاديث الصحيحة بجواز آستماعها . فمن ذلك ما رواه بسند رفعه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ماهممتُ بشىء ممـا كان أهل الجاهليّة يفعلونه غير مرّتين كلّ ذلك يحول الله عز وجلّ بينى وبين ما أريده من ذلك ثم ما هممتُ بعدها بشىء حتى أكرمنى الله برسالته فإنى قلت لغلام من قريش ليلةً وكان يرعى معى فى أعلى مكة لو أنك أبصرت غنمى حتى أدخل مكة فأَسْمُرَ بها كما يَسْمُرُ الشباب قال أفعل . فخرجت أريد ذلك حتى جئت أوّل دار من ديار مكة سمعت عَزْفاً بالدفوف والمزامير فقلت ما هذا فقالوا فلان تزوّج فلانة بنت فلان فجلست أنظر إليهم فضرب الله عز وجلّ على أُذنى فنمت فما أيقظنى إلا مسّ الشمس فرجعت إلى صاحبى فقال ماذا فعلت قلت ما صنعت شيئا ثم خبّرته الخبر [فقال](٢) ثم قلت له ليلة أخرى مثل

(١) سفر : سعى وتوسط، ومنه السفير وهو الرسول المصلح بين القوم . وفى باب البيوع من كتاب المحلى لابن حزم : وسعى فى بيع مغنية .

(٢) هذه الكلمة وردت هكذا بالأصل، وسياق الكلام لا يقتضيها .

ذلك فقـال أفعل فخـرجت حتى دخلت مكة فسمعت حين دخلت مكة مثـل ما سمعت تلك الليـلة فسألت عنـه فقالوا فلان نكح فلانة فجلست أنظـر فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مسّ الشمس فخرجت إلى صاحبى فأخبرته الخـبر ثم ما هممت بسوء حتى أكرمنى الله تعـالى برسالته " . قال الحافظ أبو الفضـل : وكان هـذا قبل النبوّة والرسالة ونزول الأحكام والفرق بين الحـلال والحرام؛ فإن الشرع لمّـا ورد أمره الله تعالى بالإبلاغ والإنذار فأقرّه على ما كان عليه فى الجاهلية ولم يحرّمه كما حرّم غيره . قال: والدليل على أنه باقٍ على الإباحة قول الله عز وجلّ: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ . ثم بيّن الدليل على ذلك بما رواه بسنده إلى جابر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب قائمـا ، ثم يجلس ثم يقوم فيخطب قائمـا ، يخطب خطبتين . فكانت الجوارى إذا أنكحوهنّ يمرّون فيضربون بالدفّ والمزامير فيتسـلّل الناسُ[(1)] ويدَعُونَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمـا ، فعاتبهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ . وقال : هذا حديث صحيح أخرجه مسلم فى كتابه عن عبد الله بن حُمَيد عن خالد بن مَخْلد عن سليمان بن بلال . والله عز وجلّ عطف اللهوَ على التجارة وحُكْم المعطوف حُكْم ما عطف عليه ، والإجماع على تحليل التجارة ، فثبت أن هـذا الحكم مما أقرّه الشرع على ما كان عليـه فى الجاهليّة لأنه غير محتمَل أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] ثم يُمَرّ به على باب المسجد يوم الجمعة ثم يعاتب الله عزوجلّ مَن تركَ رسوله صلى الله عليه وسلم قائمًا ثم خرج ينظر إليه ويستمع . ولم ينزل فى تحريمه آية ولا سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سنّة ، فعلمنا بذلك بقاءه على حاله .

(1) أى ينطلقون فى استخفاء .

قال : ويزيد ذلك بيانا ووضوحا حديث عائشة رضى الله عنها فى المرأة التى زفّتها وقد تقـدّم ذكر الحديث . وروى أيضا بسند رفعه عن زوج دُرّة بنت أبى لَهَب قال : دخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تزوّجتُ درّةَ فقال : "هل من لهـو" .

ذكر ما ورد فى توهين ما آستدلّوا به على تحريم الغناء والسماع

قد ذكر الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعالى الأحاديث التى آستدلوا بها على تحريمه وفسّروا بها الآيات والأحاديث التى آستدلّوا بها على تحريمه ممّا قدمنا ذكر ذلك فى حججهم ومما لم نذكره ممـا يُستدلّ به على تحريمه وكراهته وضعف رجالها . وتكلم الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله أيضا فى ذلك ووهّن آحتجاجهم إذا ثبت الحديث على ما نذكر ذلك .

قال الحافظ أبو الفضل :

أمّا ما آحتجّوا به من الآيات فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الآية . وما أوردوه فى ذلك من الأسانيد إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم ، فنظرت فى جميعها فلم أر فيها طريقا يثبت إلا واحدا منهـا رواه يوسف بن موسى القطّان عن جرير بن عبد الحميد عن عَطَاء بن السـائب عن سَعيد بن جُبَير عن ابن عباس رضى الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : الغناء وأشباهُه . وسائرها لا يخلو من رواية ضعيف لا تقوم بروايته حجّة .

قال : ورأيت فى بعضها رواية عطيّة العَوْفىّ عن آبن عباس من حديث غير ثابت أصلا ﴿ وَمِنَ ٱلنَّـاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال : باطل الحديث وهو الغناء

ونحوه ؛ وهو أن رجلا من قريش آشترى جارية مغنّية فتزات فيــه . قال : وهذا وإن لم يصحّ عنـدى الآحتجاج بسـندهم فيلزمهم قبوله لأنهم آحتجّوا به فيكون فى حقّ هذا الرجل بعينه .

وقد ورد فى الآية تفسير ثالث يلزمهم قبوله على أصلهم، وذكر حديثا رفعه إلى نافع عن آبن عمر رضى الله عنهما : أنه سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول فى قوله ٥ عزّ وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ "اللعب والباطل وَتَشِحّ نفسه أن يتصدّق بدرهم" . قال : وهــذا أيضا غير ثابت عندى وإنمــا أوردت هذين التفسيرين مناقضةً لمــا أوردوه فيما تمسّكوا به .

قال : ولن أركن إلى هذا أبدا ولا أقنع به ولا أحتجّ عليه ولا أُلزمهم إياه، بل أقول صحّ عن عبد الله بن عبــاس رضى الله عنهما إجماع أهل السنّة على أن السنّة ١٠ تقضى على الكتاب، وأن الكتاب لا يقضى على السنة، وقد جاءت السنّة الصحيحة: أن النبيّ صلى الله عليــه وسلم آستمع للغناء وأمر بآستماعه ، وقد أوردنا فى ذلك من الأحاديث ماتقدّم إيراده . قال : وجواب ثانٍ يقال لهؤلاء القوم المحتجين بهذه التفاسير : هل علم هؤلاء الصحابة الذين أوردتم أقاويلهم من هــذه الآية ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يعلمه؟ فإن قالوا : لم يعلمه وعلمه هؤلاء، كان ١٥ جهلا عظيما بل كفرا . وإن قالوا : علمه، قلنا : نُقِلَ إلينا عنه فى تفسير هذه الآية مثلُ ما نُقِلَ عن هؤلاء من الصحابة ، وتأخيرُ البيــان عن وقت الحــاجة لا يجوز بحال . ومن المحال أن يكون تفســير قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هو الغناء، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أما كان معكن لهو فإن الأنصار يعجبهم اللّهوُ» . ٢٠

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : ثلاثة ليس لها أصل : المَغازى ، والملاحم ، والتفسير .

وقال أبو حاتم محمد بن حسان فى كتاب الضعفاء : الله عز وجلّ يؤتى رسوله صلى الله عليه وسلم تفسير كلامه وتأويل ما أنزل عليه حيث قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

ومن المحال أن يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يبيّن لخلقه مراده حيث جعله موضع الإبانة عن كلامه ومفسّرا لهم حتى يفهموا مراد الله عز وجلّ فلا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل أبان مراد الله عز وجلّ من الآى وفسّر لأمّته، ما تهمّ الحاجة إليه ، وبيّن سنّته صلى الله عليه وسلم . فمن تتبّع السنن وحفظها وأحكمها فقد عرف تفسير كتاب الله عز وجلّ وأغناه الله تعالى عن الكلبىّ وذويه، وما لم يبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمّته فى معانى الآى التى أنزلت عليه مع أمر الله عز وجلّ له بذلك وجاز ذلك كان لمن بعده من أمّته أجوز، وترك التفسير لما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرى .

قال : ومن أعظم الدلائل على أن الله تعالى لم يرد بقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ القرآن كله أن النبىّ صلى الله عليه وسلم نزل عليه من الكتاب متشابه من الآى . فالآيات التى ليس فيها أحكام لم يبين كيفيتها لأمته . فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم دلّ ذلك على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ كان بعض القرآن لا الكلّ .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله فى هذه الآية : وأمّا شراء لهو الحديث بالدّين آستبدالا به ليضلّ به عن سبيل الله فهو حرام مذموم، وليس النزاع فيه .

وليس كل غناء بدلا عن الدِّين مشترى به ومضِلاً عن سبيل الله وهو المراد فى الآية، ولو قرأ القرآن : ليضل بِهِ عن سبيل الله لكان حراما .

حكى عن بعض المنافقين : أنه كان يؤمّ الناس ولا يقرأ إلا سورة " عَبَسَ " لمـا فيها من العتاب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهمّ عمر بقتله [ورأى فعله حراما لمـا فيه من الإضلال](١) فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم .

وقال الثعلبيّ فى أحد أقواله عن تفسير هذه الآية عن الكلبيّ ومُقاتِل : نزلت فى النَّضير بن الحارث بن عَلْقمة بن كَلَدَة بن عبد الدار بن قُصَىّ؛ كان يتّجر فيخرج إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويُحدِّث بهـا قريشا ويقول : إن محمدًا يحدّثكم بحديث عاد وثمـود وأنا أحدّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه ويتركون آستماع القرآن .

وآحتجوا بقوله تعالى : ﴿أَفَمِنْ هَذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال آبن عباس : هو الغناء بلغة حمير، يعنى — السمود — قال الغزالىّ رحمه الله : فنقول ينبغى أن يحـرّم الضحك وعدم البكاء أيضا ، لأن الآية تشتمل عليه، فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم فهذا أيضا مخصوص بأشعارهم وغنائهـم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين كما قال تعـالى : ﴿وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ﴾ وأراد به شعراء الكفّار ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه .

وآحتجّوا بقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ . قال الثعلبىّ : قال الحسن، عن المعاصى . وقال آبن عباس : الحَلِف الكاذب . وقال مُقاتِل :

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء للغزالى .

الشتم والأذى . وقال غيرهم : مالا يحلّ من القول والفعل . قال : وقيل اللغو الذى لا فائدة فيه .

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ . قال الثعلبىّ: أى القبيح من القول . وبقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِٱللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ . قال مقاتل : إذا سمعوا من الكفّار الشتم والأذى أعرضوا وصفحوا ، وبقوله : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ . قال ابن عباس ومُجاهد وقَتادة : بدعائك إلى معصية الله تعالى . وكلّ داع إلى معصية الله تعالى فهو من جنود إبليس .

وأما ما احتجّوا به من الحديث فإنهم احتجّوا بحديث رُوى عن أبى أُمامة الباهلىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا تحلّ التجارة فيهنّ وأثمانهنّ حرام والاستماع إليهنّ حرام » . قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله : هذا حديث رواه عُبَيد الله بن زَحْر عن علىّ ابن يزيد عن القاسم عن أبى أُمامة ، قال : والصحابة كلهم عدول . وأما عُبَيد الله ابن زَحْر وعلىّ والقاسم فهم فى الرواية سواء لا يُحتجّ بحديث واحد منهم إذا انفرد بالرواية عن ثقة فكيف إذا روى عن مثله . أما عُبَيد الله بن زَحْر فيقال : إنه من أهل مصر . قال أبو مُسْهِر الغسّانى : عُبَيد الله بن زَحْر صاحب كلّ معضلة ليس على حديثه اعتماد . وقال عثمان بن سعيد الدارمىّ : قلت ليَحيَى بن مَعين : عبيد الله ابن زحر كيف حديثه؟ قال : كل حديثه ضعيف ، قلت : عن على بن يزيد وغيره؟ قال نعم . وقال عباس الدُّورىّ عن يحيى : عبيد الله بن زحر ليس بشىء . وقال أبو حاتم فى كتاب الضعفاء والمتروكين : عبيد الله بن زحر مُنْكَر الحديث جدًا ، روى الموضوعات عن الثقات و إذا روى عن علىّ بن يزيد أتى بالظلمات ، و إذا اجتمع

فى إسنادٍ عُبَيْدُ الله بن زَحْر وعلىُّ بن يزيد والقاسم بن عبد الرحمن لا يكون متنُ ذلك الحديث إلا ممّا عملت أيديهم فلا يحلّ الآحتجاج بهذه الصحيفة .

قال المقدسىّ : وهذا الحديث قد آجتمعوا فى إسناده، قال : وأما علىّ بن يزيد فهو من أهل دمشق يكنى بأبى عبـد الملك روى عن القاسم قال النّسائىّ فى كتاب الضعفاء : علىّ بن يزيد متروك الحديث. وقال أبو عبد الرحمن بن حيّان: علىّ بن يزيد مطروح منكر الحديث جدّا . وأما القاسم بن عبـد الرحمن ويكنى بأبى عبد الرحمن فقال يحيى بن مَعين : القاسم بن عبد الرحمن لا يَسْوَى شيئا . وقال أحمد بن حنبل، وذكر القاسم مولى يزيد بن معاوية فقال : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حَبّان : القاسم يروى عنه أهل الشأم، كان يروى عن الصحابة المعضلات ويأتى عن الثقات بالأسانيد المقلوبات، حتى كان يَسْبِق إلى القلب أنه المعتمِدُ لها .

قال المقدسىّ : فهذا شرح أحوال رواة الحديث الذى آحتجّوا به فى التحريم، هل تجوز روايته كما ذكره الأئمةُ حتى يستدلّ به فى التحليل والتحريم .

وآحتجّوا بمـا روى عن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أنه قال : «أمرنى ربى عز وجلّ بنفى الطنبور والمزمار» وهو حديث رواه إبراهيم بن اليَسَع بن الأشعث المكىّ وإسماعيل بن هشام بن عُرْوة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها . وإبراهيم هذا — قال البخارىّ — : منكر الحديث. وقال النسائىّ : المكىّ ضعيف .

وآحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب الدُّفّ ولعب الصَّنْج وصـوت الزمّارة، وهو حديث رواه عبد الله بن ميمون عن مَطَر بن سالم عن علىّ قال : وعبـد الله هو القـدّاح ذاهب الحديث؛ ومطر هذا شبه المجهول .

وٱحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : نهانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المغنّيات والنّواحات وعن شرائهنّ وبيعهنّ والتجارة فيهنّ وقال : "كسبهنّ حرام" . قال : وهذا حديث رواه علىّ بن يزيد الصُّدَائىّ عن الحارث بن نَبْهان عن أبى إسحاق السّبِيعِىّ عن الحارث عن علىّ رضى الله عنه قال : والحارث بن نَبْهان ليس بشىء ولا يُكتَبُ حديثه قاله يحيى بن مَعِين . وقال البخارىّ : الحارث منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : الحارث رجل صالح ولم يكن يَعرِفُ الحديثَ ولا يحفظ، منكر الحديث . وقال النسائىّ : الحارث بن نَبْهان متروك الحديث . لم يروه عن أبى إسحاق عمرو بن عبد الله السّبيعى وغيره ولا رواه عنه غير علىّ بن يزيد الصُّدائىّ . وعلى هذا قال أحمد بن عدىّ : أحاديثه لا تشبه أحاديثَ الثقات . والحارث الذى روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه هو الحارث بن عبد الله أبو زهير الخارفى[1] الأعور ، أجمع أهل النقل على كذبه ، والحمل فى هذا الحديث على الحارث بن نبهان و إن كان فى الإسناد من الضعفاء غيره .

وٱحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة صَوتُ مِزمارٍ عند نعمة وصَوتُ نُدبة[2] عند مصيبة" وهذا حديث رواه محمد بن زياد عن ميمون بن مهران عن ٱبن عباس رضى الله عنهما ، ومحمد بن زياد هذا هو الطّحّان اليَشْكُرِىّ . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سألت أبى عنه فقال : أعورُ كذّاب خبيث يضع الحديث . وقال يحيى بن معين :

(١) كذا فى أنساب السمعانى وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى . والخارفى بكسر الراء وبعدها فاء : نسبة الى خارف بطن من همدان . وفى الأصل : «الخارجى» وهو خطأ .

(٢) فى الجامع الصغير : «رنة» .

أجمع الناس على طرح هؤلاء النفر لايعتدّ بهم، منهم محمد بن زياد . وكان أبو يوسف الصَّيْدلانىّ يقول : قدم محمد بن زياد الرَّقّةَ بعد موت ميمون بن مهران .

وٱحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أنه ذكر خسفا ومسخا وقذفا يكون فى هـذه الأمة، قالوا : يارسول الله إنهـم يقولون : لا إله إلا الله، قال : " نعم إذا أَظْهَـروا النَّرْدَ والمعـازِفَ وشربَ الخمـور ولبس الحرير" قال : وهذا حديث رواه عثمان بن مَطَر عن عبد الغفور عن عبد العزيز بن سَعيد عن أبيه قال : قال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم . قال : وعثمان هو الشيبانىّ من أهل البصرة وكان ضريرًا . قال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال البخارىّ : متروك الحـــديث .

وٱحتجّوا بمـا رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " بعثنى ربّى عز وجلّ بمحق المزامير والمعازف والأوثان التى كانت تُعبَدُ فى الجاهلية والخمر وأقسم ربى عز وجلّ بعزّته ألا يشربها عبد فى الدنيا" الحديث . قال : وهذا حديث رواه محمد بن الفُرات عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن الحارث الأعور عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، ومحمد بن الفُرات هذا من أهل الكوفة . قال أبو بكر بن أبى شَيْبة : هـذا شيخ كذّاب . وقال يحيى بن معين : ليس بشىء . وقال النسائىّ : متروك . وقد تقدّم ذكر السبيعىّ والحارث الأعور، ومضى الكلام عليه .

وٱحتجّوا بما رُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه مسندا : " إن الغِناءَ يُنْبِتُ النفاقَ فى القلب" وهو حديث عبـد الرحمن بن عبد الله العُمَرىّ ٱبنِ أخى عُبَيد الله ٱبن عمر عن أبيه عن سَعيد بن أبى سَعيد المَقْبُرِىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، وعبد الرحمن هذا قال أحمد بن حنبل : ليس يَسْوَى حديثـه شيئا،

سمعت منــه ثم تركاه وكان وَلِيَ قضاء المدينــة ، أحاديثه مناكير وكان كذّاباً . قال النسائىّ : وهو متروك الحديث .

واحتجّوا بمــا رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن استمع إلى قِيَانٍ صُبَّ فى أذنيه الآنُكُ[1] " وهو حديث رواه أبو نُعَيم الحلبىّ عن عبد الله بن المنذر عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك . وأبو نعيم اسمه عُبَيد[2] بن هشام من أهل حلب ضعيف ولم يبلغ[3] عن ابن المبارك . مرسل .

واحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لعن الله النائحةَ والمُسْتَمِعَةَ والمغنِّى والمغنَّى له " وهــو حديث رواه عمرو بن يزيد المدائنىّ عن الحسن البصرىّ عن أبى هريرة ، وعمرو هذا قال أبو أحمد بن عدىّ[4] : منكر الحديث ، والحسن لم يسمع من أبى هريرة شيئا . وقال ابن عدىّ : هذا الحديث غير محفوظ .

واحتجّوا بما رُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "النظرُ إلى المغنّية حرام وغِناؤها حرام وثمنها حرام" وهو حديث يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل النوفلىّ المدنى[5] عن يزيد بن خُصَيفة عن السائب بن يزيد عن عمر بن الخطاب رضى

---

(١) الآنك : الرصاص ، ولم يجئ على أفعل مفردا غير هذا .

(٢) كذا فى تهذيب التهذيب وتقريب التهذيب وتذهيب التهذيب . وفى الأصل : «عبيد بن محمد» .

(٣) فى تهذيب التهذيب : أن أبا نعيم حدث عن ابن المبارك عن مالك بن أنس أحاديث لا يتابع عليها ثم قال بعد أن أورد الحديث المروى ههنا بالأصل : قال الدارقطنى : تفرد به أبو نعيم ولا يثبت هذا عن مالك ولا عن ابن المنكدر .

(٤) هو أبو أحمد عبد الله بن عدىّ بن عبد الله بن محمد المعروف بابن عدىّ الجرجانىّ الحافظ المتوفى سنة ٣٦٥ هـ مؤلف كتاب « الكامل فى معرفة ضعفاء المحدّثين وعلل الحديث » فى ستين جزءا وهو أكمل كتب الجرح والتعديل وعليه اعتماد الأئمة . و يوجد منه أجزاء محفوظة بدار الكتب المصرية .

(٥) كذا فى تهذيب التهذيب لابن حجر . وفى الأصل : «المدينى» .

الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويزيد الأوّل قال النسائىّ : متروك الحديث . وقال أحمـد بن حنبل : عنده مناكير . وقال يحيى بن معين : يزيد بن عبد الملك ليس بذاك .

وآحتجّوا بما رُوى عن علىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إذا عملت أمتى خمسَ عشرةَ خَصـلة حلّ فيها البـلاء " وذكرها وقال فى جملتها : "وآتخذت القيانَ والمعازفَ"، وهو حديث رواه فرج بن فَضالة الشيبانىّ من أهل حِمْص عن يحيى بن سعيد الأنصارىّ عن محمد بن علىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه . قال عبد الرحمن بن مهدى : أحاديث الفرج عن يحيى بن سعيد منكرة . وقال يحيى بن معـين : فرج ضعيف . وقال أبو حاتم بن حَسّان (١) : فرج بن فَضالة كان يَقلِبُ الأحاديث الصحيحة ويلصق المتونَ الواهيةَ بالأسانيد الصحيحة، لا يحلّ الآحتجاج به .

وآحتجّوا بحديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عبد الرحمن فذكر حديثا قال فيه : "نُهيتُ عن صوتين أحمقين فاجرين صوتٍ عند مصيبة وصوتٍ عنـد نعمة لعب ولهو ومزامير الشيطان" وهذا حديث رواه محمد آبن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء عن جابر، وأنكر عليـه هذا الحديث وضُعِّف لأجله . قال أبو حاتم بن حَسّان (١) : كان ردىء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ يروى الشىء على وجه الوهم ويسـتحق الترك . وتركه أحمـد بن حنبـل ويحيى ابن معين .

---

(١) هو أبو حاتم محمـد بن حسان مؤلف كتاب الضعفاء والمتروكين وقد مرّ ذكره فى ص ١٧٦ و ١٧٨ من هذا الجزء .

وآحتجّوا بأنه صلى الله عليه وسلم سمع صوتا فقال: "انظروا مَن هذا" فنظرتُ فإذا معاوية وعمرو يتغنّيان . الحديث ، وفيه : " اللهمّ آركُسْهما فى الفتنة رَكْسا " وهو حديث رواه يزيد بن أبى زياد (١) عن سليمان عن عمرو بن الأحوص عن أبى بَرْزة الأسلمى . ويزيدُ هذا من أهل الكوفة ، وكان الكَذَبة يلقّنونه على وَفْق آعتقادهم فيتلقّاها ويُحَدِّثُ بها ضَعَفَةَ أهل النقل ، وقد رُوى هـذا الحديث من طريق آخر ليس فيه معاوية هذا، وأنه آبن التابوت (٢) .

(٦٨)

قال المقدسىّ : ولم يصحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه ذكر أحداً من أصحابه إلّا بخـــير .

وآحتجّوا بمـا رُوى عن أبى سَعيد الخُدْرىّ رضى الله عنه رفع الحديث، أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : « يكون فى آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ فى مُتّخذِى القِيانِ وشاربى الخمور ولابسى الحرير» وهو حديث رواه زياد بن أبى زياد الجَصّاص عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخـدرىّ رضى الله عنه . وزياد هذا متروك الحديث .

وآحتجّوا بحديث رُوى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من مات وله قَيْنَةٌ فلا تصلّوا عليه» وهو حـديث روى بإسناد مجهول عن خارجة بن مصعب عن داود بن أبى هنـد عن الشعبىّ عن علىّ. وخارجة متروك الحديث من أهل سَرْخَس .

(١) فى الأصل : «زياد» . وهو تحريف والتصويب عن تهذيب التهذيب .

(٢) كذا بالأصل ولم نعثر عليه فيما بين أيدينا من كتب التراجم .

وآحتجّوا بما روى عبد الرحمن بن الجَنَدىّ قال: قال عبد الله بن بُسر[(١)] صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم: يآبن الجندىّ، فقلت: لبّيك ياأبا صفوان، قال: والله ليُمسخَنّ قوم وإنهم لفى شرب الخمور وضرب المعازف حتى يكونوا قردة أو خنازير. والحديث موقوف وآبن الجندىّ مجهول. والنبيّ صلى الله عليه وسلم سأل ربه ألّا يعذّب أمّته بما عذّب به الأمم قبلها فأعطاه ذلك.

وآحتجّوا بما رُوى عن أبى أمامة رضى الله عنه وقد تقدّم بعضه، وفيه زيادة أخرى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لا يَحلّ بيع المغنّيات ولا شراؤهنّ ولا الجلوسُ إليهنّ" ثم قال: "والذى نفسى بيده مارَفع رجلٌ عقيرته بغناءٍ إلا آرتدف على ذلك[(٢)] شيطانٌ على عاتقه هذا وشيطانٌ على عاتقه هذا حتى يسكتَ" وهذا حديث قد تقدّم أوّله من حديث عُبَيد الله بن زَحْر، وهذه الزيادة من رواية مَسْلَمَةَ بن علىّ الدمشقىّ عن يحيى بن الحارث عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبى أمامة. ومسلمة هـذا، قال آبن معين: ليس بشىء. وقال البخارىّ: منكر الحديث. وقد تقدّم القول فى القاسم بن عبد الرحمن.

وآحتجّوا بحـديث رُوى عن عبد الله بن مسعود من رواية سَلّام بن مِسكين قال: حدّثنى شيخٌ سمعَ أبا وائل يقول: سمعت آبن مسعود يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الغِناءُ يُنْبِتُ النفاقَ فى القلب" هكذا رواه سَلّامٌ عن شيخ مجهول لا يُعرفُ. ورواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبى سليم عن محمد آبن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود وقوله[(٣)]، ولم يذكر النبيّ صلى

(١) كذا فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة. وفى الأصل: «بشر» وهو خطأ لأنه ليس فى الصحابة من اسمه عبد الله بن بشر بالشين المعجمة. (٢) كذا فى شرح الإحياء للسيد مرتضى. وفى الأصول: «إلا ارتدف على ذلك جلوس شيطان على عاتقه».

(٣) كذا فى الأصول. ولعل الأصل: «من قوله».

الله عليه وسلم . ورواه الثقات عن شعبة بن الحجاج عن مغيرة عن إبراهيم ، قوله[1] ، ولم يذكر أحدا تقدّمه فيه وهذا[2] أصحّ الأقاويل فيه من قول إبراهيم . قال الغزالى رحمه الله تعالى : قول آبن مسعود : يُنبِتُ النفاقَ أراد به فى حقّ المغنّى فإنه فى حقه ينبت النفاق إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره ويروّج صوته عليه . ولا يزال ينافق ويتودّد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضا لا يوجب تحريما ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المُهَمْلَجة وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع يُنبِت الرياءَ والنفاقَ فى القلب ولا يُطلَقُ القول بتحريم ذلك كله . فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط . بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثرُ تأثيرا . ولذلك نزل[3] آبن عمر رضى الله عنهما عن فرس هَملَجَ تحته وقطع ذَنَبه لأنه آستشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشْيَته ، فهذا النفاق من المباحات .

وآحتجّوا بحديث رُوى عن صفوان بن أمية قال : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عمرو بن قُرّةَ فقال : يا نبىّ الله إن الله عز وجلّ كتب علىّ الشِّقوةَ ولا أَرانِى أُرْزَقُ إلّا مِنْ[4] دُفِّى بكفّى أفتأذن لى فى الغناء من غير فاحشة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا إذنَ ولا كَرامةَ ولا نُعْمةَ" وذكر حديثا طويلا ، وهو حديث رواه عبد الرزاق بن همّام الصَّنْعانى عن يحيى بن العَلَاء عن بشر بن نُمَير عن مكحول قال : حدّثنى يزيد بن عبد الملك عن صفوان بن أمية . ويحيى بن العلاء هذا مدنىّ الأصل رازىّ . قال يحيى بن معين : يكنى ابا عمرو ليس بثقة . وقال عمرو بن على الصيرفىّ : يحيى بن العلاء متروك الحديث والله أعلم .

(١) كذا فى الأصول . ولعل الأصل : «من قوله» . (٢) فى نسخة : «الأسانيد» .

(٣) كذا بالأصول والمعروف أن عمر رضى الله عنه عند ما ذهب الى الشام ركب برذونا فهملج به فنزل عنه وضرب وجهه وقال له : لعن الله من علمك ذلك .

(٤) فى الأصل : «إلا دفى» بدون من . والتصويب عن شرح الإحياء للسيد مرتضى .

وٱحتجّوا بمـا رُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم أنه نهى عن ثمن الكلب وكسب الزمّارة ، وهو حديث نقله سليمان بن أبى سليمان الداودىّ البصرىّ عن محمد ٱبن بشر عن أبى هريرة . وسليمان هذا متروك الحديث غير ثقة .

وٱحتجّوا بقول عثمان رضى الله عنـه : ما تغنّيتُ ولا تمنّيتُ (١) ولا مَسستُ ذكرى بيمينى منـذ بايعتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم . وهـذا حديث رواه صقر بن ٥ عبد الرحمن عن أبيه عن مالك بن مِغْوَل عن عبد الله بن إدريس عن المختار بن فُلْفُل عن أنس بن مالك فى حديث القُفّ والصيد .

قال المقدسىّ : هـذا حديث لم أر فيه تحاملا ، ورأيته ذكر من هذا أشـياء لم يأت بها غيره تُوجبُ تركَ حديثـه والله أعلم . وقال الغزالىّ رحمه الله تعالى وذكر هذا الحديث : قلنا فليكن التمنّى ومَسّ الذكر باليمين حراما إن كان هذا دليلَ تحريم ١٠ الغناء، فمن أين ثبت أن عثمان كان لا يترك إلا الحرام .

قال الحافظ أبو الفضل المقدسىّ رحمه الله تعـالى : فهذه الأحاديث وأمثالها ٱحتجّ بها من أنكر السماع جهلا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فترى الواحدَ منهم إذا رأى حديثا مكتوبا فى كتاب جعله لنفسه مذهبا واحتجّ به على مخالفه ، وهذا غلط عظيم بل جهل جسيم . هذا ملخص ما أورده رحمه الله تعالى وفيه من ١٥ الزيادات ماهو منسوب الى الثعلبى والغزالى على ما بيّناه فى مواضعه .

وقد تكلم الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالىّ الطوسىّ رحمه الله تعالى على السماع فى كتابه المترجم بـ "إحيـاء علوم الدين" وبيّن دليل الإباحة وذكر بعـد ذلك آداب السماع وآثاره فى القلب والجوارح فقال :

---

(١) أى ما كذبت . والتمنى : الكذب من منى يمنى اذا قدّر لأن الكاذب يقـدّر فى نفسه الحديث ٢٠ ثم يقوله (انظر اللسان مادّة منى) .

اعلم أن السماع هو أوّل الأمر، ويُثمر السماع حالةً فى القلب تسمّى الوجد ويُثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمّى الاضطراب، وإمّا موزونة فتسمّى التصفيق والرقص. ثم بدأ بحكم السماع وبيّن الدليلَ على إباحته ثم ذكر ما تمسّك به القائلون بتحريمه وأجاب عن ذلك بما نذكره أو مختصره إن شاء الله تعالى.

قال رحمه الله تعالى : نقل أبو طالب المكىّ إباحةَ السماع عن جماعة وقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وآبن الزُّبير، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية وغيرهم . وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابىّ وتابعىّ . قال : ولم يزل الحجازيّون عندنا بمكة يسمعون السماعَ فى أفضل أيام السنة وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عزّ وجلّ عباده فيها بذكره كأيام التشريق . ولم يزل أهل المدينة ومكة مواظبين على السماع إلى زماننا هذا فأدركنا أبا مروان القاضى وله جوارٍ يُسْمِعْنَ [النّاس](١) التلحينَ قد أعدّهنّ للصوفية . قال : وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنَانِ وكان إخوانه يستمعون إليهما . قال : وقيل لأبى الحسن بن سالم : كيف تُنكر السماعَ وقد كان الجُنَيد وسَرِىّ السَّقَطِىّ وذو النون يسمعون ! فقال : كيف أُنكِرُ السماعَ وأجازه وسمعه مَنْ هو خير منّى . وقد كان عبد الله بن جعفر الطّيار يسمع . وإنما أُنكِر اللهوَ واللعِبَ فى السماع .

وروى عن يحيى بن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فلا نراها ولا أراها تزداد إلا قلّة : حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء .

قال الغزالىّ : ورأيت فى بعض الكتب هذا بعينه محكيا عن المحاسبىّ وفيه ما يدلّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجدّه فى الدّين وتشميره .

(١) الزيادة عن الإحياء .

وحكى عن مِمْشاد الدِّينَوَرِىّ أنه قال : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يا رسول الله ، هل تنكر من هذا السماع شيئا ؟ فقال : "ما أنكر منه شيئا ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختتمون بعده بالقرآن" . قال الغزالىّ : وعن ٱبن جُرَيج أنه كان يرخص فى السماع فقيل له : تقدّمه يوم القيامة فى جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ فقال : لا فى الحسنات ولا فى السيئات لأنه شبيه باللغو ، قال الله ٥ تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾، ثم بيّن الغزالىّ رحمه الله الدليل على إباحة السماع فقال : اعلم أن قول القائل : السماع حرام، معناه أن الله تعالى يعاقب عليه وهذا أمر لا يُعرفُ بمجرّد العقل بل بالسمع ،ومعرفة الشرعيّات محصورة فى النصّ أو القياس على المنصوص . قال : وأعنى بالنصّ ما أظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله ، وبالقياس المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نصّ ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطَل القولُ بتحريمه ويبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات، ولا يدلّ على تحريم السماع نصّ ولا قياس . قال : وقد دلّ القياس والنصّ جميعا على إباحة السماع .

أما القياس فهو أن الغناء ٱجتمع فيه معانٍ ينبغى أن يُبحثَ عن أفرادها ثم عن مجموعها فإن فيه سماعَ صوتٍ طيّبٍ موزون مفهوم المعنى محرِّكٍ للقلب . فالوصف ١٥ الأعمّ أنه صوتٌ طيّب، ثم الطيب ينقسم الى الموزون وغيره . والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار، وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وأصوات سائر الحيوانات .

أما سماع الصّوتِ الطيّب من حيث إنه طيّب فلا ينبغى أن يُحرَّمَ بل هو حلال بالنصّ والقياس .

أمّا القياس فإنه يَرجع إلى تلذّذ حاسّة السمع بإدراك ما هو مخصوص به ؛ ٢٠ وللإنسان عقل وخمس حواس ولكلّ حاسّة إدراك . وفى مُدركَات تلك الحاسة

ما يُستلذّ . فلذّة البصر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن وسائر الألوان الجميلة وهى فى مقابلة ما يُكره من الألوان الكدرة القبيحة . وللشمّ الروائح الطيّبة وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة . وللذّوق الطعوم اللذيذة كالدُّسُومة والحلاوة والحموضة وهى فى مقابلة المرارة والمَزازة المستبشعة . وللمس لذّة اللين والنعومة والملاسة وهى فى مقابلة الخشونة والضَّراسة . وللعقل لذّة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل والبلادة . فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذّة كصوت العنادل والمزامير، ومستكرهة كنهيق الحُمُر وغيرها، فما أظهرَ قياسَ هذه الحاسّة ولذّتها على سائر الحواس ولذّاتها .

وأما النصّ فيدلّ على إباحة سماع الصوت الحسن آمتنان الله على عباده به إذ قال تعالى : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ فقيل : هو حسن الصوت . وفى الحديث : " ما بعث الله نبيّا إلا حسنَ الصوت " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَلّهُ أشدُّ أَذَنًا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنته " وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام : " أنه كان حسنَ الصوت فى النياحة على نفسه وفى تلاوة الزَّبُور حتى كان يجتمع الإنس والجنّ والوحش والطير لسماع صوته، وكان يُحمَل من مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب من ذلك فى الأوقات " . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مدح أبى موسى الأشعرىّ : " لقد أُعطى مزمارًا من مزامير آل داود " وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن . ولو جاز أن يقال : إنما أُبيحَ ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمه أن يُحَرِّمَ سماعَ صوت العندليب لأنه ليس بقرآن . وإذا جاز سماع صوتٍ غُفْلٍ لا معنى له ، فلم لا يجوز سماعُ صوتٍ يُفهم منه الحكمةُ والمعانى الصحيحةُ ! وإن من الشعر لحكمة . قال : فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيّبٌ حسن .

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيّب الموزون فإن الوزن وراء الحسن ، فكم من صوت حسن خارجٌ عن الوزن، وكم من صوت موزون غيرُ مستطاب . والأصوات الموزونة بآعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنهـا إمّا أن تكون من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره . وإمّا أن تخرج من حنجرة حيوان وذلك الحيوان إما إنسانٌ وإما غيره . فصوتُ العَنادل والقَمارىّ وذوات السـجع من الطيور مع طيبها موزونةٌ متناسبةُ المَطَالع والمقاطع فلذلك يُستلذّ سَمَاعُها . والأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات . وإنما وُضعت المزامير على صـورة (١) الحناجر وهى تشبيه الصَّنْعة بالخِلْقة . وما من شىء تَوصّل أهلُ الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال فى الخلقة التى آستأثر الله تعالى بآختراعها، منه تعلّم الصُّنّاع وبه قصدوا الآقتداء . فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يَحْرُمَ لكونها طيّبة أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور . ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ولا بين جماد وحيوان . فينبغى أن يُقاس على صوت العندليب الأصواتُ الخارجة من سائر الأجسام بآختيار الآدمىّ كالذى يخـرج من حلْقه أو من القضيب والطبل والدُّفّ وغيره . ولا يستثنى من هـذا إلا الملاهى والأوتار والمزامير، إذ ورد الشرع بالمنع منها لا للذّتها إذ لو كان للذّة لقيس عليها كل ما يلتذّ به الإنسان ولكن حُرّمت الخمور وآقتضت ضَراوةُ (٢) الناس بها المبالغة فى الفِطام عنها حتى انتهى الأمر فى الآبتداء الى كسر الدِّنان، فحُرِّم معها ما هو شعار أهل الشرب وهى الأوتار والمزامير فقط . وكان تحريمه من قبيل الإتباع كما حُرِّمت الخلوة (٣) لأنها مقدّمة الجماع . وحُرِّم النظر الى الفخذ

(١) فى نسخة من كتاب الإحياء : «على صوت» .

(٢) الضراوة : الاعتياد لها والاجتراء عليها .

(٣) كذا بالأصل . وفى الإحياء للغزالى : «الخلوة بالأجنبية» .

لاتصاله بالسوأتين . وحُرِّم قليــل الخمر و إن كان لا يُسْكِرُ لأنه يدعو إلى المسكر .
وما من حرام إلا وله حَرَم يُطيفُ به . وحكم الحُرْمة ينسحب على حريمه ليكون
حِمًى للحرام ووِقايةً له وحِظَارًا(١) مانعًا حوله كما قال صلى الله عليه وسلم : "إن لِكُلّ
مِلكٍ حِمًى و إنّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ" فهى محرّمة تبعا لتحريم الخمر .

٥ الدرجة الثالثة : الموزون المفهوم وهو الشعر، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة
الإنســان فيُقطَعُ بإباحة ذلك لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما . والكلام المفهوم غير
حرام . والصوت الطيِّب الموزون غير حرام . فإذا لم يَحْرُم الآحادُ فمن أين يَحــرُم
المجموعُ؛ نعم يُنظر فيما يُفهم منه، فإن كان فيــه أمر محظور حَرُم نثره ونظمُه وحَرُم
التصويتُ(٢) به سواء كان بألحان أو لم يكن .

١٠ والحقّ فيه ما قاله الشافعيّ رحمه الله إذ قال : الشعرُ كلامٌ فحَسَنه حسنٌ وقبيحُه
قبيح . ومهما جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحــان جاز مع الألحان . فإن أفراد
المباحات إذا اجتمعت كان مباحًا، ومهما انضمّ مباحٌ الى مباح لم يحرم إلا إذا تضمّن
المجموعُ محظورًا لا تتضمّنه الآحاد، ولا محظور هاهنا . وكيف يُنكر إنشادُ الشــعر
وقد أُنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال صلى الله عليه وسلم : «إنّ
١٥ من الشِّعرِ لَحِكْمَةً» وساق رحمه الله فى هذا الموضع الأحاديث الصحيحة التى تضمّنت (٧١)
إنشادَ الشــعر والحُدَاء به وهى أشهر من أن يُحتاجَ إلى سردها . ثم قال بعد سـياق
الأحاديث: ولم يزل الحُدَاء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان سيدنا رسول الله صلى
الله عليه وســلم وزمان الصحابة ، وما هو إلا أشعار تُؤَدَّى بأصواتٍ طيّبة وألحانٍ
موزونةٍ . ولم يُنقلْ عن أحد من الصحابة إنكارُه . بل ربمــا كانوا يلتمسون ذلك

٢٠ (١) الحظار : الحائط وكل ما حال بينك وبين شىء .
(٢) كذا بالأصل . وفى إحياء الغزالى : «النطق به» .

تارة لتحريك الجمال وتارة للاستلذاذ، فلا يجوز أن يُحَرَّم من حيث إنه كلام مفهوم مؤدًّى بأصواتٍ طيِّبة وألحانٍ موزونةٍ .

الدرجة الرابعة : النظر فيه من حيث إنه محرِّك للقلب ومُهيِّج لما هو الغالب عليه، قال أبو حامد : فأقول : لله سبحانه وتعالى سرٌّ فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى إنها لتؤثر فيها تأثيرا عجيبا . فمن الأصوات مايُفرِحُ ومنها مايُحزِنُ ومنها مايُنَوِّم ومنها ما يُضْحِكُ ويُطرِبَ ومنها ما يَسْتخرِجُ من الأعضاء حركاتٍ على وزنها باليد والرجل والرأس . ولا ينبغى أن يُظنّ أن ذلك لفهم معانى الشعر بل هذا جارٍ فى الأوتار حتى قيل : من لم يُحرِّكه الربيعُ وأزهاره والعود وأوتاره فهو فاسد المِزَاج ليس له علاج . وكيف يكون ذلك بفهم المعنى، وتأثيره مشاهدٌ فى الصبيّ فى مهده فإنه يُسكته الصوتُ الطيِّبُ عن بكائه، وتنصرف نفسه عما يُبكيه الى الإصغاء إليه . والجملُ مع بلادة طبعه يتأثر بالحُدَاءِ تأثيرًا يَستخِفُّ معه الأحمالَ الثقيلةَ ويَستقصِرُ لقوّة نشاطه فى سماعه المسافاتِ الطويلةَ ، وينبعث فيه من النشاط ما يُسكره ويُولِهه، فتراها إذا طالت عليها البوادى وآعتراها الإعياء والكلال تحت المحامل والأحمال اذا سمعت مُنادى الحداء تمدّ أعناقَها وتُصْغِى إلى الحادى ناصبةً آذانها وتُسرِعُ فى سيرها حتى تتزعزعَ عليها أحمالُها ومحاملها، وربما تُتلِفُ أنفسَها فى شدّة السير وثقل الحمل وهى لا تَشعُر به لنشاطها .

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدِّينَورى المعروف بالرَّقِّى، قال :

كنت فى البادية فوافيتُ قبيلةً من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباء فرأيت فى الخباء عبدًا أسودَ مقيّدا بقيد، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت(١) وقد بقى منها جمل وهو ناحل ذابل كأنه يَنزِعُ رُوحَه . فقال لى الغلام :

(١) فى الرسالة القشيرية : «بفناء البيت» .

أنت ضيفٌ ولك حق فتشفّعْ فى حقى إلى مولاى فإنه مُكرِمٌ لضيفه فلا يردّ شفاعتك فعساه يحلّ القيدَ عنّى . فلمــا أحضروا الطعام آمتنعت وقلت : لا آكل ما لم أُشَفَّعْ فى هــذا العبد ، فقال : إن هذا العبدَ قد أفقرنى وأهلك جميع مالى ، فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيّبا ، وإنى كنت اعيش من ظهور هذه الجمال فحمّلها أحمالا ثِقالا وكان يَحدُو بها حتى قطعتْ مسيرةَ ثلاثِ ليال فى ليلةٍ من طِيبِ نغمته فلما حُطّت أحمالُها موّتتْ كُلُّها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفى فلكرامتك قد وهبتُه لك قال : فأحببت أن أسمعَ صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يَحدُوَ على جمل يَستقى المــاء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجملُ وقطع حباله و وقعتُ أنا على وجهى ، فما أظنّ أنى قط سمعتُ صوتا أطيبَ منه .

قال : فإذًا تأثيرُ السماع فى القلب محسوسٌ . ومن لم يحرّكه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيــد عن الروحانية ، زائد فى غِلَظ الطبع وكثافته على الجمــال والطيور بل على ســائر البهائم فإن جميعها تتأثّر بالنغمات الموزونة . ومهما كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلوب لم يجز أن يُحكَمَ فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلفُ ذلك بالأحوال والأشخاص وآختلاف طرق النغمات ، فحكمه حكم ما فى القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل فى القلب ما ليس فيه ، ولكن يُحرّك ما هو فيه .

ذكر أقسام السماع وبواعثه

وأقسام السماع تختلف بآختلاف الأحوال : فإن منه ما هو مستحبّ وما هو مباح وما هو مكروه وما هو حرام . أما المستحبّ فهو لمن غلب عليه حبُّ الله تعالى ولم يُحرّك السماع منــه إلا الصفاتِ المحمودةَ . وأما المبــاح فهو لمن لا حظّ له من السماع إلا التلذّذ بالصوت الحسن ، وأما المكروه فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين

ولكن يتخذه عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو . وأما الحـرام فهو لأكثر الناس من الشباب ومن غلبت عليـه شهوة الدنيا فلا يُحرك السماعُ منهـم إلا ماهو الغالب على قلوبهـم من الصفات المذمومة . وقد تكلم على هذه الأقسـام الإمام أبو حامد الغزالىّ فقال رحمه الله ما مختصره ومعناه :

الكلمات المسجعة الموزونة تُعتادُ فى مواضعَ لأغراض مخصوصة تَرتبطُ بها آثارٌ فى القلب وهى سبعة مواضع :

الأول : غِناء الحَجيج فإنهـم يدورون أوّلا فى البلاد بالطبل والغناء وذلك مباح لمـا فيه من التشويق إلى الحجّ وأداء الفريضة وشهود المشاعر .

الثانى : ما يعتاده الغُزاة لتحريض الناس على الغزو وهو مباح أيضا لمـا فيه من آستثارة النفس وتحريكها على الغزو وإثارة الغضب على الكفّار وتحسين الشجاعة وتقبيح الفرار .

الثالث : ما يرتجزه الشُّجعانُ عند اللقاء فى الحرب وهو مباحٌ ومندوب لمـا فيه من تشجيع النفس وتحريك النشاط للقتال والتمدّح بالشجاعة والنجدة وقد فعله غير واحد من الصحابة رضوان الله عليهـم ، منهم علىّ بن أبى طالب وخالد بن الوليد وغيرهما .

الرابع : أصوات النِّياحة ونغماتها وتأثيرها فى تهييج البكاء وملازمة الحزن والكآبة وهذا قسمان : محمود ومذموم .

فأمّا المذموم فالحزن على ما فات . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ . والحزن على الأموات من هذا القبيل فإنه يُغْضِبُ اللهَ جلّ جلاله[1] وتأسُّفٌ على ما لا تدارك فيه .

(١) فى الإحياء : «فإنه تسخط لقضاء الله تعالى وتأسف الخ» .

وأمّا المحمود فهو حزن الإنسان على تقصيره فى أمر دينه و بكاؤه على خطاياه.
والبكاء والتباكى والحزن والتحازن على ذلك محمود لأنه يبعث على التشمير للتدارك .
ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودةً، فقد كان يَحْزَنُ ويُحْزِنُ ويَبكى ويُبكى
حتى كانت الجنائز تُرفَع من مجالس نياحته وكان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه، وذلك
٥ محمود لأن المُفضى إلى المحمود محمود . وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيِّب الصوتِ
أن يُنشِدَ على المنبر بألحانه الأشعارَ المحزِنةَ المرقِّقَة للقلب ولا أن يَبكى و يتباكى
لِيَتوصَّل به الى بكاء غيره و إثارة حزنه .

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيدًا للسرور وتهييجًا له إن كان ذلك
السرورُ مباحا كالغناء فى أيام العيد وفى العُرْس وفى وقت قدوم الغائب ووقت
١٠ الوليمة والعقيقة وعند الولادة والختان وعند حفظ القرآن، وكل ذلك معتاد لأجل
إظهار السرور . قال: ووجه جوازه أنّ من الألحان ما يُثير الفرحَ والسرورَ والطربَ
وكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ، ويدلّ على هذا إنشادهم بالدفّ
والألحان عند مَقْدَم النبىّ صلى الله عليه وسلم يقولون :

طلع البدرُ علينا * من ثَنِيَّاتِ الوداع
١٥ وجب الشكر علينا * ما دعا لله داعى

فإظهارُ هذا السرور بالنغمات والشعر والرقص والحركات محمودٌ . فقد نُقل عن
جماعة من الصحابة أنهم حَجَلوا فى سرور أصابهم كما سيأتى فى أحكام الرقص وهو
جائز فى قدوم كل غائب وكل ما يجوز الفرح به شرعا . ويجوز الفرح بزيارة
الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام .

٢٠ السادس : سماع العُشّاق تحريكا للشوق وتهييجًا للعشق وتسليةً للنفس؛ فإن
كان فى حال مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذّة، وإن كان مع المفارقة فالغرض

تهييج الشوق . والشوق وإن كان مؤلما ففيه نوعُ لذّة إذا انضاف إليـه رجاء الوصال؛ فإن الرجاء لذيذ واليأس مؤلم، وقوّة لذّة الرجاء بحسب قوّة الشوق والحبّ للشيء المرجوّ ، ففى هذا السماع تهييج للعشق وتحريك للشوق وتحصيل للذة الرجاء المقدّر فى الوصال مع الإطناب فى وصف حسن المحبوب . قال :

٥ وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يُباحُ وِصالُه كمن يَعشق زوجتَه أو سُرِّيتَه فيُصْغِى إلى غنائها لتتضاعفَ لذّتُه فى لقائها، فيحظى بالمشاهدة البصرُ وبالسماع الأُذُنُ ويَفهـمُ لطائفَ معانى الوصال والفراق القلبُ، فتترادف أسـباب اللذّة . فهذا نوع تمتُّع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها، وما متاع الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وهذا منه . وكذلك إن غُصِبت منه جاريةٌ أوحِيلَ بينه وبينها بسبب من الأسباب ١٠ فله أن يُحرِّكَ بالسماع شوقَه وأن يَستثيرَ به لذّةَ رجاء الوصال . فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لايجوز تحقيقه بالوصل واللقاء. وأما من يتمثّل فى نفسه صـورةَ صبىّ أو امرأة لا يجوز له النظر إليهـا وكان يُنزّل ما يسمع على ما يتمثّل فى نفسه فهو حرام لأنه محرّك للفكر فى الأفعال المحظورة ومهيّج للداعية إلى مالا يباح الوصول إليه لا لأمر يرجع إلى نفس السماع . وقد سئل بعض ١٥ الحكماء عن العشق فقال: دخان يصعد إلى دماغ الإنسان يزيله الجماع ويهيِّجه السماع .

(٧٣) السابع : سماع من أحبّ الله سبحانه وتعالى وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلّا رآه فيه، ولا يقرعُ سمعَه قارعٌ إلّا سمعه منه أو فيه؛ فالسماع فى حقه مهيّج لشوقه ، ومؤكِّد لعشقه وحبّه، ومُورٍ زنادَ قلبه، ومُستخرجٌ منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لايحيط الوصف بها يعرفها مَنْ ذاقها ويُنكِرُها مَنْ كَلَّ ٢٠ حِسُّـه عن ذَوَاقها؛ وتسمّى تلك الأحوال بلسان الصـوفيّة وَجْدًا — مأخوذ من الوجود — وللصوفية على هذا كلامٌ يطول شرحه ليس هذا موضعَ إيراده. والله أعلم.

ذكر العوارض التي يحرُم معها السماع

قال أبو حامد رحمه الله تعالى: والسماعُ يحرُم بخمسة عوارض: عارض فى المُسْمِع وعارض فى آلة السماع، وعارض فى نظم الصوت، وعارض فى نفس المُستمِع أو فى مواطنه، لأن أركان السماع هى المُسْمِعُ والمستَمِعُ وآلة السماع .

العارض الأوّل : أن يكون المُسْمِعُ امرأةً لا يَحِلّ النظر إليها وتُخشى الفتنةُ من سماعها، وفى معناها الصبيّ الذى تُخشى فتنتُه، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة، وليس ذلك لأجل الغناء بل لو كانت المرأة بحيث تَفْتِنُ بصوتها فى المحاورة فى غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماعُ صوتها فى القرآن أيضا، وكذلك الصبيّ الذى تُخَافُ فتنتُه . فإن قلت : فهل تقول : إن ذلك حرام بكل حال حسما للباب، أو لا يحرم إلا حيث تُخافُ الفتنةُ . فأقول : هذه مسئلة محتملة من حيثُ الفقه يتجاذبها أصلان :

أحدهما : أن الخلوةَ بالأجنبيّة والنظرَ إلى وجهها حرامٌ سواء خيفت منها الفتنة أو لم تُخَفْ لأنها مَظِنَّةُ الفتنة على الجملة . فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصورة .

والثانى : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة فلا يُلحقُ الصبيانُ بالنساء فى عموم الحَسْم بل ينبغى أن يُفَصَّلَ فيه الحالُ . وصوتُ المرأة دائرٌ بين هذين الأصلين، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب وهو قياس قريب، ولكن بينهما فرق إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أوّل هيجانها ولا تدعو إلى سماع الصوت . وليس تحريك النظر لشهوة المماسّة كتحريك السماع بل هو أشدّ .

وصوتُ المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة،

فقياسُ هــذا على النظر إلى الصبيان أولى لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب كما لم تُؤمر النساءُ بسَتْر الأصوات، فينبغى أن يُتَّبَع مَثارُ الفتن ويُقصَر التحريمُ عليه، هذا هو الأقيس عندى . قال : ويتأيّد بحديث الجاريتين المغنّيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها إذ يُعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَسمعُ صوتَهما ولم يحترز عنه ولكن لم تكن الفتنةُ مخوفةً عليه فلذلك لم يَحترزْ . فإذًا يختلف هذا بأحوال المرأة وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هــذا بالأحوال . فإنا نقول : للشيخ أن يُقَبِّلَ زوجته وهو صائم وليس للشاب ذلك . والقُبلةُ تدعو إلى الوِقَاع فى الصوم وهو محظور . والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام، فيَختلِفُ ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثانى فى الآلة — بأن تكون من شعائر أهل الشرب أو المخنّثين وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة، فهذه ثلاثة أنواع وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدُّفّ وإن كان فيه الجلاجلُ وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث فى نظم الصوت — وهو الشعر فإن كان فيــه شىء من الخَنَا والفحش والهجاء أو هو كذبٌ على الله عز وجلّ أو على رسوله أو على الصحابة كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم، فسماع ذلك حرام بألحان وغير ألحان، والمستَمِعُ شريكُ القائل وكذلك مافيه وصف امرأة بعينها فإنه لايجوز وصف المرأة بين يدى الرجال . وأمّا هجاء الكفّار وأهل البدع فذلك جائز .

فقــد كان حسان بن ثابت يُنافِحُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُهَاجِى الكفارَ، وأمره رسول الله صلى الله عليه وسلّم بذلك .

فأما النسيب وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القدّ والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر . والصحيحُ أنه لايحرم نظمُه و إنشاده بلَحْن وغير لَحْن[(١)]، وعلى المستمع ألّا يُنَزّله على آمرأة معيّنة إلّا على من تحلّ له من زوجة أو جارية ، فإن نزّله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل و إجالة الفكر فيه . ومَنْ هذا وَصْفُه فينبغى أن يَجتنبَ السماعَ رأسا فإن مَنْ غلب عليه عشقٌ نزّل كلّ مايسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا أو لم يكن، إذ مامِن لفظ إلا و يُمكن تنزيلُه على معانٍ بطريق الآستعارة فالذى غلب عليه عِشقُ مخلوقٍ ينبغى أن يَحترز من السماع بأىّ لفظ كان، والذى غلب عليه حبّ الله تعالى فلا تَضرّه الألفاظ ولا تمنعه عن فهم المعانى اللطيفة المتعلّقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع فى المستَمِع — وهو أن تكون الشهوةُ غالبةً عليه وكان فى غِرّة الشباب وكانت هذه الصفةُ أغلبَ مِن غيرها عليه، فالسماعُ حرامٌ عليه سواء غلب على قلبه حبّ شخص معيّنٍ أو لم يغلب . فإنه كيفما كان فلا يسمعُ وصفَ الصُّدْغ والخدّ والوصال والفراق إلا و يُحرّكُ ذلك شهوتَه ويُنَزّله على صورة معيّنة ينفخ الشيطان بها فى قلبه فتشتعل فيه نار الشهوة وتحتدّ بواعثُ الشرّ . وذلك هو النُّصرةُ لحزب الشيطان والتخذيلُ للعقل المانع منه الذى هو حزب الله تعالى . والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان وهى الشهواتُ، وبين حزب الله وهو نورُ العقل إلا فى قلب قد فتحه أحد الجُنْدين وآستولى عليه بالكلّية . وغالبُ القلوب قد فتحها جندُ الشيطان وغلب عليها فتحتاج حينئذ الى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجه فكيف يجوز تكثير أسلحته وتشحيذ سيوفه وأسنّته ، والسماع مُشَحِّذ

(١) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : «بصوت و بغير صوت» .

لأسلحة جند الشيطان فى حقّ مثل هــذا الشخص . فليخرج مثل هــذا عن جميع السماع فإنه يَسْتَضِرّ به والله أعلم .

العارض الخامس — أن يكون الشخص من عوامّ الخلق ولم يغلب عليــه حبّ الله فيكون السماع له محبوبا ولا غلبت عليــه الشهوة فيكون فى حقّه محظورا، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذّات المباحة إلا أنه اتخذه دَيْدَنه وهِجِّيراه وقصر ٥ عليه أكثر أوقاته، فهذا هو السفيه الذى تُرَدّ شهادته فإن المواظبة على اللهو جناية. وكما أن الصغيرة بالإصرار والمداومة تَصير كبيرةً، فبعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة وهو كالمواظبة على متابعــة الزنوج والحبشــة والنظر إلى لعبهم على الدوام فإنه ممنوع وإن لم يكن أصله ممنوعا إذ فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن هذا القبيل اللّعِبُ بالشِّطْرَنْج فإنه مباح، ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة، ومهما كان ١٠ الغرضُ اللعبَ والتلذّذَ باللهو فذلك إنمــا يباح لمــا فيه من ترويح القلب؛ إذ راحة القلب معالجةٌ له فى بعض الأوقات لتنبعث دواعيه. هذا ملخص ما أورده فى أقسام السماع وبواعثه ومقتضياته، ثم ذكر بعد ذلك آثار السماع وآدابه .

ذكر آثار السماع وآدابه

قال أبو حامد رحمه الله : اِعلم أن أوّل درجة السماع فهمُ المسموع وتنزيلُه على ١٥ معنى يقع للستمع ثم يُثمِرُ الفهمُ الوجدَ . ويُثمِر الوجدُ الحركةَ بالجوارح . فليُنظر إلى هذه المقامات الثلاثة :

المقام الأوّل — فى الفهم، وهو مختلفٌ باختلاف أحول المُستَمِع. وللمستمِع أربعة أحوالٍ :

إحداها — أن يكون سماعه بمجرّد الطبع أى لاحظّ له فى السماع إلا آستلذاذ الألحان والنغمات فهذا مباح وهو أخسّ رُتَب السماع؛ إذ الإبل شريكة له فيه وكذا سائر البهائم . ولكل حيوان نوع تلذّذ بالأصوات الطيّبة .

الحالة الثانية — أن يسمع بفهم ولكن يُنَزِّله على صورة إما معيّنة أو غير معيّنة وهو سماع الشباب وأربابِ الشهوة ويكون تنزيلُهم المسموعَ على حسب شهواتهم ومقتضى أحوالهم . وهذه الحالة أخسّ من أن يُتَكَلّم فيها إلا ببيان خِسّتها والنهى عنها .

الحالة الثالثة — أن يُنَزِّل ما يسمعه على أحوال نفسه فى معاملة الله تعالى وتقلّب أحواله فى التمكّن منه مرّة وبُعْده منه أخرى (١)، وهذا سماع المُريدين لا سيّما المبتدئين . فإن للمريد لا محالة مرادًا هو مَقْصدُه، ومَقْصدُه معرفةُ الله تعالى ولقاؤه والوصول إليه بطريق المشاهـدة بالسرّ وكشف الغطاء، وله فى مَقْصِده طريقٌ هو سالكه، ومعاملاتٌ هو مثابرٌ عليها، وحالاتٌ تستقبله فى معاملاته . فإذا سمع ذِكْرَ عتاب أو خطاب أو قبول أو ردّ أو وصلٍ أو هجر أو قُرْب أو بُعْد أو تلهّف على فائت أو تعطّش إلى مُنتظَرٍ أو شوق إلى وارد أو طمع أو يأس أو وحشة أو آستئناس أو وفاء بالوعد أو نقض للعهد أو خوف فراق أو فرح بوصال أو ذكر ملاحظة الحبيب ومدافعة الرقيب أو همول العـبَرات أو تَرادُف الحَسرات أو طول الفـراق أو عِدة الوصال (٢) أو غير ذلك ممـا يشتمل على وصفه الأشعار، فلا بدّ أن يوافق بعضُها حالَ المريد فى طلبـه، فيجرى ذلك مَجْرَى القـدّاح الذى يُورى زنادَ قلبه، فتشتعلُ به نيرانُه، ويقوَى به آنبعاثُ الشوق وهيجانه، وتَهجُمُ عليه بسببه أحوال مخالفة لعادته،

(١) فى الإحياء : « وتعذره أخرى » .

(٢) كذا فى الإحياء . وفى الأصل : « عزة الوصال » .

ويكون له مجالٌ رَحْبٌ فى تنزيل الألفاظ على أحواله . وليس على المستمع مراعاةُ مراد الشاعر من كلامه؛ بل لِكلّ كلام وجوهٌ ولكلّ ذى فهـم فى ٱقتباس المعنى منه حظٌّ . وضرب الإمام الغزالىّ لذلك أمثلة يطول شرحها .

الحالة الرابعـة — سمـاعُ مَنْ جاوز الأحوالَ والمقاماتِ فَعَزَب عن فهم ما سـوى الله تعالى حتى عَزَبَ عن نفسه وأحوالهـا ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص فى عين الشهود الذى يُضاهى حالهُ حال النّسْـوة اللاتى قَطّعْنَ أيديهنّ فى مشاهدة جمال يُوسُفَ حتى بُهِتْنَ وسقط إحساسُهنّ . وعن مثل هذه الحالة تُعبِّر الصوفية بأنه فنِى عن نفسه . ومهما فَنِىَ عن نفسه فهو عن غيره أفنى ؛ فكأنه فَنِىَ عن كلّ شىء إلا عن الواحد المشهود، وفَنِىَ أيضا عن الشهود فإنّ القلب إن ٱلتفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مُشاهِدٌ فقد غَفَل عن المشهود . فالمسـتهتر بالمرئىّ لا ٱلتفات له فى حال ٱستغراقه إلى رؤيته و[لا] (١) إلى عينه التى بها رؤيتـه ولا إلى قلبه الذى به لذّته . فالسكران لا خُبْر له فى (٢) سكره ، والملتـذّ لا خُبْر له فى (٢) ٱلتذاذه ، إنمـا خُبْره من الملتذّ به فقط ، ولكن هذا فى الغالب يكون كالبرق الخاطف الذى لا يثبت ولا يدوم وإن دام لم تُطقه القوّة البشريّة فربمـا يضـطرب تحت أعبائه ٱضطرابا تهلك فيه نفسُه كما رُوِىَ عن أبى الحسن النورى أنه سمع هذا البيت :

مازِلتُ أَنزِل من ودادك منزلًا * تتحيَّرُ الألباب دون نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه ووقع فى أَجَمَة قَصَبٍ قد قُطِعت وبقيت أصولها مثل السيوف فصار يعدو (٣) فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يجرى من رجليه حتى ورِمت قدماه وساقاه ومات بعد أيام رحمه الله .

---

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء . (٢) فى الإحياء «من» فى الموضعين بدل «فى» .

(٣) عبارة الإحياء : «فكان يعدو فيها ويروح» .

قال أبو حامد : وهذه درجة الصدّيقين فى الفهم والوجد وهى أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال وهى ممتزجة بصفات البشرية نوع قُصُور ، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله . أعنى أنه ينساها فلا يبقى له ٱلتفاتٌ إليها كما لم يكن للنِّسْوَة ٱلتفاتٌ الى اليد والسِّكّين . فيسمع بالله، ولله، وفى الله، ومن الله ؛ وهذه رتبة مَنْ خاض بلُجّة الحقائق وعَبَر ساحل الأحوال والأعمال وٱتّحد بصفاء التوحيد وتحقّق بمحض الإخلاص فلم يبق فيه منه شىء أصلا، بل خَمَدت بالكليّة بَشَرِيّته وفَنِيَ ٱلتفاته إلى صفات البشرية رأسا . قال : ولستُ أعنى بفنائه فناءَ جسده بل فناء قلبه، ولستُ أعنى بالقلب اللحم والدم بل سِرٌّ لطيفٌ له إلى القلب الظاهر نسبةٌ خفيّة وراءها سرُّ الرُّوح الذى هو من أمر الله عَرَفها مَنْ عَرَفها وجَهِلها من جَهِلها ولذلك السرّ وجودٌ . وصورة ذلك الوجود ما يحضُرُ فيه فإذا حضر فيه غيره فكأنه لا وجود إلا للحاضر . ومثاله المرآة المجلُوّة، إذ ليس لها لَوْنٌ فى نفسها بل لونها لَوْن الحاضر فيها . وكذلك الزجاجة فإنها تحكى لَوْن قرارها ولونها لَوْن الحاضر فيها وليس لها فى نفسها صورةٌ بل صورتها قَبُول الصُّوَر ولونها هو هيئة الٱستعداد لقبول الألوان . قال : وهذه مَغَاصَةٌ من مغاصات علوم المكاشَفَة منها نشأ خَيالُ من ٱدّعى الحلول والاتّحاد . هذا مُلَخّص ما أورده فى مقام الفهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

المقام الثانى — بعد الفهم والتنزيل الوجدُ .

قال الإمام الغزالىّ رحمه الله تعالى :

وللناس كلامٌ طويلٌ فى حقيقة الوجد أعنى الصوفيّة والحكماء الناظرين فى وجه مناسبة السَّماع للأرواح فلننتقل من أقوالهم ألفاظا ثم لنكشف عن الحقيقة فيه .

أما الصوفيّة، فقد قال ذو النون المصرى رحمه الله فى السماع : إنه واردُ حقٍّ جاء يُزعج القلوبَ إلى الحقّ ، فمن أصغى إليـه بحقٍّ تحقَّق ، ومن أصغى إليه بنفسٍ تزندق . فكأنه عبَّر عن الوجد بانزعاج القلوب إلى الحق وهو الذى يجده عند ورود وارد السماع، إذ سمَّى السماعَ واردَ حقّ . وقال أبو الحسين الدرّاج مخبِراً عمّا وجده فى السماع :

والوجدُ عبارةٌ عما يُوجَد عند السماع،وقال : جال بِى السماع فى ميادين البهاء، فأوجدنى وجود الحقّ عنـد العطاء ، فسقانى بكأس الصفاء، فأدركت به منـازل الرِضاء، وأخرجنى إلى رياض النزهة والفضاء .

وقال الشِّـبْلِيُّ : السماع ظاهره فِتْنة وباطنه عِبْرة ، فمن عَرَف الإشارة حلّ له آستماع العِبْرة وإلا فقد آستدعى الفتنة وتعرّض للبليّة . وأقوال الصوفيّة فى هـذا النوع كثيرة .

وأما الحكماء ، فقال بعضهم :

فى القلب فَضيلـةٌ شريفةٌ لم تقـدر قوّة النطق على إخراجها باللفظ فأخرجتها النفس بالألحان ، فلما ظَهَرت سُرّت وطَرِبت إليها ، فآستمِعوا من النفس وناجُوها ودَعُوا مُناجاة الظواهر . وقال بعضهم :

نتائجُ السماع آستنهاضُ العاجز من الرأى وآستجلابُ العازب من الفكر وحِدّة الكالّ من الأفهام والآراء حتى يثوبَ ما عَزَب وينهَضَ ما عَجَز ويَصْفوَ ما كَدَر ويَمْرَحَ(١) فى كل رأيٍ ونيّـة فيصيب ولا يخطئ ويأتى ولا يبطئ . ثم ذكر المعنى الذى الوجد عبارة عنه فقال : هو عبارةٌ عن حالةٍ يُثمرها السماع وهو واردُ [حقّ](٢) جديد عقيب السماع

(١) فى بعض نسخ الإحياء : «ويخرج من» . (٢) الزيادة عن كتاب الإحياء، وفسره الزبيدى شارح الإحياء بقوله : «أى وارد ورد من الحق تعالى وهو وارد قوى لا يشوبه الباطل» .

يجده المستمع من نفسه . وتلك الحالة لا تخلو من قسمين : فإنها إما أن تَرجع إلى مكاشفاتٍ ومشاهداتٍ هى من قبيل العلوم والتنبيهات؛ وإما أن ترجع إلى تغيرات وأحوالٍ ليست من العلوم والتنبيهات بل هى كالشوق والخوف والحزن والقلق والسرور والأسف والندم والبسط والقبض. وهذه الأحوال يهيّجها السماع ويقوّيها فإن ضعفت بحيث لم تؤثّر فى تحريك الظاهر أو تَسكينه أو تغيير حاله حتى يتحرك على خلاف عادته أو يطرُق أو يسكن عن النظر والنطق والحركة على خلاف عادته لم يُسَمّ وجدا . وإن ظهر على الظاهر سُمِّىَ وجدا إما ضعيفا وإما قويّا بحسب ظهوره وتغييره الظاهر وتحريكه بحسب قوّة وروده وحفظ الظاهر عن التغيير بحسب قوّة الواجد وقدرته على حفظ جوارحه، فقد يقوَى الوجد فى الباطن ولا يتغيّر الظاهر لقوّة صاحبه وقد لا يظهر لضعف الوارد وقصوره عن التحريك وحلّ عُقَد التماسك. وإلى المعنى الأوّل أشار أبو سعيد بن الأعرابىّ حيث قال فى الوجد : إنه مشاهدَة الرقيب وحضور الفهم وملاحظة الغيب ولا يبعد أن يكون السماع منشأ لكشف ما لم يكن مكشوفا قبله؛ فإنّ الكشف يحصل بأسباب: منها التنبيه، والسماع منبّه. ومنها تغيّر الأحوال ومشاهدتها وإدراكها، فإنّ إدراكها نوع علمٍ يفيد إيضاح أمورٍ لم تكن معلومة قبل الورود .

ومنها صفاء القلب، والسماع مؤثّر فى تصفية القلوب، والصفاء سبب المكاشفة.

ومنها انبعاث نشاط القلب بقوّة السماع فيقوَى على مشاهدة ما كان تقصر عنه [قبل ذلك][1] قوّته كما يقوى البعير على حمل ما كان لا يقوى عليه قبله، وهذا الاستكشاف من ملاحظة أسرار الملكوت . وكما أنّ حمل الجمل يكون بواسطة، فبواسطة هذه الأسباب يكون سبب الكشف؛ بل القلب إذا صفا تمثّل له الحقّ

(١) الزيادة عن كتاب الإحياء .

فى صورةٍ مشاهدةٍ أو فى لفظٍ منظومٍ يَقرَعُ سمعه يعبَّر عنه بصوت الهاتف إذا كان فى اليَقَظَة و بالرؤيا إذا كان فى المنام وذلك جزء من النبوّة؛ وعلم تحقيق ذلك خارج عن علم المعاملة . وذلك كما روى عن محمد بن مسروقٍ البغدادىّ (١) أنه قال: خرجت يوما فى أيام جهلى وأنا نشوانُ وكنت أُغنّى هذا البيتَ :

بطـيزناباذَ (٢) كَرْمٌ ما مررتُ به * إلا تعجّبتُ ممن يشرب الماءَ

فسمعت قائلا يقول :

وفى جهنّم ماءٌ ما تجـرّعهُ * خَلْقٌ فأبقى له فى الجوف أمعاءَ

فقال : وكان ذلك سبب توبتى وآشتغالى بالعلم .

قال أبو حامد: فانظر كيف أثّر الغناء فى تصفية قلبه حتى تمثّل له حقيقة الحقّ فى صفة جهنم وفى لفظٍ منظومٍ موزونٍ وقرع ذلك سمعه الظاهر. وكما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب . ويشاهد أيضا بالبصر صورة الخَضِر عليه السلام فإنه يخيّل لأرباب القلوب بصورٍ مختلفة، وفى مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اتقوا فِراسةَ المؤمنِ فإنه ينظر بنور الله تعالى" . قال : فحاصل الوجد يرجع إلى مكاشفاتٍ وإلى حالاتٍ ينقسم كل واحدٍ منهما إلى ما لا يمكن التعبير عنه عند الإفاقة منه وإلى ما لا تمكن العبارة عنه أصلا . وضرب لذلك أمثلة، منها أن الفقيه قد تعرض عليه مسألتان متشابهتان فى الصورة ويُدرِك بذوقه أن بينهما فرقا فى الحُكْم، فإذا كُلِّف ذكرَ وجه الفرق لم يساعده اللسان على التعبير عنه وإن كان من أفصح الناس، فيُدرِك بذوقه

(١) فى معجم ياقوت : «محمد بن عبد الله الكاتب» .

(٢) طيزناباذ : موضع بين الكوفة والقادسية على حافة الطريق على جادّة الحاج وبينها وبين القادسية ميل، كانت إقطاعا للأشعث بن قيس من عمر بن الخطاب وكانت من أنزه المواضع محفوفة بالكروم والشجر والحانات والمعاصر وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة «عن معجم البلدان لياقوت» .

الفرق ولا يمكنه التعبير عنه . وإدراكه الفرق عِلمٌ يصادفه فى قلبه بالذوق . ولا شك أنّ لوقوعه فى قلبه سببا، وله عند الله تعالى حقيقة، ولا يمكنه الإخبار عنه لقصورٍ فى لسانه بل لدقة المعنى أن تناله العبارة .

وأمّا الحال فكم من إنسانٍ يُدرِك فى قلبه فى الوقت [الذى يصبح فيه][1] قبضا أو بسطا ولا يعلم سببه ، وقد يتفكر فى شىء فيؤثّر فى نفسه أثرا فينسى ذلك السبب ويبقى الأثر فى نفسه وهو يَحُسّ به ، وقد تكون الحالة التى يُحِسّها سرورا يثبت فى نفسه بتفكره فى سبب موجب للسرور ؛ أو حُزْنا فينسى المتفكر فيه ويحس بالأثر عقيبه . وقد تكون تلك الحال حالة غريبة لا يُعرِب عنها لفظ السرور والحزن ولا يصادف لها عبارة مطابقة مُفصِحةٌ عن المقصود؛ بل ذوق الشعر الموزون والفرق بينه وبين غير الموزون يختصّ به بعض الناس دون بعض، وهى حالة يُدركها صاحب الذوق بحيث لا يشك فيها (أعنى التفرقة بين الموزون والمزحف) ولا يمكنه التعبير عنها بما يتّضح به مقصوده لمن لا ذوق له . وفى النفس أحوال غريبة هذا وصفها بل المعانى المشهورة من الخوف والحزن والسرور إنما تحصُل فى السماع عن غناء مفهومٍ . فأمّا الأوتار وسائر النغماتِ التى ليست مفهومة فإنها تؤثّر فى النفس تأثيرا عجيبا، ولا يمكن التعبير عن عجائب تلك الأوتار، وقد يعبرّ عنها بالشوق، ولكن شوق لا يعرف صاحبه المشتاق إليه، فهذا عجيب . والذى اضطربت نفسه بسماع الأوتار والشاهين وما أشبهه ليس يدرى إلى ماذا يشتاق، ويجد فى نفسه حالة كأنها تتقاضى أمرا ليس يدرى ما هو، حتى يقع ذلك للعوامّ ومن لا يغلب على قلبه لا حبّ آدمىٍّ ولا حبّ الله تعالى . وهذا له سِرّ، وهو أنّ كل شوقٍ فله ركنان : أحدهما صفة المشتاق وهو نوع مناسبةٍ مع المشتاق إليه . والثانى معرفة المشتاق إليه ومعرفة صورة

(١) الزيادة عن الإحياء .

الوصول إليه . فإن وُجدت الصفة التي بها الشوق ووُجد العلم بالمشتاق ووُجدت الصفة المشوّقة وحركت قلبك الصفة وآشتعلت نارها ، أورث ذلك دهشـة وحيرة لا محالة . ولو نشأ آدميّ وحده حيث لم ير صورة النساء ولا عرف صورة الوقاع ثم راهق الحُلُمَ وغلبت عليه الشهوة لكان يُحسّ من نفسه بنار الشهوة ولا يدرى أنه يشتاق إلى الوقاع لأنه ليس يدرى صورة الوقاع ولا يعرف صورة النساء؛ فكذلك فى نفس الآدمىّ مناسبة مع العالَم الأعلى واللذّاتِ التي وُعِد بها فى سدرة المنتهى والفراديس العُلا، إلا أنه لم يتخيّل من هذه الأمور إلا الصفات والأسماء كالذى يسمع [لفظ][1] الوقاع و [آسم][1] النساء ولم يشاهد صورة آمرأة قط ولا صورة رجل ولاصورة نفسه فى المرآة ليعرف بالمقايسة . فالسماع يحرّك منه الشوق؛ والجهل المفرط والآشتغال بالدنيا قد أنساه نفسه وأنساه ربه وأنساه مستقرّه الذى إليه حنينه وآشتياقه بالطبع، فيتقاضاه قلبه أمرًا ليس يدرى ما هو فيدهش ويضطرب ويتحيّر ويكون كالمختنق[2] الذى لا يعرف طريق الخلاص . فهذا وأمثاله من الأحوال التي لا يُدرَك تمام حقائقها ، ولا يمكن المتّصِف بها أن يعبّر عنها . فقد ظهر آنقسام الوجد إلى ما يمكن إظهاره وإلى ما لا يمكن إظهاره . قال :

وآعلم أيضا أن الوجد ينقسم إلى هاجم وإلى متكلّف يسمى التواجد. وهذا التواجد المتكلف، فمنه مذموم وهو الذى يقصد به الرياء وإظهار الأحوال الشريفة مع الإفلاس منها ؛ ومنه ما هو محمود وهو التوصّل الى الآستدعاء للأحوال الشريفة وآكتسابها وآجتلابها بالحيلة ؛ فإن للكسب مدخلا فى جلب الأحوال الشريفة ؛ ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يحضره البكاء فى قراءة القرآن أن يتباكى ويتحازنَ،

(١) الزيادة فى كليهما عن الإحياء .

(٢) فى الأصل : « كالمنجنيق» والتصويب عن الإحياء .

فإن هذه الأحوال قد تُتَكَلّف مباديها ثم تحقّق أواخرها . وكيف لا يكون التكلّف سببا فى أن يصير المتكلّف بالآخرة طبعا ، وكل من يتعلّم القرآن أوّلا يحفظه تكلّفا ويقرؤه تكلّفا مع تمام التأمل وإحضار الذهن ثم يصير ذلك دَيْدَنا للسان مُطّردا حتى يجرى به لسانه فى الصلاة وغيرها وهو غافل فيقرأ تمام السورة وتثوب نفسه إليه بعد ٥ انتهائه الى آخرها ويعلم أنه قرأها فى حال غفلته . وذكر أبو حامد أمثلة نحو ذلك ثم قال : وكذلك الأحوالُ الشريفة لا ينبغى أن يقع اليأس منها عند فقدها ، بل ينبغى أن يُتكلّف آجتلابها بالسماع وغيره ؛ فلقد شُوهد فى العادات مَن آشتهى أن يعشَق شخصا ولم يكن يعشَقه فلم يزل يردّد ذكره على نفسه ويديم النظر إليه ويقرّر على نفسه الأوصافَ المحبوبة إليه والأخلاقَ المحمودة فيه حتى عَشِقه ورسخ ذلك فى قلبه رسوخا ١٠ خرج عن حدّ آختياره ، وآشتهى بعد ذلك الخلاص منه فلم يتخلّص ، فكذلك حبُّ الله تعالى والشوقُ إلى لقائه والخوفُ من سخطه وغير ذلك من الأحوال الشريفة إذا فقدها الإنسان فينبغى أن يتكلّف آجتلابها بمجالسة الموصوفين بها ، ومشاهدة أحوالهم ، وتحسينِ صفاتهم فى النفس ، وبالجلوس معهم فى السماع ، وبالدعاء والتضرّع إلى الله تعالى فى أن يرزقه تلك الحالةَ بأن يُيسّر له أسبابها ؛ ومن أسبابها السماع ١٥ ومجالسة الصالحين والخائفين والمحبّين والمشتاقين والخاشعين ؛ فمن جالس شخصا سَرَت إليه صفاته من حيث لا يدرى . ويدلّ على إمكان تحصيل الحبّ وغيره من الأحوال بالأسباب قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعائه : "اللهمّ آرزقنى حبّك وحبّ من أحبّك وحبّ مَن يُقرّبنى إلى حبّك" . فقد فزع[1] إلى الدعاء فى طلب الحبّ .
قال : فهذا بيان آنقسام الوجد إلى مكاشفاتٍ وإلى أحوالٍ ، وآنقسامه الى ما يمكن ٢٠ الإيضاح عنه وإلى ما لا يمكن ، وآنقسامه إلى المتكلّف وإلى المطبوع .

(١) فى الأصل : «نزع» والتصويب عن الإحياء .

المقام الثالث — فى آداب السماع ظاهرًا و باطنا ، وما يُحمد من آثار الوجد ويُذمّ .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله تعالى : فأما الآداب فهى خمس جملٍ :

الأوّل — مراعاة الزمانِ والمكانِ والإخوانِ . قال الجُنَيد : السماع يحتاج الى ثلاثة أشياء و إلا فلا تسمع : الزمان والمكان والإخوان . قال الغزالىّ : ومعناه أن الاشتغال ٥
به فى وقت حضور طعامٍ أو خصامٍ أوصلاةٍ أو صارفٍ من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه ، فهذا معنى مراعاة الزمان ، فيراعى فراغ القلب . والمكان قد يكون شارعا مطروقا أو موضعا كريه الصورة أو فيه سبب يشغل القلب فيُتجنّب ذلك .
وأما الإخوان فسببه أنه إذا حضر غير الجنس من منكر السماع متزهِّدِ الظاهر مفلسٍ من لطائف القلوب كان مستثقَلًا فى المجلس واشتغل القلب به ، وكذا إذا حضر ١٠
متكبّر من أهل الدنيا فيحتاج إلى مراقبتِهِ ومراعاتِه ، أو متكلّف متواجِد من أهل التصوّف يرائى بالوجد والرقصِ وتمزيقِ الثوب ، فكل ذلك مشوّشات ، فترك السماع عند فقد هذه الشروط أولى .

الثــانى — وهو نظر للحاضرين ، أن الشيخ إذا كان حوله مُرِيدون يضرّهم السماع فلا ينبغى أن يسمع فى حضورهم ؛ فإن سمِـــع فليشغلهم بشغل آخر . والمريد الذى ١٥
لا يستفيد بالسماع أحدُ ثلاثةٍ : أقلّهم درجة هو الذى لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة ولم يكن له ذوق السماع ؛ فاشتغاله بالسماع اشتغال بما لا يعنيه ؛ فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ، ولا من أهل الذوق فيتنعّم بذوق السماع ؛ فليشتغل بذكرٍ أو خدمةٍ و إلا فهو مضيّع لزمانه . الثــانى : هو الذى له ذوق ولكن فيــه بقية من الحظوظ والالتفات إلى الشهوات والصفات البشريّة ولم ينكسر بعدُ انكسارًا تؤمَنُ غوائله ، فربما يُهيّج السماع منه داعيةَ اللّهو والشهوة فينقطع طريقه ويصدّه عن الاستكمال .

الثالث : أن يكون قد آنكسرت شهوته وأُمِنت غائلته وآنفتحت بصيرته وآستولى على قلبه حبّ الله تعالى ، ولكنه لم يُحكِمْ ظاهرَ العلم ولم يعرف أسمـاء اللهِ وصفاتِه وما يجوز عليه وما يستحيل، و إذا فُتِح له باب السماع نزّل المسموع فى حقّ الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز ، فيكون ضرره من تلك الخواطر التى هى كفر أعظم عليه من نفع السماع . قال سهـل : كلُّ وجدٍ لا يشهد له الكتاب والسنّة فهو باطل . فلا يصلح السماع لمثل هـذا ولا لمن قلبه بعـدُ ملوّث بحبّ الدنيا وشهوةِ المحمدةِ والثناء، ولا من يسمع لأجل التلذّذ والآستطابة بالطبع ، فيصير ذلك عادة له و يشغله عن عبادتِه ومراعاةِ قلبِه وتنقطع عليـه طريقة الأدب ؛ فالسماع مَزَلّة قدم يجب حفظ الضعفاء عنه .

الأدب الثالث — أن يكون مُصغيا إلى ما يقوله القائل، حاضرَ القلب، قليلَ الآلتفات إلى الجوانب، متحرّزًا عن النظر إلى وجوه المستمعين وما يظهر عليهم من أحوال الوجد، مشتغلا بنفسه ومراعاة قلبِه ومراقبةِ ما يفتح الله له من رحمته فى سِرّه، متحفّظا عن حركةٍ تُشوّش على أصحابه قلوبهـم؛ بل يكون ساكنَ الظاهر ، هادئَ الأطراف متحرزا عن التنحنح والتثاؤب، يجلس مُطرِقًا رأسَه بجلوسِه فى فكرٍ مستغرقٍ لقلبـه ، متماسكا عن التصفيق والرقص وسائر الحركات على وجهِ التصنّع والتكلّف والمراءاة، ساكتا عن النطق فى أثناء القول بكل ما عنه بدّ . فإن غلبه الوجد وحرّكه بغير آختيار فهو فيه معـذور وغير ملوم ؛ ومهما رجع إليه آختياره فليعُـد إلى هدوّه وسكونه . ولا ينبغى أن يستديمه حياء من أن يقال : انقطع وجده على القرب، ولا أن يتواجد خوفا من أن يقال : هو قاسِى القلب عديم الصفاء والرقّة. قال : وقوّة الوجد تحرّك ، وقوّة العقل والتماسُك تضبط الظواهرَ . وقد يغلب أحدهما الآخر إما لشدّة قوّته، و إما لضعف ما يقابله ، ويكون النقصان والكمال بحسب ذلك . فلا

تظنن أن الذى يضطرب بنفسه على الأرض أتمّ وجدا من الساكن بٱضطرابه، بل ربّ ساكنٍ أتمّ وجدا من المضطرب؛ فقد كان الجنيــد يتحرّك فى السماع فى بدايته ثم صار لا يتحرّك فقيل له فى ذلك فقال : (وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) إشارة إلى أنــ القلب مضطرب جائل فى الملكوت، والجوارح متأدّبة فى الظاهر ساكنة . ٥

الأدب الرابع — ألّا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدِر على ضبط نفسِه ؛ ولكن إن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به المراءاة؛ لأن التباكى ٱستجلاب للحزن، والرقص سبب فى تحريك السرور والنشاط، وكل سرور مباح فيجوز تحريكه ؛ ولو كان ذلك حراما لمــا نظرت عائشة رضى الله عنها إلى الحبشة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يزفِنون(١) . وقد رُوِىَ عن جماعةٍ من الصحابة أنهم حجلوا لمّــا ورد ١٠ عليهم سرور أوجب ذلك [وذلك(٢)] فى قصة ٱبنة حمزة بن عبدالمطلب لمــا ٱختصم فيها علىّ بن أبى طالب وأخوه جعفر و زيد بن حارثة رضى الله عنهم، فتشاحّوا فى تربيتها؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "أنتَ مِنّى وأنا منك" فحجل علىّ . وقال لجعفــر : "أشبهتَ خَلْقِى وخُلُقِى" فحجل . وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا" فحجل . الحديث . قال : والحجل(٣) : الرقص، ويكون لفرحٍ أو شوقٍ، فحكمه حُكْم ١٥ مهيِّجه إن كان فرحه محمــودا؛ والرقصُ يزيده ويؤكده فهو محمــود، فإن كان مباحا فهو مباح، وإن كان مذموما فهو مذموم. نعم لا يليق ذلك بمناصب الأكابر وأهل القدوة لأنه فى الأكثر يكون عن لهو ولعبٍ ، وما له صورة اللعب فى أعين الناس

(٧٩)

---

(١) يزفنون : يرقصون . (٢) الزيادة عن الإحياء .

(٣) فى النهاية لابن الأثير : الحجل أن يرفع رجلا و يقفز على الأخرى من الفرح وقد يكون بالرجلين إلا أنه قفز . ٢٠

فينبغى أن يجتنبه المقتدَى به لئلا يصغُر فى أعين الخلق فيُترَكَ الاقتداءُ به . وأما تخريق الثياب فلا رُخْصة فيه إلا عند خروج الأمر عن الاختيار . ولا يبعُدُ أن يغلب الوجد بحيث يمزّق ثوبه وهو لا يدرِى لغلبة سكر الوجدِ عليه أو يدرِى ولكن يكون كالمضطر الذى لا يقدر على ضبط نفسهِ، وتكون صورته صورة المكرهِ ، إذ يكون له فى الحركة أو التمزيق متنفّس فيضطر إليه اضطرار المريض الى الأنين؛ ولو كلّف الصبرَ عنه لم يقدر عليه مع أنه فعل اختيارىّ؛ فليس كلّ فعلٍ حصوله بالإرادة يقدر الإنسان على تركه؛ فالتنفّس فعلٌ يحصُل بالإرادة، ولو كلّف الإنسان نفسه أن يمسك النفس ساعة اضطر من باطنه إلى أن يختار التنفّس، فكذلك الزعقة وتخريق الثياب قد يكون كذلك فهذا لا يوصف بالتحريم .

الأدب الخامس — موافقةُ القوم فى القيام إذا قام واحد منهم فى وجدٍ صادق من غير رياءٍ وتكلّف، أوقام باختيارٍ من غير إظهار وجدٍ وقام له الجماعة فلا بدّ من الموافقة، فذلك من آداب الصحبة . وكذلك إن جرت عادة طائفةٍ بتنحيةِ العِمامة على موافقةِ صاحب الوجد إذا سقطت عمامته أو خلع الثياب إذا سقط عنه ثوبه بالتخريق[1] . فالموافقة فى هذه الأمور من حُسْن الصحبة والعِشرة، إذ المخالفة موحشة . ولكلّ قومٍ رسمٌ؛ ولا بدّ من مخالقةِ الناسِ بأخلاقهم كما ورد فى الخبرِ لاسيما إذا كانت أخلاقا فيها حسن المعاشرة والمجاملة وتطييب القلب بالمساعدة . وقول القائل : إنّ ذلك بدعة لم تكن فى الصحابة، فليس كلّ ما يحكم بإباحتهِ منقولا عن الصحابة ولم ينقل النهىُ عن شىء من هذا . والقيامُ عند الدخول للداخل لم يكن من عادة العرب، بل كان الصحابةُ لا يقومون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأحوال كما رواه أنس رضى الله عنه ، وإن كان لم يثبت فيه نَهْىٌ عامٌّ، فلا نرى

(١) فى الإحياء . «بالتمزيق» .

به بأسا فى البلاد التى جرت العادةُ فيها بإكرام الداخل بالقيام؛ فإنّ القصد منه الاحترام والإكرام وتطييب القلب به؛ كذلك سائرُ أنواع المساعدة إذا قُصِدَ بها طيبةُ القلب واصطلح عليها جماعةٌ فلا بأس بمساعدتهم عليها؛ بل الأحسن المساعدة إلا فيما ورد فيه نَهْىٌ لا يقبل التأويل . ومن الأدب ألّا يقوم للرقص مع القوم (١) إن كان يُستثقل رقصه ويشوّش عليهم أحوالهم؛ إذ الرقص من غير إظهار التواجد مباح، والمتواجد هو الذى يلوح للجمع منه أثر التكلّف؛ ومن يقوم عن صدق لا تستثقله الطباع ؛ فقلوب الحاضرين إذا كانوا من أرباب القلوب محكٌّ للصدق والتكلُّف . سئل بعضهم عن الوجد الصحيح فقال: صحته قبول قلوب الحاضرين له إذا كانوا أشكالا غير أضدادٍ . هذا ملخّص ما أورده الغزالىّ رحمه الله تعالى فى معنى السماع وقسمه الى هذه الأقسام التى ذكرناها .

وأما أبو محمد علىّ بن أحمد بن سعيد بن حَزْم فقد ذكر مسألة السماع وبيّن إباحته، فبدأ بذكر الأحاديث التى احتجّوا بها وضَعَّف رُوَاتها نحو ما تقدّم وذكر الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وأنه قيل : إنه الغناء، فليس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ثَبَتَ عن أحد من أصحابه رضى الله عنهم، فإنما هو قول بعض المفسّرين ممن لا يقوم بقوله حُجّة؛ وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم لو صحّ لما كان فيه متعلّق ؛ لأنّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وكلّ شىءٍ اقتُنِىَ ليُضَل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ولو أنه شِراء مصحف أو تعليم قرآن . فإذًا لم يصحّ فى هذا شىء فقد قال الله عز وجلّ : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ

(١) كذا فى الإحياء . وعبارة الأصل : « ومن الأدب ألا يقوم المرقص مع القوم للرقص اذا كان ... الخ» .

لَكُمْ مَافِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعظم الناس جُرْمًا فى الإسلام مَنْ سأل عن شيء لم يُحَرَّم فَحُرِّم من أجل مسألته"، فصحّ أن كل شيء حرّمه الله عزّ وجلّ علينا فقد فصّله لنا، وكل مالم يُفصّل تحريمه لنا فهو حلال .
وآستدلّ رحمه الله على إباحته بالأحاديث التى ذكرناها، حديث عائشة عن خبر أبى بكر
٥ الصدّيق رضى الله عنهما فى غناءِ الجاريتين، وآستدلّ أيضا بحديث نافع أن آبن عمر سَمِع مزمارا فوضع إصبعيه فى أذنيه ونأى عن الطريق وقال : يا نافع، هل تسمع شيئا؟ قلت لا، فرفع إصبعيه عن أذنيه وقال : كنتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسَمِع مثل هذا وصنع مثل هذا . قال : فلو كان حراما ما أباح عليه الصلاة والسلام لآبن عمر سماعه ولا أباح آبن عمر لنافع سماعه؛ ولكنّه عليه الصلاة والسلام
١٠ كرِه لنفسه كلّ شيء ليس من التقرّب إلى الله عز وجلّ، كما كَرِه الأكل مُتّكئًا، والتنشّف بعد الغسل فى ثوب يعدّ لذلك، والستر الموشّى على سَهْوة عائشة وعلى باب فاطمة رضى الله عنهما، وكما كرِه صلى الله عليه وسلم أشدّ الكراهة أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بُعِث عليه الصلاة والسلام مُنكِرا للنكَر، آمرا بالمعروف . (٨٠) فلو كان ذلك حرامًا لما آقتصر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يسدّ أذنيه عنه دون أن
١٥ يأمر بتركه وينهى عنه، ولم يفعل عليه الصلاة والسلام شيئا من ذلك بل أقرّه وتنزّه عنه، فصحّ أنه مباح وأن الترك له أفضل كسائر فضول الدنيا المباحةِ .

قال : فإن قال قائل: قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ ففى أىّ ذلك يقع الغناء ؟ قيل له : حيث يقع التروّح فى البساتين وصباغ ألوان الثياب، ولِكُلِّ ٱمْرِئٍ مَا نَوَى فإذا نوى المرء ترويح نفسِه وإجمامَها لتقوى على طاعة
٢٠ الله فما أتى ضلالا . قال : ولا يحلّ تحريم شيء ولا إباحته إلا بنص من الله عز وجلّ أو من رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنه إخبار عن الله عز وجلّ، ولا يجوز

عنه تعالى إلا بالنصّ الذى لا شكّ فيه . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ كَذَبَ علىّ مُتعمِّدًا فليتبوّأ مقعدَه من النــار" . وقد تكلّم على إباحةِ السماع جماعة من العلماء . وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية . فلنذكر من سَمِــع الغناء من الصحابة رضى الله عنهم .

ذكر من سمع الغناء من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم

قد رُوِى أن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم سمعوا الغناء .

منهــم النعمان بن بَشير الأنصارىّ الخزرجىّ رضى الله عنه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم : «بالأغانى» بِسَنَدٍ رفعه إلى أبى السائب المخزومىّ وغيره، قال : دخل النعمان بن بَشِير المدينة فى أيام يَزِيد بن معاوية وٱبن الزُّبَير فقال : والله لقد أخفقت أذناىَ [من][1] الغناء فأسمعونى . فقيل له : لو وَجّهت إلى عَزّة المَيْلاء . فإنها مَن قد عرفت ؛ فقال : إى وربِّ هذه البَنِيّة[2]! إنها لمن[3] يَزِيد النفس طِيبا والعقل شَحْذا، ٱبعثوا إليها عن رسالتى ، فإن أبت صرتُ إليها . فقال له بعض القوم : إنّ النُّقْلة تشتدّ عليها لثقل بدنها ، وما بالمدينة دابّة تحملها . فقال النعمان : وأين النجائب عليها الهوادج؟ فوجّه إليهــا بنجيبة فذكرت عِلّة ؛ فلما عاد الرســول إلى النعمان قال لجليسه : أنت كنت أخبَر بهــا ، قوموا بنا[4] . فقام هو مع خواصّ أصحابه حتى طرقوها ، فأذِنت وأكرمت وٱعتذرت ، فقبل النعمان عذرها وقال لها : غَنِّى ، فغنّت :

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١ طبع بولاق) .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) : «وربّ الكعبة» .

(٣) فى الأصل : «لمن» والتصويب عن الأغانى (ج ١٤ ص ١٢١) .

(٤) كذا بالأصل . وفى الأغانى : «إليها» .

أَجِدَّ بعَمْرةَ غُنْيانُها[1] * فتهجُرَ أم شأنُها شأنُها[2]؟

وعَمْرةُ من سَرَوَاتِ النسا * ء تَنْفَحُ بالمسكِ أردانُها[3]

قال : وهذا الشعر هو لقَيْس بنِ الخطِيم فى أمّ النعمان بن بشير، وهى عَمْرة بنت رَوَاحة أخت عبدالله بن رواحة؛ قال : فأُشِير الى عَزَّة أنها أمه فأمسكت ؛ فقال : غنِّي فوالله ما ذكر إلا كرما وطِيبا ولا تغنّى سائر اليوم غيرَه؛ فلم تزل تغنّيه هذا اللحن حتى آنصرف .

ومنهـم حسان بن ثابت الأنصارىّ رضى الله عنـه . روى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده الى محرز بن جعفر قال : خَتَن زَيْد بن ثابت بنِيه وأولم وآجتمع إليه المهاجرون والأنصار وعامّة أهل المدينـة، وحضر حسان بن ثابت وقد كُفّ بصره يومئذ وثقُل سمعه فوُضِع بين يديه خُوَانٌ ليس عليه غيره إلا عبد الرحمن آبنه، وكان يسأله كلما وُضِعت صحفة أطعام يد أم يدينِ[4] ؟ فلم يزل يأكل حتى جِيء بشِواء ، فقـال : أطعام يد أم يدينِ؟ فقال : بل طعام يدين، فأمسك يده؛ حتى إذا فُرِغ من الطعام ثُنِيت وِسادة وأقبلت عَزّة الميْلاء وهى إذًا شابّة، فوُضِع فى حجرها مِزْهَرٌ فضربت به وتغنّت، فكان أوّل ما آبتدأت به شِعر حسان :

فلا زال قَصْرٌ بين بُصْرَى وجِلّقٍ[5] * عليه من الوَسْمِيّ جَوْدٌ ووابلُ

فطَرِب حسان وجعلت عيناه تنضحان على خدّيه وهو مُصغٍ لها .

---

(١) غنيانها : أى آستغناؤها . وفى الأصل : « عيانها » والتصويب عن الأغانى واللسان وديوان قيس بن الخطيم المطبوع فى ليبسك سنة ١٩١٤ م .   (٢) كذا فى الأصل . وفى الأغانى واللسان والديوان : « أم شأننا شانها » وكلاهما ذو معنى ، والأوّل أوجه .

(٣) جمع ردن بضم فسكون وهو مقدّم كم القميص أو القميص كله وهو أيضا ضرب من الخز الأحمر.

(٤) فى الأصل : « قال : أطعام يد أم يدين » وظاهر أن « قال » لا معنى لها .

(٥) جلق هى دمشق أو غوطتها وزنتها كحمص وقنب .

وروى أيضا بسنده إلى خارجة بن زيد أنه قال : دُعِينا الى مأدُبة فى آل نُبَيط ، فحضرنا وحضر حسان بن ثابت ، فجلسنا جميعا على مائدة واحدة وهو يومئذ قد ذهب بصره ومعه ٱبنه عبد الرحمن ، وكان إذا أُتِى بطعام سأل ٱبنه عبد الرحمن أطعام يد أم طعام يدين؟ (يعنى بطعام اليد الثريد ، وطعام اليدين الشواء لأنه ينهش نهشا) فإذا قال : طعام يد أكل ، وإذا قال : طعام يدينِ أمسك يده . فلمـا فرغوا من الطعام أَتَوْا بجاريتين مغنّيتين إحداهما "رائقة" والأخرى "عَزّة" فجلستا وأخذتا مِزْهَرَيهما وضربتا ضربا عجيبا وغنّتا بقول حسان بن ثابت :

أُنظر خليلى ببابِ جِلّقَ هل * تُؤْنِس دون البلقاءِ من أَحَدِ

قال : فأسمعُ حسانَ يقول : قد أرانِى هناك سمِيعًا بصيرًا(١) ، وعيناه تدمعان ، فإذا سكتتا سكن عنه البكاء وإذا غنّتا يبكى . قال : وكنت أرى عبـد الرحمن ٱبنـه إذا سكتتا يشير إليهما أن غنّيا ، فيبكى أبوه ، فيقال : ماحاجته إلى بكاء أبيه ! .

وروى أيضا بسندِهِ الى عَبّاد بن عبد الله بن الزُّبَير عن شيخ من قريش قال : إنى وفِتْية من قريش عنـد قَيْنة ومعنا عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت إذ ٱستأذن حسان ، فكرِهنا دخوله وشقّ علينا ؛ فقال لنا عبد الرحمن ٱبنه : أيسرّكم ألّا يجلس ؟ قلنا نعم . قال : فمُرُوا هذه إذا نظرت اليه أن تُغنّى :

أولادُ جَفْنةَ حَوْل قبرِ أَبِيهِمُ * قبرِ ٱبنِ ماريةَ الكريم المُفْضِلِ

يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ كلابُهـم * لايسألون عن السواد المقبِلِ

قال : فغنّته ، فوالله لقـد بكى حتى ظنّنا أنه سيلفظ نفسـه . ثم قال : أفيكم الفاسِقُ؟ لعَمْرى لقد كَرِهتم مجلسى اليوم . وقام فٱنصرف . وهذا الشعر لحسان بن

(١) فى الأغانى (ج ١٦ ص ١٥) : « بها » .

ثابت وهو مما آمتدح به جَبَلَة بن الأَيْهم، وهو من قصيدة طويلة منها قوله فى مدح آلِ جفنة :

بيضُ الوجوه كريمةَ أحسابهم * شمُّ الأنوفِ من الطِّرازِ الأوّلِ

وروى أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى الحارث بن عبد الله بن العباس : أنه بينما هو يسير مع عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه بطريق مكّة فى خلافته ومعه من معه من المهاجرين والأنصار، ترنّم عمر ببيت فقال له رجل من أهل العراق — ليس معه عراقىّ غيره — : غيرك فليقلها يا أمير المؤمنين ! قال : فآستحيا عمر وضرب راحلته حتى آنقطعتْ مِنَ الرَّكْب . قال المقدسى : ويزيد ذلك وضوحا — وساق حديثا بسند رفعه الى يحيى بن عبد الرحمن — قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الحجّ الأكبر، حتى اذا كان عمرُ بالرَّوْحاء[1] كلّم النـاسُ رَبَاحَ بنَ المعترِف[2]، وكان حسنَ الصوت بغناءِ الأعراب، فقالوا : أَسْمِعْنا وقَصِّر عنّا الطريق؛ فقال : إنّى أَفْرَقُ من عمرَ . قال : فكلّم القومُ عمرَ . إنا كلّمنا رباحا أن يُسمِعَنا ويُقصِّر عنا طريقَ المسير فأبى إلّا أن تأذن له . فقال له : يارباح، أَسْمِعهم وقصِّر عنهم المسير، فإذا أسْحرت فآرفع وآحْدُهم بشعر ضِرار بن الخطّاب؛ فرفع عقيرتَه يتغنّى وهم محرمون .

وروى أيضا بسنده الى يَزِيدَ بن أسلم عن أبيه : أن عمر رضى الله عنه مرّ برجل يتغنّى فقال : إن الغناءَ زادُ المسافرِ .

وروى سُفْيان الثَّوْرىّ وشُعْبة كلاهما عن أبى إسحاق السَّبِيعىّ عن عامر بن سعد البَجَلىّ : أن أبا مسعود البدرِىّ، وقَرَظَةَ بن كعب، وثابتَ بن يزيد، وهم فى عُرْس

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة .

(٢) فى الأصل : « المعرف » . والتصويب عن أسد الغابة .

وعندهم غناء ، فقلت : هـذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ! فقالوا : إنه رُخِّص لنا فى الغناء فى العرس والبكاء على الميّت فى غير نوح . إلا أن شعبة قال : ثابت بن وديعة مكان ثابت بن يزيد، ولم يذكر أبا مسعود .

وقال الإمام أبو حامد الغزالىّ رحمه الله تعالى عن أبى طالب المكىّ : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزبير، والمغيرة بن شُعْبة، ومعاوية وغيرهم، وقال : قد فعل ذلك كثير من السَّلَف صحابىّ وتابعىّ بإحسان .

وروى الحافظ أبو الفضل المقدسىّ بسند رفعه إلى عمر بن أبى زائدة قال : حدّثتنى آمرأة عمر[1] بن الأصمّ قالت : مررنا ونحن جَوَارٍ بمجلس سَعيد بن جُبَير ومعنا جارية تغنّى ومعها دُفّ وهى تقول :

لئن فَتَنَتْنى فهى بالأمس أَفْتنتْ * سَعيداً فأمسَى قد قَلَى كلّ مسلِمِ
وألقَى مفاتيحَ القِراءةِ وآشـترى * وِصال الغوانِى بالكتاب المُنَمْنَمِ

فقال سعيد : تكذبِين تكذبِين .

ذكر من سمع الغناء من الأئمة والعُبّاد والزّهاد

قالوا : وقد سمِـع الغناء من الأئمة الإمام الشافعىّ ، وأحمد بن حنبل رحمهما الله تعالى، وغيرهما من أصحابهما . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علىّ المقدسىّ رحمه الله تعالى بسند رفعه إلى المَرِيسىّ ، قال: مررنا مع الشافعى وإبراهيم آبن إسماعيل على دار قوم وجارية تغنّيهم :

خليـــلىَّ ما بالُ المطايا كأنهـا * نراها على الأعقاب بالقوم تَنْكُصُ[2]

---

(١) الذى فى شرح الإحياء (ج ٦ ص ٤٦١) : «عمرو» .

(٢) تنكص : ترجع . وقد ورد هذا البيت فى الأغانى (ج ٤ ص ١٦٤) هكذا :
خليــلى ما بال المطايا كأنما * نراها على الأدبار بالقوم تنكص

فقال الشافعيّ: مِيلُوا بنا نسمع . فلما فرَغت قال الشافعيّ لإبراهيم : أيُطرِبك هذا ؟ قال لا . قال : فما لك حِسّ !

وروى أيضا بسندٍ رفعه إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال: كنتُ أُحبّ السماع وكان أبي يكره ذلك، فواعدتُ ليلةً آبنَ الخبّازة، فمكث عندى إلى أن عَلِمتُ أنّ أبى قد نام، فأخذ يُغنّي، فسمعتُ خشْفةً فوق السطح، فصَعِدتُ، فرأيتُ أبى فوق السطح يسمع ما يغنّى وذيله تحت إبطِهِ وهو يتبختر كأنه يرقص. قال: وقد رويتُ هذه الحكاية أيضا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل — وساق سندا إليه — قال: كنت أدعو آبنَ الخبّازة وكان أبى ينهانا عن الغناء، وكنت إذا كان عندى كتمته من أبى لئلا يسمع. فكان ذات ليلةٍ عندى وهو يقول، فعَرَضَتْ لأبى عندنا حاجةٌ — وكانوا فى زقاق — فجاء وسَمِعه يقول، فوقع فى سَمْعه شيء من قولهِ، فخرجتُ لأنظر فإذا بأبى يترجّح[1] ذاهبا وجائيا، فرددتُ الباب ودخلت. فلما كان من الغد قال أبى: يابنىّ، إذا كان مثل هذا فنعم الكلام، أو معناه. قال أبو الفضل: وآبن الخبّازة هذا هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن زكريا الشاعر، وكان عاصرَ أحمد ورثاه حين مات .

وروى أبو الفضل أيضا بسَند رفعه الى [أبى] مُصْعَب[2] الزُّهْرىّ أنه قال: حضرتُ مجلس مالك بن أنَس فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال مالك: ماأدرى، أهلُ العلم ببلدنا لا يُنكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا غبيٌّ جاهل أو ناسك عِراقى غليظ الطبع . وقال أيضا : أخبرنا أبو محمد التميمىّ ببغداد قال : سألتُ الشريف أبا علىّ محمد بن أحمد بن أبى موسى الهاشمىّ عن السماع فقال : ما أدرى ما أقول فيه، غير أنى حضرت دار شيخنا أبى الحسن عبدالعزيز بن الحارث التميمى سنة سبعين وثلثمائة

---

(١) يترجح : يتمايل .

(٢) أبو مصعب : كنية أحمد بن أبى بكر الزهرى المدنى أحد رواة الموطأ عن الامام مالك .

فى دعوة عَمِلها لأصحابه؛ حضرها أبو بكر الأَبْهَرِىّ شيخ المـالكية، وأبو القاسم الدّارِكى شيخ الشافعية، وأبو الحسن طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسن آبن سمعـون شيخ الوعّاظ والزهّاد ، وأبو عبـد الله محمد بن مجاهد شيخ المتكلّمين، وصاحبـه أبو بكر الباقلّانى فى دار شيخنا أبى الحسن التميمىّ شـيخ الحنابلة؛ فقال أبو علىّ : لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق مَنْ يُفتِى فى حادثة يشـبه واحدا منهم، ومعهم أبو عبد الله غلام تامٌّ، وكان هذا يقرأ القرآن بصوت حَسَن، و ربما قال شيئا . فقيل له : قل لنا شيئا؛ فقال لهم وهم يسمعون :

خَطَّتْ أنامِلُها فى بطن قرطاس * رسـالةً بعَبِـير لا بأنقـاس[(١)]

أن زُرْ فَدَيتك لى من غير مُحتشِم[(٢)] * فإنّ حبّك لى قد شاع فى الناس

فكان قولى لمن أدّى رسالتهـا * قف لى لأمشى على العينين والراس

قال أبو على: فبعد أن رأيت هذا لا يمكننى أن أُفْتِىَ فى هذه المسألة بحَظْر ولا إباحة.

وممن أحبّ السماع والغنـاء وسمعه من الزهّاد والعبّاد والعلمـاء أبو السائب المخزومىّ . روى أبو الفرج الأصبهانىّ بسـنده الى صفيّة بنت الزُّبير بن هشـام قالت : كان أبو السائب المخزومىّ رجلا صالحا زاهدا مُتقلِّلا يصوم الدهر . وكان أرقّ خلق الله قلبا وأشـدّهم غَزَلا . فوجّه غلامه[(٣)] يوما يأتيه بما يُفطِر عليـه ، فأبطأ الغلام الى العَتَمة . فلما جاء قال له : ياعدوّ نفسـه ، ما أخّرك إلى هـذا الوقت؟ قال : اجتزت بباب فلان فسمعت منـه غناء فوقفت حتى أخذته . فقال : هاته يا بُنىّ، فوالله لئن كنتَ أحسنتَ لأَحْبُوَنَّك ، وإن كنت أسأت لأضربنّك . فآندفع يُغنِّى بشعر كُثَيِّر :

(١) بأنقاس : جمع نقس وهو المداد . (٢) الذى فى شرح الإحياء نسيد مرتضى : * أن زر فديتك قف لى غير محتشم *

(٣) فى الأغانى (ج ٧ ص ٣٠ طبع بولاق) : «ابنه» .

ولمّا علَوْا شَغْباً[1] تبيّنتُ أنه * تَقَطَّعُ من أهل الحجاز علائق

فلا زِلْنَ حَسْرَى ظُلّعاً لم حَمَلْنها * الى بلد ناءٍ قليلِ الأصادقِ

فلم يزل يغنّيه ويستعيده الى نصف الليل . فقالت له زوجته : يا هذا ، قد آنتصف الليل وما أفطرتَ . فقال لها : أنتِ الطلاقُ إن أفطرنا على غيره . فلم يزل يغنّيه ويستعيده حتى أسحر . فقالت له : هذا السَّحَر وما أفطرنا . فقال لها : أنت الطلاق إن كان سَحُورنا غيرَه . ثم قال لآبنه : يابُنَيّ، خذ جُبّتى هذه وأعطنى خَلَقَك ليكون الحِباءُ فضلَ ما بينهما . فقال له : يا أبتِ ، أنت شيخ وأنا شابّ وأنا أقوى على البرد منك ، فقال له : يابُنَيّ ، ما ترك هذا الصوتُ للبرد علىّ سبيلا ما حييتُ .

ويؤيّد هذه الحكاية ماحكاه أبو طالب المكىّ فى كتابه ، قال : كان بعض السامعين يقتات بالسماع ليقوَى به على زيادة طَيّه ، كان يَطْوِى اليوم واليومين والثلاثة ، فإذا تاقت نفسه الى القوت عدل بها الى السماع ، فأثار تواجدَه ، فآستغنى بذلك عن الطعام .

وروى أبو الفرج بسندِه إلى عبد الله بن أبى مُلَيكة عن أبيه عن جدّه قال : كان بالمدينة رجل ناسك من أهل العلم والعفّة ، وكان يَغْشَى عبدَ الله بن جعفر ، فسمع جاريةً مُغَنِّيةً لبعض النخّاسين تُغَنّى :

بانت سعادُ وأمسى حَبْلُها آنقطعا * وآحتلّت الغَوْرَ فالجَدّين فالفَرَعَا

وأنكرتْنى وما كان الذى نَكِرت * من الحوادثِ إلا الشَّيبَ والصَّلَعَا

فهام الناسك وترك ما كان عليه ، حتى مشى إليه عطاء وطاوُس ولاماه ؛ فكان جوابُه لهما أن تمثّل :

يلومنِى فيكَ أقوامٌ أُجالسهم * فما أبالى أطارَ اللَّومُ أم وَقَعَا

(١) شغب : منهل بين طريق مصر والشام . (عن معجم ما استعجم للبكرى) .

فبلغ عبدَ الله بن جعفر خبرُه، فبعث إلى النخاس، فآعترض الجارية وسمع غناءها بهذا الصوت وقال : ممن أخذتيه ؟ قالت : من عَزَّةَ المَيْلاء؛ فآبتاعها بأربعين ألف درهم . ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبرها فأعلمه إياه؛ فقال : أتحبّ أن تسمع هذا الصوتَ ممن أخذتْه عنه تلك الجاريةُ ؟ قال نعم . فدعا عَزَّة المَيْلاء فقال : غنِّيه إياه. فغنّته، فصَعِق الرجل [وخرّ] (1) مَغْشِياً عليه. فقال آبن جعفر : أَثِمْنَا فيه، الماءَ الماءَ ! فنُضح على وجهه . فلما أفاق قال له : أ كلّ هذا بلغ بك عشقُها ؟ قال : وما خَفِيَ عليك أكثر. قال : أفتحبّ أن تسمعه منها؟ قال : قد رأيتَ ما نالني حين سمعتُه من غيرها وأنا لا أحبها، فكيف يكون حالي إن سمعتُه منها وأنا لا أقدر على مِلْكها ! فأخرجها إليه وقال : خذها فهي لك؛ والله ما نظرتُ إليها إلا عن عُرُض . فقبّل الرجل يديه ورجليه وقال : أنمتَ عيني، وأحييتَ نفسي، وتركتني أعيش بين قومي، ورددتَ إليّ عقلي، ودعا له دعاء كثيرا. فقال عبد الله : ما أرضى أن أُعطيكها هكذا، ياغلام، آحمِلْ معه مثل ثمنها، ففعل.

قال الغزاليّ رحمه الله في «إحياء علوم الدين» : كان آبن مجاهد لا يُجيب دعوةً إلا أن يكون فيها سماع . قال : وكان أبو الخير العسقلانيّ الأسود من الأولياء يسمع ويُوَلَّهُ عند السماع، وصنّف فيه كتابا وردّ فيه على مُنكِريه . وحُكي عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت : ما تقول في هذا السماع الذي آختلف فيه أصحابنا ؟ قال : هو الصَّفَا (2) الزّلّال الذي لاتثبُت عليه إلا أقدامُ العلماء .

---

(1) الزيادة عن الأغاني (ج ١٦ ص ١٩ طبع بولاق) .

(2) الصفا : العريض من الحجارة الأملس .

وروى الأصفهانىّ بسند رفعه إلى ٱبن كُنَاسة قال : اصطحب شيخ مع شابّ فى سفينة فى الفُرَات ومعهم مغنّية . فلما صاروا فى بعض الطريق قالوا للشيخ : معنا جاريةٌ وهى تغنّى، فأحببنا أن نَسمع غناءها فهِبْناكَ، فإن أَذِنتَ فعلْنا . فقال : أنا أصعَدُ على أطلال السفينة[1]، فٱصنعوا أنتم ماشئتم؛ فصَعِد وأخذت المغنّيةُ عودَها وغنّت :

حتى إذا الصبح بدا ضوءُه * وغابت الجـوزاءُ والمِرْزَمُ
أقبلتُ والوطءُ خَفِىٌّ كما * ينسابُ من[2] مَكْمَنه الأَرْقَمُ

فطرِب الشيخ وصاح ، ثم رمى بنفسِه وبثيابِه فى الفُرَات وجعل يغوص و يطفو و يقول : أنا الأرقم أنا الأرقم ! فألقَوْا أنفسهم خلفه، فبعد لَأْيٍ مّا ٱستخرجوه ، وقالوا : ياشيخ، ماحملك على ما فعلت؟ فقال : إليكم عنّى، فإنى أَعرِف من معانى الشعر ما لا تعرِفون . فقالوا له : ما أصابك؟ قال : دبّ من قدمى شىء إلى رأسى كدبيب النَّمْل ونزل من رأسى مثلُه ، فلما ٱجتمعا على قلبى عَمِلتُ ماعَمِلتُ .

وقال أحمد بن أبى دُواد : كنتُ أَعيبُ الغناءَ وأطعُنُ على أهله؛ فخرج المعتصم يوماً إلى الشَّمَّاسيّة فى حَرَّاقة، ووجّه فى طلبى فصرتُ إليه . فلما قَرُبتُ منه سمعتُ غناء حيّرنى وشَغَلنى عن كلّ شىء، فسقط سَوْطى عن يدى ، فالتفتّ إلى غلامى أطلب منه سوطا ؛ فقال لى : قد والله سقط منّى سوطى . فقلت له : أىّ شىء كان سببَ سقوطه؟ قال : صوت سمعته فحيّرنى، فما علمتُ كيف سقط ، فإذا قِصّتُه قِصّتى . قال : وكنتُ أُنكر أمرَ الطرب على الغناء وما يستفزّ الناسَ منه

(١) فى الأصل : « فى ظلال السفينة » والتصويب عن الأغانى (ج ٤ ص ٤١٨ طبع دار الكتب المصرية) والأطلال : جمع طلل، وطلل السفينة : شراعها .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٧١ طبع بولاق) وفى الأصل : « فى » .

فيغلب على عقولهم، وأناظر المعتصمَ عليه . فلما دخلتُ عليــه يومئذ أعلمته بالخبر، فضحك وقال : هذا عمّى كان يغنّينى :

إنّ هذا الطويل من آل حَفْص * أَنْشَرَ المجدَ بعد ما كانـــ ماتا

فإنـــ تُبتَ ممـا كنتَ تناظر عليه من ذمّ الغناء سألته أن يُعيده ، ففعلتُ وفعل، فبلغ بى الطربُ أكثر ممـا يبلغه من غيرى ، ورجعتُ عن رأيى منذ ذلك اليوم . ٥

وعمّه الذى أشار إليه هو إبراهيم بن المهدىّ .

ذكر مَنْ غنّى من الخلفاء وأبنائهم ونُسِبت له أصواتٌ من الغناء نُقِلَتْ عنه

كان مَنْ غَنَّى من الخلفاء — على ما أورده أبو الفرج الأصفهانىّ فى كتابه المترجم «بالأغانى» — ونسبت له أصواتٌ جماعةٌ، منهم عمر بن عبد العزيز قد نُسِبَتْ له ١٠ أصواتٌ، ومنهم من أنكر ذلك . ولعلّ مانُقِل عنــه كان منه قبل الخلافة . وكان رحمه الله من أحسن الناس صوتا . فكان ممـا نسب إليه من الغناء :

عَلِقَ القلبُ سُـــعَادا * عادت القلبَ فعـادا

كُلّمـا عُوتب فيهـا * أو نُهِى عنهـا تمـادى

وهو مشغوفٌ بسُعْدَى * وعَصَى فيهـا وزادا ١٥

وممـا نُسِب إليه من الغناء ماقيل إنه غنّاه من شعر جرير :

قِفا يا صاحِبيّ نَزُرْ سُعَادَا * لِوَشْكِ فِراقِها ودَعَا البِعادا (١)

(١) ورد هذا البيت فى ديوانه المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١ أدب ش هكذا :

ألمـا صاحبى نزر ســعادا * لقرب مزارها وذرا البعادا

وورد هكذا أيضا فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٠) عدا الشطر الثانى فانه هكذا : ٢٠

* لوشك فراقها وذرا البعادا *

لعَمْرُكَ إنّ نفع سعاد عنّي * لمصروف ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب آبنُ ليلى(١) * ومَرْوان الذى رفع العمادا

ومن ذلك ما قيل إنه غنّاه من شعر الأشهب بن رُميلة(٢) :

ألا يا دِينَ قلبُك من سليمى * كما قد دِينَ قلبُك من سعادَا
هما سَبَتا الفؤاد وهاضتاه(٣) * ولم يُدرِك بذلك ما أرادَا
قِفا نَعرف منازلَ من سُليمى * دَوارسَ بين حَوْمَلَ أو عُرَادَا
ذكرتُ لها الشباب وآل ليلى * فلم يزد الشبابُ بها مَزَادَا
فإن تَشِب الذوائبُ أمّ عمرو * فقد لاقيتُ أياما شِدادَا

وممّن غنّى من خلفاء الدولة العباسية، ممن دُوِّنت له صنعة، الواثق بالله أبو جعفر هارون بن المعتصم بالله بن الرشيد. حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ قال : دخلتُ يوما دار الواثق بالله بغير إذن إلى موضع أمَر أن أدخله إذا كان جالسا، فسمعت صوت عود من بيت وترنُّما لم أسمع أحسن منه . فأطّلع خادم رأسه ثم ردّه وصاح بى، فدخلت و إذا أنا بالواثق بالله . فقال: أىَّ شىء سمعتَ ؟ فقلت : الطلاق كامل لازمٌ له وكلّ مملوك له حرّ، لقد سمعتُ ما لم أسمع مثله قطُّ حُسْنا ! فضحك وقال : وما هو ؟ إنما هذه فَضْلة أدب وعلم مدحه الأوائل وآشتهاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون بعدهم وكَثُر فى حَرَم الله عز وجلّ ومُهَاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتحبّ أن تسمعه ؟ قلت : إى والله الذى شرّفنى بخطابك وجميل رأيك . فقال : ياغلام، هات العود وأعط

---

(١) فى الأصل : "لبنى" . والتصويب عن الأغانى والديوان .
(٢) فى الأصل : وسلة . والتصويب عن الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) .
(٣) فى الأغانى (ج ٨ ص ١٥٨) : «وأصبتاه» .

إسحاق رطلا، فدفع الرطل إلىّ وضرب وغنّى فى شعر لأبى العتاهية بلحن صنعه فيه :

أضحتْ قبـــورُهُمُ من بعـــدِ عِزّتهم * تَسْفِى عليها الصَّبا والحَرْجَفُ الشَّمِلُ

لا يَدفعون هـــوامًّا عن وُجُوهِهِـــمُ * كأنهـــم خَشَبٌ بالقاعِ مُنْجـــدِلُ

فشربتُ الرطل ثم قمتُ . فدعوتُ له ، فآحتبسنى وقال : أتشتهى أن تسـمعه بالله ؟ فقلتُ : إى والله، فغنّانيهِ ثانية وثالثة، وصاح ببعض خدمه وقال : احمِل إلى إسحاق الساعةَ ثلاثمائة ألف درهم . قال : يا إسحاق، قد سمعتَ ثلاثة أصوات وشربتَ ثلاثة أرطال وأخذتَ ثلاثمـائة ألف درهم، فآنصرف إلى أهلك مسرورًا لِيُسَرُّوا معــك ، فآنصرفتُ بالمــال . وقال أبو الفرج بسنده إلى عَرِيب المأمونيّة قالت : صنع الواثق بالله مائة صوت ما فيها صوت ساقط . ولقد صنع فىّ هذا الشـــعرَ :

هل تَعلَمين وراءَ الحبِّ منزلةً * تُدنِى إليك فإن الحبّ أقصانى

هـــذا كتابُ فتًى طالت بليّتُه * يقــول يامُشــتَكَى بثّى وأحزانى

قال : وكان الواثق بالله إذا أراد أن يَعرض صنعته على إسحاق نسبها إلى غيره فقال : وقع إلينا صوتٌ قديمٌ من بعض العجائز فآسمعه، وأمر مَن يغنّيه إياه . وكان إسحاق يأخذُ نفسه بقول الحقّ فى ذلك أشدّ أخذ، فإن كان جيّدا رَضِيَهُ وآستحسنه وإن كان فاسدًا أو مُطَّرَحًا أو متوسّطًا ذكر ما فيه . فإن كان للواثق فيه هوًى سأله تقويمَه وإصلاحَ فاسدِهِ وإلّا آطّرحه . وقال إسحاق بن إبراهيم : كان الواثق أعلم الناس بالغناءِ، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان أحذقَ مَنْ غنّى بضرب العود، ثم ذكر أغانيَه . وذكر أبو الفرج الأصفهانىّ منها أصواتا، منها :

ولم أرَ لَيْـــلَى غيرَ مَوْقِفِ لَيْـــلةٍ * بِخَيْفِ مِنًى تَرْمِى جِمـــارَ المُحَصَّبِ

ويُبْدِى الحصى منها إذا خَذَفَتْ به * مِن الـبُرْدِ أطرافَ البنانِ المُخَضَّبِ

ألا إنما غادرتِ يا أمّ مالكٍ * صدًى أينما تذهبْ به الريحُ يذهبِ
وأصبحتُ مِن ليلى الغداةَ كناظرٍ * مع الصبح فى أعجاز نجم مغرّبِ

وذكر أصواتا كثيرة غير هذا تركنا ذكرها آختصارا .

قال : ولما خرج المعتصم إلى عَمُّورِيّةَ آستخلف الواثقَ . فوجّه الواثقُ إلى الجلساء والمغنّين أن يبكّروا إليه يوما حدّه لهم، ووجّه إلى إسحاق ، فحضر الجميع . فقال لهم الواثق : إنى عزمتُ على الصّبوح، ولستُ أجلس على سريرٍ حتى أختلط بكم ونكون كالشىء الواحد، فآجلسوا معى حَلْقة ، وليكن إلى جانبِ كلّ جليسٍ مُغنٍّ، فجلسوا كذلك . فقال الواثق : أنا أبدأ، فأخذ العود فغنّى وشربوا وغنّى مَن بعده ، حتى آنتهى إلى إسحاق وأُعطِى العودَ فلم يأخذه؛ فقال : دعوه . ثم غنّوا دورا آخر؛ فلما بلغَ الغناءُ إلى إسحاق لم يُغنّ وفعل ذلك ثلاث مرّات . فوثب الواثق فجلس على سريره وأمر بالناس فأُدخلوا؛ فما قال لأحد منهم : اِجلس . ثم قال : علىّ بإسحاق . فلما رآه قال : ياخُوزِىّ[1] يا كلبُ ، أتبذّل لك وأُغنّى فتترفّع علىّ ! أتُرانى لو قتلتك كان المعتصم يُقِيدنِى بك! اِبطَحوه ، فبُطِح وضُرِب ثلاثين مِقْرعة ضربًا خفيفا وحلف لايُغنّى سائر يومه سِواه ؛ فآعتذر وتكلّمت الجماعةُ فيه؛ فأخذ العود ، وما زال يغنّى حتى آنقضى مجلسه . وللواثق بالله فى الغناء أخبار وحكايات يطول بذكرها الشرح .

ومنهم المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل على الله أبو الفضل جعفر . قال يَزِيد المهلّبى : كان المنتصر حَسَنَ العلم بالغناء ، وكان إذا قال الشعر صَنَع فيه

(١) الخوزىّ : نسبة الى الخوز، وهى بلاد خوزستان ، وأهلها ألأم الناس وأسقطهم نفسا ، كما جاء فى معجم البلدان لياقوت .

وأمر المغنّين بإظهاره . فلما وَلِىَ الخلافةَ قطع ذلك وأمر بستر ما تقدّم منه؛ فلذلك لم تظهر أغانِيه .

ومنهـم المعتزّ بالله أبو عبد الله محمد بن جعفر المتوكل . ذُكر أيضا أنه كان يغنّى أصواتا . فما غنّى به فى شعر عدىّ بن الرِّقَاع :

لَعَمْرى لقد أَصْحَرتْ[1] خَيلُنا * بأكناف دِجْــلةَ للمُصْعَبِ ٥

فمَن يك منّا يَبِتْ آمنا * ومَن يك من غيرنا يَهْـرُبِ

وهـذه الأبيات من قصيدة لعدىّ بن الرِّقَاع قالها فى الوقعة التى كانت بين عبد الملك بن مروان ومُصْعَب بن الزُّبَير وقُتِل فيها مصعب بن الزبير، على ما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى فى أخبار عبد الله بن الزبير .

ومنهـم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله . هو ممن له ١٠ يدٌ فى الغناء وصنعةٌ حسـنة . ومما نُقِل من أغانِيه أنه غنّى فى شعر الفرزدق :

ليس الشفيعُ الذى يأتيك مؤتزِرًا * مِثلَ الشفيع الذى يأتيك عُرْيَانَا

وقال[2] عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر : إن المعتضِد جمع النغم العشر فى صوت صنعه فى شعر دُرَيد بن الصِّمّة وهو :

ياليتنِى فيهـا جَذَعْ * أَخُبّ فيهـا وأَضَعْ ١٥

قال : وٱستعلمنى هـل هو صحيح القسمة والأجزاء أم لا ، فعرّفتـه صحّته ودللته على ذلك حتى تيقّنه فسرّ به . قال عبيد الله : وهو لَعَمْرى من جيّد الصنعة ونادرها . قال : وقد صنع ألحانًا فى عدّة[3] أشعار قد صنع فيهـا الفحول من القدماء والمحُدَثين

(١) أصحرت : برزت إلى الصحراء .

(٢) من هنا ابتدأ المؤلف فى الحديث عن المعتضد الذى هو ٱبن المعتمد ولم يترجم له كما فعل فى سابقه ٢٠

(٣) كذا فى كتاب الأغانى (ج ٩ ص ٢٠) وفى الأصل : « فى هذه الأشعار صنع » الخ .

وعارضهم بصنعتِه فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصّر، ولا أتى بشىء يُعتذر منه . قال : فمن ذلك أنه صنع فى قول الشاعر :

أما القَطاةُ فإنى سوفَ أنعتُها * نعتًا يوافق نعتِى بعضَ مافيها

فجاء فى نهاية الجَوْدة وهو أحسن ما صُنِع فى هذا الشعر على كثرة الصنعة فيه ٥ وآشتراك القدماء والمُحْدَثين فى صنعته مثل مَعْبد ونَشِيط ومالك وآبن مُحْرِز وسِنَان وعُمَر الوادى وآبن جامع و إبراهيم وآبنه إسحاق وعلّويه .

قال : وصنع فى :

تَشَكّى الكُمَيتُ الجَرْىَ لمّا جَهَدتُهُ * وبيّن لو يَسْطِيع أن يَتَكَلّما

فما قصّر فى صنعته ولا عَجَز عن بلوغ الغاية فيها مع أصوات له صنعها تُنَاهِز مائة ١٠ صوت ما فيها ساقط ولا مرذول . فهؤلاء الذين لهم صنعة فى الغناء من الخلفاء .

*
* *

وأما أبناء الخلفاء الذين لهم صنعة بدٌّ فى هذا الفنّ .

فمنهم إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة بنت المهدىّ رحمهما الله تعالى، و إبراهيم يكنى أبا إسحاق أمّه شَكْلَة أَمَةٌ مولّدة كان أبوها من أصحاب المازيار ١٥ يقال له : شاه أفرند[1] قتل مع المازيار وسُبِيَت شكلة فحُملت إلى المنصور فوهبها لمُحَيّاة أمّ ولده فربّتها و بعثت بها إلى الطائف فنشأت هنالك، فلما كَبِرت رُدّت إليها، فرآها المهدىّ فأعجبته فطلبها من مُحَيّاة فأعطته إياها فولدت له إبراهيم .

(١) كذا بالأصل والأغانى (ج ٩ ص ٤٩) وفى الطبرى : شكلة أمّ إبراهيم بن المهدى وهى بنت خزاسان قهرمان المصمغان ؛ وكتب مصححه : خزبادان ؛ (أنظر الجزء الأوّل من هذا الكتاب القسم ٢٠ الثالث ص ١٠٤٠ طبع أوربا) .

قال أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم قال :

كان إبراهيم بن المهدىّ أشـدَّ خَلْق الله إعظاما للغناء وأحرصَهم عليه وأشدّهم منافسةً فيه . قال : وكانت صنعته ليّنة فكان إذا صنع شيئا نسبه إلى غيره لئلا يقع عليــه طعن أو تقريع فَقَلَّتْ صنعته فى أيدى النــاس مع كثرتها . وكان إذا قيل له فيها شىء يقول : إنما أصنع تطرّبا لا تكسّبا وأُغنِّى لنفسى لا للناس فأعملُ ما أشتهى . ٥
قال : وكان حُسْن صوته يستر عَوَارَ ذلك . وكان الناس يقولون : لم يُرَ فى جاهليّة ولا إسلامٍ أخٌ وأخت أحسن غناءً من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عُلَيّة . وكان إبراهيم يجادِل إسحاقَ ويأخذ عليــه فى مواطن كثيرة إلّا أنه كان لا يقوم له [(١)] ويُظهِر إسحاقُ خطأه . ووقع بينهما فى ذلك بين يدى الرشيد وفى مجلسه كلامٌ كثير أفضى إلى أمور نذكرها إن شاء الله تعالى فى أخبار إسحاق بن إبراهيم . ١٠

وكان إبراهيم بن المهدىّ فى أوّل أمرِه يتستّر فى الغناء بعض التستّر إلا أنه يذكره فى مجلس الرشيد أخيه . فلما كان من أمره فى الوثوب على الخلافة ما نذكره إن شاء الله تعالى فى أخبار الدولة العباسيّة عند ذكرنا لخلافة المأمون بن الرشيد ، ثم [لمـا] [(٢)] أمّنه المأمون بعـــد هربه منه تَهتّك بالغناء ومشى مع المغنّين ليلا إذا خرجوا من عند المأمون، وإنما أراد المأمون بذلك ليظهِر للناس أنه قد خلع رِبقةَ الخلافة من عنقه ١٥ وأنه تهتّك فلا يصلح للخلافة . وكان من أعلم الناس بالنغم والوَتَرِ والإيقاعاتِ وأطبعهم فى الغناء وأحسنهم صوتا . وكان مع علمــه وطبعه ومعرفته يقصِّر عن الغناء القديم وعن أن يَحْوَه فى صنعته . فكان يحـذِف نغم الأغانى الكثيرةَ العمل حذفا شديدا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «لا يقوم به» وهو تصحيف .

(٢) زيادة يقتضيها السياق . ٢٠

ويحقّقها على قدر ما يصلح له ويفي بأدائه فاذا عِيب ذلك عليه قال : أنا ملِك وآبن ملِكٍ و إنما أغنّى على ما أشتهى وكما ألَذّ . فهو أوّل من أفسد الغناء القديم .

ورُوِى عن حمدون بن إسماعيل قال : قال إبراهيم بن المهدىّ : لولا أنّى أرفع نفسى عن هذه الصناعة لأظهرتُ منها ما يعلم الناسُ معه أنهم لم يروْا قبلى مثلى .

٥ وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن جعفر بن سليمان الهاشمىّ قال : حدّثنا إبراهيم آبن المهدىّ قال :

(٨٦) دخلت يوما على الرشيد و بى فَضْلَةُ خُمارٍ[(١)] وبين يديه آبن جامع و إبراهيم الموصلىّ فقـال : بحياتى يا إبراهيم غنّ ، فأخذتُ العود ولم ألتفتْ إليهما لمـا فى رأسى من الفَضْلة فغنّيتُ :

١٠ أَسْرَى بخالدةَ[(٢)] الخيـالُ ولا أرَى * شيئا ألَذَّ من الخيـال الطارقِ

إن البليّةَ من تَملّ حديثَـه * فآنقعْ فـؤادكَ من حديث الوامق

أهْواكِ فوق هَوَى النفوس ولم يزل * مـذ بِنتِ قلبى كالجَناح الخافِقِ

شوقًا إليـك ولم تجازِ مودّتى * ليس المكذّب كالحبيب الصادِقِ

فسمعتُ إبراهيم يقول لآبن جامع : لو طلَب هذا بهـذا الغناء ما نطلب لمـا

١٥ أكلنا خبزًا أبدا فقال آبن جامع : صدقتَ ، فلما فرغتُ من غنـائى وضعتُ العود ثم قلت : خذا فى حقّكما ودعا باطلَنا .

ورُوِىَ عن إبراهيم قال :

كان الرشيد يحبّ أن يَسمَعنى خلا بى مَرّات إلى أن سَمِعنى ، ثم حضرتُه مرّةً

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٠) وفى الأصل : « طربة خمار » .

٢٠ (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لخالدة » باللام .

وعنده سليمان بن أبى جعفر فقال لى : عمُّك وسيِّدُ ولد المنصور بعد أبيك وقد أحبّ أن يَسمعك، فلم يتركنى حتى غنّيتُ بين يديه :

سَقْياً لربعكِ مِن رَبْعٍ بذى سَلَمٍ * وللزمانِ بهِ إذ ذاكَ من زمنِ

إذ أنتِ فينا لمن يَنهاكِ عاصِيةٌ * وإذ أجُرُّ إليكم سادِراً رَسَنِى (١)

فأمر لى بألف ألف درهم ، ثم قال لى ليلةً ولم يَبْق فى المجلس عنده إلا جعفر آبن يحيى : أنا أحبّ أن تُشرِّف جعفراً بأن تُغنّيَه صوتا فغنّيتُه لحنا صنعتهُ فى شعر الدّارِمىّ :

كأنّ صورتها فى الوصفِ إذ وُصِفت * دينارُ عَيْنٍ من المضروبةِ العُتُقِ

فأمر لى الرشيد بألف ألف درهم .

وحُكِىَ عن إسحاق بن ابراهيم قال : لما صنعت صوتى الذى هو :

قُل لمَن صدّ عاتباً * ونأى عنك جانباً

قد بلغتَ الذى أرد * تَ وإن كنتَ لاعِباً

وٱعترفنا بما ٱدّعيـ * ـتَ وإن كنتَ كاذبا

فٱفعل الآن ما أرد * تَ فقد جئتُ تائباً

اتصل خبرُه بإبراهيم بن المهدىّ فكتب إلىّ يسألنى عنه ، فكتبتُ إليه الشعر وإيقاعَه وبسيطَه (٢) ومجْراه وإصبعَه وتجزئتَه وأقسامَه ومخارجَ نغمه ومواضعَ مقاطعه ومقاديرَ أدواره وأوزانه فغنّاه ثم لقِينِى فغنّانِيه، ففَضَلَنِى فيه بحسن صوته .

وقال آبن أبى طيبة : كنت أسمع إبراهيم بن المهدىّ يتنحنح فأطرب .

---

(١) السادر : المتحير، والرسن : الحبل .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وبساطه » وهو تحريف .

وعن محمد بن خير عن عبد الله بن العباس الرَّبيعىّ قال :

كنّا عنـد إبراهيم بن المهدىّ ذاتَ يوم وقد دعا كلّ محسن من المغنّين يومئـذ وهو جالس يُلاعب أحدَهم بالشِّطْرَنج نترنّم إبراهيم بصوت فريدةَ فى شعر أبى العتاهية :

قال لى أحمـــدُ ولم يَدْرِ ما بِى * أتحبُّ الغَـــداةَ عُتْبَـــةَ حقّا

فتنفســـتُ ثم قلتُ نعـــم حبًّـا جرى فى العـــروق عِرْقًا فعرقًا

٥

وهو متكئ[1]، فلمـا فرغ ترنّم به مخارق فأحسن فيه وأطربنا[2] وزاد على إبراهيم ، فغنّاه إبراهيم وزاد فى صوته على غناءِ مخارِق . فلمـا فرغ ردّه مخارقٌ وغنّاه بصـوته كلّه وتحفّظ فيه وكِدنا نطير سروراً . فاستوى إبراهيم جالسًا وكان مُتّكئًا وغنّاه بصوته كلّه ووفّاه نغمه وشذوره ونظرتُ إلى كتفيه تهتزّان وبدنه أجمَع يتحرّك إلى أن فرغ منه ومخارقٌ شاخص نحوه يُرْعَد وقد ٱنْتُقِــع لونه وأصابعه تختلج نخُيِّل إلىّ أن الإيوان يسير بنا ، فلما فرغ منه تقدّم إليه مخارق فقبّل يده وقال : جعلنى الله فداك أين أنا منك ! ثم لم يَنْتفع مخارق بنفسه بقيّة يومه فى شىءٍ من غنائه ، والله لكأنّما كان يتحدّث .

١٠

ورُوِى عن منصور بن المهدىّ قال :

كنت عند أخى إبراهيم فى يوم كانت عليه فيه نَوْبة لمحمد الأمين ، فتشاغل بالشرب فى بيته ولم يمض ، وأرسل إليه الأمين عدّةَ رسل فتأخر . قال منصور : فلمّـا كان من غَدٍ قال لى : ينبغى أن نعمـل على الرواح إلى أمير المؤمنين فنترضّاه ، فما أشُكّ فى غضبه علينا . فمضينا فسألنا عن خبره فأُعْلِمنا أنه مشرف على حير[3] الوحش وهو مخمور ، وكان من عادته ألّا يشرب إذا لحقه الخُمَار . فدخلنا ، وكان طريقنا على

١٥

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « يبكى » وهو تحريف .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فأطربه » .

٢٠

(٣) كذا فى الأغانى . والحير : شبه الحظيرة . وفى الأصل : «حاشر الوحش» وهو تحريف .

حُجْرة تُصنع فيها الملاهى ، فقال لى : اذهب فاختر منها عودا ترضاه وأصْلِحه غايةَ الإصــلاح حتى لا يُحتاجَ إلى إصلاحه وتغييره عنـد الضرب به ؛ ففعلتُ وجعلته فى كُمِّى . ودخلنا على الأمين وظَهْرُه إلينا . فلمــا بَصُرْنا به من بُعْـدٍ قال : أَخْرِج عودكَ فأخرجته، فاندفع يغنِّى :

وكأسٍ شَرِبتُ على لَذّةٍ * وأُخرى تداويتُ منها بها

لِكى يعلمَ الناسُ أنى آمرؤٌ * أتيتُ الفُتوّةَ من بابهـا

وشاهـدُنا(١) الوردُ والياسَمِيـ * ـنُ والمُسْـمِعات بقُصّابها(٢)

وبربطُنا(٣) دائمٌ مُعْـمَلٌ * فأىّ الثلاثةِ أزرَى بهـا

فآسـتوى الأمينـ جالسـا وطَرِب طَرَباً شـديدا وقال : أحسنتَ والله يا عمّ وأحييتَ لى طربا . ودعا برطل فشرِبه على الرّيق وابتدأ شربه(٤) . قال منصور : وغَنّى إبراهيم يومئـذ على أشَـدّ طبقة يُتناهَى إليهـا فى العود ، وما سَمِعت مثـل غنائه يومئـذ قط . ولقـد رأيتُ منـه شيئًا عجيبـا لو حُدِّثْتُ به ما صَدّقْتُ : كان إذا ابتدأ يغنِّى صَغَتِ الوحوش إليه ومدّت أعناقها، ولم تزل تدنو حتى تكاد تضع رءوسها على الدُّكّان الذى كنّا عليه، فإذا سَكَت نَفَرتْ وبَعُدتْ عنّا حتى تنتهى إلى أبعدِ غايةٍ يمكنها التباعدُ عنّا فيها، وجعل الأمين يَعْجَب من ذلك. وآنصرفنا من الجوائز بمـا لم يُنْصرف بمثله قطّ .

وعن الحسن بن إبراهيم بن رَبَاح قال :

كنتُ أسأل مُخَارِقًا : أىّ الناس أحسنُ غناء؟ فكان يجيبنى جوابا مجملا، حتى

(١) فى الأغانى واللسان : « وشاهدنا الجل » . وقال صاحب اللســان : والجل الذى فى شعر الأعشى هو الورد، فارسىّ معرب . (٢) القصاب : الأوتار التى سوّيت من الأمعاء . وقيل : جمع قاصب وهو الزامر . (٣) البربط : العود .

(٤) فى الأغانى (ج ٩ ص ٥٦ طبع بولاق) : « وامتدّ فى شربه » .

حقّقت عليه يوما فقال : كان إبراهيم الموصلىّ أحسن غناءً من ابن جامع بعشر طبقات ، و إبراهيم بن المهدىّ أحسن غناءً منى بعشر طبقات . ثم قال لى : أحسنُ النـاسِ غناءً أحسنُهم صوتا . و إبراهيم بن المهدىّ أحسن الإنسِ والجنّ والوحشِ والطيرِ صوتًا، وحسبُك هذا! .

٥ وعن إسحاق بن إبراهيم قال :

غنّى إبراهيم بن المهدىّ ليلةً محمدا الأمينَ صوتا لم أرضَه فى شعر لأبى نُوَاس ، وهـو :

يا كثيرَ النّوح فى الدِّمَنِ * لا عليها بل على السَّكَنِ
سُنّةُ العشّـاقِ واحدةٌ * فإذا أحببتَ فآستَنِن(١)
١٠ ظنّ بى مَن قد كَلِفتُ به * فهو يجفونِى على الظِّنَنِ
رَشأٌ لـولا ملاحتُـه * خَلَتِ الدُّنيـا من الفِتَنِ

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار . فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين . أجزتَنى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم! فقال: وهل هى إلا خراج بعض الكُوَر(٢). هكذا رواه إسحاق، وقد حُكيت هـذه الحكايةُ عن محمد بن الحارث، وفيهـا أن إبراهيم
١٥ لمـا أراد الآنصراف قال : أوْقِرُوا زورق عمّى دنانير فأوقروه، فآنصرف بمال جليل.

قال : وكان محمد بن موسى المنجّم يقـول : حكمت أنّ إبراهيم بن المهـدىّ أحسنُ الناسِ كلهم غناء ببرهان ، وذلك أنّى كنتُ أراه فى مجالس الخلفاء مثل المأمون والمُعْتَصِم يغنّى المغنُّون ويُغنِّى، فإذا آبتدأ بالصوت لم يبق من الغلمان أحد إلا ترك ما فى يديه وقرُب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه فلا يزال مُصْغيا إليه لاهيا عما

٢٠ (١) فى الأغانى : " فاستكن " .
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «بعض الكوفة» وهو تحريف .

كان فيه ما دام يغنّى ، حتى إذا أمسك وتغنّى غيرُه رجعوا إلى التّشاغُل بما كانوا فيه ولم ينبعثوا إلى شيء . فلا برهان أقوى من هذا [فى مثل هذا من](١) شهادة الفِطَن به وٱتّفاق الطبائع مع ٱختلافها وتشعّب طرقها على الميل اليه والانقياد نحوه .

ولإبراهيم بن المهدىّ أصوات معروفة . منها ما غنّاه بشعر مَرْوان بن أبى حَفْصة :

هل تَطْمِسون من السماءِ نجومَها * بأَكُفِّكم أو تسترُون هِلالَها

أو تدفَعون مقالةً من ربكم * جبريلُ بلَّغها النبىَّ فقالها ٥

طرقتْك زائرةٌ فحَيِّ خيالَها * زهراء تخلِط بالدَّلال جمالَها

وأمّا عليّة بنت المهدىّ ، فقد قيل : ما ٱجتمع فى جاهليّة ولا إسلام أخٌ وأخت أحسنُ غناء من إبراهيم بن المهدىّ وأخته عليّة . ورُوى عن أبى أحمد ابن الرشيد قال : كنت يوما بحَضْرة المأمون وهو يشرب ، ثم قام وقال لى : قم ؛ ١٠ فدخل دار الحُرَم ودخلت معه ، فسمِعت غناءً أذهل عقلى ولم أقدِر أن أتقدّم ولا أتأخّر ؛ وفَطِن المأمون لما بى فضحك وقال : هذه عمّتك عليّة تُطارِح عمّك إبراهيم .

قال أبو الفرج : وأمّ عليّة أمّ ولدٍ مغنّية يقال لها مكنونة ، كانت من جوارى المَرْوانيّة المغنّية . والمروانيّة هذه ليست من آل مروان بن الحكم ، وإنما هى زوجة ١٥ الحسن بن عبد الله بن عُبَيد الله بن العباس . وكانت مكنونة من أحسن جوارى المدينة وجهًا ، وكانت رسحاء(٢) ، وكانت حسنة البطن والصدر . فاشتُرِيت للمهدىّ فى حياة أبيه بمائة ألف درهم ؛ فغلبتْ عليه حتى كانت الخَيْزُرَانُ تقول : ما مَلَك

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٩ ص ٧٢ طبع بولاق) .

(٢) رسحاء : قليلة لحم العجيزة . ٢٠

أَمَةً أغلظ علىّ منها . ولما ٱشتُرِيتْ للهدىّ ستَر أمْرَها عن أبيه المنصور حتى مات ، وولدتْ للهدىّ عليّة هذه .

وكانت عليّة بنت المهدىّ من أجمل الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيّد وتصوغ فيه الألحان الحسنة . وكان فى جبينها فضلُ سَعة ، فاتّخذت العصائب المكلّلة بالجوهر لتستُرَ بها جبينَها ؛ فهى أوّل من أحدث ذلك .

قال : وكانت عليّة حسنةَ الدِّين، وكانت لا تغنِّى ولا تشرب النبيذَ إلّا إذا كانت مُعتزلة الصلاة ؛ فإذا طَهُرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن وقراءة الكتب . ولم تَلْهُ بشىء غير قول الشعر فى الأحيان ، إلّا أن يدعوها الخليفة إلى شىء فلا تَقدِر على خلافه . وكانت رحمها الله تقول : ما حرّم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلّل منه عِوَضا، فبأىّ شىء يحتجّ عاصِيه والمُنتهِك لحُرُماته ! . وكانت تقول : لا غَفَر الله لى فاحشةً ٱرتكبتها قطُّ، وما أقول فى شعرى إلّا عبثا .

وعن سَعيد بن هُرَيم قال : كانت عليّة بنت المهدىّ تحبّ أن تراسل بالأشعار من تختصّه ، فٱختصّت خادمًا يقال له طَلٌّ من خدم الرشيد، تُراسله بالشعر . فلم تره أيّاما ؛ فمشت على مِيزاب وحدّثته ثم قالت فى ذلك :

قد كان ما كُلِّفتُه زمنا * ياطلُّ من وَجْدٍ بكم يكفى
حتى أتيتُك زائرا عَجِلا * أَمشِى على حَتْفٍ إلى حَتْفى[1]

فحلف عليها الرشيد ألّا تكلّم طَلًّا ولا تُسَمِّيه بٱسمه ، فضَمِنت له ذلك . وٱستمع عليها يومًا وهى تقرأ آخر سورة البقرة حتى بلغت إلى قوله عزّ وجلّ : ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ فأرادت أن تقول : (فَطَلٌّ) فقالت : فالذى نهى عنه أمير المؤمنين . فدخل

(١) فى الأصل : "أمشى على حتفى الى حتفى" .

الرشيد فقبّل رأسها وقال : قد وهبتُ لكِ طَلًّا ولا أمنعك بعدها من شيءٍ تُرِيدِينَه.
ولها فى طلّ هذا عدّة أشعار صنعت فيها ألحانا، وكانت فى بعضها تصحِّف آسمه وتكْنِي
عنه بغيره. وكانت أيضا تقول الشعر فى خادم لها يقال له : رَشَأ وتَكْنِي عنه بزينبَ.
فمن شعرها فيه :

وَجَدَ الفؤادُ بزينَبا * وَجْدًا شـــديدًا مُتْعِبَا ٥
أصبحتُ مِن كَلَفٍ بها * أُدْعَى شَـــقِيًّا مُنْصَبا
ولقد كَنَيتُ عن آسمها * عمـــدًا لكى لا تَغْضَبا
وجعلتُ زينبَ سُـــتْرَةً * وكَتَمتُ أمرًا مُعْجِبا
قالت وقد عَزَّ الوِصا * لُ ولم أجِدْ لى مَذْهَبا
واللهِ لا نِلتَ المـــودّةَ أو تنالَ الكوكبا ١٠

فصحّفت آسمه فى قولها : "زينبا"، وهذا من الجناس الخطّى. قال : وكانت لأمّ
جعفر جارية يقال لهـا طُغْيان ، فوشتْ بعليّـــة إلى رَشَأ وحكت عنها ما لم تقل .
فقالت عليّة :

لِطُغيانَ خُفٌّ مُذْ ثلاثين حِجّةً * جديدٌ فلا يَبْـــلَى ولا يَتَخَـــرّقُ
وكيف بِلَى خُفٍّ هو الدهرَ كلَّه * على قدميهـــا فى السماءِ[1] معلّق ١٥
فما خَرقتْ خُفًّا ولم تُبْلِ جَوْرَبًا * وأمّا سَـــراوِيلاتها فتَمَـــزّق

ورُوِى عن أبى هَفّان قال :

أُهدِيت للرشيد جاريةٌ فى غاية الجمال، فخلا معها يوما وأخرج كلَّ قَيْنة فى داره
وآصطبح. وكان مَنْ حضر من جواريه الغناءَ والخدمةَ فى الشراب زُهَاء ألفى جارية
فى أحسن زِىٍّ من كل نوعٍ من أنواع الثياب والجوهر . وآتّصل الخبر بأمّ جعفر ٢٠

(١) رواية الأغانى (ج ٩ ص ٨٥ طبع بولاق) : "فى الهواء" .

فعظم عليها ذلك؛ فأرسلت إلى عليّة تشكو إليها . فأرسلت إليها عليّة : لا يهولنّك هذا، والله لأردّنّه إليك . قد عزمتُ أن أضع شعرًا وأصوغ فيه لحنًا وأطرحه على جَوَارِىّ، فلا تُبْقِى عندك جارية إلّا بعثتِ بها إلىّ وألبسيهنّ أنواعَ الثّياب ليأخذن الصوت مع جوارِىّ؛ ففعلت أمّ جعفر ما أمرتها به . فلما جاء وقت صلاة العصر لم يشعر الرشيد إلا وعليّة وأمّ جعفر قد خرجتا إليه من حُجْرتيهما معهما زُهاء ألفى جارية من جوارِيهما وسائر جوارى القصر عليهنّ غرائب اللّباس وكلهنّ فى لحن واحد هَزَج صنعته عليّة وهو :

مُنْفَصِلٌ عنّى وما * قلبىَ عنه مُنْفَصِلْ

يا هاجرِى اليومَ لمن * نَوَيْتَ بعدى أن تَصِلْ

فطَرِب الرشيد وقام على رجليه حتى ٱستقبل أمّ جعفر وعليّة وهو على غاية السرور، وقال : لم أر كاليوم قطّ . يا مسرور، لا تُبْقِيَنّ فى بيت المال دِرْهمًا إلا نثرته . فكان ما نُثِر يومئذ ستة آلاف ألف درهم، وما سُمِع بمثل ذلك اليوم .

ورُوِى عن عَرِيب أنها قالت : أحسنُ يوم رأيتُه فى الدنيا وأطيبه يوم ٱجتمعت فيه مع إبراهيم بن المهدىّ عند أخته عليّة وعندها أخوهما يعقوب بن المهدىّ، وكان أحذق الناس بالزَّمْر . فبدأت عليّة فغنّت من صنعتها وأخوها يعقوب يزمُر عليها :

تَحَبَّبْ فإنّ الحبّ داعيةُ الحبّ * وكم من بعيد الدار مُستوجِبُ القربِ

تَبَصَّرْ فإنْ حُدِّثْتَ أنّ أخا هوًى * نجا سالمًا فارجُ النجاةَ من الحبّ

إذا لم يكن فى الحبّ سُخْطٌ ولا رِضًا * فأين حلاواتُ الرسائل والكُتْب

وغنّى إبراهيم فى صنعته وزمر عليه يعقوب :

لم يُنْسِنيك سرورٌ لا ولا حَزَنُ * وكيف لا، كيف يُنْسى وَجْهُكَ الحَسَنُ

ولا خلا منك قلبى لا ولا جَسَدى * كُلّى بكُلّك مشغولٌ ومُرْتَهَنُ

يافردةَ الحُسْنِ مالى منك مذ كَلِفَتْ * نفسى بحُبّك إلّا الهمُّ والحَزَنُ
نُورٌ تَوَلّد من شمسٍ ومن قمرٍ (١) * حتى تكامل فيك الروحُ والبَدَنُ

قالت عَرِيب : فما سَمِعتُ مثل ما سَمِعتُ منها قط وأعلم أنى لا أسمع مثله أبدا .

(٨٩) ورُوِى عن خَشْف الواضحيّة قالت : تَمَارَيْتُ أنا وعَرِيب فى غِناء عُلَيّة بحضرة المتوكل أو غيره من الخلفاء . فقلت أنا : هى ثلاثة وسبعون صوتا ، وقالت عَرِيب : هى آثنان وسبعون صوتا . فقال المتوكل : غَنِّيا غناءها ؛ فلم أزل أُغَنِّى غناءها حتى مضى آثنان وسبعون صوتا ، ولم أدرِ الثالثَ والسبعين . قالت : فقُطِع بى وآستعلتْ عَرِيب وآنكسرتُ . قالت خَشْف : فلما كان الليل رأيت عُلَيّة فيما يرى النائم ، فقالت : ياخَشْف خالفتك عَرِيب فى غنائى . قلت : نعم يا سيّدتى . قالت : الصواب معك ، أفتدرين ما الصوت الذى أُنْسِيتِيه ؟ قلت : لا والله ، ولَوَدِدتُ أنّى فَدَيتُ ما جرى بجميع ما أملك . قالت : هو :

بُنِى الحُبُّ على الجَوْرِ فلو * أنصف المعشوقُ فيه لَسَمُجْ
ليس يُسْتَحسَن فى وصف الهوى * عاشقٌ يَعْرِف تأليفَ الحُجَجْ
وقليلُ الحبِّ صِرْفًا خالصًا * لك خيرٌ من كثيرٍ قد مُزِجْ

وكأنها قد آندفعت تغنّى به ، فما سَمِعتُ أحسن مما غنّته ، وقد زادتنى فيه أشياء فى نومى لم أكن أعرفها ، فآنتبهتُ وأنا لا أعقل فَرَحًا به . فباكرتُ الخليفة وذكرت له القِصّة . فقالت عَرِيب : هذا شىء صَنعتِه أنتِ لِما جَرَى أمس ، وأمّا الصوت فصحيح . فحلفتُ للخليفة بما رَضِىَ به أنّ القِصّة كما حكيتُ . فقال : رؤياكِ والله أعجب ، رحِم الله عُلَيّة ! فما تركتْ ظَرْفَها حيّة ولا ميّتة . وأجازنى جائزة سَنِيّة .

(١) فى الأغانى (ج ٩ ص ٨٩ طبع بولاق) : « منه » .

وروى أبو الفرج أيضا بسنده إلى محمد بن جعفر بن يحيى بن خالد قال :

شَهِدتُ أبى جعفرًا وأنا صغير وهو يحدّث جَدّى يحيى بن خالد فى بعض ما كان يُخبره به من خَلْوته مع هارون الرشيد، قال : يا أبتِ، أخذ بيدى أمير المؤمنين وأقبل فى حُجَرِه يخترِقها حتى انتهى إلى حُجْرةٍ مُغْلَقة، ففتحها بيده ودخلها ودخلت وأغلق بابها من داخلٍ بيده، ثم صِرْنا إلى رُوَاق ففتحه، وفى صدره مجلس مُغْلَق فقعد على باب المجلس، ونقر الباب بيده نَقَرات فسمعنا حِسًّا، ثم أعاد النَّقْر ثانيةً فسمِعنا صوت عود، ثم أعاد النقر ثالثةً فغنّت جارية ما ظننتُ واللهِ أنّ الله جلّ وعزّ خلق مثلها فى حسن الغناء وجودة الضرب . فقال [لها](١) أمير المؤمنين بعد أن غنّت أصواتا : غَنِّى صوتى؛ فغنت صوته، وهو :

ومُخَنَّثٍ شهِد الزِّفافَ وقبلَه * غَنَّى الجَوَارِى حاسِرًا ومُنَقَّبَا
لَبِس الدَّلالَ وقام ينقُر دُفَّه * نَقْرًا أقرّ به العيونَ وأطربا
إنّ النساءَ رأينه فعَشِقْنَه * فشَكَوْنَ شِدّة ما بِهِنّ فأكذبا

قال : فطَرِبتُ واللهِ طَرَبًا هَمَمتُ معه أن أنطَح برأسى الحائط . ثم قال : غنِّى :

* طال تكذيبى وتصديِقى *

فغنّت :

طال تكذيبى وتصديقِى * لم أجِدْ عهدًا لمخلوقِ
إنّ ناسًا فى الهوى غَدَرُوا * حَسَّنُوا نقضَ المواثيقِ
لا تَرَانِى بعدهمْ أبدًا * أشتكى عِشْقًا لمعشوقِ

قال : فرَقَص الرشيدُ ورقصتُ معه ؛ ثم قال : آمضِ بنا ، فإنى أخشى أن يبدو منّا ما هو أكثر من هذا، فمَضَينا . فلمّا صِرْنا إلى الدِّهْليز قال وهو قابضٌ على يدى :

(١) زيادة عن الأغانى .

هل عرفتَ هذه المرأة؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين . قال : فإنّى أعلم أنك ستسأل عنها ولا تكتم ذلك وأنا أُخبرك بهـا ، هذه علية بنت المهدى . ووالله لئن لفظتَ به بين يدى أحد و بلغنى لأقتلنّك . قال : فسمعت جَدّى يقول لأبى : فقد والله لفظتَ به، ووالله ليقتلنّك، فآصنعْ ما أنت صانع .

وأخبار عُلَيّة وأغانيها كثيرة، وقد ذكرنا منها ما يُكْتَفَى به . ٥

قال أبو الفرج : وكان مولد عليّة سنة ستين ومائة ، وتوفِّيت سـنة عشرة ومائتين، وقيل: سنة تسع ومائتين، ولها خمسون سنة . وكانت عند موسى بن عيسى ابن موسى بن محمد بن على بن عبـد الله بن عبّاس رضى الله عنهـما . وكان سبب وفاتهـا أنّ المأمون ضمّها اليه وجعل يقبِّل رأسها ووجهها مُغَطًّى، فشَرِقت من ذلك وسَعَلَتْ ثم حُمَّت بعقب هذا أيّامًا يسيرةً وماتت . رحمها الله . ١٠

ومنهم أبو عيسى بن الرشيد . هو أبو عيسى أحمد ، وقيل : بل آسمه صالح بن هارون الرشيد (١) . وأمّه أمّ ولد بربريّة . كان من أحسنِ الناس وجها ومجالسة وعِشْرةً وأمجَنِهم وأحَدِّهم نادرةً وأشدِّهم عبثًا . وكان أبو عيسى جميلَ الوجه جِدّا؛ فكان إذا عزَم على الركوب جلس الناسُ له حتى يروه أكثر ممـا كانوا يجلسون للخلفاء . وكانت عَرِيب المأمونيـة تقول : ما سَمِعتُ غناءً أحسنَ من غِنـاء أبى عيسى بن الرشيد، ولا رأيتُ وجهًا أحسنَ من وجهه . ١٥

ورُوِى أنّ الرشـيد قال يوما لأبى عيسى وهو صبىٌّ : ليت جمالَك لعبد الله ! (يعنى المأمون) فقال له : يا أمير المؤمنين، على أنّ حظّه منك لى . فعجِب الرشيد من جوابه على صِباه وضمّه إليه وقبّله .

(١) للرشيد عدّة أولاد منهم أبو عيسى وصالح وغيرهما . (انظر كتاب المعارف لابن قتيبة) . ٢٠

قال أبو الفرج : وكان أبو عيسى جَيِّد الصَّنْعة، وله أغانٍ منسوبةٌ إليه ومعروفةٌ به . منها :

رَقَدت عنكَ سَلْوتى * والهوَى ليس يَرْقُدُ
وأطار السهادُ نَوْ * مِى فنومى مُشَرَّدُ
أنتَ بالحُسْنِ منك يا * حَسَنَ الوجهِ يُشْهَدُ
وفؤادِى بحُسْنِ وجـ * ـهِك يَشْقَى ويَكْمَدُ

وله غير هذا من الأصواتِ . قال : وكان كثير البَسْطِ والمُجُونِ والعَبَث . وكان المأمون أشدّ الناس حبّا له ، وكان يُعِدّه للأمر بعده ويذكر ذلك كثيرا . حتى لقد حُكِىَ عنه أنه قال يوما : إنه ليسهُل علىّ أمرُ الموتِ وفَقْدُ المُلْكِ، ولا يسهل شىء منهما علىَ أحد، وذلك لمحبّتى أن يَلِى أبو عيسى الأمرَ بعدى لِشدّة حبّى إياه . وكانت وفاة أبى عيسى فى سنة سبع ومائتين .

رُوِىَ عن عبد الله بن طاهر قال : حدّثنى من شَهِد المأمون ليلةً وهم يتراءون هِلالَ شهر رمضان وأبو عيسى أخوه معه وهو مُستلقٍ على قفاه، فرأوه وجعلوا يدعون . فقال أبو عيسى قولا أُنكِرَ عليه ، كأنه يسخَط لورود الشهر، فما صام بعده . ونُقِل عنه أنه قال :

دهانِىَ[1] شهرُ الصوم لا كان من شهرِ * ولا صمتُ شهرًا بعده آخر الدهرِ
فلو كان يُعْدِينى الإمامُ بقُدْرةٍ * على الشهر لاستَعْدَيْتُ[2] جُهْدِى على الشهرِ

فناله بعقب هذا القول صَرْعٌ ، فكان يُصْرَع فى اليوم مرّات حتى مات . ولمّا مات وَجِدَ المأمون عليه وجدا شديدا .

(١) كذا فى الأغانى (ج ٩ ص ٩٦ طبع بولاق) . وفى الأصل : «دمانى» .
(٢) يقال : استعديت على فلان الأمير فأعدانى أى استعنت به عليه فأعانى .

رُوِى عن محمد بن عبّاد المُهَلّبِىّ قال :

لمّـا مات أبو عيسى بن الرشـيد دخلتُ على المأمون فخلعتُ عمامتى ونبذتها ورائى — والخلفاءُ لا تُعَزَّى فى العمائم — فقال لى : يا محمد، حالَ القَدَرُ دون الوَطَر. فقلت : يا أمير المؤمنين، كلُّ مُصيبة أخطأتك شَوًى[1]، فجعل الله الحزنَ لك لا عليك ! .

قال : فركب المأمون إلى دار أبى عيسى فحضر جِهازه وصلّى عليـه ونزل فى قبره . وآمتنع من الطعام أياما حتى خِيف أن يَضُرّ ذلك به . قال : وما رأيت مصابا حزينا قطُّ أجمل أثرًا فى مُصيبته ولا أحرق وجدًا منـه ، صامتٌ ودموعُه تهمِى على خَدّيه من غير كلح[2] ولا آستنثار .

ورُوِى عن أحمد بن أبى دُوَاد قال : دخلتُ على المأمون وقد تُوُفِّىَ أخوه أبو عيسى وهو يبكى و يمسَح عينيه بِمنْديل، فقعدتُ الى جنب عمرو بن مَسْعَدة وتمثّلت قولَ الشاعر :

نقصٌ من الدُّنيا وأسبابها * نقصُ المنايا من بنى هاشم

فلم يزل على تلك الحال يبكى ثم يمسَح عينيه، وتمثّل :

سأَبكيك ما فاضتْ دُمُوعى فإنْ تَغِضْ * فحَسْـبُكَ منِّى ما تُجِنّ الجَـوَانحُ[3]

كأنْ لم يَمُتْ حَىٌّ سِـواكَ ولم تَقُمْ * على أحـدٍ إلا عليـكَ النـوائحُ

ثم آلتفت إلىّ وقال : هِيه يا أحمد ! فتمثّلتُ بقول عَبْدَةَ بن الطبيب :

عليكَ سلامُ الله قَيْسَ بنَ عاصمٍ * ورحمتُه ما شاء أن يترحّما

تَحِيّةَ من أولَيتَه منـك نعمةً * إذا زار عن شَحْطٍ بلادَكَ سلّما

---

(١) شوى : هينـة . يقال : كل شىء شوى ما سـلم لك دينك ، أى هين . (٢) كذا فى الأصـل والأغانى . والذى فى معاجم اللغة : كلح (وزان منع) كلوحا وكلاحا (بضمهما) : تكشر فى عبوس . (٣) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «الجوارح» .

فما كان قَيْسٌ هُلْكُه هُلْكُ واحدٍ * ولكنّه بُنْيانُ قومٍ تهـدّما

فبكى ساعة ، ثم آلتفت إلى عمـرو بن مَسْعَدة فقال : هِيه يا عمرو ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين :

بَكُّوا حُذَيْفة لم تُبَكُّوا مثلَه * حتى تعودَ قبائلٌ لم تُخْلَقِ

٥ قال : فإذا عَرِيب وجوارٍ معها يسمعن ما يدور بيننا ؛ فقالت : اجعلوا لنـا معكم فى القول نصيبا . فقال المأمون : قولى ، فرُبّ صوابٍ منك كثير . فقالت :

كذا فلْيَجِلَّ الخَطْبُ ولْيَفْدَحِ الأمرُ * فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤُها عُذْرُ

كأنّ بنى العبّـاسِ يومَ وفاتِه * نجومُ سماءٍ خَرَّ من بينها البدرُ (١)

فبكى وبكينا . ثم قال لهـا المأمون : نُوحى ، فناحت وردّ عليها الجوارى . فبكى

١٠ المأمون حتى قلت : قد فاضت نفسه وبكينا معه أحرّ بكاء ، ثم أمسكتْ . فقال المأمون : آصنعى فيه لحنًا على مذهب النَّوح وغنّى به ؛ ففعلت وغنّته إياه على العود . فوالذى لا يُحْلَف بأعظمَ منه لقد بكينا عليه غِناءً أكثرَ مما بكينا عليه نَوْحا .

ومنهم عبد الله بن موسى الهادى . قال أبو الفـرج : كان له فى الغناء صنعة حسنة ، وله أصوات مذكورة ، منها قوله :

١٥ تقاضاكَ دهرُكَ ما أسلفا * وكَدَّر عيشَك بعد الصَّفا

فلا تَجـزَعنّ فإن الزمان * رهـينٌ بتشتيتِ ما ألَّفا

ولمـا رآك قليلَ الهمومِ * كثيرَ الهوى ناعمًا مُتْرَفا

ألحّ عليـك بروْعاته * وأقبل يرميك مُستهدِفا

---

(١) هذان البيتان من قصيدة لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى يرثى بها محمدا وقحطبة وأبا نصر بنى حميد

٢٠ الطوسى . وقد غيرت فيهما عريب « بنى نبهان » بـ « بنى العباس » .

قال : وكان عبد الله هذا من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناء . وكان له غلام أسود يقال له «قَلَم» ، فعلّمه الضربَ فحذق فيه ؛ فاشترته منه أمّ جعفر بثلاثمائة ألف درهم .

ورُوى عن سليمان بن داود كاتب أمّ جعفر قال :

كنت جالسا مع عبد الله بن موسى الهادى ، فمرّ به خادم لصالح بن الرشيد ، فقال له : ما آسمك ؟ قال : آسمى لاتَسَلْ . فأعجبه حسنُه وحسن منطقه ، فقال لى : قم بنا حتى نشرب اليوم ونذكر هذا البدر ، فقمت معه . فأنشدنى فى ذلك اليوم :

وشادنٍ مَرّ بنا * يجرَح باللحظ المُقَلْ
مظلومُ خَصْرٍ ظالمٌ * منه إذا يمشى الكَفَل
اعتدلت قامتُه * والطرف منه ماعَدَل
بدرٌ تراه أبدًا * طالعَ سعد ما أفَل
سألته عن آسمه * فقال : إسمى لاتَسَلْ
وطلعتْ فى وَجْنتَيـ * ـه وردتان من خَجَل
فقلت ما أخطأ الذى * سمّاك بل قال المَثَل
لا تسألنْ عن شادنٍ * فاقَ جمالًا وكَمَل

وقال فيه :

عزّ الذى تهوَى وذَلّ * صبّ الفؤاد مُختَبَلْ
جدّ به الهجرُ وذا الـ * ـهجرُ اذا جَدّ قتل
من شادن مُمَنْطَق * فاق جمالًا وكَمَل
تناصف الحسنُ به * فلا تَسَلْ عن لاتَسَلْ

وعن أحمد بن المكىّ قال : دعانى عبد الله بن موسى يوما فقال لى : أتقوِّم غلامًا ضاربا مغنّيا قيمةَ عَدْل لا حَيْف فيها على البائع ولا على المشترى ؟ فقلت نعم . فأخرج إلىّ ٱبنه القاسم ، وكنت قد عرفت خبره وهو أحسن من القمر ليلة البدر ، فأخذ عودا يضرب به ؛ فأكببت على يديه أُقَبِّلهما فقال لى عبد الله : أتقبِّل يد غلام مملوك ! فقلت : بأبى وأمى هو مِنْ مملوكٍ ! وقبّلت رجله أيضا . فقال : أمّا إذ عرفتَه فأحِبُّ أن تُضاربه ، ففعلت . فلما رأى الغلام زيادتى فى الضرب عليه ٱغتمّ وأقبل على أبيه فقال له كالمعتذر إليه : يا أبت ، أنا متلذِّذ وهذا متكسِّب . فضحكت وقلت : هو كذلك يا سيِّدى . وعجبت من حدّة جوابه معتذرًا على صغر سنه .

قال عبد الله بن حبيب :

كان عبد الله بن موسى الهادى مُعَرْبِدا، وكان قد أعضل[1] المأمون مما يُعربد عليه إذا شرب معه ؛ فأمر به أن يُحْبَس فى منزله فلا يخرج منه ، وأقعد على بابه حرسا ؛ ثم تَذَمَّم من ذلك فأظهر له الرضا وصرَف الحرَس عن بابه . ثم نادمه فعربد عليه أيضا وكلّمه بكلام أحفظه . وكان عبد الله مُغْرَما بالصيد ؛ فأمر المأمون خادما من خواصّ خدمه يقال له حسن[2] فسَمّه فى دُرّاج ؛ فلما أكله أحسّ بالسمّ ، فركب فى الليل وقال لأصحابه : هو آخر ما ترونى ، ومات بعد أيام . وأُكل معه خادمان ، فمات أحدهما لوقته ، وضَنِى الآخر ثم مات بعد مدّة .

ومنهم عبد الله بن محمد الأمين . قال أبو الفرج الأصفهانىّ :

كان عبد الله بن محمد الأمين ظريفا غَزِلا يقول شعرًا ليِّنا ويصنعه صنعةً صالحة . وكان بينه وبين أبى نَهْشَل بن حُمَيْد مودّة ؛ فاعترض عبد الله جاريةً مغنِّية

(١) كذا فى الأغانى . وأعضل : أعيا . وفى الأصل : « أحفظ » .
(٢) فى الأغانى : « حسين » .

لبعض نساء بنى هاشم وأعطى بها مالا عظيما. وعَرَفتْ مولاتها منه رغبةً فيها فزادت عليــه فى السَّوْم فتركها ؛ فآشتراها أخ لأبى نهشل ، فتبعتْها نفسُ عبد الله ، فسأل أبا نهشل أن يسأل أخاه النزولَ عنها؛ فسأله ذلك فوعده ودافعه . فكتب عبد الله إلى أبى نهشل :

يآبنَ حُمَيْــدٍ يا أبا نَهْشَلٍ * مفتاح باب الحَدَثِ المُقْفَلِ
يا أكرمَ النـاسِ ودادًا وأر * عاهم لحـــقٍّ ضائع مُهْمَلِ
أحسنتَ فى ودّى وأجملتَ بل * جُزْتَ فعالَ المحسن المُجْمِلِ
بيتُــك فى ذى يَمَنٍ شـامخٌ * تَقْصُر عنـــه قُنَّـا يَذْبُلِ
خَلَفتَ فينا حاتمًا ذا النّدى * وجُدْتَ جودَ العارض المُسْبِلِ
أىّ أخ أنت لذى وَحْـدةٍ * تركته بالعـــزِّ فى جَحْفَـلِ
نجومُ حظّى منك مسعودةٌ * فيما أُرَجِّى ليس بالأُفَّـــلِ
فصَـدِّقِ الظنّ بمـا قلتَــه * وسَهِّلِ الأمرَ به يَسْهُلِ
لا تَحْـــرِمَنّى ولديك المُنَى * بالله صـيد الرَّشَأ الأَكْحَـلِ
رُميتُ منه بسهام الهـــوَى * وما دَرَى ما الرَّمْىُ فى مَقْتَلى
أدنيتَنى بالوعد فى صيده * إدناءَ[(1)] عَطْشانٍ من المَنْهَلِ
ثم تناسـيتَ وأسلمتَـــنى * إلى مِطَالٍ مُوحِشِ المـنزِلِ
تركتَنى فى لُجَّـة عائمـا * لا أعرف المُدْبِرَ من مُقْبِلِ
صَرِّحْ بأمرٍ واضحٍ بيِّنٍ[(2)] * لاخيرَ فى ذى لَبَسٍ مُشْكِلِ

قال : فلم يزل أبو نهشل بأخيه حتى نزل له عنها . ولعبد الله هذا صنعةٌ منها قوله :

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «إذ أنا» .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «بيننا» .

أَلَا يادِيرَ حنظلةَ المُفَـدَّى * لقـد أورثتنى سُـقمًا وكدًا
أزفّ من الفُرات اليك زِقًّا (١) * وأجعل حوله الوردَ المُندَى

ومنهم أبو عيسى بن المتوكل . قال عبد الله بن المعتز :

جُمِـع لأبى عيسى بن المتوكل صنعةٌ مقدارها أكثر من ثلثمائة صوت ، منهـا
٥ الجيِّد الصنعة ومنها المتوسِّط . وقال التُّميرىّ : سمعت أبا عيسى بن المتوكل يقول :
إذا أتممت صنعة ثلثمائة وستين صوتا عدد أيام السنة تركت الصنعة . فلما أتمها ترك
الصنعة . فمنها قوله فى شعر علىّ بن الجَهْم :

هى النفسُ ما حَمَّلتَها تتحمّـلُ * وللدهرِ أيّامٌ تجـور وتعـدلُ
وعاقبـةُ الصـبر الجميـل جميلةٌ * وأفضلُ أخلاقِ الرجال التجمُّلُ

١٠ قال أبو الفرج الأصـفهانى : وهو لَعَمْرى من جيِّـد الغناء وفاخر الصنعة ،
ولو لم يصنع غيره لكفى (٢) .

ومنهم عبد الله بن المعتز . هو أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله العباسىّ .
قد وصفه أبو الفرج الأصـفهانى فقال : وأمره مع قُرب عهـده بعصرنا مشهورٌ
فى فضائله وأدبه شهرةً يشترك فى أكثرها الخاصّ والعامّ ، وشعره وإن كان فيه رقّة
١٥ الملوكية وغَزَل الظرفاء وهلهلة المُحْـدَثين ، فإنّ فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسـلوب
المجيدين ، ولا تقصُر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك فى جنس
ما هم بسبيله ، ليس عليه أن يتشبّه فيهـا بفحول الجاهلية . وأطنب فى وصفه
وتقريظه، وهو فوق ما قال . ثم قال :

(١) كذا فى معجم البلدان لياقوت . وفى الأصل : «تحته» . ورواية الأغانى (ج ٩ ص ١٠٢):
٢٠ أزف من العقار اليك دنا * وأجعل تحته الورق المندّى

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «وما لو لم يصنع» .

وكان عبـد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النَّغَم وعِلَلها ؛ وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدلّ على فضله وغزارة أدبه. وذكر منها شيئا ليس هذا موضع إيراده. ثم قال : ومن صنعة عبد الله بن المعتز في شعره:

هل تَرْجعنّ ليالٍ قد مَضَيْنَ لنا * والدارُ جامعـةٌ أزمانَ أزمانا ٥

قال أبو الفَرَج : ومن صنعته الطريفة الشكل مع جودتها :

وا بَلائى مِنْ مَحْضَرٍ ومَغِيبِ * وحبيبٍ منّى بعيـدٍ قـريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وجهـه العينُ إلّا * شَرِقَتْ قبـل رِيِّهـا برقيب

قال : ومن صَنْعته التي تَظَارف فيها ومَلُح :

زاحـمَ كُمّى كُمّـه فالْتَوَيَا * وافقَ قلبي قلبَه فاسْـتَوَيَا ١٠
وطالما ذاقا الهوى فاكْتَوَيَا * يا قرّةَ العينِ ويا همّى ويَا

وحُكِي عن جعفر بن قُدَامة قال : كان لعبد الله بن المعتز غلام يحبّه، فغضب الغلام عليه، فجَهَد أن يترضّاه، فلم يكن له فيه حيلة . ودخلت عليه فأنشدني فيه :

بأبي أنتَ قـد تمـا * دَيتَ في الهجرِ والغَضَبْ
واصطبارى على صدو * دِكَ يوماً من العَجَبْ ١٥
ليس لي إن فقدتُ وجـ * ـهَكَ في العيشِ من أرَبْ
رحِم اللهُ مَنْ أعا * نَ على الصُّلحِ واحتسبْ

قال : فمضيت إلى الغـلام ، فلم أزل أداريه وأرفُق به حتى ترضّيته له وجئته به ؛ فمرّ لنا يومئذ أطيب يوم وأحسنه .

ذكر مَن غنّى من الأشراف والعلماء رحمهم الله

كان ممن غنى من الأشراف والعلماء على ما نُقل إلينا من أخبارهم :

عبد العزيز بن المطلب[1] . روى الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي المقدسيّ رحمه الله بسند رفعه إلى محمد بن مَسْلَمَة قال حدّثني أبي قال : أتيتُ عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدؤها ، فوجدته مستلقيًا وهو يغنّي :

فما روضةٌ بالحَزْنِ طيّبةُ الثّرَى * يَمُجّ النّدَى جَثْجَاثُهَا وعَرَارُها[2]

بأطيبَ من أردانِ عَزَّةَ مَوْهِنًا * وقد أُوقِدَتْ بالمَنْدَلِ الرَّطْبِ نارُها

من الخفراتِ البِيضِ لم تلقَ شِقْوةً * وبالحَسَبِ المكنونِ صافٍ نِجارُها

فإن برزتْ كانت لعينيك قُرّةً * وإن غبتَ عنها لم يَغُمَّك عارُها[3]

فقلت له : تغنّي أصلحك الله وأنت في جلالتك وشرفك ! أمَا والله لأحدُوَنّ بها رُكبانَ نجد . قال : فوالله ما أكترثُ وعاد يتغنّى :

فما ظبيةٌ أدماءُ خفّاقةُ الحشى * تجوب بظِلْفيها بطونَ الخمائلِ

بأحسن منها إذ تقول تدلُّلًا * وأدمُعُها يُذْرِينَ حَشْوَ المكاحلِ

تَمَتَّعْ بذا اليوم القصيرِ فإنه * رهينٌ بأيّام الشهور الأطاولِ

---

(١) في الأصل «عبد العزيز بن عبد المطلب» والتصويب عن كتب التراجم والأغاني (ج ١٥ ص ٦٨ طبع بولاق) . وهو عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله بن حنطب ولي قضاء المدينة لعهد المنصور ثم المهدي وولي قضاء مكة .

(٢) الجثجاث : شجر له زهر أصفر طيب الرائحة . والعرار : النرجس البري .

(٣) رواية الأغاني (ج ١٤ ص ٥٩ طبع بولاق) :

فإن خفيت كانت لعينيك قرة * وإن تبد يوما لم يعمك عارها

قال : فندمت على قولى له، فقلت : أصلحك الله، أتحدّثنى فى هذا بشىء! فقال: نعم، حدّثنى أبى قال : دخلتُ على سالم بن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهم — وأشعب يغنّيه :

مُعقْربةٌ كالبدر سُـــنّةُ[1] وَجْهِها * مُطَهَّرةُ الأثوابِ والعِرْضُ وافرُ
لها نَسَبٌ زَاكٍ وعِرْضٌ مُهذَّبٌ * وعن كل مكروهٍ من الأمر زاجرُ
مِنَ الخَفِرات البِيضِ لم تلقَ رِيبةً * ولم يَستمِلْها عن تُقَى اللهِ شاعرُ

فقال له سالم رضى الله عنه : زدنى . فقال :

ألَمّتْ بنا والليـــلُ داجٍ كأنه * جَناحُ غُرابٍ عنه قد نَفَضَ القَطْرا
فقلتُ أعطّـارٌ ثَوَى فى رِحالنـا * وما احتملتْ ليلى سوى رِيحها عِطْرا

فقال سالم : أمَا والله لولا أن تَداوله الرُّواةُ لأجزلتُ جائزتك، فلك من هــذا الأمر مكانٌ .

ومنهم ابراهيم بن سعد[2] . هو أبو إسحـاق إبراهيم بن سـعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزُّهرِىّ . كان من العلماء الثّقات المحدّثين . سمع أباه وآبنَ شِهاب الزهرىّ وهشام بن عُرْوة وصالح بن كَيْسان ومحمـد بن إسحـاق بن يسـار . روى عنه يزيد بن عبد الله بن الهـاد وشعبة بن الحجاج والليث بن سعد، وآبناه يعقوب وسعد[2] آبنا إبراهيم وعبد الرحمن بن مهدىّ ويزيد بن هارون ويونس المؤدّب وأبو داود الطيالسىّ وسليمان بن داود الهاشمى وعبد العزيز الآدمىّ وعلىّ بن الجعـد ومحمد بن جعفر الوَرَكانىّ وأحمد بن حنبل وغيرهم . كان يُبيح السماع

(١) فى الأصل : « يشبه وجهها » . وظاهر أنه محرف عما أثبتناه . وسنة الوجه : صورته .

(٢) فى الأصول : « سعيد » . والتصويب عن تهذيب التهذيب والخلاصة فى أسماء الرجال .

ويضرب بالعود ويغنّى عليه . وله فى ذلك قصّة رواها أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسىّ بسند رفعه إلى سعيد بن كثير بن عُفَير قال :

قدم إبراهيم بن سعد الزهرىّ العراق سنة أربع وثمانين ومائة، فأكرمه الرشيد وأظهر برّه . وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ؛ فأتاه بعض أهل الحديث ليسمع منه ٥ أحاديث الزهرىّ، فسمعه يتغنّى، فقال: لقد كنتُ حريصًا على أن أسمع منك، فأمّا الآن فلا سمعتُ منك حديثا أبدا . قال : إذًا لا أفقد إلّا شخصك . علىّ وعلىّ ألّا أُحدّث ببغدادَ ما أقمتُ حديثًا واحدًا حتى أغنّى قبله . وشاعت هذه الحكاية ببغداد، فبلغت الرشيد، فدعا به فسأله عن حديث المخزوميّة التى قطعها النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سرقة الحلىّ، فدعا بعود. فقال الرشيد : أعود المِجْمَر؟ قال: لا ولكن ١٠ عود الطَّرَب، فتبسّم . ففهمها إبراهيم بن سعد فقال : لعلك بلغك يا أمير المؤمنين حديث السّفيه الذى آذانى بالأمس وألجأنى إلى أن حلفتُ . قال نعم . فدعا له الرشيد بعود فأخذه وغنّى :

يا أمّ طلحةَ إنّ البينَ قد أَفِدَا * قَلّ الثَّواءُ لئن كان الرحيلُ غدا

فقال له الرشيد : من كان من فقهائكم يُنكر السماع ؟ قال : مَنْ رَبَط الله على قلبه . ١٥ قال : فهل بلغك عن مالك فى هذا شىء؟ فقال: لا والله، إلا أن أبى أخبرنى أنهم اجتمعوا فى مَدْعاة كانت فى بنى يربوع وهم يومئذ جِلّة[1]، ومالكٌ أقلُّهم فى فقه وقَدْر، ومعهم دفوف ومَعَازف وعِيدان يغنّون ويلعبون . ومع مالك دُفّ مربّع وهو يغنيهم :

سُلَيْمَى أزمعتْ بَيْنَا * وأينَ لقاؤها أينا

٢٠ وقد قالت لأتراب * لها زُهْرٍ تلاقَيْنَا

تعالَيْنَ فقد طاب * لنا العيشُ تعالَيْنَا

(١) الجلة : العظام والسادة .

فضحك الرشيد ووصله بمـال عظيم . ومات إبراهيم فى هذه السنة وهو آبن خمس وسبعين سنة . قال : وكان ابراهيم بن سعد يبالـغ فيه إلى هذا الحدّ . وقد أجمعت الأئمة على ثقتــه وعدالته والرواية عنه . وآتفق البخارىّ ومسـلم على إخراج حديثه فى الصحيح . ولم تسـقط عدالته بفعله عنـد أهل العلم ؛ بل قُلِّد قضاءَ بغداد على جلالتها ، وقُلِّد أبوه القضاءَ بالمدينة على شرفها . ٥

وروى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال :

شَهِدتُ إبراهيم بن سعد يحلف للرشيد وقد سأله عمن بالمدينة يُنكر الغناء ، فقال: مَنْ قَنَّعه الله خِزْيَه : مالك بن أنس ؛ ثم حلف أنه سمع مالكا يغنّى :

سليمى أزمعت بينا * فأين لقـاؤها أينـا

فى عُرْس لرجل من أهل المدينة يُكْنَى أبا حَنْظَلة . ١٠

وروى أيضا بسنده إلى الحسين بن دَحْمان الأشقر قال :

كنت بالمدينة ، فخلا لى الطريق فى نصف النهار ، فجعلت أتغنّى :

مابالُ أهلكِ يا رَبَابُ * خُزْرًا كأنهـمُ غِضابُ

قال : فإذا خَوْخةٌ قـد فُتحت وإذا وجهٌ قد بدا تتبعـه لحيـةٌ حمراء ، فقـال : يا فاسق ! أسأتَ التأديةَ ، ومنعتَ القائلة ، وأذعتَ الفاحشـة ؛ ثم آندفع يغنّيه ؛ ١٥ فظننتُ أنّ طُوَيسا قد نُشر بعينه ، فقلتُ : أصلحك الله ! من أين لك هذا الغناء ؟ قال : نشأتُ وأنا غلام أتبع المغنّـين وآخذ عنهـم ؛ فقالت لى أُمّى : يا بنىّ ، إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لم يُلتفَت إلى غنائه ، فدع الغناء وآطلب الفقه فإنه لا يَضُرّ معه قبح الوجه . فتركتُ المغنّـين وآتبعت الفقهاء ، فبلغ الله بى ما ترى . فقلت : فأعِدْ جُعِلتُ فداءك . فقال : لا ولا كرامة ! أتريد أن تقول أخذتُه عن ٢٠ مالك بن أنس ! وإذا هو مالك ولم أعلم .

ومنهم محمد بن إسماعيل بن علىّ بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما. كان عالما بالفقه والغناء جميعا . وكان يحيى بن أكثم وصفه للمأمون بالفقه ، ووصفه أحمد بن يوسف بالغناء. فقال المأمون : ما أعجب ما آجتمع فيه العلم بالعلم والغناء ! .

ذكر مَنْ غنّى من الأعيان والأكابر والقوّاد ممن نُسبت له صَنعةٌ فى الغناء

٥

منهم أبو دُلَف العِجْلىّ . هو أبو دُلَف القاسم بن عيسى بن إدريس أحد بنى عِجْل بن لُجَيم بن صَعْب بن علىّ بن بكر بن وائل . كان محلّه من الشجاعة وبُعد الهمة وعلوّ المحلّ عند الخلفاء وعظم الغَنَاء فى المشاهد وحُسْن الأدب وجَوْدة الشعر محلا كبيرا ليس لكثير من أمثاله .

١٠

قال أبو الفرج الأصبهانىّ : وله صنعة حَسَنة . فمن جيّد صنعته قوله — والشعر له أيضا — :

بنفسى يا جِنَانُ وأنتِ منّى * مكانَ الرُّوح من جَسَد الجَبَانِ

ولو أنى أقول مكانَ نفسى * خَشِيتُ عليك بادرةَ الزمانِ

لإقدامى إذا ما الخيل حامت * وهاب كُمَاتُها حَرَّ الطِّعانِ

١٥

قال : وكان أحمد بن أبى دُواد يُنكر أمر الغناء إنكارًا شديدًا؛ فأعلمه المعتصم أن أبا دُلَف صديقَه يغنّى . فقال : ما أُراه مع عقله يفعل ذلك ! فستر المعتصم أحمد بن أبى دواد فى موضع وأحضَر أبا دُلَف وأمره أن يغنّى ففعل ذلك وأطال، ثم أخرج أحمد بن أبى دواد عليه؛ فخرج والكراهة ظاهرة فى وجهه . فلما رآه أحمد

قال: سَوْءةً لهذا من فعل! أبعد [هذه][1] السنّ وهذا المحلّ تصنع بنفسك ما أرى![2]
فخجل أبو دلف وتشوّر[3] وقال: إنهم لَيُكْرِهونى على ذلك. فقال: هبهم أكرهوك على الغناء أهم أكرهوك على الإحسان فيه والإصابة!.

قال: وكان أبو دلف يُنادم الواثق. فوُصِف للمعتصم فأحبّ أن يسمعه، وسأل الواثق عنه فقال له: يا أميرالمؤمنين، أنا على نيّة القَصْد غدًا وهو عندى. وقُصِد الواثق فأتاه أبودُلَف وأتته رسل الخليفة بالهدايا؛ فأعلمهم الواثق حصولَ أبى دُلَف عنده. فلم يلبث أن أقبل الخدم يقولون: قد جاء الخليفة. فقام الواثق وكلّ مَن كان عنده حتى تلقّوه؛ وجاء حتى جلس، وأمر بندماء الواثق فرُدّوا إلى مجالسهم. وأقبل الواثق على أبى دُلَف فقال: يا قاسم، غَنّ أمير المؤمنين. فقال: صوتًا بعينه أو ما اخترتُ؟ قال: بل من صَنْعتك فى شعر جرير. فغنّى:

بانَ الخَليطُ برامَتَينِ فودّعوا * أوَكلّما اعتزموا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ
كيفَ العزاءُ ولم أجِدْ مذ غِبتمُ * قلبًا يَقِرّ ولا شرابًا يَنْقَعُ

فقال المعتصم: أحسن أحسن — ثلاثا — وشرب رطلًا. ولم يزل يستعيده حتى شرب تسعة أرطال. ثم دعا بحمار فركبه، وأمر أبا دُلَف أن ينصرف معه؛ فخرج معه فثُبِّتَ فى ندمائه، وأمر له بعشرين ألف دينار.

قال: وكان أبو دُلف جوادا ممدَّحا. وفيه يقول علىّ بن جَبَلة من قصيدة يقول فيها:

ذادَ وِرْدَ الغَيّ عن صَدَرِهْ * وارعوَى واللهوُ من وَطَرِهْ
نَدَمِى أنّ الشبابَ مضى * لم أُبَلِّغْه مدى أشَرِهْ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٥٥ طبع بولاق). (٢) فى الأغانى: «تضع نفسك كما أرى». (٣) يقال: شوّرت الرجل وبالرجل فتشوّر، اذا خجله فخجل.

حَسَرتْ عنّى بشاشتُه * وذوى المحمودُ من ثمرِهْ
ودمٍ أهدرتُ من رَشأ * لم يُرِدْ عقلًا على هَدَرِهْ

جاء منها :

دَعْ جَدَا قحطانَ أو مُضَرٍ * فى يمانِيه وفى مُضَرِهْ
وآمتدحْ من وائلٍ رجلًا * عُصُرَ(١) الآفاقِ مِن عَصَرِهْ

ومنها :

المنايا فى مَقَانبه * والعطايا فى ذَرَا حُجَرِهْ
مَلِكٌ تنــدَى أناملُه * كانبلاجِ النَّوْءِ عن مَطَرِهْ
مُستهِلٌّ عن مواهبه * كابتسامِ الرَّوْضِ عن زَهَرِهْ

ومنها :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ * بين باديه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دُلَفٍ * ولّتِ الدنيا على أثَرِهْ
كلُّ مَنْ فى الأرضِ من عَرَبٍ * بين باديهِ إلى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منه مكرمةً * يكتسيها يومَ مُفْتَخَرِهْ

وهذان البيتان اللذان أحفظا المأمون على علىّ بن جبلة حتى سلّ لسانَه من قفاه.

وقوله فيه :

أنت الذى تُنزِل الأيامَ منزِلَها * وتنقلُ الدهرَ من حالٍ إلى حالِ
وما مَدَدتَ مَدَى طَرْفٍ إلى أحَدٍ * إلّا قضيتَ بأرزاقٍ وآجالِ
تَزْوَرُّ سُخْطًا فتُضْحِى البيضُ ضاحكةً * وتستهِلّ فتبكى أعيُنُ المالِ

وكان سبب مدح علىّ بن جبلة أبا دُلَف بقوله :

* إنما الدنيا أبو دلف *

(١) العصر : الحى والملجأ .

ما رواه أبو الفرج الأصفهانى بسنده عن علىّ بن جبلة قال : زرتُ أبا دُلف بالجبل، فكان يُظهر من برّى و إكرامى والتحفّى بى أمرًا عظيما مُفرِطا حتى تأخرت عنه حياء. فبعث إلىّ مَعْقلا وقال : يقول لك الأمير : قد ٱنقطعتَ عنّى، وأظنّك قد ٱستقللتَ برّى، فلا يُغضبنك ذلك فإنى سأزيد فيه حتى ترضى . فقلت : والله ما قطعنى إلا الإفراط فى البرّ، وكتبت إليه : ٥

هجرتُك لم أهجُرْكَ من كفرِ نعمةٍ * وهل يُرتَجى نيلُ الزيادة بالكفرِ

ولكننى لمّا أتيتُــك زائرًا * فأفرطتَ فى برّى عجزتُ عن الشكر

فَمِ الآن لا آتيكَ إلّا مسلِّمًا * أزورك فى الشهرين يومًا وفى الشهر

فإن زدتَنى برًّا تزايَدتُ جفوةً * ولم تلقَنى طولَ الحياة إلى الحشر

فلما قرأها مَعْقل ٱستحسنها وقال : أحسنت والله ! أمَا إن الأمير يُعجبه هذا من المعانى . فلما أوصلها إلى أبى دُلَف قال : قاتله الله ! ما أشعره وأرقّ معانيه! وأجابنى لوقته — وكان حسن البديهة حاضر الجواب — : ١٠

ألَا ربّ طيفٍ طارقٍ قد بسطتُه * وآنستُه قبل الضّيافة بالبِشْرِ

أتانى يُرجّينى فما حال دونه * ودون القِرَى والعُرْف من نائلى سترى

وجدتُ له فضلًا علىّ بقصده * إلىّ وبرًّا زاد فيه على برّى ١٥

فزوّدته مالا يدوم بقاؤه * وزوّدنى مدحًا يدوم على الدهر

قال : و بعث بالأبيات وصيفا و بعث إلىّ معه بألف دينار . فقلت حينئذ :

* إنما الدنيا أبو دلف *

الأبيات .

وروى أبو الفرج عن أحمد بن عبيد الله بن عمّار قال : كنا عند أبى العبّاس المبرّد يوما وعنده فتى من ولد أبى البَخْتَرِىّ وهب بن وهب، أمرد حسن الوجه، ٢٠

وفتًى من ولد أبى دُلَف العِجْلىّ شبيه به فى الجمال. فقال المبرّد لابن أبى البَخْتَرِىّ: أعرف لجدّك قصّة ظريفة من الكرم حسَنة لم يُسْبَق إليها. قال: وما هى؟ قال: دُعِىَ رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقَوْه نبيذا غير الذى يشربون منه؛ فقال فيهم:

٥ نَبيذانِ فى مجلسٍ واحدٍ * لإيثار مُثْرٍ على مُقْتِرِ
فلو كان فعلُك ذا فى الطعام * لزمتَ قياسَك فى المسكرِ
ولو كنتَ تفعل فعلَ الكرام * صنعتَ صنيعَ أبى البَخْتَرِى
تتبّع إخوانَه فى البلاد * فأغنَى المُقِلَّ عن المُكْثِرِ

فبلغت الأبيات أبا البخترىّ فبعث إليه ثلثمائة دينار. قال ابن عمار: فقلت
١٠ وقد فعل جَدّ هذا الفتى فى هذا المعنى ما هو أحسن من هذا. قال: وما فعل؟ قلت: بلغه أنّ رجلا افتقر من ثروة، فقالت له امرأته، افترض فى الجند، فقال:

إليكِ عنّى فقد كلّفتِنى شَطَطًا * حملَ السلاح وقولَ الدّارعين قِفِ
تمشى المنايا إلى قومٍ فأكرهها * فكيف أمشى إليها عارىَ الكتِفِ
١٥ حَسِبتِ أنّ نفادَ المال غيّرنى * أو أنّ رُوحِىَ فى جنبَىْ أبى دُلَفِ

فأحضره أبو دلف وقال: كم أمّلتِ امرأتك أن يكون رزقك؟ قال: مائة دينار، قال: كم أمّلتَ أن تعيش؟ قال: عشرين سنة. قال: فذلك لك على ما أمّلت وأمّلتِ امرأتك فى مالنا دون مال السلطان، وأمر بإعطائه إياه. قال: فرأيت وجه ابن أبى دُلَف يتهلّل وانكسر ابن أبى البخترىّ. وهذه الأبيات رُويت
٢٠ لابن أبى فننٍ.

ومنهـــم أخوه مَعْقِـل بن عيسى . كان فارسا شاعرا جـوادا مغنِّيا فهِمًا بالنَّغَم والوَتَر، ذكره الجاحظ مع ذكر أخيه أبى دُلَف . وهو القائل لمخارق — وقد كان زار أبا دلف بالجبل ثم رجع الى العراق، وله فى ذلك غناء — :

لعمرى لئن قَرَّتْ بقُربك أعينٌ * لقـد سَخِنت بالبُعـد عنك عيون
فسِرْ أو أقِمْ، وقفٌ عليك مودّتى * مكانُك من قلبى عليك مصونُ
فما أوحشَ الدنيا إذا كنتَ نازحًا * وما أحسنَ الدنيا بحيث تكونُ

ومنهم عبـد الله بن طاهر بن الحسين وآبنه عبيد الله . فأمّا عبد الله فكان محلُّه من علو المنزلة وعظم القدر والتمكّن عنـد الخلفاء ما هو مشهور مذكور فى أخبارهم . وتقلّد الولايات الكبيرة مثل مصر والجزيرة وما يلى ذلك، ثم نُقل إلى خُراسان. وله عطايا وهِبات وصِلات لا يُنكرها أحد . ومحلّه من الشجاعة والإقدام معروف . وكان يعتنى بالغناء و يصنعه ، إلا أنه كان يترفّع عن ذكره والآعتراف به ونسبته إليه .

قال أبو الفرج : والأصوات التى غنّى فيها عبـد الله بن طاهر كثيرة . وكان آبنه عُبَيد الله إذا ذكر شيئا منهـا من صَنْعته قال : الغناء للدار الكبيرة، و إذا ذكر شـيئا من صنعة نفسه قال : الغناء للدار الصغيرة . فمن الأصوات التى صنع فيهـا عبد الله بن طاهر قوله :

هَـلّا سَـقَيتم بنى حزم (١) أسـيركُم * نفسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى
الطاعنِ الطَّعْنةَ النجلاءَ يتبعُها * مُضَرِّجٌ بعـد ما جادت بإزباد

قال : فقد جاء به عبـد الله صحيح العمـل مزدوج النغم [بين] (٢) لين وشدّة على رسم

(١) فى الأغانى (ج ١١ ص ١٤ طبع بولاق) : «بنى سهم» ثم قال : « وهم بطن من هذيل » . وذكر فى موضع آخر بلفظ «بنى جرم» .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

الحذّاق القدماء . قال عبيد الله ــ وذكر صوتا من أصواته ــ : لمّا صنع أبى هذا الصوت لم يحبّ أن يُسْمَع عنه شىء من الغناء ولا ينسب إليه ؛ لأنه كان يترفّع[1] عن ذلك ، وما جسّ بيده وترًا قطّ ولا تعاطاه، ولكنه كان يعلم من هذا الشأن بطول الدُّرْبة وحُسْن الثقافة ما لا يعرفه كثير . قال : وبلغ من علم ذلك إلى أن صنَع فى أبيات

٥ أصواتا كثيرة ، فألقاها على جواريه ، فأخذنها عنه وغنّين بها وسمعها النـاس منهنّ [وممن أخذ عنهنّ . فلما أن صنَع هذا الصوت :

هـلّا سقيتُمُ بنى سهمٍ أسـيركُمُ * نفسى فداؤك من ذى غُلّةٍ صادى][2]

نسبه إلى مالك بن أبى السـمح . وكانت لآل الفضل بن الربيع جارية يقال لهـا راحة[3]، وكانت ترغَب إلى عبد الله لمّـا ندَبه المأمون إلى مصر، وكانت تغنّيه؛

١٠ وأخذت هـذا الصوت عن جواريه ، وأخذه المغنون عنهـا، ورُوى لمـالك بن أبى السمح مدّة . ثم قدِم عبـد الله العراق، فحضر مجلس المأمون وغُنّى الصوت بحضرته ونسِب إلى مالك؛ فضحك عبد الله ضحكا كثيرا؛ فسُئل عن القصة فصدَق فيهـا[4] واعترف بصنعة الصوت . وكشَف المأمون عن القصة؛ فلم يزل كلّ من سُئل عنه يُخبر عمن أخذه[5]، فينتهى بالقصة إلى راحة ويقف فلا يعدوها . فأُحضرت راحة

١٥ وسُئلت فأخبرت بقصته؛ فعلم أنه من صنعته حينئذ بعد أن جاز على إسحاق وطبقته أنه لمـالك . ويقال : إنه لم يعجَب من شىء عَجَبَـه من حِذْق عبـد الله بمذاهب الأوائل وحكاياتهم .

وأمّا عُبَيد الله ، ويكنى أبا أحمـد . قال أبو الفرج الأصبهـانى : له محلّ من الأدب والتصرُّف فى فنونه ورواية الشـعر وقوله والعلم باللغـة وأيام النـاس

٢٠ (١) كذا فى الأغانى : وفى الأصل . «يرتفع» . (٢) التكملة عن الأغانى .
(٣) فى الاغانى : «داحة» . (٤) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «عنها» .
(٥) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « من سئل عنه عن أخذه » .

وعلوم الأوائل من الفلاسفة (١) فى الموسيقى والهنـدسة وغير ذلك [ممـا] (٢) يجلّ عن الوصف ويكثر ذكره . وله صنعةٌ فى الغناء حسنة مُتقنة عجيبة [تدلّ على ما ذكرناه هاهنا من توصّـله] (٣) إلى ما عجز عنـه الأوائل من جمع النَّغَم كلها فى صوت واحد تتبّعه (٤) هو وأتى به على ما فصّله فيها وطلبه منها .

وكان المعتضد بالله ربما أراد أن يصنع فى بعض الأشعار غناء ويحضُره أكابر المغنّين فيعدل عنهم إليه فيصنع فيه أحسن صَنْعة، ويترفّع عن إظهار نفسه بذلك فيومئ إلى أنه من صنعة جاريته ساجى (٥) . وستذكر ساجى (٥) إن شاء الله تعالى فى أخبار القيان، وكانت تخريجَ عبيد الله وتأديبه .

قال : ولمـّا اختلّت حال عُبَيد الله كان المعتضد بالله يتفقّده بالصِّلات . ومن أصوات عبيد الله التى جمع فيها النَّغَم العشر قوله فى شعر إبراهيم بن علىّ بن هَرْمة :

وإنك إذ أطمعتَنى منك بالرِّضا * وأيأستَنى من بعد ذلك بالغضب

كَمُمْكِنَةٍ مِن دَرِّها كفَّ حالب * ودافقةٍ من بعـد ذلك ما حَلَبْ

وأخبار عُبيد الله كثيرة سنذكر منها فى هذا الباب فى أخبار ساجى طَرَفا، ونورد منها إن شاء الله تعالى فى فنّ التاريخ ما يناسب . وأستغفر الله العظيم .

---

(١) كذا بالأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) . وفى الأصل : «الطبقة» .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) فى الأصـل : « متقنة عجيبة الى ما يعجز عنه ... » . والتكملة والتصويب من الأغانى (ج ٨ ص ٤٤ طبع بولاق) .

(٤) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « فى صوت واحد حتى بلغه هو » .

(٥) فى الأغانى : « شاجى » .

ذكر أخبار المغنّين الذين نقلوا الغناء من الفارسيّة إلى العربيّة ومن أخذ عنهم ومَنِ ٱشتهر بالغناء

والغناء قديم فى الفرس والروم، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحُدَاء والنشيد، وكانوا يُسمّونه «الركبانية». وأوّل من نقل الغناء العجمىّ إلى العربىّ من أهل مكة "سَعِيد بن مِسْجَح" ومن أهل المدينة "سائب خاثِر". وأوّل من صنع الهَـزَج "طُوَيس". ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ثم نذكر مَنْ أخذ عنهم إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار سعيد بن مِسْجَح

هو أبو عثمان سَـعيد بن مِسْجَح، مولى بنى جُمَح، وقيل: مَوْلى بنى مخزوم، وقيـل: مولى بنى نَوْفل بن الحارث بن عبد المطّلب. مكىّ أسود — وقيـل: أصفر — حسن اللّون. وقيل: كان مولّدا، يُكْنَى أبا عيسى. وقيل: كان هو وٱبن سُرَيج لرجل واحد. مغنّ متقـدّم من فحول المغنّين وأكابرهم. وهو أوّل مَنْ وضع الغناء منهـم، وأوّل مَنْ غنّى الغناء العربىّ بمكة؛ وذلك أنه مرّ بالفُرْس وهم يبنون المسجد الحرام فى أيام عبدالله بن الزُّبَير، فسمع غناءهم بالفارسيّة فقَلَبه فى شعر عربىّ؛ ثم رحَل إلى الشام فأخذ ألحان الرُّوم والبربطية والأسطوخوسيّة[1]، وٱنقلب

---

(١) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «الأسطرخوسية». وقد رأى العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى أن تكون كلمة «البربطية» مصحفة عن «البزنطية» (بضم الباء الموحدة وفتح الزاى يليها نون ساكنة بعدها طاء مكسورة ثم ياء مثناة مشدّدة وفى الآخر هاء): نسبة الى بزنطية وهى مدينة القسطنطينية قبل أن تبنى. ويراد بالبزنطية قوم من الروم الشرقيين عرفوا بهـذا الاسم منذ عهد قسطنطين الكبير الى سقوط القسطنطينية بيد الترك.

ثم قال: وأما الأسطوخوسية فيراد بهم قوم آخرون من أسطوخوس أو أسطوخادس، وهى جزيرة فى جنوبى فرنسا، كان أهلها معروفين بالقصف والغناء والأنس، كما هم عليه الى هذا العهد، وكان سكانها خليطا من الروم واليونانيين والقلطيين وبقايا الفلسطينيين. (انظر المجلد الثانى من مجلة الزهراء ص ٣٥٨ — ٣٦١).

إلى فارس فأخذ غناءً كثيرا وتعلّم الضرب، ثم قدِم إلى الحجاز وقد أخذ محاسنَ تلك النَّغَم وألقى منها ما ٱستقبحه من النَّبرَات والنَّغَم؛ وكان أوّل مَنْ فعل ذلك، وتبعه الناس بعدُ؛ وعلّم ٱبنَ سُرَيج، وعلّم ٱبنُ سريج الغَرِيضَ. قالوا: وكان فى صِباه فَطِنا ذكيًّا، وكان مولاه مُعْجَبا به، فكان يقول: ليكونن لهذا الغلام شأن، وما يمنعنى من عِتْقه إلّا حُسْنُ فِراستى فيه، ولئن عشتُ لأتعرّفنّ ذلك، وإن مُتُّ قبله فهو حرّ. فسمعه مولاه يومًا يتغنّى بشعر ٱبن الرِّقاع يقول:

أَلِمْ على طَلَلٍ عفا مُتقادِمِ * بين الذُّؤَيْبِ(1) وبين غَيْبِ النّاعِمِ
لولا الحياءُ وأنّ رأسى قد عَسَا * فيه المَشِيبُ لزرتُ أُمَّ القاسِمِ

فدعاه مولاه فقال: أعِدْ يا بنىّ؛ فأعاده فإذا هو أحسن ممّا ٱبتدأ به، وقال: إنّ هذا لَبعضُ ما كنتُ أقول. ثم قال له: أنّى لك هذا؟ قال: سمعتُ هذه الأعاجم تتغنّى بالفارسيّة فقلبتُها فى هذا الشعر. قال: فأنت حُرٌّ لوجه الله. فلزم مولاه وكثُر أدبه وٱتّسع فى غنائه وشُهِر بمكّة وأُعْجِبوا به. فدفع إليه مولاه عُبَيْدَ بن سُرَيج وقال: يابنىّ علّمه وٱجتهِدْ فيه. وكان ٱبن سُرَيج أحسنَ الناس صوتا، فتعلّم منه ثم بَرَّز عليه. وقد قيل: إنه إنما سمع الغناء من الفُرْس لمّا أمر معاويةُ ببناء دُوره بمكّة التى يقال لها «الرُّقْط»، وكان قد حمل إليها بنّائين من الفُرس الذين كانوا بالعراق فكانوا يبنونها، وكان سَعِيد بن مِسْجَح يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم؛ فما ٱستحسن من ألحانهم أخذه ونقله إلى الشعر العربىّ، ثم صاغ على نحو ذلك. وكان من قديم غنائه الذى صنعه على تلك الألحان شعر الأحْوَص، وهو:

أسلامَ إنك قد ملكتِ فأسْجِحى * قد يملك الحُرُّ الكريم فيُسْجِحُ
مُنِّى على عانٍ أطلتِ عَنَاءه * فى الغُلِّ عندكِ والعُناةُ تُسَرَّحُ

(1) فى الأصل: «الدنيك». والتصويب عن معجم ياقوت (ج ٢ ص ٧٢٥ طبع أوربا).

إنى لأنصحكم وأعــلم أنّه * سِيّانِ عندكِ من يَغُشّ ويَنصَحُ
وإذا شكوتُ إلى سَلَامةَ حبَّها * قالت أجِدٌّ منــك ذا أم تَمزَحُ

وهذا من أقدم الغناء العربىّ المنقول عن الفارسىّ . قال : وعاش سَعيد بن مسجح حتى لقيه مَعْبَد وأخذ عنه فى أيام الوليد بن عبد الملك .

ومن أخبار سعيد ما رواه أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال : كتب عامل لعبد الملك بن مروان بمكة إليه أنّ رجلا أسود يقال له سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش وأنفقوا عليه أموالهم . فكتب إليه : أن اقبض ماله وسيّره إلىّ . فتوجّه ابن مسجح الى الشأم ، فصحبه رجل له جوارٍ مغنّيات فى الطريق . فقال له : أين تريد؟ فأخبره الخبر وقال : أُريد الشأم ، فصحبه حتى بلغا دمشق ، فدخلا مسجدها فسألا : مَنْ أخصّ الناس بأمير المؤمنين؟ فقالوا : هؤلاء النفر من قريش وبنو عمّه . فوقف ابن مسجح عليهم فسلّم ، ثم قال : يا فتيانُ ، هل فيكم مَنْ يُضيف رجلا غريبا من أهل الحجاز ؟ فنظر بعضهم إلى بعض وكان عليهم موعد أن يذهبوا إلى قَيْنة يقال لها «برق الأُفُق» ، فتثاقلوا به إلّا فتًى منهم تَذَمّم(١) فقال له : أنا أُضيفك ، وقال لأصحابه : انطلقوا أنتم وأنا أذهب مع ضيفى . فقالوا : لا ، بل تجىء معنا أنت وضيفك . فذهبوا جميعا الى بيت القَيْنة . فلما أُتُوا بالغَداء قال لهم سَعيد : إنى رجل أسود ، ولعل فيكم من يَقْذَرنى ، فأنا أجلس وآكل ناحيةً وقام ، فاستحيوا منه وبعثوا له بما أكل . فلما صاروا إلى الشَّراب قال لهم مثل ذلك ففعلوا . ثم أخرجوا جاريتين ، فجلستا على سرير قد وُضِع لهما فغنّتا إلى العشاء ثم دخلتا ، وخرجت جارية حسنة الوجه والهيئة وهما معها فجلستا أسفل السرير عن يمينه وشماله وجلست هى على السرير . قال ابن مسجح : فتمثلت هذا البيت :

(١) تذمم : خشى الذم واللوم .

فقلتُ أشمسٌ أم مصابيحُ بِيعةٍ * بدتْ لك خَلْفَ السِّجْفِ أم أنتَ حالمُ

فغضِبتْ الجارية وقالت : أيَضرب مثلُ هذا الأسود بي الأمثال ! فنظروا إلىّ نظرًا منكرا ، ولم يزالوا يُسَكِّنونها . ثم غنّت صوتا . قال ابن مسجح : فقلت : أحسنتِ والله ! فغضِب مولاها وقال : أمثلُ هذا الأسود يُقْدِم على جاريتى ! فقال لى الرجل الذى أنزلنى عنده : قُمْ فآنصرف إلى منزلى، فقد ثَقُلْتَ على القوم . فذهبت أقوم. فتذمّم القوم وقالوا : بل أقِمْ وأحسِنْ أدبك : فأقمتُ . فغنّت ، فقلتُ : أخطأتِ والله وأسأتِ ! ثم آندفعتُ فغنّيت الصوت ؛ فوثبت الجاريةُ فقالت لمولاها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح . فقلت : إى والله، أنا هو، والله لا أُقيم عندكم ؛ ووثبت؛ فوثب القرشيون : فقال هذا : تكون عندى، وقال هذا : تكون عندى، [وقال هذا : بل عنـدى](1) . فقلت : والله لا أُقيم إلا عنـد سيّدكم ! (يعنى الرجل الذى أنزله منهم) وسألوه عما أقدمه . فأخبرهم . فقال له صاحبه : إنى أسمُرُ الليلة عند أمير المؤمنين، فهل تُحسِن أن تحدو؟ فقال : لا والله، ولكنى أصنع حُداءً . فقال له : إنّ منزلى بحذاء منزل أمير المؤمنين، فإذا وافقتُ منه طِيبَ نفس أرسلتُ إليك . ومضى إلى عبد الملك . فلما رآه طيِّب النفس أرسل إلى آبن مسجح ؛ فأخرج رأسه من وراء شُرَف القصر ثم حدا :

إنك يا مُعاذُ يابنَ الفُضَّلِ(2) * إن زُلْزِل الأقدامُ لم تُزَلْزَلِ

عن دين موسى والكتابِ المُنْزَلِ * تُقيم أصداغَ(3) القرونِ المُيَّلِ

* للحق حتى ينتحوا للأعدَلِ *

---

(1) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٨٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(2) فى الأصل : * إنك يا معاوى المفضل * والتصويب عن الأغانى .

(3) فى الأصل : «أضراع» . وفى الأغانى : «أصداغ» ، وظاهر أن كليهما محرف عما أثبتناه، لأنه من صدِغ يصدغ صدوغا وصدغا بمعنى مال، ومنه لأقيمن صدغك أى ميلك .

فقال عبد الملك للقرشيّ : مَنْ هـذا ؟ فقال : رجل حجازيّ قدم علىّ . قال : أحضره، فأحضره . ثم قال له : [هل][(١)] تغنّى غناء الرُّكبان ؟ فغنّى . فقال له : هل تغنّى الغناء المتقَن ؟ قال نعم . قال : هِيه، فغنّى ؛ فآهتزّ عبد الملك طربًا، ثم قال : أُقسم بالله إنّ لك فى القـوم آسما كبيرا، مَنْ أنت ؟ ويلك ! قال : أنا المظلوم المقبوض
٥ مالُه المسيَّر عن وطنه «سَعيد بن مِسْجَح» ، قبض مالى عامل الحجاز ونفانى . فتبسّم عبد الملك ثم قال : قد وَضَح عُذْر فِتيان قريش فى أن يُنفقوا عليك أموالهم ؛ وأمّنه ووصَـله وكتب إلى عامله بالحجـاز أن آردُدْ إليه ماله، ولا تتعرّض اليه بسـوء . والله أعـلم .

ذكر أخبار سائب خاثر

١٠ هو أبو جعفر سائب خاثِر بن يَسَار، مولى لبنى ليث . وأصله من فَىْء كسرى، وآشتراه[(٢)] عبد الله بن جعفر فأعتقه . وقيـل : بل كان على ولائه لبنى ليث، ولكنه آنقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزِمه وعُرِف به . وهو أوّل مَنْ عمل العود بالمدينـة وغنّى به . قال : وكان عبـد الله بن عامر بن كُرَيز سبى إماءً صَـنّاجات[(٣)] فأتى بهنّ المدينة . فكنّ يلعبن فى يوم الجمعة ويسمع الناس منهنّ، فأخذ عنهنّ . وقدِم رجل
١٥ فارسىّ يُعرَف بنَشيط، فغنّى، فعجب عبد الله بن جعفر منه . فقال له سائب خاثر : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسىّ بالعربيّة . ثم غدا على عبد الله بن جعفر وقد عمل فى :

---

(١) الزيادة عن الأغانى .

(٢) فى الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ طبع بولاق) : «اشترى» .

٢٠ (٣) هنّ اللاعبات بالصنج، وهو صفيحة مستديرة من نحاس تضرب بأخرى مثلها، وقيل : الصنج ذو الأوتار الذى يلعب به .

لِمَنِ الديارُ رسومُها قَفْــرُ * لعبتْ بها الأرواحُ والقَطْرُ
وخلا لها من بعد ساكنها * حِجَجٌ مَضَينَ ثمانٍ أوْ عَشْرُ
والزعفرانُ على ترائبها * شَرِقٌ به اللَّبَّـاتُ والنحرُ

(٩٨) قال ابن الكلبيّ : وهو أوّل صوت غُنِّي به فى الإسلام من الغناء العربيّ المتقن الصّنعة . قال : ثم اشترى عبد الله بن جعفر نشيطا بعد ذلك، فأخذ عنـه سائب خاثر الغناء العربيّ، وأخذ عنه ابن سُرَيج وجميلة ومَعْبَد وعَزّة المَيْلاء وغيرهم . وقيل : إنه لم يكن يضرب بالعود وإنمـا كان يقرع بالقضيب ويغنّي مرتجـلا . قال ابن الكلبي : وكان [سائب تاجرا](١) موسِرا يبيع الطعام بالمدينة ، وكان تحتــه أربع نسوة . وكان انقطاعه إلى عبد الله بن جعفر، وهو مع ذلك يُخالط سَرَوات الناس وأشرافهم لظَرْفه وحلاوته وحُسْن صوته . وكان قد آلى على نفسه ألّا يغنّي أحدا سوى عبد الله بن جعفر إلا أن يكون خليفةً أو وليَّ عهد أو ابن خليفة ؛ فكان على ذلك الى أن قُتل، على ما نذكره . وأخذ عنه مَعْبَد غناء كثيرا . قال : وسمع معاوية غناء سائب خاثر مرارا ، فالمرّة الأولى لمّـا وفد عبد الله بن جعفر إلى معاوية وهو معه، فسأل عنه معاوية، فأخبره عبد الله خبره واستأذنه فى دخوله عليه، فأذن له . فلما دخل قام على الباب ثم رفَع صوته فغنّى :

* لمن الديارُ رسومُها قَفْرُ * الأبيات

فالتفت معاوية إلى عبــد الله وقال : أَشهد لقد حسّــنه . وقضى معاوية حوائجه وأحسن اليه ووصله . وقيل : أشرف معاوية ليلةً على منزل يزيد ، فسمع صوتا أعجبــه ، واستخفّه السماع فاستمع حتى ملّ ؛ ثم دعا بكرسيّ فجلس عليــه واشتهى الاستزادة، فاستمع بقيّة ليلته . فلما أصبح غدا عليه يزيد، فقال : يا بنيّ، مَنْ كان

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٧ ص ١٨٨ طبع بولاق) .

جليسك البارحة؟ قال : أىّ جليس ياأمير المؤمنين؟ وآستعجم عليه . فقال: عرِّفنى به فإنه لم يخفَ علىّ شىء من أمرك . قال : هو سائب خاثر. قال معاوية : فأكثِرْ له يا بنىّ من بِرِّك وصلتك، فما رأيتُ بمجالسته بأسا .

قال آبن الكلبىّ : وقدم معاوية المدينة فى بعض ما كان يَقْدَمُ، فأمر حاجبه بالإذن للنّاس، فخرج ثم رجع فقال: ما بالباب أحد. فقال معاوية: وأين الناس؟ قال: عند عبد الله بن جعفر . فركب معاوية بغلته ثم توجّه اليهم . فلما جلس قال بعض القرشيّين لسائب خاثر : مِطْرَفِى هذا لك إن آندفعتَ تغنِّى (وكان المطرف من خز)؛ فقام بين السِّمَاطين وغنّى فقال :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى (١) * وأسيافُنَا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

١٠ فسمع منه معاوية وطرِب وأصغى اليه حتى سكت وهو مُستحسِن لذلك ، ثم آنصرف، وأخذ سائب خاثر المِطْرَف (٢) .

وكان مقتل سائب خاثر بالمدينة يوم الحَرَّة . قال : وكان يخشى على نفسه من أهل الشأم . فخرج اليهم وجعل يقول : أنا مغنٍّ، ومن حالى ومن قصتى كَيْتَ وكَيْتَ ، وقد خدمتُ أمير المؤمنين يزيد وأباه قبله . فقالوا له : غنِّ لنا، ففعل .

١٥ فقام أحدهم فقال: أحسنت والله، ثم ضربه بالسيف فقتله . وبلغ يزيد خبره ومرّ به آسمه فى أسماء من قُتِل فلم يعرفه وقال : من سائب خاثر؟ فعُرِّف به، فقال : ويله ما له وما لنا! ألم نُحْسِن إليه ونَصِله ونخلطه بأنفسنا! فما الذى حمله على عداوتنا! لا جَرَمَ أنّ بَغْيَه علينا صَرَعه . وقيل : إنه لمّا بلغه قتله قال : إنا لله! أوَ بلغ

(١) كذا فى الأغانى (ج ٧ ص ١٩٠ طبع بولاق) وكامل المبرد وديوان قائله سيدنا حسان بن ثابت
٢٠ المطبوع فى أوربا . وفى الأصل : «فى الدجى» .

(٢) روى المبرد فى الكامل حكاية لمعاوية مع عبد الله بن جعفر تشبه هذه من بعض الوجوه (انظر صفحة ٣٩٠ طبع أوربا) .

القتـلُ إلى سائب خاثر وطبقته ! ما أرى أنه بقى بالمدينة أحد، وقال . قبحكم الله يأهل الشأم ! تجدهم وجدوه فى حائط أو حديقة مسـترا فقتلوه . وقد قيل : إنه تقدّم يوم الحَرّة وقاتل حتى قُتِل . والله أعلم .

ذكر أخبـار طُوَيس

هو عيسى بن عبـد الله . وكنيته أبو عبد المنعم، وغيّرها المخنّثون فقالوا : ٥ أبو عبد النعيم . وطُوَيس لقبٌ غلب عليه، وقيل : آسمه طاوُس، مولى بنى مخزوم. وكان أيضا يلقّب بالذائب؛ لأنه غنّى :

قـد برانى الحبُّ حتى * كِدتُ من وجدى أذوبُ

وهـذا أوّل غناء غنّاه وهَزَجٍ هَزَجه . وقد ضُرب المثـل به فى الشـؤم فقالوا : "أشأم من طُوَيس" لأنه وُلِد يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفُطِم يوم ١٠ مات أبو بكر رضى الله عنه ، وخُتِن يوم مات عمر رضى الله عنه، وتزوّج يوم قُتِل عثمان، ووُلِد له يوم مات علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان مخنّثا أحول طويلا؛ وقيـل : إنه وُلد ذاهبَ العين اليمنى . قالوا : وكانت أمّه تمشى بين نساء (٩٩) الأنصار بالنمائم . وطُوَيس أوّل مَنْ صَنَع الهَزَج والرَمَل فى الإسلام ، وكان الناس يضربون به المثـل فيقولون : « أهْزَج من طُوَيس » . وكان لا يضرب بالعـود ١٥ وإنمـا ينقُر بالدُّفّ . وكان ظريفا عالمـا بأمر المدينة وأنساب أهلها .

حكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسنده إلى المدائنىّ قال: قدِم آبن سُرَيج المدينة ، فجلس يوما فى جماعة وهم يقولون له : أنت والله أحسن الناس غناء ، إذ مرّ بهم طُوَيس فسمعهم وما يقولون ، فآستلّ دُفّه من حِضْنه ونقره وغنّى؛ فلما سمعه

آبن سُرَيج قال : هذا والله أحسنُ الناس غناءً لا أنا . وقال المدائنىّ، قال مسلمة[(١)] آبن محارب : حدّثنى رجل من أصحابنا قال : خرجنا فى سفر ومعنا رجلٌ من أصحابنا فانتهينا إلى واد، فدعونا بالغداء، فمدّ الرجل يده إلى الطعام فلم يَقدِر عليــه، وكان قبل ذلك يأكل معنا ؛ فخرجنا نسأل عن حاله فنلقَى[(٢)] رجلا طويلا أحول مضطرب الخَلْق فى زىّ الأعراب ؛ فقال لنا : مالكم؟ فأنكرنا سؤاله لنا؛ فأخبرناه خبر الرجل فقال : ما آسم صاحبكم؟ فقلنا : أُسَيْد ؛ فقال: هذا واد قد أُخِذَتْ[(٣)] سباعُه فارتحلوا ، فلو قد جاوزتم الوادى آستمّر[(٤)] صاحبكم وأسِد[(٥)] وأكَل . قلنا فى أنفسنا: هو من الجنّ ، ودخلتنا فَزْعة . ففهم ذلك وقال : لِيُفْرِخْ رَوْعُكم فأنا طُوَيس . فقال له رجل منّا : مرحبًا بك أبا عبد النعيم، ما هذا الزِّىّ؟! فقال: دعانى بعض أوِدّائى من الأعراب فخرجتُ إليهم وأحببتُ أن أتخطّى الأحياء فلا يُنْكرونى. فسأله رجل منّا أن يغنّينا؛ فآندفع ونَقَر بدُفٍّ كان معه مربَّع ، فلقــد خُيِّل لى أنّ الوادى ينطق معه حسنًا . وتَعَجّبنا من علمه وما أخبرنا به من أمر صاحبنا .

قال المدائنىّ : وكان طُوَيس وَلِعًا بالشعر الذى قالته الأَوْس والخَزْرَج فى حروبهم، وكان يريد بذلك الإغراء؛ فقَلَّ مجلسٌ آجتمع فيه هذان الحيّان فغنّى فيه طُوَيْس إلا وقَع فيه شىء . فنُهِىَ عن ذلك، فقال : والله لا تركتُ الغناءَ بشعر الأنصار حتى يُوَسِّدونى الترابَ؛ وذلك لكثرة تولُّع القوم به، وكان يُبْــدِى السرائر ويُخرِج الضغائن؛ وغناؤه يُستحسن ولا يُصْبَر عن حديثه .

---

(١) كذا فى الطبرى والأغانى (ج ٣ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) وهو مسـلمة بن محارب بن سلم بن زياد الراوى . وفى الأصول : « مسلم » وهو تحريف .

(٢) عبارة الأغانى : « فلقينا رجلا ... » . (٣) أخذت سباعه : سحرت .

(٤) استمر : قوى واستقام أمره .

(٥) كذا فى الأصل . والذى فى الأغانى : « استمر صاحبكم وأكل » بدون « أسد » .

وحكى الأصبهانى عفا الله عنـه قال : كان بالمدينـة مخنَّث يقال له النُّغاشى. فقيل لمروان بن الحَكَم : إنه لايقرأ من كتاب الله تعالى شيئا . فبعث إليه فاستقرأه أُمّ الكتاب؛ فقال : والله ما معى بناتُهـا ، أوَ ما أقرأ البناتِ فكيف أقرأ أُمّهنّ ! فقال : أتهزأ لا أُمّ لك ! فأمر به فقُتِـل ببُطْحان(١)، وقال : من جاءنى بمخنَّث فله عشرة دنانير . فأُتِى طُوَيْس وهو فى بنى الحارث بن الخزرج فأُخبِر بمقالة مروان ؛ فقال: أمَا فَضّلنى الأميرُ عليهم بفضلٍ حتى جعل فىّ وفيهم شيئا واحدا ! . ثم خرج حتى نزل السويداء (على ليلتين من المدينة فى طريق الشأم) فنزلها ، فلم يزلْ بها بقيّةَ عمره . وعُمِّر حتى مات فى ولاية الوليد بن عبد الملك . ثم ساق الأصفهانى هـذه القصة فى موضع آخر بسند آخر قال : خرج يحيى بن الحَكَم وهو أمير على المدينـة، فبَصُر بشخص فى السَّبَخة ممـا يلى مسجد الأحزاب ؛ فلما نظـر إلى يحيى جلس ؛ فاستراب به ، فوجّه إليه أعوانَه ، فأُتِى به كأنه آمرأة فى ثيـاب مُصَبَّغة مصقولة وهو ممتشط مُختضِب. فقال له أعوانه : هذا آبنُ نُغاشٍ المخنث . فقال : ما أحسبك تقرأ من كتاب الله تعالى شيئا ! اِقرأ أُمّ القرآن ؛ فقال : لو عَرَفتُ أُمّهن عرفتُ البناتِ. فأمَر به فضُرِبتْ عنقُه. وساق نحو ما تقدّم، إلا أنه قال : جعل فى كل مخنَّث ثلثمائة درهم .

وحكى أيضا بسند رفعـه إلى صالح بن كَيْسان وغيره : أنّ أبان بن عثمان لمـّا أمّره عبد الملك على الحجاز أقبل ، حتى [إذا](٢) دنا من المدينـة تلقّاه أهلهـا وخرج إليه أشرافها، فخرج معهم طُوَيس . فلما رآه سلّم عليه ، ثم قال له : أيها الأمير،

(١) بطحان (بفتح الباء ، وأكثرهم يضمها . قال ابن الأثير : ولعـله الأصح) : اسم وادى المدينة ، واليه ينسب البطحانيون . (انظر اللسان مادة «بطح») .

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية) .

إنى كنتُ قد أعطيتُ الله تعالى عهدًا إن رأيتُك أميرًا لأخضبن يدى إلى المِرْفقين ثم أزْدو[(١)] بالدّف بين يديك. ثم أبدى عن دفّه وتغنّى [بشعر ذى جَدَنٍ الحِمْيرىّ[(٢)]] :

ما بالُ أهلك يا رَبابُ * خُزْرًا كأنهـمُ غِضابُ

فطرِب أبَان حتى كاد يطير، ثم جعل يقول: حَسْبُك يا طاوُس! — ولم يقل له طويس لنبله فى عينه — ثم قال له: اجلس، فجلس. فقال له أبَان: قد زعموا أنك كافر. فقال له: جُعِلتُ فِداءك! والله إنى لأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله [صلى الله عليه وسلم] وأصلِّى الخمس وأصوم رمضان وأحجّ البيت. قال: أفأنت أكبر أم عمـرو بن عثمان؟ — وكان عمرو أخا أبان لأبيـه وأمه — فقال طويس: جُعلت فداءك! أنا والله مع جلائل نساء قومى أُمسِك بذيولهن يوم زُفّت أمّك المباركة إلى أبيك[(٣)] الطيب. فاستحيا أبَان ورمى بطرْفه الى الأرض.

ذكر أخبار عبد الله[(٤)] بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سُرَيْج، مولى بنى نَوْفَل بن عبد مَناف، وقال ابن الكلبى: إنه مولى لبنى الحارث بن عبد المطلب. وقيل: إنه مولى لبنى ليث، ومنزله بمكة. وقال الحسن بن عُتْبة اللّهبِىّ: إنه مولى لبنى عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم. وحكى أبو الفرج الأصبهانىّ أنه كان آدَمَ أحمرَ ظاهرَ الدم سِناطا[(٥)]، فى عينيه قَبـلٌ[(٦)]، وبلغ خمسا وثمانين سنة، وكان منقطعا إلى عبد الله بن جعفر.

---

(١) أزدو: أضرب.

(٢) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٢١٩ طبع دار الكتب المصرية).

(٣) فى الأصول: «على أبيك». والتصويب عن الأغانى.

(٤) هكذا بالأصول. وسيأتى قريبا أنه يسمى «عبيد بن سريج». واضطربت فيه أصول الأغانى، فورد فى بعضها: «عبيد». وفى بعضها: «عبيد الله». وفى بعضها: «عبد الله».

(٥) السناط: الذى لا لحية له أصلا أو الخفيف العارض أو من له لحية وليس فى عارضيه شىء.

(٦) القبل: مثل الحول فى العين أو هو أحسن منه.

ونقل أيضا عن آبن الكلبي أنه كان مخنّثا أحول أعمش، يلقّب وجهَ الباب .
وكان لا يغنّى إلا متنقّبا، مُسْبِلَ القِنَاع على وجهه . قال : وكان أحسـن الناس
غناء، وكان يغنّى مُرْتجِلا ويُوقِع بقضيب، وقيل : كان يضرب بالعود. وغنّى فى زمن
عثمان بن عفّان، ومات فى خلافة هشام بن عبد الملك . وقيل : كان آسمه عُبَيد بن
سريج من أهل مكة. وقال آبن جُرَيْج: كان عُبَيد بن سُرَيْج مولى آل خالد بن أَسِيد، ٥
وقيل : كان أبوه تركيّا. وقيل : كان عُودُه على صنعة عيدان الفُرْس، وهو أوّل مَنْ
ضرب به على الغناء العربيّ بمكة؛ وذلك أنه رآه مع العجم الذين قدِم بهم آبن الزبير
لبناء الكعبة، فأعجَبَ أهلَ مكة غناؤهم. فقال آبن سُرَيج : أنا أضرب به على غنائى،
فضرب به فكان أحذقَ الناس . وأخذ الغناء عن سَعيد بن مِسْجَح ، وقد تقـدّم
ذكر ذلك . وأوّل ما آشتهر بالغناء فى خِتان آبن مولاه عبـد الله بن عبد الرحمن بن ١٠
أبى حُسَين . قال آبن سُرَيْج لأمّ الغلام : خَفِّضى عليـك بعضَ المغرَم والكُلْفة ،
فوالله لأُلْهِيَنّ نساءكِ حتى لا يدرين ما جئتِ به . وكان مَعْبَد إذا أعجبه غناء نفسه
قال : أنا اليوم سُرَيْجِيّ .

ومن أخباره أيضا أن عَطَاء بن أبى رَبَاح لقِيه بذى طُوًى وعليه ثياب مُصَبَّغة
وفى يده جَرَادة مشدودة الرِّجل بخيط يُطيرها ويَجذبها كلما تخلّفت؛ فقال له عطاء: ١٥
يا فتّان، ألَا تَكُفّ عما أنت فيه ! كفى الله الناسَ مئونتك . فقال له آبن سُرَيج:
وما على الناس من تلوينى ثيابى ولَعِبى بجـرادتى ! فقال : تُغَنّيهم أغانيَك الخبيثة .
فقال له آبن سُرَيج : بحـقّ من تَبِعته من أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسـلم
وبحق رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك إلّا سمعتَ منّى بيتا من الشعر، فإن سمعتَ
منكرًا أمرتَنى بالإمساك عما أنا عليـه، وأنا أقسم بالله وبحقّ هذه البَنِيّة إن أمرتَنى ٢٠

بعد آستماعك منى بالإمساك عما أنا عليه لأفعلنّ . فأطمع ذلك عطاءً فى آبن سُرَيج وقال له : قل . فآندفع يغنّى بشعر جرير :

إنّ الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادروا * وَشَلًا بعينكَ لا يزال مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَراتِهِنّ وقلن لى * ماذا لَقِيتَ من الهوى ولَقِينَا

٥ قال : فلما سمعه عطاء آضطرب آضطرابا شديدا وداخلته أَرْيَحيّةٌ ، فحلف ألّا يكلّم أحدًا بقيّة يومه إلا بهذا الشعر، وصار إلى مكانه من المسجد الحرام، فكان كل من يأتيه يسأل عن حلال أو حرام أو خبر لا يُجيبه إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ويُنشد هذا الشعر حتى صلّى المغرب ، ولم يُعاوِد آبنَ سريج بعدها ولا تعرّض له .

وحُكِيَ عنه أيضا أنّ عمر بن أبى ربيعة حجّ فى عام من الأعوام ومعه آبن سُرَيج،

١٠ فلما رَمَوُا الجمراتِ تقدّما الحاجّ إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة وطريق الشأم والعراق ، وهو كثيب شامخ مُفْرَد عن الكُثبان، فصارا إليه فأكلا وشربا . فلما آنتشيا أخذ آبن سريج الدفّ فنقره وجعل يتغنّى وهم ينظرون إلى الحاجّ. فلما أمسيا رفع آبن سُرَيج صوتَه وتغنّى بشعر لعمر بن أبى ربيعة ،فسمعه الرُّكبانُ ، فجعلوا يَصيحون به : يا صاحب الصوت ، أمَا تتقى الله ! قد حبست الناس عن

١٥ مناسكهم ، فيسكت قليلا حتى إذا مضَوْا رفع صوتَه فيقف آخرون ؛ إلى أن وقف عليه فى الليل رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكَثِيب ، ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهُل عليك أن تردّد شيئا مما سمعتُه منك ؟ قال : نعم ونِعمة عينٍ ، فأيّها تريد؟ فآقترح صوتا فغنّاه . ثم قال له آبن سريج : اِزْدَدْ إن شئتَ ، فآقترح صوتًا آخر فغنّاه ، فقال له : والثالث ولا أستزيدك ، فغناه الثالث . وقال له آبن

٢٠ سريج : أبَقِيتْ[1] لك حاجة ؟ قال نعم ، تنزل لأُخاطِبَك ، فنزل إليه فإذا هو يزيد

(١) فى الأصول هكذا : (أتعبت الزجاجة) . والتصويب عن الأغانى (ج ١ ص ١٠٣) .

ابن عبد الملك، فأعطاه حُلّته وخاتمه وقال : خذهما ولا تُخْـدَع فيهما فإن شراءهما ألف وخمسائة دينار؛ فعاد ٱبن سريج بهما فأعطاهما لعمر بن أبى ربيعـة وقال : هما بك أشبهُ منهما بى، فأخذهما وعوّضه عنهما ثلثمائة دينار؛ وغدا فيهما إلى المسجد، فعرفهما الناسُ وجعلوا يتعجّبون و يسألون عمرَ عنهما؛ فيُخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك . وقيل : إن عمر بن عبد العزيز مرّ به فسمـع ٱبنَ سريج وهو يغنّى، فقال : لله درّ هذا الصوت لو كان بالقرآن ! .

قال إبراهيم بن المهدىّ : كان ٱبن سريج رجلا عاقلا أديبا، وكان يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنّيهم بما مُدح به أعداؤهم ولا بما فيه عارٌ عليهم أو غَضاضة منهم .

ومن أخباره ما حكاه أبو الفرج الأصـبهانى بإسناده، قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عامل مكة أن أَشْخِصْ إلىّ ٱبنَ سريج، فأشخصه إليه . فلما قدِم مكث أياما لا يدعوه ولا يلتفت إليه، ثم ذكره فٱستحضره، فدخل عليـه وسلّم فأذِن له بالجلوس وٱستدناه حتى كان قريبا منه؛ فقال : وَيْحك يا عُبَيْد ! لقـد بلغنى عنك ما حملنى على الوِفادة بك من كثرة أدبك وجودة ٱختيارك مع ظرف لسانك وحلاوة مجلسك . قال : جُعِلت فِداءك يا أمير المؤمنين ! « تسمع بالمُعَيْدِىّ لا أن تراه »[1]، قال الوليد : إنى لأرجو ألا تكونَ أنتَ ذاك، ثم قال : هاتِ ما عنـدك؛ فٱندفع يغنّى بشعر الأحوص :

وإنّى إذا حلّت بَبَيْش[2] مقيمة * وحـلّ بوَجٍّ[3] جالسًا أو تَتَهّما

(١) هذى إحدى روايات المثل؛ حكاها الميـدانى فى مجمع الأمثال، والرواية المشهورة وهى التى صدّرت بها هذه الروايات (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) .

(٢) بيش (بالفتح) : أحد مخاليف اليمن . و بيش (بالكسر) : من بلاد اليمن أيضا قرب دهلك .

(٣) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٢٩٨ طبع دار الكتب المصرية) ووج : اسم واد بالطائف بالبادية وفى الأصول : «بوح» بالحاء المهملة . ووح : قيل إنها ناحية بعمان . وجالسا : أتى الجلس وهو نجد . وتتهم : أتى تهامة .

يمانيةٌ شَطّت وأصبح نفعُها * رجاءً وظنًّا بالمَغيب مرجَّما
أُحبّ دنوَّ الدّار منها وقد أبى * بها صَدْعُ شَعْبِ الدار إلّا تَثَلُّما
بكاها وما يَدْرِى سوى الظنّ ما بكى * أحيًّا يُبَكّى أم ترابًا وأعظُما
فدَعْها وأخلِفْ للخليفة مِدْحةً * تُزِلْ عنك بُؤْسَى أو تفيدُك مَغْنَما (١)
فإن بكفَّيه مفاتيح رحمةٍ * وغيثَ حيًا يحيا به الناسُ مُرْهِما (٢)
إمامٌ أتاه المُلكُ عفوًا ولم يُثِب * على ملكه مالا حرامًا ولا دَما
تخيَّره ربُّ العباد لخَلْقه * وليًّا وكان اللهُ بالناس أعلما
ينال الغِنَى والعِزَّ مَنْ نال وُدَّه * ويَرْهب موتًا عاجلا من تَشَأَما (٣)

فقال الوليد : أحسنتَ والله وأحسن الأحوصُ . ثم قال : يا عُبَيْدُ هِيهِ ! فغنّاه بشعر
١٠ عَدِى بن الرِّقاع العامِلىّ يمدح الوليد :

طار الكرى وأَلَمَّ الهَمُّ فاكتَنَعا (٤) * وحِيل بينى وبين النوم فامتنعا
كان الشبابُ قِناعًا أستكِنُّ به * وأستظِلُّ زمانًا ثُمَّت انقشعا
واستبدل الرأسُ شيبًا بعد داجيةٍ * فَيْنانةٍ ما ترى فى صُدْغها نَزَعا (٥)
فإن تكن مَيْعةٌ من باطلٍ ذهبتْ * وأعقب اللهُ بعد الصَّبْوة الوَرَعا
١٥ فقد أُبِيتُ أُراعِى الخَوْدَ رابيةً (٦) * على الوسائد مسرورًا بها ولِعا

---

(١) فى الأغانى : «أو تفيدُك مغنما» . ورفع الفعل هنا على توهم أن الأول مرفوع ، كأنه قيل : تزيل عنك بؤسى أو تفيدك مغنما ، أو على أنه مستأنف كأنه قيل : أو هى تفيدك مغنما .
(٢) يقال : أرهمت السماء إذا أتت بالرهام ، جمع رهمة وهى المطر الضعيف الدائم .
(٣) فى الأصول : « تشأما » . والتصويب عن الأغانى .
٢٠ (٤) ألم : نزل . واكتنع : دنا وحضر .
(٥) فينانة : حسنة الشعر طويلته . والنزع : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة .
(٦) فى الأغانى : « راقدة » .

بَرّاقة الثغر يشفي القلبَ لذّتُها * إذا مُقَبِّلها فى ريقها كرَعا
كالأُقْحُوانِ بضاحي الروض صبّحه * غيثٌ أرَشَّ بتَنْضاحٍ وما نقعا
صلى الذى الصلواتُ الطيِّبات له * والمؤمنون إذا ما جمّعوا الجُمَعا
على الذى سبق الأقوام ضاحيةً * بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
هو الذى جمع الرحمنُ أمّته (١) * على يديه وكانوا قبله شِيَعا
عُذْنا بذى العرش أن نحيا ونَفْقِدَه * وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
إن الوليد أمير المؤمنين له * مُلْك أعان عليه الله فارتفعا
لا يمنع الله (٢) ما أعطى الذين هُمُ * له عباد ولا يُعْطُوْن ما منعا

فقال الوليد : صدقت يا عُبَيْد ، أنّى لك هذا ؟ قال : (هو مِن عِندِ الله) . قال الوليد: لو غيرَ هذا قلتَ لأحسنتُ أدبك . قال ٱبن سريج : (ذَلِكَ فضل الله يؤتيه من يشاء) قال الوليد : (يزيد في ٱلخلق مايشاء) . قال ٱبن سريج : (هذا مِن فضلِ ربى لِيبلُوَنِى أأشكر أم أكفر) . قال الوليد : لعلمُك والله أكثر وأعجبُ إلىّ من غنائك! غنّنى؛ فغنّاه بشعر عَدِىّ بن الرّقاع (٣) يمدح الوليد فقال :

عرَف الدّيارَ توهمًا فٱعتادَهَا * من بعد ما شَمِل البِلى أبلادَها (٤)

---

(١) كذا فى الاغانى (ج ١ ص ٢٩٩ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصول : « صلى الذى ... الخ » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصول : « لا يمنع الناس » .

(٣) رأينا أن نثبت هذه القصيدة كاملة ، وقد نقلناها عن مجلة الآثار السنة الثانية ص ٤٤٤ وقد نشرها فيها المرحوم أحمد تيمور باشا وقال : إنه لا يوجد منها فى كتب اللغة والأدب إلا أبيات متفرقة و إنه عثر عليها تامة فى مجموع مخطوط قديم بخزانة المرحوم أحمد زكى باشا مكتوب عليه بخط حديث أنه الثعالبى . والأبيات الموضوعة بين قوسين مربعين غير موجودة بالأصل .

(٤) أبلادها : آثارها . وفى رواية أخرى « درس » بدل « شمل » .

[إلا رواسِىَ كلهنّ قد اْصطلى * جمـــرًا وأشـعل أهلُها إيقادَها[1]

كانت رواحلَ للقدور فعُرِّيت * منهـنّ واْسـتلب الزمانُ رمادَها

وتنكّرتْ كلّ التنكــــُّـر بعــدنا * والأرض تعرف بعلَها وجمادَها[2]]

ولربّ واضحةِ العـــوارض حُرةٍ[3] * كالرِّيم قـد ضربت به أوتادها

تصطاد بهجتُها المعلَّل بالصبا * عَرَضًا فتُقصِده ولن يَصطادها[4]

كالظّبيـــة البكر الفريدة ترْتعِى * من أرضها قُفّاتِها وعِهادَها[5]

خضبت لهـا عقد البِراق جبينها * من عَرْكها عَلَجانهـا وعَرَادها[6]

كالزِّئْن فى وجه العروس تبذّلَت * بعـــد الحياء فلاعبتْ أرْآدهَا

تُزْجِى أغنَّ كأنّ إبرَةَ رَوْقه * قلمٌ أصاب من الدّواة مِدادها

ركبتْ به من عالج متحيِّرا * قفـرًا تُرَبِّبُ وحشُـه أولادها[7]

فترى مَحانِيَـــه التى تَسِقُ الثرى * والهَـــبْرُ يُونِق نبتُهـا رُوّادها[8]

بانت سـعاد وأخلفت ميعادَها * وتبـاعَدتْ عنـا لِتمنع زادَها

(١) رواية الأغانى « رواكد » بدل «رواسى» ، و«حمراء أشعل» بدل « جمرا وأشعل » .

(٢) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصيبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها .

(٣) فى الأغانى (ج ١ ص ١١٩) : « طفلة » .

(٤) المعلل بالصبا : المشغول به المتلهى . وأقصده : رماه بسهم فقتله .

(٥) القفات : جمع قفة ، وهى — كما قال الأزهرى — : شجرة مستديرة ترتفع عن الأرض قدر شبر وتَيبس . والعهاد : جمع عهد بالفتح وعهدة (بالفتح والكسر) وهى مطر بعد مطر يدرك آخره بلل أوّله .

(٦) فى الأصل :

خضبت لها عقد البراق جنينها * عن عكرها علجانها وعرادها

والبراق : جمع برقة وهى أرض غليظة مختلطة بحجارة ورمل . والعلجان والعراد نباتان .

(٧) عالج : اسم موضع .

(٨) محانيه : معاطفه وثناياه ، وتسق : من الوسق وهو الجمع ، والهبر : المطمئن من الأرض .

إنى إذا ما لم تَصِــلْنى خُلّـتى * وتباعدت عنّى ٱغتفرتُ بِعادها (١)

[إمّا تَرَىْ شَـيْبِى تَقَشّــع لِمّتِى * حــتى علا وضَحٌ يلوح سـوادَها (٢)

فلقــد ثنيتُ يَدَ الفتــاة وِسادةً * لى جاعلا يُسرى يَدَىّ وِسادَها

وأُصاحِب الجيشَ العَرَمْرم فارسًا * فى الخيــل أُشهِد كَرّها وطِرادها

وقصــيدةٍ قد بتُّ أجمع بينهــا * حــتى أقــوّمَ ميلَها وسِـــنادَها (٣)

نَظَـــرَ المثقِّف فى كُعوب قَناته * حــتى يُقِــيمَ ثِقافُــه مُنآدَها (٤)

فسـترتُ عيبَ معيشتى بتــكرّمٍ * وأتيتُ فى سَـعَةِ النعيم سِدادَها (٥)

وعلِمتُ حــتى ما أُسائل واحدًا * عن عــلِم واحدةٍ لكى أزدادَها]

صـــلّى الإلٰهُ على ٱمرئ ودّعتُه * وأتمّ نعمتَـــه عليــه وزادهــا

وإذا الربيــعُ تتــابعت أنواؤه * فسقى خُناصِرةَ الأحَصّ بجَــادها (٦)

نزل الوليد بها فكــان لأهلها * غيثًا أغاث أنيسَها وبـــلادَها

أوَلَا ترى أن البريّةَ كلّهــا * ألقتْ خزائمها إليـــه فقــادها

ولقـــد أراد الله إذ ولّاكــها * مِن أمّــةٍ إصلاحَها ورشادها

أعْمرتَ أرضَ المسلمين فأقبلت * وكَفَفْتَ عنها من يروم فسادها

وأصبتَ فى أرض العدوّ مصيبةً * عَمّت أقاصىَ غَـوْرها ونِجـادَها

ظفَـرًا ونصرًا ما تناول مثــلَه * أحــدٌ من الخلفــاء كان أرادها

---

(١) الخلة بالضم : الخليلة . (٢) يلوح سوادها : يغيره .

(٣) السناد : هو اختلاف الحركات التى تلى الأرداف فى الروى .

(٤) منآدها : معوجها . (٥) السداد : ما تسدّ به الخلة . (٦) الأحص : كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال من مدينة حلب قصبتها « خناصرة » مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز وهى صغيرة وقد خربت الآن إلا اليسير منها كذا فى ياقوت ، وقد أورد البيت هكذا :

و إذا الربيــع تتــابعت أنواؤه * فسقى خناصرة الأحص وزادها

فإذا نشرتَ له الثناءَ وجدتَه * جمع المكارمَ طِرْفَها وتِلادَها
[غلب المساميحَ الوليدُ سماحةً * وكفى قريشَ المُعضلاتِ وسادَها
تأتيه أسلابُ الاعزّة عَنوةً * قسرًا ويجمع للحروب عتادَها
وإذا رأى نارَ العدوّ تضرّمت * سامى جماعةَ أهلها فآقتادها
بعرمرمٍ تبدو الرّوابي ذي وَغًى * كالحَرّة آحتمل الضحى أطوادَها[1]
أطفأتَ نارًا للحروب وأُوقدت * نارٌ قدحت براحتيك زِنادَها
فبدت بصيرتُها لمن يَبغى الهدى * وأصاب حرُّ شديدها حُسّادَها
وإذا غدا يومًا بنفحة نائلٍ * عرضت له الغدَ مثلُها فأعادها
وإذا عدت خيلٌ تُبادِر غايةً * فآلسابق الجالى يقود جيادَها]

١٠ فأشار الوليدُ إلى بعض الخدم فغطّوه بالخِلَع، ووضعوا بين يديه كيس الدنانير وبِدَر الدراهم، ثم قال الوليد: يا مولى بنى نَوْفَل بن الحارث لقد أُوتيتَ أمرًا جليلا فقال آبن سريج: وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله ملكا عظيما وشرفًا عاليا وعزا بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ولا يفعل إن شاء الله، فأدام الله لك ما وَلّاك وحفظك فيما آسترعاك، فإنك أهل لما أعطاك، ولا ينزعه منك إذ رآك له موضعا.
١٥ قال: يا نوفلىّ، وخطيبٌ أيضا! قال آبن سريج: عنك نطقت، وبلسانك تكلّمت، وبعزّك بيّنت، وكان قد أمر بإحضار الأحوص بن محمد الأنصارىّ وعدىّ بن الرّقاع العاملىّ، فلما قدما عليه أمر بإنزالهما حيث آبن سريج فأنزِلا منزلا بجوار منزله. فقالا: والله لَقربُ أمير المؤمنين كان أحبَّ إلينا من قربك يا مولى بنى نوفل، وإن فى قربك لما يلذّنا ويشغلنا عن كثير مما نريد. فقال لهما آبن سريج: أوَقلّة شكر!

٢٠ (١) الوغى: الجلبة، والحرة بالفتح الأرض الصلبة الغليظة. والمعنى أن الروابى التى يحارب فيها هذا الجيش تبدو للناظر كأنها حرة حمل سراب الضحى أطوادها وجبالها العالية.

فقال له عدىّ : كأنك يابن اللَّخناء تَمُنّ علينا ، [علىّ وعلىّ][1] إن جمعنا و إياك سقفُ بيت أو صحنُ دار عنـد أمير المؤمنين ، فقال الأحوص : أولا تحتـمل لأبى يحيي الزّلّة والهفـوة ، وكفّارةُ يمينٍ خيرٌ مِن لَجَاج فى غير منفعة . فتحوّل عدىّ وبقى للأحوصُ . وبلغ الوليدَ ما جرى بينهم ، فدعا ٱبنَ سريج فأدخله بيتًا وأرخى دونه سِترًا ثم أمره إذا فرغ الأحوصُ وعدىٌّ مِن كلمتيهما أن يغنّى ، فلما دخلا وأنشداه مدائحَ لهما فيـه ، رفع ٱبنُ سريج صـوتَه من حيث لا يَرَوْنه وضرب بعود . فقـال عَدِىّ : يا أمير المؤمنين ، أتأذَن لى أن أتكلّم ؟ قال : قل يا عامِلىّ ، قال : مثلُ هذا عنـد أمير المؤمنين و يبعث إلى ٱبن سريج يتخطّى رقابَ قريشٍ والعرب من تهامة إلى الشأم ترفعه أرضٌ وتَخْفِضه أخرى ليسمع غناءَه! قال : ويحك ياعدىّ! أو لا تعرف هـذا الصوتَ؟ قال : لا والله ما سمعتُـه قط ولا سمعتُ مثـلَه ، ولولا أنه فى مجلس أمير المؤمنين لقُلْت طائفةٌ من الجنّ يتغنّوْن ، فقال : ٱخرج عليهم ، فخرج فإذا ٱبن سريج . فقال عدىّ : حَقٌّ لهـذا أن يُحْمل! حقٌّ لهذا أن يحمل! ثلاثا ، ثم أمر لهما بمثل ما أمر به لٱبن سريج وٱرتحل القومُ .

وروى أبو الفرج أيضا عن سهل بن بركة وكان يحمل عودَ ٱبن سريج قال :

كان على مكة نافعُ بن عَلْقمة الكِنَانىّ فشـدّد فى الغناء والمغنّين والنبيذ ونادَى فى المخنّثين . فخرج فِتيـةٌ من قريش إلى بطن مُحَسِّر[2] وبعثـوا برسـول لهم ، فجاءهم براوِيةٍ من شراب الطائف ، فلما شربوا وطـرِبوا قالوا : لو كان معنا ٱبنُ سريج تم سرورُنا ، فقلت : هو علىّ لكم ، فقال لى بعضُهم : دونَك هذه البغلة فاركبها وٱمض إليه ، فأتيتُه فأخبرتُه بمكان القوم وطلبهم إيّاه ، فقال لى : ويحك! وكيف لى بذلك

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ١ ص ١١٩) .

(٢) بطن محسر : موضع بين مكة وعرفة ، وقيل : بين منى وعرفة .

مع شدّة السلطان فى الغناء وندائه فيه . فقلت له : أتردّهم؟ قال : لا والله! فكيف لى بالعود؛ فقلت : أنا أخبؤه لك فشأنَك . فركب وسترتُ العودَ فأردفنى . فلما كنّا ببعض الطريق إذا بنافع بن علْقمة قد أقبل ؛ فقال لى : يا آبن بركة ، هذا الأمير . فقلت له : لا بأس عليك! أرسِل عِنانَ البغلةِ وآمض ولا تخف ، ففعل . فلما حاذيناه عرفنى ولم يعرف آبنَ سريج ، فقال لى . يا آبن بركة ، من هذا أمامك ؟ قلت : من ينبغى أن يكون ! هذا آبنُ سريج؛ فتبسّم ثم تمثّل :

فإن تَنْجُ منها يا أبانُ مُسَلَّمًا * فقد أفلت الحجّاجُ خيلَ شبيبِ

ثم مضى ومضينا . فلما كنّا قريبا من القوم نزل إلى شجرة يستريح . فقلتُ له : غنّنى مرتجِلا؛ فرفع صوته فخيّل إلىّ أن الشجرة تنطق معه ، فغنّى وقال :

كيف الثَّواءُ ببطن مكةَ بعد ما * همّ الذين تُحِبّ بالإنجاد

أم كيف قلبُك إذ ثَوَيتَ مخمَّرا * سَقِمًا خِلافَهمُ وكربُك بادِى[1]

هل أنتَ إن ظعن الأحبّةُ غادِى * أم قبلَ ذلك مُدْلِجٌ بسوادِ[2]

قال : فقلت : أحسنتَ والذى فلق الحبّةَ وبرأ النَّسمةَ ! ولو أن كنانة كلّها سمعتك لآستحسنتْك[3]، فكيف بنافع بن علقمة! المغرورُ من غرّه نافع. ثم قلت : زِدْنى وإن كان القوم متعلّقة قلوبهم بك؛ فغنّى وتناول عودا من الشجرة فوقّع به على الشجرة؛ فكان صوتُ الشجرة أحسنَ من خفق بطون الضّأن على العيدان إذا أخذتها عيدان الدِّفْلَى[4]، وغنّى :

لا تجمعِى هَجْرًا علىّ وغُربةً * فالهجرُ فى تَلَفِ المحبّ سريعُ

(١) كذا فى الأغانى (ج ١١ ص ٢٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : « ولونك » .

(٢) فى الأصل : « من قبل ذلك » . والتصويب عن الأغانى .

(٣) فى الأصل : « لاستحسنت » والتصحيح عن الأغانى .

(٤) الدفلى : شجر مر أخضر حسن المنظر يكون فى الأودية .

مَنْ ذا فديتُك يستطيع لحبه * دَفْعًا إذا آشتَمَلتْ عليه ضلوعُ

فقلت : بنفسي أنت والله، من لا يُكَلّ ولا يُمَلّ ! والله ما جهِل مَنْ فَهِمَك، اركب بنا فَدَتْك نفسي . قال : أمهِلني كما أمهلتُك أقضِ بعض شأني . فقلت : وهل عما تريد مَدْفَعٌ ! . فقام فصلّى ركعتين ثم ضرب بيده إلى الشجرة وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . ثم مضينا والقوم مستشرِفون . فلما دنونا منهم إذا الغريضُ يغنّيهم :

مِن خَيْلِ حَيٍّ لا تَزَال مُغِيرةً * سَمِعتْ على شَرَف صَهِيلَ حِصانِ

فبكى آبن سريج حتى ظننت أن نفسه قد خرجت . فقلت : ما يُبكيك يا أبا يحيى ؟ جُعِلتُ فِداك لا يسوءك الله ولا يُرِيك سوءًا[1] ! قال : أبكاني هذا المخنَّثُ بحسن غنائه وشجا صوته، والله ما ينبغي لأحد أن يغنّي وهذا الصبيّ حيٌّ؛ ثم نزل وآستراح وركب . فلما سرنا هُنيهةً آندفع الغريضُ يغنّي لهم بلحنه :

يا خليليَّ قـد مللتُ ثَوائي * بالمُصَـلَّى وقد سئمتُ البَقِيعا

بلِّغاني ديارَ هندٍ وسُـعدَى * وآرجِعاني فقد هَوِيتُ الرجوعا

قال : ولصوته دويٌّ في تلك الجبال . فقال آبن سريج : يآبن بركة، أسمعتَ مثل هذا الغناء قط؟ ! قال : ونظروا إلينا فأقبلوا تَسَاوَى يسحَبون أعطافَهم وجعلوا يقبّلون وجه آبن سريج . فنزل فأقام عندهم ثلاثًا، والغريض لا ينطق بحرف، وأخذوا في شرابهم وقالوا : ياحبيب النفس وشقيقها، أَعطِها بعضَ شأنها[2] . فضرب بيده إلى جيبه[3] فأخرج منه مِضرابًا ثم أخذه بيده ووضع العود في حجره — فما رأيتُ [يدًا][4] أحسنَ من يده

(١) في الأصول : «والله لا يسوءك هذا ولا يريك سوءا» . والتصويب عن الأغاني .

(٢) في الأغاني : «بعض مناها» .

(٣) كذا في الأغاني . وفي الأصل : «الى جنبه» .

(٤) الزيادة عن الأغاني .

ولا خشبةٌ تخيّلتْ لى أنها جوهرةٌ إلّا هى – ثم ضرب فلقد ضجّ (١) القومُ جميعا، ثم غنّى فكلٌّ قال : لبَّيْك لبّيك! فكان ممّا غنّى به [والحن له] (٢) هزجٌ :

لَبَّيـكِ يا سـيّدتِى * لَبَّيـك ألفًـا عدَدا

لَبّيـكِ من ظالمـةٍ * أحببتُهـا مجتهـدا

قُـومى إلى ملعبنا * نَحكِ الجوارى الخُرّدا

وضْـعَ يَدٍ فوق يَدٍ * نرفعهـا يدًا يـدا

فكلٌّ قال : نفعل ذاك، فلقد رأيتنا نستبق أيّنا تقع يده على يده . ثم غنّى :

ما هاج شوقَك بالصَّرائمْ * رَبْـعٌ أحال لآل عاصِمْ (٣)

ربعٌ تقـادَم عهـده * هاج المحبَّ على التقادم

فيـه النواعمُ والشـبا * بُ النّاعمون مع النواعم

مِن كل واضحـة الجبيـ * ـن عَميمةٍ ريّا المعَـاصِم

ثم غنّى بقوله :

شجانى مغانى الحىّ وانشقّتِ العصا * وصاح غرابُ البين أنتَ مريضُ

ففاضت دموعى عند ذاك صبابةً * وفيهنّ خَوْدٌ كالمهـاة غَضيضُ

ووليّت محزونَ الفؤاد مُرَوَّعًا * كئيبًا ودمعى فى الرداء يَفيض

قال : فلقـد رأيتُ جماعةً من الطير وقَعْنَ بقربنـا وما نُحِسّ من قبـل ذلك منهـا شيئا . فقالت الجمـاعة : ياتَمام السرور وكمالَ المجالس ، لقد سـعِد من أخذ بحظّه (٤) منك وخاب من حُرِمك ، ياحياةَ القلوب ونسيمَ النفوس جعلنا الله فداءَك ، غنّنا .

فغـنّى :

(١) فى الأغانى : « سبح » . (٢) زيادة عن الأغانى . (٣) فى الأغانى : « لأم عاصم » . (٤) فى الأصول : « بحظك » . والتصويب عن الاغانى .

ياهند إنك لو علمـ * ـتِ بعاذلَيْن تتابعا

قال : فبَدَرْتُ من بينهم فقبّلت عينيه، فتهافت القومُ عليــه يقبّلونه ، ولقد رأيتُنى وأنا أرفعهم عنه شفقةً عليه .

وكانت وفاةُ آبن سريج بالعــلّة التى أصــابته من الجُذام بمكة فى خلافة سليمان ابن عبد الملك أو فى خلافة الوليد، ودُفن فى موضع يقال له «دَسم»(١) . رحمةَ الله عليه وعفا عنه وغفر له . والحمد لله ربّ العالمين . ٥

حُكِى أنه لـمـا آحتُضِر نظر إلى آبنته تبكى فبكـى وقال : إنه مِن أكبر همّى أنتِ وأخشى أن تضيعى بعدى . فقالت : لا تَخَفْ فما غنّيتَ شيئا إلا وأنَا أغنّيه. فقال : هاتى، فآندفعت فغنّت وهو مصغ إليهـا . فقال : قد أصبتِ ما فى نفسى وهوّنتِ علىَّ أمرَكِ. ثم دعا سعيدَ بن مسعود الهُذَلِى فزوّجه إيّاها ؛ فأخذ أكثرَ غناء أبيها وآنتحله . ١٠

ذكر أخبار معبد

هو معْبَد بن وهب، وقيل : آبن قَطَنِىّ مولى آبن قَطَن؛ وقيل : إن قَطَنا مولى العاص بن وابِصة(٢) المخزومىّ، وقيل : مولى معاوية بن أبى سفيان . غنّى معبد فى أيام بنى أميّة فى أوائلها، ومات فى أيام الوليد بن يزيد بدمشق . ١٥

قال أبو الفرج الأصفهانى :

إنه لـمّا مات خرجت سَـلامة جاريةُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك وأخذت بعمود السرير والناسُ ينظرون إليها وهى تَنْدُبه وتقول شعرَ الأحوص :

(١) دسم : موضع قرب مكة .

(٢) فى الأغانى (ج ١ ص ٣٦ طبع دار الكتب المصرية) : «رابصة» بالباء الموحدة . ٢٠

قد لعمري بتُّ ليلي * كأخي الداءِ الوَجيعِ
ونجيُّ الهمّ مـــنّي * بات أدنى من نَجيعي
كلمـا أبصرتُ ربعًا * خاليًا فاضت دموعي
قد خلا من سيّدٍ كا * ن لنـا غيرَ مُضيـع
لاتَلُمْنـا إن خشعنا * أو همَمْنا بخشـوعِ ٥

وكان معبد قد علّمها هذا الصوت فندَبته به . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ : كان معبد من أحسن الناس غِناءً ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم حَلقًا(١) ؛ وهو إمام أهل المدينة فى الغناء ، وأخذ عن سائب خاثرٍ ونَشيط الفارسىّ مولى عبدالله بن جعفر ، وعن جَميلة مولاة بَهْز (بطن من بنى سليم) . وفى معبدٍ يقول الشاعر :

١٠ أجاد طُوَيْسٌ والسُّرَيْجىُّ بعده * وما قصَبـاتُ السَّبْق إلا لمعبدِ

وحكى أبو الفرج أيضا :

أن الوليد بن يزيد آشتاق إلى معبد ، فوجّه اليه البريدَ إلى المدينة فأحضره . فلما بلغ الوليدَ قدومُه أمر ببركة مُلِئتْ ماء وَرد وخُلِط بمسك وزعفران ، ثم جلس الوليد على حافَة البركة وفُرِش لمعبـد مُقَابِلَه وضُرِب بينهما سِترٌ ليس معهما ثالث . وجىء ١٥ بمعبد فقيل له : سلّم على أمير المؤمنين وآجلس فى هـذا الموضع ؛ فسلّم فردّ عليه من خَلْف السِّجف ، ثم قال له : أتدرى لم وجّهتُ إليك؟ قال : الله أعلم وأمير المؤمنين . قال : ذكرتُك فأحببتُ أن أسمع منك . فقال له معبد : أَأُغنّى ماحضر أو مايقترحه أميرُ المؤمنين ؟ قال : [بل](٢) غَنِّ :

مازال يعدو عليهم رَيْبُ دهرِهمُ * حتى تفانَوْا وريبُ الدهرِ عَدَّاء

---

٢٠ (١) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٨ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «خلقا» بالخاء المعجمة وهو تصحيف .
(٢) الزيادة عن الأغانى .

فغنّاه . فرفع الجوارى السِّجَف ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها، ثم خرج منها، فاستقبله الجوارى بثياب غيرِ الثياب التى كانت عليه، ثم شرب وسقى معبدًا ثم قال له : غنِّنى يا معبد :

يا رَبْعُ مالك لا تُجيبُ متيَّما * قـد عاج نحوَك زائرًا ومسلِّما

جادتك كلُّ سحـابةٍ هطَّالةٍ * حتى تُرى عن زَهْـرةٍ[1] متبسِّما

لو كنتَ تدرى من دعاك أجبتَه * و بكيتَ مِن حُرَقٍ عليه إذًا دما

قال : فغنّاه . وأقبـل الجوارى فرفعن السِّـتر، وخرج الوليد فألقى نفسه فى البركة فغاص فيها ثم خرج ، فلبس ثيابًا غير تلك الثياب ، ثم شرِب وسقى معبدًا وقال له : غنِّنى يا معبد :

عَجِبتْ لمّـا رأتنى * أندُب الربع المُحيـلا

واقفًا فى الدار أبكى * لا أرى إلّا الطلولا

كيف تبـكى لأناسٍ * لا يَملّون الذَّميلا[2]

كلما قلتُ اطمأنتْ * دارُهم جَدّوا[3] الرحيلا

قال : فلما غنّاه ألقى نفسه فى البركة ثم خرج فردّوا عليه ثيابَه، ثم شرب وسقى معبدا وقال له : يا معبد، من أراد أن يزداد حُظوةً عند الملوك فليكتم أسرارَهم . فقال : ذلك ممّا لا يَحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصائى به . فقـال الوليد : يا غلام احمل إلى معبد عشرةَ آلاف دينـار تَحَصَّل[4] له فى بلده وألفىْ دينـار لنفقة طريقه ؛ فحُمِلت إليه كلّها، وحُمِل على البريد من وقته إلى المدينة . وقـد قيل : إنه أعطاه فى ذلك المجلس خمسة عشر ألف دينار .

(١) كذا فى الأغانى . والزهرة : البهجة والنضارة والحسن . وفى الأصل : «ترى عن زهره» . وصححه المرحوم الأستاذ الشنقيطى فى نسخته من الأغانى : «يرى عن زهره» . (٢) الذميل : ضرب من السير . (٣) فى الأغانى (ج ١ ص ٥٤) : «قالوا» . (٤) أى تدفع وتسلم .

وقال أبو الفرج بسند رفعه :

إن معبدا كان قد علّم جاريةً من جوارى الحجاز الغناءَ تدعى "طيبة"[1] وعُنِى بتخريجها، فاشتراها رجل من أهل العراق وأخرجها إلى البصرة وباعها هناك، فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأُعجب بها وذهبت به كلّ مذهبٍ وغلبت عليه، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده برهةً من الزمان؛ فأخذ جواريه أكثرَ غنائها عنها. فكان لمحبّته إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقرُّه، ويُظهر التعصّبَ له والميلَ إليه والتقديمَ لغنائه على سائر الأغانى من أهل عصره، إلى أن عُرِف ذلك منه وبلغ معبدًا خبرُه. فخرج من مكة حتى أتى البصرةَ؛ فلما وردها صادَفَ الرجلَ قد خرج عنها فى ذلك الوقت واليوم إلى الأهواز. فجاء معبدٌ فى طلب سفينة تحمله إلى الأهواز، فلم يجد غيرَ سفينة الرجل، فركب فيها وكلاهما لا يعرف الآخرَ، وانحدرت السفينةُ. فلما صاروا بفم نهر الأُبُلَّة[2]، أمر الرجلُ جواريَه بالغناء فغنّين، إلى أن غنّت إحداهنّ صوتا من غناء معبد فلم تُجِدْ أداءَه؛ فصاح بها معبد: يا جارية، إن غناءَكِ هذا ليس بمستقيم. فقال مولاها وقد غضب: وأنت ما يُدريك الغناء ما هو! ألَا تُمسكُ[3] وتلزمُ شأنَك! فأمسك. ثم غنّت أصواتا من غناء غيره وهو ساكتٌ لا يتكلّم حتى غنّت من غنائه فأخلّت ببعضه؛ فقال لها معبد: ياجارية، قد أخللتِ بهذا الصوت إخلالا كثيرا. فغضب الرجل وقال له: ويلك! ما أنتَ والغناءَ! ألا تَكُفّ عن هذا الفضول! فأمسك معبدٌ. وغنّى الجوارى

(١) فى أكثر أصول الأغانى المخطوطة والمطبوعة: «ظبية».

(٢) الأبلة (بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها): اسم بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة، كما فى معجم البلدان لياقوت.

(٣) كذا فى أكثر أصول الأغانى. وفى بعض أصوله: «لم لا تمسك ...» وفى الأصل هنا: «... وأنت مايدريك ما الغناء ماهو إلا أن تمسك ...».

مليًّا، ثم غنّت إحداهنّ صوتًا من غنائه فلم تَصْنَع فيـه شيئًا . فقال لها معبد: يا هذه، أمَا تَقُومين(١) على أداء صوتٍ واحد! فغضب الرجلُ وقال له : ما أراك تَدَعُ هـذا الفضولَ بوجهٍ ولا حيلةٍ! فأُقسِم بالله إن عاودتَ لأُخرِجنّك من السفينة . فأمسك معبدٌ، حتى سكتت الجوارى سَكْتةً، فاندفع يغنّى الصوت الأوّل حتى فرغ منه . فصاح الجوارى : أحسنتَ والله يارجل، فأَعِده . قال : لا والله ولا كَرامةَ . ثم آندفع يغنّى الثانى؛ فقلن لسيّدهن : ويحك ! هذا والله أحسن الناس غناءً، فسَلْه أن يُعيده علينا ولو مرّة واحدةً لعلنا نأخذه منـه، فإنه إن فاتنا لم نَجِدْ مثلَه أبدا . قال : قد سمعتنّ سوءَ ردّه عليكنّ وأنا خائف مثلَه منه، وقد آستقبلناه بالإساءة، فآصْبِرْن حتى نُداريَه . قال : ثم غنّى الثالثَ فزلزل عليهم الأرضَ . فوثب الرجل فقبّل رأسَه، وقال : يا سـيّدى أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : وهَبْك لم تعرِف موضعى، قد كان ينبغى لك أن تتثبّت ولا تُسرِعَ إلى سوء العِشرة وجفاءِ القول . فلم يزل يرفُق به حتى نزل إليه، وكان معبدٌ قـد أُجلس فى مؤخّر السفينة . فقال له الرجل : ممن أخذتَ هـذا الغناء ؟ قال : من بعض أهـل الحجاز، فمن أين أخذه جواريك ؟ قال : أخذنه من جاريةٍ كانت لى، كانت قد أخذت الغناءَ عن أبى عبّاد معبد وكانت تَحُلّ منى مكانَ الروح من الجسد، ثم آستأثر اللهُ بها وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ [من](٢) تعليمِها، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد وأفضّله على المغنّين جميعا، وأفضّل صنعتَه على كل صنعة . فقال له معبـد : وإنك لأنت هو ! أفتعرفنى ؟ قال لا . قال : فصكّ معبد بيـده صلعَته ثم قال : فأنا(٣) والله معبدٌ وإليك قدمتُ من الحجاز ووافيتُ البصرةَ ساعةَ نزلتُ السفينةَ لأقصدك بالأهواز، ووالله لا قصّرتُ فى جواريك

(١) فى بعض أصول الأغانى : « أما تقوين » . (٢) الزيادة عن الأغانى .
(٣) فى الأصول : « فانه » والتصويب عن الأغانى .

هؤلاء ولأجعلنّ لك في كل واحدة خَلَفًا من الماضية . فأكبّ الرجلُ والجواري على يده ورجليه يقبّلونها ويقولون : كتمْتنا نفسَك حتى جَفَوْناك في المخاطبة وأسأنا عشرتَك وأنت سيّدُنا ومن نتمنّى أن نلقاه . ثم غيّر الرجلُ أثواب معبد وخلع عليه عدّة خِلَع وأعطاه في ذلك الوقت ثلثمائة دينار وطِيبًا وهدايا مثلها ، وآنحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضِي حِذْقَ جواريه ، ثم ودّعه وآنصرف إلى الحجاز . ٥

ذكر أخبار الغريض

وما يتّصل بها من أخبار عائشة بنت طلحة

هو عبد الملك ، وكنيتُه أبو زيد(1) ، وقيل : أبو مروان . والغَرِيض لقبٌ لُقّب به ؛ لأنه [كان](2) طَرِيّ الوجه نَضِرًا غَضّ الشباب حسن المنظر ، فلُقّب بذلك . والغريض : الطّريّ من كل شيء . وقال آبن الكلبي : شُبّه بالإغريض وهو الجُمّار ثم ثَقُل ذلك على الألسنة فحذفت الألف فقيل : الغَرِيض . وهو من مُوَلّدي البَرْبَر . ١٠ وولاؤه للثريّا (صاحبةِ عمر بن أبي ربيعة) وأخواتها الرُّضَيّا وقُرَيبة وأم عثمان بنات عليّ بن عبد الله بن الحارث بن أميّة الأصغر . قالوا : وكان يضرب بالعود وينقر بالدّفّ ويُوقِع بالقضيب . وكان قبل الغناء خيّاطا . وأخذ الغناءَ في أوّل أمره عن عُبيد بن سُرَيج ، لأنه كان قد خدمه ؛ فلما رأى آبن سريج طبعَه وظَرْفَه وحلاوةَ ١٥ منطقه ، خشِي أن يأخذ غناءَه فيغلبَه عليه ويفوقَه بحسن وجهه ، وحسَده ، فآعتلّ عليه وشكاه الى مَوْلَياته ، وكنّ دفعنَه اليه ليعلّمه الغناءَ ، وجعل يتجنّى عليه ثم طرده ، فعرَّف مَوْلَياتِه غرضَ آبن سريج فيه وأنه حسَدَه ؛ فقلن له : هل لك أن تسمع

(1) الذي في الأغاني (ج ٢ ص ٣٥٩ طبع دار الكتب المصرية) : « أبو يزيد » .

(2) الزيادة عن الأغاني . ٢٠

نَوْحَنا على قتلانا فتأخذه وتغنّى عليـه ؟ قال نعم . فأسمعنه المراثى فآحتذاها وخرَّج غناءه عليها . وكان ينوح مع ذلك فيدخل المآتمَ وتُضْرَب دونه الحُجُب ثم ينوح فيفتن كلَّ من سمعه . فلما كثر غناؤه عدَل الناسُ إليه لما كان فيه من الشَّجا[(١)]، فكان آبن سريج لا يغنّى صوتا إلا عارضَه فيه فيغنّى فيه لحنا آخر . فلما رأى آبنُ سريج موقعَ الغَرِيض اشتدّ عليه وحسده، فغنّى الأرمالَ والأهزاجَ ، فآشتهاها الناسُ . فقال له الغَرِيض : يا أبا يحيى قصّرتَ الغناء وحذفتَـه . قال : نعم يا مخنّثُ حين جعلتَ تنوح على أبيـك وأمك . قال : ولم يُفَضَّل آبنُ سريج عليـه إلا بالسّبْق، وأما غير ذلك فلا .

وقال بعضُهم : كان الغرِيضُ أشجى غناءً ، وآبن سريج أحكم صَنعةً . وحكى أبو الفرج الأصفهانى بسند رفعه إلى أيّوب بن عَبَاية عن مولى لآل الغَرِيض قال: حدّثنى بعضُ مولياتى وقد ذَكَرْن الغَرِيضَ فترحّمْن عليه وقلن : جاءنا يوما فحدّثنا بحديث أنكرناه عليه ثم عرفناه بعد ذلك حقيقةً . قالت : وكان آبنُ سُرَيج بجوارنا فدفعناه إليـه ولُقِّن الغناء، وكان من أحسن الناس صوتًا ، ففتَن أهـلَ مكة بحسن وجهه مع حسن صوته . فلما رأى ذلك آبنُ سريج نحّاه[(٢)] عنـه . فكان بعضُ مولياته تعلّمه النِّياحة فبرَّز فيهـا . فجاءنى يوما فقال : نَهَتْنى الجنّ أن أنوح وأسمعتنى صوتا عجيبا،فقد آبتنيتُ عليه لحنًا فآسمعيه منى، فآندفع فغنّى بصوتٍ عجيبٍ فى شعرٍ لمَرَّار الأسدىّ :

حلَفتُ لها بالله ما بين ذى الغَضا * وهَضْبِ القَنَان[(٣)] من عَوَانٍ ومن بِكْرِ

(١) كذا فى الاغانى . وفى الأصول : « عدل الناس اليه لشجائه » .

(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « جلاه عنه » . (٣) كذا فى الأغانى . والقنان : جبل لبنى أسد فيه ماء يدعى العسيلة . وفى الاصل : «هضب العنان» وهو تحريف .

أحبُّ إلينا منكِ دَلًّا وما نرى * به عند ليلى من ثواب ولا أجرِ

قالت : فكذّبناه وقلنا : شيءٌ فكّر فيه وأخرجه على هذا الجنس . فكان فى كل يوم يأتينا فيقول : سمعت البارحةَ صوتًا من الجنّ بترجيع وتقطيع، فقد بنيتُ عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان، فلم يزل على ذلك ونحن نُنكر عليه . فإنا لكذلك ليلةً وقد آجتمع جماعةٌ من نساء أهل مكة فى جمع لنا سَمَرْنا فيه ليلتَنا والغريضُ يغنّينا بشعر عمر بن أبى ربيعة حيث يقول :

أمِن آل زينب جدّ البكورُ * نَعَمْ فَلأَىِّ هواها تَصيرُ

إذ سمعنا فى بعض الليل عَزِيفًا عجيبا وأصواتا ذعَرتْنا وأفزعتْنا . فقال لنا الغريضُ: (١٠٨) إن فى هذه الأصوات صوتًا إذا نِمتُ سمعتُه وأُصبِح أَبنى عليه غِنائى، فأصغينا إليه فإذا نغمتُه نغمةُ الغَرِيض بعينها، فصدّقناه تلك الليلة .

وكانت وفاةُ الغريض باليمن فى خلافة سليمان بن عبد الملك أو عمر بن عبد العزيز، وكان قد هرَب من نافع بن عَلْقمة لمّا ولِى مكةَ من مكة إلى اليمن وآستوطنها ومات بها .

وللغريض أخبارٌ مستظرفة وحكايات مستحسنة قد رأينا أن نُثبِت فى هذا الموضع ،استقف عليه إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما حكاه أبو الفرج الأصبهانىّ فى كتابه المترجم بالأغانى فى أخبار الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المُغيرة المخزومىّ، بعد أن ساق قطعة من أخباره مع عائشة بنت طلحة بن عُبيد الله، وأنه كان يهواها ويشبِّب بها فى شعره، ثم قال فى أثناء ذلك : لمّا قدمتْ عائشةُ بنت طلحة مكة أرسل إليها الحارثُ وهو أمير مكة يومئذ ، وكان وَلِيها مِن قِبَل عبد الملك بن مروان ، فأرسل إليها : إنى أريد السلام عليك ؛ فإذا خفّ ذلك عليكِ أَذِنتِ، وكان الرسولُ الغريضَ .

فأرسلت إليه: إنّا حُرُمٌ، فإذا أحلَلْنا أذِنّاك . فلما أحلّت خرجت سرًّا على بغلتها ، ولحقها الغَريضُ بعُسْفانَ أو قريب منه ومعه كتّاب الحارث إليها، وفيه :

ما ضَرّكم لو قلتُمُ سَدَدًا * إنّ المطايا عاجلٌ غَدُها

ولها علينا نعمةٌ سلَفت * لسنا على الأيام نجحَدُها

لو أتممتْ أسبابَ نِعمتها * تَمّتْ بذلك عندنا يَدُها ٥

فلما قرأت الكتّابَ قالت: ما يَدَع الحارثُ باطلَه ! . ثم قالت للغريض: هل أحدثتَ شيئا ؟ قال : نعم فآسمعى ، ثم آندفع يغنّى فى هـذا الشعر . فقالت عائشــةُ : والله ما قلنا إلا سَــدَدًا ولا أردنا إلا أن نشترىَ لسانَه (١) ؛ وآستحسنت الشعرَ ، وأمرت للغَريض بخمســة آلاف درهم وأثوابٍ ، [وقالت] (٢) : زدْنى . فغنّى فى قول الحارث أيضا حيث يقول : ١٠

زعَمــوا بأنّ البيْنَ بعــد غَدٍ * فالقلبُ ممّا أحدثوا يجِفُ

والعينُ مُنْذ أُجِدّ بينُهمُ * مثلَ الجُمَان دموعُها تَكِف

نشكو وتشكو ما أَشتّ بنا * كلٌّ بوَشْـك البين مُعْترِف

ومقالهـا ودموعُها سُجُــمٌ * أَقْلِلْ حنينَك حين تنصرف

فقالت عائشــة : يا غريضُ ، بحقّ عليك أهو أمرك أن تغنّينى فى هــذا الشعر ؟ ١٥ قال : لا وحَياتِك يا سيّدتى، فأمرت له بخمســة آلاف درهم ، ثم قالت : غنّنى فى [غير] (٢) شعره، فغنّاها بشعر عمر بن أبى ربيعة — وكان عمرُ قد سأله ذلك — فقال:

أَجْمعتْ خُلّتى مع الهجر بَيْنَا * جَلّل اللهُ ذلك الوجهَ زَيْنــا

أجمعتْ بَيْنَها ولم نَكُ منهــا * لَذّةَ العيشِ والشبابِ قَضَيْنا

(١) فى الأصل : « والله ما قال » . والتصويب عن الأغانى (ج ٣ ص ٣٢٠ طبع دار الكتب المصرية) . ٢٠ (٢) التكلة عن الأغانى .

فتولّت حُمولُها وٱستقلّت * لم تُنِل طائلا ولم تَقضِ دينا
ولقـد قلتُ يوم مكّةَ لمّـا * أرسلتْ تقرأ السـلام علينا
أنعم اللهُ بالرسـول الذى أر * سل والمُرْسِلِ الرسالةَ عَيْنـا

قال: فضحكت ثم قالت: وأنت يا غريضُ فأنعم الله بك عيناً وأنعم بٱبن أبى ربيعة عينا ، لقـد تلطّفت[1] حتى أدّيتَ إلينا رسالتَه ، وإنّ وفاءك له لمـا يزيدنا رغبةً فيك وثقةً بك . وكان عمر سأل الغريضَ أن يغنّيها بشعره هذا لأنه كان قد ترك ذكرها لمّـا غضبت بنو تَيْم من ذلك ، فلم يُحِبّ التصريحَ بهـا وكرِه إغفالَ ذكرها . فقال له عمرُ بن أبى ربيعة : إنْ أبلغتَها هذه الأبيات فى غناء فلك خمسة آلاف درهم ، فوفّى له ، وأمرتْ له عائشةُ بخمسة آلاف درهم . ثم ٱنصرف الغريض من عندها ، فلقِى عاتكةَ بنتَ يزيد بن معاوية ٱمرأةَ عبـد الملك بن مروان وقـد كانت حجّت فى تلك السنة ؛ فقال لها جواريها : هذا الغريضُ. فقالت لهنّ : علىّ به؛ فجئْنَ به إليها. قال الغريض : فلما دخلتُ سلّمتُ فردّت علىّ وسألتنى عن الخبر، فقصصته[2] عليها . فقالت : غَنِّنى بما غنّيتَها به ، ففعلتُ ؛ فلم أرها تَهَشّ لذلك ؛ فغنيتُها معرِّضا ومذكِّرا بنفسى فى شعر مُرّة بن مَحْكان السَّعْدىّ يخاطب ٱمرأته وقد نزل به أضياف:

أقول والضيفُ مخشىٌّ ذِمامتُه[3] * على الكريم وحقُّ الضيف قد وجبا
يا ربّةَ البيت قُومِى غيرَ صاغرةٍ * ضُمِّى إليكِ رِحال القوم والقِرَبا
فى ليلةٍ من جُمادى ذات أنديةٍ * لا يُبصر الكلبُ فى ظلمائها الطُّنُبا
لا ينبح الكلبُ فيها غيرَ واحدة * حتى يلُفّ على خيشومه الذَّنَبا

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «ثم لطفت» .
(٢) كذا فى الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «فأقصصته» .
(٣) الذمامة (بفتح الذال وكسرها) : الذمة والعهد .

فقالت وهى مبتسمة : نعم وقد وجب حقّك يا غريض، فغنّنى؛ فغنّيتها :

يادهرُ قد أكثرتَ فَجْعتنا[1] * بسَــراتنا ووقَرْتَ[2] فى العَظْم

وسلبتنا ما لستَ تُخْلِفَـــه[3] * يادهر ما أنصفتَ فى الحُكْم

لو كان لى قِرنٌ أناضـله * ما طاش عند حَفيظةٍ سَهْمى

لو كان يُعْطِى النَّصْف[4] قلتُ له * أحرزتَ قِسمكَ فآلْهُ عن قِسْمى

فقالت : نُعطيك النَّصْفَ فلا يضيع سهمكُ عنـدنا ونُجزل لك قِسْمك، وأمرت له بخمسة آلاف درهم وثياب عَدَنيّة وغير ذلك من الألطاف . قال الغريض: فأتيتُ الحارث بن خالد فأخبرتُه الخبرَ وقصَصْتُ عليه القصة؛ فأمر لى بمثل ما أمرتا لى جميعا؛ وأتيتُ آبن أبى ربيعة فأعلمتُه بما جرى، فأمر لى بمثل ذلك . فما آنصرف أحدٌ من ذلك الموسِم بمثل ما آنصرفتُ به : نظرة من عائشة، ونظرة من عاتكة — وهما أجمل نساء عالَمِهما — وبما أمرتا لى به، والمنزلةُ عند الحارث — وهو أمير مكة — وآبنِ أبى ربيعة وما أجازانى به جميعا من المـال .

ولنَصِل هـذا الفصلَ بشىء من أخبار عائشة بنت طلحة؛ لأن الشىء بالشىء يذكر .

هى عائشـةُ بنت طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْم . وأمها أمّ كلثوم بنت أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه . وكانت عائشةُ لا تستـر وجهَها من أحد . فعاتبها مُصْعَب فى ذلك فقالت : إن الله تبارك وتعالى وَسَمنى بِمِيسَم جمال أحببتُ أن يراه الناس و يعرفوا فضلى عليهم فمـا كنتُ لأستره ، ووالله ما فِىّ وَصْمةٌ يقدِر أن يذكرنى بها أحد .

(١) فى الأصول : « كثرت فجيعتنا » . والتصويب عن الأغانى ولسان العرب (مادة «وقر») .
(٢) وقر العظم : صدعه .
(٣) فى الأصل : « ما كنت » والتصويب عن الأغانى .
(٤) النصف (مثلثة) : اسم بمعنى الانتصاف .

قال أبو الفرج الأصبهانى : وكانت شرسة الخُلُق، وكذلك نساءُ بنى تيم، هنّ أشرسُ خلق الله خُلُقا وأحظاهنّ عند أزواجهنّ . قال : وآلت عائشةُ من زوجها مصعب بن الزبير، فقالت : أنتَ علىّ كظهر أمّى، وقعدتْ فى غرفةٍ وهيّأت ما يُصلحها . فجهِد مصعبٌ أن تكلّمه فأبت . فبعث إليها آبنَ قيس الرُّقيّات فسألها كلامَه . فقالت : كيف بيمينى؟ فقال: ها هنا الشَّعْبىّ فقيه أهل العراق فآستفتيه . فدخل الشّعبىّ عليها فأخبرته ؛ فقال: ليس هذا بشىء ؛ فأمرت له بأربعة آلاف درهم .

وحكى أبو الفرج أنّ مصعب بن الزبير لمّا عزَم على زواج عائشة بنت طلحة، جاء هو وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق وسَعيد بن العاص إلى عزّة المَيْلاء — وكانت عزّة هذه يألفها الأشرافُ وغيرُهم من أهل المرُوءات، وكانت من أظرف النّاس وأعلمهم بأمور النساء — فقالوا لها : إنّا خطبنا فآنظرى لنا . فقالت لمصعب : يآبن أبى عبد الله، ومَنْ خطبتَ ؟ قال : عائشة بنت طلحة . قالت : فأنت يآبن أبى أُحَيْحَة ؟ قال : عائشة بنت عثمان بن عفّان . قالت : فأنت يآبن الصّدّيق ؟ قال : أمّ الهيثم بنت زكريا بن طلحة . فقالت : ياجارية، هاتى مِنْقَلَىّ (تعنى خفّيها)، فلبستهما وخرجت ومعها خادمٌ لها ، فبدأت بعائشة بنت طلحة ، فقالت : فديتُك، كنّا فى مأدبة أو مأتم لقريش، فتذاكروا جمالَ النساء وخَلْقَهن فذكروكِ فلم أدرِ كيف أصفُك، فديتك ، فألقِى ثيابك ؛ ففعلت فأقبلت وأدبرت فآرتجّ كلُّ شىء منها . فقالت لها عزّة : خُذِى ثوبك . فقالت عائشة : قد قضيتِ حاجتك وبقيت حاجتى . فقالت عزّة : وما هى ؟ فديتُك ! قالت : تغنّينى صوتا . فآندفعت تغنّى لحنها فى شعرِ جميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُذْرىّ :

خليلىّ عُوجَا بالمحلّة من جُمْلٍ * وأترابِها بين الأُصَيْفِرِ فالحَبْلِ
نَقِفْ بمغانٍ قد عفا رسمَها البِلَى * تعاقَبُها الأيامُ بالرّيح والوَبْلِ

(١١٠)

فلو دَرَج النمْـلُ الصـغار بجلدها * لأنْدَب أعلى جلدها مَدْرَجُ النمل

وأحسن خلق الله جِيدًا ومُقْـلةً * تُشَبَّه [فى النسوان بالشادنِ الطّفل](١)

فقبّلت عائشةُ ما بين عينيها ودعت لهـا بعشرة أثواب وطرائف من أنواع الفضّة، فدفعته إلى مولاتها . وأتت النِّسوةَ على مثـل ذلك تقول ذلك لهنّ . ثم أتت القومَ فى السقيفة . فقالوا : ماصنعتِ؟ فقالت : يآبن أبى عبد الله، أمّا عائشةُ فلا والله ما رأيتُ مثلها مُقْبِـلةً ولا مُدْبرة ، محطوطةَ المتنين(٢)، عظيمةَ العجيزة، ممتلئةَ الترائب ، نقيّـةَ الثغر وصفحة الوجه، فرعاءَ الشعر، ممتلئةَ الصدر، خميصةَ البطن ذات عُكَنٍ، ضخمةَ السُّرّة، مُسَرْولةَ الساق، يرتجّ ما بين أعلاها إلى قدميها؛ وفيها عيبان ، أمّا أحدُهما فيواريه الخِمارُ، وأما الآخرُ فيواريه الخُفّ : عِظَمُ الأُذن والقدم. وكانت عائشة بنت طلحة كذلك . ثم قالت عزّة : وأمّا أنت يآبن أبى أُحَيْحة فإنى والله ما رأيتُ مثل خَلْق عائشـة بنت عثمان لآمرأةٍ قط ! ليس فيها عيب والله لكأنمـا أُفرِغتْ إفراغًا ولكن فى الوجه رَدّةٌ، و إن آستشرتَنى أشرتُ عليك . قال : هاتِ . قالت : عليك بوجه تستأنس به . وأمّا أنت يآبن الصدّيق : فو الله ما رأيتُ مثل أمّ الهيثم، كأنها خُوط بانة تنثنى، أو كأنها جانٌّ يتثنّى على رمل، لو شئتَ أن تعقِد طَرَفيها لفعلتَ، ولكنها شَخْتةُ الصـدر(٣) وأنت عريض الصـدر، فاذا كان كذلك كان قبيحًا، لا والله حتى يملأ كلُّ شيء مثلَه . قال : فوصلها الرجال والنساء وتزوّجوهنّ .

وحكى أبو الفرج أيضا : أنّ مصعبَ بن الزبير إنمـا تزوجها بعد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . وقال : وكانت عائشةُ بنت طلحة تُشَبَّه بخالتها عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها، فزوّجتها عائشةُ من آبن أخيها عبدِ الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر، وهو

(١) التكلة عن الأغانى (ج ١٠ ص ٥٥ طبع بولاق) .

(٢) محطوطة المتنين : ممدودتهما . (٣) شختة الصدر : دقيقته .

أوّل من تزوّجها . ولم تَلِد عائشةُ بنت طلحة من أحد من أزواجها غيره، ولدت له عِمران وبه كانت تُكْنَى[(١)]، وعبدَ الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة، ولكلّ من هؤلاء عَقِبٌ . وأنا من عقِب طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر من ولده ليث ابن طلحة . وليس هذا موضع سرد نسبي فأسرده .

٥ قال أبو الفرج : وصارمت عائشةُ بنت طلحة زوجَها عبد الله بن عبد الرحمن وخرجت من داره مُغْضَبة تريد عائشةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها . فرآها أبو هريرة فسبّح الله تعالى وقال : كأنها من الحُور العِين . فمكثت عند عائشة قريبا من أربعة أشهر . وكان عبد الله قد آلى منها ؛ فأرسلت عائشة إليه : إنى أخاف عليك الإيلاءَ؛ فضمّها إليه وكان مُوليًا منها[(٢)] . فقيل له : طلّقها؛ فقال :

١٠ يقولون طَلِّقها لِأُصبح ثاوِيًا * مُقيمًا علىّ الهمُّ ، أحلامُ نائم

وإنّ فِراقى أهلَ بيت أُحِبّهم * لهم زُلْفةٌ عندى لإحدى العظائم

وتُوفّى عبد الله بعد ذلك وهى عنده ، فما فتحتْ فاهَا عليه ؛ وكانت عائشةُ أُمّ المؤمنين رضى الله عنها تَعُدّ هذا عليها فى ذنوبها التى تعدّدها . ثم تزوّجها بعده مصعب بن الزبير، فمهَرَها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك .

١٥ وكانت عائشة تمتنع على مصعب فى غالب الأوقات . فحُكى أنه دخل عليها يوما وهى نائمة ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار، فأنبهها ونثر اللؤلؤ فى حجرها . فقالت : نومتى كانت أحبّ الىّ من هذا اللؤلؤ . ولم تزل حالُها معه على مثل ذلك حتى شكا ذلك الى كاتبه آبن أبى فَرْوة . فقال له : أنا أَكْفيك هذا إن أذِنتَ لى . قال : نعم! افعلْ ما شئتَ . فأتاها ليلًا ومعه أسودانِ فآستأذن عليها . فقالت : أفى

٢٠ (١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « وبه كان يكنى » .

(٢) فى الأصول : «ملق فيها» . والتصويب عن الأغانى .

مثل هــذه الساعة ؟ قال نعم ؛ فأذنت له فدخل . فقال للأسودين : آحفِرا هاهنا بئرا . فقالت له جاريتُها : وما تصنع بالبئر؟ قال: شُؤمُ مولاتك، أمرنى هذا الظالمُ أن أدفنها حيّة ، وهو أسْفَكُ خلقِ الله لدَمٍ حرام . قالت عائشــة : فأَنظِرْنى أذهبْ اليه ؛ قال : هيهات لاسبيلَ إلى ذلك، وقال للأسودين: آحفِرا . فلمــا رأت الجِدَّ منه بكت وقالت : يآبن أبى فروة، إنك لقاتلى ما منه بدّ ؟ قال : نعم، وإنى لأعلم أن الله عزّ وجلّ سيُجْزِيه بعدكِ ، ولكنّه قد غَضِب وهو كافرُ الغضب . قالت: وفى أى شيء غضبُه؟ قال : مِن آمتناعكِ عليه وقد ظنّ أنك تُبْغِضينه وتَتطلّعين إلى غيره، فقد جُنّ . فقالت :أَنشُدُك اللهَ إلّا عاودتَه . قال : أخاف أن يقتلنى؛ فبكت وبكى جواريها . فقال لها : قد رَقَقْتُ لك وحلَف لها إنه يغرّر بنفسه، وقال لها : فمــا أقول؟ قالت: تضمّن له عنّى أنى لا أعود أبدًا . قال: فــالى عندك؟ قالت: قيامٌ بحقّك ماعِشت . قال: فأعطينى المواثيق فأعطته . فقال للأسودين : مكانَكما . وأتى مصعبًا فأخبره . فقال : آستوثِق منها بالأيمان؛ فآستوثق منها ففعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب .

قال: وكان مصعب من أشدّ الناس إعجاباً بها . ولم يكن لها شبيه فى زمانها حُسْنا وديانةً[(١)] وجمالا وهيئةً وشارةً وعِفّة . وإنها دعت يوماً نِسوةً من قريش، فلمــا جِئنْها أجلستهن فى مجلس قد نُضِد فيه الريحان والفواكه والطِّيب والمجامرُ، وخلعت على كلّ آمرأة منهن خلعة من الوَشْى والخزّ ونحو ذلك، ودعت عَزّةَ المَيْلاء ففعلت بها مثــل ذلك وأضعفته ؛ ثم قالت لعزّة : هاتِ ياعزّةُ فغنِّينا . فغنّتهن فى شــعر آمرئ القيس فقالت :

وثغرٍ أغرَّ شَتِيت النَّبــاتِ * لذيذِ المُقَبَّــلِ والمُبْتَسَمْ

(١) فى الأغانى : « دمائة » .

وما ذقتُـــه غيرَ ظنٍّ به * وبالظنّ يَقضِى عليك الحَكَم

وكان مصعب قريبًا منهن ومعـه إخوانٌ له، فقام فآنتقل حتى دنا منهنّ والسـتور مُسْبَلَةٌ، فصاح بها : ياهذه، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ، فبارك الله فيك ياعزة. ثم أرسل إلى عائشة : أمّا أنت فلا سبيل لنا اليك مع من عندك، وأمّا عزّةُ فتأذنين لها أن تغنّينا هذا الصوتَ ثم تعود إليك، ففعلت وخرجت عزّة اليهم فغنّتهم هذا الصوتَ مرارًا، وكاد مصعب أن يذهب عقلُه فرحا . ثم قال لها : ياعزّة، إنك لتُحسِنين القول والوصفَ، وأمرها بالعَوْد إلى مجلسها .

قال : ولم تزل عند مصعب حتى قُتِل عنها. فخطبها بِشر بن مروان، وقدِم عمر آبن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمى من الشأم فنزل الكوفةَ، فبلَغه أن بشرًا خطبها، فأرسل إليها جارية لها وقال : قُولى لآبنـة عمّى : ابنُ عمك يُقرئك السلام و يقول لكِ : أنا خير لك من هذا المَبْسـور المَطْحول ، وأنا آبن عمك أحقّ بك ، وإن تزوجتُ بك ملأتُ بيتـك خيرًا . فتزوّجته فبنى عليهـا بالحِيرة، فمُهّدت له سبعةَ أفرشة عَرْضُها أربع أذرع ؛ فأصبح ليلةَ بنى بهـا عن تسعة . فلقيته مولاة لها فقالت : أبا حفص، فديتُك! قد كَمَلتَ فى كلّ شىء حتى فى هذا. وقيل إنه لـمّا تزوّجها حمل إليها ألفَ ألف درهم، خمسمائة ألف مهر، وخمسمائة ألف هديّة، وقال لمولاتها : لك علىّ ألف دينار إن دخلتُ بها الليلة، وأمر بالمـال فحُمِل فأُلقِى فى الدار وغُطِّىَ بالثياب، وخرجت عائشة فقالت لمولاتها : ما هـذا ؟ أفرشٌ أم ثيابٌ ؟ قالت : أُنظرى إليه، فنظرت فاذا هو مال، فتبسّمت . فقالت الجارية : أجزاءُ من حمَلَ هذا المـال أن يبيت عَزَبا ! قالت : لا والله، ولكن لا يجوز دخولُه إلا بعد أن أتزيّن له وأستعدّ . قالت : وماذا ؟ فوالله لَوَجْهُك أحسنُ من كلّ زينة وما تَمُدّين يديك إلى طِيب أو ثوب أو مال أو فراش إلا وهو عندك، وقد عزَمتُ عليك أن تأذنى له .

فقالت : ٱفعلى . فذهبت إليه فقالت له : بِتْ بنا الليلةَ . فجاءهم عند العِشاء الآخرة فأُدنِى إليه طعام فأكل الطعام كلّه حتى أعرى الخوانَ وغسل يده وسأل عن المُتَوَضَّأ فأُخبر به ، فقام فتوضأ وقام يصلّى حتى ضاق صدرى ونمتُ ، ثم قال : أعليكم آذَن؟ قلت : نعم فَٱدخُل ، فأدخلتُهُ وأسبلتُ السِّتر عليهما . فلما أصبحنا وقفتُ على رأسه (١١٣) فقال : أتقولين شيئا ؟ قلتُ : نعم والله ما رأيت مثلك! فضحك وضرب بيده على ٥ منكِب عائشة وقال لها : كيف رأيتِ ٱبنَ عمّك؟ فضحكت وغطّت وجهها وقالت :

قد رأينــاك فلم تَحْلُ لنا * وبلوناك فلم نَرْضَ الخَبَرْ

ومكثت عائشةُ عند عمر بن عبيد الله ثمانىَ سنين حتى مات سنة ٱثنتين وثمانين . ولمـا مات ندبته قائمةً ، ولم تندُب أحدًا قبله من أزواجها إلا جالسة . فقيل لها فى ذلك فقالت : إنه كان أكرَمهم علىّ وأمسَّهم بى رَحِمًا ، فأردتُ ألّا أتزوّج بعده . وكانت ١٠ المرأةُ إذا ندبت زوجَها قائمةً لا تتزوج بعده أبدا . ولم تتزوج عائشةُ بنت طلحة بعد زوجها عمر بن عبيد الله .

ومن أخبار عائشة بنت طلحة أيضا ما رواه أبو الفرج الأصبهانىّ بسنده إلى يزيد ٱبن عِياض ، قال :

ٱستأذنت عاتكةُ بنت يزيد بن معاوية عبــدَ الملك فى الحجّ ، فأذِن لها وقال : ١٥ ٱرفعى حوائجَك وٱستَظهِرى ، فإن عائشة بنت طلحة تَحُجّ ، ففعلت وتجهزت بهيئــة جَهَــدت فيها . فلمــا كانت بين مكة والمدينــة إذا موكبٌ قد جاء فضَغَطها[1] وفرّق جماعتها ؛ فقالت : أرى هذه عائشةَ بنتَ طلحة ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه جاريتُها[2] . ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك ، فقالوا : عائشة عائشة ، فضَغَطَهم فسألت عنها ،

(١) كذا فى الأغانى (ج ١٠ ص ٦٠ طبع بولاق) . وفى الأصل : «فضعضعها» . ٢٠
(٢) فى الأغانى : « خازنتها » .

فقالوا : هذه ما شِطتُها . ثم جاءت مواكبُ على هذا لحاشيتها، ثم أقبلت فى ثلثمائة راحلة عليها القِباب والهوادج؛ فقالت عاتكةُ: ما عند الله خير وأبقى . قال: ووفدت عائشةُ بنت طلحة على هشام بن عبد الملك، فقال لها : ما أوفدك؟ قالت: حبست السماء مطرَها ومنع السلطان الحقّ. قال : فأنا أصِل رحمك وأعرف حقّك. ثم بعث إلى مشايخ بنى أميّة فقال: إن عائشة عندى فاسمُروا عندى الليلة فحضروا؛ فما تذاكروا شيئا من أخبار العــرب وأشعارها وآثارها إلا أفاضت معهم فيــه ، وما طلع نجمٌ ولا غار إلا أسمته . فقال لها هشام : أمّا الأوّل فلا أنكره، وأمّا النجوم فمن أين لك؟ قالت : أخذتُه[1] عن خالتى عائشة رضى الله عنها؛ فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينـــة .

قال: ولمـا تأيّمت عائشة كانت تُقيم[2] بمكة سنة وبالمدينة سنة ،وتخرج إلى مال لها بالطائف عظيم وقصرٍ لها هناك فتتنزه وتجلس فيه بالعشيّات ، فتتناضل بين [يديها][3] الرُّماةُ. فمرّ بها النُّميْرىّ الشاعر، فسألت عنه فانتسب لها؛ فقالت: ائتونى به، فجىء به . فقالت له : أنشِــدنى مما قلتَ فى زينب ؛ فامتنع وقال : بنتُ عمّى وقــد صارت عظاما بالية . قالت : أقسمتُ عليك لمـا فعلت؛ فأنشدها قوله :

نَزَلْنَ بفَـخٍّ[4] ثم رُحْنَ عشِـيّةً * يُلبِّين للرحمن معتمِـراتِ
يُخَمِّرن أطرافَ الأكفِّ من التقى * ويَخرجن جُنْحَ الليلِ مُعتَجِراتِ[5]
ولمـا رأت رَكْب النُّمَيْرىّ راعها * وكنّ مِنَ اَنْ يَلْقَيْنَــه حَذِراتِ
تضوّع مِسْكا بطنُ نَعمانَ أن مَشَتْ * به زينبٌ فى نِسـوةٍ خَفِراتِ

(١) هكذا بالأصول . وفى الأغانى : «أخذتها» .
(٢) كذا بالأغانى . وفى الأصل : «مقيمة» . (٣) زيادة يقتضيها السياق .
(٤) اسم واد بمكة . (٥) فى الكامل للبرد (ص ٢٩٠ طبع أوربا) ورد هذا البيت هكذا :
يخبئن أطراف البنان من التقى * ويخرجن شطر الليل معتجرات

— وزينبُ هذه هي زينب بنت يوسف الثَّقفيّ أختُ الحجّاج، وكان النميريُّ يهواها ويُشبّب بها، وله معها أخبارٌ يطول شرحُها ليس هذا موضع إيرادها — قال : فقالت له عائشة لما أنشدها هذا الشعر : والله ما قلتَ إلا جميلا، ولا وصفتَ إلا كرما وطِيبًا ودينا وتُقًى، أعْطوه ألف درهم . فلما كانت الجمعةُ الأخرى تعرّض لها، فقالت : عليّ به ؛ فجاء فقالت له : أنشدني من شعرك في زينب ؛ قال : فأُنشِدُكِ من قول الحارث فيك . فوثب مواليها إليه ، فقالت : دعوه فإنه أراد أن يَستقيد لابنة عمّه، هات؛ فأنشدها :

ظَعَن الأميرُ بأحسنِ الخَلْقِ * وغدا بلبّـك مَطْلَع الشرقِ
وتَنُـوء تُثقِلها عجِـيزتُها * نهضَ الضعيف ينوء بالوَسْق
ما صبّحت زوجًا بطلعتها * إلا غدا بكواكب الطَّلْقِ
بيضاءُ من تَيْم كَلِفتُ بها * هذا الجنونُ وليس بالعِشقِ

فقالت : والله ما ذكر إلا جميلا ، ذكر أني إذا صبّحتُ زوجا بوجهي غدا بكواكب الطَّلْق ، وأني غدوتُ مع أمير تزوّجني الى الشرق ، أعطوه ألف درهم واكسوه حُلّتين ولا تَعُد لإتيانا يانميريّ؛ والله أعلم [ولنرجع إلى أخبار المغنين] (1) .

ذكر أخبار محمد بن عائشة

يكنى أبا جعفر ولم يكن له أبٌ يعرف فنُسِب الى أمه ؛ وكان يزعم أن اسم أبيه جعفر . وعائشة أمه مولاةٌ لكَثِير بن الصَّلْت الكِنديّ حليف قريش، وقيل: هي مولاة لآل المطلب بن [أبي] (2) وَداعة السَّهْمي . وقال ابن عائشة — وقد سأله

---

(١) هذه الزيادة في إحدى النسخ .

(٢) الزيادة عن الأغاني (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

الوليد بن يزيد فقال : يا محمد ألبِغيَة أنت؟ — : كانت أمى يا أمير المؤمنين ماشطةً[1] وكنت غلاما، وكانت إذا دخلت إلى موضع قالت: ارفعوا هذا لابن عائشة[2]، فغلبت على نسبى . قالوا : وكان ابن عائشة يفتن كلَّ من سمعه ، وكان فتيان [من][3] المدينة قد فسدوا فى زمانه بمحادثته ومجالسته . وأخذ عن معبد ومالك بن أبى السَّمْح، ولم يموتا حتى ساواهما على تقديمه لهما واعترافه بفضلهما . وكان تيّاهًا سيئ الخُلُق ، إن قال له إنسان : تغنَّ قال : ألمثلى يقال هـذا ! فإن غنّى وقال له إنسان : أحسنت، سكت ؛ فكان قليلا ما يُنتفع به .

وكان ابن عائشة مُنْقطعًا إلى الحسن بن الحسن، وكان الحسن مُكْرِمًا له . فسأله الحسن أن يخرج معه إلى البُغَيْبِغة[4] ، فامتنع ابنُ عائشة؛ فأقسم عليه وأظهر الجِدّ . فلما عاين ما ظهر عليه قال: أَخرُج طائعا لا كارها؛ فأمر له ببغلة فركبها ومَضَيا الى البُغَيْبِغة، فنزلا الشِّعبَ ثم أكلوا. وقال له : غنِّنى، فاندفع فغنّاه صوتا فاستحسنه . فقال ابن عائشة : والله لا غنّيتُك فى يومى هـذا شيئا . فأقسم الحسنُ ألّا يفارقَ البغيبغةَ ثلاثةَ أيام . فاغتمّ ابن عائشة ليمينه ونَدِم . فلما كان فى اليوم الثانى قال له : غَنِّ فقد برّت يمينُك؛ فنظر إلى ناقةٍ تَقْدُم جماعةَ إبلٍ فاندفع يغنّى :

تَمُــرّ بجَنْــدلةِ المنجنيـ * ـقِ يُرْمَى بها السُّورُ يومَ القتال

وهى أبيات لأميّة بن أبى عائذ الهذلىّ يصف حمارا وحشيًّا؛ والبيت «يمر» بالياء.

وقيل: سال العقيق مرّةً فدخل عَرْصَةَ سعيد بن العاص [الماء][5] حتى ملأها،

(١) فى الأصل بعد هذه العبارة : «وقال» وهى مكررة مع قوله : «وقال ابن عائشة» .

(٢) رواية الأغانى (ج ٢ ص ٦٢) «قالوا» .

(٣) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٣ طبع دار الكتب المصرية) .

(٤) ضيعة بالمدينة أو عين غزيرة كثيرة النخل لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما فى القاموس.

(٥) الزيادة عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٥ طبع دار الكتب المصرية) .

فخرج الناس إليها ، وخرج آبن عائشة فجلس على قرن البئر . فبينا هم كذلك إذ طلع الحسن على بغلة ومعه غلامانِ أسودانِ، فقال لهما : امضيا رويدا حتى تقفا بأصل القرْن الذى عليه آبنُ عائشة، ففعلا ذلك. ثم ناداه الحسن: كيف أصبحْتَ يابن عائشة قال : بخير . قال : آنظر مَنْ تحتك، فنظر فإذا العَبْدانِ. قال : أتعرفهما ؟ قال نعم. قال : فهما حُرّانِ لئن لم تُغَنِّنى مائة صوت لآمرنّهما بطَرْحك فى البئر، وهما حُرّان لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما[1]. فآندفع آبن عائشة وغنّى بشعر الهُذَلىّ :

ألَا للهِ دَرّك مِنْ * فتًى قومٍ إذا رَهِبوا
وقالوا مَنْ فتًى للحر * ب يَرْقُبنا ويَرْتَقِب[2]
فكنتَ فتاهمُ فيها * إذا تُدْعَى لها تَثِبُ
ذكرتُ أخى فعاودنى * صُداعُ الرأس والوَصَبُ
كما يَعتادُ ذاتَ البـوِّ * بعد سلوّها الطَّرَبُ
على عبد بن زُهْرَةَ بتُّ * طول الليل أنتحبُ

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه إلى حمّاد الراوية :

أن الوليد بن يزيد آستقدمه من العراق إلى الشأم على دَوابّ البريد . وكان ممّا حكاه عنه قال : قدِمتُ عليه فأذِن لى، فدخلتُ فإذا هو على سريرٍ مُمَهّد وعليه ثوبانِ أصفرانِ وعنده معبدٌ ومالك بن أبى السَّمْح وأبو كامل مولاه، فآستنشدنى :

* أمِن المنونِ وريْبِها[3] تتوجّعُ *

---

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٦) وفى الأصل : « فهما أحرار إن لم تغن مائة صوت لآمرهما بطرحك فى البئر وهما حران ان لم يفعلا إن لم أقطع أيديهما » .

(٢) فى الأصل : « فترتقب » والتصحيح عن الأغانى وديوان الهذليين .

(٣) ويروى : « وريبه » وكلاهما صحيح، لأن المنون يذكر ويؤنث .

فأنشدتُه حتى أتيتُ على آخرها . ثم قال : يا مالك، غنّى :

ألاَ هل هاجك الأظعا * نُ إذ جاوزن مُطّلَحا

فغنّاه . ثم قال : غنّى :

جَـــلاَ أميــةُ عنّى كلَّ مَظْلِمةٍ * سهلَ الحجاب وأوفى بالذى وعَدَا

٥ فغنّاه . ثم قال : غنّى :

أتنْسى(١) إذ تُودِّعُنـا سُلَيْمى * بِفرعِ بَشَامةٍ، سُقِى البَشامُ !

فغنّاه، ثم أتاه الحاجبُ فقــال : يا أمير المؤمنيـن ، الرجلُ الذى طلبت بالباب، فأْذِن له فدخل شابٌّ لم أرَ أحسنَ وجهًا منه . فقال له : غنِّى :

وهى إذ ذاك عليهـا مِئْزرٌ * ولها بيتُ جَوارٍ مِن لُعَب

١٠ فغنّاه، فنبذ إليه الثوبين، ثم قال : غنِّى :

طاف الخيالُ فمرحبا * ألفًـا برؤية زينبـا

فغضب معبدٌ وقال : يا أمير المؤمنيـن ، إنّا مُقْبِلون عليك بأقْدارنا وأسناننا و إنك تركتنا بمَزْجَر الكلب وأقبلتَ على هذا الصبيّ . فقال : يا أبا عبّاد، ما جهِلتُ قدرَك ولا سنَّك، ولكن هذا الغلام طَرحنى فى مثل الطَّنَاجير من حَرارة غنائه . قال حمّاد :

١٥ فسألت عن الغلام فقيل لى : هو ٱبن عائشة .

وحُكِى عن شـيخ من تَنُوخ قال : كنتُ صاحبَ سِتْرِ الوليد بن يزيد، فرأيت ٱبن عائشة عنده وقد غنّاه :

إنى رأيتُ صبيحةَ النَّفْـر * حُورًا تَفَـيْن عزيمةَ الصبرِ

مثلَ الكواكب فى مطالعها * بعد العِشاء أطفن بالبـدرِ

٢٠ (١) رواية اللسان : «أتذكر» بدل «أتنسى» . وروى بوجه آخر والشعر لجرير :

* أتذكر يوم تصقل عارضيها *

وخرجتُ أبغِى الأجرَ مُحتسِبا * فرجَعتُ موفورًا من الوِزْرِ

فطرب الوليد حتى كفر وألحد، وقال : ياغلام، آسقِنا بالسماء السابعة[1]، ثم قال : أحسنتَ والله يا أميرى، أعِد بحقّ عبد الشمس فأعاد، ثم قال : أحسنت يا أميرى والله، أعِد بحق أميّة فأعاد، ثم قال : أعِد بحق فلان حتى بلغ من الملوك نفسَــه، فقال : أعِدْ بحياتى فأعاده ، فقام فأكبّ عليه ، فلم يَبْق عضوٌ من أعضائه إلّا قبّله، ثم نَزَع ثيابه فألقاها عليــه وبقى مجرّدا إلى أن أتَوْه بمثلها ، ووهب له ألف دينــار وحَمَــله على بغلة وقال : آركبها بأبى أنتَ وآنصرِفْ، فقد تركتَنى على مثل المِقْلَى من حرارة غنائك . فركبها على بساطه وآنصرف .

وحُكِى أيضا أن آبن عائشة آنصرف من عند الوليد وقد غنّاه :

أبعــدَكَ مَعقِلًا أرجو وحِصنًا * قَدَ آعيتَنى[2] المعــاقلُ والحصونُ

فأمر له بثلاثيـــن ألف درهم وبمثــل كارَةِ القصّار[3] كسوةً . فبينا آبن عائشة يسير إذ نظر إليه رجلٌ من أهل وادى القُرى، وكان يَشتهى الغناءَ ويشرب النبيذَ، فقال لغلامه : مَن هــذا الراكب ؟ قال : آبنُ عائشة المغنّى ، فدنا منه فقــال : جُعِلت فِداءك ! أنتَ آبن عائشة أمّ المؤمنين؟ قال : لا أنا مولًى لقريش وعائشةُ أمى، وحسبُك هذا . قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المــال والكُسْوة؟ قال : غنّيتُ أمير المؤمنين صوتا فأطربه فكفَر وترك الصــلاةَ وأمر لى بهذا المــال وهذه الكسوة . قال : جُعلتُ فداءك ! فهل تَمُــنّ علىّ أن تُسمعَنى ما أسمعتَه إيّاه ؟ فقال : ويلك !

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٦ طبع دار الكتب المصرية) : « الرابعة » .

(٢) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٢٧) . وفى الأصل : « وراعتنى » .

(٣) القصار هو الذى يحوّر الثياب ويدقها . والكارة : ما يحمله من الثياب . قال صاحب اللسان : وسميت بذلك لأنه يكوّر ثيابه فى ثوب واحد ويحملها فيكون بعضها على بعض .

أمثلى يُكلّم بهذا فى الطريق! قال: فما أصنع؟ قال: ٱلحقنى بالباب . وحرّك ٱبنُ عائشة بغلته لينقطعَ عنه، فعدا معه حتى وافيا الباب كفَرَسَىْ رِهانٍ . ودخل ٱبنُ عائشةَ (١١٥) فمكث طويلا طمعًا ان يضجَرَ فينصرفَ، فلم يفعل حتى أعياه . فقال لغلامه : أَدخِله، فلما دخل، قال له : ويلك ! مِن أين صبّك اللهُ علىّ! قال : أنا رجل من أهل وادى القُرى أشتهى هذا الغناءَ . فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه؟ قال : وما ذاك؟ قال : مائتا دينار وعشرةُ أثواب تنصرفُ بها الى أهلك . فقال له : جُعِلتُ فداءك! والله إن لى بُنيّةً ما فى أُذنها — علم الله — حَلْقةٌ من الوَرِق فضلا عن الذهب، وإن لى زوجةً ما عليها — شهد الله — قميصٌ، ولو أعطيتَنى جميعَ ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الحالة والفقر اللذين عرَّفتُكهما وأضعفتَ لى هذا لكان الصوتُ أعجبَ إلىّ . فتعجّب ٱبن عائشة وغنّاه الصوت، فجعل يحرّك رأسه ويطرَب له طرباً شديدا حتى ظنّ أن عنقَه ستنقصف، ثم خرج من عنده ولم يرْزَأه شيئا . وبلغ الخبرُ الوليدَ بن يزيد، فسأل ٱبنَ عائشة عنه، فجعل يغيب عن الحديث، فلم يزل به حتى صدَقَه الحديثَ ، فطلب الرجلَ، فطُلِب حتى أُحضِر إليه ووصله صِلةً سنيّةً وجعله من ندمائه ووكّله بالسَّقْى، فلم يزل معه حتى قُتل رحمه الله .

وعن علىّ بن الجهم الشاعر قال : حدّثنى رجل أن ٱبن عائشة كان واقفا بالموسِم مُهَجِّرا[1] . فمرّ به بعضُ أصحابه فقال : ما يُقيمك هاهنا؟ قال : إنى أعرف رجلا لو تكلم لحبس الناسَ هاهنا فلم يذهب أحدٌ ولم يجئ . فقال له الرجل : ومن ذاك ؟ قال : أنا ؛ ثم ٱندفع يغنّى :

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أجيزِى * نوًى مشمولةً فمتى اللّقاءُ
بنفسى مَن تذكُّره سَقَامٌ * أُعَانِيه ومَطْلَبُه عناءُ

(١) فى الأغانى (ج ٢ ص ٢٠٨ طبع دار الكتب المصرية) : «مشيرا» .

قال : فحبس النــاسَ وآضــطربت المحاملُ ومدّت الإبلُ أعناقَها، فكادت الفتنة أن تقع . فأُتِى به هِشام بن عبد الملك، فقال له : ياعدوّالله! أردتَ أن تَفتِنَ الناسَ! قال : فأمسك عنــه وكان تيَّاهًا ؛ فقال له هشام : أُرفُقْ بتِيهك. فقال : يَحِق لمن كانت هذه مقدرتَه على القلوب أن يكون تيّاها ! فضحك هِشامٌ وخلّى سبيله .

وآختُلِف فى وفاة آبن عائشة وسببها . فقيــل : كانت وفاتُه فى أيام هشام بن عبد الملك، وقيل: فى أيام الوليد بن يزيد وهو أشبه، لأنه قد تقدّم أنه نادم الوليدَ وغنّاه . والذى يقــول : إنه تُوفّى فى أيام هشام يزعُم أنه نادمَ الوليدَ فى أيام ولايته العهدَ . وكانت وفاتُه بذى خُشُبٍ، وهو على أميال من المدينة. قيل : كان سببُ وفاته أن الغمر بن يزيد خرج إلى الشأم؛فلما نزل قصرَ ذى خشبٍ جلس على سطحه، فغنّى آبنُ عائشــة صوتًا طرِب له الغمر، فقال : أعِدْه فأبَى، وكان لا يردّد صــوتا لسوء خُلُقه. فأمر به فطُرِح من أعلى السطح فمات. وقيل: بل قام من الليل يبول وهو سكرانُ فسقط من السطح فمات. وقيل : بل كان قد رجع من عند الوليد بن يزيد، فلما قَرُب من المدينة نزل بذى خُشُب، وكان والى المدينة إبراهيم بن هشام آلمخزومىّ وكان فى قصره هناك، فدعاه فأقام عنده ذلك اليوم. فلما أخذوا فى الشّرب أخرج المخزومىّ جوارِيَه، فنظر إلى آبن عائشة وهو يغمِز جاريةً منهنّ؛ فقال لخادمه : إذا خرج آبن عائشة يريد حاجتَه فآرْمِ به من القصر، وكانوا يشربون فى سطح القصر. فلما قام رماه الخادم فمات. وقيل: بل أقبل من الشأم فنزل بقصر ذى خُشُب فشرب فيه ثم صعِد إلى أعلى القصر فنظر إلى نسوة يمشِين فى ناحية الوادى، فقال لأصحابه: هل لكم فيهنّ ؟ فقالوا: وكيف لنا بهنّ! فلبس مُلاءةً مدلوكةً ثم قام على شُرْفة من شُرُفات القصر وتغنّى بشعر آبن أُذَيْنة :

وقد قالت لأتراب * لهــا زُهْــرٍ تلاقَيْنا

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيشُ تعالَيْنا

فأقبلن عليه، فطرِب وآستدار فسقط فمات، عفا الله تعالى عنه ورحمه. وقيل: بل مات بالمدينة. وأوّل هذه الأبيات:

(١١٦)

سُلَيْمَى أزمعت بَيْنا * وأين لقاؤُها أيْنا

٥ وقد قالت لأتْرابٍ * لها زُهْرٍ تلاقينا

تعالَيْن فقد طاب * لنا العيش تعالينا

فأقبلن إليها مُسْـ * ـرِعات يتهادينا

إلى مثل مَهاة الرمـ * ـل تكسو المجلس الزَّيْنا

إلى خَوْدٍ مُنَعَّمة * حَفَفْنَ بها وفَدَيْنا

١٠ تمنَّين مُنَاهنّ (١) * فكنّا ما تمنّينا

ذكر أخبار آبن مُحْرِز

هو مسلم، وقيل: عبد الله بن مُحْرز. ويُكْنى أبا الخطاب. مولى عبد الدار بن قُصَيّ. وكان أبوه من سَدَنة الكعبة، وأصلُه من الفرس. وكان يسكن المدينةَ مرّةً ومكة مرّةً. فكان إذا أتى المدينةَ أقام بها ثلاثة أشهر يتعلّم الضربَ من عزّة

١٥ الميلاء ثم يرجع إلى مكة فيُقيم بها ثلاثةَ أشهر. ثم شخَص إلى فارس فتعلّم ألحانَ الفرس وأخذ غناءَهم، ثم صار إلى الشأم فتعلّم ألحان الروم (٢) وأخذ غناءهم. وأسقط من ذلك مالا يُسْتحسن من غناء الفريقين ونغمهم وأخذ محاسنَها، فمزَج بعضَها ببعض وألّف منها الأغانى التى صنعها فى أشعار العرب، فأتى بما لم يُسْمع مثلُه. وكان يقال له صَنّاج العرب.

٢٠ (١) فى الأصل: «فنين». والتصويب عن الأغانى (ج ٢ ص ٢٣٧ طبع دار الكتب المصرية).

(٢) كذا فى الأغانى (ج ١ ص ٣٧٨ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «ألحان الشأم».

وقيـل : إنه أوّل من أخذ الغناء عن ٱبن مِسْجَح . وهو أوّل من غنّى بالرَّمَل وما غُنّى قبله . وكان ٱبنُ محرز قليلَ المُلَابَسة للناس، فأخمل ذلك ذكره . وأخذ أكثرَ غنائه جاريةٌ كانت لصـديق له من أهل مكة كانت تألفه فأخذه الناسُ عنهـا . ومات بعلّة الجُذام، وكان ذلك سببَ ٱمتناعه من معاشرة الخلفاء ومخالطة الناس .

وحُكِى أنه رحل إلى العراق، فلما بلغ القادسيّة لَقِيه حُنَيْنٌ فقال له : كم منّتك نفسُك من العراق ؟ قال : ألف دينار؛ قال : هذه خمسمائة دينار فخذها وٱنصرف وٱحلِف ألّا تعود؛ ففعل . فلما شاع ما فعل حنينٌ لامه أصحابُه : فقال : والله لو دخل العراق ما كان لى معه خبزٌ آكله ولأُطّرِحتُ ثم سقطتُ إلى آخر الدهر . ولم أقف من أخبار ٱبن محرز على أكثر من هذا فأُورده . والسلام .

ذكر أخبار مالك بن أبى السَّمْح

هو أبو الوليد مالك بن أبى السَّمْح . وٱسم أبى السمح جابر بن ثعلبة الطائى، وأمّه قرشيّةٌ من بنى مخزوم؛ وقيل : بل أمّ أبيه [منهم](1)؛ وقيل فيه : مالك بن أبى السمح بن سليمان . وكان أبوه منقطعًا إلى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ويتيمًا فى حِجْره أوصى به أبوه إليه . وكان مالكٌ أحولَ طويلا . وأخذ الغناءَ عن جميلة ومعبد وعمر، وأدرك الدولة العباسيّة . وكان منقطعًا إلى بنى سليمان بن علىّ، ومات فى خلافة أبى جعفر المنصـــور .

وروى الأصفهانىّ بسنده إلى الوَرْدانىّ، قال :

كان مالك بن أبى السمح المغنّى من طيّئ، فأصابتهم حُطْمة(2) فى بلادهم بالجبلين،

(1) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠١ طبع دار الكتب المصرية) .

(2) الحطمة : السنة الشديدة .

فقدمت به أمّه و بإخوة له وأخواتٍ أيتامٍ لا شيء لهم . وكان يسأل الناسَ على باب حمزة بن الزبير . وكان معبدٌ منقطعا إلى حمزة يكون عنده فى كل يوم . فسمع مالكٌ غناءَه فأعجبه واشتهاه . وكان لا يفارق باب حمزة يسمع غناءَ معبد إلى الليل ولا يطوف بالمدينة ولا يطلب من أحد شيئا ولا يَرِيم(١) موضعَه، فينصرف إلى أمه ولم يكسب شيئا فتضربه ، وهو مع ذلك يترنّم بألحان معبد فيؤدّيها نغمًا بغير لفظ . وجعل حمزةُ كلما غدا أو راح رآه ملازِما لبابه؛ فقال لغلامه يوما : أَدْخِل هذا الغلامَ إلىّ فأدخله الغلام اليه؛ فقال له حمزة : من أنت ؟ قال : غلام مِن طيّئ أصابتنا حُطْمة بالجبلين فهبطنا إليكم ومعى أمٌّ لى و إخوةٌ، و إنى لزِمتُ بابَك فسمعت من دارك صوتًا أعجبنى ولزِمت بابك من أجله . قال : فهل تعرف منه شيئا ؟ قال : أعرف لحنه كلَّه ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقًا إنك لَفَهِمٌ . ودعا بمعبد فأمره أن يغنّى صوتا فغنّاه ، ثم قال لمالك : هل تستطيع أن تقوله؟ قال نعم . قال : هاته ؛ فاندفع فغنّاه فأدّى نغمه بغير شعر(٢)، يُؤدّى مَدّاتِه ولِيّاتِه وعَطَفاتِه ونَبَراته ومتعلقاته لايَخْرِم منه حرفا . فقال لمعبد : خذ هذا الغلام إليك وخرّجه فَلَيكونَنّ له شأنٌ . قال معبد : ولِمَ أفعل ذلك؟ قال : لِتكونَ محاسنُه منسوبةً إليك وإلّا عَدَاك إلى غيرك فكانت محاسنُه منسوبةً إليه . فقال معبد: صدق الأمير، وأنا أفعل ما أمرتنى به . قال حمزة لمالك : كيف [وجدتَ](٣) مُلازمتَك لبابنا؟ قال: أرأيتَ إن قلتُ فيك غير الذى أنتَ له مستحقّ من الباطل أكنتَ ترضى بذلك ؟ قال لا . قال: وكذلك لا يسرّك أن تُحْمَد بما لم تفعل ؛ قال نعم . قال : فوالله ما شبِعت على بابك شَبْعةً قط، ولا انقلبتُ إلى أهلى منه بخير . فأمر له ولأُمّه ولإخوته بمنزل

---

(١) لا يريم : لا يبرح . (٢) فى الأصول : « شىء » والتصحيح عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٣ طبع دار الكتب المصرية) . (٣) الزيادة عن الأغانى .

وأجرى عليهـــم رِزقًا وكُسوةً وأمر لهم بخادم يخدُمهم وعبدٍ يسقِيهم المـاء، وأجلس مالكا معه فى مجالسه، وأمر معبدًا أن يطارِحه فلم يَنْشَب أن مَهر . فخرج مالك يوما فسمع آمرأة تنوح على زيادةَ الذى قتله هُدْبَةُ بن خَشْرم ـ والشعرُ لأخى زيادة ـ :

أبعدالذى بالنَّعْف نعفِ كُوَيْكِب * رهينــةَ رمسٍ ذِى تُرابٍ وجَندلِ

أُذَكَّر بالبُقيا على من أصابنى * وذلك أنّى جاهِــدٌ غــيرُ مؤتَلِي(١)

فــلا يَدْعُنِي قومِي لزيدِ بن مالكٍ * لئن لم أُعجِّلْ ضربةً أو أُعَجَّلِ

و إلّا أنَلْ ثأرى من اليوم أو غدٍ * بنِي عمّنـا فالدّهرُ ذو مُتطـوَّلِ(٢)

أنختمْ علينـا كَلْكَلَ الحرب مرّةً * فنحن مُنِيخُوها(٣) عليــكم بكَلْكَلِ

فغنّى فى هـذا الشعر لحنَين، أحدُهما نَحا فيــه نحو المرأة فى نَوحِها و رقّقه وأصلحه، والآخرُ نحا فيه نحو معبد فى غنائه . ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير، إنى قد صنعتُ غناءً فى شعرٍ سمعتُ أهلَ المدينة يُنشدونه وقد أعجبنى، فإن أذِن الأميرُ غنّيتُه . قال : هاتِ، فغنّى اللحنَ الذى نحا فيه نحو معبـدٍ، فطرب حمزة وقال : أحسنتَ ياغلام، هـذا الغِناءُ غناءُ معبـدٍ بطريقته . قال : لا تَعْجَلْ أيها الأمير وآسمع مِنّى شيئا ليس من غناء معبد ولا طريقته، فغنّاه اللحنَ الذى تشبّه فيه بنوح المرأة . فطرِب حمزةُ حتى ألقى عليه حُلّةً كانت عليه قيمتُها مائتا دينار . ودخل معبدٌ فرأى حُلّة حمزة على مالكٍ فأنكرها . وعلِم حمزةُ بذلك فأخبر معبدًا بالسبب، وأمر مالكا فغنّاه الصوتين . فغضب معبد لمّـا سمِــع الصوت الأوّل وقال : قد كرهت أن آخُذ هذا الغلام فيتعلّم غنائى فيدّعِيه

(١) فى الأغانى : « وبقياى أنى ... » وورد البيت فى اللسان (مادة « بقى ») منسوبا الى أبى القمقام الأسدى هكذا :

أذكر بالبقوى على ما أصابنى * وبقواى أنى جاهد غير مؤتلى

(٢) فى الأصول : « الدهر » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٤) .

(٣) فى الأصول : «سنخوها» . والتصويب عن الأغانى .

لنفسه . فقال حمزة : لا تَعْجَلْ وٱسمع غِناءً [صنعه] (١) ليس من شأنك ولا غنائك، وأمَرَه أن يغنّى الصوتَ الآخر فغنّاه، فأطرق معبدٌ . فقال له حمزة : والله لو ٱنفرد بهذا لضَاهَاكَ ثم تزايد على الأيام ؛ وكلما كبِر وزاد شَخُتَ أنت وٱنتقصتَ، فلأن يكون منسوبًا إليك أجملُ . فقال له معبدٌ وهو مُنْكَسِر : صدق الأمير . فأمر حمزةُ لمعبدٍ بخلعة من ثيابه وجائزة حتى سكَن وطابت نفسُه . فقام مالكٌ على رجليه وقبّل رأس معبد وقال له : ياأبا عبّاد، أساءك ما سمعتَ منى؟ والله لا أُغنّى لنفسى شيئا أبدًا ما دمتَ حيًّا! وإن غلبتنى نفسى فغنّيتُ فى شعر ٱستحسنتُه لا نسبتُه إلا إليك، فطِبْ نفسا وٱرْضَ عنّى . فقال له معبد : أتفعل هــذا وتفى به؟ قال : إى والله وأزيد . فكان مالك إذا غنّى صوتًا وسُئِل عنه قال : هذا لمعبد، ماغنّيتُ لنفسى شيئًا قط، وإنما آخذ غناءَ معبــد فأنقُلُه إلى الأشعار وأحسّنه وأزيد فيه وأنقُص منه . وحضر مالكٌ بن أبى السَّمْح عند يزيد بن عبد الملك مع معبد وٱبن عائشة فغنَّوْه، فأمر لكلّ واحد منهم بألف دينار .

وحكى عن ٱبن الكلبيّ قال : قال الوليد بن يزيد لمعبد :

قد آذَتْنِي وَلْوَلَتُك هذه، وقال لأبن عائشة : قد آذانى ٱستهلالُك هذا، فٱطلُبا لى رجلا يكون مذهبُه متوسّطا بين مَذْهبَيْكما . فقالا له : مالك بن أبى السمح؛ فكتب فى إشخاصه إليــه وسائرِ من بالحجاز من المغنّين . فلما قدِم مالك على الوليــد بن يزيد فيمن معه نزَلَ على الغَمْر بن يزيد، فأدخله على الوليد فغنّاه فلم يُعْجِبه . فلما ٱنصرف قال له الغمر : إنّ أمير المؤمنين لم يُعْجبه شىءٌ من غنائك، فقــال له : جعلنى الله فِدَاك! اطلُبْ لى الإذن عليه مرّة أخرى، فإن أعجبه شىءٌ ممّــا أغنّيه وإلا ٱنصرفتُ إلى بلادى . فلما جلس الوليد فى مجلس اللهو ذكره الغمرُ له ؛ فأذن له فشرب مالكٌ

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٥ ص ١٠٥) .

ثلاث صُرَاحِيَّاتٍ صِرْفا(١)، ودخل على الوليـد وهو يَخْطِـر فى مشيته، فلما بلغ بابَ المجلس وقف ولم يُسَلِّم وأخذ بحَلْقة الباب ثم رفع صوتَه فغنّى :

لا عيشَ إلا بمـالك بن أبى السَّمْح فـلا تَلْحَـنِى ولا تَـلُمِ
أبيضُ كالبـدر أو كما يلمع الـ * ـبارق فى حالك من الظُّلَمِ
فليس يَعصيك إن رشَدتَ ولا * يَهْتِك حقّ الإسـلامِ والحُرَمِ
يُصيبُ من لذّة الكرام ولا * يجهل آىَ الترخيص فى اللَّمَمِ
يارُبَّ ليلٍ لنـا كحاشـيةِ الـ * ـبُرْدِ ويومٍ كذاك لم يَدُمِ
نَعِمتُ فيـه ومالكَ بن أبِى السَّمحِ الكريمَ الأخلاقِ والشِّيَمِ

فطرِب الوليد ورفع يديه حتى بانَ إبطاه وقام فاعتنقه، ثم أخذ فى صوته ذلك فلم يزالوا فيه أياما، وأجزل له العطيّةَ حين أراد الانصرافَ . قال : ولمـا أتى مالكٌ على قوله : « أبيض كالبدر » قال الوليد :

أحولُ كالقِـرد أو كما يَرْقُب السّارقُ فى حالكٍ من الظُّـلَمِ

قالوا : وكان مالكُ بن أبى السمح مع الوليد بن يزيد يوم قُتِل هو وابنُ عائشةَ. قال ابن عائشة : وكان مالكٌ من أحمق الخَلْق، فلما قُتِل الوليد قال : اهْرُبْ بنا؛ قلت : وما يُريدون منّا؟ قال : وما يؤمِّنك أن يأخذوا رأسينا فيجعلوا رأسَه بينهما ليحسِّنوا أمرهم بذلك! .

ذكر أخبار يونس الكاتب

هو يونس بن سليمان بن كُرْد بن شَهْرِيار من ولد هُرْمُز(٢)، مولًى لعمرو بن الزبير، ومنشؤه ومنزلُه بالمدينة، وكان أبوه فقيهاً فأسْلَمه فى الديوان وكان من كُتّابه . وأخذ

(١) جمع صراحية وهى آنية الخمر .

(٢) فى الأغانى (ج ٤ ص ٣٩٨ طبع دار الكتب المصرية) : « وقيل : إنه مولى ... » الخ .

الغناءَ عن معبد وابن سريج وآبن مُحْرِز والغرِيض، وكان أكثرُ روايته عن معبد. ولم يكن فى أصحاب معبد أحذقُ منه ولا أقومُ بما أَخذ عنه منه . وله غناءٌ حسن، وصنعة كثيرة، وشعر جيِّد . وهو أوّل من دوّن الغناءَ . وله كتاب فى الأغانى نسبها إلى من غنّى فيها . وخرج إلى الشأم فى تجارة، فبلغ الوليدَ بن يزيد مكانُه فأحضره والوليدُ
٥ إذ ذاك ولىُّ العهد . قال : فلما وصلتُ إليه سلّمتُ عليه ، فأمرنى بالجلوس، ثم دعا بالشراب والجوارى . قال يونس: فمكثنا يومنا وليلتنا فى أمر عجيب، وغنّيتُه فأُعْجِب بغنائى إلى أن غنّيتُه :

إن يَعِش مُصْعَبٌ فنحن بخير * قـد أتانا من عيشنا ما نُرَجّى

ثم تنبهتُ فقطعتُ الصوتَ وأخذتُ أعتـذر من غنائى بشعرٍ فى مصعب ، فضحك
١٠ ثم قال : إن مُصْعَبًا قد مضى وآنقطع أثرُه ولا عداوة بينى و بينه و إنمـا أُريد الغناء، فامض الصـوتَ؛ فعُدْتُ فيه فغنّيته ولم يَزَل يَستعيده حتى أصبح فشرب مُصْطَبِحًا وهو يَستعيدنى هذا الصوت ولا يَتجاوزه . فلمـا مضت ثلاثةُ أيام قلت : جعلنى الله (١١٩) فداك إنى رجل تاجر خرجتُ مع تُجّارٍ وأخاف أن يرتحلوا فيضيع مالى، فقال : أنت تغدو غدًا ، وشرب باقى ليلته وأمر لى بثلاثة آلاف دينار . فحُمِلَتْ إلىّ وغدوتُ
١٥ إلى أصحابى . فلمـا آستُخلِف بعث إلىّ فأتيتُه فلم أزَل معه حتى قُتِل .

ذكر أخبـار حُنَيْن

هو حنين بن بَلُّوعَ الحِيرِى . وآختُلف فى نسبه ، فقيل : هو من العِبادِيّين من تَميم، وقيل : إنه من بنى الحارث بن كعب ، وقيل : إنه من قوم بَقُوا من طَسْم وجَدِيس، فنزلوا فى بنى الحارث بن كعب فعُدّوا فيهم . ويُكْنى أبا كعب . وكان
٢ شاعرًا مُغَنيًا من فحول المُغَنّين ، وكان يَسكن الحِيرةَ ويُكْرِى الجمال إلى الشأم، وكان

نَصْرانيًا. وعن المدائنىّ قال: كان حُنينٌ غلاما يَحمِل الفاكهةَ بالحِيرة، وكان إذا حمل الرياحين إلى بيوت الفتيانِ[1] ومياسيرِ أهل الكوفة وأصحاب القِيان والمُتطرّبين ورأوا رشاقته وحسنَ قدّه وحلاوته وخِفّةَ رُوحه آستحلوه وأقام عندهم، فكان يَسمع الغناءَ ويُصْغِي له، حتى شدا منه أصواتًا فآستمعه الناسُ، وكان مطبوعًا حسنَ الصوت. وآشتهر غناؤه وشُهِر بالغناء ومهَرَ فيه وبلَغ فيه مبلغا كبيرا. ثم رحل إلى عمر[2] بن داود الوَادِىّ وإلى حكم الوَادِىّ وأخذ منهما وغنّى لنفسه وآستولى على الغناء فى عصره، وهو الذى بذل لآبن مُحْرِزٍ خمسمائة دينار حتى رجع عن العراق، كما قدّمناه فى أخبار آبن محرز. وبلغ من الناس بالغناء مبلغًا عظيما، حتى قيل له فيما حُكى: إنك تغنّى منذ خمسين سنة فما تركتَ لكريم مالا ولا دارا ولا عَقارا إلا أتيتَ عليه. فقال: بأبى أنتم! إنما هى أنفاسِى أقْسِمها بين الناس، أفتلومونِى أن أُغلِي بها الثمن.

وحكى المدائنىّ قال: حجّ هشام بن عبد الملك وعديلُه الأبرش الكلبىّ، فوقف له حنينٌ بظهر الكوفة ومعه عودٌ وزامرٌ له. فلما مرّ به هشام عرَض له فقال: من هذا؟ قيـل: حنين؛ فأمر به هشام فحُمِل فى مَحْمِلٍ على جمل وعديلُه زامرُه وسيّره أمامه، فغنّاه:

أمِن سَلْمى بِظهرِ الكو * فةِ الآياتُ والطَّلَـلُ
تلوح كما تلوح عــلى * جفون الصَّيْقَلِ الخِلَـلُ

فأمر له هشام بمـائتى دينار وللزّامر بمـائة دينار.

وحُكى أن خالد بن عبد الله القَسْرىّ حرّم الغناءَ بالعراق فى أيامه ثم أذِن للناس يوما فى الدخول عليه عامّةً، فدخل عليه حنين فى جملة الناس ومعه عودٌ تحت ثيابه

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢ ص ٣٤٥ طبع دار الكتب المصرية). وفى الأصل: «بيوت القيان».
(٢) كذا فى الأغانى. وفى الأصل: «عمرو» وهو تحريف.

فقال : أصلح الله الأمير! كانت لى صِناعةٌ أعود بها على عيالى فحرّمها الأميرُ فأضرّ ذلك بى وبهم . فقال : وما كانت صِناعتُك ؟ فكشف عن عوده وقال : هذا . فقال له خالد : غَنِّ؛ فعركَ(١) أوتارَه وغنّى :

أيّها الشّامتُ المُعَيِّرُ بالدهـ * ـر أأنتَ المُبَرَّأُ الموفورُ

أم لديك العهدُ الوثيقُ من الأيـ * ـام بل أنتَ جاهلٌ مغرورُ

من رأيتَ المنونَ خَلّدن أم مَنْ * ذا عليه مِن أن يُضامَ خَفيرُ

قال : فبكى خالد وقال : قد أذِنتُ لك وحدك خاصّةً ، ولا تجالِس سفيهًا ولا مُعَربِدًا . فكان إذا دُعِى قال : أفيكم سفيه أو معربِدٌ ؟ فإذا قالوا لا ، دخل .

وقال بشر بن الحسين بن سليمان بن سَمُرة بن جُنْدب : عاش حنين بن بَلّوَع مائة سنة وسبع سنين .

ذكر أخبار سياط

هو عبد الله بن وهب ويُكْنى أبا وهب ، وسياطٌ لقب غلَب عليه . وهو مَكّىٌّ مولى خزاعة . كان مقدّمًا فى الغناء رِوايةً وصنعةً ، مقدّمًا فى الطرب . وهو أستاذ آبن جامع وإبراهيم الموصلىّ وعنه أخذا ، وأخذ هو عن يونس الكاتِبِ . وكان سياط زوج أمّ آبن جامع . قيل : وإنما لُقِّب سِياطٌ بهذا اللقبِ لأنه كان كثيرا ما يغنّى :

كأنّ مزاحفَ الحيّاتِ فيها(٢) * قُبيلَ الصبح آثارُ السّياطِ

حُكى أن إبراهيم الموصلىّ غنّى صوتا لِسياط ، فقال آبنه إسحاق : لِمَنْ هذا الغناء يا أبت ؟ قال : لِمن لو عاش ما وجد أبوك خبزا يأكله ، سياط .

---

(١) فى الأغانى : « فحرك » .

(٢) فى الأغانى (ج ٦ ص ١٥٢ طبع دار الكتب المصرية) : « فيه » .

وحكى أن سِياطا مرّ بأبى رَيْحانةَ فى يوم بارد وهو جالسٌ فى الشمس وعليه سَمَلُ ثوبٍ رقيق رثّ؛ فوثب إليه أبو ريحانة المدنىّ وقال : بأبى أنت ياأبا وهب! غَنِّنِي صوتك فى شعر آبن جُندَب :

فؤادِى رهينٌ فى هواكِ ومُهجتِى * تَذوبُ وأجفانى عليك هُمولُ

فغنّاه إياه، فشقّ قميصَه ورجع إلى موضعه من الشمس وقد آزداد بردا وجَهْدا . ٥
فقال له رجل : ما أغنى عنك هذا مِن شقّ قميصك؟! فقال: يآبن أخى، إن الشعر الحسن من المغنّى المحسِنِ ذى الصوت المطرِبِ أدفأ للقرور من حمّام مُحْمًى . فقال له رجل : أنت عندى من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ فقال : بل أنا مِمّن قال الله تعالى فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ . وقد حكيت هذه الحكاية أيضا من طريق آخر : أنّه لمّا غنّاه هذا ١٠
الصوت شقّ قميصَه حتى خرج منه وبَقِى عَارِيًا وغُشِى عليه وآجتمع الناسُ حوله، وسِياطٌ واقف يتعجّب ممّا فعل، ثم أفاق فقام إليه . فقال له سياطٌ : مالك[1] يامشئوم! أىّ شىء تريد؟ قال : غَنِّنِى بالله عليك ياسيدى :

وَدِّع أُمَامةَ حان منك رحيلُ * إنّ الوداع لمن تُحِبّ قليل
مِثل القضيب تمايَلَتْ أعطافُه * فالرّيح تَجْـذب مَتْنَه فَيَميل[2] ١٥
إن كان شأنُكم الدّلال فإنه * حسنٌ دلالكِ يا أُمَيم جميلُ

فغنّاه، فلطَم وجهه حتى خرج الدّمُ مِن أنفه ووقع صريعًا . ومضى سياطٌ وحمل الناسُ أبا ريحانة إلى الشمس . فلما أفاق قيل له فى ذلك فقال نحو ما تقدّم . قال: ووجّه إليه سياطٌ بقميص وسراويل وجبّة وعمامة .

(١) فى الأصل : « مالك أيضا » . ولا معنى لكلمة « أيضا » وهى غير موجودة فى الأغانى . ٢٠
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل :

... ... أعطافها * والريح تجذب متنها فتميل

وكانت وفاةُ سياط فى أيام موسى الهادى . ودخل عليه ٱبن جامع وقد نَزَل به الموت فقال له : ألك حاجة؟ قال: نعم لا تَزِدْ فى غنائى شيئا ولا تَنْقُص منه، فإنما هو ثمانية عشر صوتًا دَعْه رأسا برأس . وقيل : بل كانت وفاتُه فجاءةً، وذلك أنه دعاه بعض إخوانه فأتاهم وأقام عندهم وبات ؛ فأصبحوا فوجدوه ميتًا فى منزلهم ؛ فجاءوا إلى أمه وقالوا : ياهذه إنا دعونا ٱبنكِ لنُكرمه ونُسَرّ به ونأنس بقربه فمات فجأة ، وها نحن بين يديكِ ، فٱحكمى ما شئتِ ، وناشَدْناكِ الله أن [لا](١) تُعرِّضينا للسلطان أو تدّعِى علينا ما لم نفعله . قالت : ما كنتُ لأفعل، وقد صدَقتم، وهكذا مات أبوه فجأةً، وتوجّهتْ معهم فحملته إلى منزله ودفنته .

ذكر أخبار الأبجر

هو عبيد الله بن القاسم بن ضُبَيَّة(٢)، ويكنى أبا طالب . وقيل : ٱسمه محمد بن القاسم ، والأبجر لقب غلَب عليه . وهو مولى لكنانة ثم لبنى ليث بن بكر(٣) . وكان يلقّب بالحَسْحَاس . وكان مَدَنيًّا منشؤه مكة أو مكيًّا منشؤه المدينة . قال عَوْرَك اللّهبِىّ :

لم يكن بمكة أحدٌ أظرف ولا أسرى ولا أحسن هيئة من الأبجر ؛ كانت حلّتُه بمائة دينار وفرسُه بمائة دينار ومركَبُه بمائة دينار ؛ وكان يقف بين المأزِمين و يرفع عقيرته ، فيقف الناسُ له فيركب بعضُهم بعضًا . وروى الأصفهانىّ بسنده إلى إسحاق ابن إبراهيم الموصلىّ قال :

---

(١) التكلة عن الأغانى .

(٢) فى ترجمته فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٤٤ طبع دار الكتب المصرية) : « ضبية » . وورد فى بعض أصول الأغانى : « ضية » و « ضبية » .

(٣) الذى فى الأغانى « وهو مولى لكنانة ثم لبنى بكر» و يقال : إنه مولى لبنى ليث » .

جلس الأبجر فى ليلة اليوم السابع من أيام الحج على قريب من التنعيم فإذا عسكر جرار [قد أقبل](١) فى آخر الليل وفيه دوابُّ تُجْنَبُ ومنها فرس أدهمُ عليه سرجٌ حليته ذهَب، فاندفع يغنّى :

عرَفتُ ديارَ الحىّ خاليةً قفْرا * كأن بها لمّا توهّمتُها سطرا

فلما سمعه من فى القِباب والمحامل أمسكوا وصاح صائحٌ : ويحك أعِدِ الصوتَ ! فقال : لا والله إلا بالفرس الأدهم بسَرْجه ولجامه وأربعمائة دينار؛ وإذا الوليد بن يزيد صاحبُ العسكر. فنُودِى : أين منزلُك؟ ومن أنتَ؟ فقال : أنا الأبجرُ، ومنزلى على زُقاق باب الخرّازين(٢) . فغدا عليه رسولُ الوليد بذلك الفرس وأربعمائة دينار وتخت ثياب وَشْيٍ وغير ذلك، ثم أُتِى به الوليدُ، فأقام وراح مع أصحابه عشيّةَ التَّرْوِية وهو أحسنُهم هيئة، وخرج معه أو بعده إلى الشأم .

وحكى عن عمرو بن حفص بن أُمّ كلاب(٣)، قال :

كان الأبجرُ مولانا وكان مكيًّا، وكان إذا قدم من مكة نزل علينا . فقال لنا يوما : أسمِعونا غناء ابن عائشتكم هذا ؛ فأرسلنا إليه فجمعنا بينهما فى بيت ابن هبّار . فغنّى ابن عائشة ؛ فقال الأبجرُ : كلُّ مملوكٍ له حرّ إن غنّيت معك إلا بنصف صوتى، ثم أدخل إصبعه فى شِدْقِهِ وغنّى فسمع صوتَه من فى السوق ، فحشر الناس علينا، فلم يفترِقا حتى تشاتما .

ذكر أخبار أبى زيد الدَّلَال

هو أبو زيد ناقدٌ مَدَنِيٌّ، مولى عائشة بنت سعيد بن العاص، وكان مُخنّثا .

قال إسحاق :

(١) الزيادة عن الأغانى . (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « الجزارين » . وهو تصحيف . (٣) الذى فى الأغانى : « عن عمر بن حفص بن أبى كلاب » .

لم يكن فى المخنّثين أحسن وجهًا ولا أنظف ثوبًا ولا أظرف من الدَّلَال . قالوا : ولم يكن بعد طُوَيْس أظرف منه ولا أكثر مُلَحًا . وكان كثيرَ النوادر نَزْرَ الحديث، فإذا تكلم أضحك الثّكالى ، وكان ضاحكَ السنّ ، ولم يكن يغنّى إلّا غنـاءً مُضَعَّفًا (يعنى كثير العمل) .

٥ وقال أيوب بن عَبَاية :

شهدتُ أهلَ المدينـة إذا ذكروا الدَّلَال وأحاديثَه طوّلوا رقابَهـم وفخروا به، فعلمتُ أن ذلك لفضيلةٍ كانت عنده . قالوا : وكان مُبْتَلًى بالنّساء والكونِ معهنّ، فكان يُطلَب فلا يُقْدَر عليه . وكان صحيحَ الغناء حسنَ الجِرْم . قالوا : وإنما لُقّب بالدّلال لشكله وحسن ظَرْفه ودلّه وحلاوةِ مَنْطقه وحسنِ وجهه . وكان مشغوفًا

١٠ بمخالطة النساء يُكثر وصفهنّ للرجال . وكان يُشاغِل كلَّ من يجالسه عن الغنـاء بأحاديث النساء كراهةً منه للغناء . وكان إذا غنّى أجاد ، كما حكاه ٱبن المـاجشُون عن أبيه قال : غنّانى الدّلالُ يوما بشـعر مجنون بنى عامر، فلقد خِفْتُ الفتنةَ على نفسى . وٱستحضره سليمانُ بن عبد الملك من المدينـة سرًّا وغنّاه وأقام عنده شهرا ثم صرفه إلى الحجاز مكرما .

١٥ قال الأصمعىّ :

حجّ هشامُ بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة نزل رجلٌ من أشراف أهل الشأم وقوّادِهم بجَنْب دارِ الدّلال، فكان الشامىُّ يَسمع غنـاءَ الدلال ويُصغى إليه ويصعَـد فوق السطح لِيقرب من الصوت، ثم بعث إلى الدّلال: إمّا أن تزورنا وإمّا أن نزورَك . فبعث إليه الدّلالُ بل تزورنا . فبعث الشامىّ مايَصْلُح ومضى إليه بغلامين من غِلمانه

٢٠ كأنهما دُرّتان مكنونتان . فغنّاه الدّلالُ ، فٱستحسن الشامىُّ غناءَه فقال : زِدْنى؛ قال : أوَ ما يكفيك ما سمعتَ ! قال : لا والله ما يَكفينى . قال : فإنّ لى حاجة .

قال : وما هِى ؟ قال : تَبيعنى أحدَ هذين الغلامين أوكليهما ، فقال : آخْتَرْ أيَّهما شئت ، فآختار أحدهما ، فقال له الشامىّ : هو لك ؛ فقبِله منه الدّلالُ ، ثم غنّاه وغنّى :

دَعَتْنى دَواعٍ مِن أَرَيّا فهيّجتْ * هوًى كان قِدْمًا مِن فؤاد طَروبِ

لعل زمانًا قد مضى[(1)] أن يعودَ لى * فتغفِرَ أرْوَى عند ذاك ذنوبى

سَبَتْنِى أُرَيّا يوم نَعْفِ مُحَسِّرٍ * بوجهٍ جميلٍ للقلوب سَلُوبِ

فقال له الشامىّ : أحسنتَ . ثم قال له : أيّها الرجل الجميلُ ، إن لى [إليك] حاجةً ، قال الدّلال : وما هى ؟ قال : أُريد وصيفةً وِلدتْ فى حِجْر صالح ونشأت فى خير ، جميلةَ الوجه مجدولةً وضيئةً جَعْدةً فى بياض مُشْرَبةً حُمْرةً حسنةَ الهامةِ سَبْطةً أسيلةَ الخدّ عذبةَ اللّسان لها شِكْلٌ [ودلٌّ][(1)] تملأ العين والنفس . فقال له الدّلال : قد أصبتُها لك ، فما لى عندك إن دللتُك عليها ؟ قال : غلامى هذا . قال : إذا رأيتَها وقبِلتها فالغلام لى ؟ قال نعم . قال : فأتى آمرأةً كَنَّى عن آسمها ، فقال لها : جُعِلتُ فِداءكِ ! نزل بقربى رجلٌ مِن قوّاد هشام ، له ظَرْف وسخاءٌ ، وجاءنى زائرا فأكرمتُه ، ورأيتُ معه غلامين كأنهما الشمسُ الطالعة المنيرة والكواكب الزاهرة ما وقعتْ عيني على مثلِهما ولا يطول لسانى بوصفهما ، فوهب لى أحدَهما والآخرُ عنده ، وإن لم يَصِرْ إلىّ فنفسى ذاهبةٌ . قالت : وتُريد ما ذا ؟ قال : طلب منى وصيفةً على صِفةٍ لا أعلمها إلا فى آبنتِك ، فهل لك أن تُرِيه إيّاها ؟ قالت : وكيف لك بأن يَدْفع الغلام إليك إذا رآها ؟ قال : إنى قد شرطتُ عليه ذلك عند النظر لا عند البيع . قالت : شأنَك ، لا يعلم هذا أحد . فمضى الدّلال وأتى بالشامىّ . فلما صار إلى المرأة وُضِع له كرسىٌّ وجلس . فقالت له المرأة : أمِن العرب أنتَ ؟ قال نعم . قالت :

(1) كذا فى الأغانى (ج ٤ ص ٢٨٧ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصل : «لعل زمانا الرضا» .

مِن أيّهم ؟ قال : مِن خُزاعة . قالت : مرحبا بك وأهلا ! أىّ شىء طلبتَ ؟
فوصف لها الصِّفةَ . قالت : قد أصبتَها ، وأسرّت إلى جارية لها فدخلتْ فمكثت
هنيهة ثم خرجت فنظرت فقالت : أخرجى ، فخرجت وصيفةٌ ما رأى [الراءون] (١)
مثلَها . فقالت لها : أقْبِلى فأقبلتْ ، ثم قالت : أدْبِرى فأدبرت تملأ العينَ والنفسَ ،
٥ فما بَقِى منها شىء إلا وضَع يدَه عليه . فقالت له : أتحبّ أن نؤزِّرَها لك؟ قال نعم .
قالت : ٱئتزِرى ، فضمّها الإزارُ وظهرت محاسنها الخفيّة ، فضرب بيده إلى عَجِيزتها
وصدرِها . ثم قالت : أتحب أن نجرّدها لك ؟ قال نعم . قالت : [أى حبيبتى] (١)
وضِّحى ، فألقت الإزارَ فإذا أحسنُ خَلق الله كأنها سبيكةٌ . فقالت : ياأخا العرب ،
كيف رأيتَ ؟ قال : منيةُ المتمنّى . قال : بِكم تقولين ؟ قالت : ليس يوم النظر
١٠ يوم البيع ، ولكن تعود غدًا حتى نُبايعك فلا تنصرف إلا عن رضًا ، فٱنصرف من
عندها . فقال له الدّلالُ : أرضِيتَ؟ قال : نعم ، ما كنتُ أحسب أن مثل هذه
فى الدنيا ، وإن الصفة لَتَقْصُر دونها ، ثم دفع إليه الغلامَ الثانى . فلما كان من الغَدِ
قال له الشامىّ : ٱمض بنا . فمضيا حتى قرعا البابَ ، فأُذِن لهما فدخلا فسلّما ، فرحّبت
المرأة بهما ثم قالت للشامىّ : أعطِنا ما تبْذُل ؛ فقال : ما لها عندى ثمنٌ إلا وهى
١٥ أكثرُ منه ، فقولى أنت يا أمَةَ الله . قالت : بل قل أنتَ ، فإنا لم نُوطئك أعقابَنا ونحن
نُريد خِلافَك وأنت لها رضًا . قال : ثلاثة آلاف [دينار] (١) . قالت : والله لقبلةٌ منها
خيرٌ من ثلاثة آلاف [دينار] (١) . قال : أربعة آلاف [دينار] (١) . قالت : غفر الله لك
أعطِنا أيّها الرجل . قال : والله مامعى غيرها — ولو كان لزدتُك — إلا رقيقٌ ودوابّ .
قالت : ما أراك إلا صادقًا ، أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : تُخبِرينى . قالت : هذه

(١) الزيادة عن الأغانى .

آبتي فلانة بنت فلان وأنا فلانة بنت فلان، قم راشدًا . فقال للدّلال : خدَعْتني.
قال : أوَ ما تَرْضى أن تَرى ما رأيتَ من مثلها وتَهَبُ مائة غلام مثل غلامك ؟ قال:
أمّا هذا فنعم . وخرجا من عندها .

والدّلال أحدُ من خُصِيَ من المخنّثين بالمدينة لمّـا أمر سليمانُ بن عبد الملك عامله
على المدينة أبا بكربن عمرو بن حَزْم بِخَصْيِهم . ٥

ذكر أخبار عَطَرَّد

هو أبوهارون عطرّد،(١) مولى الأنصار [ثم مولى](٢) بنى عمرو بن عوف، وقيل :
إنه مولى مُزَيْنَـة . مدنىٌّ كان ينزِل قُباء . وكان جميـلَ الوجه حسنَ الغناء طيِّبَ
الصوت جيِّد الصنعة حسنَ الزىّ والمروءة فقيهـًا قارئًا للقرآن . وقيل : إنه كان
مُعَدَّل الشهـادة بالمدينة . وأدرك دولةَ بنى أميّة و بقِى إلى أوّل أيام الرشيد. وكان ١٠
يغنّى مرتَجلا .

وحكى أبو الفرج الأصفهانىّ بسند رفعه قال :

لـمّا آستُخْلِف الوليدُ بن يزيد كتب إلى عامله بالمدينة فأمره بإشخاص عَطَرّدٍ
المغنّى إليه، ففعل . قال عَطرّدُ : فدخلتُ على الوليد وهو جالسٌ فى قصره على شَفِير
بركة مُرَصَّصة مملوءة خمرا ليست بالكبيرة ولكنّها يدور الرجلُ فيها [سِباحةً](٢). قال : ١٥
فوالله ما تركنى أسلِّم حتى قال : أعَطَرّد؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين. قال : مازلتُ
إليك مشتاقًا يا أبا هارون، غنِّنى :

(١) كذا فى الأغانى (ج ٣ ص ٣٠٣ طبع دار الكتب المصرية) وسيأتى قريبا . وفى الأصل هنا :
«أبو مروان» وهو تحريف .

(٢) الزيادة عن الأغانى . ٢٠

حيّا الحمولَ بجانب العزْل(١) * إذ لا يشاكل شكلُها شكلى
الله أنجحُ ما طلبت به * والبرُّ خير حقيبة الرَّحْلِ
إنى بحبلك واصلٌ حبلى * وبريش نَبْلك رائشٌ نَبْلى
وشمائلى ما قد علِمتِ وما * نبحتْ كلابُك طارقًا مثلى

٥ قال : فغنّيتُه إياه ، فوالله ما أتممتُه حتى شقّ حُلّة وَشْى كانت عليه لا أدرى كم قيمتُها ، فتجرّد منها كما ولدته أمّه، وألقى نفسه فى البركة فنَهِل منها حتى تبيّنتُ أنها قد نقصت نقصانًا بيّنا ،وأُخرِج منها وهو كالميت سكرا ، فأُضْجِع وغُطّى ،فأخذت الحُلّة وقمتُ وآنصرفتُ إلى منزلى متعجّبًا من فعله . فلما كان فى غد، جاءنى رسولُه فى مثل الوقت فأحضرنى . فلما دخلتُ عليه قال : يا عَطَرّد ! قلت : لبَّيْك

١٠ يا أمير المؤمنين ! قال : غنِّى :

أيذهب عمرى هكذا لم أَنَلْ به * مجالسَ تَشْفِى قَرْحَ قلبى من الوجدِ
وقالوا تَدَاوَ إنّ فى الطبّ راحةً * فعلّلتُ نفسى بالدواء فلم يُجْدِ

فغنّيتُه إيّاه،فشقّ حُلّة وَشْى كانت تَلْمَع عليه بالذهب احتقرتُ والله الأولى عندها ، ثم أَلقى نفسه فى البركة فنَهِل منها حتى تبيّنتُ نُقصانها وأُخرِج كالميت سكرا ، فأُلْقِىَ

١٥ وغُطّى ونام، وأخذتُ الحُلّة وآنصرفت . فلما كان اليوم الثالث، جاءنى رسولُه فدخلت إليه وهو فى بَهْو قد أُلقيتْ ستورُه، فكلّمنى من وراء الستور وقال : يا عطَرّد ! قلت : لبَّيْك يا أمير المؤمنين ! قال : كأنى بك الآن قد أتيتَ إلى المدينة فقمتَ فى مجالسها وقعدتَ وقلتَ : دعانى أميرُ المؤمنين فدخلتُ عليه فآقترح علىّ فغنّيتُه فأطربتُه فشقّ ثيابَه وأخذتُ سَلَبه وفعل وفعل ! ووالله يآبن الزّانية إن

٢٠ تحرّكت شَفَتاك بشىء مما جرى لأَضرِبَنّ عُنُقَك يا غلام أعطِه ألف دينار، خذها

(١) هو ماء بين البصرة واليمامة .

وانصرف إلى المدينـــة . فقلتُ : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذَن لى فى تقبيل يده ويزوّدنى نظرة منه وأغنّيه صوتًا ! فقال: لاحاجةَ بى ولا بك إلى ذلك، فآنصرفْ. قال عطَرَّد : فخرجتُ من عنده وما علم الله أنّى ذكرتُ شيئا ممـا جرى حتى مضت من دولة بنى هاشم مدّةٌ . ودخل عطرّد على المهدىّ وغنّاه . قيـل : ودخل على الرشيد وغنّاه . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . ٥

ذكر أخبـار عمر الوادىّ

هو عمر بن داود بن زَاذَان . وجَدُّه زاذان مولى عمرو بن عثمان بن عفّـان . وأخذ الغناءَ عن حكم، وقيل : بل أخذ حكمٌ عنـه . وهو من أهل وادى القُرى . قدم الحَرَم وأخذ من غناء أهله لحِذق وصنع فأجاد . وكان طيّبَ الصـوت شجيًّا مُطْرِبا . وهو أوّل من غنّى من أهل وادى القُرى، وآتصل بالوليد بن يزيد فى أيام ١٠ إمارته فتقدّم عنده جدًّا، وكان يسمّيه « جامع لذّاتى ومُحْيى طربى » . وقُتِل الوليدُ وهو يغنّيه، وكان آخرَ الناس به عهدًا . قال : وكان يجتمع مع معبد ومالك بن أبى السَّمْح وغيرهما من المُغنّين عند الوليد بن يزيد، فلا يمنعه حضورُهم من تقديمه والإصغاءِ إليه والآختصاص به . وفى عمر هذا يقول الوليدُ بن يزيد :

إنمـا فكّرتُ فى عُمَـــرِ * حين قال القولَ واختلجا ١٥
إنه لَلْمُسْتَنِيـــرُ بـــه * قمرٌ قـد طمّس السُّرُجا
ويغنّى الشـــعرَ ينْظِمه * ســيّدُ القوم الذى فَلَجا
أكمل الوادىُّ صــنعته * فى كتاب الشـعر فاندمجا

أراد الوليد بن يزيد بقوله : « سيّدَ القوم » نفسَه .

ذكر أخبار حكم الوادىّ

هو أبو يحيى الحكم بن ميمون، وقيل : الحكم بن يحيى بن ميمون، مولى الوليد بن عبد الملك، كان أبوه حلّاقا[1] يحلق رأس الوليد، فآشتراه فأعتقه . وكان حكمٌ طويلا أحولَ، يُكْرى الجمال يَنْقُل [عليها][2] الزيت من الشام إلى المدينة. وقيل : كان أصلُه من الفُرس . وكان واحدَ عصره فى الحِذْق، وكان يغنّى بالدُّفّ ويغنّى مرتجلا. وعُمِّر عمرا طويلا، غنّى الوليدَ بن عبد الملك، وغنّى الرشيدَ، ومات فى الشَّطر من خلافته.

وأخذ الغناء عن عمر الوادىّ، وقد قيل : إن عمر أخذ عنه . قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى : أربعةٌ بلَغت فى أربعة أجناس من الغناء مبلغًا قصّر عنه غيرهم : «معبدٌ» فى الثقيل، و«ابن سريج» فى الرَّمل، و«حكم» فى الهَزَج، و«إبراهيم» فى الماخُورىّ.

قال أبو الفرج الأصفهانىّ : وزار حكمٌ الوادىّ الرشيدَ، فبرّه ووصله بثلثمائة ألف درهم، وخيّره فيمن يكتُب له بها عليه، فقال: آكتب لى بها على إبراهيم بن المهدىّ — وكان إبراهيم إذ ذاك عاملا له بالشأم — فقدِم عليه حكمٌ بكتاب الرشيد، فأعطاه ما كتَب له به، ووصلَه بمثل ذلك، إلّا أنه نقَصه ألف درهم من الثلثمائة ألف، وقال له : لا أَصِلُك بمثل ما وصلَك أمير المؤمنين . قال إبراهيم بن المهدىّ : وأقام عندى ثلاثين يومًا أخذت عنه فيها ثلثمائة صوت، كلُّ صوت أحبُّ إلىّ من الثلثمائة ألف التى وهبتُها له . وقيل: إنه لم يَشْتهِر بالغناء حتى صار إلى بنى العبّاس، فآنقطع إلى محمد بن أبى العباس، وذلك فى خلافة المنصور، فأُعْجِب به وآختاره على المغنّين وأعجبته أهزاجُه. وكان يقال: إنه أهزجُ الناس . ويقال: إنه غنّى الأهزاجَ فى آخر عمره، فلامه ابنُه على ذلك وقال : أَبعدَ الكِبَر تغنّى غناءَ المخنّثين! فقال له : اسكت

(١) كذا فى الأغانى (ج ٦ ص ٢٨٠ طبع دار الكتب المصرية) . وفى الأصلين : «غلاما» .

(٢) الزيادة من الأغانى .

فإنّك جاهل، غنّيتُ [الثقيل](١) ستين سنة فلم أَنَلْ إلا القوت، وغنّيتُ الأهزاجَ منذ سنتين فكَسَبْتُك ما لم تر مثله قطّ . والله أعلم .

ذكر أخبار ابن جامع

هو أبو القاسم إسماعيل بن جامع بن عبد الله بن المطلب بن أبى وَدَاعَة ابن صُبَيْرة بن سهم بن هُصَيْص بن كعب بن لُؤَىّ . قالوا : وكان ابنُ جامع من أحفظِ خلق الله لكتاب الله تعالى، كان يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة فيصلّى الصبح ثم يَصُفُّ قدميْه حتى تَطْلُع الشمس، فلا يصلّى الناسُ الجمعةَ حتى يختم القرآنَ ثم ينصرف إلى منزله. وكان حسنَ السَّمْت، كثيرَ الصلاة . وكان يعتمّ بعمامة سوداء على قَلَنْسوة ويلبس لباسَ الفقهاء ويركب حمارًا مَرِّيسيًّا(٢) فى زىّ أهل الحجاز . ورُوى عنه أنه قال : لولا أن القِمارَ وحبَّ الكلاب قد شغَلانى لتركتُ المغنّين لا يأكلون الخبزَ . قال ابن جامع : أخذتُ من الرشيد ببيتين غنّيتُه إياهما عشرةَ آلاف دينار . قالوا : وكان إبراهيمُ بن المهدىّ يفضّل ابنَ جامع فلا يقدّم عليه أحدا. قال: وكان ابن جامع مُنقطِعًا إلى موسى الهادى فى أيام أبيه، فضربه المهدىّ وطردَه. فلما مات المهدىّ بعث الفضلُ بن الربيع إلى مكة فأحضر ابنَ جامع فى قُبّة ولم يُعلِم به أحدا. فذكره موسى الهادى ذاتَ ليلةٍ فقال لجلسائه : أمَا فيكم أحدٌ يُرسل إلى ابن جامع وقد عرفتم مَوْقِعَه منى؟ فقال الفضل بن الربيع : هو والله عندى ياأمير المؤمنين وأحضره إليه . فوَصَل الفضلَ فى تلك الليلة بعشرة آلاف دينار وولّاه حِجابتَه .

(١) التكملة عن الأغانى .

(٢) فى الأصول : «مرمسا» والتصويب عن الأغانى (ج ٦ ص ٢٩١ طبع دار الكتب المصرية). والمريسىّ : نسبة الى مريس وهى أدنى بلاد النوبة التى تلى أرض أسوان ، وهى معروفة بجودة الحمير .

وحُكى أنه دخل على الهادى فغنّاه فلم يُعجبه ، فقال له الفضلُ : تركتَ الخفيفَ وغنّيتَ الثقيل . قال : فأدخلنى عليه أُخرى فأدخله ، فغنّاه الخفيفَ ، فأعطاه ثلاثين ألف دينار . قال أحمد بن يحيى المكىّ : كان ٱبن جامع أحسنَ ما يكون غناءً إذا حزِن . وأحبّ الرشيدُ أن يَسمع ذلك ، فقال للفضل بن الربيع : ابْعَثْ بخريطة فيها نَعْىُ أمّ ٱبن جامع — وكان برًّا بأمّه — ففعل . فقال الرشيد : يٱبن جامع ، فى هذه الخريطة نَعْىُ أمّك ؛ فٱندفع ٱبن جامع يغنّى بتلك الحُرْقة والحزن الذى فى قلبه :

كم بالدروب وأرض السِّنْد من قدَم ⁽¹⁾ * ومن جماجم صَرْعى ما بها قُبِروا
بقُندهارَ ⁽²⁾ ومن تُكْتَبْ منيّتُه * بقُندهارَ يُرَجّمْ دونه الخبرُ

قال : فوالله ما ملكنا أنفسنا ، ورأيت الغلمانَ يضربون برءوسهم الحيطانَ والأساطين ، وأمر له الرشيدُ بعشرة آلاف دينار .

وروى أبو الفرج بسنده إلى عبد الله بن علىّ بن عيسى بن ماهان قال : سمعتُ يزيد يحدّث عن أمّ جعفر أنه بلغها أنّ الرشيد جالسٌ وحده وليس معه أحد من الندماء ولا المسامرين ، فأرسلت إليه : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى لم أرَكَ منذ ثلاث وهذا اليومُ الرابع . فأرسل إليها : عندى ٱبنُ جامع . فأرسلتْ إليه : أنتَ تعلم أنى لا أتهنّا بشرب ولا سماعٍ ولا غيرهما إلا أن تُشركَنى فيه ، ما كان عليك أن أُشْرِكَك فى هذا الذى أنتَ فيه ! فأرسل إليها : إنى صائرٌ إليكِ الساعة . ثم قام وأخذ بيد ٱبن جامع وقال للخادم : امضِ إليها وأعلمها أنّى قد جئت . وأقبل الرشيد ؛ فلما نظر

(١) فى الأغانى : « وأرض الروم » . وورد هذا البيت فى معجم البلدان لياقوت عند الكلام على « قندرهار » هكذا :

كم بالجروم وأرض الهند من قدم * ومن سرابيل قتلى ليتهم قبروا

(٢) جاء فى معجم البلدان : أنها مدينة من بلاد السند أو الهند مشهورة فى الفتوح .

إلى الخدم والوصائف قد آستقبلوه علم أنّها قد قامت تستقبله؛ فوجّه إليها : إن معي آبن جامع، فعدَلت إلى بعض المقاصير . وجاء الرشيدُ وصيّر آبنَ جامع في بعض المواضع التي يُسمع منه فيها، ثم أمر آبن جامع فآندفع يغنّي :

ما رَعَدَتْ رَعْدَةً ولا بَرَقَتْ * لكنها أَنشئت لنا خَلِقَهْ[1]

اَلمـاءُ يَجْرِي ولا نِظَامَ له[2] * لو يجد المـاءُ مَخْرِقًا خَرَقَهْ

بِتنـا وباتت على نَمارِقها * حتى بدا الصبح عينُها أَرِقَهْ

أنْ قيل إن الرحيل بعد غدٍ * والدّار بعـد الجميع مُفْتَرِقه

فقالت أمّ جعفر للرشيد : ما أحسنَ ما آشتهيتَ والله يا أمير المؤمنـين ! ثم قالت لمسلم خادمها : اِدْفع إلى آبن جامع بكل بيت مائة ألف درهم . فقـال الرّشيد : غَلَبتِينا يآبنة أبي الفضل وسبقتِينا إلى برّ ضيفنا وجليسنا. فلما خرج حَمَل الرشيدُ إليها مكان كل درهم دينارا .

ذكر أخبار عمرو بن أبي الكَنَّات[3]

(١٢٥)

قال أبو الفرج الأصفهانيّ : هو أبو عثمان، وقيـل : أبو معاذ عمرو بن أبي الكَنَّات، مولى بني جُمَح . وهو مكيٌّ مُغَنٍّ حسنُ الصوت، من طبقة آبن جامع وأصحابه . وفيه يقول الشاعر :

أحسنُ الناسِ فآعلموه غناءً * رجلٌ من بني أبي الكَنَّاتِ

---

(١) يقال : نشأت لهم سحابة خلقة وخليقة أي فيها أثر المطر .

(٢) في بعض أصول الأغاني : «على نظام له» .

(٣) في الأصول : «الكبات» بالباء الموحدة بدل النون وهكذا ورد في هذا الفصل كله . والمثبت هنا هو ما ورد في الأغاني (ج ١٨ ص ١٢٦ طبع بولاق وما بعدها الى آخر الترجمة) .

قال محمد بن عبد الله بن فَرْوة : قلت لإسماعيل بن جامع يومًا : هل غلَبك أحدٌ من المغنّين قط؟ قال : نعم، كنتُ ليلة ببغداد إذ جاءنى رسولُ أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمرنى بالرّكوب، فركبتُ حتى صرتُ إلى الدار، فإذا أنا بالفضل بن الربيع ومعه زَلْزَل العوّاد وبَرْصوما؛ فسلّمت وجلست يسيرا . فطلع خادمٌ فقال للفضل : هل جاء؟ قال لا . قال : فابعث إليه. ولم يزل المغنّون يدخلون واحدًا واحدًا حتى كنّا ستّةً أو سبعةً . ثم طلَع الخادم فقال : هل جاء ؟ فقال لا ؛ فقال : قم فابعثْ فى طلبه؛ فقام فغاب غيرَ طويلٍ فإذا هو قد جاء بعمرو بن أبى الكَنّات . فسلّم وجلس إلى جَنْبى، فقال لى : مَنْ هؤلاء ؟ قلتُ: مُغَنّون، هذا «زلزلٌ» وهذا «برصوما» . فقـال : لأُغَنِّيَنَّك غناءً يخرق هـذا السقف وتجيبه الحيطانُ . ثم طلع الخَصِىّ فدعا بكراسىّ، وخرج الجَوارى. فلما جلسن قال الخادم : شُدّوا فشدّوا عيدانَهم؛ ثم قال: يغنّى آبنُ جامع ، فغنّيت سبعة أو ثمانية أصوات؛ قال : آسكت ، وليغنِّ إبراهيم الموصلىّ؛ فغنّى مثل ذلك أو دونه ثم سكتَ، وغنّى القوم كلُّهم واحدا بعد واحد حتى فَرَغوا . ثم قال لآبن أبى الكَنّات : غَنِّ ؛ فقال لزلزل : شُدّ طبقتك فشَدّ ؛ ثم قال له : شُدّ فشَدّ ، ثم أخذ العودَ من يَده بجَسّه حتى وقف على الموضع الذى يريده ، ثم قال : على هـذا . وآبتدأ الصوت الذى أوّلُه « ألالا »؛ فوالله لقد خُيِّل إلىّ أن الحيطان تجاوبه؛ ثم رجّع النّغمةَ فيه؛ فطلع الخصىّ فقال : آسكت لا تُتِمّ الصوتَ فسكت . ثم قال : يجلس عمرو بن أبى الكَنّات وينصرف سائرُ المغنّـين ؛ فقمنا بأسوأ حال وأكسف بال ، ولا والله ما زال كلُّ واحد منّا يسأل صاحبَـه عن كلّ ما يرويه من الغناء الذى أوّلُه « ألالا » طمَعًا فى أن يعرفه وأن يوافقَ غناءَه فما عرَفه منا أحدٌ . وبات عمرو عند الرشيد ليلتَه وآنصرف من عنده بجوائزَ وصِلاتٍ وطُرَفٍ سنيّة .

وقال موسى بن أبى المهاجر: خرج آبن جامع وآبن أبى الكنّات حين دفَع الإمامُ[1] من عرفة ، حتى إذا كانوا بين المأْزِمَيْن جلس عمرو على طَرَف الجبل ثم آندفع يغنّى، فركب الناسُ بعضُهم بعضًا حتى صاحوا به وآستغاثوا : يا هذا ، اللهَ اللهَ ! أُسكُتْ عنا يَجُزِ الناسُ؛ فضبط آبن جامع بيده على فِيه حتى مضى الناسُ إلى مُزْدَلِفة .

قال علىّ بن الجهم : حدّثنى من أثِق به قال : واقفتُ آبنَ أبى الكنّات على جسر بغداد أيام الرشيد فحدّثتُه بحديث آتّصل بى عن آبن عائشة أنه وقف فى الموسم فى أيام هشام، فمرّ به بعضُ أصحابه فقال : ما تصنع؟ فقال : إنى لأعرف رجلا لو تكلم لحبَس الناسَ فلم يَذْهَب منهم أحدٌ ولم يَجِئْ. فقلت له[2] : من هذا الرجل؟ قال: أنا، ثم آندفع فغنّى فحبَس الناسَ، فآضطربت المحامل ومدّت الإبلُ أعناقَها . فقال آبن أبى الكنّات وكان مُعْجَبا بنفسه : أنا أفعل كما فعـل وقدرتى على القلوب أكثرُ من قدرته . ثم آندفع فغنّى الصوت الذى غنّى فيه آبن عائشة، وهو :

جَرَتْ سُنُحًا فقلت لها أَجِيزِى * نَوًى مشمولةً فمـتى اللقـاءُ

بنفسى مَنْ تذكُّرُه سَـقَامٌ * أُعالجـه ومطلبُـه عنـاءُ

قال : فغنّاه، وكنّا إذ ذاك على جسر بغداد، وكان على دجلة ثلاثةُ جسور ، فآنقطعت الطُّرقُ وآمتلأت الجسورُ بالناس فآزدحموا عليها وآضطربت حتى خيف عليها أن تنقطع لِثقَل من عليها من الناس . فأُخذ فأُتِى به الرشيد ، فقال له : ياعدوّ الله ، أردت أن تَفْتِن النـاس ! قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكنّه بلغنى أن آبن عائشة فعل مثل هذا فى أيام هشام، فأحببتُ أن يكون فى أيامك مثله . فأعجبه ذلك،

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق) : « حين دفعا من عرفة حتّى اذا كانا » .

(٢) كذا فى الأصل والأغانى . وكان مقتضى السياق أن يكون : « فقال له » : اذ مرجع الضمير بعض أصحابه الذى مرّ به .

وأمر له بمال وأمره أن يغنّى فغنّى؛ فسمِع شيئا لم يَسْمَع مثله، فآحتبسه عنده شهرا يَستزيده، وكلّ يوم يُستأذَن له فى الآنصراف فلا يأذَن له حتى تمّم شهرا، وآنصرف بأموال جسيمة .

وقال عثمان بن موسى : كنّا على شَراب يوما ومعنا عمرو بن أبى الكنّات إذ قال لنا قبل طلوع الشمس: مَنْ تحبّون أن يَجيئكم ؟ قلنا : منصور الحَجَبىّ . فقال: ٥ أمهلوا حتى يكونَ الوقتُ الذى يَنْحدِر فيه إلى سوق البقر . فمكثنا ساعةً ثم آندفع يغنّى :

أحسنُ النـاسِ فأعلموه غِنـاءً * رجلٌ من بنى أبى الكنّاتِ
عَفَتِ الدّارُ فالهِضابُ اللّواتى * بينَ ثَوْرٍ(1) فملتقى عَرَفَاتِ

١٠ فلم نلبث أن رأينا منصوراً من بُعْد قد أقبل يركُضُ دابّتَه نحونا . فلما جلس (١٣٦) إلينا قلت له : من أين علِمتَ بنا ؟ قال : سمعتُ صوت عمرو وأنا فى سوق البقر، فخرجت أركض دابّتى حتى صِرتُ إليكم . قال : و بيننا و بين ذلك الموضع ثلاثةُ أميال .

وقال يحيى بن يَعْلَى بن سعيد : بينا أنا ليلةً فى منزلى فى الرَّمْضَة بأسفل مكة، ١٥ إذ سمعتُ صوت عمرو بن أبى الكنّات كأنّه معى ، فأمرتُ الغلامَ فأسرج لى دابّتى وخرجت أُريده، فلم أزل أتبع الصوتَ حتى وجدتُه جالسًا على الكثيب العارضِ ببطن عرفة يغنّى :

خُذِى العَفْوَ منّى تَستديمى مَودّتى * ولا تَنْطِقى فى سَوْرتى حين أغضَبُ

(١) فى الأغانى (ج ١٨ ص ١٢٧ طبع بولاق) : * بسوار فلتقى عرفات *
٢٠ وثور : جبل بمكة فيه الغار الذى اختفى فيه النبى صلى الله عليه وسلم . وأما سوار فمن قرى البحرين . (انظر ياقوت ج ١ ص ٩٣٨ وج ٣ ص ١٨٠) .

ولا تَنْقُرِينِي نَقْــرةَ الدّفّ مرّةً * فإنّكِ لا تدرين كيف المُغَيَّبُ
فإنى رأيتُ الحبَّ فى الصدر والأذى * إذا اجتمعا لم يَلْبثِ الحب يذهب

ذكر أخبار أبى المُهَنَّأ مُخارِق

هو أبو المُهَنَّأ مخارِق بن يحيى بن ناووس الجزّار مولى الرشيد . وقيل : بل ناووس لقبُ أبيه يحيى؛ وإنما لُقّب بناووس لأنه بايع رجلا أنه يمضى إلى ناووس الكوفة فيطبخ فيه قِدْرا بالليل حتى تَنْضَجَ، فطرح رهنَه بذلك؛ فدسّ الرجل الذى راهنَه رجلا فألقى نفسَه فى الناووس بين الموتى . فلما فرغ ناووس من الطبخ مدّ الرجلُ يدَه من بين الموتى وقال له : أطْعِمنى؛ فغرف بالمغرفة من المَرَق وصبّها فى يد الرجل فأحرقها وضربها بالمغرفة وقال له : اصْــبِر حتى نُطْعِمَ الأحياء أوّلا ثم نتفرّغ للموتى؛ فلُقِّب ناووسًا لذلك .

قال : وكان مخارقٌ لعاتكة بنت شهدة، وهى من المغنّيات المُحْسنات المتقدّمات فى الضرب . نشأ مخارقٌ بالمدينة؛ وقيل : كان منشؤه بالكوفة . وكان أبوه جزّارًا مملوكا ، وكان مخارقٌ وهو صبىّ ينادى على ما يبيعه أبوه من اللحم . فلما بان طِيبُ صوته علّمته مولاتُه طَرَفًا من الغناء ، ثم أرادت بيعَه، فاشتراه إبراهيم الموصلىّ منها وأهداه للفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه . وقيل : اشتراه إبراهيم من مولاته بثلاثين ألف درهم وزادها ثلاثة آلاف درهم . قال : ولمــا اشتراه قال له الفضل بن يحيى : ما خبرُ غلام بلَغنى أنك اشتريتَه ؟ فقال : هو ما بَلَغك . قال : فأَرِنيه ، فأحضره ، فغنّى بين يديه؛ فقال له : ما أرى فيه الذى رأيتَ. قال: تريد أن يكون فى الغناء مثلى فى ساعةٍ واحدةٍ ! فقال : بكم تَبِيعُه؟ قال : اشتريتُه بثلاثين ألف درهم، وهو حرّ لوجه الله تعالى إن بعتُه إلا بثلاثة وثلاثين ألف دينار . فغضب

الفضل وقال : إنما أردتَ ألّا تبيعه أو تجعلَه سببا لأن تأخذ منّى ثلاثة وثلاثين ألف دينار . فقال إبراهيم : أنا أصنع بك خَصْلة واحدة، أبيعك نصفه بنصف هذا المال وأكون شريكَك فى نصفه [وأُعلّمه][1]، فإن أعجبك إذا علمتَه أتممتَ لى باقى المال وإلا بعتُه بعدُ، وكان الرّبحُ بينى و بينك . فقال الفضلُ : إنما أردتَ أن تأخذ منّى المالَ الذى قدّمتَ ذكرَه، فلما لم تَقْدِرْ على ذلك أردتَ أن تأخذ نصفَه، وغضِب . فقال إبراهيم له : فأنا أَهَبُه لك على أنه يساوى ثلاثة وثلاثين ألف دينار ؛ قال : قد قبلتُه ؛ قال : وقد وهبتُه لك . وغدا إبراهيم على الرشيد ؛ فقال له : يا إبراهيم، ما غلامٌ بلغنى أنك وهبتَه للفضل ؟ قال : غلام يا أمير المؤمنين لم تَمْلك العربُ ولا العجمُ مثلَه ، ولا يكون مثلُه أبدا . قال : فوجّه إلى الفضل يأمره بإحضاره . فوجّه به إليه، فغنّى بين يديه ؛ فقال له : كم يُساوِى ؟ قال إبراهيم : يساوى خراجَ مصر وضِياعَها . قال : ويحك ! أتدرى ما تقول ! مبلغُ هذا المال كذا وكذا ! قال : وما مِقدارُ هذا المال فى غلام لم يَمْلِك أحدٌ مثلَه قطُّ ! قال : فالتفت الرشيدُ إلى مسرور الكبير وقال : قد عرفتَ يمينى أنى لا أسأل أحدًا من البرامكة شيئا . فقال مسرور : فأنا أمضى إلى الفضل فأستوهبه منه، فإذا كان عندى فهو عندك . فقال له : شأنَك . فمضى مسرور إلى الفضل واستوهبه منه ، فوهبه له . وقيل : بل إبراهيمُ هو الذى أهداه للرشيد ؛ فأمره الرشيدُ بتعليمه فعلّمه حتى بلَغ ما بلَغه . قال : وكان مُخارقٌ يقف بين يدى الرشيد مع الغِلمان لا يجلس و يغنّى وهو واقف . فغنّى ابنُ جامع ذاتَ يوم بين يدى الرشيد :

كأنّ نيرانَنا[2] فى جَنْب قلعتِهم * مُصَبَّغاتٌ على أرسانِ قَصّار[3]

---

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٢) . (٢) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٢) : «نيرانها» . (٣) القصار (كالقصر) : المحوّر للثياب .

هَوَتْ هِرَقْلَةُ لمّا أن رأتْ عجبًا * جوائمًا[1] تَرْتمى بالنِّفط والنّـار

فطرِب الرشيد وآستعاده مرارًا ؛ وهو شعر مُدِح به الرشيدُ فى فتح هِرَقْلة . فأقبل الرشيد على آبن جامع دون غيره . فغمز مخارِقٌ إبراهيمَ بعينه وتقدّمه إلى الخلاء، فلما جاء قال له : مالى أراك مُنكسِرًا ؟ فقال له : أمَا تَرى إقبالَ أمير المؤمنـين على آبن جامع بسبب هذا الصوت! فقال مخارقٌ : قد والله أخذتُه . فقـال : ويحك! إنه الرشيد ، وآبنُ جامع من تَعْـلَم، ولا يُمكن معارضته إلا بما يزيد على غنائه وإلا فهو الموت ! فقال: دعنى وخَلاكَ ذَمٌّ ،وعَرِّفه أنّى أُغَنّى به ، فإن أحسنتُ فإليك يُنْسَب ، وإن أسأتُ فإلىّ يعود . فقال إبراهيم للرشيد : يا أمير المؤمنين، أراك مُتعجِّبًا من هذا الصوت بغير ما يستحقّه وأكثر مما يستوجبه !فقال : لقد أحسن فيه آبن جامع ما شاء . قال : أوَ لآبنِ جامع هو؟ قال : نعم، كذا ذكَر . قال : فإنّ عبدَك مخارقًا يغنّيه . فنظر إلى مخارق؛ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : هاتِه؛ فغنّاه وتحفّظ فيه فأتى بالعجائب ، وطرِب الرشيدُ حتى كاد يطير؛ ثم أقبل على آبن جامع فقال : ويلك! ما هذا ؟ فآبتدأ يحلِف بالطلاق وكلِّ مُحْرِجة أنه لم يسمع ذلك الصوتَ قطّ من غيره وأنه صنَعه وأنها حيلةٌ جَرتْ عليه . فأقبل على إبراهيم وقال : أُصْدُقْنى بحياتى ؛ فصدَقه عن قصّة مخارق . فقال لمخـارق : اجلس إذًا مع أصحابك ، فقد تجاوزتَ مرتبةَ من يقوم . وأعتقه ووصلَه بثلاثة آلاف دينار وأقطعه ضَيْعةً ومنزلا .

وقد روى أبو الفرج الأصفهانىّ عن هارون بن مخارق ، قال : كان أبى إذا غنّى هذا الصوت :

يارَبْعَ سلمى لقد هيّجتَ لى طَرَبا * زدتَ الفؤادَ على عِلاّته وَصَبا
رَبْعٌ تبدّل ممن كانــ يسكنه * عُفْرَ الظباء وظُلمانًا به عُصَبا

(١) فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٣) : «حوائما» .

يبكى ويقول : أنا مولى هذا الصوت . فقلت له : كيف يا أبت؟ فقال : غنّيتُه مولاى الرشيد ، فبكى وشرب عليه رطلا ثم قال : أحسنتَ يا مخارق ! فسلْنى حاجتَك؛ فقلت : تُعْتِقُنى يا أمير المؤمنين أعتقك الله من النار؛ فقال : أنت حرّ لوجه الله تعالى، فأعِدِ الصوتَ فأعدتُه؛ فبكى وشرب رطلا، ثم قال : أحسنتَ يا مخارق! فسلنى حاجتَك؛ فقلتُ : ضَيْعةٌ تُقيمنى غَلَّتُها[1]؛ فقال : قد أمرتُ لك بها، أعِدِ الصوتَ فأعدتُه ؛ فبكى وقال : سل حاجتَك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين، تأمر لى بمنزل وفرسٍ وخادمٍ؛ فقال: ذلك لك، أعِدِ الصوت فأعدتُه ؛فبكى وقال: سل حاجتَك؛ فقبّلتُ الأرضَ بين يديه وقلت : حاجتى أن يُطيل اللهُ بقاءَك ويُديم عزَّك ويجعلنى من كل سوءٍ فداءك؛ فأنا مولى هذا الصوت بعد مولاى .

ويُروى أيضا عن الحسين بن الضحّاك عن مُخارق أنّ الرشيد قال يوما للمغنّين وهو مصطبح : مَن منكم يغنّى :

* يا ربعَ سَلْمى لقد هيَّجْت لى طربا *

فقمتُ وقلت: أنا يا أمير المؤمنين . فقال : هاتِه؛ فغنّيتُه فطرِب وشرب ثم قال : علىّ بِهرْثَمَةَ؛ فقلت فى نفسى : ماذا يريد منه! فجاء هرثمةُ فقال له : مخارق الشّارىّ الذى قتلناه بنواحى المَوْصِل ما كانت كنيتُه؟ فقال : أبو المُهَنّا؛ فقال : انصرِفْ فانصرف؛ ثم أقبل الرشيد علىّ فقال : قد كنّيتُك أبا المهنّا لإحسانك ؛ وأمر لى بمائة ألف درهم؛ فانصرفتُ بها وبالكُنْية .

قال أبو عبد الله بن حمدون : كنّا عند الواثق وأمّه عليلةٌ. فلما صلّى المغربَ دخل إليها وأمر ألا نبرحَ، فجلسنا فى صَحْن الدار ، وكانت ليلةٌ مقمرةٌ وأبطأ الواثقُ علينا ؛ فاندفع مخارق يغنّى، فاجتمع علينا الغِلْمان،وخرج الواثقُ فصاح : يا غلام،فلم يُجِبْه

(١) كذا فى الأغانى (ج ٢١ ص ٢٢٤) . وفى الأصل : «عليها» وهو تصحيف .

أحد، ومشى فى المجلس الى أن توسّط الدارَ، فلمـا رأيتُه بادرتُ إليه، فقال لى : ويلك ! هل حدَث فى دارى شىءٌ؟ فقلتُ : لا ياسيِّدى . قال : فما بالى أَصيح فلا أُجاب ؟ فقلت : مخارق يغنّى والغِلْمان قد اجتمعوا اليــه فليس فيهم فَضْلٌ لسماع غير ما يسمعونه . فقال : عذرٌ والله لهم يآبن حمدون وأىّ عذر! ثم جلس وجلسنا بين يديه الى السَّحَر . وقد رُوِى نحو هــذه الحكاية فى أمر الغِلْمان مع مخارق عند المعتصم . وقال محمد بن عبد الملك الزيّات : قال لى الواثق : ما غنّانى مخارق قط إلا قَدَرت أنه من قلبى خُلِق . وكان يقول : أتُريدون أن تنظروا فضلَ مخارق على جميع أصحابه؟ أنظروا الى هؤلاء الغِلْمان الذين يقفون فى السِّماط، فكانوا يتفقّدونهم وهم وقوفٌ فكلّهم يسمع الغناء من المغنّين جميعا وهو واقفٌ مكانه ضابطٌ لنفسه، فاذا تغنّى مخارق خرجوا عن صُوَرِهم فتحرّكت أرجلُهم ومناكبُهم و بانت أسـبابُ الطرب فيهم، وآزدحموا على الحبل الذى يقفونُ من ورائه .

وحكى أنّه خرج مرّة الى باب الكُناسة بمدينة السلام والناسُ يرحلون الى مكة، فنظر إلى كثرتهم وآزدحامهم ، فقــال لأصحابه الذين معــه : قد جاء فى الخبر أنّ آبن سريج كان يغنّى فى أيام الحجّ والناسُ يمشون فيستوقفهم بغِنائه، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس وأستلهيهم جميعًا لتعلموا أنّه لم يكن لِيَفْضُلَنى إلّا بصنعته دون صوته؛ ثم اندفع يؤذّن، فآستوقف أولئـك الخلْق واستلهاهم، حتى جعلت المحـاملُ يَغْشَى بعضُها بعضًا .

قالوا : وجاء أبو العتاهية الى باب مخارق وطَرَقه فخرج اليه؛ فقال له : ياحُسّان هذا الإقليم، ياحكيمَ أرض بابل، أُصْبُبْ فى أذنى شيئا يفرَح به قلبى وتنَعّم به نفسى — وكان فى جماعة منهم محمد بن سعيد اليَزيدىّ — فقال : أنزِلوا ، فنزلوا ، فغنّاهم . فقال محمد بن سعيد : فكدتُ أسعى على وجهى طربًا . قال : وجعل أبو العتاهية

يبكى، ثم قال : يادواءَ المجانين، لقد رَقَقتَ حتى كِدتُ أن أحْسُوك، فلو كان الغناء طعامًا لكان غناؤك أُدْما، ولو كان شرابًا لكان ماءَ الحياة .

وقال أبو الفرج عن عمر بن شبّة قال : حدّثنى بعض آل نُوبَخت قال : كان أبى وعبد الله بن أبى سهل وجماعةٌ من آل نوبخت وغيرُهم وقوفا بكُناسة الدّوابّ فى الجانب الغربىّ ببغداد يتحدّثون، وإنهم لكذلك إذ أقبل مخارقٌ على حمار أسود وعليه قميصٌ رقيقٌ ورداءٌ مُسَهَّم، فقال : فيم كنتم ؟ فأخبروه. فقال : دعونا من وَسْواسِكم هذا، أىُّ شىء لى عليكم إن رميتُ بنفسى بين قبرين من هذه القبور وغطّيتُ وجهى وغنّيت صوتا فلم يَبْقَ أحد بهذه الكُناسة ولا فى الطريق من مُشْتَرٍ ولا بائع ولا صادرٍ ولا وارد إلا ترك عمله وقَرُب منّى واتّبع صوتى؟ فقال عبد الله : إنى لأُحبّ أن أرى هذا، فقل ماشئتَ. فقال مخارق: فرسَك الأشقرَ الذى طلبتُه منك فمنعتَنيه. قال : هو لك إن فعلتَ ماقلتَ . قال : فرمى بنفسه بين قبرين وتغطّى بردائه، ثم آندفع يغنّى بشعر أبى العتاهية :

نادَتْ بوَشْكِ رحيلِكَ الأيّامُ * أفلستَ تسمَعُ أم بك آسْتِصْمامُ
ومضى أمامك مَنْ رأيتَ وأنتَ لل * باقين حتى يلحقوك أمامُ
مالى أراك كأنّ عينَك لا ترى * عِبَرًا تمرّ كأنهنّ سِهامُ
تمضى الخطوبُ وأنتَ منتبهٌ لها * فإذا مضت فكأنها أحلامُ

قال : فرأيتُ الناس يأتون إلى المَقْبُرة أَرْسالا بين راكبٍ وراجل وصاحب شغل ومارّ فى الطريق حتى لم يَبْقَ أحد. ثم قال لنا من تحت ردائه : هل بقى أحدٌ؟ قلنا : لا، وقد وجَب الرّهن . فقام فركب حماره، وعاد الناسُ إلى صنائعهم، وقال لعبد الله : أحضِرِ الفرس، قال : على أن تُقيم عندى، قال نعم ! فسلّم الفرس إليه وبرّه وأحسن رِفْدَه .

ورُوِى عن يحيى المكىّ قال : خرج مخارِقٌ مع بعض إخوانه إلى بعض المُتنزَّهات ، فنظر إلى قوس مُذْهَبة مع بعض من خرج معـه ، فسأله إيّاها ، وكان المسئولُ ضَنّ بها ، وسنحت ظِباءٌ بالقرب منه ، فقال لصاحب القوس : أرأيتَ إن تغنّيتُ صوتا فعطَفتْ علىّ به خدودُ هـذه الظباء أتدفع إلىّ القوسَ ؟ قال نعم ! فاندفع يغـنّى :

ماذا تقول الظبـاءُ * أفُـرْقَةٌ أم لِقاءُ
أم عهدُها بسُلَيْمى * وفى البيـان شِـفاء
مرّت بناسانِحاتٍ * وقد دنا الإمساءُ
فمـا أحارَتْ جوابا * وطال فيهـا العَناءُ

قال : فعطَفتِ الظباءُ راجعةً إليـه حتى وقفت بالقرب منـه تنظر إليه مُصْغِيةً إلى صوته . فعجِب من حضَر من رجوعها ووقوفها ، وناولَه الرجلُ القوسَ ، فأخذها وقطع الغناء [فعاودت الظباء نِفارَها ومضت راجعةً على سَنَنها][1] .

ورُوِى عن إسحـاق بن إبراهيم قال : دخلت على أبى وهو جالسٌ بين بابين له ومخارقٌ بين يديه وهو يغنّيه :

يا ربعَ بِشْرةَ إن أضرّ بكَ البِلَى * فلقد رأيتُـك آهِلًا معمورا

قال : فرأيتُ أبى ودموعُه تجرى على خدّيه من أربعةِ أماكن وهو يَنْشِج أحرّ نشيج . فلمـا رآنى قال : يا إسحاق ، هذا والله صاحبُ اللّواء غدًا إن مات أبوك.

ورُوِى عن مخارق قال : رأيتُ وأنا حَدَثٌ كأنّ شيخا جالسا على سرير فى روضة حسنة ، فدعانى فقال لى : غنِّنى يا مخارق ، فقلت : أصوتًا تقترحه أو ماحضَر ؟ فقال : ماحضَر . فغنّيتُه :

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٧) .

دَعِى القلبَ لا يَزْدَدْ خَبَالًا مع الذى * به منكِ أو داوِى جَوَاهُ المُكَتَّما

وليس بترويق اللسان وصَوْغه * ولكنّه قد خالط اللَّحمَ والدّما

فقال لى : أحسنتَ يا مخارق ! ثم أخذ وترًا من أوتار العود فلفّه على المِضْراب ودفعه الىّ ، فجعل المِضرابُ يطول و يغلُظ والوتر ينتشر و يَعْرُض حتى صار المِضرابُ كالرمح والوتر كالعَذَبة [عليه] (١) وصار فى يدى علمًا ، ثم انتبهت فحدّثت برؤياى إبراهيم الموصلىّ ؛ فقال لى : الشيخ بلا شك إبليسُ ، وقد عقَد لواء صنعتك فانتَ ما حييتَ رئيسُ أهلها .

وقال أحمد بن حمدون : غضِب المعتصمُ على مخارق فأمر أن يُجْعَل فى المؤذّنين ويَلْزمهم ففُعِل ذلك ؛ وأُمْهِل حتى علِم أن المعتصم يشرب ، فأذّنت العصر ، فدخل الى السِّتر حيث يقف المؤذِّنُ للسلام ، ثم رفع صوته جهدَه وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمةُ الله وبركاته ، الصلاةَ يرحمك الله . فبكى حتى جرت دموعُه وبكى كلُّ من حضر ، ثم قال : أدْخِلوه علىّ وأقبل علينا ؛ ثم قال : سمعتم هكذا قط ! هذا الشيطانُ لا يترك أحدًا يغضب عليه ! . فدخل اليه فقبّل الأرض بين يديه ؛ فدعاه المعتصم اليه فأعطاه يَده فقبّلها وأمَره بإحضار عوده فأُحْضِره ، وأعاده الى مَرْتَبته .
وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه منها كفاية . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المتوكّل ؛ وقيل : بل فى آخر خلافة الواثق . وغنّى خمسةً من الخلفاء : الرشيدَ والأمينَ والمأمونَ والمعتصمَ والواثقَ . رحمهم الله تعالى .

---

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٢١ ص ٢٣٣) .

(١٢)

ذكر أخبار يحيى بن مَرْزوق المكّىّ

هو أبو عثمان يحيى بن مرزوق المكىّ، مولى بنى أميّة، وكان يكتُم ذلك لخدمته للخلفاء من بنى العبّاس؛ وكان إذا سُئِل عن ولائه آنتمى الى قريش، ولم يذكر البطنَ الذى ولاؤُه له، ويَستعفِى من يسأله عن ذلك .

قال الأصفهانىّ : ٥

وعُمِّر يحيى المكىّ مائة وعشرين سنة، وأصاب بالغناء مالم يُصِبْه أحدٌ من نظرائه ومات وهو صحيحُ العقل والسمع والبصر . وكان قدِم مع الحجازيّين الذين قدِموا على المهدىّ فى أوّل خلافته فبَقِى بالعراق . وكان آبن جامع و إبراهيم الموصلىّ وفُلَيْح يفزَعون اليه فى الغناء القديم فيأخذونه عنه، ويُعَايِى بعضُهم بعضا بما يأخذونه منه . فإذا خرجت لهم الجوائزُ أَحْذَوْه[(١)] منها و وفّروا نصيبَه . وله صنعة عجيبةٌ نادرة ١٠ متقدِّمة . قال : وله كتاب فى الأغانى ونِسَبِها وأجناسِها كبير جليل مشهور، إلّا أنّه كالمطروح عند الرواة لكثرة تخليطه فى رواياته؛ والعمل على كتاب آبنه أحمد، فإنه صحّح كثيرا ممـا أفسده وأزال ماعرفه من تخاليط أبيه، وحقّق مانسبه من الأغانى الى صانعه . قال : وهو يشتمل على نحو ثلاثة آلاف صوت .

قال أحمد بن سعيد : ١٥

كانت صنعةُ يحيى ثلاثةَ آلاف صوت، منها زُهاءَ ألف صوت لم يُقارِبْه فيها أحدٌ . وسُئِل آبنه أحمد عن صنعة أبيه فقال : الذى صحّ عندى منها ألفُ صوت وثلثمائة صوت، منها مائة وسبعون صوتا، غَلَب[(٢)] فيها على الناس جميعا من تقدّم منهم و[من][(٣)] تأخّر، فلم يَقُم له أحد فيها .

---

(١) أحذاه : أعطاه ممـا أصاب من غنيمة أو جائزة . (٢) فى الأصل : «خطب»، والتصويب عن الأغانى (ج ٦ ص ١٧٨) . (٣) الزيادة عن الأغانى . ٢٠

قال أحمد بن يحيى قال لى إسحاق : يا أبا جعفر لأبيك مائة وسبعون صوتًا من أخذها عنه بمائة وسبعين ألف درهم فهو الرّابح . والله أعلم .

ذكر أخبار أحمد بن يحيى المكىّ المُلقّب بطَنِين[1]

هو أبو جعفر أحمد بن يحيى المكىّ، وكان يُلَقّب طنينا[1]. وهو أحد المحسنين المُبَرِّزين الرّواةِ للغناء المُحْكِمِى الصنعة . كان إسحاقُ يقدّمه ويُؤْثِره ويَشْدُو[2] بذكره ويَجْهَر بتفضيله .

قال أبو الفرج : وكتابُه المجرّد فى الأغانى ونِسَبِها أصلٌ من الأصول المعوّل عليها . قال : وكان مع جودة غنائه وحسنِ صنعته أحدَ الضُّرّاب الموصوفين المتقدّمين .

قال علىّ بن يحيى : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلىّ — وقد جرى ذكر أحمد ابن يحيى المكىّ — : يا أبا محمد لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى مملوكًا كم كان يُساوِى؟ قال : أَخبرك عن ذلك، انصرفتُ ليلةً من دار الواثق فآجتزتُ بدار الحسن بن وهب فدخلتُ اليه فإذا أحمدُ عنده. فلما قاموا لصلاة العِشاء الآخرةِ قال لى الحسن بن وهب : كم يُساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلت: يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع فغنّى صوتًا، فقال لى الحسن: كم يساوى أحمد لو كان مملوكًا؟ قلتُ : يساوى ثلاثين ألف دينار. ثم تغنّى صوتا آخر، فقلت للحسن: يا أبا علىّ أَضْعِفها. ثم أردتُ الآنصرافَ فقلت لأحمد : غنِّنى

لولا الحياءُ وأنّ السَّتْرَ[3] من خُلُقِى * إذًا قعدتُ إليك الدهرَ لم أَقُمِ

(١) فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « ظنين » بالظاء المعجمة .

(٢) الذى فى الأغانى : « ويشيد » .

(٣) الذى فى الأغانى (ج ١٥ ص ٦٥ طبع بولاق) : « السير » .

أليس عنـدك سكرٌ(١) للتى جعلتْ * ما ٱبيضّ من قادمات الرأس كالحُمَمِ

فغنّاه فأحسن فيه كلّ الإحسان . فلما قمتُ للآنصراف قلتُ : يا أبا علىّ، أضْعِف الجميع . فقال له أحمد : ما هذا الذى أسمعكما تقولانه ولستُ أدرى ما معناه؟ فقال : نحن نَبيعك ونَشتريك منذ الليلة وأنتَ لا تدرى . وقال محمد بن عبد الله بن مالك : سألنى إسحاقُ بن إبراهيم الموصِلىّ يوما : مَنْ بَقِى من المغنّين؟ قلت : وجْهُ القَرْعة ٥ محمد بن عيسى. فقال: صالحٌ كيِّس ؛ ومَنْ أيضا ؟ قلت : أحمـد بن يحيى المكىّ. (١٣٠) قال : بَخٍ بَخٍ ! ذاك المحسنُ المُجْمِل الضارب المغـنّى ، القائمُ بمجلسه لا يُحْوِج أهلَ المجلس الى غيره . وكانت وفاتُه فى أوّل خلافة المستعين .

ذكر أخبار هاشم بن سليمان مولى بنى أميّة

يُكْنَى أبا العباس . وكان موسى الهادى يسمّيه أبا الغريض . قال أبو الفرج : ١٠ وهو حسنُ الصنعة غزيرُها ؛ وفيه يقول الشاعر :

يا وَحْشتى بعـدك يا هاشمُ * غِبتَ فَشَجْوِى بكَ لِى لازِمُ(٢)

اللّهـوُ واللّـذّةُ يا هاشم * ما لم تكن حاضرَهُ مأتَمُ

وقال الأصبهانىّ بسند رفعه إلى هاشم :

أصبح موسى أمير المؤمنين يوما وعنده جماعةٌ فقال : يا هاشمُ غنِّنى : ١٥

* أَبَهارُ قد هيّجتِ لى أوجاعا *

فإن أصبتَ مرادى فيه فلك حاجةٌ مقضية. قال : فغنّيتهُ، وهو :

أَبَهارُ قـد هيّجتِ لى أوجاعا * وتركتِنى عبـدًا لكم مِطْـواعا

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : « شكر » .

(٢) فى الأغانى (ج ١٤ ص ٤٤ طبع بولاق) : « دائم » . ٢٠

بحديثك الحسن الذى لو كُلِّمتْ * وحشُ الفلاة به لجئْنَ سِراعا
وإذا مررتُ على البَهارِ مُنَضَّدًا * فى السوق هيّج لى إليك نِزاعا
والله لو علِم البهارُ بأنها * أضحتْ سميّته لصار ذراعا

فقال : أصبتَ وأحسنتَ ، سَلْ حاجتَك ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، تأمر بأن يُملأ هذا الكانون دراهم — وكان بين يدَيه كانون عظيم — فأمر به فمُلئ فوسِع ثلاثين ألف درهم . فلمّا حصّلتُها قال لى : يا ناقص الهمة، والله لو سألتَ أن أملأه لك دنانير لفعلتُ . فقلت : أَقِلْنى يا أمير المؤمنين . قال : لا سبيلَ الى ذلك ولم يُسْعِدك الجَدّ به . وقد رُوِيتْ هذه الحكايةُ فى موضع آخر ، وذُكِر أنّ الذى غنّاه غيرُ هذا الشعر، وأن الكانون وَسِع ستّ بِدَر، فدفعها اليه .

ذكر أخبار يزيد حَوْراء

هو رجل من أهل المدينة من موالى بنى ليث بن بكر بن عبد مَناة بن كِنانة؛ ويُكْنى أبا خالد . مُغنّ محسنٌ كثيرُ الصنعة، من طبقة ابن جامع و إبراهيم الموصلىّ . وكان ممن قدِم على المهدىّ فى خلافته فغنّاه . وكان حسنَ الصوت حلوَ الشمائل. فحسده إبراهيمُ الموصلىّ على شمائله و إشاراته فى الغناء، فاشترى عدّة جوار وشاركه [فيهنّ] [1]، وقال له : علّمهنّ ، فما رزق الله تعالى من ربح فيهنّ فهو بيننا . وأمرهنّ أن يجعلن وَكْدهنّ [2] أخذَ إشاراته ففعلن ذلك . فكان إبراهيم يأخذها عنهنّ هو وابنُه ويأمرهنّ بتعليم كل من يعرِفنه ذلك حتى شهرها فى الناس، فأبطَل عليه ما كان منفرِدًا به من ذلك .

(١) الزيادة عن الأغانى (ج ٣ ص ٢٥١ طبع دار الكتب المصرية) .
(٢) الوكد : الهم والقصد .

قال عبد الله بن العباس الرَّبيعىّ :

كان يزيد حَوْراء نظيفًا ظريفًا حسنَ الوجه شَكِلًا ، لم يقـدَم علينا من الحجاز أنظفُ منه ولا أشكلُ، وما كنتَ تَشاءُ أن ترى خَصْلةً جميلة لا تَراها فى أحد منهم إلا رأيتَها فيه . وكان يتعصّب لإبراهيم الموصلىّ على ابن جامع ، فكان إبراهيمُ يرفع منه ويُشيع ذكره بالجميل وينبّه على مواضع تقدُّمه [وإحسانه][1]، ويبعث بابنه إسحاق [إليه][1] يأخذ عنه .

وحكى أبو الفرج بسَنَدٍ رفعه الى يزيد حوراء قال :

كلّمنى أبو العتاهية فى أن أكلِّم المهدى فى عُتْبَة؛ فقلت : إن الكلام لا يُمْكننى، ولكن قل شعرًا أُغنّيه به؛ فقال :

نفسى بشىء من الدنيا معلّقةٌ * اللهُ والقـائمُ المهـدىُّ يكفيها
إنى لَأيأَسُ منهـا ثم يُطْمِعُنِى * فيها احتقارُك للدّنيا وما فيها

قال : فعمِلتُ فيـه لحنًا وغنّيتُـه . فقال : ما هـذا ؟ فأخبرتُه خبر أبى العتاهية؛ فقال : ننظرُ فيما سأل؛ فأخبرتُ بذلك أبا العتاهية . ثم مضى شهر فجاءنى فقال : هل حدَث خبرٌ ؟ قلت لا . قال : فاذْكُرْنى للمهدىّ . فقلتُ : إن أحببتَ ذلك فقل شعرا تحرّكه به وتذكّره وعدَه حتى أغنّيه به؛ فقال :

ليتَ شعرى ما عندكم ليتَ شعرى * فلقـــد أُخِّر الجـــوابُ لأَمْر
ما جوابٌ أولى بشكل جميلٍ * مِن جـــوابٍ يُرَدّ مِن بعـــد شهر

قال يزيد : فغنّيت المهدىّ، فقال : علىّ بعتبة فأُحضرت؛ فقال : إن أبا العتاهية كلّمنِى فيك، فما تقولين ولك عندى وله ما تُحِبّان ممـا [لا][1] تبلُغه أمانيكما ؟ فقالت :

(١) الزيادة عن الأغانى .

قد علم أميرُ المؤمنين ما أوجب الله علىّ من حق مولاتى، وأريد أن أذكر هذا لها .
قال : فآفعلى . قال : فأعلمتُ أبا العتاهية . ومضت أيام فسألنى معاودةَ المهدىّ؛
فقلتُ : قد عرفتَ الطريق، فقل ما شئتَ حتى أغنّيه به؛ فقال :

أَشْرَبتُ قلبى من رجائك ماله * عَنَقٌ يَخُبّ إليك بى ورَسِيم
وأَمّلتُ نحو سماء جُودك ناظرى * أرْعَى مخايِلَ بَرْقِها(١) وأَشِيمُ
ولقد تنسّمتُ الرّياحَ لحاجتى * فإذا لها من راحتيك نَسِيم
ولربما آستيأستُ ثم أقول لا * إن الذى وعدَ النّجاحَ كريم

قال يزيد : فغنّيتُه الشعر، فقال : علىّ بعتبة فجاءت؛ فقال : ما صنعت؟ فقالت :
ذكرتُ ذلك لمولاتى فكرِهَتْه وأبتْ أن تفعل، فليفعل أميرُ المؤمنين ما يريد . قال:
ما كنتُ لأفعل شيئا تكرهه . فأعلمتُ أبا العتاهية بذلك، فقال :

قطّعتُ منك حبائلَ الآمالِ * وأرَحْتُ من حِلّ ومن تَرْحالِ
ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتِلى * وبناتُ وعدك يَعْتَلِجن ببالى
ولئن طَمِعتُ لربّ بَرْقةِ خُلّبٍ * مالت بذى طمع ولَمْعةِ آلِ

وقد حكى أبو الفرج أيضا هذه الحكايةَ وآختصرها، ولم يذكر الأبيات التى منها

* أشرَبْتُ قلبى من رجائك ماله *

إلا أنّه غيّر قولَه : "أشربت قلبى" بقوله : "أعلمتُ نفسى من رجائك" . وقال :
فصنع فيه يزيد لحنًا وغنّاه المهدىّ . [illegible] عا بأبى العتاهية وقال له : أما عُتْبةُ فلا سبيلَ
إليها، لأن مولاتها قد مَنعتْ منها، ولكن هذه خمسون ألف درهم فآشْتَرِ ببعضها خيرًا
من عتبة فحُمِلت إليه، فأخذها وآن[illegible] .

---

(١) كذا فى الأغانى . وفى الأصل . [illegible] .

وحُكى عن حماد بن إسحاق قال :

قال يزيد حوراء : كنتُ أجلس بالمدينــة على أبواب قريش، وكانت تمرّ بى جاريةٌ تختلف الى الزرقاء تتعلّم منهـا الغناء . فقلت لها يوما : افهمى قولى وردّى جوابى وكونى عند ظنّى؛ فقالت : هاتِ ما عندك . فقلتُ : بالله ما ٱسمك؟ فقالت : مُمنّعة . فأطرقتُ طِيَرةً من ٱسمها مع طمعى فيهـا، ثم قلتُ : بل باذلةٌ ومبـذولةٌ إن شاء الله فٱسمعى منّى . فقالت وهى تتبسّم : إن كان عندك شىء فقُلْ . فقلت :

لِيَهْنِـك منّى أنّنى لستُ مُفْشِيًا * هواك إلى غيرى ولو مُتّ من كربى

ولا مانحًا خَلْقًا ســواك محبّـةً * ولا قائلًا ما عشتُ من حبكم حسبى

فنظـرت إلىّ طويلا ثم قالت : أَنْشُـدُك الله ، أعن فَرْط محبّـة أم ٱهتياج غُلْمة [تكلمت](١) ؟ فقلتُ : لا والله إلا عن فرط محبّة . فقالت :

فوالله ربّ الناس لا خُنْتُك الهوى * ولا زلتَ مخصوصَ المحبّة من قلبى

فثِقْ بى فإنى قــد وَثِقتُ ولا تكن * على غير ما أظهرتَ لى يا أخا الحبّ

قال : فوالله لكأنمـا أضرمتْ فى قلبى نارًا . فكانت تلقانى فى الطريق الذى كانت تسلُكه فتحدّثنى فأتفرج بهـا ؛ ثم ٱشتراها بعضُ أولاد الخلفاء، وكانت تكاتبنى وتلاطفنى دهرا طويلا .

ذكر أخبار فُلَيح بن أبى العَوْراء

هو رجل من أهل مكّة مولى لبنى مخزوم، وهو أحد مُغَنّى الدولة العبّاسية ؛ له محلٌّ كبير من صناعته، وهو أحد الثلاثة الذين ٱختاروا المـائة الصوت للرشيد التى بنى أبو الفرج الأصفهانى كتابَه المترجمَ بالأغانى عليهـا . قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ما سمعتُ أحسنَ من غناء فليح وٱبن جامع . وكان المهدى لا يُغَنّيه مُغَنٍّ

(١) الزيادة عن الأغانى .

إلا من وراء الستارة إلا فليح فإن الستارة كانت تُرفع بينه وبين المهدىّ . وهو أوّل مُغَنّ نظر وجهَ المهدىّ .

وروى أبو الفرج الأصفهانىّ عن يوسف بن إبراهيم عن إبراهيم بن المهدىّ قال : كتب إلىّ جعفر بن يحيى وأنا عامل الرشيد على [جُنْد](١) دمشق : قد قدم علينا فُلَيْح بن أبى العوراء ، فأفسد علينا بأهزاجه وخفيفه كلَّ غناءٍ سمعناه قبله . وأنا ٥ محتال لك فى تخليصه إليك لتسمع منه كما أسمعنا . فلم ألبث أن ورد علىّ فليحٌ بكتاب الرشيد يأمر له بثلاثة آلاف دينار؛ فورد علىّ منه رجلٌ أذكرنى لقاؤه الناسَ وأخبرنى أنه قد ناهز المائة . فأقام عندى ثلاث سنين، وأخذ جوارى عنه كلَّ ما كان معه من الغناء، وآنتشر بعضُ غنائه بدمشق .

١٠ وروى أيضا بسنده إلى أحمد بن يحيى المكىّ عن فُلَيْح بن أبى العوراء قال : كان بالمدينة فتًى يعشق آبنةَ عمٍّ له ، فوعدتْه أنها تزوره؛ وشكا إلىّ أنها تأتيه ولا شىء عنده؛ فأعطيتُه دينارا للنفقة . فلما زارتْه قالت له : من يُلْهينا ؟ قال : صديقٌ لى ، ووصفنى لها؛ ودعانى فأتيتُه ؛ وكان أوّل ما غنّيتُه :

مِن الخَفِراتِ لم تَفْضَحْ أخاها * ولم تَرْفَعْ لوالدها شَنارا

١٥ فقامت إلى ثوبها فلبستْه لتنصرف . فتعلّق بها وجَهد كلَّ الجهد فى أن تُقيم فلم تفعل وآنصرفتْ . فأقبل يلومنى فى أن غنّيتُها ذلك الصوتَ . فقلت : والله ما هو شىءٌ آعتمدتُ به مساءَتك ولكنه شىء آتفق . قال : فلم نَبْرَح حتى عاد رسولُها ومعه صُرّة فيها ألف دينار، فدفعها إلى الفتى وقال : تقول لك آبنةُ عمّك : هذا مَهْرى ، فادفعه إلى أبى وآخطُبْنى ، ففعل وتزوّجها .

٢٠ (١) الزيادة عن الأغانى (ج ٤ ص ٣٦٥ طبع دار الكتب المصرية) . والجند : المدينة وخص به أبو عبيدة مدن الشام . وأجناد الشام خمس كور : دمشق وحمص وقنسرين والأردن وفلسطين .

ذكر أخبار إبراهيم الموصلىّ عفا الله عنه

هو إبراهيم بن مَاهان بن ميمون، وأصلُه من فارس، ومولدُه فى سنة خمس وعشرين ومائة بالكوفة، ووفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة . قالوا : ومات ماهان وترك إبراهيمَ صغيراً، فكَفَلَه آلُ خزيمة بن خازم، فكان ولاؤه لبنى تميم . وكان السببُ فى نسبه إلى المَوْصِل أنه لما كبِر وآشتدّ وأدرك صَحِب الفِتيانَ وآشتهى الغناءَ وطلبَه، فاشتدّ أخوالُه بنو عبد الله بن دارم عليه فى ذلك و بلغوا منه، فهرب منهم إلى الموصِل فأقام بها سنة ؛ فلما رَجع إلى الكوفة قال له إخوانُه من الفتيان : مَرْحبًا بالفتى الموصلىّ، فغلب عليه[1] ثم آرتحل إلى الرّىّ فى طلب الغناء، فطال مقامه هناك، وأخذ الغناء الفارسى والعربى .

قال إسحاق : حدّثنى أبى قال :

أوّل شىء أُعطِيته بالغناء أنى كنت بالرىّ أنادِم أهلها بالسويّة لا أرزؤهم شيئا ولا أُنفِق إلا من بقيـــة مال كان معى . فمرّ بنا خادم أبو جعفر المنصور إلى بعض عُمّاله برسالة، فسمعنى عند رجل من أهل الرّىّ فشُغِف بى وخلَع علىّ دُوّاجَ[2] سَمُّورٍ له قيمة، ومضى بالرّسالة فرجع وقد وصله العامل بسبعة آلاف درهم وكُسوةٍ كثيرة، فجاءنى إلى منزلى الذى كنت أسكنه، فأقام عنـــدى ثلاثة أيام ووهب لى نصف الكسوة [التى معه[3]] وألفى درهم . وكان ذلك أوّل مالٍ كسبته من الغناء . فقلت : والله لا أنفق هذه الدراهم إلّا على الصناعة التى أفادتْنيها . ووُصِف لى رجلٌ بالأُبُلّة[4]

(١) فى الأغانى (ج ٥ ص ١٥٦ طبع دار الكتب المصرية) : « فلقب به » .

(٢) ضرب من الثياب . والسمور : دابة معروفة تسوّى من جلودها فراء غالية الأثمان .

(٣) الزيادة عن الأغانى .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى فى زاوية الخليج الذى يدخل الى مدينة البصرة .

اسمه : "جوانويه"[1] وكان حاذقا، فخرجت إليه، وصحبت قتيانها وأخذت عنهم وغنّيتهم فشُغفوا بى .

قال إبراهيم : ولما أتيت "جوانويه" لم أصادفه فى منزله فأقمت حتى جاء. فلما رآنى آحتشمنى وكان مجوسيا ؛ فأخبرته بصناعتى والحال التى قصدته فيها ؛ فرحّب بى وأفرد لى جَناحًا فى داره ووكّل بى جاريةً[2]، فقدّمتْ لى ما أحتاج إليه . فلما كان العِشاء عاد إلى منزله ومعه جماعة من الفرس ممن يغنّى ؛ فنزلت إليه فجلسنا وأخذوا فى شأنهم وضربوا وغنّوا ؛ فلم أجِدْ فى غناء أحد منهم فائدة؛ وبلغت النَّوْبة إلىّ فضربتُ وغنّيت ؛ فقاموا جميعا إلىّ فقبّلوا رأسى وقالوا : سَخِرتَ بنا، نحن إلى تعليمك إيّانا أحوج منك إلينا . فأقمت على تلك الحال أياما حتى بلغ [محمد بن][3] سليمان بن علىّ خبرى، فوجّه إلىّ فأحضرنى وأمرنى بملازمته . فقلتُ : أيها الأمير، لستُ أتكسّب بهذه الصناعة وإنما ألتذّ بالغناء فلذلك تعلّمته، وأريد العَوْد الى الكوفة ؛ فلم أنتفِع بذلك عنده وأخذ بملازمته وسألنى : من أين أنا ؟ فآنتسبتُ الى المَوْصل، فلزمتنى وعُرِفتُ بها . ولم أزل عنده مُكرَّمًا، حتى قدِم عليه خادمُ المهدىّ . فلما رآنى عنده قال له : أميرُ المؤمنين أحوجُ إلى هــذا منك، فدافَعه عنّى . فلما قدِم الخادمُ على المهدىّ سأله عمّا رأى فى طريقه ومَقْصِده، فأخبره بما رأى، حتى آنتهى إلى ذكرى فوصَفَنى له . فأمره المهدىّ بالرّجوع وإشخاصى إليه، فجاء وأشخصنى إلى المهدىّ، وحَظِيتُ عنده وقدّمنى .

قال : وما سمِــع المهدىّ قبلى أحدًا من المُغَنّين سوى فُلَيْح بن أبى العوراء وسِياط ؛ فإن الفضل بن الربيع وصفهما له .

(١) جوانويه : مغن مجوسى . (٢) فى الأغانى « أخته » .
(٣) الزيادة عن الأغانى .

قال : وكان المهدىّ لا يَشرب ، فأرادنى على ملازمته وترك الشُّرب، فأبيتُ عليه .وكنتُ أغيب عنه الأيام، فاذا جئتُه جئتُه مُنْتَشيا ؛ فغاظَه ذلك منّى وضرَبنى وحبَسنى؛ فحَـذِقت القراءةَ والكتابة فى الحبس . ثم دعانى يوما فعاتبنى على شربى فى منازل الناس والتبذّل معهم . فقلت : يا أميرالمؤمنين، إنما تعلّمتُ[1] هذه الصناعةَ للذّتى وعِشرةِ إخوانى ولو أمكننى تركُها تركتُها وجميعَ ما أنا فيه لله تعالى . فغضب غضبًا شديدا وقال : لا تَدْخل على موسى وهارون، فوالله لئن دخلتَ عليهما لأفعلنّ وأصنعنّ. فقلت نعم . ثم بلغــه أنّى دخلتُ عليهما وشربتُ معهما وكانا مشتهِرين[2] بالنّبيذ، فضربنى ثلاثمائة سوط وستين سوطا . فقلتُ له وأنا أُضْرَب : إن جُرمى ليس من الأجرام التى يَحِلّ بها سفك دمى ، ووالله لو كان سرّ ٱبنيـك تحت قدمىّ ما رفعتُهما عنه ولو قُطِعتا، ولو فعلتُ ذلك كنت فى حالة أبانٍ العبدِ[3] الساعى . فلما قلتُ ذلك ضربنى بالسيف فى جفنه[4] فشجّنى، فسقطت مَغْشيًّا علىّ . وقال لعبد الله ٱبن مالك : خُذْه إليك وٱجعله فى مثل القبر . فدعا عبدُ الله بكبش فذبَحه وسلَخه وألبَسنى جلدَه ليسكن الضّربُ عنى، ودَفعنى الى خادم له يقال له أبو عثمان سـعيد التركىّ، فجعلنى فى قبر ووكّل بى جارية . فتأذّيت بنزّ كان فى القبر وبَقّ[5] . فقلت للجارية : أَصْلِحى لى مِجْمرةً وكُنْدُرا[6] ليذهب عنى هــذا البَقُّ ففعلتْ. فلمـا دخّنت أظلم القبرُ وكادت نفسى تذهب، ثم خفّ ذلك وزال البَقّ، وإذا حيّتان مُقْبِلتان نحوى من شَقّ فى القـبر تَدُوران حولى، فهمَمْتُ أن آخُذَ واحدةً بيدى اليمنى

---

(١) فى الأصل « فعلت » . والتصويب عن الأغانى (ج ٥ ص ١٦٠ طبع دار الكتب المصرية) .

(٢) فى الأغانى : «مستهتَرين» . (٣) هو العبد الذى سعى به وبموسى وهارون إلى المهدى وحدثه بما كانوا فيه . (٤) جفن السيف : غمده .

(٥) المراد بالبق هنا ما يسميه أهل مصر الناموس، وأهل العراق يسمونه البق ، ويطلقون الناموس على ما يسميه أهل مصر بالبق . (٦) الكندر : اللبان .

والأخرى بيدى اليسرى، فإمّا علىّ وإمّا لى، ثم كُفيتُهما، فدخلنا فى الثقْب الذى خرجنا منه . فمكثتُ فى ذلك القبر ما شاء الله، ثم أُخرِجتُ منه . وأحْلَفنى المهدىّ بالطّلاق والعِتاق وكلّ يمينٍ لا فسحةَ لى فيها ألّا أدخلَ على آبنيه موسى وهارون أبدا ولا أغنّيهما، وخلّى سبيلى . قال إبراهيم : وقلتُ وأنا فى الحبس :

٥ ألَا طال ليلى أُراعِى النجوم * أُعالجِ فى السّاقِ كَبْلًا ثقيلا

بدارِ الهوانِ وشرّ الديارِ * أسامُ بها الخسْفَ صبرًا جميلا

كثيرُ الأخلّاء عند الرخاء * فلما حُبِستُ أراهم قليلا

لطول بلائىَ ملَّ الصديق * فلا يأمنَنّ خليلٌ خليلا

قال : فلمّا ولِى موسى الهادى الخلافةَ آستتر إبراهيم منه ولم يَظْهر له بسبب

١٠ الأيمان التى حلَف بها للمهدىّ . فلم يزل يطلبه حتى أُتِى به فلما عاينه قال : يا سيّدى، [فارقتُ][1] أمَّ ولدى أعزّ الخلق علىّ؛ ثم غنّاه :

يآبنَ خيرِ الملوك لا تتركَنّى * غَرَضًا للعدوّ يرْمى حِبالِى

فلقد فى هواك فارقتُ أهلى * ثم عرّضتُ مهجتى للزوال

ولقد عِفْتُ فى هواك حياتى * وتغرّبت بين أهلى ومالى

١٥ قال إسحاق بن إبراهيم : فموّله الهادى وخوّله؛ وبحسْبِك أنه أخذ منه مائة ألف وخمسين ألف دينار فى يوم واحد، ولو عاش لنا لبنينا حيطانَ دُورنا بالذهب والفضّة .

قال حمّاد بن إسحاق قال لى أبى :

والله ما رأيتُ أكمَل مروءةً من جدّك، وكان له طعام يُعَدّ أبدًا فى كل وقت.

٢٠ فقلت لأبى : كيف كان يُمكنه ذلك ؟ قال : كان له فى كل يوم ثلاثُ شِياهٍ،

(١) الزيادة عن الأغانى .

واحدةٌ مقطّعة فى القــدور، وأخرى مسلوخةٌ معلّقة، وأخرى قائمة فى المطبخ؛ فإذا أتاه قوم طَعِموا ممّا فى القدور، فإذا فرغت القــدورُ قُطِّعت الشاةُ المعلّقةُ ووُضِعَتْ فى القدور وذُبِحت القائمة وأُتِى بأخرى فأُقيمت فى المطبخ . وكانت وظيفتُه لطعامه وطِيبــه وما يتّخــذ له فى كل شهر ثلاثين ألف درهم ســوى ما كان يجرى وسوى كُسوته . ولقد كان مرّةً عندنا من الجوارى الودائع لإخوانه ثمانون جارية، ما فيهنّ واحدة إلا ويُجرِى عليها من الطعام والكُسوة والطِّيب مثل ما يُجرِى لأخصّ جواريه، فإذا رُدّت الواحدةُ الى مولاها وصلَها وكساها . ومات وما فى ملكه إلا ثلاثة آلاف دينار وعليه من الدّين سبعمائة دينار قُضِيَتْ منها .

وروى عن إسحاق بن إبراهيم قال :

اشترى الرشيد من أبى جاريةً بستة وثلاثين ألف دينار، فأقامت عنده ليلة ثم أرسل الى الفضل بن الرّبيع وقال له : إنا اشترينا هذه الجاريةَ من إبراهيم ونحن نحسَب أنها على صفة وليست كما ظنّنا وما قَرِبْتُها، وقد ثَقُلَ علىّ الثمنُ و بينك و بينه ما بينكما؛ فاذهب اليه فسَله أن يحُطّنا من ثمنها ستة آلاف دينار . قال : فأتاه الفضل، فخرج اليه وتلقّاه ؛ فقال له : دعنى من هذه الكرامة التى لا مَئُونة فيها، قــد جئتُك فى أمر، ثم أخبره الخبر . فقال له إبراهيم : إنما أراد أن يبلُوَ قدرَكَ عندى . قال : هو ذاكَ؟ قال : فمالى فى المساكين صدقةٌ إن لم أُضْعِفْه لك، قد حططتُك آثنى عشرَ ألف دينار . فرجع الفضل اليه بالخبر؛ فقال : ويحك! احمل اليه المــالَ بجملته، فما رأيت سُوقةً[(1)] أنبل منه نفسا . قال إسحاق : وكنتُ قد أتيت أبى فقلت : ما كان لحطيطة هذا المــال معنًى ولا هو قليل يُتغافل عنه، قال لى : يا أحمقُ، أنا أعرف الناس به، والله لو أخذتُ المــالَ منه كَمَلًا ما أخذته إلا وهو كاره ولَحَقَدَ ذلك، وكنت أكون

(1) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أمثل» .

عنده صغيرَ القدر ، وقد مَنَنتُ عليه وعلى الفضل وآنبسطتْ نفسُه وعَظُمَ قدرى عنده ، وإنما آشتريتُ الجاريةَ بأربعين ألف درهم وقد أخذت بها أربعة وعشرين ألف دينار . فلما حُمِلَ اليه المـالُ بكماله دعانى وقال : كيف رأيتَ يا إسحاقُ ، مَنِ البصيرُ أنا أم أنتَ؟ (١) فقلت : أنت ، جعلنى الله فداك . قال : وإبراهيمُ أوّل من علّم (١٣٣)
٥ الجوارى المثمّنات الغناء فإنه بلغ بالقيان كلّ مبلغ ورفع من أقدارهنّ .

ومن أخباره مع الرشيد ما رُوى عن إسحاق قال حدّثنى أبى قال :

إنّ الرشيد غضب علىّ فقيّدنى وحبسنى بالرّقّة وجلس للشرب يوما فى مجلس قد زينه وحسّنه . فقال لعيسى بن جعفر : هل لمجلسنا عيبٌ؟ قال : نعم ، غيبةُ إبراهيم الموصلىّ عنه . فأمره باحضارى ، فأحضِرتُ فى قيودى ، فَفُكّت عنّى بين يديه ،
١٠ وأمرهم فناولونى عودا ، ثم قال : غنّ يا إبراهيم ، فغنّيته :

تَضَوَّعَ مِسكًا بطنُ نَعمانَ أن مَشتْ * بـه زينبٌ فى نسـوةٍ عَطِـراتِ

فاستعاده وشرب وطرِب وقال : هنأْتنى وسأهنئك بالصلة ، وقد وهبت لك الهنىء والمرىء (٢) ، فانصرفتُ ، فلما أصبحتُ عُوِّضتُ منهما مائتى ألف درهم .

قال إبراهيم : دخلت على موسى الهـادى فقال لى : يا إبراهيم ، غنّ من الغناء
١٥ ما ألَذُّ وأطرَب عليه ولك حكمُكَ . فقلت : يا أميرالمؤمنين ، إن لم يقابلنى زُحَلُ ببرده رجوتُ ذلك ، فغنّيته :

وإنى لَتعـرُونى لذِكراكِ هِزة * كما آنتفض العُصفورُ بلّله القطرُ

---

(١) فى الأصل «أو» .

(٢) الهنىء والمرىء : نهران بازاء الرقة والرافقة حفرهما هشام بن عبد الملك وأحدث فيهما «وواسط
٢٠ الرقة» . يريد أنه أقطعه ضيعتهما (أنظر معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩٩٤ طبع أوروبا) .

فضرب بيده إلى جيب دُرّاعته[1] فخطّه ذراعا؛ ثم قال: أحسنتَ والله! زدنى؛ فغنّيتُ:

فيا حُبّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليـلةٍ * ويا سَلوةَ الأيام مَوعِدُكِ الحشرُ

فضرب بيـده الى دُرّاعتـه فخطها ذراعا آخر وقال: زدنى ويلك! أحسنتَ والله ووجب حكمك؛ فغنّيتُ:

هجرتُكِ حتى قيل ما يعرف الهوى * وزُرتُكِ حتى قيل ليس له صبرُ ٥

فرفع صوته وقال: أحسنت والله! لله أبوك! هات ما تريد. فقلت: يا سيّدى عَيْن مروان بالمدينـة. فدارت عيناه فى رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان وقال: يآبن الخناء! أردت أن تَشْهَرنى بهذا المجلس فيقول الناس: أطرب به فحكم عليه فتجعلنى سَمَرًا وحديثا! يا إبراهيم الحرّانى[2]، خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت مال الخاصة، فإن أخذ كلَّ ما فيه فخَلِّه وإياه. فدخلت فأخذت خمسين ألف دينار. وهـذا الشعر ١٠ لأبى صخر الهذلىّ، وأوّلُه:

عَجِبتُ لسـعى الدّهر بينى وبينهـا * فلمـا آنقضى ما بيننا سَكَن الدّهْرُ

فيا حبّهـا زِدْنى جَوًى كلّ ليـلةٍ * ويا سَـلْوةَ الأيام مَوْعِدُكِ الحشرُ

ويا هجرَ ليلى قـد بلغتَ بىَ المَـدَى[3] * وزدتَ على ما ليس يبلغـه الهجرُ

وإنى لتعرونى لذكـراكِ هِزّةٌ * كما آنتفض العصفورُ بلّله القطـرُ ١٥

هجرتُكِ حتى قيل لا يعرفُ الهـوى * وزرتُكِ حتى قيل ليس له صـبرُ

---

(١) الدراعة: جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف.

(٢) فى نسخة من الأصـل: «الجدانى». وفى أخرى: «الحدانى» والتصويب عن الأغانى. وهو من ندماء الهـادى وكان قيما على خزائن الأموال فى أيامه.

(٣) ورد هذا الشطر هكذا فى الأغانى وأمالى القالى (ج ١ ص ١٥٠ طبع دار الكتب المصرية). ٢٠ وفى الأصل: * وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر *

أمَا والذى أبكى وأضحك والذى * أمات وأحيا والذى أمره الأمرُ
لقد تركتنى أحسُدُ الوحشَ أن أرَى * أليفَين منها لا يروعُهما الذُّعْرُ

ذكر نبذة من أخبار إبراهيم الموصلى مع البرامكة رحمهم الله تعالى

كان لإبراهيم الموصلى مع البرامكة أخبار مستحسنة، سنُورد منها طرفا . منها
٥ ما حكى عن مُخَارِق قال :

أذِن لنا أمير المؤمنين الرشيدُ أن نُقيمَ فى منازلنا ثلاثة أيام وأعلمنا أنه يشتغل فيها مع الحُرَم . فمضى الجلساء أجمعون الى منازلهم وقد أصحبت السماء مُتَغَيِّمةً تطش طشيشا خفيفا . فقلت : والله لأذهبنّ الى أستاذى إبراهيم فاعرف خبره ثم أعود، وأمرتُ مَنْ عندى أن يسوّوا لنا مجلسا الى وقت رجوعى . فجئتُ الى إبراهيم،
١٠ فدخلت اليه، فإذا هو جالس فى رِواق له والستارةُ منصوبةٌ والجوارى خلفها؛ فدخلت أترنّم ببعض الأصوات وقلت له : ما بالُ السّتارةِ لست أسمع من ورائها صوتا؟ فقال : اقعد ويحك! إنى أصبحت فجاءنى خبرُ ضَيعةٍ تُجاوِرنى قد والله طلبتها زمانا وتمنّيتُها ولم أملكها، وقد أُعطى بها مائةَ ألف درهم . فقلت له : ما يمنعك منها؟ فوالله لقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال وأكثر . قال : صدقت، ولكن لستُ
١٥ أطيبُ نفسا بأن أُخرِجَ هذا المال . فقلت : فمن يُعطيك الساعةَ مائة ألف درهم؟ قال[1] : والله ما أطمع فى ذلك من الرشيد، فكيف بمن دونه! ثم قال : اجلس، خذ هذا الصوت . ثم نَقَر بقضيب على الدّواة وألقى علىّ هذا الصوتَ :

نام الخليّونَ من همٍّ ومن سَقَمِ[2] * وبِتُّ من كثرة الأحزان لم أنَمِ

(١) كلمة «قال» غير موجودة فى الأغانى، وسياق كلامه أن ما بعدها من كلام مخارق .
٢٠ (٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «من همى ومن حزنى» .

يا طالبَ الجودِ والمعروف مجتهـداً * اِعْمِدْ ليحيي حليفِ الجود والكرم

قال : فأخذت الصوت وأحكمتُـه . ثم قال لى : آنصرف الى الوزير يحيي بن خالد فإنك تجد الناس على بابه قبل أن يُفتح البابُ، ثم تجد الباب قد فُتح ولم يجلس بعدُ، فآستأذِنْ عليـه قبل أن يصل اليه أحدٌ، فإنه يُنكر مجيئكَ ويقول : مِن أين أقبلتَ فى هذا الوقت؟ فحدِّثه بقصدك إيّاى وما ألقيتُ إليك من خبر الضيعة وأعلمه أنى قد صنعت هذا الصوت وأعجبنى ولم أر أحداً يستحقه إلا جاريته فلانة، وأنى ألقيتُه عليك [حتى أحكمته](1) لتطرحه عليها؛ فسيدعوها ويأمر بالستارة فتُنصبُ ويوضع لها كرسىّ ويقول لك : اِطْرَحْه عليها بحضرتى؛ فآفعل وأْتنى بما يكون بعد ذلك من الخبر . قال مخارق : فجئت الى باب يحيي بن خالد فوجدته كما وصف . وسألنى فأعلمته بما أمرنى به؛ ففعل كل شىء قاله لى إبراهيمُ وأحضر الجارية فألقيتُه عليها . ثم قال لى : تُقيم عندنا يا أبا المهنّأ أو تنصرف؟ فقلت : بل أنصرف، أطال الله بقاءك، فقد علمتَ ما أُذِنَ لنا فيـه . فقال يا غلام، اِحْمِل مع أبى المهنّأ عشرة آلاف درهم واحمل الى أبى إسحاق مائة ألف درهم ثمنَ هذه الضيعة . فحملت عشرة الآلاف معى، وأتيتُ منزلى وقلت : أُسَرُّ يومى هـذا وأُسَرُّ مَنْ عندى . ومضى الرسول بالمـال الى إبراهيم؛ فدخلتُ منزلى ونثرتُ على مَنْ عندى دراهم من تلك البَدْرة وتوسّدتُها وأكلتُ وشربت وطرِبت وسُررتُ يومى كلّه . فلمـا أصبحت قلت : والله لآتينّ أستاذى ولأعرفنّ خبره؛ فأتيته فوجدته كهيئته بالأمس ملى مثـل ما كان عليـه، فترنّمت وطرِبت فـلم يتلقَّ ذلك بمـا يجب؛ فقلت : ما الخـبر؟ ألم يأتك المـال بالأمس؟! فقال : بلى، فما كان خبرك أمس؟ فأخبرتُه بما كان وقلت : ما تنتظر؟ فقال : ارفع السِّجف، فرفعتُه فإذا عشر بِدَر؛ فقلت : فأىّ شىء بقى عليك فى أمر

(1) الزيادة عن الأغانى .

الضيعة ؟ فقال : ويحك ! ما هو والله إلا أن دخلتُ منزلى حتى شَحَحتُ عليها وصارت مثل ماحويتُ قديما . فقلت : سبحان الله! فتصنع ماذا؟ قال : قم حتى ألقِيَ عليك صوتا صنعتُه يفوق ذاك . فقمت فجلست بين يديه، فألقى علىّ :

ويفــرَحُ بالمولود من آل بَرْمَكٍ * بُغَاةُ النَّدى، والسيفُ والرمحُ والنصلُ

وتنبســطُ الآمالُ فيــه لفضــله * ولا سيما إن كان والدَه الفضــلُ

قال مخارق : فلمـا ألقى علىّ الصوتَ سمعتُ ما لم أسمـع مثلَه قطّ وصَـغُر فى عينى الأوّل، فأحكمته . ثم قال : امض الساعة إلى الفضل بن يحيى، فإنك تجده لم يأذن لأحد بَعْدُ وهو يريد الخلوةَ مع جواريه اليوم؛ فآستأذن عليه وحدِّثه بحديثنا وما كان من أبيه إلينا، وأعلمه أنى صنعتُ هذا الصوت وكان عندى أرفعَ منزلةً من الصوت الأوّل الذى صنعته بالأمس، وأنى ألقيتُه عليك حتى أحكمتَه ووجّهتُ بك قاصدًا لتُلقيَه على فلانة جاريتِـه . فصرتُ إلى باب الفضل فوجدتُ الأمر على ما ذكر، فاستأذنتُ فوصلت إليه؛ وسألنى عن الخبر، فأعلمتُه بخبرى وماوصل إلىّ وإليه من المـال؛ فقال : أخزى الله إبراهيم ! ما أبخله على نفسه ! ثم دعا خادما فقال له : اِضرب السِّتارةَ، فضربها؛ فقال لى : ألقِه . فلما ألقيته وغنّته الجاريةُ لم أُتِمَّه حتى أقبل يجرّ مِطْرَفَه ، ثم قعـد على وِسادة دون السـتارة وقال : أحسنَ واللهِ أستاذُك وأحسنتَ أنتَ يا مخارق . ولم أبرح حتى أحكمَتْه الجاريةُ؛ فسُرَّ بذلك سرورا عظيما وقال : أقِم عنـدى اليومَ . فقلت : يا سيِّدى إنمـا بقى لنا يوم واحد، ولولا أنّى أُحبّ سرورك لم أخرج من منزلى . فقالَ : يا غلام، اِحمل مع أبى المهنّا عشرين ألف درهم وإلى أبى إسحـاق مائتى ألف درهم . فانصرفتُ إلى منزلى بالمـال ، وفتحتُ بَدرةً ونثرت منها على الجوارى وشربت وسُررتُ أنا ومَنْ عنـدى يومنا . فلمـا أصبحت بكّرت إلى إبراهيم أتعرّف خبره وأعرّفه خبرى، فوجدته على الحال

التي كان عليها أوّلا وآخرا، فدخلت أترنّم وأصفّق . فقال لي : أُدْنُ، فقلت :
ما بقي عليك؟ فقال : اجلس وارفع سَجْف هـذا الباب، فرفعته فاذا عشرون بدرة
مع تلك العشر . فقلت : ما تنتظر الآن ؟ فقال : ويحك! ما هو إلا أن حصلتْ
حتى جرت مجرى ما تقدّم . فقلت : والله ما أظن أحدًا نال من هذه الدولة
ما نلتَ ! فلِمَ تبخل على نفسك بشيء تمنيته دهرًا وقد ملّكك الله أضعافه! ثم قال : ٥
اجلس نخذ هذا الصوت . فألقى عليّ صوتا أنساني صوتي الأوّلين وهو :

أفي كلّ يومٍ أنتَ صَبٌّ وليلةٍ * إلى أمّ بكرٍ لا تُفيــق فتقصرُ
أُحِبُّ على الهِجرانِ أكنافَ بيتها * فيالكَ من بيت يُحَبُّ ويُهجَـرُ
إلى جعفر سارتْ بنا كلُّ جَسْرَةٍ * طواها سُراهـا نحـوَه والتهجُّرُ
إلى واسـع للمجتدين فِناؤهُ * تروح عطاياه عليهـم وتَبْـكُرُ ١٠

— وهو شعر مروان بن أبي حفصة يمدح جعفر [بن يحيى](1) — قال مخارق : ثم قال
لي إبراهيم : هل سمعتَ مثلَ هـذا قطّ ؟ فقلتُ : ما سمعتُ قط مثـله ! فلم يزل
يردّده عليّ حتى أخذته، ثم قال لي : امض إلى جعفر فافعـل به كما فعلتَ بأبيـه
وأخيه . قال : فمضيت ففعلت مثل ذلك وأخبرته بما كان وعرضت عليه الصوت؛
فسُرَّ به ودعا خادمًا فأمره أن يضرب السِّتارةَ، وأحضر الجاريةَ وقعد على كرسيّ؛ ١٥
ثم قال : هاتِ يا مخارقُ؛ فألقيتُ الصوتَ عليهـا حتى أخذته؛ فقـال : أحسنتَ
يا مخارق وأحسن أُستاذُك، فهل لك في المُقام عندنا اليوم؟ فقلت : يا سيّدي، هذا
آخرُ أيامنا، وإنما جئتُ لموقع الصوت منّي حتى ألقيته على الجارية . فقال : يا غلام،
احْمِل معه ثلاثين ألف درهم وإلى الموصليّ ثلثمائة ألف درهم . فصرتُ إلى منزلي
بالمـال وأقمتُ ومَن عندي مسرورين نشرب طولَ يومنا ونطرَب . ثم بكّرتُ إلى إبراهيم ٢٠

---

(1) زيادة عن الأغاني .

(١٣٥) فتلقانى قائما، ثم قال لى : أحسنتَ يا مخارق! فقلتُ : ما الخبر؟ قال: اجْلِس فجلستُ، فقال لمن خلف الستارة : خذوا فيما أنتم عليه(١) ثم رفع السَّجفَ فإذا المالُ. فقلت ما خبر الضَّيْعة؟ فأدخل يده تحت مِسْورة(٢) وهو متكئ عليها فقال : هذا صَكُّ الضَّيْعة اشتراها يحيي بن خالد وكتب إلىّ : "قد علمتُ أنك لا تسخو نفسُك بشراء هذه الضَّيْعة من مال يحصُل لك ولو حويتَ الدنيا كلَّها، وقد ابتعتها من مالى". ووجّه إلىّ بصكها، وهذا المال كما ترى، ثم بكى وقال : يا مخارقُ، إذا عاشرتَ فعاشِرْ مثلَ هؤلاء، وإذا خنكرت فَخَنْكِرْ(٣) لمثل هؤلاء، ستمائة ألف، وضيعة بمائة ألف، وستون ألف درهم لك، حصَّلنا ذلك أجمع وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه، متى يُدْرَكُ مثلُ هؤلاء! .

ورُوِى عنه قال : أتيتُ الفضلَ بن يحيي يوما فقلت له : يا أبا العبّاس، جُعلتُ فداك! هَبْ لى دراهم فإن الخليفة قد حبس بِرّه. فقال: ويحك يا أبا إسحاق ماعندى ما أرضاه لك. ثم قال : هاه! إلا أنّ هاهنا خَصْلةً، أتانا رسولُ صاحب اليمن فقضينا حوائجَه، ووجّه [إلينا](٤) بخمسين ألف دينار يَشترى لنا بها محبّتنا. فما فعلتْ ضياءُ جاريتُك؟ قلت : عندى جعلتُ فداك. قال : فهو ذا، أقول لهم يَشْتَروُنها(٥) منك فلا تَنْقُصْها من خمسين ألف دينار، فقبّلتُ رأسه ثم انصرفتُ. فبكّر علىّ رسول صاحب اليمن ومعه صديقٌ له ولى، فقال : جاريتُك فلانة [عندك](٦)؟ قلتُ : عندى. قال : اَعْرِضها علىّ فعرضتُها عليه؛ فقال : بكم؟ فقلت : بخمسين ألف دينار ولا أَنْقُصُ منها دينارا واحدا، وقد أعطانى الفضلُ بن يحيي أمس هذه العطيّة،

(١) فى الأغانى : «فيما أنتم فيه». (٢) المسورة : الوسادة من الجلد.

(٣) كذا فى الأغانى (ج ٥ ص ١٨٤ طبع دار الكتب المصرية) ومعناها : إذا أردت أن تفنى فغن لمثل هؤلاء. وفى الأصل : «وإذا احتكرت فاحتكر» وهو تحريف. (٤) الزيادة عن الأغانى. (٥) كذا فى الأغانى. وفى الأصل : «حتى يشترونها». (٦) الزيادة عن الأغانى.

فقال : هل لك فى ثلاثين ألف دينار مُسَلّمة؟ وكان مشترى الجارية أربعمائة دينار، فلما وقع فى أُذُنى ذِكْرُ ثلاثين ألف دينار أُرْتِجَ علىّ ولَحِقنى زَمعٌ(١)، وأشار علىّ صديق الذى معه بالبيع ،وخِفت والله أن يَحْدُث بالجارية حَدَثٌ أو بى أو بالفضل بن يحيى(٢)، فسلّمتُها وأخذتُ المـال . ثم بكّرت على الفضل، فإذا هو جالسٌ وحده . فلما نظر إلىّ ضَحِك وقال لى: ياضيّق العَطَن والحَوْصلة، حَرَمْتَ نفسك عشرين ألف دينار. ٥
فقلت له : جُعِلتُ فِداك ، دَعْ ذا عنك، فوالله لقد دخلنى شىء أَعْجَز عن وصـفه وخِفتُ أن تَحْدُث بى حادثةٌ أو بالجارية أو بالمشترى أو بك أعاذك الله من كل سوء، فبادرتُ بقَبول الثلاثين ألف دينار. فقال : لاضَيْر، ياغلام جئ بجاريته، فجىء بها، فقال : خُذْ بيدها وآنصرف بارك الله لك فيها، ما أردنا إلّا منفعتك ولم نُرِد الجَارِيةَ. فلمـا نهضتُ قال لى : مكانَك، إنـ رسول صاحب أَرْمينية قد جاءنا فقضينا ١٠ حوائجه ونَفّذْنا كُتُبَه،وقد ذكر أنه قد جاء بثلاثين ألف دينار يشترى لنا بها ما نُحِبّ، فاعْرِض عليـه جاريتَك هـذه ولا تَنْقُصْها من ثلاثين ألف دينار؛ فآنصرفتُ بالجارية. وبكّر علىّ رسولُ صاحب أَرْمينية ومعه صديقٌ لى آخَرُ، فقاولنى بالجارية؛ فقلت : لن أنقصها من ثلاثين ألف دينـار . فقال لى : معى عشرون ألف دينار مُسَلّمَـة خذها بارك الله لك فيها . فدَخَلنى والله مثـلُ الذى دخلنى فى المرّة الأولى ١٥ وخِفْتُ مثلَ خوفى الأوّل، فسلّمتُها وأخذت المـال. وبكّرتُ على الفضل، فإذا هو وحده. فلما رآنى ضحك وضرب برجله ثم قال : ويحك، حَرَمْتَ نفسَك عشرةَ آلاف دينار . فقلتُ : أصلحك الله، خِفْت والله مثلَ ما خِفْتُ فى المرّة الأولى . فقال : لا ضَيرَ، [أَخرِجْ](٣) يا غلام جاريتَه فجىء بها؛ فقال : خُذْها، ما أردناها وما أردنا إلا

(١) كذا فى الأغانى . والزمع : شبه الرعدة تأخذ الانسان . وفى الأصل : « جزع » . ٢٠
(٢) كذا فى الأغانى . وفى الأصل : «أن يحدث بالجارية حدث أو فى أمر الفضل» .
(٣) الزيادة عن الأغانى .

منفعتك . فلما ولّت الجارية صحتُ بها : ارجعى فرجعتْ ؛ فقلت : أُشهدك جُعلتُ فداكَ هى حرّة لوجه الله تعالى ، و إنى قد تزوّجتُها على عشرة آلاف درهم ، كسبتُ لى فى يومين خمسين ألف دينار فما جزاؤها إلا هذا . فقال : وُفّقت إن شاء الله تعالى .

وأخبارُه مع البرامكة كثيرةٌ وصِلاتُهم له وافرةٌ . وقد ذكرنا منها ما فيه غُنْيةٌ عن زيادة . فلنذكر وفاةَ إبراهيم . كانت وفاتُه ببغداد فى سنة ثمان وثمانين ومائة ، ومات فى يوم وفاته العباسُ بن الأحنف الشاعر ، وهُشَيْمةُ الخمّارة ؛ فرُفِع ذلك إلى الرشيد فأمر المأمونَ أن يصلّى عليهم ، فخرج وصلّى عليهم .

قال إسحاق : لمّا مَرِض إبراهيم مرضَ موته ركب الرشيد حمارا ودخل على إبراهيم يعودُه وهو جالس فى الأَبْزَن(١) ، فقال له : كيف انتَ يا إبراهيم؟ فقال : أنا والله يا سيّدى كما قال الشاعر :

سَقِيمٌ ملَّ منه أقربوه * وأسلَمه المُداوِى والحَمِيمُ

فقال الرشيد : إنّا لله ! فخرج ، فما بَعُدَ حتى سَمِعَ الواعيةَ(٢) عليه .

(١) الأبزن مثلثة الأول : حوض يغتسل فيه ، وقد يتخذ من نحاس ، معرب آب زن .

(٢) الواعية : الصراخ على الميت ونعيه .

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى أحد الأصلين الفتوغرافيين :

> هـذا آخر الجزء الرابع من نهـاية الأرب فى فنون الأدب . والحمد لله وحده، وصلى الله على سـيّدنا محمد وآله وصحبه وسـلم؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صورة ما ورد بآخر الجزء الرابع فى الأصل الآخر الفتوغرافى :

> كمل الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب على يد مؤلفه فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرىّ التيمىّ القرشىّ المعروف بالنويرى عفا الله عنهم .

تمّ الجزء الرابع من كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب،

يتلوه إن شاء الله تعالى الجـزء الخامس وأوّله

ذكر أخبار إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ

١٠

مطابع كوستاتسوماس وشركاه
[illegible]
القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
03822595